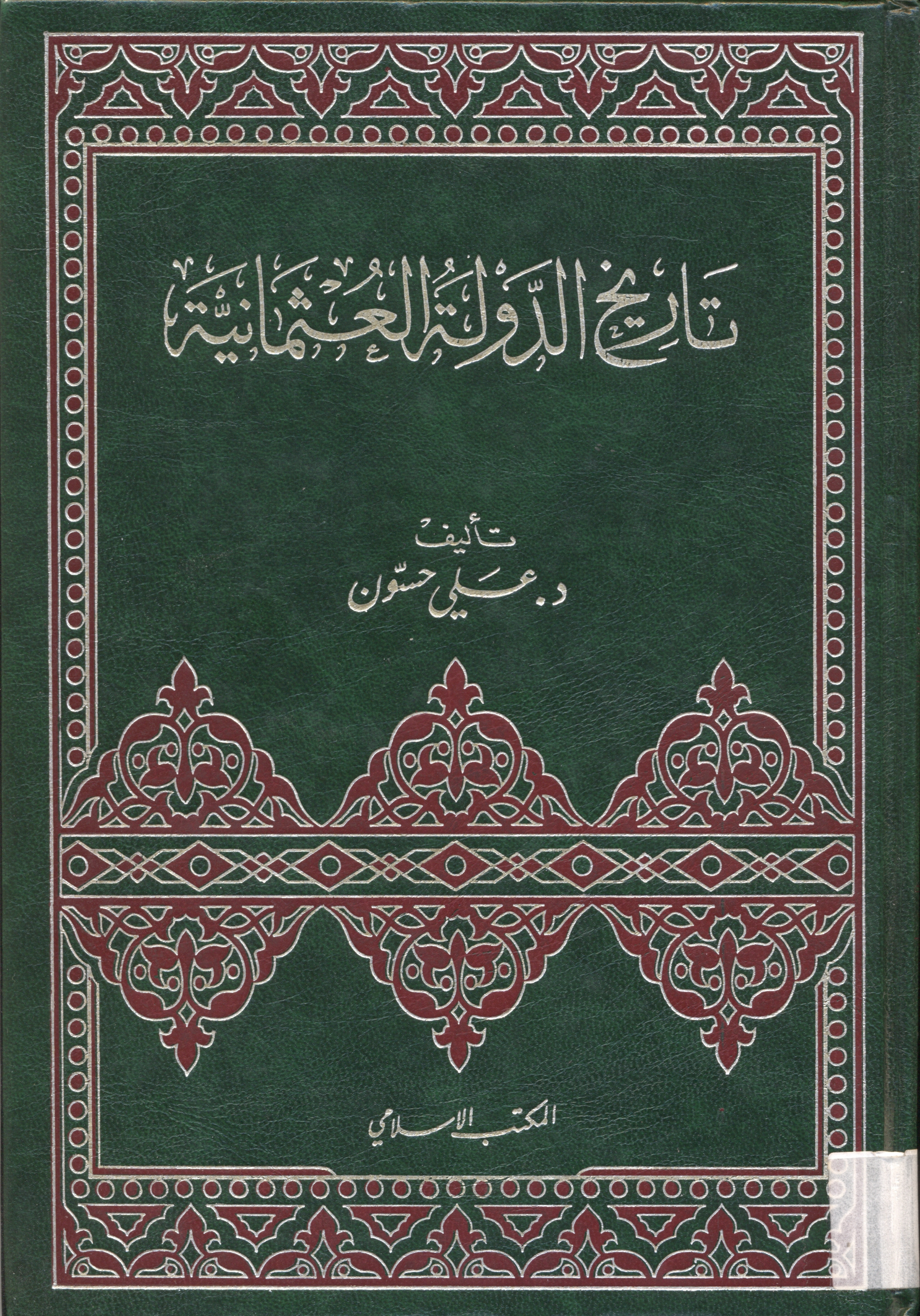


تاريخ الدولة العثمانية

تأليف

د. علي حسّون

المكتب الاسلامي

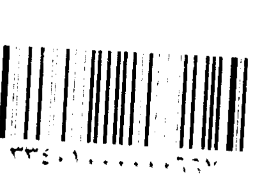
تاريخ الدولة العثمانية

وعلاقاتها الخارجية

تأليف
الدكتور علي حسون

المكتب الإسلامي

الطبعة الثالثة
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م



المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، وصلىّ الله على سيدنا محمَّد وعلى آله الطيِّبين وأصحابه المنتجبين **وبعد:**

فإنِّي أُقدم للقراء الكرام الطبعة الثالثة من كتاب «**تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية**»، يدفعني أمل الوقوف على الحقائق في متابعة البحث بغية الاقتراب أكثر فأكثر من هذه الحقائق. لذلك صدرت هذه الطبعة تحمل بين طيَّات صفحاتها أبحاثاً جديدة وتعليقات لم يتوفر لي الاطّلاع على حقيقتها في الطبعات السابقة، واستعنت ببعض المصادر التركية والوثائق التي نشرت حديثاً، كما أُتيحت لي فرصة زيارة بعض مسارح الأحداث والوقوف عن كثب في محاولة أكثر شمولاً للوصول إلى المعلومة التاريخية الموثقة والصحيحة قدر الإمكان.

ويجد القارئ الكريم تركيزي على بعض الحقائق، ومحاولتي إنصاف بعض سلاطين آل عثمان، من استبدلت حسناتهم سيئات، وإبراز دور الغرب المتآمر على الدولة العثمانية وخاصة الخطر الروسي، وتعرية عملائه وكشف زيفهم في محاولة لرفع الغشاوة عن أعين أُصيبت بالعشاوة، علَّ أبناء أُمتنا يكون لهم عبرة عند الوقوف بين الماضي القريب والحاضر، كما يلاحظ توسعاً في سرد عوامل التقدم والتدهور والانحطاط.

أسأل الله العلي القدير أن يرنا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، ويرنا الباطل باطلاً ويجنِّبنا اتباعه، إنَّه سميع قريب مجيب.

١٦ ربيع الآخر عام ١٤١٤ هـ
٢ تشرين الأول عام ١٩٩٣ م

الدكتور علي حسّون

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصَّلاة وأتم التسليم على سيدنا محمَّد الرسول الأمين سيد الخلق أجمعين.

وبعد، فهذه هي الطبعة الثَّانية من كتاب «تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية» تظهر إلى حيِّز الوجود بتوفيق من الله العليِّ القدير بعد أن نفدت الطبعة الأولى.

وقد امتازت ببعض الإضافات أبرزها: إضافة بحث جديد عن الحضارة العثمانية حاولت من خلاله عرض بعض ما وفَّقني الله إليه من معلومات وحقائق زاهية مشرقة حاول الكثير طمسها وإسدال ستار من الظلام فوقها. كما أجريت الكثير من التنقيحات والشروح والتي فاتني استدراكها في الطبعة الأولى. وبتعاون مع بعض الإخوة والذين أشكر لهم جهودهم المخلصة جزيل الشكر؛ عاد كتاب الدولة العثمانية بوضعه الجديد علّه يفي بالقدر اليسير من حمل الأمانة الملقاة فوق عاتقنا بغية إظهار الحق ودحض الباطل إنَّ الباطل كان زهوقا. ولا يسعني إلاَّ أن أعيد شكري وامتناني لكافة من أسهم في هذا العمل المتواضع لخدمة المسلمين.

أسأل الله تعالى خالص العمل والعون والتأييد إنَّه نعم المولى ونعم النصير.

ذي الحجة عام ١٤٠١ هـ
تشرين الأول عام ١٩٨١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين **وبعد**:

فإنَّ الدولة العثمانية التي تصدَّرت العالم الإسلامي مدة تزيد على خمسة قرون وحكمت أجزاءً واسعة منه وعلى الرغم من كل ما يُقال عنها فإنَّها لعبت دوراً هاماً في هذه الحقبة من التاريخ لا نستطيع أن نتجاوزها كما لا نستطيع أن نُغفل جزءاً منها وخاصة بعد ضم معظم البلاد العربية وآذربيجان والقرم وأرمينيا وغيرها. فتاريخها هو تاريخنا في هذه المدة وقبل ذلك فهو جزء من التاريخ الإسلامي ككل والذي يربطنا معها بالعقيدة، وبالتالي تجمعنا الأخوة الإسلامية وكفى بذلك رابطاً وجامعاً. وإذا كان حكّامها في آخر أيامها قد تبنّوا فكرة القومية، وابتعدوا عن العقيدة لأسباب نتعرض لشرحها في حينه الأمر الذي أورث العداء بين الأخوة الذين جمعتهم رابطة الروح على الرغم من اختلاف ألسنتهم وألوانهم وذلك ما تفعله العصبيات عادة ولم يكن هذا الشعار مرفوعاً عند أسلافهم ولن يؤثر طرحه في نهاية عهدها وستبقى صفحات، منها النقية التي يجب أن نستوضحها وتبقى الرابطة قائمة بيننا.

ولقد كتب عن الدولة العثمانية مؤرخون كثيرون وتعرض لحكمها كُتّاب كُثر، وأنَّ الجميع ينهلون من منهل واحد هو الخلاف على الأقل مع العثمانيين بصفتهم يحملون شعار الإسلام، وأعطوا عنها صورة أقرب ما تكون إلى أنَّها قاتمة، الأمر الذي زاد بعداً في الشقة بين نشئنا وهذا الشعب المجاور الذي انتمى إليه

حكامها، الأمر الذي دعانا إلى أن ندلو دلونا في هذا المجال لنعطي صورة حسب يقيننا أقرب ما تكون إلى الحقيقة والواقع، وما ذلك إلاَّ للرابطة التي تجمعنا معه وفي سبيل إحقاق الحق أيضاً. وذلك ليتعرف أبناؤنا على جزء من تاريخهم ويقفوا على الخدمات التي قدمتها الدولة العثمانية في رد أعداء ديننا والذين أرادوا استعمار أرضنا من البرتغاليين، ثمَّ الوقوف في وجه المستعمرين في هذا العصر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً وإن كانت تعوزهم القوة ووحدة الصف وفوق كل هذا الإيمان العميق الذي فقدوه والعصبية التي حملها آخر المسيطرين على مقدرات الدولة فتفرقت الصفوف ونصبت رايات العداء.

وقد اعتمدت في هذا الموضوع على كل ما وقع تحت يدي من مصادر، والظن أنَّ ذلك كان معظم ما كتب في هذا المجال، كما اعتمدت جانب التحليل للوصول إلى الواقع وقسمت الموضوع إلى الأبواب التالية:

الباب الأوَّل:

وشمل قيام الدولة العثمانية وامتدادها وتوسعها حتى فتح القسطنطينية على يد السلطان العظيم محمَّد الفاتح رحمه الله عام ٨٥٧ هـ.

الباب الثَّاني:

وفيه ذكرت نبذة عن حياة السلطان الفاتح وما له من مآثر وما تمَّ على يديه من فتوحات، وتعرَّضت لتطور الدولة حتى عهد السلطان سليم الأوَّل عام ٩٢٣ هـ.

الباب الثَّالث:

وقد شمل توسع الدولة العثمانية وضمها البلاد العربية خاصة وحتى عام ٩٧٤ هـ.

الباب الرَّابع:

وفيه شرح لمدة الضعف التي حدثت والأسباب التي دعت إليها وما نتج عن ذلك من أمور.

الباب الخامس:

وتعرَّضت فيه لمدة حكم السلطان عبد الحميد ومحاولاته في تبنٍّ فكرة الجامعة الإسلامية، وما اعترضه من سبل تلتقي كلها عند الوقوف في وجهه الأمر الذي جعله يهزم أمامها وينحّى عن السلطة.

الباب السَّادس:

وفيه سرد لتحكُّم العصبية، إذ سيطر دُعاة القومية الطورانية حتى أزالوا الخلافة الإسلامية.

الباب السَّابع:

ويشمل قيام الحكم التركي بمعناه العصبي حتى وقتنا الحاضر.

وقد حاولت أن أختصر ما أمكنني في الأمور الثانوية وحرصت على تسليط الأضواء على بعض الأحداث الجسيمة وذلك بغية الإفادة من الكتاب، فإن وفقت فذلك فضل الله عليّ وإن كان غير ذلك فعذري أنٍّي اجتهدت وحاولت الإفادة.

لا بد لي من كلمة شكر وامتنان أُوجهّها إلى الباحث الإسلامي الكبير الأُستاذ محمود شاكر لما له من فضل عليّ في تشجيعي على القيام بهذا العمل، ولما بذله من جهد وما تفضَّل به من إغناء لبحثي هذا. كما أنٍّي أشكر جميع من ساهم وعمل على إظهار هذا الكتاب.

نرجو أن يوفّقنا الله لما نبغي وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وأن يمدنا بالعون والتأييد فهو نعم المولى ونعم النصير.

البَابُ الأَوَّلُ

نشأة العثمانيين وبداية الفتوحات

في الوقت الذي كان فيه المسلمون بقيادة السلاجقة يقاتلون جحافل الصليبيين التي خرجت من أوروبا باتجاه المشرق الإسلامي للسيطرة على بيت المقدس، كانت موجة أخرى من قبائل المغول المتوحشة تتجمع في أواسط آسيا وتتّجه غرباً نحو البلاد الإسلامية.

وما أن أخذ مدّ الغزوة الصليبية بالتراجع إثر انتصار المسلمين بقيادة صلاح الدين في معركة حطّين الشهيرة وإنقاذ بيت المقدس من أيديهم في عام ٥٨٣ هـ، حتى زرع جنكيز خان زعيم تلك القبائل الموت والدمار في ربوع العالم الإسلامي[١] فدمّر معالم الحضارة فيه لمدة خمس سنين متوالية وخاصة في منطقة شمال العراق. ثمَّ قام حفيده هولاكو فاستولى على بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين فنهبها وأحرقها وقتل معظم سكانها الذين بلغوا في ذلك الزمن قرابة الثمانمائة ألف نسمة بما فيهم الخليفة وحاشيته عام ٦٥٦ هـ.

في زحمة تلك الأحداث الرهيبة التي لم يشهد لها المسلمون مثيلاً، كانت يد القدر تنبت البذرة الأولى للدولة العثمانية الإسلامية الوليدة التي استطاعت في أقل

---

(١) لقد حرَّض الصليبيون الذين هزموا على أيدي المسلمين المغول على غزو العالم الإسلامي إذ كان اتجاه هؤلاء المغول نحو الصين في البداية. وكانت إحدى نساء جنكيز خان من النصارى وهي التي قامت بالدور الأوَّل للتحريض لذلك العمل كما أنَّ حفيده هولاكو كان قد تزوج ابنة ملك أرمينيا وهو أباقاخان الذي نشأ على النصرانية وكانت أرمينيا إحدى المناطق التي اعتمد عليها الصليبيون ودعَّمتهم.

من قرنين من الزمن أن تمد جناحيها شرقاً وغرباً وجنوباً وتدق أبواب فيـينا باسطة لواء الإسلام على معظم ما يعرف اليوم بدول أوروبا الشرقية واليونان وجزر البحر الأبيض المتوسط وأجزاء من إيـطاليا والنمسـا، كما خضعت لسيـطرتها الأرض الممتدة من شمال القفقاس شمالاً حتى الصحراء الإفريقية جنوباً وحدود المغرب الأقصى غرباً، كما أنَّها مدّت جناحها الشرقي حتى بلاد فارس وجبال كردستان، شاغلة مساحة من الأراضي قدرت بأكثر من ١٠ ملايـين ميل مربع فكانت أقوى دولة في العالم آنذاك. ولقد أسّس تلك الدولة الشاسعة التي لعبت دوراً بارزاً في العالم عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه «كوندوز آلب» بن قيا ألب رئيس قبيلة قايـي إحدى قبائل الغزّ التركية المعروفة جيداً بين الأربع والعشرين قبيلة. ويحسن بنا أن نلقي نظرة سريعة على تحركات تلك القبيلة مع إعطاء لمحـة عن تشكل الدولة التي نسبت إليه. فأمام غزوات المغول التي ألمحت إليها قبل قليل وحينما اكتسح جنكيز خان أراضي دولة خوارزم[1] شاه سنة ٦١٧ هـ، هاجر سليمان شاه المدعو «كوندوز آلب» مع قبيلته مع من هاجر من القبائل من بلاد كردستان ومعه ألف فارس إلى بلاد الأناضول، فاستقرَّ رحله في أخلاط[2] ثمَّ أراد العودة إلى بلاده متخذاً طريقاً سهلة إذ سار إلى قلعة جعبر[3] وأثناء عبورهم نهر الفرات سقط سليمان في النهر وابتلعه الماء وذلك في سنة ٦٢٨ هـ. وكان له أربعة أولاد وهم (سنقورتكن) و (كون طوغدي) و(أرطغرل) و(دندان) فتولى القيادة من بعده ابنه سنقورتكن الذي رجع مع أخيه كون طوغدي إلى أرضه التي خرج منها بينما تابع الأخوان الباقيان المسير إلى الشمال الشرقي في سهول أرضروم ومعهـما أربعمائـة أسرة. ثمَّ تـولى أرطغرل زعـامة القبيلة فـأرسل ابنـه (ساوجي) إلى السلطان عـلاء الدين السلجـوقي سلطان قونيـة كي يلتمس منه مسكناً للقبيلـة ومرعى للمواشي، ولكنه أي (ساوجي) توفي قبل أن يرجع من مهمته. وبينما هم على تلك الحالة إذ بهم يلمحون جيشين يقتـتلان من بعيد دون أن يعلموا عن هويتهما شيئاً. وكان أحد هذين الجيشين قليل العدد فما لبثوا أن انخرطوا يقاتلون في صفوفـه

---

(١) تقع بلاد خوارزم اليوم تحت السيطرة الروسية قرب بحيرة خوارزم التي تنسب إليهم وهي ما تعرف اليوم باسم بحر آرال وكانت عاصمتهم كركانج أو أوركنج في جنوبي البحيرة حيث يوجد اليوم بلدة كوتيا وقد حكموا من سنة ٤٧٠ ـ ٦٥٨ هـ.

(٢) أخلاط: بلدة في شرقي تركيا اليوم قريباً من بحيرة وان في هضبة أرمينيا.

(٣) قلعة جعبر هي على الفرات بين بالس والرّقة قرب صفين.

بدافع من النخوة ونصرة الضعيف، وتمَّ النصر لذلك الجيش، وتبينَّ فيما بعد أنَّه جيش المسلمين السلاجقة. أمَّا الجيش الآخر فكان جيشاً بيزنطياً(١) فما كان من السلطان السلجوقي علاء الدين إلَّا أن كافأ أرطغرل على ما قام به وأقطعه وقبيلته بقعة من الأرض في محاذاة بلاد الروم غربي دولة السلاجقة وهي اليوم في المنطقة بين ولايات «يكي شهر وبيلاجك وكوتاهية»: وكانت مساحة الأرض التي أهديت لهم ٢٠٠٠ كم٢ واستطاع أرطغرل أثناء جهاده ضد البيزنطيين توسيعها إلى ٤٨٠٠ كم٢. ولمَّا توفي أرطغرل تولى مكانه أكبر أولاده عثمان، بناءً على رغبة السلطان علاء الدين والذي توفي في عهد أرطغرل إثر فراره إلى القسطنطينية بعد غارة قام بها المغول على السلاجقة الروم(٢) عام ٦٩٩ هـ ونتيجة لانحلال الدولة بعد وفاته من جراء الفتن والاضطرابات ونظراً لعدم وجود خليفة له فقد قام عثمان بالاستئثار بالمقاطعات التي كانت تحت حكم علاء الدين واتخذ مدينة يكي شهر(٣) عاصمة له كما اتخذ الراية نفسها والتي لا تزال حتى زماننا الحاضر تشكل العلم التركي المؤلف من الهلال والنجمة، ودعا نفسه بادشاه(٤) آل عثمان، واشتغل بتنظيم البلاد وبذلك ظهرت البداية الحقيقية للدولة العثمانية التي تنسب إليه. ولم يخلد الروم ولا التتار أعداء المسلمين التقليديين إلى السكينة بل استمروا بالمناورات والتحرشات، فقام عثمان بمقاتلتها بعد عرضه الإسلام على جموعهما وإلَّا فالجزية أو الحرب، فنشأ من جراء ذلك الصراع بين العثمانيين والروم الذي امتد أكثر من ستة قرون. وكان امتداداً طبيعياً لما قبلها من حروب صليبية لم يطفأ

---

(١) تقول بعض الروايات إنَّه جيش مغولي. كما قيل جيش خوارزمي، وسميت المعركة، معركة «ياسي جمن».

(٢) سلاجقة الروم: وهم أحد البيوت الخمسة التي انقسمت إليها العشيرة السلجوقية التركمانية وقد تقدموا من أذربيجان باتجاه الأناضول واخترقوا الحدود البيزنطية. وفتح لهم المتنافسون على عرش القسطنطينية أبواب مدنهم بقصد الدعم والتأييد عام ١٠٨٧ ـ ١٠٨١ م وقد سيطر أحد قادتهم سليمان بن قطلميش على القسم الأعظم من الأناضول وقد حكموا حوالي ٢٣٠ سنة وانتهى حكمهم على أيدي العثمانيين والمغول.

(٣) يكي شهر: مدينة في وسط الأناضول غربي مدينة قونية.

(٤) هذا المصطلح يعني (قدم الشاه) أو خادم الشاه، إذ إنَّ العثمانيين لم يلقبوا أنفسهم بالشاهات واستثقلوا هذا اللقب عليهم، واعتبروا أنفسهم بيكوات سنجاق بعد أن استولى عثمان على (قره جه حصار) وبعث السلطان والشاه السلجوقي له بعدها بالريشة لتزيين القلنسوة والعلم (الراية أو السنجق) والطبل، وبذلك اعتبروا أنفسهم دوماً يحملون لقب باديشاه أي خادم أو مولى الشاه.

أوارها حتى وقتنا الحاضر وإن كانت قد اتخذت أشكالاً مختلفة بغية خداع المسلمين بتمويه الرايات والشعارات وانتحال الحجج وإخفاء الأغراض الحقيقية الخبيثة. إنَّ أسباب الصراع بين العثمانيين الذين حثتهم العاطفة الإسلامية والروم، كانت ذات طابع ديني منذ البداية إذ لم يمض عهد بعيد على الحملات الصليبية، وكانت لا تزال حاضرة في الأذهان، فدفعتهم على مقاتلتهم، إضافة إلى عوامل أخرى منها ضعف شوكة الروم في ذلك العهد وخصوبة أراضيهم وغيرها. لقد تمكن عثمان من تحقيق نصر على أعدائه باستيلائه على أهم حصن في آسيا الصغرى (حصن بورصة)[1]. وحينما حاول الروم الاستعانة بالتتار توجه عثمان نحو التتار فشتت شملهم إذ كان حكام بيزنطة في (بورصة) و(إزنيق) متضامنين مع حكام «يار حصار» و «قره جه حصار» فهاجم عثمان نيسيا أي إزنيق، ثمَّ استولى على (قره جه حصار) وحوَّل كنيسة القلعة إلى مسجد ثمَّ فتح قلعتي «بيلرجك» و«يار حصار» عام ١٢٩٩ م ثمَّ أعلن الاستقلال في العام ذاته، وأقطع الغزاة وعين القضاة وحكام القلاع والمقاطعات.

وحاصر عثمان (إزنيق) عام ١٣٠٣ م، واستولى على «يني شهر» وما حولها، ثمَّ هزم القوات البيزنطية المتحفزة في (بورصة) ثمَّ احتل المدينة عام ١٣٦٢ م الموافق ٧٢٦ هـ.

ثمَّ توفي عثمان فخلفه ابنه أورخان عام ٧٢٦ هـ فأصبحت بورصة عاصمة الدولة وتمَّ في عهده أبرز حدثين هامين هما:

١ - القضاء على شوكة الروم.
٢ - فتح أبواب أوروبا أمام المسلمين.

كما قام بإنشاء الجيش الجديد (يكيجاري)[2] وتمَّ فتح إزميت[3] وإزنيق[4]. بدأ الخوف يتسرب إلى صفوف أوروبا فتداعى أقطابها لعقد حلف

---

(١) بورصة: تقع شمالي غربي تركيا جنوبي بحر مرمرة.
(٢) يكيجاري: الجيش العثماني الجديد المتشكل من أبناء البلاد الأوروبية المفتوحة الذين دربوا عسكرياً وتلقنوا الإسلام منذ الطفولة في رعاية السلطان العثماني حيث كان هو المختص بهم.
(٣) مدينة تركية على خليج أزميت قريبة من استانبول.
(٤) أزنيق: بلدة صغيرة جنوبي بحر مرمرة جانب بحيرة إزنيق.

العثمانيون عام ٧٠٠ هـ
الفتوحات من ٧٠٠ - ٧٦١
» » ٧٦١ - ٨٥٥
» » ٨٥٥ - ٨٨٧
» » ٩١٨ - ٩٢٦
» » ٩٢٦ - ٩٧٤
» » ٩٧٤ - ١٠٩٤

توسع الدولة العثمانية

صليبي ضم البندقيّة وألبانيا وملك فرنسا وفرسان رودوس وامبراطور القسطنطينية. وجندوا تحت قيادتهم ما ينوف على ثلاثمائة ألف رجل لقتال المسلمين، ولكن أمراً لم يكن في حسبانهم قد وقع، إذ نشبت الحرب بين فرنسا وإنكلترا فقضي على استعداداتهم جميعها. وفي عام ٧٣٦ هـ توفي أمير قره سي (إحدى الإمارات التي قامت على أنقاض دولة السلاجقة) واختلف ولداه من بعده على السلطة، فضمّها أورخان إلى دولته، ثمَّ التفت إلى تنظيم الإدارة وتزوّج ابنة الوصي على العرش الإمبراطوري البيزنطي في القسطنطينية كانتا كوزين[١] وقام بنجدته في عدة مواقع أمام قوى الغرب ووقف إلى جانبه ضد وريث العرش الإمبراطوري يوحنا الخامس[٢] الصغير السن آنذاك وأرسل ابنه سليمان لذلك الغرض مشترطاً تسليمه قلعة تزيمب (الحصن المهم على الشاطىء الأوروبي من الدردنيل) كمكافأة على ذلك الدعم فكانت تلك أول أرض دخلها العثمانيون في أوروبا.

لقد انتقل الأتراك المسلمون في عهده إلى توسيع حدودهم صوب أُوروبا، فضلاً عن إلحاقهم القسم الأناضولي من استانبول. أمَّا الأماكن التي فتحت في عهده فهي:

بورصة: عام ١٣٢٦ م.
إزنيق «نيسيا»: عام ١٣٢٦ م.
جملك: عام ١٣٢٧ م.

كما ربح معركة بالكانون «مالتيبه» ضد البيزنطيين، وأُخضعت إمارة قره

---

(١) كانتا كوزين: هو يوحنا كانتا كوزين من السلالات الأرستقراطية البيزنطية، كان له دور بارز في قيادة الامبراطورية، فاز من بين المتنافسين على وصاية العرش الامبراطوري البيزنطي بمساعدة العثمانيين بعد وفاة الامبراطور آندرونيكوس الثالث.

(٢) يوحنا الخامس: هو يوحنا باليولوج. امبراطور بيزنطة من عام ١٣٤١ ـ ١٣٩١ م كان ابن تسع سنين حينما توفي والده الامبراطور آندرونيكوس الثالث فحصل صراع على السلطة فاز من جرائه رئيس وزراء والده (يوحنا كانتا كوزين)، وعلى الرغم من زواج باليولوج من ابنة كانتا كوزين فإنّه كان يعمل ضده لإجباره على التنازل عن وصاية العرش. طلب مساعدة الغرب بعد فتح غاليبولي من قبل العثمانيين واعترف بروما وتعهد بإنهاء الخلاف بين البيزنطيين واللاتين مقابل وعود بابوية بحملة صليبية لدعمه، ولكن بقي ذلك حبراً على ورق حينما حاول تحصين القسطنطينية فمنعه العثمانيون وهددوه. توفي في ١٦ شباط ١٣٩١ م.

سي للعثمانيين كما ذكرت. واستولى على أنغورا «أنقرة» و «غاليبولي» عام ١٣٤٥ م.

ويمرض الغازي أورخان رقي ابنه «مراد» إلى الحكم بعد وفاته عام ١٣٦٢ م واستغلت قبيلة آهي الفرص واستعادت «أنغورا» لكن لوقت قصير.

أمَّا في آسيا فقد تسلم السلطان مراد الأوَّل قلعة كوتاهية في غربي الأناضول من أمير القرمان مقابل تزويج ابنه بايزيد من ابنة الأمير. وكذلك باعه أمير الحميد[1] جزءاً واستولى على جزء من إمارة تكة[2] ورد على مناوشات أمير القرمان، وهزمه في سهل أنقرة دون التعرض لإمارته، ثمَّ رجع إلى أوروبا فأخضع معظم بلغاريا وجرت معركة فاصلة عام ١٣٨٩ م بين الجموع الحاشدة من النصارى بقيادة ملك الصرب (لازار) وأمير البلغار (سمسان) وجيوش بولندا والمجر والبلقان وهذه المعركة التي جرت في إقليم كوسوفو، تعرف باسم معركة كوسوفو أو قوصوه ذات الشهرة والأثر الكبير على الصرب حتى وقتنا الحاضر. وعلى الرغم من تفوقهم العددي الكبير على المسلمين فإنَّهم هزموا وتهاوت قلاع أوروبا وحصونها أمام المسلمين. وقام السلطان مراد بعد المعركة بتفقد القتلى والجرحى فنهض من بينهم رجل صربي وطعنه فأرداه قتيلاً وما لبث العثمانيون أن أسروا ملك الصرب «لازار» وقتلوه فتولى الحكم من بعد مراد ابنه بايزيد والذي كان يقود الجناح الأيسر من الجيش وقاد قواته إلى النصر النهائي على القوات الصربية عام ٧٩١ هـ، وهو الذي افتتح حكمه بتعيين ابن (لازار) المار الذكر حاكماً على بلاده صربيا، شريطة دفع الجزية وتقديم عدد من الجنود وقت الحرب، وترك لهم الحكم فيما بينهم حسب قوانينهم، والتفت إلى آسيا ففتح فيلادلفيا عام ٧٩٣ هـ الموافق ١٣٩١ م وهي آخر معقل بيزنطي بقي في آسيا. وأصبحت في عهده بلاد آسيا الصغرى كلها في قبضة العثمانيين باستثناء إزمير[3]

---

(١) إمارة الحميد: نشأت في أواخر القرن الثَّامن الهجري شمال منطقة أنطاكية وتوسعت في جميع الجهات.

(٢) إمارة تكة: قامت في القرن الثامن الهجري وأوائل القرن التاسع وكان مركزها أنطاكية على ساحل البحر الأبيض المتوسط غربي كيليكيا.

(٣) أزمير: مدينة في غربي تركيا على بحر إيجة فيها أقليات من اليونان واليهود.

وطرابزون[١]. ثمَّ عاود الكرة على أُوروبا فحاصر القسطنطينية وقهر أمير الأفلاق وأخذ منه الجزية، ثمَّ رجع ثانية إلى آسيا فهزم علاء الدين أمير القرمان الذي حاول مهاجمته، وبذلك ضمَّ بلاده إلى دولته بعد أن أسره، ثمَّ فتح سيواس[٢] وتوقات[٣] وقيصرية[٤] وسامسون[٥]. واحتمى بعض الأمراء ممَّن فتحت بلادهم عند أمير قسطموني (آخر إمارة صغيرة في الأناضول من بقايا دولة السلاجقة) فغزا تلك الإمارة بعد أن امتنع أميرها عن تسليمهم إياها ثمَّ عاد بسرعة البرق إلى أُوروبا ليجابه الحملة الصليبية الجديدة التي كانت تقصد في نهاية مطافها بيت المقدس وهي الحملة التي دعا إليها في فرنسا والبلدان المجاورة البابا نونيفاسيوس التاسع لمقاتلة المسلمين. وأطلَّت الحرب الصليبية برأسها من جديد وجمع سيجموند ملك المجر الجيوش الجرارة من الفرسان الذين وفدوا إليه من غربي أُوروبا وذهبت جهوذهم أدراج الرياح إذ تصدّى لهم بايزيد فالتقى بقوات من المجر وفرنسا وألمانيا في جهات مدينة (نيكوبلي) على الدانوب وهزمهم شر هزيمة عام ٧٩٥ هـ. وأرسل بايزيد إلى الخليفة العباسي المتوكل المقيم في القاهرة كي يخلع عليه لقب سلطان الروم. ورغب السلطان المملوكي برقوق بإجابة الطلب للخليفة المسلم أمام الأخطار المغولية التي كانت تهدد المسلمين جميعاً. ويجدر بالذكر هنا أنَّ الصليبيين الجدد لم يندفعوا نحو المشرق إلَّا بعد أن هيَّأوا الجو المناسب حتى لا يخيب قصدهم كأسلافهم من الصليبيين. وإذا كان أُولئك قد عملوا بعد هزيمتهم على تحريض المغول على مهاجمة العالم الإسلامي من جهة الشرق وذلك عن طريق بناتهم اللواتي كنَّ في قصور أُمراء وحكام المغول وعن طريق السياسة والمفاوضة أيضاً. فإنَّ هؤلاء قاموا بأعمال أشد فتكاً وإرهاباً. ثمَّ شاءت إرادة الله أن تفتح غاليبولي[٦] أبوابها أمام المسلمين إثر زلزال مدمّر فاستبشر المسلمون بنصر الله واستولوا عليها بلا قتال.

---

(١) طرابزون: مدينة في شمال شرقي تركيا على شاطىء البحر الأسود.
(٢) سيواس: بلدة في شمالي شرقي الأناضول إلى الجنوب من توقات.
(٣) توقات: بلدة في شمالي شرقي الأناضول.
(٤) قيصرية: مدينة في مركز الأناضول وهي عقدة مواصلات برية.
(٥) سامسون: مدينة صغيرة شمالي تركيا على ساحل البحر الأسود.
(٦) غاليبولي: شبه جزيرة في تركيا الأُوروبية تمتد باتجاه الجنوب الغربي وتشكل الشاطىء الأُوروبي لمضيق الدردنيل.

وبعد أن لمس كانتا كوزين ضخامة القوة الإسلامية وجسامة مخاطرها على الصليبيين وأوروبا، ندم على تسليمهم القلعة المارة الذكر فحاول استجداء عطف الصرب والبلغار. وقبل أن يتم مشروعاته العدوانية خلع عن العرش وانتهت المطالبة آنياً، وبدأ التقدم العثماني في تراقيا وفتحت كامل غاليبولي وغيرها من المواقع.

وكان قد توفي سليمان بن أورخان إثر سقوطه عن صهوة جواده عام ٧٥٩ هـ ولحقه أباه في السنة التالية، فآل أمر السلطنة إلى مراد الأوَّل الذي مدَّ رقعة الدولة إلى خمسة أضعافها. وتمَّ في عهده احتلال أدرنة (٧٦٣ هـ) وجعلت عاصمة الدولة واستمرت بذلك المركز حتى فتحت القسطنطينية فيما بعد. وتمَّ في عهده فتح (فليبولي) عاصمة الروملي الشرقية، فأصبح العثمانيون في أوروبا وأحاطوا بالقسطنطينية وفصلوها عن الصرب والبلغار.

لم يرق للصليبيين ذلك التقدم المستمر في أوروبا فجمعوا الجموع لحملة صليبية جديدة دعا إليها البابا أوربانوس والتقى العثمانيون والصليبيون قرب نهر ماريتزا[1] عام ٧٦٥ هـ ودب الرعب في قلوب الأعداء وولوا الأدبار بعد هزيمة ماحقة ضمَّ العثمانيون إثرها جنوبي جبال البلقان. وتعد تلك المعركة من المواقع الحاسمة في تاريخ المسلمين إذ لو كتب للنصارى حينها إخراج المسلمين من أوروبا لواصلوا زحفهم باتجاه آسيا الصغرى ولتكررت مأساة الحملة الصليبية الأولى، إذ إنَّ فكرة احتلال بيت المقدس قائمة باستمرار في أذهان أوروبا.

ثمَّ تقدم امبراطور القسطنطينية بصورة طوعية لدفع الجزية وقلبه يعتصر ألماً على ما آل إليه وضع عاصمته، ولكنه عاد للتحريض على حملة صليبية جديدة بذهابه إلى روما (على الرغم من الخلاف المذهبي القائم بينهما واعتبار القسطنطينية مماثلة لروما ومنافسة لها وكذلك الامبراطور فإنَّه يعد نفسه الأب الروحي للأرثوذوكس وأساقفة هذا المذهب يشملهم بعطفه ويعيشون في كنفه) ثمَّ ركع أمام الباب وقبَّل يديه ورجليه ولكن جهوده باءت بالفشل.

---

(١) نهر ماريتزا أو نهر مريج: وهو يتجه من بلغاريا نحو الشرق حتى أدرنة حيث يتجه جنوباً ليشكل الحدود التركية اليونانية، ثم يصب في بحر إيجة.

ثمَّ تقدم العثمانيون فاحتلوا صوفيا[1] وسلانيك[2] ونيش[3] ودفع ملكا الصرب والبلغار الجزية.

مَعركة أنقرة

قبل مدة من الزمن، أدرك العثمانيون جسامة الخطر المغولي الذي كان يتهددهم من الشرق، وفي حوالي عام ١٣٦٩ م خلع تيمور أمير خراسان وما وراء النهر، وضمَّ بلاده إلى دولته التي جعلت عاصمتها (سمرقند). ولم يقنع هذا المغامر بالتوسع الذي حصل بل طمح إلى حدود أبعد، وأضرم نيران الحروب من موسكو إلى نهر الكنج، وحتى إلى سوريا، وكان بايزيد بفكره الثاقب يدرك حتمية حدوث معركة في يوم من الأيام بينه وبين تيمورلنك. ومن هنا كان اتجاهه إلى تدعيم مركزه في آسيا وانتزاع قونية من صهره أمير قرمان ودخول التركمان في قيسارية وتوقات وسيواس في طاعته.

وعندما حاول بايزيد التعرض لصاحب أرزنجان الأرمني أيضاً. تذرّع تيمور بما حدث، واحتلَّ سيواس. واكتفى بهذا القدر ليتجه لمقاتلة السلطان فرج المملوكي في مصر. وعند ذلك تذكر المقاومة المصرية لجيوش المغول، فأحجم وقضى شتاءه التالي فيما وراء القوقاز ليعد لمعركته الفاصلة مع العثمانيين. ونقف هنا قبل شرح تفاصيل المعركة عند ملاحظة بسيطة كبيرة المدلول:

١ ـ فجيوش النصارى التي كانت تحت إمرة بايزيد من القوات الإضافية لم تدخل المعركة إلَّا مكرهة ولعلَّهم يعلمون مدى التحالف القائم بين صليبيي أوروبا والمغول، والذي كان مبرماً قبل عهد ليس ببعيد.

٢ ـ أمَّا هؤلاء الصليبيون فإنَّهم سعوا قبل تقدمهم نحو العالم الإسلامي أن يكون هجومهم والتتار معاً علماً بأنَّ التتار في ذلك الوقت كانوا قد دخلوا الإسلام إلَّا أنَّ الصليبيين استغلوا الخلاف المذهبي بين العثمانيين من أهل السنّة

---

(١) صوفيا: عاصمة بلغاريا اليوم.

(٢) سلانيك: مدينة في اليونان اليوم تقع على الخليج المسمى باسمها كانت بؤرة الحركات المعادية للدولة العثمانية.

(٣) نيش: مدينة في شرقي يوغسلافيا قرب الحدود البلغارية.

وما كان عليه تيمورلنك من التشيع فحرَّضوه بوسائلهم الخاصة على غزو العثمانيين من المشرق وقدومهم من المغرب أي الصليبيين في آن واحد، وهذا ما حدث. كما أنَّ دخول التتار الجديد في الإسلام لم يمكنهم خلال المدة القصيرة، ولقرب عهدهم بوثنيتهم من أن يحصل لديهم الإيمان العميق، إضافة إلى انصياعهم للإثارات القبلية والتأثيرات الصليبية.

٣ ـ يلاحظ أخيراً قلّة الحماس والاندفاع لدى العثمانيين الذين فرضت عليهم معركة مع إخوانهم في الدين من المغول مما أضعف حماسهم، وفي ذلك الحين الذي كان يضرب فيه تيمورلنك بسيفه الرهيب في آسيا وتنحسر أمامه الدويلات والشعوب، قام بايزيد بالتصدّي له مسرعاً من أوروبا بعد أن حرَّضه بعض الملوك والأمراء ممَّن احتموا في كنفه إثر احتلال بلادهم من قبل ذلك المغامر. وكان ذلك كافياً لإشعال نار الحرب بين طامحين عظيمي الكبرياء والاعتداد بالنفس فتهور بايزيد بعد أن تقدم تيمور واحتلَّ سيواس وأخذ ابن السلطان المدعو أرطغرل أسيراً وقطع رأسه، ولم يحسن بايزيد اختيار أرض المعركة التي نشبت في سهل أنقرة عند (جبق أباد) واستمرت من قبل شروق الشمس إلى ما بعد غروبها أواخر شهر تموز، بين جيشين غير متكافئين عدداً وعدة، جيش تيمورلنك الذي قُدِّر بـ ٨٠٠ ألف مقاتل وجيش بايزيد الذي كان لا يزيد على خمسة وعشرون ومائة ألف مقاتل. وبدأت المعركة لصالح العثمانيين أولاً، إلَّا أنَّها تحولت لصالح تيمور، وأظهر السلطان على الرغم من ذلك ما أبهر العقول وأدهش المراقبين والمؤرخين. كيف وهو الذي لقب بـ(يلدرم) أي الصاعقة نظراً لانقضاضه وحركته السريعة والرهبة الناجمة التي يحلها بأعدائه. ولكن التتار أحاطوا به من كل جانب بعد أن فرت الفرق العديدة من هول المعركة وانضمت فيما بعد إلى الجيش الأقوى نظراً لوجود بعض أبناء أمرائها السابقين في معسكر التتار، فوقع بايزيد وابنه موسىٰ في الأسر وكان ذلك في عام ١٤٠٣ م الموافق ٨٠٥ هـ، وهرب أولاده سليمان وعيسىٰ ومحمود ولم يعرف لابنه الآخر أثر، وعامل تيمور أسيره بالحسنى وأكرم مثواه ولكنه شدد عليه لمحاولته الإفلات ثلاث مرات. واستولى ذلك الأعرج على إزنيق وبورصة وغيرها ودك حصون إزمير وأعاد كثيراً من الإمارات الآسيوية إلى أصحابها الأمراء[1]. ولم تكد تنته تلك الكارثة

---

(١) إنَّ العثمانيين والتتار يعودون إلى أصل واحد ولا يزال الاختلاف حتى وقتنا الحاضر هل الأتراك =

حتى أحدثت فتنة داخلية بين أبناء بايزيد الذين نجوا من المعركة بتحريض من تيمور نفسه. كما فرحت دول أوروبا وحاول بعضهـا التحلل من مواثيقـه مع العثمانيـين بإعلان استقلاله كالبلغار والصرب والأفلاق. وتجزأت أشلاء الدولة المتبقية، فبعد انهيار الدولة السلجوقيـة قامت إلى جـانب إمارة آل عثـمان تسع إمارات أخرى وكان بعضها مثل إمارة القرمان أوسع وأقوى منها ولكن لم يتيسر النمو والتقدم والازدهار بشكل وافر إلاَّ لهم فما هو السر؟ إنَّها لمعجزة من أروع المعجزات وأندرها فقد استطاع بضع مئات من قبيلة نازحة أن يؤسسوا في وقت قصير دولة عظيمة. وبعد وفاة بايزيد استطاع ابنه **محمَّد الأوَّل** الذي عُرف باسم محمَّد جلبي أن يسيطر على الوضع وقد حكم ثماني سنوات كانت معظمها حروباً، وقد استعمل الحزم والحلم لأنَّ من يتسلم الحكم بعد نكسة لا بد له من أن يقدم بعض التنازلات حتى يستطيع الوقوف على قدميه ليتحرك بعدها وفق خطة. ومن هنا فقد تحالف مع امبراطور القسطنطينية وأعاد بعض المدن إلى الدولة وصالح البندقية بعد تصدي مدينة البندقية له، واضطر للتخلي عن مطاليبه بعد أن هزم أسطوله عند غاليبولي في عام ٨١٨ هـ، وعبرت قواته نهر الدانوب عام ١٤١٩ م وخضع أمير الأفلاق وقتله وعيَّن أخاه مكانه. وأخضع بعض الإمارات التي أحياها تيمورلنك في آسيا فأخضع إمارة جـاندر وأسر حـاكم القرمـانيـين. وفي عهده استغلت اليهودية ضعف الدولة التي كـانت لا تزال تئن من جـراحها السـابقة فدسَّت بين صفوف الناس شخصاً دُعي بدر الدين السيماوي كان قد شغل منصباً جيداً في الدولـة متستراً بـالتدين والعلم فـدعا لآراء هـدّامة من أعـمال اليهود المعروفة، وبات يشكِّل بعض الخطر على كيان الدولة، وتمكَّن السلطان من قتله وأخمدت دعوته. توفي السلطان محمَّـد جلبي عام ١٤٢١ م المـوافق ٨٤٤ هـ في أدرنة عن عمر يناهز الثالثة والأربعين عاماً فتولى السلطة من بعده ابنه **مراد الثَّاني** وكان السلطان محمَّد أثناء النزع الأخير قد استدعى (بايزيد باشا) من رجال الدولة وطلب منه استدعاء ابنه مراد الذي عيّن خلفاً له وطلب منه أن يكـون مخلصاً ومطيعاً له كما كان مطيعاً ومخلصاً أثناء سلطنته وطلب منه إذا ما توفي أن يكتم نبأ الوفاة حتى يصل ابنه مراد، وهذا ما حصل فعلاً، إذ أسلم الروح وابنه لا يزال في

= فرع من التـتار أم إنَّ التـتار والأتراك فرعين من المغول وعلى كل فإنَّ الأصـل الواحـد أو اللغة الواحدة لا تشكل رابطاً تقوم عليه أُمَّة وإنَّما العقيدة هي أساس تكوين الأُمَّة.

طريقه إليه. وكان قد اشتدَّ ساعد الدولة نسبياً، فقام السلطان الجديد مراد الثَّاني بمصالحة أمير القرمان وعقد اتفاقية هدنة مدتها خمس سنوات مع ملك المجر، وأعاد الولايات التي كان قد أحياها تيمور ثمَّ استرد بلاد القرمان بعد وفاة أميرها الذي أوصى بولايتها من بعده له، واتجه نحو أوروبا فحارب ملك المجر وفتح كولومباز على شاطئ الدانوب الأيمن ووقع معه معاهدة ألزمته التخلي عن البلاد الواقعة على الشاطئ الأيمن من ذلك النهر، وأرغم أمير الصرب على دفع الجزية وتقديم النقود والجنود، ثمَّ أعاد فتح سلانيك، وأخضع ألبانيا، وحارب أمير الصرب والأفلاق وقهرهما، ثمَّ فتح سمندرية[1] بسبب عصيان أمير الصرب، وحاصر بلغراد. ولكن ملك المجر عاد فتغلب عليه فتنازل له عن بلاد الأفلاق، ورد سمندرية وغيرها. ولكن السلطان عاد فانتصر مرة أخرى عام ١٤٤٧ م الموافق ٨٥١ هـ حيث تبدو المعجزة من جديد. فقد تآمر الصليبيون وشكلوا جيشاً كبيراً من بلاد المجر وبولندا وفرنسا وألمانيا والبندقية وجنوة والأفلاق والبوسنة والصرب وجرت بين تلك الجموع الضخمة وبين العثمانيين معركة نيش الشهيرة وهو نصر «كوسوفو» الثَّاني، وهُزم العثمانيون في يالوفاز، ولكن تلك الجيوش النصرانية تسمّرت في أماكنها ولم تلاحق المنهزمين على حين كانت الطريق أمامهم مفتوحة. وما لبث السلطان أن عقد صلحاً أعاد بموجبه صربيا بجميع مدنها وقلاعها وكذلك الأفلاق. وفي حينها فجع بوفاة ابنه علاء الدين فزهد وتنازل عن السلطة لابنه محمَّد البالغ من العمر الرابعة عشر آنذاك، وذهب إلى مغنيسيا[2] في آسيا الصغرى ليتفرغ للعبادة والخلوة والراحة. ثمَّ تنادى ملوك النصارى لتجهيز حملة أخرى ونقضوا العهود السابقة واجتازوا أراضي البلغار وقتلوا ونهبوا ووصلوا فارنة[3] على البحر الأسود، ولكنَّ السلطان مراد فاجأهم بأن وصل إليها في يوم وصولهم وخاض معهم معركة فاصلة فانهزموا على إثرها، وقام بتبشير ملوك المسلمين بذلك النصر المؤزر ثمَّ عاد إلى معتكفه ولكن ذلك المقام لم يطل عليه إذ قام الإنكشارية في أدرنة بالثورة مزدرين ابنه الفتى محمَّد الثَّاني فعصوه ونهبوا المدينة فرجع إليهم مراد وأخضعهم كما أخضع الموره[4] المحصنة ولكنه لم يتمكن من

---

(١) سمندرية: ومعناها القديس أندريا وهي مدينة واقعة على نهر الطونة على بعد ٤٥ كم من بلغراد.

(٢) مغنيسيا: مدينة صغيرة في غربي تركيا إلى الشمال الشرقي من إزمير.

(٣) فارنة: مدينة جميلة تقع في بلغاريا اليوم على شاطئ البحر الأسود.

(٤) المورة: شبه جزيرة يونانية في جنوبي البلاد.

إخضاع إسكندر بك[1] المرتد على الرغم مما فرض عليه من حصار شديد وما بذله من جهد طويل إذ تحصن الأخير في كرويا المنيعة. ثمَّ داهمته المنية دون بلوغ مقصده ونقلت جثته إلى مدينة بورصة حيث دفن هناك وكان عمره ٤٩ سنة بعد أن حكم البلاد حوالي الثلاثين عاماً وتولى بعده ابنه محمَّد الثاني الفاتح، وأوصى أن لا يغطى قبره وأن يقرأ القرآن الكريم حول قبره لمدة معينة.

وفيما يلي، بعضاً من مناقب هؤلاء الفاتحين من عظماء الإسلام:

لم يكن الغازي «عثمان» ابن الغازي «أرطغرل» أكبر إخوته، إلَّا أنَّه كان موهوباً، وكأنَّه خلق لأداء المهمة التي أنجزها خلال حياته، ونال إجماع القادة آنذاك لحسن سيرته، وحنكة إدارته. كان عمره ٢٣ سنة، عندما تسلم زعامة القبيلة. امتاز بالقوة الجسدية والروحية، وشدة البأس في القتال كان عريض الصدر مقطب الجبين. وكان طويل الجذع عريض المنكبين، بيضوي الوجه أزرق العينين، حنطي البشرة.

اعتلت صحته في أيامه الأخيرة. ثمَّ أسلم الروح في آب من عام ١٣٢٦ م عن عمر يناهز الثامنة والستين ربيعاً. ورّث حصاناً مقاتلاً وزوجاً من الأحذية، وقليلاً من الأعلام وسيفاً ورمحاً وجعبة سهام وثلاث شياه وبعض الأحصنة وسلع أخرى قليلة الأهمية.

وبناءً على إحدى الروايات فقد دفن إلى جانب والده. ثمَّ نقل جثمانه إلى بورصة بعد فتحها بناءً على وصيته. وقد فهم بناءً على ما ذكره المؤرخون أنَّ تاريخ وفاته عام ١٣٢٦ م أي بعد فتح بورصة هو تاريخ صحيح.

وأولاده هم: بزري بك، شوبان بك، حامد بك، أُورخان بك، علاء الدين علي بك، سودي بك، وابنته الوحيدة هي: فاطمة خاتون.

كانت حياته جهاداً مستمراً، وأوصى لابنه «أُورخان» وهو على فراش

---

(١) اسكندر بك: هو أحد أولاد أمير ألبانيا الشمالية جورج كاستريو الذين أخذهم السلطان العثماني رهينة بعد ضم بلاد أبيهم إليه وقد تظاهر بالإسلام فقربه السلطان إليه وأسند إليه كثيراً من المهام ولكنه ارتدَّ وحارب العثمانيين لمدة طويلة ويحتمل أن يكون إسلامه ظاهرياً مع احتفاظه بالنصرانية باطنياً كما يقول سير توماس آرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام إذ إنَّ من يعتنق هذا الدين عن قناعة لا يمكنه الارتداد عنه إلَّا نادراً جداً.

الموت. وسجل المؤرخ العثماني «عاشق جلبي» الوصية، والتزم بها أُورخان وكل من جاء بعده من سلاطين آل عثمان، وهذه ترجمتها إلى اللغة العربية:

«يا بني: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة، فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً.

يا بني، أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنَّك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

يا بني، إنَّك تعلم أنَّ غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جلَّ جلاله.

يا بني، لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وبالإسلام نموت، وهذا يا ولدي ما أنت أهل له».

وكان عثمان على صلة متينة مع أفاضل العلماء وكبار الصالحين في عهده وكثيراً ما يجلس الساعات الطوال بين أيديهم ويتلقى موعظاتهم. ونقل عنه أنَّه كان يتردد على المولى الشيخ (إده بالي) القرماني المولد، وفي أحد الأيام كان يبيت عنده، فرأى في المنام قمراً خرج من حضن الشيخ ودخل في حضنه، وعند ذلك نبتت شجرة عظيمة سدت أغصانها الآفاق، وتحتها جبال عظيمة تتفجر منها الأنهار، والناس ينتفعون بتلك الأشجار لأنفسهم ودوابهم وبساتينهم، فقص هذه الرؤيا على الشيخ فقال: لك البشرى، بها نلت مرتبة السلطنة، وينتفع بك وبأولادك المسلمون، وإنِّي زوجت لك ابنتي هذه..[1]».

أمَّا أُورخان المولود عام ١٢٨١ م والمتوفى عام ١٣٦٠ م فكان طويل القامة أشقر اللحية أزرق العينين، رقيق الفؤاد شفوقاً على الضعفاء حليماً مع الأعداء. وفي الوقت نفسه شديداً عند المحن وباسلاً في القتال وعند المناسبات. كان عطوفاً على الفقراء مكرماً للعلماء شديد التدين وعادلاً. عاش في أوساط الجماهير وأكل معهم وتكلم وإياهم وأصغى إلى شكواهم. كان متسامحاً مع غير المسلمين وودوداً في التعامل وإياهم، وخاصة عند فتح (إزنيق)، واكد الغريب قبل القريب إنَّه كان رجلاً عظيماً.

---

(١) كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، تأليف طاش كبري زادة ص ٧.

اشترك في المعارك وهو ابن الخامسة عشر، وأمضى معظم سني حياته في ساحة القتال، وهذا ما أكده الرحالة (ابن بطوطة) الذي زار بلاده آنذاك والتقى به إذ يقول عنه: «. . وهذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالاً وبلاداً وعسكراً، له من الحصون ما يقارب مائة حصن وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها. . ويقال إنَّه لم يقم قط شهراً كاملاً ببلده، ويقاتل الكفار ويحاصرهم. .»(١) وسَّع مساحة الدولة العثمانية من ١٦ ألف كم٢ إلى ٩٥ ألف كم٢ أثناء حكمه، وقاد الجيوش كرأس للدولة وبدأ في عهده التنظيم العسكري الجديد (الإنكشاري)، كان له خمسة أولاد هم: سليمان، مراد، إبراهيم، خليل، قاسم وابنة واحدة هي فاطمة.

وكان مراد **الأوَّل** ابن أُورخان، المولود عام ١٣٢٦ م. والمتوفى عام ١٣٨٩ م، رجلاً طويلاً، بيضوي الوجه، ضخم الجسم مفتول العضلات، كثيراً ما يرتدي «السكه» لباس الدراويش المولوية أو غيرهم، ويضع عمامة على رأسه. لباسه بسيط جداً، ويفضل الجبة مع اللونين الأحمر والأبيض.

كان دمث الأخلاق، لطيفاً، عطوفاً وعاقلاً، يقيم اعتباراً خاصاً للعلماء وأصحاب الفنون، ويعامل الفقير والمحروم بإكرام وسخاء، لقب بالغازي هونكار، وكان محبوباً جداً من شعبه.

أمضى طفولته وفتوته في «بورصة» حيث درس على يد العلماء في مدارس بورصة، وكافة سني عمره أمضاها في الجهاد، في ساحات الوغى أو مناطق الحدود، لكنه وجد الوقت الكافي لإشادة الأبنية العظيمة والنفيسة وأعمال الفنون، وبنى المساجد والمدارس الإسلامية، ومطاعم الفقراء في (بورصة)، وجعلت (أدرنة) العاصمة في زمانه ومن قبله، وأسَّس أيضاً أول قصر سلطاني في هذه المدينة أثناء حكمه. وتوسعت حدود الدولة العثمانية في عهده من مساحة ٩٥ ألف كم٢ إلى مساحة ٥٠٠ ألف كم٢ (٢).

ولقب (**بايزيد**) ابن مراد الأول، الذي تولى الحكم بعده، بيلدرم أي الصاعقة لحركته السريعة ونجاحه الفائق في المعارك. فعندما كان في الرابعة عشر

---

(١) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ص ٢٠٥.

(٢) Album of the ottomans.

من عمره، منحه والده (مراد) تفويضاً ليدير دفة البلاد العثمانية خلال غيابه في الجهاد في بلاد الصرب. تميزت سياسته بالتركيز على ثلاثة مهام، توحيد منطقة الأناضول تحت الإدارة العثمانية. ومحاولة قيادة العالم الإسلام، والجهاد في سبيل الله. وكان أول من حمل لقب سلطان في آل عثمان.

كان متديِّناً مقيماً لصلاة الجماعة. ويروى أنّه شهد يوماً بقضية، وكان القاضي «شمس الدين حمزة الفناري»، فرد شهادة (بايزيد)، فسأله عن سبب رده، فقال القاضي: إنّك تارك للجماعة، فبنى أمام قصره جامعاً عين لنفسه فيه موضعاً، ولم يترك الجماعة بعد ذلك[1].

هُزم في معركة أنقرة أمام (تيمورلنك) وأُسر ثمَّ لم يلبث أن توفي من الأسى بعد سبعة شهور واثني عشر يوماً عن عمر يناهز الثالثة والأربعين عاماً، وأحضر جثمانه إلى (بورصة) ودفن هناك.

كان له سبعة أولاد هم: موسىٰ شلبي، سليمان شلبي، عيسىٰ شلبي، محمَّد شلبي، أرطغرل شلبي، قاسم شلبي، وابنة واحدة هي: السلطانة فاطمة.

إنَّ السلطان «**محمَّد شلبي**» ابن السلطان «بايزيد الثاني» فيعد المؤسس الثاني للدولة العثمانية للانهيار الناجم عن غزو تيمورلنك في عهد والده، تلقّى تعليمه في «بورصة» ثمَّ عيّن حاكماً لولاية (أماسيا) فحصل أثناء ذلك على معرفة جيدة في إدارة الدولة.

كان مربوع القامة مدور الوجه مقطب الجبين أبيض البشرة المائلة إلى تورد في الوجنتين، عريض الصدر وقوي، شجاعاً ونشيطاً، اشترك شخصياً في عدة معارك وجرح أربعين مرة.

كان يرتدي عباءة مبطنة بالفرو، وياقتة دائماً صلبة. وكان عادلاً إزاء النصارى كما هو للمسلمين.

توفي في ٢٦ مارس من عام ١٤٢١ م، وكان السلطان العثماني الأول الذي تُحفِظ بسرية نبأ وفاته. كان له خمسة أولاد هم: مصطفىٰ ومراد الثّاني وأحمد ويوسف ومحمود، وابنتين هما فاطمة وسلجوق خاتون.

---

(١) كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ص ١٩.

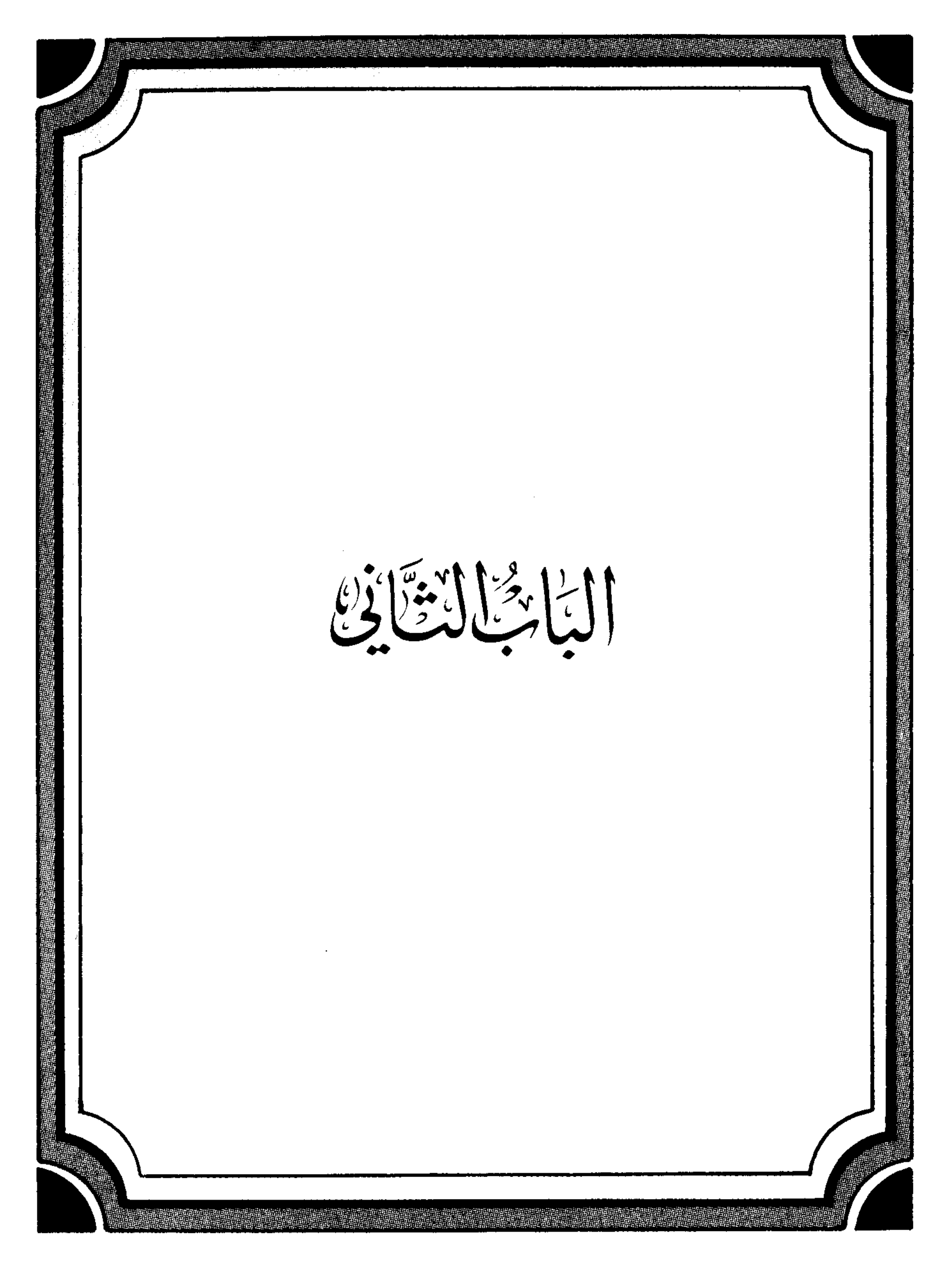
وأخيراً نذكر لمحة عن السلطان مراد الثَّاني والد السلطان (محمَّد الثَّاني) - الفاتح، فهو ابن السلطان (محمَّد شلبي)، سابق الذكر، وأمه أمينة خاتون. كان طويل القامة، أبيض اللون، طليق اللسان، ودقيق الكلام، وكان يحب حياة الهدوء والسلم، لكنه فعال ونشط في الشدائد وعندما تقتضي الحاجة، وكان شجاعاً، وأثناء سني حكمه التي امتدت إلى ما ينوف عن ثلث قرن، أدار شؤون بلاده بشرف، فكان موضع اعتزاز للغاية، وعرف في أوساط الجماهير متديناً وعادلاً وكان سلطاناً محبوباً. عيّن المولى الكوراني مربياً لابنه الصغير «محمَّد» وطلب منه أن يضربه إذا لم يذعن لأوامره؛ وقد حدث ذلك وضربه الشيخ المذكور وكافأه السلطان؛ فكان الابن الذي تحقق على يديه فتح القسطنطنية.

أمضى طفولته في «أماسيا» وتوَّج ابن ثمانية عشر عاماً، وكان شاعراً وخطاطاً، فضلاً عن كونه جندياً صالحاً. ويكتب أشعاره تحت اسم «مرادي» وهذا مقطع من أفضل نظمه.

دعنا نثني على الله القدير لأنَّه يوماً هذا العالم والإنسان هم هلكى.

شيدت في عهده المساجد العديدة، والمدارس الإسلامية والجسور والقصور في كل أرجاء الدولة العثمانية.

كان له ست أولاد هم: محمَّد الفاتح، أحمد، علاء الدين، أُورخان، حسن، أحمد الثَّاني، وابنتين.



الباب الثاني

السُّلطان محمّد الفاتح وفتح القِسْطَنْطِينِيَّة

ولد السلطان محمَّد الفاتح في ٢٦ رجب من عام ٨٣٣ هـ الموافق ٢٠ نيسان ١٤٢٩ م وهو ابن السلطان مراد الثَّاني وسابع سلاطين العثمانيين وقد بايعه أهل الحل والعقد في الدولة العثمانية عام ١٤٥١ م الموافق ٨٥٥ هـ بعد وفاة أبيه وقد أخذ السلطان محمَّد بإتمام فتح ما بدأه والده مراد وابتدأ بالتحضير لفتح القسطنطنية.

فتح القسطنطينية:

تأتي أهمية القسطنطينية نظراً لموقعها الجغرافي عند نقطة اتصال آسيا بأوروبا عن طريق مضيق البوسفور الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأسود وبواسطة بحر مرمرة، ولا يزيد عرض ذلك المضيق في أقرب نقطة بين البرّين عن ألف متر، فهي عقدة المواصلات وطريق الملاحة. وقد قال نابليون مرة: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها». وبعد انقسام الامبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية عام ٣٩٥ م أصبحت القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية الشرقية وبلغت أوج عظمتها في عهد «جستنيان». ولتلك المدينة أهمية خاصة لدى المسلمين. وقد وردت البشارة النبوية الشريفة بفتحها فجاء في الحديث الصحيح «لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش». وقد حاول المسلمون فتحها عدة مرات، فأولى المحاولات في عهد معاوية رضي الله عنه عام ٤٩ هـ إذ أرسل ابنه يزيد لذلك الغرض وكان في جيشه عدد من الصحابة رضوان الله عليهم أمثال

أبي أيوب الأنصاري وغيره والذي لا يزال ضريحه شاهداً حتى وقتنا الحاضر قرب أسوارها، إذ كانت تجري في مسجده مراسم تقليد السلاطين العثمانيين للحكم احتراماً وإجلالاً له. وجرت في القرن الأول الهجري محاولة أخرى لفتحها في عهد سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي. وقد كانت الدوافع الحقيقية وراء محاولة الفتح دينية إسلامية حافزها بشارة النبي ﷺ وثناؤه على الفاتح وجيشه وغايتها إعلاء كلمة الله في الأرض والجهاد في سبيله.

كانت حالة القسطنطينية في ذلك العهد سيئة جداً، فقد تكاثر الأعداء حولها واستنزفت قوتها في الترف وبناء القصور الضخمة والكنائس العظيمة ولعلَّ ذلك من باب التعويض عن النقص الذي يعاني منه الضعيف الجاهل كي يقوم بالإيهام والتغطية على فشله كما يحدث ويتكرر في كثير من العهود، فقد حدث أنه حينما فشلت الكنيسة في أوروبا بجلب النصارى نحوها صارت تقوم ببناء الكاتدرائيات والكنائس الشاهقة القباب وتغنيها بالمجوهرات والنفائس لعلَّها تحظى بالعطف والتأييد، وكأنَّ الأبنية والعمران تغني عن الحضارة، فالحضارة إنسانية تخدم الإنسان وليست بأتربة أو صخور ترتفع فوق الأجساد.

كما أضعفها النزاع الداخلي والإفلاس الذي أصابها نتيجة الترف والتعلق بالمظاهر من العظمة والأبّهة والسلطان إبّان مدة الضعف، واقتطاع جيرانها الأرض تلو الأخرى من بلادها مقابل بعض المال لتعويض عجزها المالي. كل ذلك والكثير غيره قد فتَّ في عضدها ونخر في جسمها على الرغم من احتفاظها بجانب كبير من القوة التي لا يُستهان بها. وكان الفاتح في مقتبل الشباب وعنده الاندفاع للعمل في سبيل الله والنشاط والدأب، إذ كان العثمانيون في ذلك الحين متحمسين للإسلام.

الحصار:

عقد الفاتح اتفاقيات مع الدول المجاورة ثمَّ قام ببناء قلعة على الشاطىء الأوروبي من البوسفور وهي ما تعرف بقلعة «روم إيلي حصار» وتقع على بعد لا يزيد عن سبعة كيلومترات من أبواب القسطنطينية. مقابل القلعة التي بناها السلطان بايزيد، وفي أضيق نقطة منه كي يتيسر إغلاقه حين اللزوم. واشترك بنفسه مع العمال في بنائها الذي أنجز في شعبان من عام ٨٥٦ هـ وهي بشكل مثلث سمك جدارها عشرون قدماً وفي كل زاوية منها برج ضخم مغطى

بالرصاص سمكه اثنان وثلاثون قدماً. كما نصبت على الشاطىء المجانيق والمدافع الضخمة وسنرى بعضاً من عبقرياته الفذة في مواضع أخرى.

كان الامبراطور قسطنطين يشعر باقتراب الفتح فقام بعدة محاولات لتلافي الخطر منها محاولة الزواج من أم الفاتح أرملة والده السلطان مراد الثاني التي بقيت على نصرانيتها(١) حتى وفاتها وكانت آنذاك تناهز الخمسين من عمرها.

بيد أنها رفضت وظلت معتزلة الناس قابعة في أحد الأديرة، ثمَّ حاول الزواج من غيرها من أميرات الدول الأخرى علَّها تنصره فلم يفلح وبعث البابا بثلاثين سفينة ما لبثت أن هربت من القرن الذهبي(٢) وتظاهر جنويو غلطة(٣) بالبقاء على الحياد وبدافع النزعة المادية والتجارية والجشع على الرغم من أنَّهم كانوا يعضدون الإمبراطور في الخفاء. ثمَّ وصل المغامر الجنوي الشهير جوستنيان العبقري في فن الحرب مع أربعمائة من أصحابه بعدما انضمَّ إليهم في الطريق ثلاثمائة من رجال رودوس(٤) وخيوس(٥) وقام البابا باستنهاض همم أوروبا وملوكها بعدما جرى توحيد شكلي للكنيستين الشرقية والغربية على الرغم ممَّا أثاره ذلك من سخط في القسطنطينية. ثمَّ قام قسطنطين بدعوة ملوك الروس لنجدته

---

(١) لا مانع من الناحية الشرعية من الزواج بالكتابيات وأن يبقين على عقيدتهنَّ ولكن من الناحية السياسية يخشى من تأثير هذه النسوة على أولادهنَّ وبخاصة إذا كان الرجل من أصحاب الحكم والمناصب فإنَّ أبناءهم ربما آل إليهم الأمر من بعدهم فإذا كانوا من تربية نساء على عقيدة أعداء المسلمين فربما لا يؤمن جانبهم ولهذا ننصح بعدم الزواج من الكتابيات إلَّا عند الضرورة ومن هنا أباحت الشريعة ذلك حتى لا يقع الإنسان في المحرمات وقت الضرورة. وقلَّما ينشأ عبقري مثل محمَّد الفاتح لا تستطيع أمه التأثير على عقيدته أو إضعاف عزيمته من أجل فتح بلد ترتبط هي مع أهلها برابط عقيدته.

(٢) القرن الذهبي: هو خليج القرن الذهبي الممتد من مضيق البوسفور باتجاه الشمال الغربي داخل استانبول. تمتد اليوم على جوانبه بعض المصانع والمحلات التجارية. شاطئه الأيمن اسمه (أيوب) نسبة للصحابي الجليل، والأيسر (سوتلجي) ترتبطان ببعض الجسور مثل جسر غلطة وجسر أتاتورك وهو أجمل مناظر العالم.

(٣) غلطة: منطقة تقع في الزاوية الحادة المتشكلة من التقاء القرن الذهبي مع مياه البوسفور. تكون اليوم مع ضاحية بيرا منطقة بك أوغلي.

(٤) رودوس: جزيرة في بحر إيجة جنوبي البلاد اليونانية.

(٥) خيوس: جزيرة يونانية تقع غربي إزمير في بحر إيجة.

ولكن لم يكن لهم قوة إذ لم يمضِ على طردهم التـتار أكـثر من ٢٧ سنة وكـانوا منقسمين فهناك إمارة في موسكو وأخرى في كيـيف. وغيرهما.

الاستعدادات:

عرض المخترع المجري أُوربان كثيراً من اختراعاته على كافة ملوك أُوروبا فلم يلتفت إليه أحد حتى ولا الامبراطور المحاط بالخطر الإسلامي! إذ ضنَّ عليه المال[1] فعرض ما اخترع بالتعاون مع العثماني «مصلح الدين» على الفاتح الذي كان يكرم العلم والعلماء فبالغ في حفاوته وكان سخياً معه، فقاما بتصميم المدافع الضخمة ومن أبرزها ذلك المدفع العملاق الذي يزن ٧٠٠ طن ووزن قذيفته ١٢ ألف رطل أو ١٥٠٠ كغ ويجره مائة ثور يساعدهم مائة رجل شديـد وقد قـطع الطريق بين أدرنة والقسطنطينية في شهرين وكان دوي انفجاره يسمع على بعد ١٣ ميل وفي بعض الروايات ٢٥ ميلاً كما أنَّ قذيفته تنطلق بعيداً لمسافة ميل واحد ثمَّ تغوص في الأرض ستة أقدام.

وقام الفاتح بعدها ببناء سفن جديدة ووضعها في بحر مرمرة كي تسد طريق الدردنيل وقد بلغ عدد السفن العثمانية ما بين ٢٥٠ ـ ٤٠٠ سفينة ويزيد المؤرخون الغربيون في عددها كي يقللوا من شأن الهزيمة وقام الروم بسد مـدخل القـرن الذهبي بسلسلة ضخمة اجتمعوا خلفها وقام الجنويون بحراسة الميناء.

بدء القتال:

ثمَّ بدأ الزحف الإسلامي نحو القسطنطينية بقيادة محمَّد الفاتح نفسه وكان هـو شخصياً في طليعـة الجنود. وبـدأ حصار الجيش العثـماني للمدينـة في ٢٧ ربيع الأوَّل عام ٨٥٧ هـ ويحسن إلقاء نظرة عـلى خارطـة المدينـة لتبيان مـواقع القوات المهاجمة والمناطق المحصنة. فسور القسطنطينية محاذٍ لساحل القرن الذهبي وبحر مرمرة ويمتد براً من رأس القرن الذهبي شمالاً وبانحناء حتى البحر وهو مؤلف من ثلاثة أسوار، الأمامي غير مهم يليه من جهة الداخل السور الخارجي

---

(١) يمتلك المسلمون والعرب خاصة الأموال الطائلة والثروة النفطية الضخمة ومع كون العدو يتربص بهم الدوائر فإنَّهم لا يلتفتون إلى إعداد العدة له واستجلاب الصناعات الحديثة وبناء القوة الذاتية إلَّا ما ندر وبدلاً عن ذلك يقومون بالالتفات إلى مظاهر الترف التافهة وهذا إن استمرَّ لا بد أن يكون ذا خطر.

الذي يبلغ ارتفاعه ٢٥ قدماً ثمَّ يليه السور الداخلي الذي يبلغ ارتفاعه ٤٠ قدماً وبين هذين السورين فراغ قدره بين ٥٠ ـ ٦٠ قدماً والسور مدعَّم بأبراج وأمامه خندق واسع وهو خط الدفاع الأول. أمَّا أبواب السور فهي باب أدرنة من جهة الشمال الغربي والباب العسكري من جهة الجنوب الغربي وبينهما باب المدفع (طوب قبو).

كانت تشكيلة الجنود كما يلي:

الميمنة: وهي مؤلفة من جنود الأناضول ومركزها باتجاه الباب العسكري، والميسرة: المؤلفة من جنود أوروبا (الرومللي) ومركزها باتجاه باب أدرنة، والقلب: ويشكله جنود الإنكشارية ومركزهم باتجاه باب المدفع. وكانت فرقة زغنوس باشا ترابط في المرتفعات المشرفة على غلطة حيث تقوم بمراقبة الجنويين من ذلك المكان.

وكانت الحالة النفسية لسكان القسطنطينية منهارة والخوف الشديد يستولي عليهم وكان الامبراطور ومعه جستنيان يقومان بمحاولة رفع الروح المعنوية وبث روح المقاومة بين الأهلين وقد كان عدد الروم ٨٠٠ ألف مقاتل والمسلمين ١٥٠ ألفاً.

ثمَّ قام الأُسطول بتطهير بحر مرمرة من السفن المعادية واستولى على جزر الأُمراء بقيادة يالطة أوغلي. ثمَّ بدأت المدافع بإطلاق قذائفها باتجاه السور وسرعان ما أحدثت ثغرة فيه بمنطقة وادي ليكوس، واندفع الجند نحوها ولم يعط ذلك الثمرة المطلوبة إذ سرعان ما قام المحاصرون بسد الثغرة في اليوم نفسه في الوقت الذي كان فيه الأُسطول يقوم بمحاولة تحطيم السلسلة الواقعة في مدخل القرن الذهبي، ولكن ذلك باء بالفشل. وفشلت أيضاً محاولة التصدي لخمس سفن نصرانية كانت قد ظهرت فجأة في بحر مرمرة إذ كانت متقدمة في الصنع أكثر من سفن المسلمين. ولكنَّ الفاتح لم تلن عزيمته أمام تلك النكسات وتلك من أبرز الصفات عند العثمانيين إذ إن النكسات لا تزيدهم إلَّا تصميماً جديداً. وفكر في وسيلة جديدة كي ينقل بها السفن إلى داخل القرن الذهبي بعدما فشلت محاولة تحطيم السلسلة وخطرت في باله فكرة جديدة قام بعد دراسة المنطقة على الطبيعة بتطبيقها، وتتلخص في نقل السفن عن طريق البر ولمسافة ثلاثة أميال من بحر مرمرة حتى مياه القرن الذهبي ومن خلف مستعمرة غلطة، فأوعز بتعبيد الأرض

وفرشها بالألواح الخشبية ثم جرى دهن الألواح بالزيت والشحم وبعدها زلجت السفن في تلك الطريق وفوق الألواح المدهونة، وبتلك الطريقة استطاع إدخال سبعين سفينة في ليلة واحدة إلى داخل الخليج. وتغطية لذلك العمل قامت المدفعية بإطلاق قذائفها طيلة الليل من هضاب خلف أسوار غلطة واندفعت السفن بسرعة إلى أعلى الميناء حيث تتوفر الحماية البرية هناك.

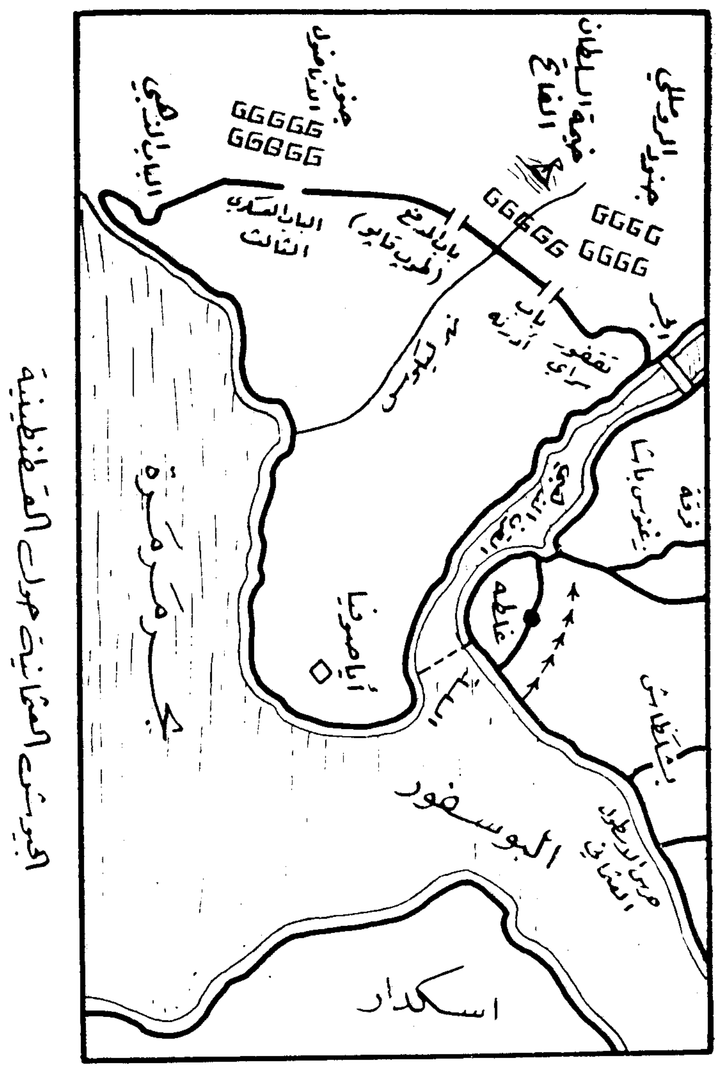
ثمَّ قام الجند ببناء جسر عائم وتمَّ إحكام القبضة على السفن النصرانية وقام العدو بمحاولات لحرق سفن المسلمين بعد أن ذهل من كيفية إدخالها ولكنه فشل. ثمَّ بدأ هجوم عثماني جديد وازدادت الحالة سوءاً. ونقص الطعام في المدينة واقترح المقربون من الامبراطور سفره خارج المدينة كي يستنجد بالدول النصرانية ولكنه رفض وبكى واكتفى بإرسال الرسل.

واستمرَّ الهجوم البحري والبري المدفعي من خلف هضاب غلطة باتجاه القرن الذهبي وجرى في الوقت نفسه نقل المدافع من تلك الهضاب إلى طوب قبو لتشديد الهجوم هناك حيث نقطة الضعف في السور. ثمَّ قام الفاتح بمفاجأة جديدة إذ قام الجند بحفر الأنفاق تحت الأسوار. ومن مفاجآته التاريخية بناء قلعة خشبية ضخمة جاوز ارتفاعها ارتفاع السور تشكلت من ثلاث طبقات كساها بالجلود السميكة المبللة بالماء والتي وضعت في داخلها وأسفلها.

ثمَّ بعث برسالة للامبراطور يدعوه فيها للتسليم حقناً للدماء ولكنه رفض الطلب. ثمَّ قام ببعض الابتكارات العبقرية فصمم مدافع ترمي إلى الأعلى ثمَّ تسقط قذيفتها في قلب المدينة. ثمَّ بعد انقضاء خمسين يوماً على تلك المناوشات بدأ الهجوم الفعلي.

بدء الهجوم:

أمر الفاتح جنوده بالصيام قبل الهجوم بيوم لتطهير نفوسهم وتزكيتها ثمَّ قام بزيارة للسور وتفقّد الأسطول. وفي تلك الليلة تعالت أصوات التكبير وصيحات المسلمين مدوية بلا إلـه إلاَّ الله محمَّد رسول الله وقرعت الطبول ورتلت الأناشيد الدينية وتلا الشيوخ آيات الجهاد. وعندما عاد إلى خيمته دعا كبار رجال جيشه ثمَّ خاطبهم قائلاً: (إذا تمَّ لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ومعجزة من معجزاته وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التقدير. فأبلغوا



الجيوش العثمانية حول القسطنطينية

أبناءنا العساكر فرداً فرداً أنَّ الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى ويدعو القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون)(١) والجدير بالذكر أنَّ تلك الوصية تذكرنا بوصية خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه لجيشه. فالتعاليم نفسها تستقى من مصدر واحد(٢). وفي ليلة العشرين من جمادى الأولى لسنة ٨٥٧ للهجرة تركز الهجوم الرئيسي في وادي ليكوس. وتسلق المسلمون السور لعدة مرات وأعادوا التسلق حتى استنفاذ قوة العدو ثمَّ قاموا بالانسحاب. واندفع جند الأناضول كثيري المراس والتنظيم بعد إطلاق المدفعية وتحت ستار من الدخان وهاجموا السور فلم يتمكنوا من اقتحامه وكان يشن في الوقت نفسه هجوم بحري. ثمَّ صدرت الأوامر لجنود الأناضول بالانسحاب بقصد الاستنزاف وتقدم جيش الإنكشارية الأكثر حركة وبسالة وباتجاه السور وأفلحوا باقتحامه وأصيب جستنيان رأس المدافعين عن المدينة وخارت معنويات الروم. وفي الوقت نفسه ازداد عنف الهجوم واشترك الفاتح شخصياً فيه. ثمَّ بدأ دخول المسلمين من الباب الشمالي كالسيل العرمرم وهرع قسطنطين إلى ذلك المكان وسرعان ما قتل وفرَّ المدافعون من جنده وفتحت أبواب المدينة ودخل الفاتح بجيشه قائلاً: الحمد لله ليرحم الله الشهداء وقرأ الحديث النبوي الخاص بالقسطنطينية لجنوده ونهاهم عن السلب والنهب ثمَّ ترجَّل عن فرسه واستقبل القبلة وسجد على الأرض شكراً لله وحثا التراب على رأسه امتناناً لما منحه من توفيق ونصر ثمَّ توجه إلى كنيسة أيا صوفيا وسجد شكراً لله مرة ثانية وأمر بتحويلها إلى مسجد وأدّى صلاة العصر فيها وأعلن بعض الروم إسلامهم. ثمَّ توجه إلى قصر الامبراطور وحينما علم بمقتله تأثر تأثّراً شديداً وسأل عن جستنيان. ثمَّ أمر بدفن الامبراطور بما يليق بمكانته وعهد إلى البطريرك بالنظر في أمور الروم دينياً

---

(١) يراجع كتاب محمَّد الفاتح تأليف الدكتور سالم الرشيدي.

(٢) بناء على هذه التعليمات وغيرها، لا يمكننا القول بخروج العثمانيين عن الإسلام كما يدّعي البعض. وليس هذا التصرف تعصباً دينياً بل غاية التسامح مع الأديان الأخرى، واستلهام لروح الشريعة الإسلامية، إذ من المعروف أنَّ الفاتح لم يكن ليقوم بأي تصرف دون استشارة علماء المسلمين وأخذ الفتوى من قبل المختصين ثمَّ العمل بموجبها.

ومدنياً وبعد خمسة أيام قام بزيارة غلطة وأمر بتأمين أهلها على أموالهم وحياتهم بعد دفع الجزية[1].

وهكذا فتحت مدينة الروم وكان عمر الفاتح آنذاك الخامسة والعشرين عاماً. وبعد حصار دام خمسين يوماً، وهي المدينة التي حوصرت تسعاً وعشرين مرة وكان بها من السكان آنذاك أزيد من ٣٠٠ ألف نسمة[2].

وبعد فتحها أخذ الفاتح في إتمام الفتوحات التي أنجزها والده، واتجه إلى بلاد البلقان (٨٨٥ هـ) وفتح صربيا والبوسنة والهرسك وأثينا والمورة وبعض الجزر اليونانية. ولكن جيوش العثمانيين انهزمت أمام حاكم ألبانيا إسكندر بك السابق الذكر وحدثت نتيجة لذلك هدنة بينه وبين محمَّد الفاتح ولكنَّ البابا قام بدس الدسائس وحرَّض إسكندر بك حتى استطاع التأثير عليه فنقض هذا الأخير معاهداته. ولكنه لم يلبث أن مات بعدها بقليل.

ثمَّ ضمَّ الفاتح الأفلاق والبغدان[3] إلَّا أنَّ العثمانيين هزموا بعد مدة أمام جيش بقيادة أمير البغدان وغضب الفاتح لذلك وقرر أن يقود الجيش بنفسه وقد فعل وكتب له النصر.

ثمَّ حول السلطان أنظاره إلى آسيا الصغرى ففتح طرابزون وغيرها ثمَّ جعلت البوسنة[4] ولاية كباقي الولايات العثمانية عام ٨٦٨ هـ كما فتحت أترانت[5] بإيطاليا. والجدير بالذكر أنَّ الذي ساعد العثمانيين في تقدمهم في بلاد الألبان والبوسنة وجود كنيسة على خلاف مع الأرثوذوكس والكاثوليك على حد

---

(١) في الإدارة الإسلامية ديوان خاص يسمى بديوان الجهبذ ويشرف على أحوال الذميين ويرعى مصالحهم فأهل الذمة في الدولة الإسلامية مأمونة حقوقهم يعيشون في ظل قوانينهم المدنية إن أرادوا يدفعون الجزية وهم شباب وأهل عمل ويأخذون من بيت المال إذا عجزوا عن القيام بالعمل ولم يحدث في عهد الدولة الإسلامية إن شكى رجل من أهل الذمة أو قامت ثورة من هذه المجموعة على الرغم من كثرتهم في بعض المناطق وذلك لما يتمتعوا به من حرية وأمن وطمأنينة على العقائد والأموال والأعراض والأنفس.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية. إسماعيل سرهنك ص ٤٤.

(٣) تشكلان القسم الأعظم من رومانيا اليوم.

(٤) تشكل البوسنة والهرسك اليوم إحدى مقاطعات يوغسلافيا التي يرتكز فيها المسلمون.

(٥) أترانت: تقع على ساحل إيطاليا الشرقي في أقرب نقطة إلى ساحل ألبانيا وفي هذه النقطة الضيقة من بحر الأدرياتيك واتصاله مع البحر الأبيض المتوسط يعرف باسم مضيق أترانت.

سواء متأثرة بأفكار المسلمين الذين وصلوا إلى تلك الديار من بلاد البلغار والذين كانوا يقيمون على شواطىء نهر الفولغا والذين انتشر بينهم الإسلام في نهاية القرن الثالث الهجري وبناءً على طلبهم أرسل إليهم أحمد بن عباس والمعروف بابن فضلان ليفقههم في أمور دينهم. وهو القائد العباسي المشهور الذي استطاع أن يُعيد الدولة الطولونية في مصر إلى حظيرة الخلافة.

وحاول الفاتح فتح جزيرة «رودوس»، فأرسى عمارة بحرية قوامها ١٦٠ سفينة، وجيشاً برّياً، وحاصرت الحملة الجزيرة واستولت على بعض حصونها، وإلّا أنَّ بعض الجند التفتوا للغنائم وحلَّ بهم الكسل والتراخي عن الهجوم. ورجعت الحملة بعد ثلاثة أشهر. ولربما عاقت عملية الفتح تحصينات هذه الجزيرة، وتأخر فتحها لخمسين سنة تلت. ثمَّ جهز الفاتح جيشين عظيمين أحدهما لفتح جزيرة قبرص، وقاد الثَّاني بنفسه لغزو بلاد العجم، وبينما هو في الطريق أدركته المنية في (تكفور جيري) بين (اسكدار) و (جبسه) عليه رحمة الله.

توفي الفاتح رحمه الله عن عمر يناهز الثالثة والخمسين عاماً وكان ذلك سنة ٨٨٦ هـ الموافق ١٤٨١ م وقد أمضى في الحكم ٣١ سنة وخلفه ابنه بايزيد.

كان لمحمَّد الفاتح ولدان أكبرهما بايزيد ولد سنة ٨٥١ هـ الموافق ١٤٤٧ م حكم أماسية في حياة أبيه أمَّا الثاني. وهو الأصغر وقد سماه الفرنجة (زيزيم) حكم القرمان في ولاية أبيه أيضاً.

تسلم بايزيد الثاني الحكم وكان ميّالاً للسلم محباً للعلوم الأدبية[1] وقد سمي بايزيد الصوفي لكثرة المسالمة ولكنه اضطر لخوض غمار بعض الحروب الداخلية والخارجية فقد حاصر آق كرمان وكيلي، وأعلن الحرب على المماليك في عامي ١٤٨٤ - ١٤٨٥ م. وحاصر بلفرلا للمرة الثالثة في زمانه، وتحقق له نصر

---

(١) كان بايزيد شجاعاً وجسوراً، وفي الوقت نفسه عطوفاً وعاقلاً ومتديناً، وكان والده ـ الفاتح ـ بسبب محبته العظيمة للعلوم ـ قد شعر بالحاجة إلى تعليم ابنه بشكل جيد، ولهذا السبب فقد أدخله المدرسة الإسلامية الشرعية حتى يحصل العلوم الإسلامية. وفي الواقع فقد اكتسب معرفة كبيرة من جراء تلقيه هذه العلوم، ومنه فقد منح لقب بايزيد المسلم الولي لالتفاتته القوية إلى الدين. وقد جمع شعراء عصره وتحادث معهم مثلما كان يفعل والده. وكتب الكثير من الأشعار. وكان رحيماً ويجمع الزكاة للفقراء. وأدّى الكثير من الأعمال الفنية في روعة وبهاء، وكان يعرف العربية والفارسية جيداً، ويلم بالفلسفة والرياضيات.

«عابدينا» وجرى اشتباك بحري مسلح بينه وبين الإسبان. وهاجم أُسطوله الذي أرسله لمساعدة المسلمين في الأندلس، بعض المدن الساحلية الأندلسية النصرانية، حيث لم تتجرأ أي دولة أو إمارة على الاشتباك في القتال معهم. ولم تحصل فتوحات تذكر في عهده وجلها كانت اشتباكات على التخوم. وابتدأت في عهده العلاقات مع دول أُوروبا. إذ وصل أول سفير روسي إلى القسطنطينية عام ١٤٩٢ م الموافق ٨٩٨ هـ وهو محمل بالهدايا. كما ابتدأت الاتصالات الودية مع بولونيا بعقد معاهدة سنة ٨٩٦ هـ الموافق ١٤٩٠ م ولكن تعكّر صفوها بعد مدة لادّعاء كلا الطرفين السيادة على بلاد البغدان. وتزاحمت دول أُوروبا لخطب ود العثمانيين المنتصرين ومحالفتهم والاستعانة بهم على الأعداء. ولكن الإيطاليين تمكّنوا من الإيقاع بين الدولة العثمانية وبين البندقية ونشبت بينهما حرب وقام السلطان بإرسال جيوشه لفتح مدينة ليبنتة من بلاد البلقان والتي كانت تابعة للبنادقة وتمكن من فتحها. كما قام العثمانيون باحتلال ثغور أُخرى من بلاد اليونان كانت من أملاك البنادقة فخاف البنادقة من تقدم العثمانيين واستعانوا بالممالك النصرانية الأُوروبية فأنجدهم البابا وملك فرنسا وساعدوهم على محاصرة جزيرة مدللي[1].

ثمَّ آل أمر السلطة بعد بايزيد إلى ابنه سليم الأول الذي لقّب بياووز أي القاطع.

كلمة عن الفاتح:

كان محمَّد الفاتح رجلاً طويل القامة، وردي الوجه، ممتلىء الوجنتين، مفتول العضلات شبه منقاري الأنف. وكان قائداً بارزاً وإدارياً حقيقياً، كاتماً للسر، لم يبح بأسرار الدولة حتى ولا لأصدقائه المقرَّبين، باستثناء ما تقتضيه الضرورة، كما كان صبوراً على المصاعب جسوراً أمام الأزمات، منضبط النفس قوي العزيمة. أمضى معظم حياته في الجهاد والكفاح الدؤوب والحركة الدائمة. دمَّر «بيزنطة» وفتح القسطنطينية وحوَّل كنيسة «أيا صوفيا» إلى مسجد.

وفي خلال الثلاثين سنة التي أمضاها في الحكم، قاد الجيوش شخصياً في

---

(١) مدللي: جزيرة يونانية في بحر إيجة تقع قرب ساحل بر الأناضول. وهي مسقط رأس أميرال البحر العثماني خير الدين بربروس.

خمسة وعشرين حملة عسكرية، ووسع حدود الدولة العثمانية من رقعة من الأرض مساحتها ٦٠٠ ألف كم² في بداية حكمه، إلى رقعة مساحتها ٢,٢١٤٠٠٠ كم².

وفي عهده، تحقق إقامة المزيد من الأبنية التي تجلّت فيها روعة الفن المعماري، كما أنجز بناء كلية الفاتح بمعاهدها المختلفة، وهي ما يعرف اليوم بجامعة استانبول. وأسَّس الكثير من المدارس الشرعية الإسلامية، ليس في «استانبول» فقط، بل في باقي المدن العثمانية. واكتشف في عهده، قبر الصحابي الجليل «أبي أيوب الأنصاري» رضي الله عنه، على مقربة من أسوار القسطنطينية.

وكان الفاتح مسلماً ملتزماً بأحكام الشريعة الإسلامية، تقياً ورعاً. وعالماً محباً للعلماء ومشجعاً على نشر العلوم. ولربما يعود تدينه الشديد. للتربية الإسلامية الصارمة التي تلقّاها منذ الصغر، بتوجيهات من والده، وجهود الشخصيات الإسلامية العلمية القوية التي أشرفت على تربيته. وصفاء أولئك الأساتذة الكبار وعزوفهم عن الدنيا وابتعادهم عن الغرور ومجاهدتهم لأنفسهم، ممَّن أشرفوا على رعايته.

يقول «طاش كبري زاده» في كتابه ـ الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية في الصفحة ١٤٠ وهو يتكلم عن سيرة العارف بالله الشيخ «آق شمس الدين» المعاصر للفاتح إبان فتح القسطنطينية ما يلي: «ثمَّ بعد يوم جاء السلطان محمَّد خان ـ أي الفاتح، إلى خيمة الشيخ وهو مضطجع فلم يقم له، فقبَّل السلطان محمَّد خان يده وقال: جئتك لحاجة عندك، قال ما هي؟ قال أريد أن أدخل الخلوة عندك أياماً، قال الشيخ: لا، فأبرم عليه مراراً وهو يقول لا، فغضب السلطان محمَّد خان وقال. . إن واحداً من الأتراك يجيء إليك وتدخله الخلوة بكلمة واحدة، قال الشيخ: إنَّك إذا دخلت الخلوة، تجد هناك لذة تسقط السلطنة من عينك، وتختل أمورها، فيمقت الله إيانا، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة. فعليك أن تفعل كذا وكذا، وذكر ما بدا له من النصائح، ثمَّ أرسل إليه ألفي دينار ولم يقبل، فقام السلطان محمَّد خان، وودعه، والشيخ مضطجع كما هو مضطجع على جنبه». ثمَّ يقول المؤلف: ثمَّ بعد غد، دعا السلطان الشيخ، في الثلث الأخير من الليل، وخفنا عليه من ذلك ـ أي على الشيخ، فذهب إليه وقال: فلما ذهبت إليه تبادر إليّ الأمراء يقبلون يدي، قال، وجاء السلطان محمَّد خان، والليل مظلم، وما أدركته بالبصر بسبب الظلمة، لكن عرفه روحي،

فعانقته، وضممته إليَّ ضماً شديداً حتى ارتعد وكاد أن يسقط، فلمَّا خلَّيته إلى أن يزول عنه الحال، وقال السلطان محمَّد خان: كان في قلبي شيء في حق الشيخ، فلمَّا ضمني إليه، انقلب ذلك حباً. ثمَّ إنَّه دخل معه الخيمة، فصاحب معه حتى طلع الفجر وأذّن للصلاة، وصلّى السلطان خلفه . . ».

وهكذا كان أُولئك الشيوخ العظام يدفعون مهلكات النفس، وعلى رأسها الغرور عن قلب السلطان المؤمن المجاهد.

ولا غرابة في هذه القصة، لأنَّ الفاتح قد تلقّى الدروس القيِّمة نظرياً وعملياً، حتى منذ أن كان طفلاً صغيراً، فنشأ إنساناً مؤمناً حقاً، ليتحقق على يديه عند شبابه الفتح الذي وردت بحق صاحبه، البشارة النبوية الشريفة.

كان المولى «أحمد بن إسماعيل الكوراني» مشهوداً له بالفضيلة التامة، وكان مدرّساً في عهد السلطان «مراد الثاني» والد الفاتح. وفي ذلك الوقت كان محمَّد الثاني ـ الفاتح ـ أميراً في بلدة «مغنيسيا»، وقد أرسل إليه والده عدداً من المعلمين ولم يمتثل أمرهم، ولم يقرأ شيئاً، حتى إنَّه لم يختم القرآن الكريم، فطلب السلطان المذكور، رجلاً له مهابة وحدّة، فذكروا له المولى «الكوراني»، فجعله معلماً لولده، وأعطاه بيده قضيباً يضربه بذلك إذا خالف أمره. فذهب إليه، فدخل عليه والقضيب بيده، فقال: أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري. فضحك السلطان محمَّد خان من ذلك الكلام، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضرباً شديداً، حتى خاف منه السلطان محمَّد خان، وختم القرآن في مدة يسيرة[1] . . ».

هذه التربية الإسلامية الصادقة، وهؤلاء المربون الأفاضل، ممَّن كان منهم، بالأخص هذا العالم الفاضل، من يمزق الأمر السلطاني إذا وجد به مخالفة للشرع. أو لا ينحني للسلطان، ويخاطبه باسمه، ويصافحه ولا يقبِّل يده، بل السلطان يقبّل يده. من الطبيعي أن يتخرج من بين جنباتها أُناس عظماء كمحمَّد الفاتح، وأن يكون مسلماً مؤمناً ملتزماً بحدود الشريعة، متقيّداً بالأوامر والنواهي، معظّماً لها ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها، على نفسه أولاً ثمَّ على رعيته، تقياً صالحاً، يطلب الدعاء من العلماء العاملين الصالحين.

---

(١) كتاب الشقائق النعمانية، في علماء الدولة العثمانية، ص ٥٢.

وممَّا يدل على مكارم الأخلاق التي تمتع بها هذا السلطان، أنَّه أبقى للنصارى، خلاف ما أبقاه لهم من الكنائس والصوامع، كنيسة وحارة بتمامها، مراعاة لمهندس معماري يدعى «كريستبول» كان استعمله السلطان محمَّد، في بناء المباني، وأعطاه تلك الحارة بتمامها، لتكون ملكاً له، ولذريته من بعده.

قال «فولتير» بعد روايته هذه الحادثة: ليست هذه الحادثة، من الحوادث التي تستحق الذكر في التاريخ، أي أنَّ مهندساً كان يمتلك حارة بتمامها، بل القصد أن نبينِّ أنَّ الأتراك لم يعاملوا النصارى بقسوة كما نعتقده نحن، ولا تجيز أُمة من أُمم النصارى أن يكون للمسلمين مسجد ببلادها أصلاً، بخلاف الأتراك، فإنَّهم يسمحون لليونان المقهورين، بأن تكون لهم كنائس، وكثير من هذه بجزائر الأرخبيل، تحت مراقبة حكامهم[١].

وهكذا كان تصرف الفاتح إزاء اليونان تصرفاً جيداً، فأمَّنهم على أنفسهم وأموالهم، ووفَّر لهم حرية العبادة، وقسطاً وافراً من الحكم الذاتي. ورأي «فولتير» هذا، شاهد على تعقُّل وحلم وحكمة هذا السلطان العظيم، فهو يقول: ممَّا يثبت صراحة، أنَّ السلطان محمَّد الفاتح، كان عاقلاً حليماً، ترك للمسيحيين المقهورين الحرية في انتخاب بطريركهم، ولمَّا انتخب، ثبته هو مع التعظيم، وسلَّمه عصا البطارقة، وألبسه الخاتم، حتى قال ذلك البطريرك: إنني خجل ممَّا لقيته من التبجيل والاحتفاء الذي لم يفعله ملوك النصارى أصلاً مع أسلافي[٢].

وكان لهذا التصرف، أكبر الأثر في عودة المهاجرين النصارى الذين فرّوا من القسطنطينية، يؤيده سلوكه الذي اتَّبعه عندما دخلها، إذ كان سلوكاً مختلفاً جداً. وحسب شريعة الحرب المتَّبعة في زمانه، كان بمقدوره أن يفعل كما فعل غيره من الفاتحين الأجانب، كبيع الشعب المقهور في أسواق النخاسة، أو نفيه إلى مكان بعيد، لكنه انطلق من مفهوم الإسلام، مفهوم التسامح والرحمة، فأطلق سراح الأسرى، مقابل شيء زهيد، وأسكن من كانوا من نصيبه في المنازل الواقعة على ساحل الخليج، كما أمر أن لا تغتصب امرأة أو يمس شيخ عجوز أو طفل أو راهب، خلاف ما قال بعض المؤرخين الغربيين، ممَّن اتهموه بإطلاق العنان لحرية

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية ـ تأليف إسماعيل سرهنك، ص ٤٥.
(٢) المصدر السابق.

النهب والسلب الذي طال التعطش إليه، أو اغتصاب الراهبات كغيرهنَّ من النسوة، في ثورة من الشهوة لا تعرف التمييز[1].

وكان الفاتح شاعراً وأديباً، ومشجعاً لحركة الترجمة من العربية إلى التركية، ومحبذاً للغة العربية التي كان يجيدها إجادة تامة، فضلاً عن التركية والفارسية، وكان يعرف اليونانية واللاتينية والعبرية.

تقول كتب الأدب التركي، إنَّه كان على موهبة ودراسة في العروض والقافية، وفي شعره جمال لا يحتمل المراء، لأنَّ معناه يسبق لفظه. وقد نشر المستشرق الألماني «ج. جاكوب» أشعاره في برلين عام ١٩٠٤ م. بعد أن استخرجها من مجموعة محفوظة في مقر الكتاب في جامعة أوبسا الملكية. وقام التركي «كمال أديب»، بنشر أشعاره في أنقرة عام ١٩٤٦ م، مع تصويرها من مخطوط تركي، بخط تعليق موجود في مكتبة «ملّت» في استانبول[2].

وعني الفاتح بالأدب عامة والشعر خاصة، فصاحب الشعراء واصطفاهم، وكذلك العلماء، واستوزر الكثير منهم أمثال «أحمد باشا» و «محمود باشا» و «قاسم الجزري باشا» ووظف الأرزاق لثلاثين شاعراً. وكان يرسل مالاً جزيلاً في كل عام إلى الشاعر الهندي «خواجه جيهان»، وإلى الشاعر الفارسي «عبد الرَّحمٰن جامي»[3]. كما كان يستمع يومياً إلى تواريخ روما وغيرها من التواريخ، بإيعاز يصدره لكلّ من صديقه «جيرياجي والكوفايا» وإلى إيطالي آخر بتلاوتها، وهذان القارئان، كانا يقرآن سير «ديوجين اللايرتي» و « هيرودوت» و «ليفيوس» و «كونيتوس كيرتيوس» والبابوات والأباطرة[4].

وينقل الدكتور «محمَّد حرب» بعض أشعار الفاتح، نقلاً عن الدكتور «حسن مجيب المصري» إذ يقول أحدها:

هذا البستان إلى ذوي وذبول

وإذا ما وافى الخريف، فلا ربيع ولا رياض

---

(١) هذا الكلام وغيره يورده المؤرخ المعتبر «ول ديورانت» فكان مع الأسف غير موفق في حكمه.

(٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة. تأليف د. محمَّد حرب ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٣) المصدر السَّابق.

(٤) التاريخ العثماني. حكمت قفلجملي، نقلاً عن Assedis ص ١٣.

أنا إن شاهدت هذا الجميل، ضاع الزمان من يدي، فغلبت عليَّ تقواي وزهدي،

ألا لا يغرنَّك هذا الحسن، يا من تـتيه علينا بالحسن

ومتى دام للجميل جمال؟ فالوفاء لنا الوفاء[1].

وتجلّى تقدير الفاتح للتراث والآثار، عند ضربه أحد جنوده، لكسره عموداً من المرمر بفأس كان يحمله. وعامل جنـوده الأسرى عند الفتـح معاملة كـريمة ولائقة، ودخل جنوده كنيسة أيا صوفيا، واقتادوا الأسرى ولم يقتلوهم كـما ذكر البعض، بل أطلقوا سراحهم، ولم يفعل هو وجنده فعلة الصليبيـين إبّان الحملة الصليبية الرابعـة، وما هـذا إلاَّ بفضل تعـاليم الإسلام الحنيف، التي تصقـل النفوس وتهذّب الأخلاق وتدعو إلى السلام والوئام والأمان.

إضافة إلى ذلك، اتَّبع محمَّد الثَّاني سياسة التسامح، وخاصة إزاء الأسرى، وافتدى العديد منهم بمالـه الخاص، وخـاصة أُمـراء اليونـان، ورجال الـدين، واجتمع مع الأساقفة وهدّأ روعهم، وأمر بتنصيب بـطريرك جـديد، واستقبله بحفاوة بالغة، وأكرمه غاية الإكرام، وتحادثا في أُمور شتّى، وتناول الطعام معه، وقدّم له عصا البطريركية، ونهض له عندما همَّ بالانصراف، وساعده على ركوب جواده، وأمر رجال دولته باصطحابه إلى مقره، وأن يجعل في مـرتبة الـوزراء، وهكذا، انعكس هذا التصرف الودّي، بأكبر الآثار على نفسية البطريرك خاصة، والروم عامة[2].

وكان محمَّد الفاتح رجل حرب وعبقري زمانه، فهو الذي خطرت ببـاله فكرة نقل المدافع من البوسفور إلى القرن الذهبي، عبر مرتفعات «غلطه»، وفكرة إقامة قلعة «روملي حصار»، على الجانب الأُوروبي من البوسفور في أضيق نقاطه، لتقابل قلعة «أناضولي حصار»، واشترك شخصياً في عملية البناء، وحمل الأحجار بنفسه، كما أمر بصب أكبر مدافع عرفها التاريخ حتى ذلك الحين.

ولم ينس الفاتح أهمية الحرب النفسية على العدو، وأثرها الحاسم في انهيار معنوياته، ومنه فقد تسلّق الجنود العثمانيون أسوار القسطنطينية يوم الفتح وهم

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٢٥٧.

(٢) العثمانيون والبلقان، تأليف د. علي حسون، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

يصيحون «الله أكبر» فأدخلوا الرعب في قلب الامبراطور وجنوده، حتى اقترح بعض المحاصرين عليه مغادرة المدينة من شدة الخوف، كما هالهم صوت الضربات الشديدة التي كان دويّها يقترب منهم رويداً رويداً، ولم تكن إلاَّ أصوات المعاول التي يجري بها حفر الخنادق الأرضيّة من قبل جنود الفاتح لتخويف المحاصرين وبث الرعب والفزع فيما بينهم. كذلك هال المحاصرين منظر القلعة الخشبية التي انتصبت في ليلة واحدة، وقد كسيت بالجلد السميك المبلل بالماء، لتستخدم لعدة أغراض منها بث الذعر والخوف بين صفوفهم، وبالأخص ذلك المشهد الغريب لها، وهي تقذف كتل الحجارة من داخلها، فهالهم هذا التصميم المفاجئ. وهنا يقول اللواء الركن «محمود شيت خطاب»، إنَّ الفاتح كان يقاتل عدوه بأسلوبين، أسلوب الحرب الاعتيادية، وأسلوب الحرب النفسية.

وتبقى الآن مسألة أخيرة، فيما يخص مسألة وفاة الفاتح، فقد جاء في بعض المصادر، نقلاً عن تاريخ «عاشق باشا» أنَّه كان ضحية عملية تسمم جرت بتدبير طبيبه اليهودي «يعقوب باشا» المهتدي إلى الإسلام. وذكر المستشرق الألماني المؤرخ المدعو «فرانز بابنغر» هذه الحادثة في كتابه المعنون باسم «السلطان محمَّد الفاتح وعصره» وأكَّد أنَّ طبيبه اليهودي سابق الذكر، قدّم له السم ليشربه، ويؤيد قسم من الأتراك هذا الرأي. والأمر يبدو أنَّه لا يزال موضع جدال.

يقول «طاش كبري زاده» المتوفى عام ٩٦٨ هـ، عندما يذكر نبذة عن «يعقوب الحكيم»: كان يهودياً، وجعله السلطان محمَّد خان، حافظاً للدفتر بالديوان العالي، وهو يهودي ثمَّ أسلم، فاستوزره السلطان محمَّد خان.. واتّفق في تلك الأيام أن مرض السلطان محمَّد خان، فعالجه يعقوب الحكيم.. وذكر الوزير محمَّد باشا عند السلطان، الحكيم اللاري، ورغّبه في الدخول على حضرته، فلمّا دخل عليه، عالج خلاف معالجات الحكيم يعقوب وغيرها، ولمّا رآه الحكيم يعقوب، عرف أنَّه غير قابل للعلاج بعد هذا، ولم يتكلم بشيء، وصوّب رأي الحكيم اللاري. ولم يلبث السلطان إلاّ قليلاً حتى مات...[1].

لكنه ورد في تاريخ عاشق باشا المسمى «تواريخ آل عثمان» في الفقرة الخاصة بمرض الفاتح، «أنَّ أطباء السلطان، اتفقوا على إعطائه «شراب فارغ»،

---

(١) كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ص ١٣٦.

وكان هذا المجلس يضم «يعقوب باشا»، ولم يكن هذا من النفوذ بحيث ينفرد بالرأي في المجلس». وجاء المؤرخ «بابنغر» متعسفاً في ترجمة كلمة «شراب فارغ» وقال إنَّها تعني السم، وهي في الحقيقة تعني الدواء الذي يفرغ المعدة ممَّا بها من أكل وما شابهه[1]. وهذا ما فطن إليه المؤرخ «شهاب الدين تكين داغ»، وفنَّد كلمة «شراب فارغ»، ودحضها لغوياً وتاريخياً، وبالتالي عمل على إيقاف الحملة العالمية والمحلية التركية المقصود من ورائها، نبش قبر الفاتح، وتحليل بقايا رفاته، أو آثارها في لحده، وهذا ما يجرّ إلى حفريات وعمليات تنقيب للتربة يمتد أثره إلى المقبرة البيزنطية القديمة الواقعة كما يقولون تحت جامع الفاتح، حيث دفن بها الأباطرة، وبالتالي إغلاق جامع الفاتح أمام المصلِّين ومن ثمَّ تحويله إلى متحف ومنطقة أثرية حسب قانون الآثار التركي، تلك الحجة التي بموجبها أغلق جامع «أيا صوفيا» أمام المصلين وحوِّل إلى متحف. وفنَّد المؤرخ التركي هذه الادعاءات المغرضة والمؤامرة الأجنبية المكشوفة فقال: إنَّ «عاشق باشا» الذي اعتمد عليه «بابنغر»، هو مؤرخ عثماني أتى بعد حادثة فتح القسطنطينية بواحد وثمانين عاماً، ولم يقل هذا شيئاً جديداً على المؤرخين السابقين عليه من الذين عاصروا الفتح من عثمانيين وأجانب، ولم يدَّع أحد من هؤلاء مثل هذا الادّعاء وإنَّما اتفقوا على أنَّ موت السلطان محمَّد الفاتح كان لإصابته بالنقرس، وهو المرض الذي أصاب أخيراً، كثيراً من سلاطين آل عثمان على درجات متفاوتة كان آخرهم السلطان «عبد الحميد الثَّاني» رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٧٢.



الْبَابُ الثَّالِثُ

الدَّولة العُثمانيَّة في أوْج التَّوسُّع والقُوَّة

بلغت الدولة العثمانية أوج قوتها في عهد السلطانين سليم الأول وسليمان القانوني.

أ - السلطان سليم الأوَّل: «٩١٨ - ٩٢٦ هـ» وهي مدة ولايته ولد عام ١٤٧٠ م وتوفي عام ١٥٢٠ م.

قلنا سابقاً إنَّ السلطان بايزيد تنازل عن الملك لابنه سليم الأول إذ جرى ذلك بضغط من الإنكشارية في صفر من عام ٩١٨ هـ وأول عمل قام به هذا السلطان الجديد كان تعيين ابنه سليمان حاكماً على القسطنطينية وقد انشقَّ عليه إخوته فقاتلهم وانتصر عليهم.

عاد سليم الأول بعد ذلك إلى أدرنة إذ كان بانتظاره سفراء البندقية والمجر وموسكو وسلطنة مصر فعقد معهم هدنة طويلة الأجل ثمَّ اتجه لبلاد فارس ودخل مدينة تبريز ثمَّ ضم سوريا ومصر والحجاز إلى الدولة كما سنذكره في حينه وبعدها رجع إلى أدرنة للاستراحة وأبرم هناك معاهدة مع سفير إسبانيا بشأن زيارة النصارى للقدس التي أصبحت تتبع الدولة.

توفي السلطان سليم الأول في ٩ شوال سنة ٩٢٦ هـ الموافق ١٥٢٠ م وهو ابن ٥١ سنة واستمر حكمه تسع سنين وأخفي خبر موته حتى حضر ابنه سليمان من إقليم صاروخان خوفاً من ثورة الإنكشارية. وقد كان ميالاً لسفك الدماء يقتل لأسباب واهية حتى ولو كانت الضحية من أبنائه أو إخوانه أو وزرائه وأحدثت

فتوحاته رعباً شديداً في أوروبا وهرع البابا يعد لحملة صليبية جديدة. وبنى كثيراً من الجوامع وحوَّل أجمل كنائس القسطنطينية إلى مساجد. امتاز بالحدّة والنشاط وكان شاعراً عظيماً نظم القصائد الجيدة باللغة الفارسية واهتمَّ بالتصوف بشدة وكان ينوي جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الدولة العثمانية. وقد نُشر ديوانه عام ١٩٠٤ بأمر من القيصر الألماني ولهلم الثَّاني وقدم هدية للسلطان عبد الحميد وخلدت ذكراه عند الشعب التركي حتى إنَّ الاتحاديين أطلقوا على الطراد الألماني غوبن اسم ياووز سلطان سليم وهو الذي كان قد فرَّ من وجه الأسطول البريطاني والتجأ إلى المياه العثمانية.

ب - السلطان سليمان القانوني: «٩٢٦ - ٩٧٤ هـ» وهي مدة ولايته ولد عام ١٤٩٥ م وتوفي عام ١٥٦٦ هـ

ولد في شعبان سنة ٨٩٨ هـ وفي عهده بلغت الدولة أوج الكمال والقوة وهو عاشر السلاطين العثمانيين. وبعد وصوله نبأ وفاة أبيه السلطان سليم توجه قاصداً القسطنطينية إذ كانت الإنكشارية في انتظاره هناك وبعد مراسيم التشييع والدفن والتعزية والتهنئة كانت باكورة أعماله تعيين مربيه قاسم باشا مستشاراً خاصاً له ثمَّ أبلغ كافة الولاة وأشراف مكة والمدينة بتوليه الخلافة وبخطاب مفعم بالنصائح والآيات القرآنية المبينة فضل العدل والقسط في الأحكام ووخامة عاقبة الظلم. وحينما وصل نبأ تقلده زمام الحكم إلى دمشق تمرد حاكمها الغزالي[1] وحاول احتلال بيروت وتحريض حاكم مصر خير بك[2] على الثورة ولكن السلطان بعث إليه فرحات باشا أحد وزرائه فأخمد التمرد وقتله.

ثمَّ قام السلطان سليمان بفتح بلغراد وجزيرة رودوس في البحر المتوسط وغيرها وتدخل في بلاد القرم والأفلاق وفي ٢٥ آذار ١٥٢٥ م - ٩٣١ هـ وبعد عودته من أدرنة توجه إليها لقضاء فصل الشتاء تذمر الإنكشارية ونهبوا سراي الصدر الأعظم الذي كان غائباً في مصر وعاثوا فساداً في أماكن أخرى فأسكتهم السلطان وعزل بعض قادتهم المسببين للفتنة ثمَّ فتح بلاد المجر وعاصمتها وحارب

---

(١) هو أحد قادة الجيش المملوكي الذي انشقَّ عند مرج دابق قرب حلب إثر المعركة التي جرت هناك بين جيش العثمانيين والمماليك وقد كافأه السلطان سليم على ذلك بتعيينه حاكماً على دمشق.

(٢) هو قائد آخر منشق من جيش المماليك كان حاكماً على حلب عينه السلطان سليم حاكماً على مصر.

النمسا وحاصر فيينا ودخل مدينة تبريز للمرة الثانية ثمَّ فتح بلغراد أيضاً. وفي شباط سنة ١٥٣٦ م - ٩٤٢ هـ منحت بعض امتيازات للرعايا الفرنسيين في الدولة ثم جرى ضم إقليم الجزائر وتونس على يد خير الدين بربوس وسنقوم بشرح مفصل لذلك بعد قليل. ثمَّ اتفقت الدولة العثمانية وفرنسا لمحاربة النمسا وفتحت مدينة نيس الفرنسية وتمَّ إبرام الصلح مع النمسا وتمَّ فتح عدن ودخل العثمانيون تبريز للمرة الثَّالثة ثمَّ جرت معاهدة بين الدولة وفرنسا عام ١٥٥٣ م.

منذ ذلك الحين كانت الأصابع اليهودية تحاول الدس وإثارة الفتن والاضطرابات في الدولة ومن ثمَّ حرفها عن جادة الطريق المستقيم ممَّا جعل ذلك عاملاً من عوامل الضعف فيها فقد أهدى تتار القرم للسلطان فتاة يهودية روسية سميت (خرم) أي الباسمة وقامت تلك اليهودية فيما بعد بِحَبْك المؤامرات لقتل ابن سيدها الكبير مصطفى كي يتمكن ابنها من تسلم العرش بعد أبيه فقامت بالسعي لدى سيدها حتى تمكنت من تعيين رستم باشا اللقيط الكرواتي صدراً أعظم بعد موت إياس باشا الوزير السابق ثمَّ زوَّجته ابنتها وبذلك مهدت الطريق لتولية ابنها سليم وفي عام ١٥٥٣ م بينما كانت الحرب سجالاً بين الدولة والعجم وكان حينها مصطفى يقود أحد الجيوش العثمانية هناك، كتب ذلك الوزير أي رستم باشا إلى السلطان محرِّضاً إيَّاه على ابنه مصطفى مفتعلاً الأكاذيب حتى تمكن من أن يوغر صدر الأب ضد ابنه فأمر سليمان بالقضاء على ابنه ثمَّ نقلت جثته إلى بورصة ودفن هناك فثار الإنكشارية وطلبوا قتل رستم باشا فعزله السلطان. ولكن تلك المرأة تمكنت من إغراء زوجها وقتلت الوزير الجديد المعين وأعادت رستم إلى مكانه ليقوم بالتعاون معها بدس دسائس جديدة فحرّض بايزيد (الابن الآخر للسلطان) على أخيه وأبيه وجرت معركة قرب قونية سنة ١٥٦١ م وهزم بايزيد وتقهقر حتى (أماسية) ومنها تراجع إلى بلاد العجم ملتجئاً إلى الشاه طهماسب الذي آواه إلى حين ثمَّ غدر به وسلَّمه للدولة العثمانية فقتلوا جميعاً ودفنوا في سيواس.

ثمَّ اشتد مرض السلطان سليمان وتوفي في ٢٠ صفر عام ٩٧٤ هـ الموافق ١٩٦٦ م عن أربع وسبعين سنة قمرية واستمرَّ حكمه ٤٨ سنة وأخفي خبر موته وأرسل بطلب ابنه سليم بمدينة كوتاهية.

اشتهر سليمان بالقانوني نظراً للقوانين العديدة التي وضعها. ففي مجال

الأنظمة الداخلية أحدث بعض التغييرات في نظام العلماء والمدرّسين الذي وضعه محمَّد الفاتح فجعل أكبر الوظائف العلمية وظيفة المفتي. وقسّم جيش الإنكشارية إلى ثلاث فرق مختلفة في المرتبات والرتب. وكان عدد الجيش عند وفاته ٣٠٠ ألف مقاتل فيه ٥٠ ألف جندي نظامي كما أنَّ عدد المدافع كان ٣٠٠ مدفعاً وكذلك السفن البحرية تقارب العدد نفسه. وقد بدأ بعده توقف الفتوحات إذ إنَّه أجاز للإنكشارية القتال تحت إمرة قائدهم بدلاً من قيادته ولو لم يكن موجوداً ـ أي السلطان ـ فتقاعس أغلب من خلفه من السلاطين عن الخروج للقتال كما أنه أبطل عادة النظر في كافة أمور الدولة في ديوان الوزراء وتحت رئاسته وتكفل الصدر الأعظم بذلك فنفذت المكائد والدسائس بين الوزراء الذين كان منهم من أسلم ظاهرياً وهو من النصارى. كما أنَّه أباح للإنكشارية التزوج والإقامة خارج ثكناتهم كما أعطاهم ميزات خاصة وكان ذلك من العوامل التي قادت إلى ضعف الدولة كما سيمر معنا.

٢ - ضم البلاد العربية:

أ ـ حالة البلاد العربية في القرن العاشر الهجري وما قبله:

كانت البلاد العربية مفككة الأوصال تحكمها دويلات صغيرة في ذلك العهد فقد قامت في شمالي إفريقيا والأندلس دولة الموحدين التي أسَّسها أبو عبد الله محمَّد بن تومرت عام ٥١٥ هـ الذي التقى بالإمام الغزالي حسب بعض الروايات وفي عهد خلفائه توسعت الدولة حتى شملت الشريط الساحلي ابتداء من حدود مصر حتى الأندلس. ثمَّ بدأ حكمهم يضمحل شيئاً فشيئاً وخاصة بعد الهزيمة التي منوا بها عام ٦٣٢ هـ في الأندلس. ثمَّ تلاشى حكمهم في المغرب بعد سقوط غرناطة عام ٨٩٧ هـ على أيدي النصارى. أمَّا طرابلس الغرب فقد استولى عليها صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٨ هـ واستولى بنو مرين على مراكش عاصمة الموحدين عام ٦٦٨ هـ وكان بنو حفص في تونس، وهم ينتسبون إلى حفص عمر رئيس قبيلة هنتانة البربرية وهو من أتباع ابن تومرت ولكنه وأولاده أعلنوا استقلال تونس عام ٦٢٥ هـ واستمرت دولتهم قروناً ثلاثة وهي في حالة ازدهار وقد حكم فيهم أبو زكريا وكان يلقب بالأمير وهو من الحفصيين وقد اتخذ ابنه المستنصر لقب الخليفة. ثمَّ حدثت حروب داخلية وفوضى في الحكم حتى جاء خير الدين بربروس وضمَّ تونس إلى الدولة العثمانية عام ٩٤١ هـ. أمَّا في الجزائر فقد حكم

بنو زيان من عام ٦٣٧ هـ حتى ٩٦٢ هـ وهم من نواب دولة الموحدين وقد أعلنوا استقلالهم واتخذوا تلمسان عاصمة لهم ثمَّ جاء بنو مرين وهم حكام المغرب الأقصى فاستولوا على تلمسان عام ٧٣٧ هـ واحتفظوا بها حتى عام ٧٤٩ هـ وقام الزيانيون فاستردوها واستمرَّ ذلك حتى عام ٩٦٢ هـ حيث عاد بنو مرين للحكم مرة ثانية إلى أن أتى العثمانيون.

أمَّا في سوريا ومصر فقد ضمَّت الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين مصر وسوريا والحجاز حتى اليمن. إذ بعد انقراض الخلافة في مصر عام ٥٦٧ هـ باستيلاء صلاح الدين عليها وخلع العاضد آخر خليفة فاطمي. قام ـ أي صلاح الدين ـ بتولي السلطة سنة ٥٦٩ هـ وأرسل أخاه توران شاه إلى اليمن فأسس فرعاً للدولة هناك ثمَّ دخل صلاح الدين دمشق عام ٥٧٠ هـ وتوجه منها إلى حلب ثمَّ توجه شرقاً إلى نهر الفرات فالموصل. وقام أولاده باقتسام الملك من بعده وأتاح الأيوبيون للمماليك الأتراك في مصر فرصة تولي السلطة[1]. فبعد موت الملك الصالح (نجم الدين) تولى ابنه توران شاه الحكم ثمَّ قتل فجلست أرملته (شجرة الدر) على العرش وهي التي كانت تقرب المماليك الأتراك إليها فجعلت الأمير التركي عز الدين إيبك نائباً لها ثمَّ تزوجته فصار هو السلطان الحاكم وبعد ثلاثة أشهر خُلعت شجرة الدر وقام هذا بارتقاء العرش بمعاونة المماليك البحريين سنة ٦٤٨ هـ ملقباً نفسه بالملك المعز لدين الله وبذلك فقد أسَّس دولة المماليك الأتراك في مصر بعد انتخابه واحداً من الأُسرة الأيوبية لمقام السلطنة ثمَّ هزم الملك الناصر يوسف من أيوبية حلب ودمشق وبذلك فقد سيطر على سوريا. ثمَّ خلع السلطان الأيوبي وأصبح هو الحاكم المطلق على مصر وبعد مقتله تداول السلطة بعض أفراد أسرته من بعده ثمَّ آل الحكم إلى أيدي المماليك الجراكسة الذين تتابعوا على الحكم بطريقة الإنتخاب غالباً وكان أول سلاطينهم الظاهر برقوق «٤٧٤ هـ ـ ٧٩١ هـ» ثمَّ مرة أُخرى من عام ٧٩٢ هـ حتى ٨٠١ هـ وحصلت في زمنه أُولى الصلات بين المماليك والدولة العثمانية وكانت علاقتهما متينة ووطيدة إذا استثنينا ما حدث بين السلطان قايتباي المملوكي وبايزيد الثاني العثماني من خصومة. وكان تحت النفوذ المملوكي في منتصف القرن الثامن الهجري إمارة

---

(١) كتاب الدول الإسلامية تأليف ستانلي لين بول ترجمة محمَّد صبحي فرزات.

صغيرة تعرف بإمارة ذي القادر أو ذي القدر تضم مرعش[1] والبستان[2] وما حولها وكذلك ملطية[3] وخربوت وكانت هذه الإمارة محور الأساس في العلاقات العثمانية المملوكية إذ إنَّ محمَّد الفاتح تزوج منهم كما تزوج بايزيد الثَّاني إحدى أميرات هذه الولاية وهي التي أنجبت له السلطان سليم الأوَّل وقامت مصر بتعيين والٍ على الإمارة وقام العثمانيون بتعيين والٍ لها بالمقابل وتقاتل الطرفان وتغلَّب المصريون وقتلوا الوالي المعين من قبل العثمانيين ونصَّبوا صنيعتهم فتأثَّر العثمانيون وكانت هذه الأحداث من بين الأسباب التي أدت إلى إثارة العلاقات بين المماليك والدولة العثمانية وإن كان ذلك قليل الأهمية أمام غيره من الأحداث التي شملت المنطقة كلها.

أمَّا في العراق فقد حكم الأقيونيون بلاد ديار بكر وآذربيجان وإيران من سنة ٦٠٨ هـ حتى ٩١٤ هـ وهم عشيرة تركمانية كبيرة هاجرت من تركستان إلى آذربيجان ثمَّ تقدمت باتجاه ديار بكر واستقرت أخيراً بين آمد والموصل والمؤسس الأول لها هو بهاء الدين قره عثمان الذي التزم جانب تيمورلنك حينما غزا الممالك الإسلامية بتلك المنطقة فكافأه تيمور بأن أعطاه ولاية ديار بكر. وكان أشهر حاكم من تلك الزمرة مراد بن يعقوب حفيد أوزون حسن وقد تولى على العراق وفارس بعد مقتل ميرزا محمدي (الحفيد الآخر الذي كان يحكم في يزد)[4] ثمَّ أجرى معاهدة مع الحفيد الآخر آلون بن يوسف حاكم آذربيجان ثمَّ انقرضت دولة الأقيونيين أمام الصفويين وهؤلاء من إحدى الفروع التي حكمت إيران ويدَّعون أنَّهم ينتسبون للعرب ولآل بيت الرسول ﷺ وقد أخذوا اسمهم من الشيخ صفي الدين الأربيلي الولي الصالح في تلك الأسرة والشاه إسماعيل هو الابن الثَّالث لحيدر (الحاكم الأوَّل والمؤسس للدولة الصفوية) وعاصمته تبريز[5] وقد استولى هذا على كامل إيران اليوم وقضى على الولاة الذين عينهم تيمور وتحارب مع الأقيونيين المار ذكرهم وآلت تبريز ليد الصفويين وامتدَّ ملك الشاه إسماعيل من جيحون حتى خليج البصرة ومن أفغانستان للفرات وتاخمت تلك الدولة

(١) مرعش: بلدة تركية تقع إلى شمالي سوريا اليوم قريبة من لواء اسكندرون.
(٢) البستان: قرية تركية صغيرة شمالي مرعش.
(٣) ملطية: بلدة صغيرة في وسط تركيا شمال شرقي البستان.
(٤) يزد: مدينة في وسط إيران على السفوح الشرقية لجبال زاغروس.
(٥) تبريز: مدينة إيرانية في الشمال قرب الحدود التركية والروسية.

الشيعية أراضي الدولة العثمانية وكثيراً ما كانت تحدث المناوشات بينهما حينما كان الصفويون يحاولون نشر مذهبهم في الأناضول. وقد هجم العثمانيون على إيران في زمن السلطان سليم وهزم الشاه إسماعيل في معركة جالديران سنة ٩٢٠ هـ ودخل العثمانيون تبريز وقد بقيت العراق منطقة صراع بين الطرفين حتى عام ١٤٠٨ هـ حيث ضمَّت نهائياً إلى الدولة العثمانية. وعلى الرغم من هزيمة الصفويين أمام السلطان سليم فإنَّ دولتهم لم تتعرض للضياع على الرغم من الخسارة التي لحقت بهم والأجزاء التي اقتطعت من البلاد التي سيطروا عليها وقد تعاون الصفويون مع البرتغاليين الذين أعلنوا أنَّ لهم أهدافاً صليبية ومعادية بصراحة للإسلام كما أنَّ العثمانيين كانوا ينوون تأليف جبهة قوية تستطيع الوقوف أمام أوروبا كلها التي تدعم البرتغاليين. لهذا كله كان لا بد من الصدام الأوَّل مع الصفويين فقتال الأعداء الداخليين يجب أن يسبق الصراع الخارجي[١].

ب ـ الصليبية العالمية والعثمانيون:

في الوقت الذي قامت فيه الدولة العثمانية كان الإسبان والبرتغاليون يتلقون الدعم من أوروبا كاملة ويقاتلون المسلمين في الأندلس بغية إخراجهم[٢] منها تحت راية الصليبية حتى تمكنوا من ذلك وكان على العثمانيين الذين كانت دولتهم في أوج قوتها أن يقاتلوا أوروبا من جهة الشرق ليخففوا الضغط عن المسلمين في الأندلس ولردع الصليبية لتقليل هجمتها على بلاد المسلمين[٣]. ثمَّ كان عليهم أن

---

(١) كتاب إيران للأستاذ محمود شاكر.

(٢) ادّعى الإسبان والبرتغاليون أنَّهم يريدون الاتجار بالتوابل ولكنهم كانوا يودون قتل المسلمين والتآمر على الإسلام ونشر النصرانية إذ استطاع البرتغاليون سرقة خرائط البحار والمحيطات والمعلومات اللازمة عن الملاحة بدسهم من أجاد اللغة العربية من اليهود في بلاد مصر بغية القيام بتلك المهمة ثمَّ انسلَّ هؤلاء مدبرين إلى بلاد البرتغال. كما دار فاسكو دي غاما حول رأس العواصف حتى وصل شرقي إفريقيا وسارت سفنه حتى دخلت زنجبار عام ٩١١ هـ. والتقى في مالندي (مدينة في كينيا اليوم على شاطىء المحيط الهندي) بالرحالة المسلم ابن ماجد الذي دله على طريق الهند فوصل إليها ثم رجع وعاد مرة أخرى وضرب كلكتا بالقنابل انتقاماً من المسلمين هناك. وقد أغرق سفينة محملة بالحجاج في خليج عمان أيضاً وعاد إلى كلكتا مرة أخرى وأغرق عدداً من المراكب هناك كانت محملة بالأرز وقطع أنوف وآذان بحارتها. كما دمر البرتغاليون معظم مساجد مدينة كيلوه في شرقي إفريقيا والبالغ عددها ٣٠٠ مسجد آنذاك.

(٣) لم تكن لدى العثمانيين الخيرة في التقدم لمقابلة البرتغاليين إذ إنَّ الصراع كان بين المسلمين والنصارى. وإذا لم يفعلوا هذا هاجمهم البرتغاليون في عقر دارهم بصفتهم المسلمين والذين يمثلون =

يتجهوا نحو البلاد العربية للوقوف في وجه البرتغاليين الذين وصلوا إلى جنوب البلاد العربية بغية تهديم الأماكن المقدسة الإسلامية وتسلم بيت المقدس وكان عند الصليبية مشروعات منها تحويل مياه النيل إلى البحر الأحمر لحرمان مصر منه ثمَّ هدم المدينة المنورة ونبش قبر الرسول ﷺ وسرقة رفاته.

أمَّا الإسبان فقد سيطر منهم ماجلان الذي وصل إلى جزر أشرف منها على البر الآسيوي وعرفت فيما بعد باسم جزر الفيليبين واتفق مع ملك جزيرة سيبو[1] «هومايون» على دخوله في الديانة الكاثوليكية مقابل أن يجعله ماجلان ملكاً على جميع الجزر تحت التاج الإسباني ولكنه ما أن وصل إلى جزيرة صغيرة قرب سيبو حتى علم أنَّ فيها مسلمين وأنَّ حاكمها مسلم أيضاً فصبَّ جام غضبه عليهم وثار حقده وشنَّ حرباً عليهم بأسلحته الحديثة ولكن الحاكم هناك قام بقتل ماجلان ـ ولا يزال قبره هناك ـ ورفض تسليم جثته للإسبان.

هذه هي لمحة عن الملابسات التاريخية التي رافقت التحرك العثماني نحو البلاد العربية في ذلك الوقت والمهم معرفة الهدف الأصلي لتلك الهجمة الشرسة الصليبية ألا وهو محاصرة المسلمين وتقتيلهم وتنصير الشعوب التي كانت تحت إمرتهم فكانت تلك الهجمة حافزاً للتحرك العثماني بغية إنقاذ المسلمين المهددين بالإبادة من قبل أُولئك الحاقدين الذين أخفوا أهدافهم كما هي الحال دائماً معهم وحتى وقتنا الحاضر.

جـ ـ أهداف العثمانيين في ضم البلاد العربية:

لمَّا كان العثمانيون يقاتلون الأُوروبيين في كل جهة فقد سطَّرت أُوروبا تاريخ بني عثمان بشكل مخالف للحقيقة ومن وجهة نظرها الخاصة. ولمَّا سيطرت أوروبا على البلاد العربية مارست كتابة التاريخ بما تعتقد ومن منطلق الخصم. ولمَّا كان العرب في حالة الضعف وبلادهم تحت السيطرة الاستعمارية فلم يمكنهم إلَّا أخذ ما أعطته أُوروبا واستمرَّ ذلك بل تبنى أعداء الإسلام من العرب هذا الموضوع معتمدين على آراء ساداتهم.

= حماة الإسلام وبصفة البرتغاليين والإسبان يمثلون حماة النصرانية والقتال بين الجانبين في كل مكان في البر والبحر.

(١) سيبو: جزيرة صغيرة وسط جزائر الفيليبين.

لقد كانت علاقة المماليك بالعثمانيين جيدة وحصلت أُولى الصلات بين الدولتين في عهد الظاهر برقوق من جهة والسلطانين العثمانيين مراد الأول وبايزيد من جهة أخرى ثمَّ حصلت بينهما روابط متينة في عهد السلطان محمَّد الفاتح والأشرف إينال المملوكي ولكن سرعان ما تعكَّر صفوها في عهد السلطان بايزيد الثَّاني إذ حصل بينه وبين السلطان المملوكي قايتباي نوع من الخصومة بسبب أبناء إمارة ذي القدر كما ذكرت سابقاً.

من هنا فقد حدثت بعض الحروب بين الطرفين. وكان الصليبيون الإسبان والبرتغاليون يهددون الشواطئ الجنوبية لجزيرة العرب والأراضي المقدسة. وقد افتقر هؤلاء إلى المقدرة على صد الأعداء ممَّا زاد من اقتراب العثمانيين من الساحة مندفعين بالعاطفة الإسلامية وبالواجب الديني الملقى على عاتقهم. وبعد سقوط الأندلس عام ٨٩٧ هـ هاجر بعض المسلمين إلى شمالي إفريقيا ولجأ بعضهم إلى أعمال الفداء في البحر الأبيض المتوسط انتقاماً من النصارى ولاحق الصليبيون المسلمين حتى سواحل بلاد المغرب وهددوا الفدائيين فوقع المسلمون تحت التهديد وأصبحت عندهم قناعة أنَّهم لن يتخلصوا من هذا العدو إلَّا بمجيء العثمانيين إلى بلادهم. وبخاصة أنَّ سمعة هؤلاء قد ارتفعت لدى المسلمين جمعاء بسبب فتوحاتهم الواسعة. كما أنَّ استيلاء البرتغاليين على عدن وعمان عام ٩٢١ هـ كان حافزاً قوياً للتحرك العثماني نحو المنطقة وإلحاقها بهم حتى يستطيعوا إنقاذها من براثن الاستعمار البرتغالي وخاصة أنَّ هذا الاستعمار كان له دوره في إخراج المسلمين من الأندلس إضافة إلى علاقة طيبة توطدت بين الصفويين حكام العراق وإيران والبرتغاليين المستعمرين.

أمَّا المماليك فأعود لأذكر أنَّهم قد امتنعوا عن السماح لسير العثمانيين ضمن أملاكهم للوصول إلى البرتغاليين لمنازلتهم خوفاً على حكمهم ومصالحهم وخوفاً من جيرانهم الذين قد يعدُّون السماح لدخول العثمانيين أراضي المماليك اعتداء عليهم وتطويقاً لهم، الأمر الذي حدا بالعثمانيين إلى شن الحرب عليهم. أمَّا الشعب في هذه المنطقة فكان يخشى البرتغاليين الذين فعلوا الأفاعيل بإخوانهم في الأندلس ويتحفز للقائهم وينتظر القائد الذي يقودهم ولم يجد بداً من اتفاق المسلمين ويتمنى مجيء العثمانيين للوقوف في وجه أعداء الإسلام. ثمَّ إنَّ تصريحات العثمانيين الدائمة بأنَّهم خدام الإسلام وحماته قد جعل عدداً من

الأمراء وسراة القوم في حكومة المماليك يـرحلون إلى البر الأنـاضولي ويتصلون بالسلطان سليم ويدعونه للقيام بالعبء الملقى على عاتقه في قتل أعداء الإسلام وأنَّهم بجانبه إذا ما فعل ذلك.

وأخيراً فإنَّ سلاطين العثمانيـين الأوائل قد شعروا بعمق الرابطة الإسلامية التي تشد المسلمين جميعاً بعضهم إلى بعض فعملوا على توحيد القسم الأكبر من بلاد المسلمين ولم يبق في العالم الإسلام كله إلَّا دولتين كبيرتين أُخريـين وهما دولة المغول في الهند والدولة الصفوية في إيران إضافة إلى الدولة السعدية في المغرب. واستمرَّ العثمانيون في محافظتهم على شكل الخلافة الإسلامية بعد أن نقلوها إلى أيديهم من آخر الخلفاء العباسيـين في مصر حيث كانت رمزية فتحولت إلى فعل وواقع في عاصمة الإسلام الجديدة مدينة استانبول القسطنطينية سابقاً.

٣ - ضم البلاد العربية:

أ ـ ضم العراق وغربي إيران:

كان الشاه إسماعيل الصفوي الذي احتلَّ العراق العربي وخراسان وديار بكر عام ٩١٤ هـ ـ ١٥٠٨ م والذي أرسل قواده لاحتلال بغداد بعدها بسنتين قد ساعد الأمير أحمد ابن السلطان بايزيد الثاني وحرَّضه عـلى أخيه السلطان سليم الأول وتفاوض مع المماليك أيضاً ضده فأعلن سليم الحرب عليه وسار بجيوشه من أدرنة باتجاه تبريز في ٢٢ محرم عـام ٩٢٠ هـ الموافق ١٤ آذار عـام ١٥١٤ وسار الجيش تحت قيادته بنفسه فتقهقرت أمامه الجيوش الفارسية واستمرت متظاهرة بالتراجع بقصد إنهاك قوته حتى جهات تبريز وهناك وقع القتال في وادي جالديران في ٢ رجب سنة ٩٢٠ هـ الموافق ٢٤ آب ١٥١٤ م فانتصر العثمانيون وساعدت مدفعيتهم الضخمة في ذلك وفرَّ الشاه وتقهقرت جيوشه ووقعت إحدى زوجاته بالأسر ودخل السلطان تبريز واستولى على خزائن الشاه وأرسلها للعاصمة كذلك أرسل إليها أربعين شخصاً من أمهر الصنّاع الأمر الذي يدل على عدم إغفاله تقدم الصناعة أثناء انشغاله بالحروب ثمَّ استراح ثمانية أيام في تبريز تحرك بعدها مقتفياً أثر الشاه حتى وصل ضفاف نهر الرس[1] وهناك امتنع الإنكشارية من مواصلة

---

(١) نهر الرس: ينبع من مرتفعات أرمينيا التركية جنوبي أرضروم ويتجه نحو الشرق مشكلاً جانباً من الحدود الدولية بين الاتحاد السوفياتي شمالاً وتركيا وإيران جنوباً. يلتقي مع نهر كورا في آذربيجان ويصب أخيراً في بحر قزوين.

التقدم لشدة البرد ونقص المؤونة واللباس فرجع إلى (أماسية) بآسيا الصغرى بانتظار انقضاء فصل الشتاء واستكمالاً للاستعدادات ومرَّ في طريقه ببلاد أرمينيا ولكنه لم يفتحها لعدم وجود الوقت ثمَّ رجع في الربيع إلى بلاد العجم لإتمام محاربة الشاه ففتح بعض القلاع وإمارة ذي القدر عام ١٥١٥ م الموافق ٩٢١ هـ ثمَّ عاد إلى استانبول تاركاً قواده لإتمام فتح الولايات الفارسية الشرقية وحينما وصل إلى العاصمة أمر بنقل عدد كبير من قادة الإنكشارية الذين كانوا وراء الامتناع عن مواصلة التقدم في بلاد العجم وجعل لنفسه حقٍ تعيين قائدهم العام من خارج الإنكشارية وفتحت جيوشه بعد عودته ماردين وأورفة والرقة والموصل ففتح بذلك إقليم ديار بكر وأطاعت قبائل الكرد شرط بقائهم تحت حكم رؤسائهم.

ب ـ ضم دولة المماليك:

بعد أن فرغ السلطان سليم الأول من محاربة الصفويين في شمالي وغربي إيران قام بضم إقليم ديار بكر إلى الدولة ثمَّ بدأ يستعد لضم دولة المماليك وحينما علم سلطانهم قانصوه الغوري الحليف القوي للشاه إسماعيل المناوئ للدولة العثمانية قام بإرسال مبعوث من قبله إلى الباب العالي عارضاً التوسط بين السلطان سليم وبين الشاه. ولكنَّ السلطان رفض استقبال مبعوث المماليك وطرده من بلاده إذ إنَّه كان يعلم بالتحالفات المملوكية الصفوية من جهة، وبمحاولات الغوري الأخذ بالثأر لمقتل «علاء الدولة» أمير ذي القدر، وحشده الجنود والعتاد والسلاح للقيام بهذه المهمة. وفي ربيع عام ١٥١٦ م، تقدم قانصوه باتجاه حلب بحجة التوسط وفي الحقيقة لدعم حلفائه الصفويين ولإعطائه تحركه صبغة سلمية اصطحب معه الخليفة العباسي المتوكل وقضاته الرئيسيين. ولم ينخدع سليم فهو مطلع على نوايا الغوري عن طريق جواسيسه ولمَّا وصل مبعوثه إلى معسكر السلطان سليم حلقت لحيته وأعيد مع تصريحات تشير إلى الحرب وأركب بغلة وأُعدم مرافقوه. ولم يكن من طريقة لتجنّب الحرب. ثمَّ جهز سليم جيشاً وسار به إلى بلاد الشام فمصر وتقابل مع جيش المماليك بقيادة قانصوه الغوري في مرج دابق شمال غربي حلب وما لبث أن وقع الخلاف في صفوف المماليك وانفصل ثلاثة من ألمع قادتهم مع فرقهم الحربية وانضموا إلى جيش السلطان وهم: خيربك حاكم حلب وجانبرد الغزالي حاكم دمشق وفخر الدين المعني حاكم لبنان وهذا الأخير لم يكن سوى رجل يرى التفوق العثماني فرأى في الانضمام إليه محافظة على

وضعه على الرغم من عدائه الشديد لهم وللإسلام ولم يبق من الجيش المملوكي إلاَّ فئة قليلة مرغمة على القتال بإمرة من يمثلون الحكام وقد ساعدت المدافع العثمانية على دك معاقل المماليك وقتل الغوري وهو ابن ثمانين سنة أو خمس وسبعون في بعض الروايات في يوم الأحد الواقع في ٢٥ رجب عام ٩٢٢ هـ الموافق ٢٤ آب ١٥١٦ م وقيل إنّه أصيب ودخل السلطان سليم وجيشه سوريا ومدنها الواحدة تلو الأخرى بدون أدنى مقاومة فعين لها الولاة وقابـل العلماء ووزع الإعانـات على المساجد وأمر بترميم الجامع الأموي في دمشق. وما أن وصل نبأ هزيمة المماليك وقتل سلطانهم إلى مصر حتى انتخبوا طومان باي سلطاناً عليهم وهو الذي عهد إليه قانصوه الغوري بحكم مصر أثناء غيابه ومن بعده إذا حـدث له مكـروه. وأرسل السلطان سليم بعد ذلك عارضاً الصلح على طومان باي شريطة اعترافه بالسيادة العثمانية إلاَّ أنَّه رفض ذلك فالتقت مقدمتا الجيشين قرب غزة. ثمَّ احتلَّ العثمانيون غزة واتجهوا نحو القاهرة حتى وصلوا مشارفها وعسكروا في مكان قريب منها ونشب القتال بينهما في كانون الثَّاني ١٥١٧ م الموافق ٩٢٢ هـ وقام طومان باي بقتل الوزير العثماني سنان بك ظانّاً إيَّاه السلطان سليم فقامت المدافع العثـمانية بضرب جيوش المماليك فهزموا وبعد ثمانية أيام دخل العثمانيون القاهرة فـالتجأ طومان باي إلى بر الجيـزة ثمَّ وقع أسيـراً في أيديهم وشنق في ٢١ ربيـع الأوَّل ٩٢٣ هـ وبعدها مكث السلطان سليم حوالي الشهر بالقاهرة وزار الجوامع وآثارها ووزع العطايا وحضر الاحتفالات. ثمَّ تنازل الخليفة العباسي المتوكل على الله له وسلمه الآثار النبوية الشريفة وهي اللواء والبردة كما حضر أبو نمي ابن شريف مكة (بركات) إلى مصر فقدم الطاعة للسلطان سليم وسلمه مفاتيح الحرمين الشريفين وصار منذ ذلك خليفة المسلمين. وتقول رواية أخرى أنَّه جرى إرسال الخليفة العباسي مع حاشيته وأبناء السلاطـين السابقـين والعلماء وابن قانصـوه الغوري والموظفين وكبار القضاة بطريق البحر من الإسكندرية إلى استانبول فوصلوا إليها قبل وصول السلطان فلقي الخليفة احتراماً كبيراً هناك ولكن أبناء عمـه ولربمـا لأسباب معينة حرضوا عليه السلطان كما راجت الإشاعات الكثيرة حوله فانحطَّ قـدره وسجن في حصن (يدي قله) حتى وفـاة السلطان سليم الأوَّل حيث قام السلطان سليمان بالعفو عنه وسمح له بالعودة إلى مصر بعـد أن تنازل بصـورة رسمية وقطعية عن حقوق الخلافة الإسلامية وحماية الحرمين الشريفين بينما تؤكد الرواية الأولىٰ أنَّ التنازل عن الخلافة تمَّ في القاهرة وأنَّ السلطان سليم اصطحب

معه الخليفة العباسي إبّان عودته من مصر. ثمَّ أرسل حملة إلى بلاد اليمن قضت على المماليك هناك وبدأت الاستعدادات لقتال البرتغاليين وفتح مواقعهم التي سيطروا عليها وفي أوائل شهر أيلول من عام ٩٢٣ هـ الموافق ١٥١٧ م عاد السلطان سليم من القاهرة بعد أن عينّ خير بك والياً على مصر وترك فيها حامية تحت قيادة خير الدين آغا الإنكشاري ثمَّ وصل دمشق في ٢٠ رمضان ٩٢٣ هـ ومكث حتى ٢٢ صفر ٩٢٤ هـ وحضر الاحتفال بإقامة الصلاة لأوَّل مرة في الجامع الذي أقامه هناك على ضريح الشيخ محيي الدين بن عربي(١) ثمَّ توجه إلى حلب فأقام فيها شهرين وبعدها قصد العاصمة ووصلها في ١٧ رجب سنة ٩٢٤ هـ ١٥١٨ م واتجه منها إلى أدرنة بقصد الراحة. وهو يفكر في استئناف قتال الأعداء في أوروبا. وكان إبّان مرضه على استعداد لقتال فرسان القديس يوحنا في رودوس ولكن المنيَّة عاجلته في طريق عودته من استانبول إلى أدرنة في أيلول ١٥٢٠ م.

وقد جاء في كتاب تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي في المجلد الأوَّل وصفاً لفترة حكم العثمانيين في مصر إبان عهد سلاطينهم العظماء أقتطف بعضاً منها:

«... وعادت مصر إلى النيابة كما كانت في صدر الإسلام. ولمَّا خلص له (أي السلطان سليم) أمر مصر، عفا عمَّن بقي من الجراكسة وأبنائهم ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات والعلوفات وغلال الحرمين والأنبار ورتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف القلاع والمرابطين وأبطل المظالم والمكوث والمغارم... ولما توفي تولى ابنه الغازي السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان فأسس القواعد وأتم المقاصد ونظم الممالك وأنار الحوالك ورفع منار الدين وأخمد نيران الكافرين.. ولم تزل البلاد منتظمة في سلكهم ومنقادة تحت حكمهم.. وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أُمور الأُمَّة بعد الخلفاء المهديين وأشد من ذبَّ عن الدين وأعظم من جاهد في المشركين فلذلك اتَّسعت ممالكهم بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نوابهم... هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحي والثغور وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين».

---

(١) كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ محمَّد فريد وجدي.

جـ - ضم طرابلس الغرب:

لقد فصل الإسبان طرابلس الغرب عن تونس سنة ٩١٦ هـ بعد أن أخذوها من بني حفص وما إن شعر الأهلون بازدياد الخطر الإسباني حتى قاموا بإرسال وفد في سنة ٩٢٦ هـ إلى الآستانة وطلبوا من السلطان سليمان القانون الدعم والتأييد ولكنهم قللوا من أهمية الخطر في نظره فأرسل معهم رجلاً اسمه مراد آغا ومعه قليل من الجند وما أن وصلوا إلى بلاد طرابلس حتى نزل مراد آغا شرقي مدينة طرابلس باثني عشر ميلاً وفي قرية تاجورة وحاصر طرابلس ولكنه لم يتمكن من فتحها بما يملك من القوة القليلة ثمَّ قام أهالي نابولي وجنوة بغزو بعض البلاد ومنها جزيرة جربة التي استولوا عليها فما كان من السلطان سليمان إلَّا أن أرسل أساطيله وهزمهم وإثر ذلك قام طورغود أمير البحر العثماني بمهاجمة الإسبان في طرابلس على رأس قوة تتألف من أسطول بحري بلغ عدد سفنه مائة وعشرين سفينة واحتلها بعد أن حاصرها ثمَّ قام مراد آغا بالتحرك من تاجورة إلى طرابلس وتولى الإمارة فيها ورجع طورغود إلى استانبول بالأساطيل وهو الذي احتلَّ وهران وبنزرت وأخرج الإسبان منها وغزا ميورمة وكورسيكا فحمل معه الغنائم الوافرة.

د - إلحاق الجزائر:

بعد أن سقطت الأندلس عام ٨٩٧ هـ على أيدي فرديناند وإيزابيلا هاجر الكثير من المسلمين إلى شمالي إفريقيا وقام الإسبان بملاحقتهم حتى وصلوا الشواطىء الإسلامية. وفي بداية القرن العاشر الهجري كان البرتغاليون قد أقاموا وجوداً لأنفسهم في موانىء مختلفة في شمالي مراكش ثمَّ مدُّوا رقعة البلاد التي سيطروا عليها نحو الساحل الأطلسي من مراكش. وقام الإسبان بضرب أهالي البلاد المقيمين في المدن والقرى واحتلوا مليلة وجزيرة بينون والمرسي الكبير وبينون الجزائرية (جزيرة صغيرة في ميناء الجزائر). ثمَّ قبل الحفصيون الحماية الإسبانية بالضغط والقوة. وقد شنّ (دون بيتر ورناوارو) هجوماً احتلَّ بنتيجته وهران وبجاية وطرابلس ليتمكن من مجابهة الفدائيين المسلمين الذين يقومون بالفتك بالإسبان في البحر الأبيض المتوسط وكان من بين أولئك الفدائيين إخوة لمع منهم إثنان هما عروج وخير الدين أتوا جميعاً من جزيرة (مدللي الواقعة قرب شاطىء البر الأناضولي شمالي غربي إزمير وإلى الجنوب من مضيق الدردنيل وهي اليوم ضمن بلاد اليونان وعاصمتها ميتيلين).

ومارس عروج وخير الدين الفداء في البداية في الأرخبيل المجاور ثمَّ أسلما ودخلا في خدمة السلطان محمَّد الحفصي ونقلا أعمالهما إلى غربي البحر الأبيض المتوسط حوالي عام ١٥٠٥ م فحققا نجاحاً كبيراً وسريعاً ومنحهما السلطان الحفصي حق الاستقرار في جزيرة جربة التونسية وقام السكان المحليون بالاستغاثة بهما من شر هجمات الإسبان فقاما بأسر المراكب النصرانية وبيع ركابها وملاحيها ثمَّ نصّب عروج نفسه في مدينة الجزائر واستولى على تلمسان من الإسبان وبعد مدة قتل عروج وقتل أمير الجزائر الذي أرسل بعض أتباعه إلى السلطان سليم ليخبره بفتحها. وهددت ممتلكات الفدائيين والسكان المسلمين نتيجة لذلك. ولكي يحصل خير الدين على دعم لمركزه المعرض للخطر قرر إلحاق ممتلكاته بالدولة العثمانية فأرسل للسلطان العثماني إحدى المراكب المأسورة إظهاراً للخضوع له فقبلها السلطان وقام خير الدين بالتنازل له وبايعه فأبقاه السلطان في مركزه وأعطاه لقب (بكليربك) وأرسل ستة آلاف رجل وعشر سفن للاستعانة بها ضد النصارى وبذلك فقد نجح خير الدين بمد حكمه نحو الشرق باحتلال (عنابة) و (سولو) و (قسنطينة) وطرد الإسبان في عام ٩٣٥ هـ من الجزائر وأصبحت مدينة الجزائر العاصمة. ثمَّ نزل في البر الإيطالي والفرنسي والإسباني وفتح الحصن الذي أقامه الإسبان في جزيرة صغيرة أمام مدينة الجزائر وأرسل إليه السلطان سليمان فيما بعد بعدم التعرض لفرنسا والكف عن ملاحقة مراكبها. وفي عام ٩٤١ هـ تمكن خير الدين والذي سماه الفرنجة (بربروس) أي ذو اللحية الشقراء من احتلال تونس. ثمَّ أقام خير الدين من عام ٩٤٢ هـ وحتى ٩٩٥ هـ وخلفاؤه في الجزائر ومن هناك حكموا شمالي إفريقيا العثماني.

هـ - ضم تونس:

تمكن خير الدين بربروس[1] عام ٩٤١ هـ من احتلال تونس ولكن شارل الخامس قام باحتلالها في السنة التي تلت وأقام قلعة محصنة في (غوليت) وفرض الحماية على الشرعية الحفصية ولكن البلاد عادت مرة ثانية إلى حظيرة الحكم

---

(١) توفي خير الدين بربروس في آذار عام ٩٥٣ هـ الموافق ١٥٤٦ م في استانبول ودفن في جهة بشككاش على شاطئ البوسفور وقد وجد مكتوباً على الجامع الذي أنشأه في الجزائر كلمات تدل على جهاده في سبيل الله. وكان ذكياً ذا مقدرة عسكرية وبلغت قوة الأسطول العثماني في زمانه مرحلة الأوج وأصبح هو المسيطر على البحر الأبيض المتوسط ولا ينازعه أسطول آخر.

العثماني في عام ٩٨١ هـ وممّا يجدر ذكره أنَّ شارل الخامس وقواده حينما نزلوا في مالطة بعد احتلالهم رودوس قاموا بإعادة مولاي حسن إلى الحكم ونزلوا ثغر برشلونة وحلق الواد وحاصروها كما حاصروا مدينة تونس لمدة شهر. ثمَّ احتلوها واستولوا على المدافع والسفن ونهبوا البلاد وهدموا المساجد وذلك عام ٩٣٩ هـ كما أحرقوا ومزقوا أغلى الكتب النفيسة.

ثمَّ أُبرمت معاهدة مع مولاي حسن تقضي بإخلاء سبيل الأرقّاء والنصارى والإباحة لهم الاستيطان بتونس وإقامة شعائرهم بدون معارضة والتنازل عن بونة وبنزرت وحلق الواد لشارلكان.

ثمَّ دعي خير الدين إلى استانبول وعين أميرالاً في قيادة الأُسطول العثماني واتفق مع الدولة على إجراءات خاصة لصد هجمات الأميرال (أندري دوريا) الجنوي كما أمر بالاستعداد لفتح تونس فاشتغل طوال فصل الشتاء بإنشاء المراكب وفي أوائل صيف ٩٤٠ هـ خرج من الدردنيل وعرَّج على مالطة وبعض موانئ جنوبي إيطاليا دون أن يفتحها للتغطية على هدفه الأصلي، ثمَّ قصد تونس في أوائل عام ٩٤١ هـ فعزل السلطان مولاي حسن آخر سلالة بني حفص وسيطر على تونس وثغرها حلق الواد. وحينما تحزب الأهالي لسلطانهم المعزول انتقل إلى الجزائر حيث أقام وخلفاؤه هناك.

و ـ ضم اليمن والحجاز والجزيرة العربية:

ذكرت سابقاً بأنَّ الحجاز قد ألحقت طواعية بالدولة العثمانية أمَّا في اليمن فالأمر مختلف إذ إنَّه في ما بين انقراض بني رسي واستلام أئمَّة صنعاء الزيديين أقام الطاهريون خلفاء آل رسي دولتهم في عدن وزبيد والساحل بين سنة ٨٥٥ هـ حتى ٩٣٢ هـ ولدى اعتداء البرتغاليين على أملاك سلطان كجرات الهندية ـ مظفر شاه ـ سنة ٩١٤ هـ استنجد ذلك السلطان بمصر لصد العدوان، فأرسل السلطان قانصوه الغوري أُسطولاً بحرياً بقيادة حسين الكردي وفي أثناء عودته من كجرات امتنع حاكم بني طاهر من إعطائه الميرة فاستولى على زبيد سنة ٩٢٢ هـ وفرَّ الحاكم الطاهري إثر ذلك، واستقرَّ الكثير من الجند الجراكسة المرافقين للأُسطول المملوكي في اليمن وأسسوا هنالك إمارة صغيرة في زبيد وحين بلوغهم نبأ استيلاء العثمانيين على مصر عرضوا الطاعة للسلطان سليم وصاروا يذكرون اسمه في الخطبة ولكنَّ الشكاوى ما لبثت أن كثرت ضد حسين الكردي فأُعدم بأمر

السلطان. وبعد ذلك قصد الكثير من الجند الإنكشاريين الذين رافقوا حملة السلطان سليم إلى مصر، بلاد اليمن وأنشأوا هناك حكماً خاصاً بهم وقد تعايش الكثير منهم مع الجراكسة الموجودين هناك ولكنَّ الوفاق لم يدم طويلاً بينهم وتصارعت الفئتان كما تصارعوا مع الأئمَّة المحليين ممَّا أدى بالزيديين المتمركزين بالمرتفعات إلى استغلال الفرصة المؤاتية لهم ودعموا مركزهم.

وفي سنة ٩٤٥ هـ استنجد سلطان كجرات مرة ثانية بالسلطان سليمان القانوني لدرء خطر البرتغاليين عن بلاده فأنجده بأسطول ذهب إلى بلاد الهند ثمَّ استولى على عدن واعتقل حاكمها من بني طاهر وقتله واستولى على القلعة فكان ذلك البداية في ضم اليمن للحكم العثماني، وقد توالى الولاة بعد ذلك عليها وكثيراً ما كانوا يتعايشون مع الزيديين. وحدثت عام ٩٧٥ هـ اضطرابات في كافة البلاد واستولى الإمام مطهر على صنعاء ممَّا أدّى بالقائد العثماني المشهور سنان باشا إلى شن حملة جديدة على اليمن وأخضعها وذلك سنة ٩٧٦ هـ ثمَّ دخل الولاة بعد سنان باشا في صراع مع الأهلين ووفق القاسم المنصور بالله ابن محمَّد الزيدي إلى تأسيس حكومة مستقلة في المرتفعات وكان ذا سياسة لبقة تجاه العثمانيين ولكنَّ الأمور أدَّت أخيراً إلى اشتباكات بين الطرفين وحوصر آخر الولاة وفرَّ لمصر. وعاد محمَّد علي باشا فيما بعد لإخضاع السواحل حينما ذهب بحملته لإخضاع الوهابيين وقام الوالي المرسل من الآستانة حسين باشا بالاستيلاء على كافة اليمن عدا صنعاء التي تمَّ احتلالها سنة ١٢٨٢ هـ وصارت اليمن بعدها ولاية عثمانية.

وكذلك آلت أكثرية الجزيرة العربية إلى الحكم العثماني وخاصة بعد أن أخرجوا البرتغاليين من الخليج وإن كانت هناك حكومة أباضية تحكم بلاد عمان وهي بدورها حاربت البرتغاليين ولم يجد العثمانيون داعياً لقتالها وإن كانت تخالفهم في المذهب ما دام كلاهما يحارب الصليبيين البرتغاليين ومهما اختلف المذهب فهو أقرب إلى العثمانيين من الكفار.

ز ـ ضم بغداد:

وفي عهد السلطان سليمان أُلحقت بغداد وتبريز إلى جسم الدولة بعد أن سار إليها في الوقت الذي كان يحارب النمسا ومن دواعي شنه الحملة إلى تلك الجهات خيانة أحد الحكام على حدود العجم وانحيازه إلى جهاتهم فأرسل السلطان إليه إبراهيم باشا. وقبل وصوله إلى قونية وصل إليه ابن حاكم آذربيجان الذي كان

تابعاً لملك العجم وانضمَّ إلى العثمانيين ومعه رأس الحاكم الخائن السالف الذكر فسار إبراهيم باشا لتمضية فصل الشتاء في حلب وفي ربيع سنة ٩٤٠ هـ قصد منها تبريز وفتح في طريقه الحصون والقلاع المجاورة لبحيرة وان[١] ومن ثمَّ وصل إلى تبريز ودخلها بسلام في شهر محرم عام ٩٤١ هـ وبنى فيها قلعة وعين حامية عثمانية ثمَّ وصل السلطان إلى تبريز في ١٦ صفر عام ٩٤١ هـ فقوبل بالتبجيل والتعظيم من قبل الأهالي وعين قائداً لحاميتها وعندها خضع له أمير كيلان المدعو مظفر خان وعدة من أمراء إيران الذين تركوا الشاه طهماسب ملك العجم. ثمَّ سار السلطان بجيوشه إلى مدينة سلطانية[٢] حيث تقهقر الشاه إليها ولكن صعوبة المواصلات والأوحال حالت دون نقل المدافع وعربات النقل فتركها قاصداً بغداد لفتحها فدخلها إبراهيم باشا قبل وصول السلطان في السنة نفسها وكانت خاوية فأقام فيها سليمان أربعة أشهر رتب الإدارة وزار قبور الأئمة العظام وقبر سيدنا الحسين رضي الله عنه في كربلاء وزار النجف الأشرف ثمَّ عاد في ٢٨ رمضان سنة ٩٤١ هـ إلى تبريز بعد أن عيّن والياً لبغداد فوصل إليها وأقام بها ١٥ يوماً وعين الولاة على البلاد المفتوحة حديثاً ورجع إلى الآستانة وقد وصل إليها في رجب سنة ٩٤٢ هـ.

ثمَّ عاد السلطان فدخل تبريز للمرة الثالثة سنة ٩٥٤ هـ وفتح في طريقه القسم التابع لبلاد العجم من بلاد الأكراد وقلعة وان الشهيرة وعاد منتصراً بعد أن أخضع الشاه طهماسب. ولكن بغداد عادت مرة أخرى لأيدي إيران في عهد السلطان أحمد إذ انتهز الشاه عباس الفرصة في انشغال الدولة في قمع الفتن والمناوشات التي كانت تجري في النمسا واحتلَّ تبريز ووان وغيرهما ولكن الدولتان تراسلتا بشأن الصلح إذ إنَّ إخضاع الصليبيين كان في نظرهم أهم، واتفقتا عام ١٠٢١ هـ على أن يترك العثمانيون لمملكة فارس جميع الأقاليم والبلدان والقلاع والحصون التي استولوا عليها في عهد السلطان سليمان بما فيها بغداد التي عادت لتدخل مرة أخرى في حوزة العثمانيين في عهد السلطان مراد الرابع فيما بعد سنة ١٠٤٨ هـ ولم تعد لحكم الصفويين بعدها أبداً. والجدير بالذكر أنَّ الإنكليز

(١) بحيرة وان: في شرقي تركيا قريبة من الحدود الإيرانية العراقية.
(٢) سلطانية: بلدة في آذربيجان تقع اليوم ضمن الأراضي التي ضمَّها الاتحاد السوفياتي من آذربيجان وهي على الحدود مع إيران وعلى ضفة نهر آراس اليسرى.

كانوا وراء الشاه عباس حينما هاجم الدولة العثمانية وهي مشغولة في أوروبا بالفتوحات وذلك من أجل تخفيف وطأة العثمانيين على الأوروبيين ولضرب المسلمين بعضهم ببعض ولجعل موطىء قدم لهم في إيران في الوقت نفسه.

والجدير بالذكر أنَّ قصد السلطان سليم الأول والسلطان سليم القانوني كان بعد ضم البلاد العربية إلى جسم الدولة العثمانية بناء كيان عثماني مستقر دون التعرض لتغيير جوهري في أوضاعها الداخلية وخاصة بصدد تتريكها. وعليه فإنَّ الخاصة المميزة لسياسة الباب العالي اتجاهها كانت تتلخص في عدم الرغبة في ابتداع أي نوع من الإجراءات التي لها مساس بالعرب ولم يشجع الولاة على القيام بمبادرات في هذا السبيل على الرغم من تخويلهم بعض الصلاحيات الواسعة. وكان يستدعى أولئك الولاة غالباً ويستبدلون بين الحين والآخر لكي لا تتوثق صلاتهم بالشعب وبالتالي ازدياد المحسوبية والرشوة. ولجأ السلطان إلى طرق عدة بغية إيجاد التوازن بين سلطات الوالي مثل سلطة الإنكشارية والقوات الأخرى المقيمة. فكانت مثلاً تجري التعيينات لقيادة الحاميات في دمشق وحلب مباشرة من قبل الباب العالي، وتمتع العلماء الذين كانوا من العرب غالباً بسلطات لا بأس بها وكانوا يقدمون الشكاوى ضد الوالي مباشرة إلى العاصمة.

٤ ـ الفتوحات العثمانية في أوروبا:

كان السلطان سليمان قد أرسل سفيراً إلى بلاد المجر للمطالبة بالجزية أو الحرب فقتله ملك المجر فاستشاط السلطان غضباً حينما علم بنبأ القتل وسار بنفسه على رأس جيش لمحاربته كما قام بإرسال أحد قواده لمحاصرة مدينة شابتس القريبة من بلغراد ففتحها ذلك القائد سنة ٩٢٧ هـ وفي اليوم التالي وصل إليها السلطان. ثمَّ تحرك مع جيوشه باتجاه بلغراد ففتحها بعد أن أخلى الجنود المجريون قلعتها، ثمَّ صلّى الجمعة في إحدى كنائسها التي أصبحت مسجداً، وبذلك أصبحت بلغراد قاعدة لمواصلة الزحف العثماني بقصد فتح ما وراء الدانوب من البلاد. ثمَّ عاد السلطان سليمان إلى استانبول بعد ذلك. وفي أوائل عام ٩٢٨ هـ منحت أولى الامتيازات القنصلية للأجانب في الدولة فقد وُقِّعت معاهدة تجارية مع جمهورية البندقية خوَّلت قنصلها لدى استانبول حق حضور المرافعات أمام المحاكم حين الفصل في قضاياها إذ كانت الدول الأوروبية تعتبر النصارى كلهم من رعاياها بالإضافة إلى غيرها من البنود الأخرى. وترجع أسباب هذه المعاهدات

التجارية إلى محاولة العثمانيين إعادة النشاط التجاري إلى البحر المتوسط بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح وإنَّ السلطان سليمان كان يعتقد أنَّه ما دام قوياً فباستطاعته إلغاءها. ثمَّ بدأ السلطان بالاستعداد لفتح جزيرة رودوس التي لها أهمية خاصة نظراً لكونها حلقة اتصال بين العاصمة ومصر ولكسر شوكة النصارى المتمركزين وسط البلاد العثمانية. وقد عجز السلاطين السابقون عن فتح تلك الجزيرة نظراً للتكاتف الصليبي المتين. فأرسل إلى رئيس رهبان القديس يوحنا في الجزيرة عارضاً عليه إخلاءها من الرهبان في الوقت الذي يختاره ومتعهداً عدم التعرض للأنفس والأموال آنذاك، ولكن رئيس الرهبان رفض اقتراح السلطان سليمان الذي أمر بغزوها بحراً وفي الوقت نفسه سافر إلى خليج مرمور المقابل للجزيرة من بر آسيا حيث نقلت المدفعية إلى هناك براً ووصل إليها وحاصرها حتى نفذت الذخيرة والمؤن عند أهلها. وعندئذٍ طلب رئيسها السماح لهم بالانسحاب منها فقبل السلطان بذلك.

ثمَّ قام السلطان سليمان بعزل الصدر الأعظم وعيَّن مكانه إبراهيم باشا كما عين أحمد باشا والياً على مصر بدلاً من خير بك ثمَّ ازداد نفوذ الدولة في بلاد القرم وصار لها حق تعيين أمرائها وبذلك أصبحت ولاية عثمانية إثر المنازعات على السلطة وبعض الفتن التي حدثت هناك وفي سنة ١٥٢٤ م سيَّر السلطان جيشاً إلى إقليم الأفلاق واستولى على العاصمة وعيَّن لها أميراً مقابل زيادة الجزية عمَّا كانت عليه سابقاً.

ثمَّ بدأت مرحلة الاتصالات مع ملك فرنسا فرنسوا الأول الذي سعى للتحالف مع العثمانيين ضد خصمه شارلكان الذي كان ملكه يحيط بفرنسا من جميع جهاتها عدا البحر. وقد وجد فرنسوا في العثمانيين حليفاً قوياً مرهوب الجانب وخاصة بعد أن تعزز نفوذ الدولة العثمانية وتوطدت سيطرتها القوية على البحر الأبيض المتوسط وأصبحت لها كلمة عليا في السياسة، فأرسل سفيره إلى الآستانة يحمل رسالة إلى السلطان طالباً منه بكل تواضع مهاجمة ملك المجر أحد حلفاء شارلكان فقابله السلطان وأجزل عطاءه ووعده وأرسل رسالة لملك فرنسا أظهر استعداده للمساعدة. وفي ٢٥ نيسان ١٥٢٦ م الموافق ٩٣٢ هـ سار على رأس جيش قوامه مائة ألف جندي و ٣٠٠ مدفع و ٨٠٠ سفينة حربية أخذت وجهتها نهر الطونة (الدانوب) وعن طريق صربيا إلى بلاد المجر وحين وصولهم

قلعة بلغراد اتخذوها قاعدة لهم ثمَّ وصلوا وادي (موهاكس) وبدأ الهجوم إثر ذلك فتقهقر المجريون تحت ضربات المدفعية الضخمة وقتل منهم عدد كبير وكان على رأس من قتل ملكهم فسقطت البلاد المجرية أمام العثمانيين ودخل سليمان (بودابست) في ٣ ذي الحجة عام ٩٣٢ هـ. ثمَّ عين أمير ترانسلفانيا (جان زابولي) ملكاً على المجر وعاد إلى عاصمة البلاد العثمانية مستصحباً معه الكثير من التحف والكتب القيمة وبعد أكثر من سنة ادّعى فرديناند ملك النمسا (أخو شارلكان) أحقيَّته في تولي الملك في بلاد المجر بسبب قرابته من ملكها المقتول في موقعة موهاكس السابقة الذكر واتجه بجيشه لمحاربة جان زابولي المعين من قبل السلطان سليمان فهزمه واحتلَّ بودا فاستنجد زابولي بالسلطان سليمان الذي جهز جيشاً قوامه ٢٥٠ ألف جندي و ٣٠٠ مدفع عام ١٥٢٩ م الموافق ٩٣٥ هـ فوصل موهاكس ثمَّ سار إلى بودا فسلّمت الحامية النمساوية هناك ثمَّ أُخليت المدينة ودخلها سليمان وبذا فقد أعاد (زابولي) إلى حكمها ثمَّ اتجه بجيوشه قاصداً فيينا وبصحبته زابولي فحاصرها وهدم جزءاً من أسوارها وهجمت الجند لكنهم لم يتمكنوا من دخولها فأصدر السلطان أوامره بالتراجع بعد حلول فصل الشتاء القارس وكانت تلك المرة الأولى التي لم يفز فيها بالنصر. ثمَّ أعاد الكرّة بعد حوالي الثلاث سنوات لفتحها مجهزاً جيشاً عدده مائتا ألف جندي انضمَّ إليها في بلغراد ١٥ ألفاً آخرين وفتح في طريقه عدة قلاع وحصون ولما اقترب من فيينا مال إلى جهة الشمال قاصداً آستريا وعاد إلى بلغراد ثانية لما علمه من استعداد شارلكان للدفاع عنها ولعدم وجود مدافع الحصار معه ولاقتراب فصل الشتاء.

وانتهز الصليبيون فرصة انشغال الدولة العثمانية في الحروب داخل البر الأوروبي وهاجموها بقيادة الأميرال أندري دوريا الجنوي الأصل ومن جهة البحر واحتلوا عدة مواقع في بلاد المورة (جنوبي اليونان) ثمَّ طلبت النمسا الصلح فرفض السلطان إلى أن تقبل شروطه وبعد الموافقة عقدت أول معاهدة صلح بين الباب العالي والنمسا في ٢٨ ذي القعدة عام ٩٣٩ هـ.

وفي عام ٩٤٢ هـ منحت امتيازات لملك فرنسا كانت بداية للعوامل التي أثارت المشكلات في المستقبل وقد خوَّل اتفاق الامتيازات الطرفين: حق التجول والاتّجار والزيارة البحرية وأجاز المبادلات الاقتصادية بدون ضرائب وصار للقنصل الفرنسي في استانبول والإسكندرية حق التحاكم بموجب القوانين

الفرنسية على رعاياهم بدون ممانعة كما أصبح لا يحق للقضاة العثمانيين الحكم على تجار ورعايا فرنسا بناءً على شكاوي الأهالي إلاَّ في حضرة الصدر الأعظم أو من يمثله. كما منع حجز أسرى بصفة رقيق وصار للسفن الفرنسية الحق في الرسو في الموانئ العثمانية والتزود بصورة إلزامية ولا يمكن تفتيشها إلاَّ في أماكن معينة وقد أُعفي من تبع الرعية الفرنسية من دفع الخراج والضرائب والحراسة. وأعطت هذه المعاهدة لملك إنكلترا والبابا وغيرهما حق الاستفادة منها حين الرغبة في ذلك شريطة تصديقها وبذلك حصل رعايا الدولة الفرنسية على امتيازات كانت أول إسفين يدق في نعش الدولة العثمانية ظهرت آثاره البعيدة فيما بعد. وفي أواخر أيام الدولة صارت دول أُوروبا النصرانية تتدخل في شؤونها تحت حماية الامتيازات وللدفاع عن نصارى الدولة الذين كانوا يعدون رعايا للدول الأجنبية وخاصة في بلاد الشام. إنَّ الاتفاقيات التي حصلت بين العثمانيين وفرنسا قضت بجعل وجهة نظر الدولة العثمانية في فتوحاتها بلاد نابولي وجزيرة صقلية وإسبانيا بدلاً من النمسا التي تكاتفت أُوروبا معها، كما قضى الاتفاق بأن تدخل فرنسا إيطاليا من جهة الشمال والدولة العثمانية في الوقت نفسه من جهة نابولي ولكنَّ ذلك لم ينجح لأسباب عدة منها سخط الرأي العام النصراني على ملك فرنسا لتحالفه مع المسلمين وإحجام جمهورية البندقية عن الدخول في ذلك التحالف وإظهار رغبتها في العدوان. وقد أرسل السلطان سليمان القبطان خير الدين بربروس المار الذكر ومعه ١٠٠٠ سفينة لمحاصرة جزيرة كورفو[1] سنة ٩٤٣ هـ ثمَّ غادرها لكي لا يضيع الوقت الطويل في ذلك. ثمَّ فتح باقي الجزر هناك وانتصر على سفن شارلكان التي وجدها أثناء عودته. وفي عام ٩٤٤ هـ جهز السلطان سليمان جيشاً في بلاد ألبانيا قوامه ١٠٠ ألف مقاتل لمهاجمة إيطاليا ونزل في الوقت نفسه خير الدين بربروس جنوبي إيطاليا في ميناء أترانت بغية فتحها من الجنوب وكان مشروع الاتفاق قد نصَّ هذه المرة على مهاجمة السلطان لها من الشرق وملك فرنسا من الغرب ولكن فرنسا نقضت مواثيقها وأحجمت عن التقدم طبقاً لما اتفق عليه ففشل المشروع وبذلك لم تدخل إيطاليا ضمن الدولة العثمانية ونتيجة لذلك تهادن ملك فرنسا مع شارلكان. أمَّا البندقية فقد عقد صلح بينها وبين الدولة بعد حروب مستمرة سنة ٩٤٤ هـ قضت بتنازل البندقية عن بعض البلاد. وأمَّا في بلاد المجر فنشب

---

(١) كورفو: جزيرة تقع جنوبي غرب ألبانيا قرب الساحل.

القتال ثانية سنة ٩٤٣ هـ وهزم الصليبيون كما عززت الحامية العثمانية في البغدان. ثمَّ خان زابولي (المعين ملكاً على المجر من قبل السلطان سليمان) العثمانيين واتفق مع فرديناند ملك النمسا ولكن يد المنون لم تمهله بل اختطفته فانتهزت النمسا الفرصة وتدخلت جيوشها هناك فأسرع السلطان سليمان إلى بلاد المجر في عام ١٩٤٧ هـ وفك الحصار عن بودا وجعل بلاد المجر بذلك ولاية عثمانية وحوَّل أكبر كنائسها إلى مسجد. وحاولت فرنسا إثر ذلك استرضاء السلطان وسعت لتجديد التحالف ضد شارلكان وبعد تردد طويل قبل السلطان بذلك بعد أن علم بنبأ مهاجمة شارلكان لمدينة الجزائر ثمَّ اندحاره منها عام ٩٤٧ هـ وسار بجيوشه إلى بلاد المجر بينما أقلع بربروس نحو مرسيليا فوصلها بعد أن فتح سواحل صقلية فانضمَّت سفنه إلى سفن فرنسا ثمَّ حاصر نيس (جنوبي فرنسا والحدود الإيطالية اليوم) بحراً ثمَّ أمضت سفنه فصل الشتاء في طولون[1] وفي سنة ٩٥٠ هـ حنث فرانسوا ملك فرنسا مرة أخرى بمواثيقه وتصالح مع شارلكان فعاد بربروس لاستانبول ثمَّ توفي سنة ٩٥٣ هـ.

أمَّا في النمسا فقد استمرَّ القتال مع العثمانيين الذين كان النصر إلى جانبهم ثمَّ جرت مفاوضات وعقدت هدنة مدتها خمس سنوات بشرط أن يدفع فرديناند ملك النمسا جزية سنوية قدرها ٣٠ ألف دوكا للعثمانيين مقابل البلاد التي بقيت تحت حكمه من بلاد المجر. وبعد موت ملك فرنسا نسج ابنه هنري الثاني على منواله في محالفة الدولة العثمانية وعقدت معاهدة بين الطرفين في ١٦ صفر عام ٩٦٠ هـ حول التحالف البحري ضد شارلكان فسارت سفن الطرفين وفتحت كورسيكا[2] وصقلية[3] ولكن ذلك لم يستمر طويلاً لوقوع الخلافات بين القائدين وفي أوائل عام ٩٧٣ هـ حاصرت مائتا سفينة عثمانية بقيادة القائد العثماني المسلم طورغود فاتح طرابلس الغرب المار الذكر لمدة أربعة أشهر جزيرة مالطة ولكن موت ذلك القائد واقتراب فصل الشتاء حال دون ذلك وعادت السفن. ثمَّ قام السلطان في شوال من عام ٩٧٣ هـ وعلى الرغم من إصابته بالنقرس بقيادة

---

(١) طولون: مدينة في جنوبي فرنسا على البحر الأبيض المتوسط.

(٢) كورسيكا: جزيرة كبيرة في البحر المتوسط فتحها المسلمون وولد بها نابليون الأوَّل امبراطور فرنسا.

(٣) صقلية: أكبر جزيرة في البحر المتوسط حكمها المسلمون عدة قرون في أيام دولة بني الأغلب والفاطميين بتونس.

جيش لصد هجمات النمسا عن المجر التابعة للدولة وحينما بلغه وهو في طريقه أنّ أمير سكدوار[1] تغلّب على فرقة عثمانية سار إليها وحاصرها ثمَّ احتلَّ معاقلها الأمامية ثمَّ أُخليت خفية واحتمى المدافعون بالقلعة.

وهكذا فقد بلغت الفتوحات العثمانية أوجها في عهد السلطان سليمان القانوني ودخل الناس في دين الله أفواجاً ليس عن طريق القوة والإكراه ولكن عن عقيدة واقتناع وقد قال السير توماس آرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام: «... إنَّ المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسلمين... على الأقل بعد أن غزوا بلاد اليونان بقرنين لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفاً في أوروبا وإنَّ أصحاب (كالفن) في المجر وترانسلفانيا وأصحاب مذهب التوحيد من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا طالما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورغ المتعصبة ونظر البروتستانت إلى تركيا بعين الرغبة... كذلك نرى القوازق الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية...» وحينما كان العثمانيون يتجهون لفتح إيطاليا كان في تلك البلاد أناس يتطلعون إليهم (ولعلهم من طائفة البوجوميل) بشوق عظيم وهم يأملون الحصول على الحرية والتسامح في ظلهم. وقد تقدم انتشار الإسلام في شرقي أوروبا لدرجة كبيرة فمثلاً قد رويت حوادث في ألبانيا كان يتحول فيها النصارى بأعداد كبيرة إلى الإسلام وقد أسلم في حوالي ثلاثين سنة ومنذ سنة (١٠٢٦ هـ - ١٠٥٧ هـ) حوالي ٣٠٠ ألف ألباني ولم يكن عليهم أي أثر للضغط أو الإكراه وروي ذلك من قبل المؤرخين الغربيين أنفسهم. أمَّا الصرب فقد آثروا سيادة العثمانيين على سيادة المجر وقد رحب أهالي (سمندرية) الصربية سنة ١٠٠٦ هـ بالعثمانيين الفاتحين كما أرغم بعض القساوسة حامية بلغراد على التسليم لهم وأصبح أهالي (البوسنة) الذين دخلوا في الدين الجديد يبدون غيرة وحماسة متدفقة له وسرعان ما تبوأ أشرافهم مكانة سامية في عاصمة الدولة العثمانية وتسلم بعضهم مناصب رفيعة فيها.

هذا من جهة أمَّا من جهة أُخرى فإنَّه يمكن أن نستخلص بعض العبر من

---

(١) سكدوار: مدينة صغيرة في بلاد المجر.

خلال الوقائع التي سردت في مجال العلاقات العثمانية الأوروبية فقد رأينا كيف كان ملك فرنسا يحاول التحالف مع السلطان سليمان ثم ينقض العهود ثم يعود لاستجداء عطف وتأييد العثمانيين من جديد فيثور عليه الرأي العام النصراني فيتراجع مرة أخرى ويعود إلى حظيرتهم والحقيقة أنَّه لا يمكن للصليبيين أعداء الإسلام أن يتخلى بعضهم عن بعض أمام تحدِّيه القوي لهم وإن كانوا مختلفين ظاهرياً تبعاً للمصالح والأهواء. وإنَّ أعداء الإسلام من الصليبيين الحاقدين لا أحلاف ولا مواثيق لهم في تعاملهم مع المسلمين كما يبين لنا الله عزَّ وجلّ في كتابه الكريم. وحينما تتبين لهم بادرة ضعف عند المسلمين فإنَّهم سرعان ما يقوى ساعدهم كي يجهزوا عليهم وهم في الوقت نفسه لا يسمحون لحاكم منهم مهما كان اتجاهه أو وضعه أن يتعاون مع المسلمين وأنَّه مهما اختلفت المصالح فهم جميعاً يتفقون في محاربة هذا الدين وتقتيل أهله في كل زمان ومكان. لقد تبين لنا تسامح المسلمين تجاههم واحترامهم للمواثيق والعهود التي أبرموها معهم، فها هو السلطان سليمان يتحالف مع ملك فرنسا الذي يقوم في الوقت نفسه بذبح أبناء المسلمين في الشمال الإفريقي ولكنَّ شارلكان عدو الإسلام والمسلمين كان يشكل خطراً أكبر على كيان المسلمين في شمالي إفريقيا وهو خصم الملك الفرنسي فلا بد من الاستعانة بذلك الملك وخاصة أنَّه كان قد اتفق بينهما على مهاجمة إيطاليا وإسبانيا فلربما كان في مخطط السلطان العثماني وهو المرجح الوصول إلى إسبانيا لإعادة وضع المسلمين فيها إذ لم يكن قد مضى على خروجهم أكثر من ربع قرن، وكانت صور الوحشية لا تزال ماثلة هناك. كما أنَّ الطريق البحري هو أقرب الطرق لذلك الهدف الذي كان بإمكانه أن يأتي بالعقاب على حكام إسبانيا وربما يستعيد للمسلمين بلادهم هناك. وهذا ما شعرت به النصرانية العالمية وتكاتفت جميعها لمنع الوصول إليه. إنَّ عهد القوة والمجد قد توقف بغياب سليمان القانوني وبدأت الفتوحات بالتجمد بعده مباشرة وبالتراجع أحياناً وربما كانت بعض أخطائه من جملة أسباب انتهاء تلك المرحلة وسنتكلم عن عوامل الانحطاط والضعف في بحث مستقل إن شاء الله.

حول فتح العثمانيين للبلاد العربية:

من خلال اللمحة السابقة إلى أوضاع العرب إبّان وقبل الفتح العثماني، يتبيَّن لنا ضرورة وجود منقذ، يكون لهم عوناً للتخلص من طغيان الحكام

المحليين، وأساليبهم التعسفية في فرض إرادتهم بالقوة والقهر، وللحيلولة دون استخدامهم سلاح البطش لضمان استمرار تحكّمهم في مصير البلاد العربية، وتعطيلهم لأحكام الشريعة الإسلامية، وبالأخص دولة المماليك. كما تتبين الحاجة الماسة لهذا المنقذ، وضرورة كونه منقذاً قوياً، يتمكن من درء خطر الاعتداءات الصليبية المتتالية على السواحل العربية، وبالأخص حملات الإسبان والبرتغال، وقراصنة البحار الموالين لهم. ولم يكن وفق هذه الشروط أنسب ولا أفضل من العثمانيين كمنقذين في ذلك الزمان العصيب. كانت دولة آل عثمان في تلك الآونة ترتقي صعداً في المستوى العالمي على النطاقين العسكري والسياسي، كيف لا تكون في هذا المستوى، وهي الدولة التي قضت على «بيزنطة» وفتحت عاصمتها، ودخلت أرض أوروبا من بوابتها الشرقية عبر المضائق، وبالحال وضعت يدها على بلاد الصرب والبلغار، وامتدت شمالاً نحو الإمارتين الدانوبيتين، وهددت «روما» مركز الكاثوليكية، واحتوت بلاد البلقان على وجه الإجمال، ثمَّ إنَّها الدولة التي دان لحكمها برّ الأناضول امتداداً إلى تخوم العجم وشواطئ القرم وبلاد القوقاز حتى جعلت من البحر الأسود بحيرة عثمانية، فهل يكون أنسب من هؤلاء الفاتحين المسلمين الأقوياء درعاً لدرء المخاطر التي ذكرت، وهل يتوقع وجود أنسب من هؤلاء المجاهدين الغزاة في سبيل الله عوناً للعرب في حماية بلادهم من شرّ ويلات أولئك الأعداء.

أجل، أنَّه لم يكن يوجد أنسب منهم، وهم أشقّاء العقيدة من اقتضت شريعة الإسلام التناصر بينهم وبين العرب، بل وهو أمر حضَّت عليه، فينتصر القوي لأخيه المستضعف في الأرض، ومنه كان ترحيب العرب بالعثمانيين الفاتحين.

إنَّ العرب، لم يقاوموا الفتح ولا الحكم العثماني، ولم يقفوا حجر عثرة في طريق تقدمه، بل الذين قاوموا كانوا بعض المرتزقة من حكّامهم، كالمماليك أو غيرهم من المنتفعين. والعرب، لم ينظروا إلى الحكم العثماني، حكماً استعمارياً ولا محتلاً، بل نظروا إليه نظرة الملهوف لمنقذه، والأخ لأخيه، خلاف النظرة التي تولّدت فيما بعد، عندما بدأت موجات الأوروبيين من المستعمرين الفرنسيين والإنكليز والإسبان والبرتغال وغيرهم تغزو بلادهم، وتحاول تلويث أفكارهم، وهذا ما يقرّه الواقع ويعترف به التاريخ.

عندما يبسط المستعمر حمايته على شعب من الشعوب، فإنَّ أول ما يهدف إليه بعد اختراقه بجيوشه، القيام بعملية تذويب حضاري، تنصهر بها حضارة الأمَّة المقهورة في بوتقة حضارة الأمَّة السائدة، وهذا أمر معـروف لا يحتاج إلى دليل، فهل كان العثمانيون الأوائل حتى إكمالهم فتح البلاد العربية يضربون على هذا الوتر؟ أو بكلمة أخرى: هل عزم العثمانيون الأوائل تـتريك العرب؟ وهل انتهجوا سياسة التمـييز القومي إزاءهم؟ ولا أقصد هنا التعميم، فينسحب كلامي حتى أواخر عهود الدولة العثمانية، عندما برزت سياسة التـتريك، بل أقصد الفينة السابقة لفتح البلاد العربية، وأثناء ذلك الفتح وإلى ما بعده حتى ظهور أثر الأفكار الغربية الحديثة لدى أبناء الشعبين العربي والتركي خاصة، وبقية شعوب الدولة العثمانية عامة.

وتقـدمت جيوش السلطان العثـماني «سليم الأوَّل» وفتحت بـلاد الشـام ومصر، فهل حدث انهيار حضاري فعلي لحق البلاد العربية بعد هزيمة المماليك قرب حلب؟ وهل زالت معالم الحضارة والدولة والمدنية العربية، وأغرق العرب في ظلمات الجهل والتخلف والفقر، نتيجة الأوضاع الجديدة الناشئة؟ وهل حدث استعمار استيطاني من قبل الأتراك في البلاد العربية، وهبط نتيجة لذلك مستوى السكان العرب الأصليـين وأصبح يماثل مستوى الغزاة الفاتحين؟

إنَّ الجواب على هذه الأسئلة طبعاً هو النفي. فالأمَّة العربية لم تذب في بوتقة الأمَّة التركية، بل التاريخ والواقع يثبت أنَّ العكس هو الصحيح، فهذه اللغة التركية تعجّ بالمفردات العربية، حتى إنَّ اللغة العثمانيـة التي كانت تكتب بالحروف العربية ينوف عدد مصطلحاتها العربية عن النصف كثيراً، وأنَّه رغم ما قام به «أتاتورك» ضد العرب والعروبة والعربية، فإنَّ قرابة النصف من التركية التي أصبحت منذ بداية عهده تكتب باللاتينية، لا يزال أصلها عربـي واضح تماماً رغم عمليات التنقية والتطهير حسب ادّعاءاتهم، وهذا أكبر شاهد على ما أقول.

واستمرَّت اللغة العربية بعد الفتح العثماني لغة العلم والدين والقضاء، ولها المكانة المرموقة باعتبارها لغة القرآن الكريم، وحاول بعض السلاطين من الفاتحين الأوائل جعلها اللغة الرسمية للدولة، فضلاً عن إتقانهم اللسان العربي واستبقائها اللغة المعترف بها على الصعيد الرسمي في أوساط البلاد العربية.

صحيح أنَّ العثمانيـين قد تأثّروا بحضارات الأمم والامبراطوريات المجاورة

والبلاد المفتوحة على مختلف الأصعدة الإدارية والمعمارية والفنية والعسكرية. . إلاّ أنَّ الأثر الأكبر كان للعرب، وليس هذا إلاّ لدور الإسلام العجيب، وقوته الحضارية على مختلف الأمم والشعوب، وخاصة منها التي تعتنق هذا الدين الفريد.

لقد تمتّع العلماء، وأكثرهم كانوا من العرب، بسلطات واسعة، وكانوا يرسلون احتجاجاتهم على تصرفات بعض الإداريين مباشرة إلى الباب العالي والعاصمة العثمانية، كما أصبحت الدولة العثمانية أكثر تسنناً عندما فتحت عواصم السنة التقليدية في مصر وبلاد الشام، وانصهرت الأفكار الشعبية التي سادت في الأناضول شيئاً فشيئاً في بوتقة أهل السنة، واستمرَّت مراكز العلم الشرعي في دمشق والقاهرة في إرسال موجات العلماء ممَّن تخرّجوا من أبناء الأناضول من معاهدها إلى بلادهم ليؤدوا الدور المنوط بهم بعد أن درسوا في البلاد العربية.

إنَّ سياسة التتريك لم تجر على الألسنة كما ذكرت إلاّ في العهود الأخيرة، وبالتحديد في القرن التاسع عشر الميلادي، بعد تأثر العثمانيين بالحضارة الغربية. عندما عانت الدولة في عصور الانحطاط من الهزائم العسكرية أمام الغرب، وكان اليهود وراء هذه السياسة التي هدفت من جملة ما هدفت إليه، إيجاد النفرة والكراهية بين العرب والأتراك خصوصاً، وبين العناصر العرقية المختلفة التي جمعت بنيها إخوة الإسلام في البوتقة العثمانية، وضرب الإسلام بضرب الدولة العثمانية، وهذا ما حدث بالفعل طبقاً لذلك الواقع المرير، ولن أخوض في تفاصيل هذه النقطة، بل أحيل القارىء الكريم إلى كتابات العرب القوميين ممَّن عاشوا في أواخر عهد الدولة العثمانية، فاعترافاتهم بسيادة الفكر الغربي بين ظهرانيهم، وكيلهم الاتهامات للرباط التي جمع أواصر هذه الأُمَّة لأكثر من ثلاثة عشر قرناً فيه الكفاية.

إنَّ ما يدَّعيه البعض من حدوث انهيار حضاري لدى العرب بعد معركة مرج دابق، لا ينمّ عن الحقيقة. فهل كان العرب الخاضعون لحكم المماليك، أو البدو من سكان الصحارى، أو أبناء السواحل الذين يتعرضون لجحيم غزوات البرتغاليين والإسبان، أكثر حضارة من العثمانيين في ذلك الحين؟ لا أظن هذا

---

(١) The Arabs. p. 86.

صحيحاً إلَّا في اعتبار واحد هو اعتبار الإسلام. وبناءً على هذا الاعتبار، استمرَّت مراكز العلم العربية ببث إشعاعاتها كما كانت أو زادت عمَّا كانت عليه، وبالمقابل، فبدلاً من حدوث انهيار حضاري في بلاد العرب، أُدخلت مبتكرات العثمانيين الإدارية والعسكرية الجديدة إلى البلاد العربية فزادتها تقدماً. ومن الطبيعي أن تكون العواصم أكثر تقدماً من أطراف الممالك، كذلك من الطبيعي استخدام الحاكم الجديد لأعوانه في سبيل ترسيخ حكمه وتدعيم سلطته. أمَّا حلول التخلف والفقر والجهل، فهو وإن حلّ ليس إلَّا استمراراً للأوضاع السابقة من جهة، ولمعاناة العرب أكثر من غيرهم من أبناء الدولة العثمانية حتى ذلك الحين، نظراً لاكتشاف رأس الرجاء الصالح وما نجم عنه وما تلاه من أثر على التجارة، فضلاً عن الأزمة الاقتصادية التي ترافقت مع تزايد السكان وألقت بالتالي ظلالها على العالم العربي آنذاك. ورغم الفتوى التي حصل عليها السلطان «سليم الأوَّل» بعد فتح مصر بجواز وضع يده على الأوقاف القديمة، إلَّا أنَّه لم يعمل بها، بل زاد تلك الأوقاف، كما هو مشهور ومفصّل في كتب التاريخ. كما يعرف عنه أيضاً، أنَّه لم يأخذ من خزانة مصر إلَّا الأمانات النبوية الشريفة، وبعض الأشياء النفيسة نادرة الوجود، وأبقى ما تبقى من الأموال لمصر[1].

وبذلك فإنَّ معاناة العرب، وفقاً لتلك الظروف، كانت معاناة للأتراك أيضاً، وهذا ما تقرّ به الوقائع ويعترف به المؤرخون المنصفون لتلك المدة، وليس لنا في هذه العجالة سرد الوقائع الدامغة والأدلة المعروفة.

ولم يقم الأتراك بعملية استعمار استيطاني في البلاد العربية، كما لم تتخذ الدولة العثمانية أي إجراء له مساس بالعرب، ولم يكن تصرّف السلطانين «سليم الأول» وابنه السلطان «سليمان القانوني» بعد فتحهما البلاد العربية، وضمهما إلى الدولة العثمانية، إلَّا بهدف إقامة سيادة عثمانية، دون إحداث تغيير جوهري أو اتخاذ إجراءات يفهم منها القيام بعمليات تتريك، فهذه الطموحات المتواضعة التي قنع بها كلاً من سليم الأوَّل وسليمان القانوني، لم يحرصا عليها، إلَّا لتكون مثلاً عليا لخلفائهما الضعاف ممَّن لعبت بهم الأهواء، وتكاثرت عليهم المصائب والأعداء.

---

(١) كتاب تاريخ الدولة العثمانية. إسماعيل سرهنك، ص ٧٤.

إنَّ الصفات المميزة للإدارة العثمانية كانت في هذا الصدد ترتكز إلى الكراهية الشديدة لإحداث أي نوع من التغيير، أو ابتداع أي نظام جديد غير مألوف فيها. وكان الولاة والمتصرفون لا يشجعون إحداث تغيير رغم سلطاتهم الواسعة، ويشكّ فيمن يظهرون القدرة على ذلك، ويستدعون في الحال إلى العاصمة وتجري محاسبتهم[1].

ولم يلجأ الفاتحون العثمانيون إلى اتباع سياسة التفرقة، بل اتبعوا سياسة الأُخوّة الإسلامية تحت الراية العثمانية، كما لم ينتهجوا سياسة التجهيل بالقوة والإرهاب، ولم يلجأوا إلى القوة إلاَّ في وجه المتمردين والعصاة، الذين قد تستخدم ضدهم سياسة تفكيك أواصر الأسر، وفي هذه الحالة فلا فرق أكان المتمرد عربياً أم تركياً أم ألبانياً أو سواهم. كما لم يصدف أن اتُّخذت سياسة لتدمير الكتب العربية أو إحراقها، فالثقافة العربية، كانت كما ذكرت هي الثقافة السائدة إلى حد بعيد، والكتب العربية تعد أُمهات الكتب التي استقى منها الأتراك جلّ ثقافتهم الدينية والاجتماعية والفلسفية والفكرية على وجه العموم، في العصور التي سبقت عصر التنظيمات والانفتاح نحو الغرب.

واستمرَّت الرابطة الدينية تشدّ ولاء العرب إلى العثمانيين، وهذا أمر لا شك فيه، كذلك استمرَّت هذه الرابطة تشد أواصر الحب والترابط، وتجمع الأهداف المشتركة بين العرب والأتراك العثمانيين، ولم يحدث خلل في هذه المعادلة إلاَّ عندما استلهم الطرفان ثقافة الغرب وأفكاره القومية العلمانية.

وظلَّ العرب، يعدُّون الدولة العثمانية، الدولة الإسلامية ذات السيادة عليهم والحامية لهم، وبدافع الاقتناع والرغبة والانصياع لأوامر الإسلام، قبلوا بهذه السيادة وقدموا لها الولاء وانضووا تحت ظل علمها المرفرف وهلالها الخفاق.

إنَّه عندما تتعرض أُمَّة من الأُمم، لغارات المحتلين والمستعمرين، يتعرض بعض أبنائها للقتل وبيوتها للتدمير وموارد رزقها للإبادة، وتفرض عليها سياسة الكبت والإرهاب والهمجية والتعسف، وهذا ما نجده واضحاً في سياسة الأُمم الأُوروبية لدى استعبادها الشعوب المستضعفة في الأرض، والتجسد الحقيقي الواضح لما أقول، يتجلّى في سياسة الصهاينة المستعمرين الاستيطانيين في فلسطين

(١) The Arabs. p. 89 - 90.

اليـوم، وفي أعمال الغـزاة المستعمرين الفـرنسيـين والإنكليز بـالأمس، يوم أن اكتسحت جيوشهم بلاد العرب وزرعت فيها الدمار وأزهقت أرواح الأبـرياء، واتّبعت سياسة البطش والإرهاب إزاء المناضلين الأحرار والمقاومين الشرفاء. لكن قولي هذا لا ينطبق على الدولة العثمانية بأي شكل من الأشكال، فليس بصحيح ما قيل عن فرض هذه الدولة لسياسة القمع بالحديد والنار على الولايات العربية، إذ الحكم كان محافظاً إلى حد بعيد، وخاضعاً لمصلحة الدولة تماماً، لكن ليس حكماً قاسياً وخالياً من الشعور بالرأفة أو عديم الرحمة، فضلاً عن أنّـه لم يكن حكماً ابتزازياً، بل حسب طرق عدة، يعدّ تحسيناً لما فعله الأسلاف[١]، متسامحاً تسامحاً طبيعياً بسبب الإسلام، وقد يكون هذا التسامح أحياناً تسامحاً اضطرارياً، وقد تكون بعض الجماعات قد اضـطهدت لأسبـاب سياسيـة أو شخصية، إلّا أنّـه احتضن الصوفية وناصرها، وبجّل العلماء وأصغى لتوجيهاتهم.

والشعب المستعمر، لا يرحب بمستعمره، بل يعدّ القوة للتصدّي له، ومن ثمّ التخلص من كابوسه الجاثم فوق صدره، لكن ما حدث عند فتح العثمانيـين للبلاد العربية لم ينتهج هذه القاعدة، لا لشيء، إلّا لأنّ العرب عدّوا العثمانيـين إخوة وأصدقاء لا مستعمرين أو أعداء. وها هي الوثائق التاريخية تثبت ترحيب السوريـين والمصريـين بالفاتحين العثمانيـين. وقد رحّب الشعب السوري بمقدمهم حتى قبل قدومهم الفعلي، وعلى سبيل المثال، فعندما تحرك «الغوري» بجيوشه من مصر إلى سوريا لملاقاة العثمانيـين عند مشارف حلب، فوجىء هو وجيوشه بأنّ الأهالي هناك، لقّنوا أطفالهم صيحة «ينصرك الله العظيم يا سلطان سليم»[٢] وفي حلب أيضـاً، اجتمع العلماء والقضـاة والأعيـان والأشراف وأهـل الـرأي مـع الشعب، وتبـاحثـوا في حـالهم، ثمّ قـرروا أن يتـولى قضـاة المـذاهب الأربعـة والأشراف، كتابة عريضة نيابة عن الجميع، يخاطبون فيها السلطان العثماني «سليم الأوّل» ويقـولون إنّ الشعب السـوري، ضاق (بـالظلم المملوكي) وإنّ حكـام المماليك يخالفون الشرع الشريـف، وإنّ السلطان إذا قرر الزحف عـلى السلطنة المملوكية، فإنّ الشعب سيرحّب به، وتعبيراً عن فرحته، سيخرج بجميع فئاته وطوائفه إلى «عينتاب» البعيدة عن «حلب»، ولن يكتفوا بالترحيب به في بلادهم

---

(١) The Arabs. p. 89 - 90.

(٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

فقط، ويطلبون من «سليم الأوَّل» أن يرسل لهم رسولاً من عنده، وزيراً ثقة، يقابلهم سراً، ويعطيهم عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب الناس[1].

وهكذا رحب السوريون بالفاتح العثماني، وقدّم «أبو البركات» مفاتيح الحرمين الشريفين لسليم مختاراً، وتنازل الخليفة العباسي بنفسه له عن سلطة الخلافة الإسلامية التي يتمتع بها اسمياً أيضاً.

واعترض البعض على السلطان «سليم الأوَّل» لمحوه دولة الجراكسة واستئصال شأفتها، لكن هذا العمل، لم يكن كما ردّد المعترضون، فالدولة الجركسية لم تمحَ من الوجود البتة، بل حافظت على شكل معين بما تبقى من وجودها، وشكّل ما بقي من جنودهم وضباطهم قوة أنيط بها المحافظة على بلاد مصر، واستبقى السلطان العثماني في مصر قوة عسكرية مؤلفة من نحو ستة آلاف عسكري[2].

واتهم الفاتح العثماني بنهب خيرات مصر والاستيلاء على خزانتها، وهذا خطأ إذ لم يأخذ العثمانيون من مصر كما ذكرت سوى الأمانات النبوية، رغم أنَّهم حصلوا على الفتوى الشرعية بجواز أخذها، واحتفظ بالخزانة المصرية في مصر[3]، أمَّا ما جرى في المغرب العربي فالأمر يختلف، ومن المعروف أنَّ خير الدين بارباروس هو الذي قدم إلى «الآستانة» في عهد السلطان «سليم الأول» بصحبة، ابن أخته الرئيس «محيي الدين» وقدّم الولاء الكامل والطاعة المطلقة لسليم، مع كثير من النفائس والهدايا، ودخل في خدمته، فعيّنه السلطان العثماني برتبة بكلر بك الجزائر، فعاد ليحارب الإسبان حتى أجلاهم عن الجزائر واستردَّ حصونها، وتغلب على السفن الإسبانية، وتيسَّر له نقل سبعين ألفاً من مسلحي الأندلس، وأنقذهم من الإهانة التي لحقت بهم من الإسبان. وعندما قصَّ «باربا روس» تفاصيل مواقعه البحرية على السلطان «سليمان القانوني». نال منه العطف والاهتمام، ثمَّ نصَّبه سليمان قبوداناً للعمارة العثمانية، لما اشتهر به من المهارة في فن الحرب البحري، والإقدام والجسارة، ومن حينها سمي «خير الدين»

(١) هذه العريضة محفوظة في الأرشيف العثماني في متحف «طوب قابي» باستانبول تحت رقم ١١٦٣٤ (٢٦).
(٢) تاريخ الدول العثمانية، سرهنك، ص ٧٤.
(٣) المصدر السابق.

لما أوتي من الانتصارات. لقد أكّد «خير الدين» الإخلاص والولاء للسلطان العثماني، وفتح بعض الثغور وخلّصها من أيدي الإسبان، وعلا ذكره وذكر إخوته في البحار، وامتلكوا مدن «تلمسان» و«بجاوة» و«الجزائر»، واتفق «عروج» - أخو خير الدين - مع «خضر» - خير الدين - والأمير «محمَّد الحفصي» سلطان تونس، على أن يتنازل لهما، عن قلعة «حلق الوادي» وهما بالمقابل، يكفيانه شر أعدائه، ويقاسمانه الغنائم.

وكفَّ «خير الدين» في عهد السلطان العثماني «سليمان القانوني» عن مهاجمة فرنسا، لما بينها وبين العثمانيين من مواثيق، واتجه لمهاجمة إسبانيا بعد سقوط «غرناطة» فساعد المسلمين أثناء نزوحهم إلى بلاد المغرب، وعندما نقم أهالي تونس على السلطان الحفصي لميله إلى «شارلكان»، احتلها خير الدين دون مقاومة تذكر، لكن «شارلكان» اتحد مع رهبنة القديس يوحنا الأورشليمي التي نزلت بجزيرة «مالطا» بعد فتح «رودوس»، وعادوا جميعاً فاسترجعوا تونس من يد خير الدين وأعادوها إلى مولاي حسن، ودخلت جيوش شارلكان مدينة تونس ونهبوا وقتلوا وفسقوا وارتكبوا كل أنواع المحرّمات وهدموا المساجد وحرقوا ومزقوا أغلب الكتب النفيسة[1].

إنَّ بعض الحكام اعتاد على الخيانة والتعاون مع الأجنبي عدو الإسلام والمسلمين، في سبيل توطيد دعائم حكمه، مهما كانت النتائج، وهكذا على أعقاب هذه النكبة أعيد مولاي حسن إلى سدة الحكم وأخلى سبيل النصارى وأباح لهم استيطان تونس، وإقامة شعائرهم فيها، وتنازل لشارلكان عن مدائن معينة ودفع له مبلغاً قدره ١٢ ألف دوكا كمصروفات حرب.

وعندما رأى «خير الدين» ذلك المناضل المغوار، الذي دافع بالتعاون مع العثمانيين عن العرب هناك وجنَّبهم ويلات الصليبيين الأعداء، عندما رأى كيف يفضّل بعض حكام العرب أعداء الإسلام على حماة الإسلام، عاد لمحاربة شارلكان الذي هاجم الجزائر بعد أن كان قد رحل عندما رأى ما حدث، ثمَّ عاد إلى الآستانة حيث توفي بها. ومع ذلك فقد صدرت أوامر العثمانيين بالتصدي للبرتغاليين وقتالهم عندما هددوا الشواطى العربية ومن ثمَّ تمَّ فتح عدن وبلاد

---

(١) تاريخ الدولة العليا العثمانية - فريد وجدي، ص ٩٦.

اليمن خوفاً من استيلاء بالبرتغاليـين عليها أو أي قوة أُوروبية أُخرى.

لقد حمى العثمانيون البلاد العربية من مخاطر الغرب وأطماعه الاستعمارية لعدة قرون، وبعد أن ضعفوا بدأت أُوروبا باحتلال البلاد العربية تدريجياً، وكانت تزداد سيطرتها كلما ضعفت القبضة الإسلامية العثمانية، حتى تمكنت من فرض هيمنتها على معظم التراب العربي عشية سقوط الخلافة الإسلامية وزوال السلطنة العثمانية.

إنَّه كما رأينا في المشرق العربي، فإنَّ أبناء المغرب العربي، هم الذين دعوا الأتراك العثمانيـين أيضاً، وانضووا تحت لـوائهم وتقبلوا سيادتهم عليهم، رغم خيانة بعض الحكام وتعاونهم مع الأجنبي الأوروبي، ولم يفقر العثمانيون ولايات تونس والجزائر وطرابلس الغرب، بل استمرت هذه الولايات الثلاث في بحبوحة العيش التي كانت تـتمتع بها، وظلت أسواقها تفيض بالخـيرات، ولم تـتضاءل أهميتها إلَّا عندما عرفت أُوروبا كيف تـتعامل معها. ويقول السياح الأوروبيون الذين زاروا هذه البلاد بين القرنين السادس العشر والثامن عشر الميلادي عندما يروون عن سياحاتهم ورحلاتهم في الجزائر وتونس، بأنَّ مدنها مدن جميلة وتشاهد فيها بعض العمارات الفاخرة والحدائق والأسواق الفائضة[١].

---

(١) The Arabs. p. 128.



البَابُ الرَّابِع

عوامل التقدم العثماني وأسباب الانحطاط

في خلال قرن من الزمان، تمكنت دولة آل عثمان، من مدّ نفوذها لتبلغ غرباً حدود المغرب الأقصى، وشمالاً أسوار «فيّنا» في أوروبا الوسطى، وشرقاً إلى تخوم فارس وبلاد القوقاز، وتحيط بالبحرين الأسود والأحمر، وأن يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة عثمانية كالبحر الأسود.

هذه الدولة، التي شغلت مساحة من الأرض تقارب مساحة ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي، هل حصل لها هذا التوسع الجغرافي، في هذه الحقبة القصيرة في عمر الزمن، جرّاء فعل العقل الباطني للعالم، عندما يشكل كما يدَّعي أصحاب فلسفات التاريخ أداة لصياغة الأحداث المتلاحقة، أم إنَّه نتيجة لعلاقات الكتل المادية وأحجامها وأوضاعها المتغيرة كما يرى أصحاب النظرة المادية من أتباع ماركس وأحزابه، أم إنَّها وليدة عامل الاستجابة والتحدي؟ حيث تلعب القيادة المبدعة دوراً أساسياً في صياغة الأحداث العالمية، كما يراه «توينبي» في دراسته لتاريخ العالم وحضارات الأمم، أم ماذا؟

إنَّ مسألة سير التاريخ البشري، ليس مجرد صدفة عمياء، أو محاولة للعقل الكلي أو عقل العالم التعبير عن نفسه من خلال العالم بقطع الطريق الطويل من أجل التجلي، ولا هو مجرد تطور لوسائل الإنتاج، بل هي علاقة بين الحدث التاريخي والإنسان، في نظرة أبعد كثيراً عمّا تراه المادية أو المثالية. فهذا الإنسان، باعتباره خليفة الله في الأرض، يصنع تاريخه وفق إرادة حرة واختيار حر، ومنه فالسماء والأرض تكون مسخرة له. فالكلمة النهائية تبقى له باعتباره سيد الموقف،

وتقف النظريات العقلية والمادية حائرة أمامه ولا تفسر أحداث صنعه للتاريخ إلاَّ بسبر أعماق النفس الإنسانية والروح والوجدان. وخلافة الإنسان في الأرض، تقتضي القدرة العقلية مثلما تقتضي القدرة الجسدية وكذلك الإرادة الحرة. والاستخلاف يعني العمل والإبداع وتجنّب الفساد والإفساد وتلقّي التعاليم والقيم، أي الإيمان والعمل الصالح، لكن الخلل بها يعني الدمار، إذ يدمّر الفساد الأرض والحضارة على الصعيدين المعنوي والمادي.

وهكذا تكون حركة الإنسان تجاه الطبيعة لصنع الحضارة، في النظر في ملكوت السماوات والأرض وفي دراسة قوانين وأسرار الطبيعة، والسعي للكشف عنها وعن أسرارها.

وإنَّه عندما تكون العلاقة بين الإنسان والعالم علاقة وئام وتكامل وانسجام، علاقة التحام بين الروح والمادة وبين الأرض والسماء، يكون الوضع طبيعياً، وتسير عجلة الحضارة بسرعة أكبر، وعندها فلا صراع بين الإنسان والعالم، سواء أكان في عالم الفكر كما يدَّعيه «هيجل» في تبريره جرائم قتل الشعوب أم في عالم المادة، كما يقول «ماركس» في تبريره مذابح الصراع الطبقي.

وعندما يفتقد الإنسان هذا التوازن، يحلّ الانحراف، وتجنح الجماعة باتجاه جانب ما، وتكبت جانباً آخر، ويؤدِّي ذلك إلى التدهور والسقوط. وعلى ذلك فالإيمان بالله والتلقّي الكامل عنه، يؤدي إلى السعادة في الدارين، كما أنَّ الالتزام بهذا الإيمان يؤدِّي إلى الإبداع في العمل.

وهكذا فالنظر في ملكوت السماوات والأرض، ودراسة قوانين وأسرار الطبيعة، والسعي للكشف عنها وعن هذه الأسرار، يجد البيئة المناسبة والأرض الصلبة في ظلال الإسلام، الإسلام الذي جعل الجهاد في سبيل الله فريضة أمر بها القرآن الكريم والنبي ﷺ، وبالتالي جاء أمره للمسلمين بالإعداد له وقتال أعداء دين الله، والحضّ على الإعداد لهذا الجهاد ما استطاع المسلم من قوة ومن رباط الخيل.

وفي ضوء الإسلام، انصقلت شخصية العثمانيين، واقتفى الأوائل منهم أثر الخلفاء الراشدين ودعوا إلى العدل ونبذ الظلم، واتصفوا بالزهد والتقشف ونبذ حطام هذه العاجلة، واقتضت هذه العقيدة التي آمنوا بها وأقبلوا على اعتناقها

الالتزام بمبادئها، والتمسك بتعاليمها والحرص على المحبة الشديدة لها، وافتدائها بأغلى ما يملكون، ومنه كان الدور الأساسي الباعث على تقدمهم، نابعاً من عقيدة الإسلام، إضافة إلى عوامل أخرى قد يرتبط بعضها بهذا الدور وفق مستويات متباينة.

١ - دور الإسلام:

إنَّ الإسلام هو الذي نقل أُمة كانت تعيش صراعات الجاهلية العربية إلى خير أمة أُخرجت للناس، لأنَّها التزمت بمبادئه عقيدة وعملاً، فخرَّت لها طواغيت الفرس والروم، وامتدت شرقاً وغرباً فاكتسحت معظم العالم المأهول. والسرّ يكمن في عملها على إخراج الناس من جور الطواغيت إلى عدل الإسلام، من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومنه دخول الناس في هذا الدين وإقبالهم على اعتناقه طوعاً بلا إكراه. وكان العثمانيون الأوائل، من تحققت بأيديهم الفتوحات، يتصفون بمعظم الصفات التي حضَّ عليها الإسلام، فانصقلت شخصياتهم وأحسنوا للناس، وزهدوا في الدنيا واتَّقوا الله، وأحبوا الإسلام وأهله، واقتدوا بعلمائه، ورفعوا راية الجهاد المقدس، واتصفوا بالرحمة والحلم والعفو عند المقدرة، وشجعوا العلم وأهله وطلابه، وأكرموا العلماء واهتموا بأحوالهم. ورفع العثمانيون الراية الإسلامية، إذ لا فرق لعربي على أعجمي إلاَّ بالتقوى، ولم يلتفتوا إلى عصبية قومية أو نعرة طورانية عرقية، وكانت نظرتهم إلى الأتراك أبناء جنسهم نظرتهم إلى برابرة، عكس ما حدث في أواخر عهودهم، عندما انفتحت مصاريع الغرب أمامهم ليلجوا فيها، فاشتعلت نار التعصب القومي والتفرقة الجنسية العرقية فانهارت دولتهم. نتيجة لذلك، وبدافع الجهاد والإعداد، بسطوا نفوذهم على البلقان ثمَّ الأناضول ثمَّ في آسيا وإفريقيا، واستطاعوا القضاء على التآمر الذي حدث بعد الهزيمة العثمانية أمام «تيمورلنك» فما أن زال هذا المغامر من الوجود، حتى تفككت أوصال دولته، فاستفادوا من هذا التفكك. كذلك استفادوا من تفسخ دولة المماليك البحرية وعدم استقرارها، ومن المشكلات التي كانت بين المماليك الجراكسة والتحالفات التي كانت قائمة آنذاك، وأخيراً من تفسخ الإمبراطورية البيزنطية، والخلافات بين زعمائها، وطلاب الحكم من قادتها، كالنزاع على العرش بين «كانتاكوزين» و «باليالوج» وبين «باليالوج» وولده «آندرونيك»، وكذلك من مناورات الصرب

بقيادة «دوشان» ومن أتى بعده، ومن تفكك مملكتهم، وكذلك من تهور «أوروك» الخامس ابن «دوشان» عام ١٣٦٣ م الموافق ٧٦٦ هـ، والحروب الأهلية والداخلية التي نجمت بعد مقتله.

تمسك العثمانيون بالشريعة الإسلامية، فكان في هذا التمسك تقدمهم وارتقاؤهم، ومن تمسك بكتاب الله وسنة رسوله لا يضل أبداً، والفلاح يحصل عند الحكم بما أنزل الله، بينما يحصل الظلم والفسق والكفران عند التحاكم في غير شريعة الله. وعلى ذلك، أعطوا الاهتمام للإشراف على تطبيق حكم الله بقدر الإمكان، وكان دور المفتي حاسماً، والنظام يقتضي استفتاءه كي لا يقع الحاكم في مخالفة لشرعة الله، وقد قال دوسن: فسواء للسلم أو الحرب، ولنظام سياسي أو قانون عسكري، ولعقاب وزير أو قائد عام، كانت تركيا تلجأ إلى المفتي طالبة فتواه، وكثيراً ما كانت تفاوضه وتفاوض كبار العلماء قبل الفتوى، إذ لا يكفي الاطمئنان إلى جواز الأمر شرعاً، بل من الواجب استفتاء علماء الدين ولاسيّما رئيسهم[١].

وكان المفتي نائب السلطان في الأمور الشرعية والمدنية، ومركزه رفيع ومقامه سام، حتى أنَّه إذا قَدِم، يخفّ السلطان لاستقباله، ويتقدّم سبع خطوات، على حين أنَّه لا يتقدم لاستقبال الوزير الأول إلَّا ثلاث خطوات.

وكان للإسلام، الأثر الكبير على الدولة العثمانية، فسياسة الدولة قائمة على أحكامه، وتعاليمه الروحية، لها الأثر الكبير في سلوك السلاطين وفي تقويم أخلاقهم، يروى أنَّ السلطان بايزيد بن مراد، شهد يوماً عند الشيخ شمس الدين محمَّد بن حمزة بن محمَّد الفناري بقضية فردَّ شهادته، فسأله عن سبب رده، فقال إنَّك تارك للجماعة، فبنى السلطان أمام قصره جامعاً، وعيّن لنفسه فيه موضعاً، ولم يترك الجماعة بعد ذلك[٢]. واتفق في أيام قضاء عسكر العالم المولى «محيي الدين محمَّد» الشهير بابن كوبلو، أن ظهر بعض الفساد من أحد غلمان السلطان محمَّد الفاتح بمدينة «أدرنة»، ولم يمتنع رغم محاولات منعه من قبل نائب المحكمة، بل ضرب هذا النائب ضرباً شديداً، فلمَّا سمع السلطان بهذه الحادثة،

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني، الجزء الرَّابع، ص ١٠٨.

(٢) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، ص ١٩.

أمر بقتل ذلك الغلام لتحقيره نائب الشريعة لولا شفاعة الوزراء له، وأتى به الوزراء إلى السلطان لتقبيل يده شكراً للعفو عنه، فأحضر السلطان محمَّد خان عصا كبيرة، فضربه بنفسه بها ضرباً شديداً حتى مرض الغلام أربعة أشهر فعالجوه فبرىء . . .[1].

لقد سادت الشريعة الإسلامية بين المسلمين كافة، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، والناس سواسية كأسنان المشط. وفي ربوع دولة الإسلام، الناس إخوة في ظل العقيدة، والشريعة الإسلامية أصرَّت على قاعدة لا إكراه في الدين. تلك القاعدة التي طبّقت على الرعايا غير المسلمين، وخيَّر الإسلام الناس آنذاك بين الإسلام أو دفع الجزية، ولم تدع العقيدة الإسلامية إلى نشر الإسلام بالسيف، وشددت على نيل أهل الذمّة حقوقهم كاملة، وعلى ذلك تمتع الذمّيون في مختلف عهود الإسلام بحرية تامة إزاء مزاولتهم ممارسة شعائرهم، واحتفظوا بقوانينهم الخاصة، ولم يكن يسمح بالتقاضي فيما بينهم إلَّا أمام أبناء أديانهم في خصوماتهم. وشدَّد الإسلام على رعاية العهد عند المستأمن، ووضع الأنظمة المفعمة بالرحمة إزاء من يشنُّون الحرب على المسلمين، فكان للعدل أثراً فعالاً أكثر من السيف.

وخيَّر العثمانيون غير المسلمين عندما كانوا يفتحون البلاد، بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، فمن آمن منهم، كان لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم من الحقوق والواجبات، ومن قبلوا الجزية يضمُّون إلى جسم الدولة مع احتفاظهم بالحرية الدينية والاستقلال في شؤونهم الطائفية، وفي مقابل حماية الدولة العثمانية لهم، لا يؤتون إلَّا الجزية عن أنفسهم، والخراج عن أراضيهم. وعندما دخل محمَّد الفاتح القسطنطينية، أمر الروم أن يرجعوا إليها ووعدهم بحرية التدين والمعتقد، مع احتفاظهم بأموالهم وأملاكهم كاملة، كما أنَّه منح البطريرك كل ما يتمتع به أسلافه من حقوق، واحتفظ الروم بكنائسهم تقريباً عدا «آياصوفيا» وبعض الكنائس الأخرى، وتمتعوا بحرية تدينهم واستقلالهم الإداري، كذلك كان شأن بقية العناصر غير المسلمة في الدولة العثمانية كالجنويين. وكان من تقديسهم لحرية الأديان، أنَّه لما جرى الاعتراض على الفاتح لعدم تخييره الرعايا

---

(١) المصدر السَّابق، ص ١٢٢.

النصارى في البلاد المفتوحة قبله، بين الإسلام أو القتل فإنّه قال: «كم هو فوق الواجب الادعاء بالحرص على الإسلام زيادة على حضرة الشارع» أي إنَّه يشير إلى أنَّ النَّبي ﷺ لم يفعل ما اقترحوه عليه[1].

٢ - ظروف أوروبا:

هجعت فكرة الحروب الصليبية بعد الهزيمة التي مني بها الغرب على أيدي المسلمين، وانكفأت أوروبا تلعق جراحها وتنشغل بأمورها العادية، مثل الصراعات بين القادة أو بين القادة والبابا أو بين الأباطرة والبابا أو بينهم وبين المغامرين الطموحين.

ومما لا شك فيه أنَّ هذه الظروف لها ارتباط بالعامل الأول الذي حفز العثمانيين على التقدم، إنَّه عامل الضغط ثمَّ التصفية الذي تعرض له المسلمون في الأندلس في ذلك الحين، ممَّا حدا بالعثمانيين التحرك لنجدة أشقاء العقيدة، وهذا ما بدا واضحاً على شواطئ المتوسط بين خير الدين بارباروس والبرتغاليين والإسبان عندما طلب المسلمون النجدة من العثمانيين وبارباروس. كما أنَّ ذكريات الحروب الصليبية ليست بعيدة عن الأذهان وبالأخص ما حدث بالقدس من مجازر على أيديهم وما عانته المدن والشواطئ الإسلامية، كذلك الصراع البيزنطي السلجوقي حتى بداية نشأة العثمانيين. وهذا ما دفع آل عثمان إلى التحرك صوب الغرب مستغلين بعض الظروف التي سادت الغرب وهذه نبذة بسيطة عنها:

ففي **فرنسا**: كانت هذه البلاد منهمكة في حرب المائة عام بينها وبين إنكلترا ١٣٣٧ م - ١٤٣٧ م، فانشغلت عن الدعوات التي ارتفعت من جديد لاستئناف الحروب الصليبية، كذلك انشغلت في الحروب الإقطاعية والحروب الإيطالية، وفي الاشتباك مع الإمبراطورية الألمانية، ولجأت للتحالف مع السلطان «سليمان القانوني».

وفي **ألمانيا**: أدّى التنازع على العرش، بين أُسرة هبسبورغ، إلى الانصراف عن الخطر العثماني، كذلك الحروب التي نشبت بين فرنسا وألمانيا في عهد

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني، نقلاً عن أحمد راسم رسملي وخريطة لي عثماني تاريخي ج ١، ص ١٣٨.

«شارلكان»، وثورة «لوثر»، والنزاعات بين ألمانيا وبولونيا والدول الإسكندنافية. كل ذلك مهّد للتقدم العثماني صوب قلب القارة الأوروبية.

وفي إنكلترا: كانت حرب المائة عام، وحرب الوردتين الداخلية لمدة ثلث قرن، عاملاً مساعداً في إتاحة الفرصة للعثمانيين، نظراً لانصراف الإنكليز عمّا يجري على الجانب الشرقي من القارة الأوروبية.

وفي إيطاليا: جعل الانشقاق الحاصل بين الإمبراطورية والكنيسة، والقتال الجاري بينهما حتى القرن الخامس عشر، الحكومات الإيطالية تبادر لخطب ودّ العثمانيين، كذلك مهّدت الانقسامات والمطامع الإيطالية للدخول تحت سيطرة إسبانيا لمدة قرنين من الزمان، ممّا أدّى بالعثمانيين تحقيق الفوائد الجليّة من جرّاء هذه الظروف.

وأخيراً فإنَّ إسبانيا لم تلتفت إلى الخطر الإسلامي الجديد، وانصرفت للإجهاز الكامل على دولة بني الأحمر في الأندلس وإجلاء المسلمين عن تلك البلاد، هذا من جهة، ولفشلها في صراعها مع السلطان القانوني من جهة أخرى، ممّا مكّن العثمانيين من السيادة في البحر الأبيض المتوسط وحتى الشواطىء المغربية.

وهكذا نستطيع القول بإيجاز، إنَّ التنازع والشقاق الحاصل بين دول أوروبا على الصعيدين السياسي والمذهبي، واللهو والترف، مكّن العثمانيين من طرق أبواب القارة ثمَّ التوغل حتى قلبها، والالتفاف حول العاصمة النمساوية ومحاصرتها عدة مرات، كما يمكن القول إنَّ الفوضى التي دبَّت من أجل التنازع على العرش كما هو الحال في بولونيا، والنزاع بين ملوكهم وأشرافهم، والاستهانة بعظماء السلاطين، كانت جميعاً من العوامل الإيجابية لتقدم الفاتح العثماني. وقد قال «أنيس سيلفيوس» المعاصر للفتح العثماني في أوروبا، وهو يصف حال تلك القارة آنذاك: جسم بغير رأس وجمهورية بلا شريعة ولا قضاة، وإنَّ البابوية والإمبراطورية، ولئن كانتا لا تزالان تضيئان مثل الألقاب الفخمة والصور البهيّة، لكن، لا البابا ولا الامبراطور، كان نافذ الإرادة مطاعاً[1].

وأيضاً، مهّد الأرض للفاتح العثماني، الصراع المذهبي بين الكاثوليك

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني، الجزء الأوّل، ص ٢٣٥،

والأرثوذكس، فمنذ أن حدث الانفصال التام بينهما عام ١٠٥٨ م الموافق ٤٤٦ هـ، حيث السياسة والسلطة تشكل جوهر الخلاف، أصبح الانشقاق أمراً طبيعياً، وازدادت الهوة بينهما شيئاً فشيئاً.

وعندما جاء الإسلام، عدَّ خطراً مشتركاً لكلا المذهبين، فخفَّ العداء بينهما لفترة، والتجأ الأباطرة البيزنطيون إلى ملوك الغرب وباباواتهم إبّان عهد السلاجقة، وذلك للتحريض لشن الحملات الصليبية، إلَّا أنَّ الحروب الصليبية لم تجعل الوئام يقوم بينهما، بل مكنت التباغض، وهذا ما تبيِّنه الأحداث التاريخية التي جرت إبّان الحملة الرابعة، وقد قال البابا «أنيسوسان» محتجاً على الصليبيين وواصفاً إياهم بأنَّهم الفجور علانية، وقد تركوا بين أنياب خدمهم الضواري، المحصنات والعذارى اللواتي كرَّسن أنفسهنَّ لله، وبسطوا أيديهم على كنوز الكنائس، حتى بلغ منهم، أنَّهم لم يوقروا الآنية المقدسة، ولا رفوف المذبح الفضية، وإنَّما كسروا الأواني المقدسة، وخطفوا الصلبان والذخائر[1]. وهكذا فعل بهم التنازع المدمر، إضافة إلى ما فعله الفجور العلن وانتشار الفاحشة والزنا وارتكاب المحارم، وهذا ما أدّى إلى النتيجة المرتقبة.

واستمرَّ حكم اللاتين للقسطنطينية ٥٧ سنة، فرضوا خلالها الظلم على الروم، ومارسوا السلب والنهب، ممَّا أدّى بهؤلاء تفضيل عامة المسلم التركي على قبعة الكاردينال، وعندما أحاق الخطر السلجوقي بالقسطنطينية، حاول ميخائيل بالبولوج أن يحرك النعرة الدينية في الغرب، وأرسل يشعر باعترافه بالذنب وبوجوب ضم الكنيستين، إلَّا أنَّ المساعي باءت بالفشل، وازدادت الهوة بين الكنيستين، وتعالت صيحات العامة والخاصة: الترك ولا اللاتين.

في ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية قد أكملت نشأتها وبدأت بوضع أقدامها على البر الأوروبي، ولم يلبث «محمَّد الثَّاني» أنَّ فتح القسطنطنية، وانضمَّ البعض من الأرثوذوكس إلى الجانب العثماني نتيجة لهذا الانشقاق. وقد نسب إلى رهبان الصرب أنَّهم أفشوا إلى القانوني، وهو يحاصر قلعة بلغراد، سرّ الألغام التي وضعها المجريون تحت القلعة، بعد أن عجزوا عن حمايتها، لتودي بحياة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٩، نقلاً عن درابر، الجزء الخامس.

العثمانيين حينما يدخلونها، وهم لم يفعلوا ذلك إلاَّ كرهاً بالكثلكة وأهلها(1).

ولم يقتصر الأمر على الشقاق وما نجم عنه من كوارث، بل والأهم كان انحطاط الشخصية القيادية وتهتك الأخلاق، وفشو الرشاوى والرذائل والخسّة والنذالة. فيقال عن «جوستنيان» إنَّه كان جباناً إلى حدّ النذالة، وناكراً للجميل، و «نرسيس المشين» كان شحيحاً، و «تريبونيان» كان مخادعاً ومنافقاً. أمَّا النسوة فاتَّصفن بانحطاط الأخلاق. وكانت الملكة «تيودور» راقصة، ولم يكفِّر عن المعاصي التي حاقت بها، كل ما بذلته من جهود على العرش، واشتهرت «باليزار» بالفسق شهرة بعلها بالانتصار(2). كما وصف المؤرخ «لويترانـد» القسطنطينية بقوله: إنَّ هذه المدينة التي كانت غنية وزاهرة من قبل، هي الآن مستقر العار والكذب، وبؤرة الخيانة والمداجاة والشدة، ومستودع البخل والزهو(3). وينقل بعضهم عن تاريخ جودت باشا أنَّهم لما عقدوا مجلساً للمذاكرة في «آيا صوفيا» عندما حاصرها الفاتح، تزاحموا على التقدم بالجلوس، تزاحماً أوصلهم إلى التضارب بالكراسي(4).

٣ - الجيش القوي المدرب المنظم:

لجأ العثمانيون إلى تدريب جيشهم تدريباً دقيقاً، وأنشأوا الفرق العسكرية المختلفة، فأنشأ «عثمان الأوَّل» فرقة الخيالة المسمّاة «آقنجي» ونظَّم «جندرلي قره خليل» أحد زعماء الدولة، لأورخان فرقة الإنكشارية، أي الجند الجديد، وفرقة المشاة «بياده» أو «يايا»، وأحدثت الدولة في عهد «بايزيد» أصول التعليم العسكري، وشرعت في تحسين جيشها، وأضافت إليه أصنافاً جديدة طبقاً للحاجة.

ولمَّا نشأت الدولة العثمانية، كان قد تمَّ اختراع الأسلحة النارية، لكنها لم تكن معروفة إلاَّ على نطاق ضيق في الغرب، لكنها لم تلبث أن استخدمت من قبلهم، وإليها يرجع الفضل في الانتصارات الحاسمة في أوروبا الشرقية، وهي

---

(١) المصدر السابق، جزء ٦ ص ٢٤٣.

(٢) المصدر السابق، جزء ٧، ص ٢٤٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

التي مهّدت للسلطان العثماني اجتياز بعض الممرات والحصون، وسهلت على «محمَّد الثاني» خصوصاً، فتح القسطنطنية، وساعدت سليمان القانوني على دخول «بلغراد» وأدَّت إلى هزيمة المجر في موقعة «موهكس». واستخدم العثمانيون المدافع، وخاصة عند فتحهم بلاد الشام ومصر، فكانت عاملاً حاسماً في انتصارهم على «قانصوه الغوري» في موقعة «مرج دابق» وهي التي أعطتهم الأرجحية في حروبهم مع الشاه «إسماعيل» في موقعة «جالديران». . إلاَّ أنَّهم كانوا قد استعملوها قبل هذا التاريخ وخاصة أثناء معركة «كوسوفو»، وكذلك أحدثوا الاستحكامات منذ عهد مراد الأوَّل، والمدفع العملاق أثناء فتح القسطنطينية. وفي مجال البحرية، يعدّ المؤرخون، السلطان «محمَّد الثَّاني» المؤسس الحقيقي للبحرية العثمانية. وكانت البندقية من الدول البحرية العظمى، لكن عندما تغلب الأسطول العثماني على عمارتها البحرية، في عهد السلطان بايزيد الثَّاني، وشرع يفتح كلاًّ من جزر الأرخبيل، والجزر الغربية اليونانية، بدأ العالم يحسب لها حساباً. ولم يلبث العثمانيون أن سيطروا على جميع جهات البحر الأسود تقريباً، وبحر مرمرة، والقسم الأعظم من بحر الأرخبيل، وكان تقدمهم في البحار، يفوق تقدم الإنكليز، حتى عهد الملكة «أليزابيت» ثمَّ أخذوا في التقهقر منذ معركة «ليبانتي» في عهد «سليم الثَّاني».

٤ - الموقع الاستراتيجي:

إنَّ موقع الدولة العثمانية في مكان القلب من العالم القديم، جعلها تبسط سيادتها على المضائق والخلجان ذات الأهمية الحيوية. وتتحكم في مفاتيح البحار، وتتوغل جنوباً إلى أعماق الصحاري ومنابع النيل وشمالاً إلى وسط أوروبا وجبال القوقاز. وفي المقام الأوَّل تأتي أهمية القسطنطينية فبموقعها الطبيعي والاقتصادي كانت مستودعاً لثروات إفريقيا وآسيا وأوروبا، ودرة الجمال في العالم، وقد سئل السلطان «عبد العزيز» في باريس، أي البلدين أجمل، باريس أم القسطنطينية فقال: «إنَّ استانبول يمكن لها أن تصبح مثل باريس، وأمَّا هذه، فليس بوسعها أن تبلغ جمال عاصمة آل عثمان»[1] كما أنها خلقت مركزاً بحرياً للدولة، وأمنت مركزاً وسطاً بين القارات الثلاث، وبمساعدتها أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية.

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني، ص ١٥٨.

إضافة إلى موقع القسطنطينية هناك عوامل آسيوية وإفريقية ساعدت على امتداد دولة آل عثمان وازدياد قوتها، مثل بسطها النفوذ في الأناضول؛ بدافع الجهاد في سبيل الله، ثمَّ القضاء على التآمر، فكانت دولة السلاجقة في حالة التململ والتفسخ، وسرعان ما تركت الساحة للدولة العثمانية الناشئة، ولم يبق من الإمارات التي قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم من بين جميع الإمارات الأخرى سوى دولة آل عثمان.

واستفاد العثمانيون الذين استعادوا قوتهم بعد معركة «أنقرة» بينهم وبين «تيمور» من تفكك امبراطوريته، ومن تفسخ دولة المماليك البحرية، ومشاكل المماليك الجراكسة وتحالفاتها، كذلك من تفسخ الإمبراطورية البيزنطية وانقسام حكامها وأخيراً فإنَّ موقع الإمارة العثمانية الجغرافي، مكَّنها من فتح أحضانها ملجأ للغزاة المسلمين الذين تدفقوا باستمرار بعد كل موقعة. وقيض الله سبحانه لمحمَّد الثَّاني فتح القسطنطينية، فزادت قوة الدولة العثمانية الناشئة، وتيسرت فرصة الاستفادة من الموقع الجغرافي والحيوي الجديد، ومن شبكة المواصلات المؤدية إلى المدن الرئيسية في الشام والعراق، فتحقق الإمداد بيسر وسهولة، لحشود العلماء والتجار والصناع، وبالتالي المساهمة في ازدياد قوتها وتنظيمها، وقوة الدولة بصورة عامة.

٥ - حياة البداوة وبساطة العيش:

يقول ابن خلدون: «إنَّ أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر... وأهل البدو... دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، ويتجافون عن الهجوع إلَّا غراراً في المجالس[١]... ثمَّ يقول عن البدو: فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم.. وإنَّ من عوائق الملك، حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم... ثمَّ يقول عن العثمانيين: وهم أقرب عهداً بنشأتهم من غيره... وغلب هؤلاء التركمان، على ما وراء الدانوب إلى خليج القسطنطينية، ونزل ملكهم مدينة «بورصة» من تلك الناحية، وكان يسمى «أورخان بن عثمان جق، فاتخذها داراً لملكهم، ولم يفارق الخيام إلى

---

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. تأليف عبد الرَّحمن ابن خلدون. الجزء الأوَّل، ص ١٢٥، ١٣٨.

القصور، وإنّما ينزل بخيامه، في بسيطها وضواحيها»[1].

وهكذا كانت حياة هذا الشعب البدوي في غاية البساطة، فلم يفتن بمباهج الحياة ومادياتها، ولم ينغمس في الترف والمفاسد التي ترافق اضمحلال الحضارات، ولم تفسده المدنية أو تسكره الانتصارات إلاّ حينما انغمس بها. واستفاد أولئك القوم من تلك الحضارات التي سادت أيامهم، فأخذوا منها أحسن ما فيها، واقتبسوا جيدها وتركوا رديئها. لقد أخذوا من الحضارة العربية، النظام الديني والاجتماعي، ومن الثقافة الفارسية أشياء وأشياء، من الإغريق ومجمل سكان البلقان بعض النظم والتقاليد، فاكتملت لديهم صفات القوة وتزودوا بمؤهلاتها.

كان عشيرة «قايي» المنحدرة من قبيلة «أوغوزخان» تمثل مجتمعاً بدوياً يبحث عن الكلأ، لذا فهو في حالة من الحركة الدائمة. امتهن العثماني البدوي الأوَّل السفر «الحرب» والصيد والسياحة والتجوال، وعدم التعلق باللباس وبالبناء والزينة والطعام والإفراط في الإنفاق.

واحتكَّ العثماني بثقافات البلاد المجاورة، وبالأخص الثقافة البيزنطية، فاطّلع عليها بإيمان وصدق، لكنه غربل القيم الموجودة في ذلك التراث بغرباله الإسلامي بادئ الأمر، وعرضها بعد ذلك على محك غريزته التاريخية الناجمة عن تقاليده العشائرية «تقاليد التنقل والترحال»، وبعد ذلك قلب الجوهر الذي تسبب في انهيار «بيزنطة».. رأساً على عقب..[2]

كان المحاربون خائضو الحملات أشبه بـ «القوات الخفيفة» المحمولة اليوم وهم على «ظهور الجياد» وكانوا يشنون حملاتهم على أراضي الأعداء صيفاً وشتاءً، ويغنمون الممتلكات والأسرى، هكذا كانت أيام السلم بالنسبة لهم، أمَّا الأيام التي أطلقوا عليها «أيام السفر» أي الحروب المركزية التي تساهم فيها العاصمة، فقد كانت مهمتهم استطلاع مواقع الأعداء، وقطع دابر الكمائن، والقيام بالحركات السريعة المذهلة للالتفاف.. وكانت مهنة خوض الحملات الحربية، تعتبر عند أكثر الأتراك، مهنة تتنقل من الأب إلى ولده، ومتبنو هذه المهنة، لم يكونوا يحصلون على أيّة رواتب، كما لم يكونوا يدفعون أيّة ضرائب[3].. ويبدو أنَّ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) التاريخ العثماني ـ تأليف حكمت قفلجملي ـ تعريب فاضل لقمان، ص ٥٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٢.

استجابة البدوي لتحدي قوى الطبيعة تعتبر عملاً فذاً، وهذا التحدّي هو الجفاف وتعتبر حياة البدوي انتصاراً للحذق البشري، ولكن هناك حالات لم يكن فيها التحدي المبالغ فيه طبيعياً كما يقول «توينبي» بل كان بشريّاً، وفي تفسيره لطول بقاء العثمانيين بالنسبة للإمبراطوريات البدوية الأخرى، أنّهم أدوا رسالة سياسية إيجابية قوامها تزويد العالم المسيحي الارثوذكسي بالدولة العالمية التي كان يعجز عن توفيرها لنفسه[1] فكانت الحاشية العثمانية التي هي أحدث عهداً من نظام المماليك والمكونة من الأرقاء التي أقامتها الأسرة المالكة العثمانية، لفرض سيطرتها والاحتفاظ بسلطانها على العالم المسيحي الارثوذوكسي. وهي بكل جلاء أصعب المهام التي تجابه فاتح بدوي، ولقد استثار هذا الأمر في عثمان وخلفائه حتى سليمان القانوني أسمى ما لدى البدوي من كفايات اجتماعية[2].

عوامل الضّعْف والانحطاط

إنَّ العثمانيين الذين تبوَّأوا منصباً في عهد سلاطينهم الفاتحين ووسعوا رقعة بلاد الإسلام شرقاً وغرباً واندحرت الأطماع الصليبية أمامهم وحقق الله على أيديهم هزيمة قادة الكفر والتآمر على بلاد المسلمين وارتجفت أوروبا خوفاً وفزعاً من بعض قادتهم أولئك كانت الروح الإسلامية عندهم عالية.. وكانت روح الانضباط التي يتحلى بها الجندي عاملاً من عوامل انتصاراتهم وهي التي شجعت محمَّد الثَّاني على القيام بفتوحاته. كما كانت غيرتهم على الإسلام شديدة وكثر حماسهم له. لقد بدأوا حياتهم الإسلامية بروح طيبة وساعدتهم الحيوية التي لا تنضب، إذ إنّهم شعب شاب جديد لم تفتنه مباهج الحياة المادية والثراء ولم ينغمس في مفاسد الحضارات المضمحلة التي كانت سائدة في البلاد التي فتحوها، ولكنهم استفادوا منها فأخذوا ما أفادهم. وكانت عندهم القدرة على التحكم والفتح والانتصار، وقد أتقنوا نظام الحكم وخاصة في عصر الفاتح، إذ كان هناك نظام وضع لاختيار المرشحين لتولِّي أمور الدولة بالانتقاء والاختيار والتدريب والثقافة، كما كانوا يشددون في اختيار من تؤهله صفاته العقلية والحسّية ومواهبه الأخرى

---

(١) مختصر دراسة التاريخ ـ آرنولد توينبي، المجلد (١)، ص ٢٩٢.
(٢) المصدر السابق.

المناسبة لشغل الوظائف. وكان السلطان رأس الحكم. ومركزه وقوته الدافعة وأداة توحيده وتسييره، وهو الذي يصدر الأوامر المهمة والتي لها صبغة دينية، وكان يحرص على كسب رضاء الله وعلى احترام الشرع الإسلامي المطهر، فكان العثمانيون يحبون سلاطينهم مخلصين لهم متعلقين بهم، فلم يفكروا لمدة سبعة قرون في تحويل السلطنة من آل عثمان إلى غيرهم، وكان النظام والهدوء يسود الجيش كما كان الصبر على المكاره والجَلَد وتحمّل الجوع والعطش وقطع المسافات الطويلة والخفّة وسرعة الحركة ديدنهم. وكان الجندي العثماني لا يرتدي سوى الملابس البسيطة التي تساعده على ذلك بينما امتاز الجنود الأوروبيون في ذلك الحين ببطء الحركة نظراً لثقل الملابس والدروع الحديدية. لقد كان النظام العثماني الحاكم حتى زمن الفاتح لا يعرف الوراثة، إذ كل الحقوق والامتيازات التي ينالها الأفراد شخصية لا تورث من بعدهم، فكان بذلك لا يعترف بغير الكفاية والجدارة الشخصية، ولم تتركز السلطة والقوة في يد عائلة واحدة أو عائلات قليلة كما هو الحال في البلاد الاوروبية إذ كانت سيطرة أسر قليلة متوارثة، بينما كانت هنا الأفضلية للكفاءة والجدارة والعلم. وكانت قوة الدافع الديني تظهر عندما يستنفر السلطان جنوده للحرب. هذه الأنماط في الحياة العثمانية كانت من أكبر العوامل في إحراز النصر. ولكن الأمور لم تستمر على المنهج نفسه والأسلوب الذي اتّبعوه منذ بزوغ نجمهم في صفحات التاريخ المضيء، فقد بدا الوهن والضعف يزحف إلى كيانهم والسكينة والخلود للراحة والنعيم والتقاعس عن الجهاد يشدهم شيئاً فشيئاً. لقد كانوا قادة الحرب في عالم آخذ بالتفتح والعلوم والفنون في انبعاث بعد حياة طويلة من الظلام عاشتها أوروبا. وقد ذكرنا سابقاً كيف أنَّ الفاتح استخدم أحدث الوسائل العلمية والحديثة التي كانت سائدة في عصره وكيف كان الفتح العسكري يغذى بالطاقة الروحية، وهذا العامل بالذات هو الذي قاد المسلمين الأوائل لفتح معظم العالم المعروف آنذاك دون أن يكن هناك انحراف عن منهج الله.

لقد دعا القرآن الكريم إلى دراسة شؤون الأمم الغابرة وبيّن كيف أنَّها سقطت وتلاشت حينما ظلمت ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(٢) ﴿وَإِذَآ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[1] فالشرط في تصاعد الخط البياني هو عدم الانحراف عن منهج الله وقد أشار ابن خلدون على الرغم من آرائه الأخرى حول موضوع الدولة إلى ضرورة حمل الكافة ـ أي كافة الناس ـ على شريعة الله إذا ما أردنا تجنّب مساوىء الملك الطبيعي والسياسي. وكان الانحراف عن منهج الله يزداد والخط البياني ينزل هابطاً ولكن كانت هناك طفرات في التاريخ الإسلامي يرتفع بها ذلك الخط قليلاً، فهناك المجددون. وفي عهود العثمانيين الأوائل ارتفع الخط ولكنه عاد للهبوط بعد انقضاء عهد السلاطين العشرة الذين أرسوا كيان الدولة وعززوا قوتها ومدوا فتوحاتها وكان دائماً الالتزام بمنهج الله هو الأساس، فقد روي عن السلطان بايزيد وهو الذي كان يلقب بالصاعقة لسرعة حركته في مواجهة الأعداء أنَّه مثل أمام القاضي شمس الدين محمَّد حمزة الفناري ليشهد في إحدى القضايا فما كان من القاضي إلَّا أن ردَّ شهادته ولم يقبلها ولما سأل السلطان عن وجه ردها جاء الجواب الحاسم من القاضي الذي لا يرهبه سلطان: (إنَّك تارك للصلاة مع الجماعة) وكان جواب السلطان أنه بنى جامعاً أمام قصره وعين لنفسه موضعاً فيه ولم يترك صلاة الجماعة بعدها أبداً. بدأ الانحراف عن منهج الله صغيراً ثمَّ ازداد الانفراج واتَّسع تدريجياً ثمَّ تحوَّل إلى ملك عضوض بالقوة أو بالإكراه حتى أصبحت الهرقلية أمراً متعارفاً عليه ولا بد أن نذكر شيئاً عن أسباب انحطاط الدولة العثمانية ولعلَّ أهم عوامله بعد ترك هذا العامل المعنوي هي:

١ ـ التخلُّف العلمي:

وهو الذي لا يزال قائماً حتى اليوم في العالم الإسلامي عامة، وفي ما كان يعرف بالدولة العثمانية، وعلى الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على الحركة العلمانية الكمالية التي عزته إلى التمسك بالدين إلَّا أنَّه لا يزال سائداً نسبة للغرب. وهو وليد قرون طويلة اتبع العثمانيون خلالها أساليب المدرسة القديمة التي لم يعد بمقدورها مواكبة ركب التطور العلمي الحديث بعد وضع أسس العلم الحديث. وقد اعتقد الكثير من رجال التعليم أنَّ العلم لا يزال كما هو عليه في القرن الثالث عشر الميلادي ـ السابع الهجري ـ في الوقت الذي بدأ فيه علماء أوروبا خوض

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٦.

معركة حامية منذ ذلك القرن مع الكنيسة وتعرضوا للمحن والشدائد حتى استطاعوا شق طريقهم وأدخلت العلوم الطبيعية في برامج وكليات أوروبا التي لم تهجر مع هذا فلسفتها. أمَّا هم ـ أي علماء العثمانيين ـ فلم يعنوا في أدخال الأفكار الجديدة وطغت المشكلات السياسية في دور الانحطاط وبقيت على ما كانت عليه مدارسهم في القرن الثالث عشر الميلادي ـ السابع الهجري ولم تتقدم أبداً.

إنَّ بقية العالم الإسلامي كان شبيهاً بهم في ذلك الحين فلا تجد في كتب التاريخ التي أُلّفت إبّان العصور الحديثة من يمكن أن يُطلق عليه لقب عبقري أو نابغة أو مبتكر في فن من الفنون عدا القليل، فقد كانت الدولتان المعاصرتان للعثمانيين في الشرق سواء الدولة التي أسَّسها بابر[1] التيموري المعاصر للسلطان سليم (٩٣٣ هـ) في الهند والتي توالى على عرشها ملوك عظام أمثال أورنك زيب حيث لم يكن هو ولا سلفه على اتصال بما يجري بأوروبا بل ينظرون إلى من يأتيهم من بحار أوروبا نظرة استخفاف. وكذلك كانت الدولة الصفوية في أفغانستان وإيران والتي على الرغم من أنَّها كانت متحضرة بعض الشيء إلَّا أنَّها انشغلت بالمنازعات والحروب مع العثمانيين وبنزعتها الشيعية المتطرفة أحياناً، ونستطيع القول إنَّ العثمانيين قد جاؤوا إلى بلاد الأناضول بدواً ولم يتحضّروا بل شغلتهم الحروب ولم ينصرفوا إلى العلم بسبب الانشغال بالفتوحات والحروب المستمرة في كل الجبهات، ولم يسمح لهم الأوروبيون بالالتفات إلى العلم ولا إلى التخطيط لذا استمروا في طبيعة البداوة فأبدوا انتصارات وقدموا خدمات للفتوح، ولكنهم وقفوا عاجزين أمام متطلبات الحضارة، وبقيت دولتهم على هذه الصورة حتى نهايتها فلم يقدموا الجوانب العلمية، ممَّا جعل البلاد في حالة تخلف. وهذا التخلف أصاب العثمانيين الترك كما أصاب غيرهم من عرب وعجم ولم يكن عن

---

(١) بابر، اسمه الحقيقي ظهير الدين محمَّد ولد عام ٨٨٨ هـ في مقاطعة فرغانا من البلاد التي تقع تحت السيطرة الروسية اليوم وهو من سلالة جنكيز خان وكان مغامراً عسكرياً أسس دولة المغول في الهند. امتاز بالعبقرية ونظم الشعر وكان رجل دولة من الطراز الأوّل. وهو ابن شيخ ميرزا الذي حكم فرغانا فاقتفى أثر والده في محاولة استرجاع سمرقند وفرغانا وقد ركز انتباهه نحو السند والهند فاستحوذ على ـ قاندار ـ الجبهة الستراتيجية على طريق الهند ـ عام ٩٢٨ هـ ثمَّ نجحت حملته الخامسة على الهند حيث احتلَّ دلهي عام ٩٣٢ هـ وأكرا وبنى دولة المغول في الهند. توفي عام ٩٣٦ في أكرا.

نية مقصودة وإنَّما كان عن طبيعة موروثة إضافة إلى ما سبق. والفرق بينهم وبين الاستعمار أنَّ الاستعمار يحرص على تقدم بلاده على حين يبذل جهده في بقاء سكان المناطق التي يحتلها على حالة من الجهل والتخلف أمَّا هم فكانوا وغيرهم من هذه الناحية على حد سواء.

وممَّا يبين مقدار الخمول عندهم أنَّه لم تدخل صناعة السفن إلى الدولة العثمانية إلَّا في القرن العاشر الهجري. ولم تدخل المطابع في العاصمة ولا المحاجر الصحية إلَّا في زمن السلطان مصطفى الثاني في القرن الحادي عشر الهجري، وكذلك مدارس الفنون الحربية الحديثة وقد سبقتها مصر في المطابع والسكك الحديدية التي حملتها إليها الحملة الفرنسية من أجل تهديمها لا من أجل بنائها. ولمَّا شاهد الناس منطاداً يحلق فوق العاصمة ظنوه من أعمال السحر والكيمياء، وحينما انهزمت الدولة عام ١١٨٨ هـ الموافق ١٧٧٤ م انتبهت قليلاً وبدأ سليم الثالث بالإصلاح وأنشأ المدارس الجديدة وكان هو نفسه يعلِّم في مدرسة الهندسة وألَّف جيشاً حديثاً حتى ثار عليه الجيش القديم واغتاله. وقد مكَّن ذلك التخلف الغرب من التفوق المادي فاخترع الأسلحة الحديثة ووسائل الصناعة. وبدأ عصر الآلة والبخار والكهرباء وانطبق قول الله عزَّ وجلّ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ فظهروا على المسلمين بعد أن كانت لهم الغلبة ولم يتورعوا في استخدام ما توصلوا إليه من أسلحة الدمار والخراب ضدهم وحاولوا التشكيك في عقيدتهم وتاريخهم. ولو أنَّ صلابة الروح بقيت كما كانت سابقاً لما تمكّن أعداء هذا الدين من أهله كما يتمكنون منهم اليوم، فقد كانت حروبهم الصليبية تباعاً ولم تتوقف أبداً ولكنها تصطدم بصخرته المنيعة الصلبة فتتحطم حملاتهم وتتبعثر جيوشهم وتذهب مكائدهم أدراج الرياح. وقد عبأ الإسلام هذه الأُمَّة مادياً ومعنوياً فقال تعالىٰ: ﴿... وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ..﴾ وقد حذرنا القرآن الكريم منهم فقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ ولكنَّ الصليبيين تمكّنوا من بث أفكارهم بدل العلوم والصناعة وجاء تفوقهم المادي فوجد الأرض ممهدة وصالحة، فبدأوا بإشعال الفتن والثورات المسلحة هنا وهناك، وبدأ الزحف الصليبي الجديد يحمل لافتات جديدة دون تغيير في المضمون، وأبقى المسلمين في حالة التخلف والجهل والفقر، وكانت أوروبا تقاتل من الغرب والروس من

الشمـــال على الرغم من الـخلاف بين الطرفين، إضافة إلى وصول أوروبا إلى الجهات الجنوبية ومحاولتها المس بالأماكن المقدسة الإسـلامية، وفـوق كل هـذا اتصالهم بأنصارهم من سكـان البلاد النصـارى الذين أعـطتهم المعاهـدات مع الـدول الأوروبيـة دفعة إلى الأمام، أو من فتن بهم أو دفعته شهوة ما. ولو كان العثمانيون قد وفقوا في الجري مجرى العبـاسيـين بالاهتمام بالتمدين والعمران اهتمامهم بالسيف والفتح، لاستطاعوا إذاً أن يحتفظوا للآن بما استولوا عليـه من عرش وملك.. ولكنهم ويا للأسف حكموا أجيالاً لم يضيء فيها حق الضياء إلاَّ سيف حتى إذا فلَّ مجدهم، ودالت دولتهم وانفرطت رابطة امبراطـوريتهم العظمى ألفـوا أنفسهم يتخبطون في ظلام بهيم[1].

٢ - الحركات الانفصالية والتمردات المحلية:

نتيجة للتفوق الصليبي قام أقطاب أُوروبا بحبك المؤامرات ضد المسلمين ودفعوا الدمى المصطنعة من طلاب الزعـامة، وغـذوا أوكار الحـاقدين والجهلة وشجعوهم على العصيان، وسنلتقي أثناء عرضنا للحوادث التاريخية بالكثير من تلك النماذج ويكفي الآن أن نعط الأمثلة عنها تاركين التفصيل إلى حينه. فمنذ القديم وحتى في عهد السلاطين الأوائل وحين كانت الدولة قوية الساعد مرهوبة الجانب برز بعض الأشخاص بدافع من اليهود وبتـأيـيد من الصليبيـين غـالباً كحركة بدر الدين السماوي في عهد السلطان محمَّد جلبي المار الذكر والذي نشط من عام ٨١٨ هـ حتى ٨٢١ هـ ودعا إلى حركة تشمل جميع القوميات والأديان وحارب النصارى واليهود من يونان وسلاف في صفوفه وامتدت حركته من البلقان حتى شرقي الأناضول. كما ظهرت في أواخر حكم السلطان سليم الأول حركة «الجلالية» نسبة إلى الشيخ جلال في جهات «توقات» الذي ادّعى أنَّه المهدي، وقد بقيت بقية باقية من اتباعه بعد القضاء على الحركة في الأناضول. كما ظهر في تلك الأثناء من يدّعي أنَّه الأمير مراد ابن السلطان أحمد فخذلته الدولة وقضت على أتباعه. ثمَّ جاء شخص آخر يدعى قره يزيجي في عهد السلطان محمَّد الثالث وهو من مرتزقة الجيوش وأعلن عصيانه على الدولة وامتدَّ عصيانه حتى شمل مناطق كبيرة في البلقان وآسيا الصغرى وشمال سوريا والعراق وتمكن من الاستيلاء على

---

(١) كتاب فلسفة التاريخ العثماني ـ محمَّد جميـل بيهم. ج ٣، ص ١٠٥.

بغداد وبقيت تحت حكم أنصاره لعدة سنوات وثورة جنود السياه التي أعقبت هذه الحركة مباشرة. أمَّا في لبنان فقد أراد الصليبيون أن لا تهدأ حركات العصيان أبداً نظراً لطبيعتها الجبلية وتجمع عدد من النصارى فيها وتعاطف الغرب روحياً هناك حتى تمكن من إيجاد موطئ قدم لنفوذه. فمنذ أن تولى فخر الدين الأول ـ وهو من الأسرة المعنية ـ شؤون بعض المناطق والقلاقل لم تهدأ بل تزداد شدة. وحينما اعتلى السلطة فخر الدين الثَّاني حفيد فخر الدين الأوَّل ركز نصب عينيه تحقيق غايته الأساسية وهي شن حملة صليبية ضد السلطان بمساعدة الغرب، ففاوض الطليان وأنشأ الحصون وقوّى جيشه ثمَّ تمرد، ولكنه هُزم وهرب إلى إيطاليا ثمَّ عُفي عنه فرجع وتمرد ثانية ثمَّ ثالثة. وفي مصر وجدت روسيا شخصاً طموحاً من المماليك وهو علي بك الكبير أعلن التمرد أيضاً وقطع العلاقة مع الباب العالي وتحالف مع حاكم صفد ولكن أبا الذهب أخمد تمرده. أمَّا في جهات الشرق فكان خصوم العثمانيين التقليديين يشعلون الثورات بين الحين والآخر ولمدة ثلاثة قرون متواصلة باستخدامهم البدو والفلاحين الرافضين دفع الضرائب وكثيراً ما كان ينضم الوالي إلى شاهات إيران ضد الدولة. وقد تمكنت حركة القبائل في جنوبي العراق عام ١٠٦١ هـ تحت قيادة أسرة السيّاب من الاستيلاء على البصرة لعدة سنوات. وحدثت اشتباكات متواصلة وبدافع من العجم بين الدولة العثمانية وقبائل المنتفق عام ١١٠٢ هـ في وادي الفرات الأسفل والأوسط. ولعلَّ أهم الحركات الانفصالية التي أضعفت الدولة كانت حركة محمَّد علي باشا في مصر وسنتكلم عنها بصورة مفصلة في حينها، وقد أنهك الجيوش العثمانية ودمَّر معظمها وانضمَّ إليه الأسطول وهدد العاصمة استانبول وانفرد أبناؤه في حكم مصر ولم تعد تابعة للدولة العثمانية إلَّا تبعية اسمية، وتمكن الإنكليز من احتلالها بعد ذلك. وأخيراً تأتي الحركة الوهابية التي قامت في الجزيرة العربية وسنترك البحث عنها حتى حين سياقها التاريخي.

٣ - الامتيازات الأجنبية:

وهي من التساهلات التي يمكن أن تعد أخطاء نظراً لنتائجها التي ظهرت بعد حين وقد منحت تلك الحقوق للأجانب أولاً ثمَّ لبعض السكان المحليين فيما بعد. وقد أراد السلطان سليمان القانوني أن يُعيد الطريق التجاري إلى البحر المتوسط بعد أن تحولت إلى رأس الرجاء الصالح وذلك بإعطاء امتيازات وعقد

معاهدات مع الإيطاليين ثمَّ الفرنسيين والإنكليز ليشجعهم على الإبحار عن هذه الطريق، ولكن أولئك النصارى جميعاً كانوا يبدون للسلطان رغبتهم في التحول ويعملون على الكيد له في الخفاء. هذه الاتفاقيات ظنَّها السلطان سليمان لا قيمة لها ما دامت القوة بيده حيث يلغيها متى شاء ويمنحها متى أراد، والواقع أنَّ الضعف الذي أصاب الدولة قد جعل من هذه الاتفاقيات قوة لهؤلاء الأجانب أولاً ولرعاياهم النصارى من سكان ومواطني الدولة العثمانية ثانياً. وكانت الامتيازات في البدء بسيطة ولكن نجم عنها تعقيدات كثيرة فيما بعد. وقد حولت الامتيازات إلى اتفاقات ثنائية، فأصبح بإمكان السفن الفرنسية دخول الموانئ العثمانية تحت حماية العلم الفرنسي ومنح الزوار حرية زيارة الأماكن المقدسة والإشراف عليها وحرية ممارسة الطقوس الدينية هناك. ثمَّ أصبحت مع مرور الزمن وكأنَّها حقوق مكتسبة ثمَّ توسعت وشملت بعض السكان المحليين كالإعفاء من الضرائب والاستثناء من سلطة المحاكم الشرعية العثمانية والتقاضي في محاكم خاصة سمُّوها المحاكم المختلطة وقد لعبت دوراً كبيراً فيما بعد. وأصبح لروسيا مثلاً بموجب معاهدة كينارجي حق بناء كنيسة باستانبول وحق حماية النصارى التابعين لمذهبها الأرثوذكسي من رعايا الدولة. وفي عهد السلطان عبد المجيد تقرر منح أهالي لبنان حكومة مستقلة تحت سيادة الدولة العثمانية يكون حاكمها نصراني ويكون للباب العالي حامية مؤلفة من ٣٠٠ جندي فقط ترابط على الطريق الموصل بين دمشق وبيروت، وبذلك تشجعت أقليات أخرى، وطالب النصارى في البوسنة بتحريض أجنبي، الحصول على امتيازات فقاومتهم الدولة ولكنهم لم يركنوا للهدوء وزادوا من عصيانهم بدعم أوروبا لهم. لقد ساعدت الإمتيازات على إشعال بؤر الفتن وأربكت الدولة وشغلتها عهوداً طويلة واتخذت ذريعة لتدخل الدول بحجة حماية الرعايا وبالتالي الاحتلال والعدوان.

٤ - الجيش الإنكشاري:

هو الجيش الذي أنشأه السلطان أورخان باختيار أفراده من أبناء البلاد الأوروبية المفتوحة وتلقينهم مبادئ الدين الإسلامي ووضعهم في ثكنات عسكرية خاصة وتدريبهم على فنون الحرب والقتال. ولقد أبلى ذلك الجيش بلاءً حسناً في كافة المعارك التي خاضها العثمانيون إبّان قوتهم، فكانوا يندفعون كالأسود في ساحات القتال، وكان لهم الفضل في ترجيح كفة النصر في المعركة الحاسمة يوم

فتح القسطنطينية وغيرها من المعارك الشهيرة. ثمَّ مع مرور الزمن بدأ الوهن يتسرب إلى صفوفهم عندما عاشوا بين المدنيين، وكثرت تعدياتهم بصفتهم العسكر المختص بهم السلطان، فما اختلط الجند بأهل المدن إلاَّ وقد فسدت طبيعتهم وتغيرت أخلاقهم وتبدلت مهمتهم وأصبح البلاء في وجه الحكم منهم والعداء للسكان من أعمالهم، وصاروا يتدخلون في شؤون الدولة وتعلقت أفئدتهم بشهوة السلطة وانغمسوا في الملذات والمحرمات وشقَّ عليهم أن ينفروا في أوقات البرد الشديد ونظروا إلى العطايا السلطانية ومالوا إلى النهب والسلب حين غزو البلاد. فأثاروا الاضطرابات يريدون الحروب ولو كان جحيمها يصب فوق رؤوسهم ليواصلوا نهب البلاد المفتوحة، وبذلك نسوا الغاية التي وجدوا من أجلها. لقد كانت فاتحة أعمال السلطان مراد الثالث عام ٩٨٢ هـ هي إصدار أمر بمنع شرب الخمور فهاجوا وماجوا حتى اضطروه لإباحته ضمن شروط لخوفه من نقمتهم. وهكذا فإنَّ الجيوش لا تهزم إلاَّ حينما تترك عقيدتها ولا تلتزم بمبادئها.

إنَّ وثوب الإنكشارية إلى مركز القيادة في الدولة العثمانية جعلها في حالة خطيرة من الفوضى، فصاروا هم الآمرون والناهون والسلطان ألعوبة بأيديهم فظهر الفساد وضاعت البلاد. ثاروا في استانبول والقاهرة وبودا يطالبون بإشعال الحروب حينما اقتضت المصلحة ألاَّ تكون هناك حروباً. وقد أشار سنان باشا عام ٩٩٧ هـ إلى إشغالهم بمحاربة المجريين تحت إلحاح شديد من قبلهم، وكانت النتيجة انهزام والي بودا العثماني ومقتل حسن باشا والي الهرسك وسقوط عدة قلاع عثمانية بأيدي النمسا. وفي عام ١٠٢٧ هـ حاول السلطان عثمان الثَّاني إبادتهم بإعداد العدة لحشد جيوش جديدة في ولايات آسيا الصغرى وتدريبها وتنظيمها ولما حاول ذلك خلعوه وقتلوه. وأعادوا مصطفى الأوَّل الذي خلعوه عام ١٠٣٢ هـ أيضاً، وهذه هي نهاية كثير من المصلحين حينما يتاح للجيوش الفاسدة أن تكتب أقدار الأمم، واستمرَّ الإنكشارية في عهد السلطان مراد الرابع سنوات عشر سائرين في طريق الضلال سادرين في غيّهم وطغيانهم، فهم الذين نصَّبوه، فالأمر والنهي يجب أن يكون لهم ما دام رأس الدولة بأيديهم. وهم الذين قاموا بقتل السلطان إبراهيم الأوَّل خنقاً حينما حاول التخلص منهم، وهم الذين أربكوا الدولة إذ وضعوها في حالة من الفوضى بقتلهم السلاطين وتولية أولادهم الصغار السن من بعدهم كالسلطان محمَّد الرابع، فقام الإفرنج باحتلال أجزاء من البلاد

فاضطر الصدر الأعظم والعلماء إلى عزله. ثمَّ ثار الإنكشارية في عهد السلطان سليمان الثَّاني ودخلت جيوش الأعداء بعضاً من أراضي الدولة واحتلتها. وخلع الإنكشارية السلاطين مصطفى الثَّاني، أحمد الثَّالث، مصطفى الرَّابع، إلى أن قيَّض الله للسلطان محمود الثَّاني عام ١٢٤١ هـ التخلص منهم فقد هيَّأ لذلك وسلَّط عليهم المدفعية فدمَّرتهم وانتهى أمرهم.

٥ - الهجمة الصليبية والاعتداء الخارجي:

والكلام هنا يطول ويكفي التلميح إلى الحملة الفرنسية على مصر والحملة الفرنسية على الجزائر والتوسع الروسي في بلاد ققفاسيا وتهجير سكانها من داغستان وشاشان وشراكس عام ١٢٨٢ هـ والحملة الإنكليزية على مصر وعدن واستيلاء الطليان على طرابلس الغرب، وسنعرج على شرح تلك الحملات وغيرها أثناء عرض الأحداث والتطورات التي حلّت في الدولة العثمانية. أمَّا المناوشات والغزوات العسكرية والحركات الإنفصالية التي أشعلتها الصليبية العالمية في ممتلكات العثمانيين في أوروبا فهي من الأهمية بمكان إذ لم يخل عهد سلطان منها. وقد استولت النمسا على مواقع وانسحب العثمانيون في عهد مراد الثَّالث وانتصر الأفلاق وأخذوا عدة قلاع. وفي عهد محمَّد الثالث خسر العثمانيون إقليم البغدان وجزءاً كبيراً من ترانسلفانيا عام ١٠٠٤ هـ، وفي عهد محمَّد الرابع عام ١٠٩٧ هـ احتلَّت سفن البنادقة أغلب مدن اليونان، واحتلَّت جيوش النمسا بودا وترانسلفانيا كما احتلَّ البنادقة أيضاً جزءاً من بلاد اليونان وسواحل دلماسيا عام ١٠٩٨ هـ، كما احتلوا جزيرة ساقز عام ١١٠٥ هـ. وكانت الضربة الكبيرة هي الانهزام الذي وقعت على أثره معاهدة كارلوفتش في عهد السلطان مصطفى الثاني عام ١١١٥ هـ إذ تركت الدولة بلاد المجر جميعها وإقليم ترانسلفانيا للنمسا وآزوف لروسيا وعدة مناطق لبولونيا وجزيرة مورة للبندقية. أمَّا معاهدة كينارجي فبموجبها استقلَّ تتار القرم وبسارابيا وكوبان. ونتيجة لاتحاد الجيشين النمسوي والروسي عام ١٢٠٣ هـ وفي عهد السلطان سليم الثَّالث استولى الروس على بندر الحصين ومعظم الأفلاق والبغدان وبسارابيا، ودخل النمساويون بلغراد واحتلَّت فرنسا معاقل جبل طارق وجزيرة مالطة والجزائر. وعلى الرغم من استرجاع بعض هذه الأراضي بموجب بعض المعاهدات كمعاهدة بوخارست ١٢٢٧ هـ ومعاهدة أدرنة الأولى ١٢٢٥ هـ ومعاهدة صلح ١٢٣٠ هـ بين الدولة والنمسا ومعاهدة

أدرنة الثَّانية ١٢٤٥ هـ ونتيجة بعض المعارك الحربية إلاَّ أنَّ التراجع العثماني كان يبدو واضحاً. على الرغم من فتح بعض البلاد والجزر مثل قبرص وكريت وأرمينيا وبلاد الكرج فإنَّ الجيوش العثمانية دمر الكثير منها مرات عديدة مع ذلك. وأحرقت السفن الحربية وأغرقت وأعيد بناؤها وأنهكت الجيوش الخزينة وحل الفقر والدمار وقتل خيرة كبار القادة ممَّن كانوا هدفاً لسهام العدو.

إنَّ الاعتداء الخارجي، ينجم عنه رد فعل من نفس النوع، وهذا ما يؤدي إلى تحديث الجيش دون الشعب، كما حدث في عهد «سليم الثّالث» وما بعده، وهذا ما يؤدي إلى كارثة، لأنَّه من العبث تحديث جانب معين وترك بقية الجوانب على طبيعتها، وتكون النتيجة كما يقول «توينبي» تزعم ضباط الجيش لحركات انقلابية وهذا ما حدث فعلاً، فحركة التحديث التي أعقبت الهزائم العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر على يد الغرب، ثمَّ ما حدث في نهاية عهد عبد الحميد، من الاقتباس من الغرب وإعادة تشكيل المجتمع على النظام الغربي، والاندفاع نحو الغرب بلا تحفظ، أو حدوث هجين إسلامي غربي كما في عهد محمَّد علي مع انتشار الفساد إبّان حكم خلفائه ومن ثمَّ حدوث مآسٍ لا حصر لها.

٦ - توسُّع رقعة الدولة:

شغلت الدولة في أوج قوتها وتوسعها مساحة من الأرض تزيد عن أربعة عشر مليوناً من الكيلومترات. والأمر يختلف عمَّا هو عليه في وقتنا الحاضر، إذ إنَّ سياسة دقّة الحكم في عهد كانت مواصلاته ووسائلها الدواب والعربات وبريدها يستغرق الشهور الطويلة والسنين، وقد تحصّنت بالحواجز الطبيعية من أنهار وبحار وجبال وغيرها. والظن أنَّ إعلان الحركات المتمردة والعصيانات المتكررة فيها ربما يكون في غاية السهولة كما إنَّ إخمادها أيضاً في غاية الصعوبة. ولم تحتفظ الدولة بتماسكها على الرغم ممَّا أصابها من زلازل ونكبات طيلة ستة قرون إلاّ بفضل عامل الدين ورابطة العقيدة. على الرغم من ظهور من استهان بها ورفع رأسه هنا وهناك ولكنه لم يتجرّأ على إعلان بترها أو إلغائها إذ إنَّ رابطة العقيدة أهم عامل حاسم في كيان الأمم. وقد استطاعت تلك الرابطة أن تجمع بين الترك والعرب والكرد والشركس والشاشان والداغستان وغيرهم لقرون طويلة حتى قام أعداء هذا الدين وفرَّقوا شتات الأُمَّة الواحدة بإثارة العصبية الإقليمية التي وصفها الرسول ﷺ بأنَّها منتنة. وبعد إلغاء الخلافة الإسلامية لم تتمكن بلاد المسلمين من لمّ أشتاتها

لتهاونها بأهمية تلك الرابطة. وما قيام الكيانات السياسية الواسعة نسبياً في عالم الإسلام اليوم إلَّا بفضل روح الأُخوّة الإسلامية، وما التناحر والتطاحن إلَّا تحت راية الدعوة التي تخلت عن تلك الأُخوّة واستبدلتها بالشعارات والمبادىء الصليبية الأوروبية المخرّبة.

٧ - الجمعيات والأحزاب السرية:

ونذكر منها على سبيل المثال جماعة يهود الدونمة الذين التجأوا للبلاد العثمانية بعد الاضطهاد في الأندلس ونظموا أنفسهم محتفظين بعقائدهم متكيفين مع الوضع الجديد بإعلانهم الإسلام ظاهرياً وسيأتي بحث مستفاض عنهم، فكانوا عوناً للصليبية على المسلمين وأداة تدمير في الأخلاق والدين، وكانوا وراء حركات التمرد والثورات المسلحة ضد الدولة حتى انتهى بهم المطاف إلى قلب نظام الحكم في عهد السلطان عبد الحميد الثَّاني وفرض أحكام الكفر والابتعاد بالدولة شيئا فشيئاً عن جادة الإسلام الصحيح. أمَّا حزب الاتحاد والترقِّي الذي شمل بعض اليهود في عضويته فقد ورّط البلاد في حروب ونزاعات وأرغم قادته المسيطرون عليه الدولة على الانخراط في الحرب العالمية الأولى بعد أن قضوا على حكم عبد الحميد الذي أراد تقويم الانحراف، وتبنّوا الأفكار التي فرَّقت بين أبناء الدولة المسلمين، وكانت الماسونية بالطبع من وراء تلك الجمعيات السرية تحيك الدسائس والمؤامرات وتقيل عثراتها وتدعم قادتها.

٨ - الابتعاد عن منهج الإسلام:

وهذا أهم عامل أدّى إلى تدهور الدولة، ومن الصحيح القول إنَّ تدهور الدول والحضارات أمر يخضع لقانون الخالق عزَّ وجل، وفي المداولة يجري تمحيص الجماعات البشرية، وخلق التحديات المستمرة، ويأخذ العدل الإلـهي مجراه وفق منطق المداولة بين الناس.

ووفق المنظور الإسلامي، لا يتحدد مصير أي جماعة، إلَّا بما تقدمه من أعمال، والعقاب مسلَّط على كل جماعة لا تتبع الصراط المستقيم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبوّىء مركز الشهادة.

إنَّ مسألة سقوط الدول والحضارات، تقع على القاعدة والقمة معاً، فالقمة الفاسقة المجرمة المترفة، تؤذن بسقوط الحضارة ودمار الأُمَّة، كما أنَّ المكر والفوضى

والاستغلال ورفض التجدد والإرهاب والبطش والظلم والطيش، تهلك البلاد والعباد، ويصبح من المحتوم على القاعدة تحمل المسؤولية ومقاساة ويلات الدمار الحاصل عندما تؤيد ذلك علناً أو ضمناً، مادياً وأدبياً، فكرياً وأخلاقياً، أو في سلوكها، مسيرة السلطة، حتى أن لا تجرؤ أن تقول كلمة الحق بل تقرّ في سريرتها ممارسة القمة وطغيانها.

لقد عجزت الدولة العثمانية والشعوب الإسلامية عن مواصلة الإبداع، وآل أمرها إلى السقوط عمّا كان عليه المسلمون في سالف الأيام، بسبب الانحراف المادي والعلمي والرهباني الذي أدّى إلى تمزيق النشاط الاجتماعي. وتمزق الذات الإنسانية على المستوى الفردي، وفقدان الهدف وسيادة نزعة التشاؤم والانشقاق، ومحاولة الفصل بين شؤون الدين والدنيا في أواخر عهدها وعندما فقد الإنسان المسلم العثماني التوازن وحلّ الانحراف، تعرقلت مسيرة حركة التاريخ، وجنحت الجماعة إلى جانب معين من جوانب النشاط البشري وجوبهت بالكبت والقمع واستئصال الجوانب الأخرى، فحدث التدهور والسقوط. إنَّ الجزاء يرتبط بالعمل، وقد لوحظ على المجتمع العثماني في عهوده الأخيرة التعثر والسكون والنضوب والتقليد الزائف في أواخر أيامه، كما لوحظ الخضوع والمذلة لمغادرة مواقع الإيمان والالتزام والإبداع، فانصبّ العذاب على الجميع سواء. وأتت الضربة القاضية، عندما استنفذ المجتمع كافة مبررات بقائه، كي يفسح المجال لجماعة أكثر فاعلية، وفق مفهوم المداولة القرآني، واتخذت الضربة أشكالاً مختلفة، مثل الغزو الخارجي والعصيان الداخلي والتمزق الطبقي والكوارث الطبيعية، ولقيت الأُمَّة مصيرها لتخليها عن دورها الفاعل في العالم، وسأكتفي بهذه الخطوط العامة دون الرجوع إلى استعراض الحوادث، إذ يجد القارىء الكريم لهذا الكتاب الأمثلة الكثيرة لما أقول، وإنّني أرى هذا العامل الأساس الذي انبثقت عنه معظم العوامل الأخرى[1].

٩ ـ يمكن أن نعد ما مرَّ معنا من أهم العوامل التي آلت بالدولة العثمانية إلى الضعف والانحطاط ويمكن أن نستعرض عوامل أخرى لها أهمية خاصة مثل الزوجات الأجنبية التي تزوج بها بعض السلاطين كالسلطان سليمان وغيره إذ

---

(١) للمزيد من الاطلاع على فلسفة التاريخ من وجهة النظر الإسلامية، أُحيل القارئ الكريم إلى كتاب: التفسير الإسلامي للتاريخ تأليف عماد الدين خليل.

قامت تلك بحبك المؤامرات في الخفاء بغية تنفيذ أغراضها، والانغماس في الترف والشهوات. وفي عهد السلطان أحمد الثالث عام ١١١٥ هـ عندما حاصرت الجيوش العثمانية قيصر روسيا بطرس الأكبر وخليلته كاترينا من قبل بلطه جي محمَّد باشا حدث أن قامت كاترينا بإغراء القائد العثماني بالجواهر واستمالته إليها فرفع الحصار عنهما فأضاع فرصة ثمينة للقضاء على رأس الدولة التي كانت للعثمانيين ولعبت دوراً كبيراً جداً في إضعاف وزوال دولتهم. كما أنَّ السلاطين العثمانيين تعوّد أغلبهم بعد عهود المجد والقوة أن لا يقودوا الجيوش بأنفسهم وتركوا الأمر لقواد قد يكون بعضهم غير كفء فانهزموا في مواقع كثيرة وتضاءل الحماس والحمية الدينية لغياب السلطان عن مركز قيادة الجيش كما كان يحدث سابقاً. أمَّا العادة السيئة الأليمة وهي عادة قتل السلاطين لأبنائهم وإخوانهم وهي المنافية للإنسانية وإن وجدت لها مبررات واهنة فقد أودت بأرواح الأطفال والأبرياء بلا ذنب، سوى خوف المنازعة في الملك فيما بعد وحرمت الأمَّة من رجال قد يكون الكثير منهم أفذاذاً وعباقرة، فحلَّ محلهم رجال احتلوا مناصب رفيعة في الدولة وفي قيادة الجيوش من بلاد أوروبا العثمانية حيث تظاهر بعضهم بالإسلام وأبطن الكفر وعاد بالدمار والهزيمة إلى البلاد. كما لا يخفى أخيراً الأزمة الاقتصادية الأوروبية ودورها في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين والتي نجمت عن تزايد السكان الكبير الحاصل آنذاك.

ظواهر انحطاط الدّولة ومحاولات استعادة القوّة

في المدة الواقعة بين عامي ٩٧٤ هـ و ١٠٩٩ هـ، وهي مائة وخمس وعشرون عاماً، المدة التي يجعلها «ابن خلدون» عمراً للدولة، تعاقب على السلطنة العثمانية تسع سلاطين، كان منهم القوي ومنهم الضعيف، وتعرّضت خلالها الدولة لعوامل الضعف والانحطاط، وبدأت المحن تعصف في أجوائها، والهزائم العسكرية تفتّ في عضدها، فضلاً عن الثورات المحلية والحركات الانفصالية. ورغم محاولات استعادة القوة، التي كانت تنجح إلى حد كبير في كثير من الأحيان، إلَّا أنَّ الخط البياني كأن يأخذ في الهبوط. وسنحاول في هذه الصفحات القليلة، استعراض بعض هذه الظواهر سلباً وإيجاباً، ممَّا كان لها الأثر الواضح في تحديد مسار التاريخ الإسلامي المعاصر بمآسيه الحاضرة، وفي ما يعانيه العالم الإسلامي عامة، والشرق الأوسط والمغرب العربي خاصة.

بدأت متاعب الدولة العثمانية، على وجه التحديد، مع تسلم السلطان «سليم الثَّاني» ابن العاهل الكبير «سليمان القانوني»، وانعكست هذه المتاعب سلباً على مختلف الأصعدة، فعلى **الصعيد الداخلي**: فسد الإنكشارية، وأصبح همهم بدل الاستبسال في ساحة القتال واستلهام روح الجهاد، طلب العطاءات الوافرة، وفق ما اعتادوا عليه عند تنصيب كل سلطان جديد.

وعندما تسلم «سليم الثَّاني» سدة الحكم، طلبوا منه العطايا المعتادة، فأبى وردعهم، فأظهروا التذمر، ثمَّ ازدادوا عصياناً وغلوّاً، وقتلوا بعض الوزراء، وأهانوا بعضهم الآخر، ثمَّ لجأوا إلى التمرد مرة أخرى، في عهد خلفه السلطان «مراد الثَّالث»، وقتلوا ناظر «الضربخانه» «محمَّد باشا» والدفتردار «محمود أفندي» وهاجموا السراي السلطانية، وعظم شرّهم في دار الخلافة، بدعوى أنَّ النقود التي صرفت عليهم ناقصة العيار، واضطرت الدولة نتيجة الاضطرابات التي أحدثوها، إلى فتح الجبهات العسكرية في أوروبا، لشغلهم عن العبث في أمن البلاد، فطالت بذلك مدة الحروب، وخاصة الحرب مع النمسا التي استمرَّت خمسة عشر سنة، وتزلزلت أركان الدولة داخلياً، رغم الانتصارات التي حدثت، وقوي نفوذ فرقة «الجلالية» المناوئة.

ثمَّ تمردوا في عهد السلطان «عثمان الثَّاني» عندما تلاقى الجيش العثماني والجيش البولوني وطلبوا الكفّ عن القتال. ثمَّ كانت محنته معهم، عندما فسدوا، وقتلوا الكثير من العباد، ونهبوا خزائن الدولة. وعندما أراد تدمير «وجاقهم» نادوا بالسلطان محمَّد الرابع، وهجموا دفعة واحدة على السراي، وقبضوا عليه وقتلوه، فزاد لهيب الثورة.

ثمَّ إنَّهم كانوا السبب في اشتباك بحري جرى مع البنادقة في عهد السلطان «محمَّد الرابع»، إذ تمرَّد الملّاحون والإنكشارية، وأحجموا عن القبض على سفن العدو في الدردنيل، كذلك هربت سفنهم في عهد هذا السلطان أثناء بدء القتال في موقعة «نقشة» البحرية، وكانت مالية الدولة في ذلك العهد، قد وصلت إلى درجة منخفضة من الفاقة، لاشتغالها بإزالة هذه المشكلات فضلاً عن رصدها الأموال للتصدّي للحروب الخارجية.

وبلغ من استهتارهم بالسلاطين، أنَّهم هرعوا إلى نوافذ ثكناتهم، عندما

علموا بأنَّ موكب السلطان «مراد الثَّالث» سوف يمر أمامها، ورفعوا كؤوس الخمر وشربوا نخبه، فأصدر أمراً بمعاقبة الذين يتعاطون المسكرات، فقابلوا أمره بالاضطراب والاعتصام.

واتَّفق الإنكشارية مع أشقياء «جورجيا» على النهب والسلب، وكانوا لمدة عشر سنين مضت على سلطنة «مراد الرابع»، أصحاب القول والفصل، وواصلوا الثورات، والسلطان الفتى، لا يرى مندوحة من تحقيق رغباتهم، وكانوا يودّون تبديل الصدور، والفتك بالموظفين والحراس، إلى أن تمكن آل «كوبرولي» العظام من كسر شوكتهم، فأدّبهم «محمَّد كوبرولي باشا» منذ توليه السلطة «الصدارة العظمى» عقب تمرد حدث بينهم، وأمر بإلقاء جثث قتلاهم في البحر، وقيل إنَّ عددها بلغ أربعة آلاف جثة[1].

وتجلَّت المتاعب الداخلية، في القلاقل التي حرّكها الطامحون أو الموتورون هنا وهناك وفي الثورات التي أشعلها أتباع المبادىء والعقائد المغايرة، ممَّا أدّى إلى سيادة الفوضى، وحصول الأزمات المالية. ولمَّا توفي الوزير القدير «صوقوللي باشا» انهدم ركن عظيم من أركان الدولة، ثمَّ حدث التنافس والشقاق بين «الصدور»، واستمرَّت تمردات «الجلالية» في عهد السلطان «محمَّد الثالث»، واستغلوا قلة الجيوش في الأناضول لانشغال الدولة في الحروب مع إيران من جهة، ومع الغرب من جهة أخرى، وظهر الأخوان «حسن باشا» والي بغداد، وقره يازيجي من تلك الطائفة، وتمكن هذان الرجلان. وبتحريضات من الشاه عباس، من جعل الدولة تنصرف عن فتوحاتها، وتنشغل عن تسيير أُمورها الداخلية، وتلتفت للقضاء على تمردهما وتمرد العلوفية والإنكشارية.

ولم تلبث ثورة الجلالية أن أخذت في التعاظم في الأناضول، وقوي مركزها مع فساد نظام الإنكشارية، وهزيمة الجيش العثماني في الشرق أمام إيران، وبدأ الجلاليون شن الغارات، حتى أصبحت بلاد الأناضول مسرحاً لهم، فخرج لهم الصدر الأعظم «قبوجي مراد باشا» بنفسه على رأس جيش، ونكَّل بهم، وقضى على تمرد «جانبولاد» و «ابن قلندر» و «قره سعيد» و «أزون حسن» وأحزابهم من شيوخ هذه الطائفة، وبذلك تطهرت بلاد الأناضول، وقتل الأُلوف، وحلَّ

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني.

نظامهم وشتّت شملهم، وأُحضر إلى العاصمة الكثير من أعلامهم وغنائمهم وأسراهم، وتمَّ ذلك في عام ١٠١٧ هـ[١].

وعندما قتل الإنكشارية السلطان «عثمان الثَّاني»، قام «أباظة باشا» بكلربك أرضروم مطالباً بالثأر، واجتمع حوله ثلاثون ألفاً من الأتباع، وصار يقتل من يقابله في طريقه من السباهية والإنكشارية، حتى وصل «سيواس» وأجبر بعض الأمراء في تلك الأطراف الانضمام إليه، وأخذ يخرب البلاد ويقتل العباد، وينادي بأنَّه سيدخل «استانبول» وينتقم من كافة طبقات الجنود[٢]. ولم توفق الدولة في كبح جماحه، واضطرت أن تعزل أربعة من الصدور في مدة ثلاثة شهور قبل أن يصدر العفو عنه، ويعين بكلربكاً لأرضروم وتخمد الفتنة، ولم يلبث «أباظة» أن اغتال «حسين باشا» الذي عيّن قائداً جديداً بدلاً عنه، وشقَّ عصا الطاعة من جديد، وتحصّن في «أرضروم» إلى أن أُخضع عام ١٠٣٨ هـ.

ومن الثورات التي نشبت في ذلك الحين، ثورة السباهية في «استانبول» واستمرت حتى اضطر السلطان الطلب من الجيش الحضور إلى العاصمة، وتوسعت الثورة وامتدَّ الهياج عبر الأناضول والقرمان وسيواس، وعند ذلك خيف على حياة السلطان. وكان الثائرون يُحرضون من بعض الجهات. ثمَّ هاجم أهل الفساد من طوائف السباهية، سراي السلطان، فأطلَّ عليهم مراد بنفسه، وأخذ ينصحهم وينذرهم، فلم يرتدعوا، وهجموا على بعض كبار رجال الدولة وقتلوهم، وانتخبوا «رجب باشا» للصدارة. إلَّا أنَّ السلطان، بعد قتلهم كبار المسؤولين، أمر بقتل رجب باشا وإطفاء الفتنة، فحدث بالفعل بعض الهدوء الظاهري.

واشتبكت الدولة مع «علي بك» ابن «المعني» أمير لبنان، الذي شقَّ عصا الطاعة على الدولة قبل ثلاثين سنة، والدولة لم تلتفت إليه في حينها لانشغالها بما هو أهم، وأرسل الثائر مكبلاً إلى العاصمة، وعفا السلطان عنه وردّه إلى وطنه وأخيراً قام عرب «البصرة» في أوائل عهد السلطان «سليم الثَّاني» وخرجوا تحت قيادة أحد مشايخهم المدعو «ابن عليان»، لكن تمكنت الدولة من إخضاع تلك القبائل بعد

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية ـ سرهنك، ص ١٧٦.
(٢) المصدر السابق، ص ١٣٧.

عدة وقائع، وأذعن «ابن عليان» المذكور لدفع ضريبة سنوية إلى خزانة البصرة.

إضافة إلى الثورات والقلاقل المحلية، ارتكبت بعض الأخطاء التي كانت من جملة ما أدّى إلى انحطاط الدولة وتدهورها، كالجهل بأمور أوكل القيام بتنفيذها إلى غير أهلها، ونأخذ بعض الأمثلة:

ففي معركة «ليبانتي» أو «إينه بختي» حيث انهزم العثمانيون هزيمة بحرية ساحقة. خالف القبودان العثماني الآراء الأخرى رغم أنها كانت سديدة، حتى يظهر الجسارة رغم الكارثة المحققة، وكان قد عيّن في هذا المنصب البحري القيادي الحساس، وهو لم يسبق له رئاسة وقائع بحرية مهمة. لكنه باعتباره صاحب المركز الأعلى، التزم الجميع برأيه، فحدثت الكارثة لعدم تعقّله وتقبّله نصيحة القادة الأكفّاء.

وفي عهد السلطان «محمَّد الثالث» مثلاً، أُوكلت وظيفة السرعسكر إلى «محمَّد باشا» وهو غير أهل ولا يليق لهذا المنصب، فضلاً عن كونه مهملاً، كما كان الصدر الأعظم «يمشجي حسن» يجهل دار الحرب، ناهيك عن الاختلاس. وبلغت أموال «جنجي خواجه» وأحزابه الكميات الهائلة، حتى قيل إنَّ أموال جنجي فقط، بلغت ألفي ألف من الذهب[1].

وفي عهد السلطان «محمَّد الرابع» كان الملاحون ورجال البحرية أثناء موقعة «نقشه» جهلة، أو من المتشردين الأغمار الذين لم يخوضوا غمار الوغى، أو يحصلوا على التدريب المناسب، فما أن حمي الوطيس حتى ولوا الأدبار، وجبنوا أمام العدو. كما أدَّت الفوضى والهروب في موقعة «جناق قلعة» البحرية عام ١٠٦٦ هـ الموافق ١٦٥٦ م، ونتيجة الخوف من سفن البنادقة، إلى ترك السفن والفرار، ولم يقتصر الأمر بهم على ذلك، بل جاؤوا يريدون زيادة رواتبهم ومصروفاتهم، وكانت النتيجة أن استولى البنادقة على بعض الجزر، ودمروا الأساطيل العثمانية في الأرخبيل. واتَّصف بعض الصدور بالصفات الذميمة، ونذكر على سبيل المثال: جهل وفظاظة وإسراف وتكبّر الصدر الأعظم «مرزيفوني قره مصطفى باشا» مع أنَّه نشأ مع «فاضل أحمد باشا» الشهير، ولم يوفّق في معظم أعماله. ولما كان مسرفاً، فقد امتدت يده إلى قبول الهدايا، وكدَّر العلاقات الخارجية لفظاظته، وتمكن

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية ـ سرهنك، ص ١٥٦.

بالتالي «الاتحاد المقدس» من إيقاع الهزيمة بالعثمانيين، وأخذ هذا الصدر يحرق القرى ويخرب البلاد وهو يتقهقر بعد الهزيمة، حتى قتله السلطان أخيراً.

وعلى الصعيد العسكري فإنَّ أعظم المحن في هذه الحقبة قد حلَّت لانهزام العثمانيين في موقعة «ليبانتي» في عهد السلطان «سليم الثَّاني» ولن ندخل في تفصيلات الموقعة، ومن أراد التفاصيل فلينظر كتاب الأميرالاي إسماعيل سرهنك، عن تاريخ الدولة العثمانية، إلَّا أنَّ الأرقام تنبِّيء عن فداحة الكارثة، إذ بلغت خسارة العثمانيين عشرين ألف جندي ومائتي سفينة.

ورغم محاولات الاستعادة، التي كانت تحصل بين الحين والآخر، كالانتصار العظيم الذي أحرزه العثمانيون على النمسا والمجر عام ١٥٩٦ م الموافق ١٠٠٥ هـ، بفضل خروج السلطان للجهاد وتحريضات شيخ الإسلام، إلَّا أنَّ الأمور كانت تتردّى إلى الحضيض. وقد أدّى صلح «ستيفاتورك» عام ١٦٠٦ م الموافق ١٠١٥ هـ بين الدولة والنمسا إلى انحطاط فعلي، فطول مدة الحروب، أدَّت إلى أضرار معنوية ناجمة عن ذلك الوضع، كما تحولت الجزية التي تدفعها النمسا إلى هدية غير معينة، وتزايدت ثورات الجلالية في الأناضول، وتجددت الحروب مع إيران، وأصبح امبراطور النمسا يلقَّب بقيصر روما، وأصبح قسم من المجر تابعاً بالفعل للدولة. والقسم الآخر تحت الحماية.

في ذلك الوقت تحسنت أوضاع سفن أُوروبا نسبة للسفن العثمانية، وخاصة إنكلترا وإسبانيا حتى زادت عنها، وقد روى بعضهم أنَّ العمارة العثمانية عندما خرجت لطرد قرصان «القوازق» تحت قيادة «حافظ خليل باشا» صادفت صعوبات جمَّة لعظم سفن الروس وخفة سفن القرصان التي أرعبت الشواطيء وأزعجت البحار حتى نواحي البوسفور[١].

ولكن جرت محاولات في هذه المدة لتحديث السفن العثمانية، فقد كانت السفن التي تشيّد بدور صناعات الدولة، لا تزال تبنى على الطراز القديم، وكان ملاحوها غير مدربين على الأعمال البحرية، لعدم خروج العثمانيين إلى البحار كالسابق، إضافة إلى ذلك، تغير نظام فرض اللوندات التابعين لوجاقات الجزائر

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٧.

وتونس وطرابلس. وهي التي كانت تساعد الأساطيل العثمانية في أغلب الوقائع البحرية، فغلّت أيديها عن العمل للسبب الذي ذكرت، وصارت تعمل في التجارة الخارجية البحرية، وضعفت البحرية بشكل عام.

وجرت محاولات التحديث بتجسيم السفن، وتقويتها بتشييدها على النمط الجديد، وجرى ترتيبها على الطراز الأوروبي، وعيّن فيها القبودانات والملاحين المختصين، وجعل في داخلها المطابخ العامة، وأنشئت عدة مدارس بحرية لدراسة فن الملاحة، ورتبت الأقلام والدواوين الخاصة بدور صناعتها.

وإضافة إلى هذه الإصلاحات البحرية التي جرت في عهد السلطان «مراد الرابع» فقد جرى أيضاً في عهد «محمّد الرابع» تشييد السفن الكبيرة، وتحسين أحوال أوجاقات المغرب وأساطيلها، إلاّ أنّ الخسارة العثمانية ظهرت من جانب آخر، لسوق جنود حديثي العهد بالخدمة البحرية ومن أجناس مختلفة، عندما تمرد الملاحون وتقاعس البعض منهم في القبض على سفن العدو وللجهل وعدم الدقة والإتقان في صناعة السفن نسبة لسفن البنادقة وغيرها من سفن العدو.

أمّا فيما يتعلق **بالشؤون الخارجية**، فكان للامتيازات الأجنبية دوراً هداماً، وقد هدف العثمانيون من ورائها خلال فترة الركود الاقتصادي، تحويل مركز التجارة العالمية إلى المنطقة من جهة، واسترضاء بعض دول أوروبا كفرنسا، مقابل مكسب سياسي ضد «شارلكان» وضد ما تفعله إسبانيا والبرتغال إزاء مسلمي الأندلس والشمال الإفريقي. لكن الجانب السلبي في هذه الامتيازات انعكس على الدولة، فغلّت يدها بعض الشيء عن الحركة والتصدي للمغيرين عليها من الخارج أو المأسورين داخل حدودها من جند، حتى وصل الأمر إلى حد مساعدة العثمانيين لأساطيل هذه الدول ضد الفدائيين المسلمين في البحار، وإلى حد التدخل القنصلي في شؤون الدولة، واستقطاب أوروبا للأقليات النصرانية القاطنة في أراضي الدولة، وهذا يعني بالتالي تكريس الانتماء العرقي عن طريق الإرساليات الدينية وبذر بذور الثورات، والحركات الإنفصالية والاستقلالية.

إنّ الاتفاقيات التي تمّت بين الدولة العثمانية وفرنسا في عهد السلطان «سليمان القانوني» عام ١٥٦٩ م، والتي أيّدها فيما بعد، ابنه السلطان «سليم الثّاني» وزاد عليها، جعل من فرنسا ملكة التجارة في البحر الأبيض المتوسط وفي

جميع البلاد التابعة للدولة. كما أرسلت الإرساليات الدينية الكاثوليكية إلى البلاد العثمانية حيث أماكن تواجد النصارى خصوصاً بلاد الشام، ومنه تنشئة أجيال منهم على محبة فرنسا، مما أدّى إلى نتائج سلبية انعكست على الدولة وأسهمت في تكريس ضعفها وازدياد نفوذ أعدائها.

وما انطبق على الفرنسيين، انطبق فيما بعد على الإنكليز، وأصبح يسوغ لمراكبهم عندما حصلوا على امتيازات في عهد السلطان «مراد الثّالث»، رفع العلم الإنكليزي في موانئ وفُرَض الدولة، الأمر الذي كان لا يجوز لهم قبل ذلك.

ولم تحل الامتيازات الممنوحة لفرنسا بالذات، دون انضمامها إلى صفوف الحلفاء ضد الدولة العثمانية، أو الانخراط في صفوف القوى التي تتآمر عليها وتقاتلها. وهذا ما بدا واضحاً في ذلك الحين في معركة «سان جوتار»[1] التي جرت في عهد السلطان العثماني «محمَّد الرابع»، عندها سعى البابا لدى ملك فرنسا حتى قبل إرسال ستة آلاف جندي فرنسي. وانضمَّ إلى القوة الفرنسية عدد كبير من شبان الأشراف تحت رئاسة الدوق «دي لافوياد». ورغم أنَّ النصر حالف العثمانيين، إلَّا أنَّ تدخل الجيش الفرنسي، وخصوصاً الأشراف منه، حال دون إتمامه أمام كثرة الأعداء الساحقة.

وعلى أثر هذه الحوادث وأمثالها، أبى الصدر الأعظم تجديد الامتيازات التجارية الفرنسية، وحرم فرنسا من حق إمرار بضائعها من مصر عن طريق السويس إلى الهند، لكن امتيازات خاصة منحت لجمهورية «جنوة» شبيهة بامتيازات إنكلترا، فحاصرت فرنسا بمساعدتها لمدينة «كانديا» ضد العثمانيين، واستمرَّ القتال من جراء هذا الدعم الفرنسي ما ينوف عن السنتين.

ومع ذلك، جددت المعاهدات القديمة مع فرنسا عام ١٦٧٣ م، وفوَّض إليها حق حماية بيت المقدس، كما كان الأمر في عهد «سليمان القانوني»، وعادت العلاقات العثمانية الفرنسية إلى صفائها السابق، رغم أنَّ فرنسا كانت قد اعتدت على جزيرة «ساقز» عام ١٦٤٨ م وكذلك على الجزائر وطرابلس الغرب، إبّان التحالف الديني المقدس ضد الدولة العثمانية، منتهزة فرصة انشغال الدولة في التصدّي لهذا التحالف.

---

(١) نسبة للكنيسة التي حصلت الموقعة بقربها بين الدولة العثمانية والنمسا.

ومع ذلك، ففي خلال هذه المدة التاريخية التي لم تـتجاوز القرن والربع، وجدت بعض الإيجابيات في مسار حياة العثمانيـين وكان من أبرزها، إكمال فتح اليمن، وطرد البرتغاليـين، ثمَّ فتح جزيرة قبرص، وأدَّت هزيمة «ليبانتي» إلى تعلّم بعض الدروس. تلك الهزيمة ذات الصدى الواسع في أوروبا، الذي تجلى بالفرحة الغامرة والبهجة لانهزام المسلمين، ومن هذه الدروس المستفادة، تشيـيد السفن الجسيمة، ومحاولات تحديثها فيما بعد. واستعادت القوة البحرية شيئاً كثيراً من مجدها السابق، وهاجمت السواحل الإيطالية ودمرت حصون البنادقة. وأصبح أمر السيادة العثمانية على الشواطىء المتوسطية أمراً واقعاً لفترة أخرى، واستولى «سنان باشا» على قلعة «حلق الواد» وفتح «طورغود باشا» طـرابلس الغرب، وفتحت بلاج الكرج ودخل العثمانيون «تفليس» وفتحوا قلاع بلاد المجر، وحصل انتصار عظيم على النمسا والمجر عام ١٥٩٦ م الموافق ١٠٠٥ هـ بفضل خروج السلطان لقيـادة الجيوش بنفسـه ولتحريضـات شيخ الإسـلام، ثمَّ جـرى فتـح كـريت عام ١٦٤٨ م الموافق ١٠٥٨ هـ. ولم ننس أن نذكر أنَّـه في هذه الأثنـاء تهيَّأت للدولة شخصيتين عظيمتين هما «صوقولي باشا» ثمَّ «كوبريللي باشا» وبعض آل كوبريللي، منعاها من الانهيار.

البَابُ الخَامِسُ

الدَّولةُ العُثمانيَّةُ خِلالَ مَرحَلةِ الضَّعف

تطوّر الدّولة العُثمانيّة في القَرنَين الحَادي عَشر والثاني عَشر الهجْري

السلطان سليم الثَّاني: «٩٧٤ - ٩٨٢ هـ» وهي مدة ولايته ولد عام ١٥٢٤ م وتوفي عام ١٥٧٤ م.

كان سليم الثَّاني حاكماً على مغنيسيا عندما توفي والده أثناء الحملة المجرية. فأسرع إلى بلغراد كي ينتظر عودة جثمانه. ولم يستطع دخول استانبول إلَّا بعد صرف الأعطيات الضخمة للإنكشارية: إذ كانوا قد أظهروا التذمُّر وأتوا كثيراً من قبائح الأعمال، وقتلوا بعض الوزراء وأهانوا بعضهم الآخر: حتى لان لهم وصرف لهم الأموال. امتد حكمه من عام (٩٧٤ هـ - ٩٨٢ هـ) ولد في رجب عام ٩٣٠ هـ وهو ابن سليمان القانوني من زوجه روكسلان الروسية السابقة الذكر، وفي عهده ابتدأ انحطاط الدولة. وقد تولى السلطة عام ٩٧٤ هـ ولم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده السلطان سليمان ولولا وجود الوزير الفذ والمحارب والسياسي القدير محمَّد باشا الصقللي[1] لانهارت الدولة، إذ قام بإعادة هيبتها وزرع الرهبة

(١) محمَّد باشا الصقللي:

ولد عام ٩١١ هـ في بلدة سوكول في البوسنة التي تقع في يوغوسلافيا اليوم تولى الصدارة في الدولة العثمانية في عام ٩٧٣ هـ في عهد السلطانين سليمان القانوني وسليم الثَّاني. وربما كان الحاكم الحقيقي في الدولة حتى وفاة السلطان سليم الثَّاني عام ٩٨٢ هـ وفي عهده حدثت الحرب مع النمسا =

ثانية في قلوب أعدائها. فعقد صلحاً مع النمسا وأتمَّ توقيع معاهدة في عام ٩٧٥ هـ الموافق ١٥٦٧ م احتفظت بموجبها النمسا بأملاكها في بلاد المجر ودفعت الجزية السنوية المقررة سابقاً للدولة كما اعترف أُمراء ترانسلفانيا والأفلاق والبغدان بها. كذلك تجددت الهدنة مع ملك بولونيا وشارل التاسع ملك فرنسا في عام ٩٨٠ هـ الموافق ١٥٦٩ م كما زادت الامتيازات القنصلية الفرنسية وجرى تعيين هنري دي فالوا ـ وهو أخو ملك فرنسا ـ ملكاً على بولونيا باتفاق مع فرنسا التي أصبحت بذلك ملكة التجارة في البحر المتوسط. وطبقاً للمعاهدات السابقة فقد قامت تلك الدولة ـ أي فرنسا ـ بإرسال البعثات الدينية النصرانية إلى كافة أرجاء البلاد العثمانية التي يقطنها نصارى وخاصة بلاد الشام لتزرع في أدمغتهم محبة فرنسا ممَّا كان له أثر يذكر في ضعف الدولة، إذ امتدَّ النفوذ الفرنسي بين النصارى وبالتالي ازداد العصيان وتشجعوا على الثورات فكان من أهم نتائج ذلك التدخل الاحتفاظ بجنسية ولغة الأقليات النصرانية حتى إذا ضعفت الدولة ثارت تلك الشعوب مطالبة بالاستقلال بدعم وتأييد من دول أُوروبا النصرانية.

وقد تمَّ في عهد السلطان سليم الثَّاني إخضاع مدينة صنعاء عاصمة اليمن عام ٩٧٦ هـ وقضي على التمرد هناك فتمَّ فتح اليمن وقضي على البرتغاليين هناك. واعترف سلطانها الشريف مطهر بن شرف الدين يحيى بالحكومة العثمانية ثمَّ عين فاتحها سنان باشا أحد القواد والياً عليها. كما جرى فتح جزيرة قبرص التابعة للبندقية آنذاك بقيادة (لالا مصطفى باشا) وكانت عوامل فتحها غير المباشرة تعديات سفنها على السفن العثمانية واغتصابها بعض ممتلكات السلطان التي ابتاعها بنفسه من مصر عندما كان أميراً على كوتاهية كذلك من عوامل فتحها أنَّ المسلمين كانوا قد فتحوها سابقاً منذ عهد بني أُميّة، وبعد حصار مدنها دخلها العثمانيون وطلب أهلها الأمان وتركوا أي العثمانيين فيها ٤٠ سفينة. ثمَّ غزت

= حيث هُزم الأُسطول العثماني في معركة ليبانتي الشهيرة فساعد على تحقيق هدف الدولة في قبرص.

رقي لرتبة القائد الأعلى للأسطول عام ٩٥٣ هـ ثمَّ أصبح حاكم الرومللي العام. قاد قوات سليم الثَّاني أثناء المصادمات التي وقعت بينه وبين أخيه بايزيد بين ٩٦٧ ـ ٩٦٩ هـ. تزوج ابنة المنتصر سليم الثَّاني وكان يفضل السلم حينما كان في منصب الصدارة كما عارض دخول الدولة الحرب ضد البندقية وإيران. فقد معظم سلطاته بعد موت سليم الثَّاني وعدَّ في صف المعادين. جرى اغتياله أخيراً وتوفي في خريف عام ٩٩٣ هـ في استانبول.

السفن العثمانية كريت وغيرها من جزر المتوسط فاستعانت البندقية بإسبانيا والبابا وسارت سفنهم إلى شواطئ الدولة بقيادة (دون جوان)[1] واشتبك الفريقان قرب ليبانتي فانهزم العثمانيون أمام التضامن الديني النصراني وقام البابا خطيباً في كنيسة مار بطرس في روما وشكر القائد على انتصاره. أمَّا في استانبول فحينما وصل النبأ إليها قام الوزير محمَّد الصقللي فاستنهض الهمم وجهز أسطولاً جديداً واتجه لمحاربة الأعداء الذين استولى عليهم الخوف واختلفوا فيما بينهم فتمَّ الصلح وتنازلت البندقية عن جزيرة قبرص وتعهدت بدفع غرامة حربية.

معركة ليبانتي[2]:

استطاع اليهودي (يوسف ناسي) إقناع السلطان سليم الثَّاني خوض حرب جديدة ضد البنادقة. كما استثارت جزيرة قبرص الغنية التي كانت في حوزتهم جشع هذا اليهودي. وتمكن من إغراء السلطان بإعلان الحرب على الجمهورية عندما امتنعت عن تنفيذ ما طلبه إليها من قبل.

أمَّا البابا فلم تفتر عزيمته عن محاولة لمّ شمل النصارى لقتال العثمانيين وقد كتب يقول: «... إنَّ السلطنة التركية قد تبسّطت تبسطاً هائلاً بسبب نذالتنا»... واستجاب ملوك النصارى لندائه، فأرسل ملك إسبانيا خمسين سفينة بقيادة (آندري دوريا) الأميرال الشهير، إضافة إلى أساطيل البنادقة ومالطة والبابا، وفي أوائل تموز أرسى الأسطول العثماني أمام جزيرة قبرص. وسرعان ما فتح المسلمون الجزيرة إثر هجوم عام فتحت إثره نيقوسيا وفرَّ الأسطول الإسباني. وعندما علم البابا بأنباء الهزيمة أرسل إلى ملك فرنسا يريد العون: فاعتذر شارل التاسع بحجة ارتباطه بمعاهدات مع العثمانيين، فأجابه البابا طالباً منه التحلل من مواثيقه هذه ويجدر الإشارة إلى مقارنة بسيطة بين هذا الموقف وما أوجبه الإسلام من احترام المواثيق إذ إنَّ على المسلم نصرة أخيه المسلم ضد غير المسلم. إلاَّ في حالة وجود ميثاق معه فلا يجوز نقضه.

ولم تمض سوى أيام قليلة حتى نقض الامبراطور عهوده ومواثيقه التي أبرمها

---

(١) دون جوان: هو ابن شارلكان سفاحاً من إحدى خليلاته. كلف من قبل أبيه عام ٩٧٧ هـ بإذلال من بقي من المسلمين في غرناطة.

(٢) تقع في الطرف الشمالي للفم الغربي لخليج كورنث في اليونان اليوم.

مع العثمانيين واتجه البابا نحو إيفان ملك الروس يطلب إجابته نفير الحرب، ووجد تباطؤاً عند ملك بولونيا.

واختير (دون جوان) النمساوي قائداً للحملة. وتحركت بعثات أمراء إيطاليا. ثمَّ أبرم التحالف في ٢٥ مارس ١٥٧١ م. ضد الدولة العثمانية، وجاء في أحد بنوده «إنَّ البابا بيوس الخامس وفيليب ملك إسبانيا وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لأجل أن يستردوا جميع المواقع التي اغتصبوها من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس». وبلغت تحشدات الأساطيل الحليفة ما قوامه ٢٢٥ سفينة حربية و (٧٠) مركب نقل وأقلعت من مرسى مسّيني في منتصف أيلول من العام ذاته. أمَّا قوة الأسطول العثماني فكانت ٢٤٥ سفينة حربية و (٨٧) مركب نقل. والتقى الطرفان في خليج ليبانتي. ونشبت المعركة وشاءت إرادة الله هزيمة المسلمين ففقدوا ثلاثين ألف مقاتل وقيل عشرين ألفاً، وخسروا ٢٠٠ سفينة حربية منها ٩٣ غرقت والباقي غنمه العدو وتقاسمته الأساطيل المتحدة[١] وأُسرَ لهم عشرة آلاف رجل. ولم ينج سوى باشا الجزائر وسفنه الأربعين ولم يتمكن القبودان باشا علي من مغادرة الميناء والتقدم وراء الأسطول النصراني. وكانت هذه الهزيمة بداية للتقهقر الذي حلَّ في الدولة العثمانية فبدأ نجمها بالأفول وكان لهذه الموقعة ما بعدها.

أمَّا في أوروبا فقد عمَّت الأفراح، ونظمت القصائد الشعرية، وأُلقيت الخطب الحماسية، وفرح البابا فرحاً عظيماً على الرغم من عدم ارتياحه لأنَّ عدوه لا يزال عظيماً مرهوب الجانب وحاول إثارة شكوك المسلمين ضد العثمانيين مستغلاً بعض الضغائن والمشكلات. فأرسل إلى الشاه طهماسب ملك العجم. ومن جملة ما قال له: «... لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين، إذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات...».

وأرسل يستعدي ملك الحبشة وإمام اليمن على الدولة العثمانية ولكن المنية عاجلته فانحلت بموته هذه الرابطة. وتمكن السلطان في السنة التالية من توجيه أسطول قوي إلى ساحة القتال لهزيمة البنادقة المرابطين في دلماسيا. فتصالحوا مع الباب العالي وغضب عليهم البابا الجديد (غريغوريوس الثالث عشر) الذي حاول

---

(١) انظر تفصيلات وقائع المعركة في كتاب تاريخ الدولة العثمانية تأليف الميرالاي إسماعيل سرهنك، ص ١١٦.

لمّ الشمل من جديد وجمع لهذه المهمة قوات من الإسبانيين والبنادقة. ولكن أسطول الحلفاء تقهقر أمام الأسطول العثماني والتجأ إلى نافارين. وهكذا بقيت قبرص في حوزة المسلمين. ثمَّ اتجه دون جوان إلى تونس فاحتلَّ عاصمتها وأعاد مولاي حسن إلى الحكم هناك ولكنها استُرجعت بعد ثمانية أشهر فقط بمعرفة القائد الحربي الشهير سنان باشا عام ٩٨٢ هـ الموافق ١٥٧٤ م إذ استولى على قلعة حلق الواد. وكانت العمارة بقيادة القبودان قلنج علي باشا وغزت في طريقها جزيرة صقلية وبعض القلاع والبلاد لمساعدتها أعداء الدولة وكان قد وصل سنان باشا إلى تونس وأخرج عساكره إلى البر بلا ممانع، وأخذ في محاصرة القلعة المذكورة ثمَّ فتحها. ودخل المدينة ونادى في الناس الأمان وهدأ روعهم فعادوا إلى أعمالهم وأُقيمت الخطبة باسم السلطان وضربت السكة باسمه أيضاً. وكان قد تمرد قبلها أمير البغدان، لكن الجيوش العثمانية قد تمكنت من سحق التمرد وذلك في عام ٩٨١ هـ. وفي تلك الأثناء استولى طورغود باشا على طرابلس الغرب. ويقال إنَّ عمارة سنان باشا مرت من هناك وساعدته على فتح تونس. ثمَّ توفي السلطان في ٢٧ شعبان من عام ٩٨٢ هـ عن عمر يناهز (٥٢) سنة وله ستة أولاد وهم: مراد ومحمَّد سليمان ومصطفى وجهانكيز وعبد الله وثلاث بنات وتولى بعده ابنه مراد الثالث. ولا بد من كشف بعض المحاولات التي جرت لإعادة سنان باشا إلى حظيرة النصرانية واستعدائه المسلمين. تلك المحاولات التي قام بها البابا (أ. كليمنصوس). ففي تلك الآونة كان اسم سنان قد انتشر شرقاً وغرباً. وهو الرجل الطلياني الذي وقع أسيراً في أيدي المسلمين، فأسلم وحسُن إسلامه. وساعدته الأقدار فصار من أعظم الرجال في الدولة العثمانية.

وفكر البابا بإعادة هذا الرجل إلى النصرانية، فأرسل إليه راهبين يسوعيين يمتان إليه بصلة النسب. وكانت أم سنان قد شاهدت ابنها في مسيني، وراودته على العودة إلى النصرانية ولكنها لم تفلح. وراجعت البابا فقال لها بأنَّه يرجو رجوع ابنها لا إلى أمه الدموية فقط بل إلى أمه الروحية - الكنيسة الكاثوليكية -.

وكان لسنان باشا أخ بقي نصرانياً تولى في الدولة وبسماح من سنان إمارة جزيرة ناكسوس من جزر الأرخبيل. وكان يطمح في تولي إمارة الفلاج والبغدان، فكتب إلى البابا راجياً العمل لإعادة سنان إلى المسيحية. وصدرت في حينها الإرادة السلطانية بتوليه إمارة جزيرة ناكسوس إلى ذلك الأخ المدعو (كارلو سيكالا)

ويجلب أمه لتكون بجانبه. واجتمع سنان وأخوه في جزيرة ناكسـوس. واطّلع سنان على اقتراحات البابا وملك إسبانيا فيليب الثّالث. وساور البابا الأمل الكبير في إنجاز مشروعه ملتمساً الدعم من ملك الإسبان، وبأن تـتولى أسرة نصرانية عرش الآستانة وأن تحمل شعوب تركيا على النصرانيـة بالقـوة. وأغري سنـان بالوعود البراقة. وكتب له البابا يعده بأن يكون ملكاً على تركيا شرط تحول أهلها إلى العقيدة الكاثوليكية واعداً إياه بالدعم المادي. كما دعـاه إلى إجحاد الـدين الإسلامي أمام شهود ولكن ذلك لم يتم وفشلت مخططات أعداء الإسلام آنذاك.

كذلك لا بد من توضيح بعض الحقائق، فقد ذكر مؤرخو الغرب أنَّ سبب وفاة السلطان الإفراط الشديد في تناوله الخمر، إلَّا أنَّ المؤرخين المسلمين يذكرون أنَّ سبب وفاته انزلاق قدمه في الحمام فسقط سقطة عظيمة مرض منها أياماً ثمَّ توفي[1]. ورغم أنَّه عقد الاتفاقيات مع الأجانب وقد فتـت في عضد الدولة. إلَّا أنَّه أرسل الأساطيل إلى أندونيسيا في محاولات تعبوية إسلامية وساعد المسلمين في الهند وفتح قبرص كما ذكرت على التمام في سنة ونصف فقط. وبعد الهزيمة العثمانية في ليبانتي وهي المعروفة بهزيمة (إينابختي) فإنَّه لم يستطع النوم لعدة أيام تأثّراً من ألم الهزيمة. اتّصف بالشجاعة والتقى وأصلح جامع آيا صـوفيا وضـاعف مرتبـات الحرمين الشريفين وشيَّد مسجداً في أدرنة عام ٩٨١ هـ وأضاف إليه جملة مبان. وكان شاعراً كوالده[2].

السلطان مراد الثّالث: «٩٨٢ هـ - ١٠٠٣ هـ»:

وقد ولد في ٥ جمادى الأولى عام ٩٥٣ هـ الموافق ٤ تموز عـام ١٥٤٦ م وكانت فاتحة أعماله إصدار أمر بمنع شرب الخمور بين الإنكشارية خاصة، فثار أولئك الجند حتى اضطروه لإباحته. ثمَّ أوصى أشراف بولـونيا بـانتخاب أمـير ترانسلفانيا التابع للدولة ملكاً عليهم فصارت بذلك تحت حماية العثمانيـين ثمَّ

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية ـ سرهنك، ص ١٢٠.

(٢) يقول في أحد أشعاره:

نحن البلابل المحبة المضناة ... من توق البعاد «الفراق»

نسيم الصباح اللطيف يغدو ناراً ... لما يهبّ عبر حديقة وردنا

وقد قال الشاعر التركي الشهير «يحيى كمال بيلاطلي» مشيراً إلى أنَّ هذه الثنائية مدهشة كروعة جامع السليمية.

تعهد الباب العالي بحمايتها بموجب معاهدة رسمية. وبعد ذلك جدد الامتيازات التجارية والقنصلية مع فرنسا والبندقية وزاد عليها بنوداً أخرى لصالحهما مما جعل تلك الاتفاقيات ذريعة للتدخل في شؤون الدولة الداخلية في المستقبل وحصلت إنكلترا في عهده على بعض الامتيازات لتجّارها. ثمَّ بسطت الدولة حمايتها على مراكش إذ استنجد سلطانها بالعثمانيين ضد مناوئيه الذين ادَّعوا السلطة واستعانوا بالبرتغاليين فقام الوزير محمَّد باشا الصقللي بالإيعاز لوالي طرابلس، بإنجاد السلطان الشرعي لتلك البلاد وحين تمَّ لملك فاس ما يريد بمناصرة السلطان أرسل له سنة ٩٨٤ هـ يشكره ويدعو له بالنصر والتأييد ويعلمه بالانقياد إليه. ودارت معركة بين العثمانيين والبرتغاليين وقتل رئيس الثائرين. ثمَّ وقع صلحاً مع إسبانيا دون التعرض لأعمال فدائيي البحر. ثمَّ أوعز للوزير محمَّد باشا الصقلّي بمحاربة بلاد العجم فتمَّ فتح إقليم الكرج[1] عام ٩٨٣ هـ والتي كانت تتبع العجم واحتلَّ العاصمة تفليس ثمَّ عاد قائد الحملة مصطفى باشا فأمضى فصل الشتاء في طرابزون ثمَّ حصنت مدينة قارص[2] بصورة منيعة وعاد الأعاجم فاسترجعوا شروان[3] وحاصروا تفليس وحينها قتل محمَّد باشا الصقللي الذي حافظ على كيان الدولة من الانهيار بعد موت سليمان، وقد نسب بعض المؤرخين قتله لدسيسة بعض حاشية السلطان حسداً منهم وهو الذي أبرم الصلح مع أوروبا المعادية بذكائه ودهائه وبتعليماته فتحت قبرص. وقد دست الحاشية الدسائس ضده وبالتواطؤ مع الأجانب فدبَّت الفوضى بعده في أركان الحكم وأرجاء البلاد، ومن أتوا بعده وقعت بينهم المنافسات والمشاحنات. ثمَّ فتح عثمان باشا حاكم إقليم شروان بلاد داغستان[4] ووصل إلى بلاد القرم وانتصر على خانها وتمَّ عزل الصدر الأعظم سياوس المجري وعين عثمان باشا بدلاً عنه كما عين قائداً لجيش الكرج عام ٩٩٢ هـ فسار بجيش مؤلف من ٢٦٠ ألف فاخترق آذربيجان بدون مقاومة تذكر وقصد تبريز واستمرت الحرب ست سنوات كان فيها هو المنتصر ولكن المنون عاجلته فتمَّ الصلح بين الطرفين سنة ٩٩٣ هـ وتنازلت العجم عن

---

(١) الكرج: وهي بلاد جورجيا السوفيتية اليوم.

(٢) قارص: مدينة في شرقي تركيا.

(٣) شروان: بلاد في قفقاسيا، وتشمل جزءاً من بلاد داغستان.

(٤) داغستان: بلاد في شرقي القفقاس تشرف على بحر الخزر من جهة الشرق وتعني أرض الجبال.

إقليم الكرج وشروان ولورستان(١) وقسم من آذربيجان ومدينة تبريز ثمَّ هدأت الأحوال بعد ذلك فثار الإنكشارية لأنَّهم يفضلون الحروب للارتكاب وقتلوا بعض الوزراء بحجة تزوير العملة وتمردوا بعدها عام ١٠٠١ هـ في استنابول وبودا والقاهرة وتبريز فأشار سنان باشا الذي أُعيد للوزارة عام ٩٩٧ هـ بإشغالهم بمحاربة المجر ففتحت عدة قلاع عثمانية. ثمَّ أشهرت الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا العصيان وتحالفوا مع ملك النمسا وامبراطور ألمانيا ولكن سنان باشا تمكن من إخضاعهم عام ١٠٠٣ هـ وتقهقر العثمانيون بعد ذلك خلف الدانوب وفتح الأعداء مدناً أهمها نيكوبلي. والجدير بالذكر أن شن الغارة على النمسا آنذاك كان لتسكين الإنكشارية وشغلهم عن التمرد، ولم تنته هذه الحرب إلاَّ في عهد السلطان أحمد الأوَّل بمعاهدة ستيفاتورك.

وفي عام ١٠٠٣ هـ توفي السلطان مراد الثَّالث وله خمسون سنة من العمر. وكان شاعراً فطناً لبيباً نظم بالعربية والفارسية والتركية، ويميل إلى التصوف ومحبة العلماء. كما أنَّه كان يميل لاقتناء الجواري ويشاورهنَّ وكانت من بينهنَّ جارية بندقية الأصل سباها فدائيو البحر وبيعت في السراي وسميت صفية، تدخلت كثيراً في السياسة الخارجية وساعدت أبناء أصلها. وفي عهده بلغت مساحة الدولة العثمانية الأوج وهي ١٩,٩٠٢,٠٠٠ كم. وقد دفن في ساحة آيا صوفيا.

السلطان محمَّد الثَّالث: «١٠٠٤ - ١٠١٢ هـ» الموافق ١٥٦٦ م - ١٦٠٣م. ولد عام ١٥٤٦ م وتوفي عام ١٥٩٥ م.

وهو ابن مراد الثالث وأُمه صفية (الإيطالية) المارة الذكر ولم يخرج للحروب في البداية أبداً وترك الأُمور الداخلية بأيدي وزرائه أمثال سنان باشا وجفالة زاده وحسن باشا ثمَّ تعاقبت انهزامات الدولة أمام ميخائيل الأفلاقي الذي ضمَّ إقليم البغدان وجزءاً كبيراً من ترانسلفانيا ثمَّ إنَّه لمَّا تأكد من الضعف المحقق قام بقيادة الجيوش بنفسه فدبَّت الحمية الدينية في الجند العثمانيين فسار إلى بلغراد ودمر جيوش النمسا والمجر بعد أن كاد السلطان أن يؤسر، وأذكى ذلك تشجيع الشيخ سعد الدين أفندي، ولغرور الأعداء، وقد ورد في بعض الروايات أنَّ عدد القتلى في صفوف الأعداء بلغ مائة ألف. وأعاد النصر للدولة ما كان لها من الاقتدار

---

(١) لورستان: إقليم في إيران.

والصولة في عهد سليمان القانوني. وعاد السلطان غانماً إلى العاصمة. ويقول إبراهيم أفندي في تاريخه وكان حاضراً في تلك الواقعة أنّه لو أمضت العساكر العثمانية شتاء ذلك العام بالحدود ثمَّ تقدمت في الربيع لكان أمكن افتتاح مدينة فيينا[1]. وفي عهده حصلت ثورة داخلية في بلاد الأناضول أثناء القتال على حدود النمسا والمجر قام بها المتبقون من الجنود المرتزقة هناك بعد أن فروا من ساحة الحرب في أوروبا فعوقبوا وحقروا فتمرد أحد رؤسائهم واسمه قره يازيجي قائد فرقة السكبان الإنكشارية وتغلب على والي القرمان ودخل عينتاب[2] فحاصرته الجيوش فعرض الطاعة مشترطاً توليته على أماسية فقبل شرطه ولكنه عاد للعصيان حينما ابتعدت الجيوش عنه واتفق مع أخيه دلي حسن والي بغداد وجاهر بعصيانه فقام صقللي حسن باشا بالانتصار على قره يازيجي الذي التجأ إلى الجبال قرب البحر الأسود وتوفي بعد ذلك. أو قتل في الميدان. أمَّا أخوه فقد تغلب على صقللي حسن وقتله على أسوار توقات وهزم ولاة ديار بكر وحلب ودمشق وحاصر كوتاهية سنة ١٠١٠ هـ وحينها تجسمت الأمور ولجأت الدولة للسلم وعرضت عليه ولاية البوسنة استدراجاً له فقبل وسافر مع جنوده من كرد وقرمان وتوجهت قوته لمحاربة الإفرنج حتى قضي على القسم الأكبر منها في مناوشات الدولة مع النمسا والمجر ولقي حتفه في حصار بودا. وقد أضعف ذلك التمرد الدولة وأخلَّ بالنظام العسكري وأنقص الدخل بسبب تلك الفتنة. ثمَّ قام جنود السباه[3] بتمرد في استانبول كاد يقضي على الخليفة ولكنَّ الإنكشارية سرعان ما أخمدته.

توفي السلطان محمَّد الثالث في ١٢ رجب ١٠١٢ هـ وعمره ٣٧ سنة وخلفه ابنه أحمد الأوَّل. وكان على نصيب عالٍ من التعليم، شديد التديُّن ويميل إلى التصوف وأطلق عليه اسم فاتح (أغري) أو قلعة (إرلاو) في عام ١٠٠٥ هـ. ويقول في أحد أشعاره: نحن لا نقبل الطغيان طالما نميل للعدل. نحن نعمل فقط لحب الله، ونصغي بدقة لأوامره. نحن الحكماء من تعكس قلوبنا نشوة العالم أجمع فلا تظن أنَّنا لا نعر انتباهاً إلى صخب الرياح[4].

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ـ سرهنك، ص ١٣٠.

(٢) عينتاب: بلدة تقع جنوبي تركيا على حدود بلاد الشام.

(٣) السباه: الفرسان.

(٤) Album of the ottomans. p. 57.

السلطان أحمد الأوَّل: «١٠١٢ هـ - ١٠٢٦ هـ».

وقد ولد في ١٨ نيسان ١٥٩٠ م وتوفي في ٢٢ نوفمبر ١٦١٧ م.

وقد تولى الملك وهو ابن أربعة عشر عاماً ولم يأمر بقتل أخيه خلافاً للعادة السيئة المتبعة بل حجزه بين الجواري والخدم وحدث في عهده اضطراب في الأحوال الداخلية فتمرد جان بولاد كما تمرد فخر الدين المعني الدرزي العقيدة، إلى أن هيَّأ الله للدولة وزيراً محنكاً أكسبه تقدم السن مزيداً من الخبرات والتجارب فعين صدراً أعظم فكان عوناً للسلطان الفتى وانتصر على الثائرين وخاصة ثائر الأناضول قلندر أوغلي الذي كان قد عين والياً على أنقرة فقد نكلت الدولة به وأمثاله من شيوخ طائفة الجلالية وتمكن الصدر الأعظم قبوجي مراد باشا من تطهير الأناضول من أولئك الثائرين. وقامت في عهد هذا السلطان حروب مع بلاد العجم إذ انتهز الشاه عباس فرصة القلاقل الداخلية وقام باسترجاع العراق العجمي وتبريز ووان ثمَّ عقد صلحاً عام ١٠٢١ هـ تركت بموجبه الدولة جميع الحصون والقلاع المفتوحة من عهد سليمان الأوَّل بما فيها بغداد وكان ذلك فاتحة عهد الانحطاط الفعلي لترك الدولة فتوحاتها لأوَّل مرة. وفتحت في عهده بعض الحصون وأبرم الصلح مع النمسا عام ١٠١٥ هـ وعفيت بذلك من دفع الجزية وسميت تلك المعاهدة بمعاهدة (ستواتورك) على نهر الطونة واستردت الدولة بعض المدن وعلى رأسها بلغراد. وحصلت بين عامي ١٠٢٠ - ١٠٢٣ مناوشات بحرية بين الدولة ومالطة وإسبانيا وولايات إيطاليا انتصر فيها الأعداء. كما جددت الامتيازات مع فرنسا وبولونيا. كما حصلت ولايات الفلمنك (هولندا) عام ١٠٢١ هـ على امتيازات تضاهي امتيازات فرنسا وإنكلترا ومنذ ذلك الحين قام الهولنديون بإدخال عادة تدخين التبغ إلى البلاد الإسلامية وقد عارض المفتي في ذلك وأصدر فتوى بمنعه فهاج الجند مع بعض الموظفين حتى اضطروه لإباحته.

ولنعد الآن لشرح بعض الشيء عن عصيان فخر الدين المعني في لبنان: ففي عام ٩٩٩ هـ اعتلى فخر الدين الثَّاني وهو حفيد فخر الدين الأوَّل، السلطة في لبنان وكان درزياً وصولياً كبيراً تقنع بقناع النصرانية حين الضرورة وبارعاً في حبك الدسائس وبذر الشقاق في صفوف أعدائه وقد عين والياً على جبال لبنان والمناطق الساحلية وعلى قسم من سوريا وفلسطين، وكانت غايته الأساسية شن

حملة صليبية ضد السلطان بمساعدة الغرب، ففاوض الإيطاليين من أجل ذلك وجرت اتصالات بينه وبين دوق تسكانيا فرديناند الأول وبينه وبين البابا وإسبانيا للاستيلاء على فلسطين. وأنشأ الحصون وقوى جيشه حتى بلغ ٤٠ ألف مقاتل ثمَّ أعلن الثورة عام ١٠٢٢ هـ ولكنه هزم وهرب إلى إيطاليا وفشلت خطته التي ساهمت فيها فلورنسا[١] والفاتيكان وفرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطة[٢] وغيرهم، إذ إنَّه عرض على كوسموس بن فرديناند مشروع شن حملة صليبية ضد المسلمين وقضى خمس سنين في فلورنسا، كانت أمه (نسب) خلالها تدافع عنه ضد والي دمشق. وقد كان من أخطاء السلطان عثمان الثَّاني الذي تولى السلطة فيما بعد أن عفا عن فخر الدين فعاد إلى لبنان مرة ثانية واندفع لفرنجة البلاد وكان ذلك بداية للثقافة المارونية الروحية الجديدة. ثـمَّ أعلن التمرد للمرة الثالثة مستغلاً الحرب الفارسية ولكنه فشل وأسر وسيق إلى استانبول. ثمَّ اندلعت الثورة عام ١٠٤٥ هـ ولكنه هذه المرة أسر وشنق. وفشلت الحركة المسلحة التي قادها ابن أخيه ملحم للأخذ بثأره.

توفي السلطان أحمد وعمره ٢٨ سنة وأوصى بالملك لأخيه نظراً لصغر سن ابنه عثمان وبذلك أصبح مصطفى الأوَّل السلطان والخليفة الجديد. وقد امتاز السلطان أحمد بالتدين والتصوف حتى عدَّ من الأولياء[٣] وهو الذي بنى الجامع الأزرق الضخم مقابل جامع آيا صوفيا والمعروف باسمه وكان يعتكف به في شهر رمضان كما بذل العطاءات الكبيرة لسكان مكة المكرمة والمدينة المنورة وأجرى إصلاحات جيدة هناك.

---

(١) فلورنسا - إحدى إمارات إيطاليا.

(٢) مع الأسف فإنَّ كتبنا الحديثة تعده أنموذجاً عن التضحية والفداء والوطنية وبهذا أصبحت صورة الوطنية باهتة أو إنَّها ارتبطت مع عمالة الغرب.

(٣) كان يحمل هذه الأبيات واضعاً إياها تحت عمامته:

أرغب دوماً في حمل صورة	انطباع أقدام النبي عالي المقام
من هو سيد الأنبياء	فوردة حديقة الأنبياء مالكة هذه الأقدام الشريفة
فيا أحمدي لا تتردد ولو للحظة،	ومرغ وجهك بأقدام الوردة الرفيعة الشريفة

السلطان مصطفى الأوَّل: «١٠٢٦ هـ - ١٠٢٧ هـ» - وهي مدة ولايته. ولد في عام ١٠٠١ هـ الموافق ١٥٩٢ م وتوفي في ٢٠ كانون ثاني عام ١٦٣٩ م.

نشأ هذا السلطان جاهلاً بأُمور السياسة لأنَّ أخاه السلطان أحمد كان قد ضيَّق عليه الخناق وحبسه بين جدران القصور وبين الجواري. والجدير بالملاحظة هنا أنَّ هؤلاء الأمراء لو أنَّهم كانوا يتولون قيادة الجيوش والمقاطعات بدلاً من الحبس أو القتل فربما كانت الأمور أفضل ممَّا حدث. وفي عهده كادت تقوم الحرب بين الدولة وفرنسا، وما عدا ذلك فلم يتميز عهده بأي حدث ذي شأن ثمَّ عزل وعين بدلاً عنه عثمان الثاني ابن أحمد الأوَّل. وكان قد نصَّب مرتين امتدت الفترة الأُولى حوالي الثلاثة أشهر ثمَّ خلع من قبل المفتي ولكنَّ الإنكشارية أعادوه وقتلوا السلطان عثمان الثَّاني وذلك عام ١٦٢٢ م. دفن بعد وفاته في فناء جامع آيا صوفيا باستانبول.

السلطان عثمان الثَّاني: «١٠٢٧ - ١٠٣١ هـ» وهي مدة ولايته. ولد في ٣ تشرين ثاني عام ١٦٠٤ وتوفي في ١٠ مارس عام ١٦٢٢ م وهو ابن السلطان أحمد الأوَّل.

وقد قام بعد تولِّيه الحكم بقتل أخيه محمَّد وذلك عام ١٠٣٠ هـ وفي عهده تمَّ حسم المشكلات مع فرنسا وأشهر الحرب على بولونيا وجرت معركة فاصلة ولكنَّ الإنكشارية طلبوا وقف القتال كما طلب البولونيون الصلح فجرت مفاوضات وعقد صلح فلم تتحقق غاية السلطان بضم البلاد البولونية فعزم على إفناء الإنكشارية وأمر بتنظيم جيوش جديدة في آسيا وتدريبها ثمَّ شرع في تنفيذ مشروعه ولكنَّ الإنكشارية استطاعت عزله في ٩ رجب عام ١٠٣١ هـ وأعادوا مصطفى الأوَّل الذي كانوا قد خلعوه سابقاً، ثمَّ قتلوه فأصبحت الحكومة أُلعوبة بأيديهم فقد كان داوود باشا قد تسلَّم الصدارة وأمر بقتله بعد أن حبسوه في بعض الثكنات العسكرية عام ١٠٣١ هـ. وارتكبوا المظالم وانتشرت الفوضى في البلاد إثر وصول نبأ القتل إلى الولاة وتمرد بعضهم كوالي طرابلس الشام وأرضروم وسيواس وأرادوا الثأر له واستولوا على بعض البلاد وقتلوا من وقع في قبضتهم ونهبوا خزائن الدولة وطالبوا بدم السلطان عثمان واستمرَّ الاضطراب ١٨ شهراً متوالية وبعد أن

شبعوا سلباً ونهباً قاموا بعزل السلطان مصطفى عام ١٠٣٢ هـ وولوا مكانه مراد الرابع.

السلطان مراد الرابع: «١٠٣٢ - ١٠٤٩ هـ» وهي مدة ولايته. وُلد في ٢٧ تموز من عام ١٦١٢ م وتوفي في ٩ شباط من عام ١٦٤٠ م.

وهو ابن أحمد الأوّل وفي زمنه وسع الشاه عباس حدود بلاده من جهة الدولة العثمانية إذ حدث تمرد في بغداد قام به رئيس شرطتها (بكير آغا) فأرسلت الدولة قائداً ليخمد حركته فحاصره في بغداد فاتصل بالشاه عباس وعرض عليه تسليم المدينة وفي الوقت نفسه اتصل بالقائد العثماني عارضاً عليه رد المدينة للعثمانيين من أيدي العجم مقابل تعيينه والياً عليها فقبل القائد العثماني بذلك العرض بنية سليمة وقام العثمانيون باحتلالها قبل وصول حملة الشاه إليها والذي ما إن وصل حتى حاصرها ثلاثة أشهر. ولكن قام ابن بكير آغا بخيانة العثمانيين طمعاً في أن يعينه الشاه حاكماً عليها ولكنَّ الشاه قتله جزاء خيانته وقتل أباه. ثمَّ وشى أناس للسلطان ضد الصدر الأعظم واتهموه بالخيانة التي سببت سقوط بغداد فأمر بقتله وولى مكانه جركس محمَّد باشا ثمَّ استبدله بخسرو باشا وحاول هؤلاء الوزراء القضاء على تمرد أرضروم. ثمَّ توفي الشاه عباس وتولى ابنه ميرزا وهو صغير السن فاستغلَّ العثمانيون صغر سنه ووصلوا إلى همذان ثمَّ بغداد.

ثمَّ انتصر على العجم بقيادة خسرو باشا وبعد ذلك رفعوا الحصار عنها لحلول فصل الشتاء ورجع خسرو باشا إلى الموصل ثمَّ حاول معاودة الكرّة في الربيع فامتنعت الجند فتقهقر إلى حلب فقام السلطان بعزل خسرو باشا وأعاد حافظ باشا إلى منصب الصدارة فثار الجند في طلبه فرفض السلطان الإذعان لطلبهم فثاروا في استانبول ودخلوا السراي عام ١٠٤١ هـ فأمر بقتل خسرو باشا وأظهر عزماً في مجازاة رؤوسهم إذ أمر بقتل من اشترك بالفتنة وبذلك أدخل الرعب في قلوبهم وسادت السكينة. وبعد ذلك أمر بمحاربة فخر الدين وإحضاره للعاصمة كما ذكرت قبل قليل فأحضر مع ولديه فقتله مع أحد أولاده حينما علم بثورة أحد أحفاده في بلاد الشام ونهبها عام ١٠٤٤ هـ فأطاع الدروز. وتعدّى ملك بولونيا (لاديسلاس السابع) على حدود السلطنة العثمانية وفتح بعض القلاع التابعة لها، فاضطرَّ السلطان إلى الخروج بنفسه إلى (أدرنة) ليستعد منها لحربه

فكان أن اضطرَّ الملك المذكور إلى طلب الصلح بعد أن نازله أباظة باشا وكسره.

ثمَّ سار بجيش كبير إلى بلاد فارس فاسترجع المدن وقصد تبريز وفتحها ثمَّ عاد للعاصمة للاستراحة فاشتدَّ ساعد أهلها بمجرد مغادرته، الأمر الذي يدل على أهمية وجوده على رأس الجيش، وتغلبوا في بعض المواقع فسار إليهم السلطان شخصياً بجيش كبير إلى بغداد واستمرَّت الحرب يومين كاملين بدون انقطاع انتصر فيها العثمانيون ودخلوا بغداد وذلك في ١٦ ربيع الآخر عام ١٠٤٨ هـ. ثمَّ عرض الشاه الصلح مقابل تركه بغداد وتمَّ ذلك بالفعل وتوفي السلطان بعدها وهو في ريعان الشباب في ١٦ شوال من عام ١٠٤٩ هـ بعد أن اشتدَّ عليه مرض النقرس. وامتدَّ حكمه ١٦ سنة و ١١ شهراً[1] ومنع في عهده الخمر والتدخين وأعدم كل مرتد عن الإسلام في عهده. وتولى أخوه إبراهيم الخلافة من بعده.

كان مراد الرابع عاقلاً شجاعاً ثاقب الرأي، لقبه المؤرخون «اسكندر الثَّاني»، استأصل الفساد وقمع العصاة، ولقب بمؤسس الدولة الثَّاني لأنَّه أحياها بعد السقوط وأصلح حال ماليتها. وكان شاعراً مهماً وقد بعث إلى قائده الذي طلب العون أثناء حصار بغداد فقال: أيُّها المدافع: ألا توجد قوات لتعين بغداد؟ أنت ترغب العون منا، ألا يؤخذ جند هناك؟

السلطان إبراهيم الأوَّل: «١٠٤٩ - ١٠٥٨ هـ» - وهي مدة ولايته. ولد عام ١٦١٦ م وتوفي عام ١٦٤٨ م.

وهو ابن أحمد الأوَّل وقد حافظ على سمعة الدولة فأرسل جيشاً إلى بلاد القرم لمحاربة القوازق الروس وانتصر عليهم واستردَّ مدينة آزاق من أيديهم عام ١٠٥٣ هـ وفتح جزيرة كريت التابعة للبندقية تحت قيادة يوسف باشا بدون حرب تقريباً فانتقم البنادقة بحرق الثغور في بلاد المورة وفي عام ١٠٥٧ هـ تمَّ له فتح أغلب الجزيرة نفسها ثمَّ حاصر عاصمتها ولكنَّ الجنود تمردوا في استانبول وأهاجوا الإنكشارية الذين قرروا عزله وتولية ابنه محمَّد الرابع الذي لم يتم السابعة من

---

(١) قضى على جميع الإرهابيين في استانبول وفي كل أرجاء الدولة وأسس أيضاً تنظيماً للمخابرات وبذلك قبض أو عرف كافة أسمائهم واعتلقوا، وأعاد بناء إصلاحات في الكعبة المشرفة. وكان شاعراً ومؤلفاً وأغنى الخزينة واشترك في الحروب بنفس ظروف الجنود وكثيراً ما كان ينام على حصانه.

عمره وبعد عشرة أيام طلب السباه إعادة السلطان إبراهيم إلى العرش ولكن رؤساء العصابة قتلوه، وقد امتدَّ حكمه ٨ سنين و ٩ شهور وكان عمره ٣٤ سنة.

السلطان محمَّد الرابع: «١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ» وهي مدة ولايته. ولد عام ١٦٤٢ م وتوفي في ٦ كانون ثاني عام ١٦٨٧ م. وتولى الحكم وعمره سبع سنوات.

وقد رجعت الحالة في عهده إلى ما كانت عليه من الفوضى قبل تولية مراد الرابع فحدثت الثورات الداخلية ومنها ثورة (قاطرجي أوغلي) وثورة (كورجي يني) واستطاع هذان المتمردان هزيمة والي الأناضول ثمَّ سار قاطرجي نحو العاصمة ولكنه اختلف مع كورجي ولولا اختلافهما لوقعت في أيديهما، فهزما عندئذٍ وقتل الأوَّل بينما حصل الثَّاني على العفو وعيِّن والياً لقرمان. ثمَّ توالت ثورات الإنكشارية تارة والسباه أخرى والأهالي أحياناً واختلَّ النظام وقد تداخلت جدة السلطان المسماة ماهيكر في إدارة الدولة وكانت راجحة العقل حسنة التدبير مساهمة في إصلاح الأحوال ثمَّ دبروا قتلها مع كثير من ضباط الإنكشارية. ثمَّ قامت البندقية باحتلال بعض المواقع عند مدخل الدردنيل وفرضت حصاراً على المواد التموينية فارتفعت الأسعار وتدهورت الحالة الاقتصادية إلى أن تمكّن الوزير العظيم محمَّد باشا كوبريللي الذي تولى الصدارة عام ١٠٦٧ هـ من الضغط على الإنكشارية وشنق بطريرك الأروام لعلاقته بالحوادث. ثمَّ حاول فك الحصار عن الدردنيل فلم يتمكن ولكنه عاود الكرة وانتصر وفتح المضيق. ثمَّ تمرد أمير ترانسلفانيا وانتصر على الدولة عام ١٠٦٩ هـ ولكن كوبريللي تمكن من قهره وطرده وعيّن بدلاً عنه. ثمَّ تمرد حاكم الأفلاق واضطهد المسلمين في بلاده وقتلهم وهاجم البغدان وانتصر فيها قرب عاصمتها ياسي ولكن كوبريللي رجع إليه وانتصر نصراً مبيناً. أمَّا علاقات الدولة مع فرنسا فلم تتغير إذ ضعف نفوذها لدى الدولة تدريجياً وتقاسمت معها البندقية حماية غلطة كما اختصَّ اليونانيون بحماية بيت المقدس بدلاً من الرهبان الكاثوليك. وممَّا زاد الفتور مع فرنسا تدخلها سراً لمساعدة البنادقة في الدفاع عن جزيرة كريت وكشف ذلك السر بسرعة، وإمدادها النمسا بالمال انتقاماً من الدولة العثمانية. ولكنَّ كوبريللي ظلَّ يقاوم أعداء الدولة في الداخل والخارج حتى رفع سمعتها نسبياً. وبعد وفاته خلفه أحمد كوبريللي زاده وكان شجاعاً حسن الرأي استمرَّ على خطة أبيه ورفض الصلح مع البندقية

والنمسا وقاد الجيوش بنفسه وعبر الدانوب وتمكّن من فتح قلعة نوهـزل المنيعة الشهيرة عام ١٠٧٤ هـ بعد إخلائها فارتعدت أوروبا وتذكرت أيام القانوني وفزع امبراطور النمسا لدخول الجيوش العثمانية إلى بلاده وانتشارها في إقليمي مورافيا وسيليزيا فوسط البابا اسكندر الرابع لدى لويس الرَّابع عشر ملك فرنسا بقصد مساعدته فأرسل له الأخير قوة حربية انضمَّت لجيشه. بعد أن بعثت روح الحروب الصليبية من جديد ولبّى لويس دعوة البابا لنصرة إخوانه في الدين ضد المسلمين على الرغم من صلاته الطيبة مع الباب العالي وحمل الأمراء الألمان الذين يؤلفون عصبة اتحاد الرين وهم خلفاؤه على وضع ٢٠ ألف رجل تحت تصرف الامبراطور الألماني وتحرج موقف الحاكمين في فيّنا الذين كانوا يأملون مفاوضة العثمانيين واجتناب الحرب ونفذ صبر السلطان وأصدر أمره بالهجوم على المجر. وانتصر العثمانيون في البداية ودخلوا قلب جيش العدو ولكنَّ الإنكشارية لم يتمكنوا من الثبات أمام التفوق العددي للعدو فحافظوا على مراكزهم دون تقدم في تلك الموقعة التي سميت موقعة (سان جوتار). ثمَّ أبرم الصلح وجرى تقسيم المجر وبقاء بعض الحصون تابعة للدولة العثمانية بموجبه. أمَّا فرنسا فقد ظلَّت سفنها تطارد سفن المغرب متذرعة بمختلف الحجج ومدت يدها من جانب آخر تحاول الوساطة مع الدولة ولكن كوبريللي رفض ذلك وحرمها من تجديد امتيازاتها ولكنَّ جنوة منحت امتيازات وسلمت جزيرة كريت للدولة بعد حصارها عدا ثلاث قرى. ثمَّ حاولت فرنسا عام ١٠٨١ هـ تجديد امتيازاتها بالضغط فلم تفلح فجددتها باللين والخضوع عام ١٠٨٢ هـ وفوض إليها حماية بيت المقدس ثانية وعادت العلاقات بينها وبين الدولة العثمانية.

ثمَّ خضع جميع القوزاق جنوبي روسيا للخليفة بدون حرب بل حباً للدخول في حمى الإسلام ودولته فأغارت عليهم بولونيا ممَّا أدّى بالسلطان السير بنفسه على رأس جيش وما أن وصل إلى حصن رامنيك عام ١٨٠٣ هـ حتى احتله واحتلَّ مدينة لمبرج فطلب البولونيون الصلح على أن يترك إقليم أوكرانيا للقوزاق وولاية بودوليا للدولة وبدفع جزية ولكن سرعان ما استردت بولونيا لمبرمج واستمرت الحرب معها حتى عام ١٠٨٧ هـ حيث انهزمت بولونيا وعقدت الصلح وتنازلت عن بعض مواقعها وكان ذلك خاتمة أعمال كوبريللي أحمد باشا إذ توفي بعدها في ٢٤ رمضان من عام ١٠٨٧ هـ، وقام خلفه بإبعاد القوزاق فاستنجدوا بروسيا وحاربوا الدولة معاً حتى تمَّ الصلح عام ١٠٩٢ هـ ثمَّ جرى حصار فيّنا

عام ١٠٩٤ هـ ولمدة شهرين كاملين وهدمت أسوارها وحينما شعر البابا بالخطر ألحَّ على بولونيا وغيرها من الدول الأوروبية من أجل نجدتها واستنهض الهمم لمحاربة المسلمين فجرى القتال وانهزم العثمانيون الذين كانوا تحت قيادة الصدر الأعظم غير الكفء قره مصطفى وكان ذلك خذلاناً لم يسبق له مثيل فأمر السلطان بقتل الصدر الأعظم هذا. وبعدها تألبت الصليبية وتكاتفت لمحاربة المسلمين باسم التحالف المقدس الذي ضمَّ النمسا وبولونيا والبندقية ورهبان مالطة والبابا وروسيا وكانت العلاقات بين الدولة وفرنسا مقطوعة بسبب بلاد المغرب ممَّا أدّى بها إلى مواجهة النصارى منفردة فاحتلت جيوش البنادقة أغلب مدن اليونان وأغارت النمسا على المجر واحتلت بعض مدنها ثمَّ قلعة نوهزل السابقة الذكر فقام السلطان بتعيين سليمان باشا صدراً أعظم فحاول استرجاع بودا ولكن لم يتمكن وخرجت نهائياً من حوزة الدولة فأراد استرجاع اعتباره وهاجم التحالف المقدس في سهل موهاكس السابق الذكر ولكنه انهزم وأشهر الجند العصيان في العاصمة إثر وصول النبأ فأمر السلطان بقتله تحت ضغطهم وعلى إثرها عُزل السلطان أو تنازل عن الحكم وفق بعض الروايات في ٢ محرم عام ١٠٩٩ هـ بعد أربعين سنة من الحكم وتوفي عام ١١٠٤ هـ وتولى أخوه الحكم من بعده. ونقل جثمانه إلى استانبول ودفن بجوار قبر أمه في جامع يني.

السلطان سليمان الثَّاني: «١٠٩٩ - ١١٠٢ هـ» وهي مدة ولايته. ولد عام ١٦٤٢ م وتوفي في عام ١٦٩١ م.

وهو ابن السلطان إبراهيم الأول. وقد تمرد الجند الإنكشارية في بداية حكمه لتساهله معهم وقاموا بقتل قادتهم كما قتلوا الصدر الأعظم سياوس باشا وانتهكوا حرمة أهله فانتهز أعداء الدولة الفرصة، فاحتلت النمسا بعض القلاع كما قامت البندقية بالاستيلاء على مدينة (ليبانتي) من بلاد اليونان وسواحل دلماسيا كافة عام ١٠٩٩ هـ وفي السنة التالية احتلَّ النمساويون بعض المدن منها (سمندرية) و (بلغراد)، وفي عام ١١٠١ هـ فقدت الدولة بعض بلاد الصرب على رأسها مدينة (نيش) فعزل الصدر الأعظم السابق نتيجة تلك الهزائم وتولى الصدارة من بعده (كوبريللي مصطفى باشا) ابن الصدر الأعظم السابق كوبريللي محمَّد باشا[1] رغم

---

(١) تعد عائلة كوبريللي من العائلات الشهيرة التي كان لها فضل كبير في حفظ الدولة العثمانية من الانهيار =

معارضة شديدة وكان ماضي العزيمة فأعاد النظام وأباح بناء ما تهدم من كنائس النصارى في استانبول واستمالهم ثمَّ ثار أهالي الأروام على البنادقة وطردوهم حتى أجبروهم على اعتناق المذهب الكاثوليكي ودخلوا في حمى الدولة طوعاً. ثمَّ سار الصدر لمحاربة الأعداء واسترجع جزءاً ممَّا فقدته الدولة لضعف وزرائها وحقق نصراً على الروس عند برزخ «أورقبو» وعلى البولونيين وأوقف تقدم البنادقة. ثمَّ

= في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري. وقد أصبح كوبريللي محمَّد باشا مؤسس شهرتها الواسعة صدراً أعظم في عام ١٠٦٧ هـ حينما وضع حصار الدردنيل من قبل البنادقة الدولة في وضع حرج للغاية فأراد القصر بزعامة السلطانة الوالدة البحث عن رجل قوي محنّك يخرج البلاد من محنتها فتمَّ اختياره وتولى الصدارة بعد أن اشترط عدم السماح للغير بالتدخل في شؤون سلطة الصدارة وقد انتدب لمنصبه هذا لمدة تقارب النصف قرن من الصراعات الداخلية بين الفئات المتنافسة، وهو ينتمي إلى قرية (روجنك) قرب بيرات في ألبانيا. وقد عمل وتدرب في القصر ثمَّ أصبح حاكماً عاماً لمقاطعة طرابزون عام ١٠٥٥ هـ وحتى عام ١٠٦١ هـ حيث عين في المجلس السلطاني ولمدة أسبوع فقط ثمَّ طرد فرجع إلى (كوبرو) المدينة الصغيرة شمالي الأناضول التي اكتسب منها لقبه. أمَّا كوبريللي فاضل أحمد بن كوبريللي محمَّد الأكبر فقد ولد عام ١٠٤٦ هـ وبعد أن كبر اختار له أباه مهنة تعلمها وصار معلماً وهو ابن ١٦ سنة ولكنه دخل في الخدمة المدنية حينما أصبح أبوه صدراً أعظم. ثمَّ تقلب على حكم ولايتي أرضروم ودمشق عام ١٠٧١ هـ قبل أن يصبح نائباً عن أبيه أثناء مرضه وتولى الصدارة عام ١٠٧٢ هـ وبرهن على كفاءة ومقدرة شبيهة بما كان عليه أبوه وتخلص من مناوئيه بتأييد من السلطان وحينما كان يبتعد عن العاصمة كان يترك قره مصطفى (صهره زوج أخته) نائباً عنه. واتبع سياسة أبيه في إنقاص عدد الإنكشارية والسباه وجعلهم أكثر فعالية بحفظ روح الانضباط بينهم. وأدّى التدخل الروسي في إقليم أوكرانيا عام ١٠٨٧ هـ بأحمد إلى الإغارة عليهم ولكنه توفي في العام نفسه وكان متّصفاً بالمعرفة الواسعة والحكمة والعدل ورجل دولة من الدرجة الأولى، وبرز اسمه في القوانين الإسلامية والأدب الفارسي. وبعده تولى الصدارة صهره قرّه مصطفى فأعيد بناء القوة العثمانية في عهده وحارب الروس وحاصر فيينا عام ١٠٩٣ هـ ولكن فشله خارجها وظهور التحالف المقدس تسبب في تدمير ما عمره الرجلين السابقين وفقدت العائلة نفوذها إثر ذلك واستقال فاضل مصطفى الأخ الأصغر لأحمد من الوزارة ولكنه عاد لشغل منصب الوزير الثاني حينما تولى صهره سياوس باشا مركز الصدارة عام ١٠٩٩ هـ ومن ثمَّ لعب كلاهما دوراً هاماً في خلع السلطان محمَّد الرابع فتمرد الجند ضدهما ولم يتمكن فاضل من المحافظة على حياته إلاَّ بحماية السلطان الجديد ثمَّ دعي لشغل منصب الصدارة فحرر نيش عام ١٦٩٠ م وبلغراد. وبينما كان يحارب جيشاً عام ١١٠٣ هـ قتل. وبرز من العائلة أشخاص آخرون تقلدوا مناصب رفيعة مثل نعمان باشا ابن فاضل مصطفى وأخيه عبد الله باشا واستمرت العائلة تشغل مراكز هامة كوزراء وولاة وقادة عسكريون مثل حافظ أحمد بن نعمان باشا وعبد الرَّحمن الابن الأكبر لعبد الله. وعاش معظم آل كوبريللي من أوقاف الرجلين الأولين الذين اتبعا سياسة عادلة بين الناس ورفعا المظالم أثناء جمع الضرائب وكان الناس يلتفتون إلى رجال العائلة أثناء الشدائد وفي أيام المحن.

توفي السلطان في ٢٦ رمضان عام ١١٠٢ هـ الموافق ٢٣ حزيران ١٦٩١ م في أدرنة بعد أن حكم ٣ سنوات و ٨ أشهر وتولى السلطة أخوه أحمد الثّاني بعده. ومما يذكر عنه أنَّه بعد سماعه لانتصارات كوبريللي التقى به ودمعة الفرح تغرورق في عينيه عند رجوعه إلى استانبول من الحملة وأخذ عنه معطفه ثمَّ ارتداه شخصياً.

السلطان أحمد الثَّاني: «١١٠٢ - ١١٠٦ هـ» وهي مدة ولايته. ولد عام ١٦٤٣ م وتوفي في ٦ شباط من عام ١٦٩٣ م. وهو ابن السلطان إبراهيم الأول.

وقد توفي في بداية عهده الوزير الشاب القوي كوبريللي مصطفى وكانت وفاته في ساحات القتال في معركة صلا لقمين عام ١٦٩١ م على أيدي جيوش النمسا ضربة كبيرة للدولة وقد تولى بعده عربه جي باشا منصب الصدارة ولم يكن كفؤاً لذلك المنصب. لم يحدث في عهد هذا السلطان ما يستحق الذكر وقد شجع توطين القبائل في الأناضول وسوريا وسلم البنادقة العثمانيين قلعة «قرابوسة» ورفعت النمسا الحصار عن بلغراد وافتتح خان القرم عدة قلاع وتوفي في ٢٢ جمادى الثَّانية عام ١١٠٦ هـ وقد حكم ٤ سنين و ٨ أشهر. وكان يجيد العربية والفارسية، نسخ القرآن الكريم بخط يده لعدة مرات، نظم الشعر وكان له لقاءات مع أشهر الشعراء في عصره وفي عهده شبَّ حريق ضخم في العاصمة واحترق خمسة آلاف بيت فيها. توفي في أدرنة ودفن في تربة سليمان الكبير.

السلطان مصطفى الثَّاني: «١١٠٦ - ١١١٥ هـ» وهي مدة ولايته. ولد في ٥ تموز عام ١٦٦٤ م وتوفي في ٢٩ كانون ثاني عام ١٧٠٤ م.

وهو ابن محمَّد الرابع اتَّصف بالشجاعة ورباطة الجأش قاد الجيوش بنفسه إلى بولونيا فانتصر عدة مرات. وحارب الروس ورفع الحصار عن (أزوف) في بلاد القرم، ثمَّ أغار على بلاد المجر وفتح بعض الحصون وهزم جيوشها. وأخذ قائدهم أسيراً ثمَّ قتله ولكنَّ الجيوش العثمانية فوجئت بعدها وهي تعبر نهر (تيس) ممَّا أدّى إلى هزيمتها وقتل الصدر الأعظم فاستغلَّ ملك روسيا بطرس الأكبر تلك الفرصة المواتية وهاجم آزاق واحتلَّها عام ١١٠٧ هـ ولكن الصدر الأعظم كوبريللي حسين باشا (صهر كوبريللي محمَّد باشا) تمكَّن من استرداد البوسنة. ثمَّ استردت جزيرة

ساقز أيضاً فأقلعت عمارة بقيادة حسين باشا ثمَّ لاقت عمارة البنادقة في «قيون أطه» ثمَّ هرب العدو واقتربت من ساقز وبالنتيجة خسر البنادقة ودخل العثمانيون الميناء واحتلوا القلعة ثمَّ دخلوا المدينة ولم يتعرضوا لأحد بسوء وقابلهم السكان بالترحاب، ثمَّ أنزلوا بها حامية نقلوها من «جشمه» على ساحل الأناضول. ووقعت بعدها معاهدة كارلوفتش في عام ١١١٠ هـ بين الدولة والنمسا وروسيا والبندقية وبولونيا فترك العثمانيون بموجبها بلاد المجر كافة وإقليم ترانسلفانيا للنمسا كما تنازلوا عن آزاق لروسيا التي ازداد خطرها كما أرجعت الدولة لبولونيا كامنيك وبعض الأقاليم الأخرى وتنازلت للبندقية عن إقليم دلماسيا وقسماً من جزيرة المورة وبذلك فقدت الدولة العثمانية قسماً كبيراً من أراضيها وازداد تسلُّط الغرب عليها منذ ذلك التاريخ ثمَّ اتفاق الأوروبيين مجتمعين أمامها ومن ثمَّ تقسيمها بعد ذلك وهو ما يسمى بالمسألة الشرقية القائمة على خوفهم من انتشار الإسلام في أوروبا وزيادة قوته. ثمَّ ثار الإنكشارية لتوقف الحروب وبالتالي انعدام نهبهم وسلبهم وعزلوا السلطان في ٢ ربيع الآخر عام ١١١٥ هـ بعد أن حكم ٨ سنوات و٨ شهور ثمَّ توفي في السنة نفسها.

السلطان أحمد الثَّالث: «١١١٥ - ١١٤٣ هـ» وهي مدة ولايته. ولد عام ١٦٧٣ م وتوفي عام ١٧٣٦ م.

وهو ابن محمَّد الرَّابع وقد بدأ أعماله بقتل المفتي فيض الله أفندي لمقاومته الإنكشارية وبعد ذلك اقتصَّ منهم وقتل رؤوسهم المدبّرة كما عزل الصدر الأعظم نشانجي أحمد باشا الموالي لهم وعيَّن زوج أخته داماد حسن باشا ولكنَّهم عملوا على عزل الأخير هذا في عام ١١١٦ هـ وكثر بعدها تبديل الصدور وانغمست الدولة في مشكلاتها الداخلية وتناست عدوها اللدود بطرس الأكبر امبراطور روسيا وسياسته القائمة على إضعاف الأقوياء إلى أن تولى الصدارة بلطه جي محمَّد باشا فأعلن الحرب على الروس وحاصرت الجيوش العثمانية البالغ عددها ٢٠٠ ألف جندي القيصر وخليلته كاترينا اللذان كادا يقعا في الأسر هما ومن معهما لولا أن استمالت تلك المرأة الجميلة الصدر الأعظم وأغرته بالنفائس والجواهر فرفع الحصار عنهما وخان الدولة ووقّع معاهدة فلكزن بتاريخ ٩ جمادى الآخرة عام ١١٢٣ هـ والتي قضت بإخلاء مدينة آزاق وعدم التدخّل في شؤون القوزاق وهدم الروس القلاع التي أشادوها حديثاً في حدود الدولة العثمانية وأخيراً عدم تعرض الروس لملك

السويد اللاجئ إلى الدولة العثمانية عند عودته لـوطنه. ولكنَّ السلطان عـزل بلطه جي إثر ذلك ولم يلتزم الروس بالمحافظة على نصوص معاهدة عدم الاعتداء الجديدة التي وقّعها الوزير الجديد يوسف باشا لأنَّه لم يوافق على وقف الحروب فقامت الحرب بينهما ولكنَّ خوف إنكلترا وهولندا من تضرر مصالحهما لدى الدولة جعلهما تقومان بالتدخّل لـوقف الحرب فـوقعت معاهـدة أدرنة عـام ١١٢٥ هـ وتنازلت روسيا بموجبها عن ما لها من أراض على البحر الأسود وإعفاءها من المبلغ الذي تدفعه لخانات القرم وحينما تولّى علي باشا منصب الصدارة أعلن الحرب على البندقية واسترجع ما فقدته بلاده من بلاد المورة وكريت واستعانت البندقية بالنمسا فوقعت الحرب بين الدولة والنمسا التي تشجعت بتحسن علاقات الأخـيرة مع فرنسا ودخل النمساويون بلغراد بعد أن قتلوا الصدر الأعظم كما احتلوا بعض المواقع الأُخرى ووقعت معاهدة صلح بين الطرفين عام ١١٣٠ هـ أُعطيت بموجبها للنمسا مدينة بلغراد وجزءاً من صربيا وآخر من الأفلاق وأُرجعت بلاد المورة إلى الدولة وسمّيت تلك بمعاهدة (بساروفتش). ثمَّ تحقق لروسيا موافقة الدولة على مرور تجارها في أراضيها وبيع سلعهم كما أُعـطي لحجاجهـا حق التوجـه لبيت المقدس وغيره من الأماكن والأديرة، وتعهد الروس والباب العالي بمنع زيادة نفوذ الملك المنتخب ببولونيا على نفوذ أشراف تلك البلاد وبعدم تمكينه من جعل منصبه وراثياً في عائلته. وبذلك فقد قصد بطرس الإيقاع بين الدولة العثمانية وبولونيا إذ إنَّه كان ينوي التفريق بين جيرانه الأقوياء وإضعافهم وقد نجح لجهل بعض الوزراء العثمانيـين في ضروب السياسة. وحصلت اضطرابات سياسية في إيران فـانتهز الصدر الأعظم داماد إبراهيم باشا الفرصة واحتلَّ أرمينيا وبلاد الكرج (جورجيا اليوم) ولكن بطرس سبقه واحتلَّ إقليم داغستان وسواحل بحر الخزر ثمَّ جرى اتفاق بين الطرفين قضى باحتفاظ كل منهما بالأراضي المحتلة بتاريـخ ١١٣٦ هـ وقام الإيرانيون بصد العدوان ولكنَّ العثمانيـين احتلوا عدة مدن منها همذان وتبريز وساعد على ذلك الفوضى والصراع على الملك في إيران إلى أن تولى طهـماسب السلطة هناك فأغار على العثمانيـين ولكنَّ الدولة كانت لا تميـل للحرب فهاج الإنكشارية وأثاروا تمرداً في عام ١١٤٣ هـ بزعامة بطرونا خليل وأجبروا السلطان على قتل الصدر الأعظم وقائد البحرية وألقوا جثتهما في البحر ثمَّ عزلوا السلطان نفسه ونادوا بابن أخيه محمود الأوَّل سلطاناً وخليفة للمسلمين.

من إصلاحات السلطان أحمد الثَّالث تجـديد الـترسانـة وإنشاء المـدارس

الكثيرة وإدخال المطبعة وتأسيس دار طباعة اسكدار وترقية الصناعات وإنشاء معامل للنسيج وتأسيس فرقة للإطفاء. ومن أعماله استرجاع المورة وقلعة آزاق وفتح عدة ولايات من بلاد العجم. وألحقت داغستان في الدولة العثمانية عام ١٧٢٢ م.

السلطان محمود الأوَّل: «١١٤٣ - ١١٦٨ هـ» وهي مدة ولايته. ولد عام ١٦٩٦ م وتوفي عام ١٧٥٤ م.

وهو ابن السلطان مصطفى الثَّاني وقد ضغطت عليه الإنكشارية حتى تخلص من الوزير بطرونا محمَّد ثمَّ استأنف الحرب مع الإيرانيين وهزمهم فتركوا للدولة ما افتتحته من بلاد عدا تبريز وأردهان وهمذان. ولكن نادر خان أكبر ولاة إيران عارض ذلك وعزل الشاه طهماسب ونصَّب نفسه وصياً على العرش لصغر سن ابنه الأمير عباس الثَّالث. ثمَّ انقضَّ على العثمانيين وحاصر بغداد فتصدّى له الوزير العثماني طوبال (الأعرج) ولكن لم يستطع منع الهزيمة ممَّا أدّى إلى عقد صلح ردت الدولة بموجبه ما أخذته من بلاد إيران، ثمَّ نشبت الحرب مع روسيا بسبب بولونيا وأغار الروس على بلاد القرم واحتلوا ميناء آزاق وغيره فتصالحت الدولة مع نادر شاه وتفرغت للروس. وفي ذلك الحين تقلد منصب الصدارة رجل محنك هو الحاج محمَّد باشا فجهز الجيوش ثمَّ تمكن من وقف التقدم الروسي. ثمَّ انتصر العثمانيون على النمسا التي أغارت على بلاد البوسنة وصربيا والأفلاق وطردوها إلى ما وراء الدانوب عام ١١٥٢ هـ وأملى المسلمون المنتصرون شروطهم على النمسا واسترجعوا بلغراد والصرب والأفلاق حسب معاهدة بساروفتش السابقة الذكر أمَّا الروس فقد تعهدوا بهدم قلاع ميناء آزاق وعدم تجديدها وعدم إنشاء سفن تجارية أو حربية في البحر الأسود. وهكذا فإنَّ معاهدة بلغراد هذه أعادت للدولة شيئاً من اعتبارها بفضل الوزراء والقادة الأقوياء. ثمَّ عقدت الدولة معاهدة عسكرية مع السويد ضد روسيا. وقامت فرنسا بتجديد امتيازاتها القنصلية والمزايا الممنوحة لتجارها في عام ١١٥٥ هـ وقد أخطأت الدولة بنزعها السلطة من أشراف الأفلاق والبغدان وإعطائها لبعض أغنياء الروم من تجار استانبول الذين فرضوا جورهم واستبدادهم على الأهالي واضطهدوا الأشراف فمال السكان إلى جانب الروس لعلهم يرفعون الظلم عنهم.

توفي السلطان محمود الأوَّل عام ١١٦٨ هـ فجأة وهو يمتطي جواده بينما كان

عائداً من صلاة الجمعة عند دخوله باب السراي. وكان متّصفاً بالعدل والحلم والميل للمساواة بين الرعية واتّسع نطاق الدولة في عهده ومحي عار معاهدة كارلوفتش وأسس أربع مكتبات في العاصمة. وعدَّ مؤرخو العثمانيين عصره أفخر عصر ترقت فيه المعارف السياسية لدى العثمانيين وعندما دمر عدد كبير من مساجد العاصمة بسبب الحريق الكبير والزلازل، بادر فوراً لإعادة تجديدها ودفع أموالاً طائلة لترميم المنازل المدمرة.

السلطان عثمان الثَّالث: «١١٦٨ - ١١٧١ هـ» وهي مدة ولايته. ولد عام ١٦٩٩ م وتوفي عام ١٧٥٧ م وهو ابن السلطان مصطفى الثَّاني وأمه امرأة شديدة التدين.

وقد بدأ عمله بتعيين نشانجي علي باشا لمركز الصدارة ولكنه انحرف وثار الأهالي ضده فأمر السلطان بقتله في ١٦ محرم ١١٦٩ هـ وجرى بعده تعيين وعزل عدد من الوزراء حتى تقلَّد محمَّد راغب باشا منصب الصدارة وكان ذا مقدرة فائقة في السياسة الأوروبية وكانت له اليد الطولى في إبرام معاهدة بلغراد السابقة الذكر، ثمَّ توفي السلطان عام ١١٧١ هـ ودفن في باحة الجامع الجديد ولم يحصل ما يستحق الذكر في عهده وقد اتَّصف هذا السلطان بتفقده للرعية متنكراً بين الشوارع والأزقة ليلاً. كان يعمل بجهد وتعلَّم كتابة الخط وله لوحات رائعة. كان عصبي المزاج، شديداً، سريع الحكم. وفي عهده تجمد القرن الذهبي عام ١٧٥٥ م وشبَّ حريق هائل طال نصف مباني العاصمة.

السلطان مصطفى الثَّالث: «١١٧١ - ١١٨٧ هـ»: وهي مدة ولايته. ولد عام ١٧١٧ م وتوفي عام ١٧٧٤ م.

وهو ابن أحمد الثَّالث وفي عهده قام راغب باشا بالإصلاح فأسَّس المستشفيات والمحاجر الصحية وأنشأ مكتبة من نفقته الخاصة وفكَّر بوصل نهر دجلة بالبوسفور بحفر قناة تمر بها السفن بغية تحسين الأحوال الاقتصادية للسكان ولكن المنيَّة لم تمهل ذلك الوزير فقصفت عوده في ٢٤ رمضان ١١٧٦ هـ وبعد موته نشبت الحرب بين الدولة وروسيا وأغار خان القرم (كريم كراي) بخيله ورجاله على إقليم سربيا الجديدة وتخربت كثير من المستعمرات الروسية ثمَّ تقهقرت

الجيوش العثمانية بينما كانت تعبر نهر دنيستر[1] على جسر من المراكب لمهاجمة الروس المعسكرين على الضفة الأخرى إذ حدثت فيضانات غزيرة بصورة مفاجئة فغرقت معظم السفن وقتل حوالي ٦ آلاف جندي وحصد الروس من وصل للشاطىء الآخر منهم وتقهقر ما تبقى من الجيش بعد أن أخلى مدينة شوكزيم ثم حرض الروس الأهالي في بلاد المورة وبعدها دارت سفنهم حول أوروبا ووصلت إلى شواطىء اليونان والتقت بالعثمانيين في مضيق بين جزيرة ساقز وآسيا وانتصر العثمانيون في البداية ولكن تمكن الروس بالخديعة والحيلة من إحراق السفن العثمانية فانفسح الطريق أمامهم لمهاجمة استانبول بحراً فرأوا احتلال لمنوس[2] لتكون قاعدة لهم لمواصلة الزحف فيما بعد ولكن البارون المجري (دي توث) الذي دخل في خدمة الدولة العثمانية تمكّن من تحصين الدردنيل فاستحال مرور الأعداء منه وحول المراكب التجارية إلى حربية. وكلّفه السلطان إقامة مصنع للمدافع في العاصمة وتدريب الجند وإنشاء مدرسة لضباط البحرية ثمَّ قامت البحرية العثمانية بمهاجمة الروس المحاصرين لجزيرة لمنوس عام ١٧٧١ م فرفعوا الحصار عنها وانتصر العثمانيون براً وبحراً إلاَّ في بلاد القرم التي احتلها الروس وأعلنوا انفصالها عن الدولة تحت الحماية الروسية ولكنَّ الدولة رفضت جميع العروض والشروط الروسية بإباء وأصدرت أوامرها باستئناف القتال وانهزم الروس في عدة مواقع. وعلى الرغم من فشل عملاء الصليبية العالمية فإنَّ تآمرها لم ينقطع أبداً إذ وجد الروس شخصاً من المماليك في مصر كان قد توصل لإدارة دفة السلطة هناك وهو علي بك الكبير الذي لقب بشيخ البلد فأعلن تمرده على الباب العالي عام ١١٨٣ هـ ثمَّ بعد انقضاء سنة على تمرده انتحل لقب سلطان مصر وخاقان البحرين وأمر بذكر اسمه في الخطبة وقطع علاقاته مع الباب العالي وتلفت حوله فوجد في حاكم صفد ضاهر العمر الذي انهمك بتوسيع أملاكه بالطرق المشروعة وغير المشروعة وجد فيه حليفاً له وقام الروس بتوجيهه والتخطيط له فبعد موقعة جشمة الشهيرة عام ١١٨٤ هـ وطد الروس سيطرتهم على البحر الأبيض المتوسط واستولوا على بعض جزر الأرخبيل واستدعوا بعدها مبعوثين عن علي بك

---

(١) نهر دنيستر: ينبع من السفوح الشمالية لجبال الكربات ويتجه شرقاً ويصب في البحر الأسود قرب أوديسا.

(٢) لمنوس: جزيرة في بحر إيجة قرب الحدود التركية تقع إلى الجنوب الغربي من الدردنيل.

إلى مقر قيادتهم في جزيرة ياروس وهناك تمَّ حبك التآمر بينهما وقام علي بك بشن حملة ناجحة في البدء ودخل سوريا عام ١١٨٥ هـ واستولى على دمشق وصيدا وحاصر يافا وساعده حليفه ضاهر العمر السابق الذكر ولكنَّ القيادة غيّرت مجرى الأحداث حينما سحبت (أبو الذهب) قائد القوات المصرية وجيشه من دمشق فجأة فشرع هذا الأخير بمقاومة علي بك الذي التجأ إلى ضاهر العمر في عكا وعند ذلك أتى العثمانيون وحاصروا صيدا ولكنَّ الروس تمكنوا من رفع الحصار عنها بناءً على طلب من حلفائهم واستولوا على بيروت عام ١١٨٦ هـ ثمَّ عادوا لمد صنيعتهم مرة ثانية بالأسلحة فتحرك مرةأخرى وحارب المماليك الذين أغضبوه سابقاً فهزم وأسر ثمَّ توفي. أمَّا ضاهر العمر فقد قتل بعد حصار عكا. وأثناء الحرب الروسية شعر بالمرض.

توفي السلطان مصطفى الثَّالث في ٨ ذي القعدة في عام ١١٨٧ هـ وتولى السلطة بعده السلطان عبد الحميد الأوَّل. كان يجيد نظم الشعر، واهتمَّ بعلم الفلك ودرس تاريخ الإسلام والدولة العثمانية إلى حد بعيد، وكان يدرك أنَّ الخطر الأكبر يأتي من روسيا فعمل لذلك، وفكر بفتح قناة السويس.

السلطان عبد الحميد الأوَّل: «١١٨٧ - ١٢٠٣ هـ» وهي مدة ولايته. ولد عام ١٧٢٥ م وتوفي عام ١٧٨٩ م.

وهو ابن السلطان أحمد الثَّالث وكان رهين القصر طيلة حكم أخيه مصطفى الثَّالث لذا ذاقت الدولة الهزائم وحلَّت المصائب. وقد بدأ أعماله فعين القواد وكبار الموظفين والصدر الأعظم محسن زادة. وفي عام ١١٨٨ هـ اجتازت القوات الروسية نهر الطونة والتقى العثمانيون بالروس في مدينة شوملا فانهزم العثمانيون وطلبوا الصلح الذي عقد في مدينة كينارجي. وتمَّ الاتفاق في عام ١١٨١ هـ على استقلال تتار القرم وبسارابيا عدا بعض القلاع وأن ترد الدولة ما أخذت من البلاد التي احتلها الروس إلى خان القرم عدا بعض المواقع وأن ترد ما أخذ من أملاك الدولة بالأفلاق والبغدان وبلاد الكرج وجزائر الروم عدا بعض المواقع كذلك أصبح للمراكب الروسية بمقتضى نصوص المعاهدة حرية الملاحة في البحر المتوسط والبحر الأسود وأن تبنى لروسيا كنيسة في ضاحية بيرا في استانبول كما أصبح للروس حق حماية النصارى من رعايا الدولة التابعين للمذهب

الأرثوذوكسي. وقد عاد ذلك على الدولة بأوخم العواقب وبذلك فقد نالت روسيا أمانيها بسبب جهل السلطان ووزرائه ومحاباة الآخرين.

ثمَّ التفتت الدولة بعد تلك الهزيمة للإصلاحات الداخلية فأنشأت السفن واستعانت بأبي الذهب على ضاهر العمر كما مرَّ قبل قليل فحاصره براً كما حاصره حسن باشا البحري بحراً حتى هرب إلى جبال صفد. وقد قتل أبو الذهب أثناء محاصرة عكا ثمَّ سقطت المدينة. وبعد ذلك بدأ الروس بإثارة المشكلات في بلاد القرم ثمَّ دخلوها بسبعين ألف جندي ضاربين عرض الحائط بمعاهدة كينارجي. ولكن الدولة فضلت قبول مشورة فرنسا وعدم التورط بالحرب والاعتراف بضم القرم لروسيا وكان ذلك عام ١١٨٨ هـ. وبدأ الروس يحصنون ميناء سباستبول[١] وإنشاء ترسانة عظيمة في ميناء كرزون وفي عقل ملكتهم كاترينا الوصول إلى استانبول حتى إنَّها حينما جالت في بلاد القرم وجنوبي روسيا أُقيمت لها الاحتفالات الضخمة وكتب على أقواس النصر في حينها (طريق بيزنطة) واتصلت لأجل غايتها تلك أثناء ذلك مع ملك بولونيا وامبراطور النمسا وعندما استغلت النمسا الوضع وأعلنت الحرب على الدولة وحاولت احتلال بلغراد منيت بخيبة أمل واندحرت إلى تمسوار. وانتصر العثمانيون وهو نصر (سيبس) ومنح السلطان لقب غازي. ولكن عندما سقطت قلعة أوزي بعد دفاع مستميت قتل النمساويون ٢٥ ألف من السكان عسكريين ومدنيين. ثمَّ توفي السلطان عبد الحميد الأوَّل عام ١٢٠٣ هـ بعد أن أُصيب بالشلل وعمره ٦٤ سنة وقبره في بهجة قابي.

السلطان سليم الثَّالث: «١٢٠٣ - ١٢٢٢ هـ» وهي مدة ولايته. ولد عام ١٧٦١ م وتوفي عام ١٨٠٨ م.

وهو ابن السلطان مصطفى الثَّالث. تسلم السلطة واليأس مستولٍ على العباد نظراً لتدهور حالة البلاد، فقد تحالف الروس والنمساويون وتغلبوا على العثمانيين مرتين في عام ١٢٠٣ هـ كما استولى الروس على مدينة بندر الحصينة ومعظم بلاد الأفلاق والبغدان وبسارابيا وقام النمساويون باحتلال بلغراد وصربيا. ولكن سرعان ما انفصمت عرى ذلك التحالف بعد وفاة أمير النمسا وأدّى خطر انتشار الثورة الفرنسية التي هددت عروش ملوك أوروبا إلى طلب

---

(١) سباستبول: مدينة على شاطئ البحر الأسود جنوبي شبه جزيرة القرم.

النمسا الصلح مع الدولة العثمانية وقد عقدت معاهدة بالفعل في ٢٢ ذي الحجة عام ١٢٠٥ هـ ردت النمسا بموجبها بلاد الصرب وبلغراد ومعظم ما احتلته إلى حظيرة الدولة. أمَّا الروس فقد استمروا بعدائهم وشن الحملات واستولوا عنوة على مدينة إسماعيل(١) وذلك في عام ١٢٠٥ هـ وارتكبوا فيها الفظائع والأعمال الوحشية وقتلوا النساء والأطفال فقد تقدم الجنرال «سواروف» وحاصر قلعتها الحصينة وقطع عنها الإمداد ثمَّ استولى عليها بعد قتال عنيف وقتل غالب حاميتها وسكانها بكيفية وحشية ولم يفرق بين رجل وامرأة وطفل ودام القتل ثلاثة أيام بلياليها سقط خلالها ما ينوف عن ثلاثين ألف شهيد. وحينما وصل نبأ الكارثة إلى استانبول هاج الشعب ضد حسن باشا البحري المكلف بحمايتها وطلبوا إعدامه فأمر السلطان بقتله فقطع رأسه. ثمَّ بتوسط من قبل الدول الأخرى تمَّ الصلح بين الطرفين عام ١٢٠٦ هـ وامتلكت روسيا بموجبه بلاد القرم نهائياً وجزءاً من بلاد (القوبان) و (بسارابيا) وبعض الأقاليم الأخرى بحيث يصبح نهر دنيستر فاصلاً بين الدولتين كما تنازلت الدولة عن مدينة (أوتشاكوف) وذلك بموجب المعاهدة التي أطلق عليها اسم معاهدة (ياش).

ثمَّ التفتت الدولة بعد ذلك إلى إصلاح شؤونها الداخلية وخاصة الجيش فطاردت قراصنة البحر بغية إصلاح التجارة كما أصلحت الثغور وبنت القلاع والسفن الحربية الحديثة وصنعت المدافع باستحضار المهندسين السويديين والإفرنسيين وأصلحت مدارس الحربية والمدفعية وترجمت المؤلفات العسكرية الحديثة ووضعت أنظمة للجيش على أحدث طراز وأسست الفرق العسكرية النظامية الحديثة بقصد الاستغناء عن الإنكشارية فيما بعد. ونتيجة لضعف الدولة وسلطتها استبدَّ بعض الولاة بولاياتهم وسعوا للاستقلال ورفضوا دفع الأموال للخزينة. كما استبدَّ المماليك برئاسة أمرائهم في مصر وخاصة مراد بك وإبراهيم بك وعثمان البرديسي وظهرت بعض التمردات كفتنة عثمان باشا والي ودين الملقب بباوزندا أوغلي والذي قضي على تمرده بعد أن استمالته الدولة إليها.

الحملة الفرنسية على مصر:

لقد استغلَّت فرنسا انشغال الدولة العثمانية في حروبها مع النمسا وروسيا

---

(١) إسماعيل: مدينة في الاتحاد السوفيتي السابق وأكرانيا اليوم ـ تقع إلى الجنوب الغربي من أوديسا في مولدافيا السوفيتية قريبة من الحدود الرومانية والبحر الأسود.

وحالة الوهن التي أصابتها نتيجة الحروب والمشكلات الداخلية وبدافع من الحقد الصليبي الدفين. كما أغراها الموقع ذو الأهمية الخاصة لبلاد مصر ووجود طريق الهند. فعلى الرغم من أنَّ قناة السويس كانت غير موجودة في ذلك الحين إلاَّ أنَّ البضائع والمسافرين كانت تنتقل على ظهور الجمال من الإسكندرية إلى السويس عبر الصحراء في تلك الطريق القصيرة التي كانت تتبعها بريطانيا للوصول إلى مستعمراتها... ولذلك فقد أراد النفوذ الفرنسي اكتساب جبهة صلبة ضد بريطانيا في تلك المنطقة خاصة وقد أزعجهم موقفها ضد الثورة الفرنسية آنذاك ـ كما أنَّ الحروب التي نشبت بين الدولتين خرجت فرنسا بنتيجتها وقد خسرت معظم مستعمراتها خاصة في الهند وكندا فأرادت أن تعوض عن ذلك على حساب إنكلترا التي أجبرتها على ترك مواقعها. وظنت فرنسا أنَّ احتلالها لمصر سيجعل إنكلترا تركع أمامها على ركبتها ـ وبناءً على ذلك فقد صدرت الأوامر لبونابرت في عام ١٢١٣ هـ باحتلال مصر بدون إعلان حرب وخفية عن أعين بريطانيا. فجهز الجيش في مدينة طولون وقوامه ٣٦ ألف محارب مدرب اكتسب خبرته في معارك فرنسا وإيطاليا بالإضافة إلى عشرة آلاف بحار وبصحبته ٣٠ سفينة حربية ومراكب وسفن صغيرة أخرى و ١٢٢ عالماً من مختلف الاختصاصات. وما أن وصل مالطة حتى احتلها سريعاً واصطحب بعض العرب المقيمين هناك كمترجمين ورواد في غزوته ثمَّ وصل إلى ميناء الإسكندرية وأنزل الجند قربها ثمَّ احتلها تاركاً فيها القائد كليبر وقصد القاهرة عن طريق الصحراء بعد قهر المقاومة، فتقابل في ٢٩ محرم عند مدينة (شبرا) مع مراد بك فهزمه ثمَّ وصل إلى (أنبابه) مقابل القاهرة وأثناء وجوده هناك قام أمراء المماليك بنقل أمتعتهم إلى بيوتهم الصغيرة غير المعروفة وإلى الأرياف واستمروا بذلك طوال الليل فخاف أهل البلد حينما رأوا ذلك واستعدَّ الأغنياء أصحاب المقدرة على الهرب ولكن الأمراء منعوهم. ثمَّ جمع الناس الأموال ولم يشح بها أحد وخرج الفقراء بالطبول ولم يبق في القاهرة سوى النساء والضعاف وخرج معظم الرعايا بالعصي حينما شحَّ البارود وتحول الناس كلهم إلى بولاق حيث نصب إبراهيم بك خيمته هناك. أمَّا الريف فقد أغار عليه العربان وقطعوا الطرقات «... وطلب أمراء مصر التجار من الإفرنج بمصر فحبسوا بعضهم في القلعة وبعضهم بأماكن الأمراء، وصاروا يفتشون في بيوت النصارى الشوام والأقباط والأروام والكنائس والأديرة على الأسلحة، والعامة لا

ترضى إلاَّ أن يقتلوا النصارى واليهود. . .»[1] ثمَّ كثرت الإشاعات عن تحـرك الفرنسـيين ولم يستطلع أحد عن تحركاتهم ومراكزهم ومن سوء التدبير وإهمال أمر العدو فإنَّ (مراد بك) و (إبراهيم بك) لم يبرحا مكانهما وبقيا بدون تحصين، أمَّا الجند فكانت قلوبهم متنافرة وعزائمهم منحلة وحرصوا على حيـاتهم ورفاهيتهم واحتقروا شأن عدوهم. ثمَّ جرت اشتباكات وتقدم الفرنسيون بقوة قدرها ستة آلاف مقاتـل وحين اقترابهم مـن متاريس مراد بك جرى رمي المدفعية وكثر الصراخ وكأنَّهم يقاتلون بصراخهم فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك. ثمَّ هزم العسكر وغرق الكثير في النيل وفرَّ مراد بك إلى الجيزة ثمَّ ذهب إلى الجهة القبلية ثمَّ خرجت النساء من مصر ليلاً إلى الصعيد وبعضهنَّ شرقـاً وهنَّ ماشيـات حاسرات وأطفـالهنَّ على أكتـافهنَّ يبكين في ظلمـة الليل واستمروا بذلك طوال الليل والصبح فلمَّا وصلوا إلى خارج البلد تلقتهم العربان والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وكانت ليلة في غاية الشناعة لم يسمع بمثلها من قبل. . ثمَّ سكن نابليون بيت محمَّد الألفي الفخم، وبعد ذلك عينَّ الفرنسيون رجلاً نصرانياً رومياً من أسافل النصارى بمصر في مركز عال كما قلدوا شخصاً إفرنجياً جعلوه أمين البحرية ثمَّ سكنوا في البيوت وامتلأت المدينة بعسـاكرهم وفتح النصارى عدة دكاكين وخمارات ومقاهي[2] أمَّا أسر المماليك فقد اقتيدوا إلى الأزهر بثيابهم الزرق الممزقة وصار ينفق عليهم من الصدقات بعد أن تشفع لهم أرباب الديوان[3] وبعد ذلك احتلَّ الفرنسيون (بلبيس) بدون قتال[4] وقد وجه بونابرت قبل أن يدخل القاهرة نداءً عجيباً غريباً فيه تلاعب بالعواطف الدينية الإسلامية مبطناً بالتهديد والوعيد فصور نفسـه كمسلم حقيقي يذب عن حمى

---

(١) راجع كتاب تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي ـ المجلد الثَّالث.

(٢) لقد كانت تلك الخطة وما تزال غاية المستعمر الأجنبي حينما يدخل بلاد المسلمين فينصِّب عملاءه من الأقليات الموالية له في المناصب الهامة ويفسح لها المجال بنشر الدعارة والمحرمات والـطرائق الدخيلة على عادات المسلمين والمخالفة لشريعتهم وكثيراً ما يعطيهم السلاح ليحاربوا فيـه أبناء البلاد ويسيطروا فيها على الرغم من قلتهم الضئيلة.

(٣) تلك هي عاقبة كل طغيان وتجبر ومهما طال الزمن في الحاكم المستبد المنغمس في الترف والملذات والمستهتر بأوامر الله والذي يغمض عينيه عن احتياجات الشعب ومتطلباته فلا بد أن يلاقي مصيره المحتوم نتيجة ما قدمت يداه.

(٤) يراجع في طلب تفاصيل الوقائع أيضاً كتاب الجبرتي تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار.

الإسلام صديقاً للسلطان مقتصاً من المماليك محتجاً بضرورة الدفاع عن المقيمين الفرنسيين هناك مستهلاً نداءه بآيات من القرآن الكريم ومما قاله: يا أيها المصريون قد قيل لكم إني ما نزلت بهذه الطرق إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمغترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالىٰ وأحترم نبيه والقرآن العظيم.. أيها المشايخ والقضاة والأئمة والأعيان قولوا لأمتكم إنَّ الفرنسيين هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان يحث النصارى على محاربة الإسلام... ومع ذلك فالفرنسيون في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان وأعدا أعدائه أدام الله ملكه»[1] ثمَّ تلا ذلك أوامر عملية دقيقة تقضي بطاعة الجيش الفرنسي وتحذير بالحرق بالنار لكل قرية تعلن المقاومة.

لقد كان أسلوب المماليك في مقاومة الاحتلال تقليدياً وقديماً وهذه إمكاناتهم وما يملكون فاحترقت سفنهم وعلى الرغم مما كان عليه المماليك فإنهم كانوا يحاربون أحياناً بشجاعة فائقة باعتراف نابليون نفسه وقد قال: «لا شك أنَّ مملوكين يتفوقان على ثلاثة من الفرنسيين...» وقد أسهم سكان القاهرة مساهمة فعالة بالدفاع عنها وجمعت التبرعات لشراء الأسلحة وشكلت كتائب المتطوعين غير أنَّ الأسلحة لم تكن كافية فتقهقر المدافعون ودخل بونابرت القاهرة وأرسل فرقة لاقتفاء أثر المماليك في الصعيد كما أرسل فرقة أخرى لاحتلال مدينة القصير على البحر الأحمر. وقد سقط في معركة أنبابة الشهيرة ٣٠٠٠ قتيل من مجموع ٦ آلاف محارب وهرب الباقون بعضهم إلى الوجه القبلي والباقي إلى سوريا وغرق أثناء التراجع الألوف من سكان القاهرة في النيل. وفي ١٧ صفر ١٢١٣ هـ علم نابليون نبأ موقعة (أبي قير) البحرية إذ دخل الأسطول الإنكليزي بقيادة الأميرال (نلسن) خليج أبي قير ودمَّر الأسطول الفرنسي هناك وترك نابليون وجنده بدون اتصال

---

(١) لقد تردد في تاريخ هذه الأمَّة ولا يزال أمثال ذلك الأنموذج بعضهم من الغرباء عنها ولكن أكثرهم من أبناء جلدتها على الرغم من كونهم خارجين على عقيدتها. بعضهم ادّعى التدين وتظاهر به ولكن بدون ارتداء الجبة أو العمامة كما فعل بونابرت. ثمَّ لوحوا بشعارات الإسلام ولكنهم أشهروا سيف الغدر وأعملوه في رقاب الدعاة الصادقين من أبنائها لشعورهم بأنَّ الخطر الحقيقي الذي يهدد سلطان الطواغيت والجبابرة إنَّما يكون في العودة إلى تحكيم شريعة الله في كل مناهج الحياة وعندها يتحرر الإنسان وتتحقق العدالة.

منظم مع فرنسا الأمر الذي وضع مصير تلك الحملة في كفة القدر ولما علمت الدولة العثمانية بالهزيمة الفرنسية أرسلت تهنئ الأميرال نلسن وأحسنت إليه بحلة فاخرة من جلد السمور وبعقد من الجواهر الثمينة و ٢٠٠٠ ليرة عثمانية ذهبية لتوزع على الجنود. وسمى نابليون نفسه (علي بونابردي باشا) ولبس الزي الذي اعتاد المشايخ ارتداءه وتردد على المساجد وتظاهر أحد قواده أيضاً وهو جان مينو باعتناق الإسلام وسمى نفسه (عبد الله). وفرض نابليون على الأهلين الضرائب الباهظة والأتاوات النقدية والعينية والغرامات الاستثنائية وصادر جميع احتياطات الأغذية والعلف..

وحينما علم العثمانيون باحتلال مصر أخذوا بالاستعداد، وعرض عليهم الإنكليز المساعدة لخوفهم على طريق الهند من أن يقع نهائياً بأيدي الفرنسيين كما قامت الروسيا بالغرض نفسه ثمَّ أعلنوا الحرب رسمياً على فرنسا في ٢١ ربيع الأوَّل من عام ١٢١٣ هـ وحشدت الجيوش في دمشق ورودس وتحرك الروس من البحر الأسود لاستانبول فالبحر الأبيض وفي الوقت نفسه كانت روح المقاومة لا تهدأ في القاهرة أبداً، وتشجع الأهلون حينما علموا بإعلان الحرب من قبل استانبول على الفرنسيين وهجموا على المفارز والدوريات الفرنسية وقتلوا الضباط وموظفي الميرة، فردَّ الفرنسيون بحرق القرى ولكن ثورة القاهرة كانت تزداد تأججاً وأبيد الكثير من الفرنسيين، فانسحبوا منها وفرَّ نابليون إلى جزيرة قريبة واجتمع ١٥ ألف ثائر في الأزهر وأقاموا الحواجز، ولكنَّ أولئك الأعداء قاموا بإصلاء المصلين المجتمعين في المسجد نيران أسلحتهم فقتلوا الآلاف وقطعوا رؤوس ستة من زعماء الانتفاضة ورفعوها على الحراب وطافوا بها في الشوارع. وحينما شعر نابليون بتحرك العثمانيين عزم على احتلال بلاد الشام للخروج من مأزقه ووجه ١٣ ألف محارب ساروا بقيادته عن طريق العريش فاحتلها ثمَّ احتلَّ غزة ووصل إلى الرملة ثمَّ يافا بعد مقاومة وأمر بقتل ألفي مسلم ألباني تولوا الدفاع عنها بشكل يخالف قوانين الحروب وهناك أمر بقتل جميع المرضى والجرحى من جيشه لكي لا يكونوا عائقاً في تحركه ثمَّ حاصر عكا براً ولم يتمكن من احتلالها لوصول الإمداد إليها بحراً ولتيقظ قائد حاميتها أحمد باشا الجزار لكنَّه هدم بروجها بمدافعه. ثمَّ بلغه نبأ تحرك الجيش العثماني من دمشق فأرسل نائبه كليبر باتجاه الشمال لمنعه والتقى الطرفان عند جبل طابور وكاد النصر يكون حليف العثمانيين

لولا وصول بونابرت بثلاثة آلاف مقاتل هاجموهم من الخلف. ثمَّ عاد لعكا وعلم عندها بتقدم الجيش من رودوس فيئس وعاد للقاهرة بعد تفشي الطاعون في معسكره وبعد سبعين يوماً من الحصار. ثمَّ نزل جيش رودوس بأبي قير وهو مؤلف من ١٨ ألف مقاتل فتغلب عليهم بونابرت وأسر قائدهم مصطفى باشا ولكنه سافر خفية إلى فرنسا بغية وصوله إلى هدفه في رئاسة الجمهورية الفرنسية وترك كليبر نائباً عنه وبقي جيشه بدون سفن تحميه ونقص عدده إلى ١٥ ألفاً، ولمَّا يئس كليبر طلب الصلح مع الباب العالي والإنكليز عام ١٢١٥ هـ مقابل الانسحاب والإخلاء بالسفن الإنكليزية ولكن حدث اختلاف مع الإنكليز، ثمَّ تقابل مع الجيش العثماني وانتصر كليبر وعاد للقاهرة فوجدها في قبضة الأمراء المصريين فضربها بالقنابل لأنَّ سكان القاهرة أبادوا الفرنسيين فدمَّر ٤٠٠ بيت وقتل الآلاف. ثمَّ اغتيل كليبر على يد سليمان الحلبي الذي أرسله العثمانيون سراً إذ طعنه بخنجره عدة طعنات أرداه قتيلاً فحكمت عليه المحكمة العسكرية الفرنسية بحرق يده ومن ثمَّ أعدمته وأعدمت أربعة من علماء المسلمين أيضاً بقطع رؤوسهم. وقابل سليمان الموت ببسالة ووضع يده على النار الملتهبة ولم ينبس ببنت شفة حينما كانت تحترق كما كان باسلاً طيلة الساعات الأربع والنصف التي قضاها بعدها. ثمَّ عين الجنرال مينو السابق الذكر بدل كليبر. وبعد ذلك أنزل العثمانيون والإنكليز بعد علمهم بموت كليبر ثلاثين ألف مقاتل في أبي قير أواخر عام ١٢١٥ هـ، فانهزم أمامهم مينو وتحصن بالإسكندرية فحاصروه الإنكليز وساروا إلى القاهرة مع العثمانيين وأنزلوا قواتهم في الوقت نفسه على ساحل البحر الأحمر وتفشّى الطاعون حينها في الحاميات الفرنسية فاستسلمت قواتهم في القاهرة والإسكندرية فعقد اتفاق بين الطرفين. ثمَّ سار الفرنسيون إلى ثغر رشيد وأبحروا منها على سفن إنكليزية، أمَّا مينو فقد بقي محاصراً في الإسكندرية ولم يستسلم إلَّا في ربيع الآخر عام ١٢١٦ هـ إثر موقعة عسكرية ثمَّ سافر على سفن إنكليزية. وبذلك انتهت تلك الحملة بالفشل التام ووقع بونابرت على إثرها مشروع معاهدة مع الدولة العثمانية تؤيد امتيازات فرنسا في الشرق.

الفتن الداخلية:

جرت في عهد السلطان سليم الثَّالث بعض الاضطرابات والفتن ففي بلاد الصرب عاث الذين انخرطوا في سلك الجندية وهم الذين تدربوا في بلاد النمسا

أثناء رجوعهم، الفساد والتخريب وساعد على ذلك استبداد حكامها من السباه فلاقوا اضطهاد الإنكشارية فاشتكى الأهلون للدولة فأمر الوالي وأخرجهم من بلغراد ولكنهم عادوا إليها وعاثوا الفساد واضطهدوا العباد ولكنَّ الصرب طاردوهم وأبعدوهم بقيادة جورج بتروفتش[1] ومعاونه والي الهرسك، ثمَّ بدأ بتروفتش يثير القلاقل والفتن ضد الدول. أمَّا في ألبانيا فقد ثار والي (يانية) (في جنوبها) علي باشا وهو ابن أحد بيكوات الأروام الذين اعتنقت عائلاتهم الإسلام في أوائل الفتح الإسلامي ـ ثمَّ قاد العصابات بإيعاز من روسيا وبدسائسها بدعوى الوطنية، والحقيقة أنَّها كانت لممارسة السلب والنهب. ثمَّ اقتضت مصلحته موالاة الدولة فطلب تعيينه حاكماً على بعض جهات أبيروس العليا من بلاد اليونان وقبل الباب العالي بذلك لإطفاء الفتن. ثمَّ عين والياً على (يانية) عام ١٢١٣ هـ فحارب الفرنسيين وانتصر عليهم ودخل مدينة (بروازة) عنوة وأعاد النظام لألبانيا فكوفىء بولاية الروملي، ثمَّ حارب أهالي مكدونيا الذين حرضهم الروس ضد الدولة وانتصر عليهم ولكنَّ الغرور داخله وأظهر الميل إلى الانفصال وتحصن في بلاد (أبيروس). لم يتمكن الإنكشارية من كبح جماح الثورات في بلاد الروملي فأراد السلطان تجربة الجيوش النظامية فأرسل عام ١٢١٩ هـ بعض الفرق إلى تلك الجهات فأبلت بلاءً حسناً وطهرت الروملي وأعادت السكينة فرغب على إثرها في إدخال الإنكشارية ضمن الفرق النظامية الجديدة ولكنهم رفضوا وتمردوا ولم يتمكن من أخضاعهم، وفي الوقت ذاته لم تهدأ الاضطرابات السائدة في بلاد الصرب واستمرت حتى أواخر عام ١٢٢١ هـ ورفضت الدولة عرض (بتروفتش) ممَّا أدى إلى نشوب حرب بين الدولة وروسيا سنأتي على ذكرها.

العلاقات مع فرنسا وروسيا وإنكلترا:

قام بونابرت بعد رجوعه إلى بلاده بإرسال الجنرال (سبستياني) إلى (استانبول) لتجديد علاقات الود بين الدولة العثمانية وفرنسا. وقد سعى أثناء إقامته هناك في عزل أميري الأفلاق والبغدان المؤيّدين لروسيا فتفاقمت الأزمة بين العثمانيين والروس نتيجة لذلك ونشبت الحرب بينهما فانحازت إنكلترا إلى جانب

---

(١) وهو من مواليد بلغراد عام ١١٨٥ هـ وقد لقّب بقره جورج أي الأسود وهو أول من طالب باستقلال صربيا هاجر إلى روسيا ثمَّ حاول الرجوع وأثار الفتن فقبض عليه وقتل.

روسيا وأرسلت أحد أساطيلها باتجاه الدردنيل وقدمت مطالب للباب العالي فرفضها فاجتازت قواتها المضيق ووصلت إلى غاليبولي ودحرت كافة السفن العثمانية الموجودة هناك وانتظرت في بحر مرمرة الأوامر الجديدة لدخول البوسفور فوقع الرعب في سكان العاصمة وهاج الناس هناك فأذعنت الدولة لطلب الإنكليز وطلبت من السفير الفرنسي (سبستياني) الخروج من استانبول ولكنه تمكن من إقناعها بنية فرنسا بدعمها عسكرياً للوقوف في وجه الإنكليز وعندها بدأ تحصين العاصمة وتسليحها واشترك الشيوخ والأطفال والنساء، وكان السلطان على رأس المدافعين وأنجز العمل في أيام قليلة ولمّا رأى القائد الإنكليزي (فريزر) جدية الاستعدادات والعزم على الصمود خاف من انحصار قواته بين المضيقين ورجع إلى البحر الأبيض المتوسط في ٢٠ ذي الحجة من عام ١٢٢١ هـ، بعد أن خسر من رجاله ٦٠٠ جندي وغرقت له سفينتان فأراد محو عار تلك الهزيمة وقصد الإسكندرية ومعه ٥٠٠٠ جندي بري واحتلها في ١٠محرم عام ١٢٢٢ هـ، وسيّر فرقة أخرى إلى رشيد لاحتلالها ولكنه هزم فأعاد الكرة عليها في الشهر التالي فلم يتمكن من احتلالها فرجع يجر أذيال الخيبة والهزيمة. ويقول الجبرتي في وصف تلك الوقائع: «إنَّ ٤٢ مركباً حوالي النصف منها كبيرة والباقي صغيرة ظهرت وحينما اقتربوا من الشاطئ وطلبوا من الحاكم الطلوع إلى الثغر للمحافظة عليه من الفرنسيين فرفض الحاكم والقنصل طلبهم إلاَّ بمرسوم سلطاني فقالوا لهم لا بد من ذلك ولو اقتضى الأمر استعمال القوة وأمهلوا المسؤولين ٢٤ ساعة فاجتمع أعيان مصر وتشاوروا وطلبوا إحضار محمَّد علي باشا وعسكره بغية الاستعداد وشاع الخبر وكثر لغط الناس وانقضت الأربع والعشرون ساعة فضرب الإنكليز بمدافعهم على المدينة فهدم جانب من البرج الكبير والأبراج الصغيرة والسور عند ذلك طلب الأهالي الأمان ودخل الإنكليز البلدة. ثمَّ وردت الأخبار بأخذ الإسكندرية واستيلاء الإنكليز عليها يوم الخميس في ١٩ محرم... وقد قيل إنَّ ورودهم ومجيئهم لم يكن طمعاً في أخذ مصر بل كان لمساعدة الألفي ضد أخصامه لأنَّه استنجد بهم ثمَّ توفي الألفي ولمَّا علموا بموته استدعوا الأمراء القبليين ليكونوا عوناً لهم فرفض بعضهم. وفي يوم الجمعة ٢٦ محرم وردت أخبار من ثغر رشيد تذكر بوصول الإنكليز وكان أهل البلدة منتبهين وكذلك العسكر فضربوا عليهم من كل ناحية فألقوا أسلحتهم وطلبوا الأمان ولكنهم قبضوا عليهم وذبحوا بعضهم وأسروا الباقين وأرسلوا رؤوسهم إلى القاهرة واستبشر الناس لأنَّهم أخصام

السلطان وأعداء الدين والمِلَّة وتشاوروا بشأن تحصين المدينة. ثمَّ وصلت الأخبار من رشيد تقول برجوع الإنكليز خائبين وتطالب بالإمداد...». وهكذا تكشفت الأطماع الإنكليزية في محاولتهم البقاء في مصر بقدر حيل الفرنسيين، باستغلالهم ظروف الدولة العثمانية، ولم تكن علامات الود التي أظهروها إلَّا لإبقاء النفور بين العثمانيين والفرنسيين، تحقيقاً لمصالحهم الخاصة من جهة ولضرب العثمانيين من جهة أخرى.

محمَّد علي باشا وحكمه في مصر:

كان محمَّد علي ضمن الوحدة الألبانية التي أتت لمحاربة الفرنسيين في مصر وقد شهد موقعة أبي قير ثمَّ عين برتبة قائد بعد أن قتل قائد الفرقة الألبانية طاهر باشا وكان من قبل معاوناً له وقد بلغ تعداد فرقته ٤ آلاف مقاتل بعد خروج الفرنسيين وسرعان ما وقع النفور بينه وبين الوالي خسرو باشا الذي قتله الإنكشاريون وعينوا بدلاً عنه أحمد باشا الذي كان قاصداً مصر في طريقه إلى الحجاز ولكنَّ محمَّد علي أراد تنفيذ مخططاته الاستئثارية فاستجلب بعض أمراء المماليك مثل البرديسي وغيره إلى القاهرة وبعدها حاصر أحمد باشا وطرده من مصر ثمَّ سلط الألبان على الإنكشارية فقتلوا معظمهم ففرغت له الساحة بعد أن سافر إلى دمياط بصحبة البرديسي لمحاربة خصومه فانتصر عليهم وعاد الألفي في حينها من إنكلترا بعد أن أجرى اتصالات معه علماً أنَّه أجرى اتصالات مع الإنكليز لمساعدته على تولي السلطة في مصر مقابل إعطائهم بعض المواقع فخشي محمَّد علي من اتفاق الألفي والبرديسي ضده فعمد إلى التفريق بينهما وأهاج الناس ضد البرديسي، ثمَّ أطلق مدفعيته على قواته وأخرجه وكافة المماليك، ونصَّب الجند خورشيد باشا ومحمَّد علي نائباً عنه ثمَّ انتخب محمَّد علي بعدها والياً في ١٠ ربيع الثَّاني عام ١٢٢٠ هـ. ونتيجة لبعض الحوادث صبَّ الشعب في مصر نقمته على الألبانيين ولكن محمَّد علي انحاز إلى جانب الأهلين وخطب في الأزهر ووعد العلماء ببذل الجهود للوقوف إلى جانبهم وبذلك دعم مركزه أكثر من السابق وتولى الدفاع عن القاهرة حينما حاصرها المماليك. وحينما أحسَّ الباب العالي بمطامعه استدعاه آمراً إيَّاه العودة إلى وطنه ولكنَّه رفض.

وفي عام ١٢٢٠ هـ لاحق المماليك حتى الوجه القبلي وازدادت شعبيته أمام الظلم الذي قام به جنود الإنكشارية فاعترف به السلطان سليم الثَّالث والياً على

مصر لكونه منهمكاً آنذاك في شؤون أُخرى وحركات انفصالية في صربيا.

ونتيجة لاستغلاله الصراع الإنكليزي الفرنسي على النفوذ، وانحيازه المرحلي إلى جانب دون الآخر والتخلص من أخصامه وعملاء النفوذ الواحد تلو الآخر برز بشكل أكبر وازدادت شعبيته بعد جلاء الإنكليز عن الإسكندرية وصنع منه بطلاً حرر مصر من الأجانب. ثمَّ قام بتطبيق بعض مخططات خاصة به ووضع يده على أراضي المماليك وقسَّم الكثير من الأراضي ووزعها وفلاحيها ولكن على أقاربه وكبار رجاله وموظفيه وضباطه. ثمَّ استملك أراضي الأوقاف الإسلامية فأثار عمله هذا التذمر والسخط بين العلماء فنكل بهم وشردهم. ثمَّ استدعته الدولة العثمانية لتأديب الوهابيين بقصد القضاء عليهم وإضعاف شوكتهم. وذلك عام ١٢٢٦ هـ الموافق ١٨١١ م فنكل بهم كما سيمر معنا وقام بحملاته الشهيرة على سوريا والسودان واليونان وسيرد ذكرها مفصلاً.

لم تكن أطماع محمَّد علي باشا في البلاد العربية حقاً إلَّا أطماعاً شخصية وراء دافع شهوة الملك والسيطرة، كما لا يخفى أنَّ التفاته نحو سوريا لم يكن إلَّا من باب حماية الجناح الشرقي له، إذ إنَّ الجيوش العثمانية كانت تهدده من ذلك الجانب، كما استهوته مواردها الطبيعية من الحرير والقمح والصوف وزيت الزيتون والفواكه والأخشاب فكانت بذلك تشكل سوقاً كبيرة لمصر. ومن جهة أُخرى كان لفرنسا أطماعاً في الشمال الإفريقي المسلم فلم يجدوا أمامهم غيره، يستخدموه ضد الدولة العثمانية، كي يتمكنوا من تحقيق مآربهم وقد وعدوه بالدعم والتأييد إذا قام بمحاربة العثمانيين، بل طلبت منه فرنسا احتلال الجزائر لمصلحتها ولكنه خاف من نقمة المسلمين عليه فرفض ولكنه لم يمانع من قدوم جيش فرنسي للغرض نفسه، لقد استغلوا هزيمة (نفارين) البحرية والمدة المنقضية بين إلغاء الجيش الإنكشاري العثماني والتشكيلة الجديدة من قبل السلطان محمود، والحرب الروسية التركية ودفعوا به إلى التمرد حتى لا تستطيع الدولة العثمانية دعم الجزائر في كفاحها ضد الفرنسيين، فقام بالتظاهر بأنَّه ضد والي عكا وتقدم نحو غزة ويافا بدون مقاومة وقام بمحاصرة عكا لمدة ستة أشهر كما سنذكره في حينه... ولم يكن حكم ابنه إبراهيم في سوريا بالذي يبغي العدل والإصلاح بل تميز بفرض السخرة والضرائب الباهظة على الفلاحين كي يبني القلاع والحصون في وجه العثمانيين. وقد كان متساهلاً في الأمور الدينية ومنح النصارى في بلاد الشام امتيازات خاصة

وسمح للإرساليات التبشيرية بالعمل هناك وكانت مصروفات جيش محمَّد علي السنوية ٢٨ مليون فرنك بينما كانت نفقاته الشخصية فقط ٣,٥ مليون فرنك. كما أنَّ أجور كافة العمال ونفقات المعامل مجتمعة لم تتجاوز ٢,٧٥ مليون فرنك فقط. كما كان على الفلاح أن يعمل في السنة ستين يوماً سخرة في أراضي محمَّد علي.

بذل السلطان سليم الثَّالث جهده في إلغاء الإنكشارية وتنظيم العساكر على الطريقة الأوروبية الحديثة، فلم يرق هذا الإجراء الفصائل الإنكشارية فثاروا في استانبول واعتصموا فيها بعد أن هاجوا وماجوا، وساعدهم رجال مسؤولون في الدولة فضلاً عن قطاع واسع من الأهلين، وعضدهم شيخ الإسلام «عطاء الله أفندي» وقائمقام الصدر الأعلم وحرضوهم سراً وألقوا في أذهانهم غرابة النظام الجديد وأنَّ من تشبه بقوم فهو منهم. وانتقم الإنكشارية بقتل بعض الوزراء وشرعوا في النهب والقتل، وأعطاهم المفتي كشفاً بأسمائهم.

السلطان مصطفى الرابع: «١٢٢٢ - ١٢٢٣ هـ» وهي مدة ولايته. ولد عام ١٧٧٩ م وتوفي عام ١٨٠٨ م.

وامتدت سلطنته لسنة واحدة فقط. وهو ابن السلطان «عبد الحميد الأوَّل»، وكان ممثلاً للأفكار القديمة ومناوئاً للنظام الجديد، أو ربما كان دريئة تدرَّأ بها أعداء الإصلاحات الجديدة. وقد اضطرَّ لنبذ الإصلاحات بضغط من العساكر، فتأخرت الدولة نصف قرن آخر من عمر الزمان في مدة حكمه القصيرة. وعاد الإنكشارية إلى ثكناتهم، وأعادوا قدورهم التي أخرجوها خارج الثكنات، دلالة على حصول الهدوء والراحة، إلَّا أنَّ الحالة كانت أقرب إلى الفوضى واغتصاب الأموال وتسلّط العساكر.

ولَّما كانت الجيوش العثمانية منشغلة في قتال الروس عند نهر «الطونة» دخل الفرح والسرور على قلب الإنكشارية لإبطال النظام الجديد، وقاموا بقتل قائدهم العام، الصدر الأعظم «حلمي إبراهيم باشا» لأنَّه لم يجنّد للعودة إلى القديم، ونصّبوا «شلبي مصطفى باشا» لكن من حسن الحظ أن كانت جيوش الروس تنشغل في خطر «نابليون»، فلم تلتفت للفوضى الحادثة في جيوش الدولة.

وعندما تقهقر الروس أمام جيوش «بونابرت»، أخلوا ولاية البغدان، ولم تلبث أن وقّعت معاهدة «تلسيت» عام ١٢٢٢ هـ الموافق ١٨٠٧ م، وجاء في

بنودها، كف الروس عن قتال الدولة العثمانية، حتى يتوسط «نابليون» بين الطرفين، وبمجرد ما توقّع الهدنة الابتدائية، تخلي جيوش الروسيا، ولايتي الأفلاق والبغدان، دون أن تدخلها الجيوش العثمانية، حتى يتم الصلح نهائياً. وجاء في المعاهدة السرية التي اتفق عليها «نابليون» والقيصر الروسي «اسكندر الأوّل» أنّه إن لم يقبل الباب العالي توسط فرنسا بسبب الحوادث الأخيرة التي حدثت بالآستانة، أو إن لم يتم المقصود بكيفية مرضية، بعد قبول هذا التوسط بخمسة وثلاثين يوماً، فتتّحد فرنسا مع روسيا على سلخ جميع الولايات العثمانية بأوروبا ما عدا الآستانة وما حولها، وتقسيمها فيما بينها وإرضاء النمسا بجزء يسير[١].

والملاحظ تواطؤهم لترك الدولة العثمانية تجابه الروس لوحدها، بينما يراوغ الفرنسيون ويخلوا بعهودهم المبرمة بينهم وبين العثمانيين، كما تبدو الأطماع الأوروبية في اقتسام الأملاك العثمانية والإجهاز على الدولة العثمانية، ومن حيث تمثيلها لأكبر تجمع إسلامي آنذاك، فإنّهم يصلوا إلى أهدافهم القديمة، القضاء على الإسلام والانتقام من أهله. وقد ثبت كذبهم في مواثيقهم التي أبرموها مع العثمانيين، فالروس لم يخلوا الأفلاق والبغدان، وكان ذلك أول إخلال ببنود صلح «تلسيت». وفي الآستانة، لم يلبث أن وقع الخلاف بين قادة ثورة «قباقجي». ففي البداية، اتفق «أوغلي قباقجي» مع المفتي، على عزل القائمقام «مصطفى باشا»، وتمَّ عزله وإبعاده خارج البلاد، وعيّن «طاهر باشا» بدلاً عنه، لكنه عزل. وبعد قيامه بعدة اتصالات ضد المفتي وقباقجي وبعض كبار رجال الدولة، قطعوا سبعة عشر رأساً من بين أولئك الأكابر، وصمموا على طلب السلطان سليم وجاهروا بالتهكم عليه، ومن جملة ما قالوا: يا أيُّها السلطان المغشوش بهذه التعاليم، أنسيت أنك أمير المؤمنين، وعوضاً عن اتكالك على الله القادر العظيم، الذي يبدد بقدرته الجيوش الكثيرة، أردت أن تشبّه الإسلام بالكفار[٢]. ودخل شيخ الإسلام المذكور على السلطان «سليم» متذللاً منخفض الرأس قائلاً: يا مولاي، قد حضرت بين يديك برسالة محزنة، أرجوك قبولها لتسكين الهيجان وليس يخفى على عظمتكم أنّ عموم العساكر اليكجرية نادوا باسم السلطان مصطفى ابن عمك سلطاناً عليهم، ولا سبيل إلى المقاومة،

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية، وجدي، ص ١٩٦.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية ـ سرهنك، ص ٢٦٠.

فالتسليم لأمر الله أوفق وأسلم من كل شيء، فأظهر السلطان تجلداً ولم تبد عليه علامات الكدر من هذا الحديث، بل قبل كلام الشيخ، وتنازل عن السلطة في يوم ٢١ ربيع الأوَّل عام ١٢٢٢ هـ الموافق ١٨٠٧ م وجلس بعده السلطان «مصطفى الرابع».

نظرة إلى كل من سليم الثَّالث ومصطفى الرَّابع:

كان السلطان «سليم الثَّالث» رجلاً عالي الثقافة، شغوفاً بالأدب وفن الخط، ولا تزال بعض مخطوطاته معلقة في المساجد وفي مباني الأضرحة. وكان يجيد اللغتين العربية والفارسية. وقعت في عهده معاهدتان مع الدول الأوروبية: معاهدة «سيستوفا» مع ألمانيا، ومعاهدة «ياشي» مع روسيا. وتشكل في عهده النظام العسكري الجديد عام ١٧٩٣ م، كما نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وفرنسا عام ١٧٩٨ م، عندما جهز «نابليون» حملته العسكرية وسيّرها إلى مصر، كذلك وقعت في عهده معاهدة تحالف مع روسيا وإنكلترا عام ١٧٩٩ م، ودرس الوهابيون قبور الصحابة البارزين، ونشبت الثورة الصربية، وبدأت الحرب العثمانية الروسية عام ١٨٠٦ م، وتمرد الكباكشي عام ١٨٠٧ م.

وكان سليم الثَّالث شديد التدين، ومحبّاً لشعبه ووطنه، وفي أحد منظوماته الشعرية عندما اجتاح الروس القرم نقرأ ما يلي:

فلنبق تحت السيوف في مثل هذه الحالة.
فالأنسب للمسلمين التصرف هكذا.
لقد أكرهوا كثيراً من التتار على التسليم.
فهل ندع القرم تبقى تحت احتلال الروس؟
دعني أذهب وآخذ بثأري من أولئك الروس.
أو اتركني أموت من أجل بلادي.

كان حاكم «روسجق» عالمدار «مصطفى باشا البيرقدار» مؤيداً للسلطان «سليم الثَّالث» وداعياً لإرجاعه. وعندها تمكن من إقناع شلبي مصطفى باشا، الصدر الأعظم، وبقية الوزراء، من مجازاة المفتي وقباقجي مصطفى على تهييجهم الجنود وعزل السلطان السابق والاستئثار بالسلطة، فوافقه على ذلك، كل من كاشفهم، وحكم على «قباقجي مصطفى» بالإعدام ونفذ الحكم.

وخشي السلطان من امتداد لهيب الثورة عليه، وأمر بعزل المفتي، وصرف جنود قباقجي مصطفى غير النظاميين الذين أعانوا على عزل سلفه السلطان «سليم الثَّالث» عن كرسي الخلافة، فتظاهر البيرقدار بموافقته ولم يكاشف أحداً بعزمه على إعادة السلطان سليم وأشاع أنَّه عازم العودة إلى روسجق ولكن الذي حدث، أنَّه في صبيحة يوم ٤ جمادى الأولى عام ١٢٢٣ هـ الموافق ٢٨ حزيران عام ١٨٠٨ م، اعتقل الصدر الأعظم «شلبي مصطفى باشا» وسار بجيوشه إلى السراي السلطانية وطلب إرجاع السلطان «سليم الثَّالث»، فأمر السلطان مصطفى بقتله وإلقاء جثته إلى الثائرين، لكنَّ الأمور أتت بعكس ما يؤمل، إذ ازداد الثوار هياجاً ونادوا على الفور بعزل السلطان مصطفى الرابع، ثمَّ قتل بعد قليل، بعد أن حكم سنة واحدة وشهرين، ودفن في تربة والده السلطان عبد الحميد الأول في «بهجة قابي» في استانبول.

كان السلطان مصطفى الرابع، مولعاً بفن الخط مثل معظم أسلافه، وظهرت له قطع ممتازة من المخطوطات وهي بخط يده، وكان حكمه قصيراً فهو يعد الثاني من حيث قصر المدة بعد عثمان الثَّاني. وفي عهده حصل المتمردون الذين أتوا به إلى الحكم على مراكز هامة في الدولة، واستمرت في عهده الحرب بين الدولة وروسيا.

تطوّر الدّولة العُثمانيّة في القَرن الثَالِث عَشَر الهِجْري

السلطان محمود الثَّاني: «١٢٢٣ هـ - ١٢٥٥ هـ» وهي مدة ولايته. ولد عام ١٧٨٥ م وتوفي عام ١٨٣٩ م.

وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول، وقد بدأ عمله بتعيين «مصطفى باشا البيرقدار» صدراً أعظم، فعقد اجتماعاً لرجالات الدولة والوزراء السابقين وعرض عليهم ضرورة تنظيم الإنكشارية حسب الطرق الحديثة، واقترح إرجاع أنظمتهم التي كانت سائدة في عهد السلطان سليمان، وقد استحصل على فتوى وأصدر أوامره بهذا الشأن، وأمر بدمج معظم ضباط الجيوش النظامية في قيادات الإنكشارية، فاغتاظوا وأظهروا التمرد في (فيليبه) ثمَّ قاموا في ٢٧ رمضان من عام ١٢٢٣ هـ قاصدين سرايا السلطان السابق محاولين إرجاعه للحكم فصدرت الأوامر بقتل السلطان مصطفى وإلقاء جثته للثائرين وقيل قتلوه خنقاً على غير

إرادة السلطان محمود بناءً على رأي ديوان الشورى، فهاجوا، وأضرموا النار في السرايا الحكومية وحرقوا الصدر الأعظم بينما كان يدافع بكل شجاعة وشهامة وفي الوقت نفسه كان أمير البحر رامز باشا يحاول إنقاذه ولكن لم يجد ذلك فقاتل الإنكشارية ومعه عبد الرَّحمٰن باشا، حتى هزموا، وفي صبيحة اليوم التالي سارت جيوش السلطان تتقدمها المدافع وأطلقت النار عليهم من جميع الجهات. فأضرموا النار في جوانب المدينة، المؤلف معظمها من الخشب فاشتعلت فيها النيران وعلا لهيبها وبدأت تحترق بأكملها فأذعن السلطان خوفاً من جسامة الكارثة وأجَّل مشروع إبادتهم إلى وقت آخر واتجه نحو الإجراءات الداخلية فعقد صلحاً مع إنكلترا في ٢٤ ربيع الثَّاني من عام ١٢٢٤ هـ. أمَّا مع روسيا فلم يتوصل الطرفان إلى اتفاق. ممَّا أدّى إلى تفجير الموقف ونشوب المعارك بينهما فانهزم الصدر الأعظم ضيا يوسف باشا الذي خلف البيرقدار إذ إنَّه كان غير ملم بفن الحرب، واستولى الروس على بعض المدن في عام ١٢٢٥ م، فعزله السلطان وولى مكانه أحمد باشا الذي جرى على يديه تحقيق انتصار على الروس. وكان السلطان محمود لما بويع بالخلافة قد عين مصطفى باشا البيرقدار لمسند الوزارة وعرب زادة عارف أفندي للمشيخة الإسلامية، ولم يلبث الصدر الأعظم يبحث عن جميع الأشخاص الذين لهم يد في قتل السلطان سليم الثالث وأعدمهم من آخرهم ونفى شيخ الإسلام السابق عطاء الله أفندي ونكَّل بمعارضيه.

وفي ذلك الحين كانت العلاقات غير حسنة بين نابليون وروسيا والحرب تكاد تقع بينهما فصالح الروس الدولة العثمانية خدمة لأنفسهم وجرت مفاوضات في (بوخارست) انتهت بتوقيع المعاهدة التي حملت اسم تلك المدينة وذلك في ١٦ جمادى الأُولى من عام ١٢٢٧ هـ والتي قضت باحتفاظ الأفلاق والبغدان بالتبعية للدولة وكذلك بلاد الصرب واحتفظ الروس بإقليم (بسارابيا) وأحد مصبات نهر الدانوب وبذلك فقد استغلَّ أُولئك الأعداء جهالة بعض الوزراء العثمانيين وعدم اطلاعهم على الخفايا السياسية العالمية وأمنوا جانب الجبهة العثمانية وتفرغوا لصد غارات بونابرت وإلزامه بالتقهقر. وللحالة التي كانت عليها أساطيل العثمانيين في ذلك الوقت من الضعف وللعوامل الأُخرى المعروفة، استولى الروس على بعض المناطق المجاورة لنهر الدانوب وعلي إسماعيل. وبين عامي ١٢٢٥ هـ و ١٢٢٦ هـ أجبروا على إخلاء «روسجق» بعد أن حرقوها، واستمرَّ العثمانيون بالقتال رغم

هزائمهم، إلـى أن أتيحت لهم فرصة عندما أعلنت الحرب بين الروس ونابليون فسعى الروس للصلح مع الدولة ووقعوا معاً معاهدة بوخارست المذكورة.

وحينما علم الصرب بنصوص تلك المعاهدة والتي تلزمهم البقاء تحت سيطرة الدولة العثمانية ثاروا ضدها فأخضعهم الباب العالي مما أدّى إلى هجرة زعماء الثوار إلى النمسا والمجر باستثناء (ميلوش أوبر ينوفتش)[1] الذي تظاهر بالولاء، فعين في منصب صغير ولكنه بقي يزاول التحريض على العصيان. ثمَّ في عام ١٢٣٠ هـ انتهز إحدى الفرص وأعلن التمرد الذي امتدَّ لهيبه إلى أرجاء بعيدة في البلاد الصربية وبعد قتال قارب السنتين أرغم على الطاعة، وقبل الطرفان الشروط ثمَّ عين مرعشلي والياً على الصرب وعين ميلوش صاحب التمرد رئيساً لمجلس نواب صربيا التي أصبحت ذات استقلال داخلي فاستبدَّ بالبلاد وقتل منافسه قره جورج، وأرسل رأسه للآستانة علامة الولاء للدولة.

الحركة الوهابية:

وهي تنسب إلى محمَّد بن عبد الوهاب المولود في العيينة من بلاد نجد وقد درس العلوم الإسلامية والشريعة السمحة دراسة دقيقة وتعمَّق في علم التفسير بصورة خاصة أثناء ذهابه إلى أصفهان من بلاد إيران، وبعد عودته لبلاده بدأ يستنبط الأحكام ثمَّ قال بالاجتهاد واضطرَّ إلى مغادرة بلدته الأصلية ثمَّ نزل الدرعية إذ قبل حمايته وفكرته أميرها محمَّد بن سعود. وأنشأ مذهباً خاصاً له ودخل فيه أناس كثيرون ولمع نجمه في نجد والأحساء والقطيف وغيرها من بلاد العرب حتى إنَّه صار يجاهر الدولة بآرائه المعارضة لها فشعرت بتفاقم خطره، فساقت له محمَّد علي باشا والي مصر آنئذٍ، وكلفته باسترجاع مكة المكرمة والمدينة المنورة من أيدي الوهابيين، فأنشأ محمَّد علي السفن في السويس ثمَّ جهزها. وحينما صارت جاهزة أراد انتهاز الفرصة والتخلص من المماليك قبل تسيير الحملة فأعدَّ حفلة في القلعة يوم الجمعة الموافق ٥ صفر من عام ١٢٢٦ هـ، لتقليد ابنه طوسون قيادة الجيش مع السيف المهدى له طبقاً للأوامر السلطانية فحضر رؤساء المماليك إلى هناك وتجمعوا في مضيق القلعة وأغلقت الأبواب وأطلقت عليهم النيران من جميع

---

(١) زعيم صربي اسمه الحقيقي تيودوروفتش، كان أبوه من رعاة الخنازير، كان في بداية ثورته على اتفاق مع قره جورج ثمَّ أصبح زعيم الحركة الثورية بعد أن قتل منافسه الأخير هذا.

الجهات حتى أُبيدوا عن آخرهم، باستثناء اثنان فرَّ أحدهما إلى بلاد الشام. وقام جنود محمَّد علي في الوقت نفسه بنهب منازلهم وقتل من قبض عليه منهم ثمَّ جرى التخلص ممَّن سكنوا خارج القاهرة، وبعدها سافر طوسون إلى شبه الجزيرة العربية فحارب الوهابيين واستردَّ المدينة المنورة من أيديهم وتوجه نحو الطائف، فحاصروه هناك فأسرع والده إلى مكة ووصلها فعزل الشريف القديم غالب ثمَّ أرسله إلى مصر ومنها إلى سلانيك إلى أن توفي. ونصب الشريف يحيى بن سرور واحتلَّ عدة مراكز وهابية وكسر شوكتهم وخاصة بعد أن توفي زعيمهم سعود وبذلك أمن طريق الحج. أمَّا طوسون فبعد أن تخلّص من الحصار سار إلى نجد لاحتلال الدرعية ولكنه تهادن مع عبد الله بن سعود لمدة عشرين يوماً ثمَّ تصالحا واتفقا على احتلال الدرعية من قبل طوسون واسترداد كافة المجوهرات والنفائس التي أخذها الوهابيون من الحجرة الشريفة. ثمَّ عاد طوسون للقاهرة بعد أن سلم قيادة الجيش لأحد أركانه. وبذلك تضعضعت قوتهم وحجَّ في تلك السنة خلق كثير وحجَّ محمَّد علي نفسه ومن رافقه.

وقام محمَّد علي بتجهيز حملة أُخرى ضد الوهابيين بقيادة ابنه البكر إبراهيم باشا، فسار عن طريق قنا ـ القصير ـ جدة. فوصل ينبع في ٦ ذي القعدة عام ١٢٣١ هـ ثمَّ المدينة المنورة ثمَّ سار إلى نجد فاحتلَّ الرس وعنيزة ووصل إلى مشارف الدرعية وحاصر القرى المحيطة بها ثمَّ احتلها بعد عدة أشهر وبعد أن وافق عبد الله بن سعود على تسليمه إياها مشترطاً عدم التعرض للأهالي بسوء، فخرب الآبار وقطع أشجار النخيل وحرق البيوت والقرى، ثمَّ استولى على نجد وأرسل عبد الله بن سعود إلى القاهرة ثمَّ استانبول إذ قتل هناك، وبعد ذلك أخضع إبراهيم باشا القطيف والأحساء وأسر أهم القادة الوهابيين وأرسلهم إلى مصر ثمَّ رجع مع جيشه في عام ١٢٣٤ هـ إلى القاهرة بعد احتفاظه بحاميات في نجد والحجاز، ولكن الحركات لم تهدأ هناك. وبعدها تحول الحجاز إلى إقليم مصري يحكمه الوالي المعين من قبل محمَّد علي واحتفظ اليمن باستقلاله الذاتي. ثمَّ جرد محمَّد علي بعض الحملات إليه، ولكنه غادرها بسبب حملة مورة وتولى الأمور في نجد ولاة مصريون واشتدت الخلافات القبلية. ثمَّ قامت انتفاضة في الدرعية إثر مغادرة إبراهيم باشا نجد عام ١٢٣٥ هـ إلَّا أنَّها قمعت وانتفض الوهابيون مرة أُخرى بقيادة تركي بن عبد الله (١٢٣٦ ـ ١٢٤٢ هـ) الذي أزاح

الحاكم الموالي لمحمَّد علي ثمَّ نقل العاصمة إلى الرياض واضطر محمَّد علي الاكتفاء باحتلال منطقتي القصيم وشمر من نجد وأخلى المناطق الأخرى بسبب الأوبئة والعطش والجوع والغارات. ثمَّ أجلى المصريون عن القسيم وشمر وقام شريف مكة ضدهم عام ١٢٤٢ هـ ولكنه فشل.

ثمَّ قرر محمَّد علي بعد حملة سوريا استرجاع نجد فدفع بمشار بن عبد الرَّحمٰن كدعي للسلطة هناك فاستولى على الرياض بمساعدة المصريين، وقتل الأمير تركي وحلَّ محله، ولكن فيصل بن تركي قام بعدها فقضى عليه ونصَّب نفسه محله.

وفي عام ١٢٥٣ هـ أخذ فيصل أسيراً إلى القاهرة واستولى المصريون على الرياض والأحساء والقطيف فتوترت العلاقات مع الإنكليز عام (١٢٥٤ - ١٢٥٦ هـ) واضطرَّ محمَّد علي إلى سحب قواته عام ١٢٥٥ هـ وأخلى الجزيرة العربية، فاسترجع الوهابيون إثرها سلطتهم في الرياض.

حملة السودان:

وكانت ثاني حملات محمَّد علي الكبيرة، إذ استهوته نفائس البلاد السودانية الثمينة، ولم تتَّسم بالصعوبة كما في حملة الجزيرة العربية نظراً لوجود المواصلات الملائمة ولقربها من مصر ولعدم وجود تماسك بين أبنائها.

ولم يكن بالأمر الصعب احتلال شرقي السودان نظراً لعزلة الشعب حتى من الأسلحة النارية أمام جيش مسلح تسليحاً حديثاً. وفي عام ١٢٣٥ هـ بدأ خمسة آلاف مقاتل من جيش محمَّد علي الزحف تحت قيادة أحد أبنائه (إسماعيل باشا) دون مقاومة تذكر صاعداً في مجرى النيل وسرعان ما أخضع قبائل شمالي النوبة و (نقلة) وبلغ رأس الخرطوم عند ملتقى النيل الأبيض بالأزرق في عام ١٢٣٦ هـ حيث أقاموا معسكرهم هناك وحيث كان نواة المدينة التي عرفت باسم الخرطوم. ثمَّ دخلوا (سنار) دون مقاومة إذ انقسم الجيش إلى قسمين اتجه أولها صعداً في مجرى النيل الأزرق بقيادة إسماعيل باشا، ولكنَّه سرعان ما تراجع شمالاً عام ١٢٣٧ هـ أمَّا القسم الآخر فقد أخضع كردفان الوسطى في عام ١٢٣٦ هـ. بقيادة صهر محمَّد علي المدعو محمَّد بك الدفتردار. وبذلك خضعت غربي السودان ما عدا (دارفور) والمناطق البعيدة لحكم محمَّد علي. ولكنَّ الانتفاضات اندلعت،

فأسرع إسماعيل إلى سنار لقمعها فأباد الآلاف من الناس. وفي عام ١٢٣٧ هـ دعاه أحد الزعماء المحليين إلى وليمة في أحد الأكواخ المؤلفة من القش وبينما كان وحاشيته يتناولون الطعام أضرمت النار في الكوخ وتمَّ احتراق إسماعيل باشا وحاشيته بسرعة خاطفة. وما أن علم الدفتردار بمقتله حتى توجه إلى سنار وانتقم شر انتقام فأباد ما لا يقل عن ثلاثين ألف شخص في المنطقة ذاتها. وسحقت الانتفاضات التي كانت تنفجر تارة هنا وتارة هناك بوحشية منقطعة النظير في الوقت الذي وسع المحتلون فيه أملاكهم بصورة تدريجية وزحفوا نحو الجنوب والغرب واحتلوا (مصوع) و (سواكن) على البحر الأحمر، ثمَّ قدم محمَّد علي بنفسه إلى السودان بحثاً عن الذهب في النيل الأبيض والأزرق. وفرض الضرائب الفادحة على السكان وساق إلى مصر ٨ آلاف رأس من الماشية سنوياً بالإضافة إلى المستوردات النادرة كالعاج وريش النعام وغيرها واحتكرت الدولة تجارة الرقيق والخامات الاستوائية، ولكن خاب أمله حينما تبيَّن له أنَّ السودان غير غنية بالذهب كما كان يحلم.

الثورة في بلاد اليونان:

أهاجت أُوروبا أهالي تلك البلاد ضد الدولة العثمانية، وافتتن شبابها بالمبادئ الجديدة وخاصة من درسوا منهم في أُوروبا فألّفوا الجمعيات السياسية في روسيا والنمسا مثل جمعية (هيتيري) ومعناها الأخوية والتي بقيت سرية حتى عام ١٢٣٦ هـ حينما أصبحت علنية، وكان اسكندر الأكبر امبراطور الروس وراءها في محاولات تنفيذ مخططه في ضرب الدولة العثمانية وتطبيق وصية بطرس الأكبر واحتلال القسطنطينية، وكان مركزها أُوروبا ثمَّ زاد عدد أعضائها فانتشرت في إقليم (المورة) ثمَّ انتهز زعماؤها فرصة انشغال الدولة بمحاربة والي (يانية) ووسعوا نشاطهم حتى بلغ عدد أعضائها، ما يزيد على عشرين ألفاً من الشبان الأقوياء. والجدير بالذكر أنّ هذه الجمعية أنشأها الغرب ويهدف إلى مقاومة الدولة العثمانية في اليونان، إضافة إلى هدف آخر هو بث الفتنة وإشاعة الفساد. والظاهر نشر المعارف والعلوم. وكانت باكورة أعمالها إحداث فتنة في الإمارتين الدانوبيتين أدَّت إلى قتل أمير الأفلاق عام ١٢٣٦ هـ. وعندما شرعت الدولة في تسوية ما حدث بالإمارتين، قام الثوار اليونان في مورة والتجأ المسلمون إلى القلاع وقوي ساعد الثوار وحاصروا القلاع والمدن. ثمَّ توسعت الثورة إلى الأرخبيل والكل يفتكون

بالمسلمين بمنتهى الوحشية، وقتل الثوار وبعد أن احتلوا طرابلجية عاصمة الولاية لثلاثة أيام متواليات المسلمين وأسروا نساءهم ولم يحترموا شيخاً ولا طفلاً ونهبوا جميع المنازل.

ولمَّا شعرت الدولة بفداحة الخطر وجهت نحوهم خورشيد باشا ولكنهم هزموه فانتحر إثر ذلك وقيل إنَّه مات بعد مرض. وتمكن اليونانيون من حرق الأسطول العثماني في ٢٧ رمضان عام ١٢٣٧ هـ في ميناء جزيرة (ساقز)، واستشهد في تلك المعركة ثلاثة آلاف بحار. ولمَّا رأى السلطان محمود ما حدث كلف محمَّد علي باشا الذي جهز جيشاً قوامه ١٧ ألف جندي مصري وعين ابنه إبراهيم قائداً له، ورافقه سليمان بك الفرنساوي وسافر من الإسكندرية في ١٩ ذي القعدة عام ١٢٣٩ هـ إلى جزيرة رودوس للانضمام إلى الأسطول العثماني ثمَّ تحرك بعدها إلى كريت فاحتلها ثمَّ حاول إنزال جنوده في سواحل المورة، وبعد جهد طويل أنزلهم في ميناء (مودون) ومدينة (كورون) ثمَّ فتح (ناورين) في ٢٨ رمضان عام ١٢٤٠ هـ واحتلَّ عدة مدن أخرى. وبإرشادات من سليمان الفرنساوي عام ١٢٤٢ هـ فتح العثمانيون (أثينا) وقلعتها على الرغم من الدفاع المستميت الذي قام به اللورد كوشراك القائد البحري الإنكليزي الذي عينه اليونانيون قائداً عاماً لجيوشهم، فأهال الغرب سقوط أثينا وتحركت إنكلترا مستعدة للعمل على استقلال اليونان ومالت روسيا إليهم أيضاً، وبتفاهم بينهم طالبوا باستقلال ذاتي لليونان من السلطان الذي رفض مطاليبهم فدخلت قوات فرنسا وإنكلترا وروسيا خليج (نفارين) «ناورين»[1] حيث الأسطول المصري العثماني وكان ذلك مقدمة للحرب الروسية العثمانية المقبلة وقد قتل ما ينوف على ثلاثين ألف مصري في تلك الحملة ودمرت السفن العثمانية في عدة ساعات على أثرها قطعت العلاقات بين الباب العالي والدول وأصدر السلطان منشوراً عاماً بيَّن فيه نيات الدول الأوروبية تجاه المسلمين وخاصة روسيا، وقد أوضح أنَّ الباعث لذلك العدوان هو الدين وليس السياسة وحض المسلمين على القتال دفاعاً عن الدين فاغتاظ الروس وأعلنوا الحرب على الدولة في ١١ شوال عام ١٢٤٣ هـ.

ثمَّ أمر محمَّد علي ابنه بإخلاء المورة والرجوع لمصر التي قد دخلها

---

(١) تقع (نافارين) على الساحل الغربي من مورة حيث خليج نافارين.

الفرنسيون. ثمَّ عقد مؤتمر لندن في ٨ جمادى الأُولى عام ١٢٤٤ هـ بين الدول الثلاث بشأن اليونان واتفقوا على استقلال المورة وغيرها وتعيين حاكم نصراني عليها ولكن الدولة رفضت وكانت تستعد لحرب الروس.

إلغاء الإنكشارية:

في عام ١٢٤١ هـ جمع السلطان محمود أعيان الدولة وكبار ضباط الإنكشارية في بيت المفتي، وقام الصدر الأعظم سليم أحمد باشا خطيباً فبيَّن الحالة التي وصلت إليها الإنكشارية من الضعف والانحطاط وبيّن ضرورة إدخال النظم العسكرية الحديثة، فاقتنع الحاضرون ثمَّ أفتى المفتي بجواز العمل وبمقاومة المعارضين. وقد وافق جميع ضباطهم على المشروع من حيث الظاهر وأبطنوا خلاف ذلك ولما شعروا بقرب ضياع امتيازاتهم وبوضع الحد لتصرفهم أخذوا يستعدون للثورة واستمالوا بعض الرعاع. وفي ٨ ذي القعدة عام ١٢٤١ هـ تعرض بعضهم للجنود أثناء أدائهم تدريباتهم ثمَّ بدأوا في عصيانهم فجمع السلطان العلماء وأخبرهم بنية المتمردين فشجعوه على استئصالهم فاستدعى المدفعية واستعدَّ لقتالهم ملوحاً باللين والتساهل في الوقت نفسه خوفاً من تزايد لهيب شرورهم. وفي صباح ٩ ذي القعدة تقدم السلطان ووراءه جنود المدفعية وتبعهم العلماء والطلبة إلى ساحة (آت ميداني) حيث اجتمع العصاة هناك يثيرون الشعب وقيل إنَّ السلطان لم يسر بنفسه بل سار معه شيخ الإسلام قاضي زادة طاهر أفندي والصدر الأعظم سليم باشا أمام الجموع التي كانت تزيد عن ٦٠٠٠٠ نفس ثمَّ أحاطت المدفعية بالميدان واحتلت المرتفعات ووجهت قذائفها على الإنكشارية فحاولوا الهجوم على المدافع ولكنها صبَّت حممها فوق رؤوسهم فهربوا إلى ثكناتهم طلباً للنجاة، فأحرقت وهدمت فوقهم وكذلك تكايا البكتاشية، وبذلك قضي عليهم بصورة نهائية. وفي اليوم التالي صدر مرسوم سلطاني قضى بإلغاء فئتهم وملابسهم واصطلاحاتهم واسمهم من جميع بلاد الدولة وإعدام من بقي منهم هارباً إلى الولايات أو نفيه، ثمَّ قلد حسين باشا الذي كانت له اليد الطولى في إبادتهم قائداً عاماً (سر عسكر) وبدأ بعدها نظام الجيش الجديد. ولَّما كان السلطان محمود يرغب رغبة شديدة في إدخال ما توافق من النظامات الأُوروبية، فقد غيَّر لباسه وتزيَّا بزي العسكر الجديد وأبدل العمامة بالطربوش، فكان أول من فعل ذلك من سلاطين آل عثمان.

الحرب مع روسيا ومعاهدة أدرنة:

قلنا سابقاً إنَّه إثر مؤتمر لندن الخاص باليونان، أعلن الروس الحرب على الدولة انتصاراً لسكان مورة فسارت جيوشهم المتأهبة واجتازت نهر (بروت) الفاصل بين الدولتين ثمَّ احتلت مدينة (ياش عاصمة البغدان) ودخلت بوخارست عاصمة الأفلاق ثمَّ احتلت المناطق العثمانية حتى نهر الطونة (الدانوب) ثمَّ اجتازته وحاصرت (فارنا) على شاطئ البحر الأسود الغربي مستغلة فقدان السفن العثمانية في (نفارين) وقام القيصر بمحاصرة القائد العام حسين باشا عن طريق البر في مدينة (شوملة) ثمَّ رفع الحصار عنها ليحاصر بكل قواه مدينة (فارنا) التي تمكن القبطان عزت باشا من اختراقها ودخلها بينما أتاها حسين باشا فكاد اليأس يدخل على القيصر لولا خيانة يوسف باشا الذي سلمها للروس في أول ربيع ثاني من عام ١٢٤٤ هـ الموافق ١٠ تشرين أول عام ١٨٢٨ م. وهرب إلى بلادهم. ثمَّ احتلَّ الروس عدة قلاع وحصون في جهات آسيا وبعدها توقف القتال لشدة البرد ولم تكن الأمور كما توقع الروس إذ إنَّ الجيوش النظامية المشكلة حديثاً كانت في حالة جيدة خلاف ما توقعوه. وحينما استؤنف القتال في عام ١٢٤٥ هـ انتصر الروس إذ اجتازوا نهر (الطونة) وجبال البلقان، ووصلوا أدرنة واحتلوها عنوة ففتح الطريق إلى الآستانة، وبما أنَّ الدول الأوروبية مختلفة في موضوع التنافس عليها فقد حال ذلك دون سقوطها في أيدي الروس فاتصلوا مع الدولتين المتحاربتين لوقف القتال ودارت مفاوضات وعقدت معاهدة أدرنة في ١٥ ربيع أوَّل عام ١٢٤٥ هـ الموافق ١٨٢٩ م وقضت بأن يبقى نهر (البروت) حداً فاصلاً بين الدولتين، وبأن تتنازل الدولة للروس عن مصبات نهر (الطونة) وما حولها ووادي (الجوز) والقلعة التي به في حدود الأناضول حيث تتمكن روسيا من احتلال بلاد قبائل الشراكسة في المستقبل إذ إنَّ ذلك يحول دون وصول العثمانيين لنجدتهم. وإنَّ لروسيا حق الملاحة في البحرين الأسود والأبيض والمرور بدون تفتيش وإعطاء التعويضات وأن يعين ولاة الأفلاق والبغدان مدى الحياة وأن تعطى للصرب امتيازات خاصة. والمتأمل في حقيقة النوايا الروسية، يجد عملية لفصل الدولة العثمانية عن شعوب القوقاز المسلمة وبالتالي وضعها تحت رحمة الروس، كما يلاحظ أنَّ الانسحاب الروسي كان مشروطاً بدفع الأموال الطائلة وهذا يعني إفقار خزينة الدولة العثمانية ويلاحظ محاولات الروس قضم أجزاء

واسعة من الدولة العثمانية غربي بلاد القرم. كذلك الكسب الستراتيجي باحتلال قصبات الدانوب وتمتع الروس بحرية الملاحة في البحرين الأبيض المتوسط والأسود تحقيقاً للهدف الروسي القديم وأخيراً خضوع رومانيا للروس ومنع المسلمين من استيطانها.

إصلاحات السلطان الداخلية:

قام السلطان محمود ببعض الأعمال الداخلية بعضها كان داخلياً شكلياً يعبِّر عن شعور بالهزيمة الداخلية مثل استبدال العمامة بالطربوش وبفرض اللباس الأوروبي على كافة المجموعات العسكرية غير النظامية كما أنَّه أمر بإلغاء طائفة البكداشية وأغلق تكاياها ولاحق أعضاءها وشرّدهم وقتل رؤساءهم بحجة دعم الإنكشارية ثمَّ أعاد إحياء مدارس المدفعية التي أنشأها السلطان مصطفى الثالث كما أنشأ مدرسة على الطراز الفرنسي لتربية أولاد الضباط وللإشراف على الأنظمة العسكرية الحديثة.

الاحتلال الفرنسي للجزائر:

والكلام عن الاستعمار الفرنسي في الجزائر يطول شرحه والمهم أنَّ الطامعين في ديار المسلمين ما فتئوا يعيدون الكرّة إثر الكرّة ولم تلن لهم قناة في محاولات احتلال بلادنا والانتقام من أبنائنا وقد أعماهم التعصب الذميم والحقد المرير.

في حديث لنابليون مع الامبراطور الروسي الكسندر الأوَّل في تيليسيت عام ١٢٢٢ هـ الموافق ١٨٠٧ م، قال نابليون وأكَّد بأنَّ الجزائر ستكون ضمن ممتلكاته المقبلة إلَّا أنَّه لم يفلح في تحقيق ذلك.

وعلى الرغم من تضارب المصالح بين الدول الأُوروبية الكبرى إلَّا أنَّها تجمع الكلمة دائماً ضد المسلمين فقد سايرت الروسيا شارل العاشر ملك فرنسا في مشروعاته الاستعمارية لاحتلال الجزائر ولم تمانع بريطانيا بصورة جدية.

وتذرعت الحكومة الفرنسية بشتّى الحجج والأباطيل الوهمية كفدائيي البحر المسلمين والحسابات النقدية لحكومة الداي ونسيت أنَّ الداي[1] كان يزود جيشها

---

(١) إنّ الدول الأجنبية لا تستطيع أن تتغلب على المسلمين لو لم تستخدم بعض من اشترته منهم أو من تحارب باسمهم. فالداي أعان فرنسا في حملتها على مصر... فكانت النتيجة احتلال الجزائر من =

البونابرتي أثناء حملاته العسكرية في إيطاليا ومصر بالمؤن إبّان محاصرتها على شكل قروض. وفي يوم من أيام عام ١٢٤٣ هـ الموافق ١٨٢٧ م أهان القنصل الفرنسي الداي فضربه الداي بمروحة كانت في يده رداً على تلك الإهانة فقامت قيامة فرنسا ضد الجزائر وأسرعت لتحريك حليفها محمَّد علي باشا في مصر ضد الجزائر، فوافق، ولكن لم تتم الصفقة بسبب ضآلة التعويضات. وفي عام ١٢٤٦ هـ نزل ٣٧ ألف مقاتل فرنسي على ساحل خليج (سعدي فرج) الذي يبعد ٢٣ كيلومتراً غربي الجزائر العاصمة وكانت المقاومة عنيفة ففقد الفرنسيون ٤٠٠ شخصاً مقابل عشرة آلاف من العثمانيين الذين تصدُّوا لهم ونتيجة لذلك وقَّع الداي على وثيقة الاستسلام ودخل الفرنسيون مدينة الجزائر في عام ١٢٤٦ هـ فنهبوا الخزينة التي كانت تحتوي على ٤٨ مليون فرنك واستولوا على الأراضي والمساكن. ثمَّ أعلن لويس فيليب ملك فرنسا في عام ١٢٥٠ هـ ضم البلاد الجزائرية رسمياً إلى فرنسا. ولم يكن قبلها في حوزتهم إلَّا الشريط الساحلي فقط.

لقد التزمت الدولة العثمانية وقتئذٍ اتباع طريق المسالمة لخروجها حديثاً من غوائل حروب (مورة) وروسيا والمسألة الإنكشارية مهيضة الجناح، لذلك اكتفت بإرسال أسطول إلى تونس للتوسط بين والي الجزائر والفرنسيين. وهكذا استغلَّ هؤلاء المستعمرون مشاكل الدولة وهزائمها والشروط التي كبلتها بها معاهدة أدرنة.

وقام عبد القادر في غربي البلاد والباي أحمد حاكم منطقة قسنطينة بالثورات ضد المحتلين ثمَّ اضطرَّ عبد القادر بعد مدة لعقد معاهدة مع الفرنسيين الذين اعترفوا بسيادته على غربي الجزائر عدا ثلاث مدن ساحلية فألَّف جيشاً وطنياً قوامه ١٠ آلاف جندي و ٣٦ مدفعاً وأنشأ الثكنات وطبق الزكاة وجنى الأعشار على العلماء ورجال البادية واستعان بسلطان مراكش.

كانت حياة عبد القادر بسيطة متواضعة بعد أن أصبح حاكماً في غربي البلاد فأكله بسيط ولباسه أبسط وكان يسكن في خيمة ولم يملك سوى قطيع صغير من

= قبل فرنسا بالذات، وفرنسا لم تقدم على دخول الجزائر حتى ضمنت محمَّد علي بل وسلطته على العثمانيين حتى ترمي المسلمين بعضهم ببعض أولاً فلا يلتفتوا إلى عملها ثمَّ لتضعف العثمانيين فلا يقدروا على صد الفرنسيين.

الأغنام وقطعة أرض يحرثها زوج من الثيران ولم يصرف لحاجاته الشخصية قرشاً واحداً.

وقد غدرت فرنسا بعبد القادر بنقضها المعاهدة والاعتداء على مناطقه وبعد حين اضطرت لعقد معاهدة أخرى عام ١٢٥١ هـ اعترفت بسيادته على وسط الجزائر أيضاً. وفي عام ١٢٥٣ هـ الموافق ١٨٣٧ م استطاع الفرنسيون احتلال قسنطينة وتقهقر الباي أحمد إلى الجبال النائية في قلب البلاد.

ثمَّ زادت فرنسا من عدد جيشها شيئاً فشيئاً حتى وصل العدد إلى تسعين ألف محارب في عام ١٢٦٠ هـ ولكن عبد القادر صمد أمام الغزاة المحتلين بمنتهى الشجاعة، وقد اعترف المؤرخون بأنَّ العامل المعنوي كان سبب الصمود وهو الذي أعطاه التفوق في ذلك العصر.

لقد استخدم الفرنسيون الأساليب الوحشية للإرهاب فأبادوا قبائل عن بكرة أبيها وقطعوا آذان الأسرى وسبوا النساء المسلمات، وعاملوهنَّ كالحيوانات وعرضوهنَّ بالمزاد العلني كأنَّهنَّ الدواب.

وبعد أربعة سنوات تمكّنوا من إقصاء عبد القادر الذي التجأ إلى مراكش فاقتحموها عام ١٢٦٠ هـ وقصفوا (طنجة) و (الصويرة) ثمَّ قام عبد القادر وقاد المقاومة في الصحراء ولكنَّ المستعمرين قدموا بأعداد كبيرة من فرنسا وأخذوا الأراضي وبعدها نشبت عدة انتفاضات ولم ينم سكان البلاد على الاحتلال والظلم حتى تمكّنوا من تحريرها.

محمَّد علي باشا واحتلال سوريا:

لقد هرب بعض الناس من حكم محمَّد علي باشا في مصر والتجأوا إلى والي عكا عبد الله الجزار (الخازندار) فطالب محمَّد علي إرجاعهم فامتنع الجزار عن تسليمهم وهكذا تذرّع محمَّد علي بملاحقة مماليكه الذين التجأوا إلى والي عكا وحقاً كان يطمع ببلاد الشام فأمر بإعداد جيش لغزو بلاد الشام عن طريق العريش والبحر في آن واحد كي يتم محاصرة عكا من الجهتين وعيَّن ابنه إبراهيم قائداً لتلك الحملة كما كان سليمان الفرنساوي نائباً عنه فسار الجيش ووصل حيفا بعد أن سبقته الجيوش البرية واحتلَّت غزة ويافا والقدس ونابلس ثمَّ اتخذ حيفا مقراً له وبعدها قام بمحاصرة عكا في ٢٠ جمادى الأولى عام ١٢٤٧ هـ الموافق عام

١٨٣١ م ولمّا علم الباب العالي بذلك عده عصياناً وأمره بالكف عن أفعاله وإخراج عساكره من الشام لكنه لم يقبل ذلك فأتى عثمان باشا من حلب بجيش قوامه ٢٠ ألفاً قاصداً عكا فالتقى الجيشان قرب حمص فانتصر إبراهيم باشا وانهزم الجيش العثماني ثمَّ رجع إلى عكا فدخلها وأسرَّ عبد الله الجزار وأرسله إلى مصر.

نشوء القومية في الدولة العثمانية:

يذكر الكاتب البريطاني «بيتر مانسفيد» في كتابه الأخير «The Arabs» العرب، ما دوّنه المؤرخ المصري «الجبرتي» الذي كان شاهد عيان على الأحداث التي جرت إبّان الحملة الفرنسية على مصر. إذ حينما وصل الأسطول البريطاني إلى ميناء الإسكندرية أنزل الجند قارباً صغيراً من إحدى السفن الحربية الكبيرة واتجه عشرة من بحارتهم في قارب صغير نحو الشاطىء، وقابلوا أعيان البلدة، وأخبروهم بأنَّهم يبحثون عن الأسطول الحربي الفرنسي. وقالوا للأهلين: «إنَّكم لن تستطيعوا طردهم، إنَّنا باقون هنا لندافع عن مينائكم، ولا نريد منكم شيئاً سوى الزاد والماء» ولكن الوجهاء ردوا عليهم بقولهم: «إنَّ هذه البلاد هي بلاد السلطان - والمقصود طبعاً السلطان العثماني - هيا غادروها من فضلكم، إنَّكم لستم بأصحاب حقوق فيها، ولا للفرنسيين ولا غيرهم...».

لقد جرى ذلك في القرن الثَّالث عشر الهجري. وهي وإن دلَّت على شيء فإنَّما تبين روح المقاومة والتحدي التي كانت كامنة في نفوس المسلمين في ذلك الحين، إذ ردوا على الإنكليز بصفتهم مسلمين من رعايا الدولة العثمانية التي كانت لا تزال تدافع عنهم. وتحافظ على كيان الأمَّة المسلمة على الرغم ممَّا أصابهم من ضعف وانحطاط، كما يبدو تمسك الأهلين بالسلطنة والخلافة عندما ردوا عليهم بأن هذه البلاد هي بلاد السلطان.

لقد كان التحدي الخطر الذي ظهر في أواسط بلاد العرب قبل القرن الثَّالث عشر الهجري في شكل الحركة الوهابية، التي طالب مؤسسها «محمَّد بن عبد الوهاب» وأتباعه من بعده، الأمة الرجوع إلى إسلامها كما كان في أيامه الأولى، منكرين كل ما تعلق به من ركامات وقابلوا ما حدث من انحرافات بانحرافات أشد للتخلص ممَّا أسموه بالبدع التي تعلق بها المسلمون دون تمييز دقيق بين حسنها وسيئها ممَّا حمله لنا التاريخ خلال العصور التالية من تقديس للأولياء وأشكال من التصوف كانت

ترعاه الدولة العثمانية أو تمثله. وانصبَّ السخط الوهابي بشكل رئيسي على السلطان العثماني وحكومته باستنكار سياستهم إذ اعتقد الوهابيون بفقدان العثمانيين لأحقّيتهم في الخلافة الإسلامية.

أمام ذلك التحدي مارس السلطان العثماني مسؤولياته فطلب إلى محمَّد علي باشا كما مرَّ معنا إخماد الحركة وقام إبراهيم باشا ابنه البكر بإخراجهم من مكة المكرمة وأُعيد الدعاء في الخطبة وبعد الصلاة للسلطان بعد أن كان قد تحول إلى الوهابيين.

لقد كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية إلى حد ما وكانت تسمى الدولة العليّة العثمانية وما كانت تذكر كلمة الترك في ألقاب سلاطينها أبداً وعبّر العثمانيون عن صلة الرابطة بكلمة (الملّة) وكانوا يقولون: إنَّ الدين هو الملة، وكانوا يلقنون ذلك لأطفال رعاياهم. كما خاضت جيوشهم المعارك تحت شعار إمَّا غازي وإمَّا شهيد وكان ينظر إليهم إلى أنَّهم خلفاء للمسلمين امتداداً واستمراراً للخلافة العباسية فالأموية فالراشدة. لقد كانوا أتراكاً من حيث الجنسية ولكنهم لم ينتسبوا للتركية أبداً حتى اللغة نفسها ما كانت تنسب إليها بل عرفت باللغة العثمانية وقد اقتبسوا ما شاؤوا من العربية والفارسية إضافة إلى أنَّ الأبجدية كانت عربية خالصة وهذا ما يجعل تعليمها بالنسبة للإنسان التركي أمراً سهلاً كما كان لعلمائهم سواء أكانوا أتراكاً أم عرباً أم غيرهم لهم ميزات خاصة مثل الإعفاء من الجندية الإجبارية والإعفاء من دفع الضرائب وينظر إليهم نظرة احترام وتقدير خاصة حينما كانوا ينتسبون للعربية لأنَّهم أقدر على استيعاب مضمون اللغة التي أنزل بها القرآن ونطق بها الرسول الكريم ﷺ ودونت بها كتب الفقه وغيرها.

واستمرَّ ذلك المنوال حتى عهد التنظيمات الذي نحن الآن بصدده. وبقيت الدولة عثمانية بكل معنى الكلمة فكانوا يسجلون النفوس حسب ديانتهم وطوائفهم دون الالتفات إلى اللغة والجنس وكان العلماء والأدباء لا يهتمون إلَّا بالدين وحده، هذا على الرغم من بعض التصرفات التي كان يقوم بها بعض الخلفاء والتي تخالف الإسلام صراحة مثل قتل الأقرباء خوفاً من المنازعة على الحكم أو للتفرد بالسلطة، أو أباحة شرب الخمور أحياناً، ولهذا نستطيع أن نقول: إنَّ الدولة العثمانية كانت ذات عاطفة إسلامية بشكل سليم وصحيح في أحيان كثيرة.

لقد أخفقت محاولات ضرب الدولة العثمانية الإسلامية من الخلف في إشعال الفتن والحروب بالاعتماد على التعصب النصراني والاستفادة من النصارى الذين يقيمون في أرض الدولة العثمانية، على الرغم ممَّا أحرزته من نجاح في بلاد الصرب والمجر والبلغار واليونان وغيرها. لذا فقد بدأ التركيز القائم على التعصب القومي الذي يحاربه الإسلام، هذا التركيز القائم على تجزئة الدولة كان وقوده النصارى بالدرجة الأولى حيث ينتسبون إلى بعض الأقوام التي تؤلف جزءاً من الدولة مثل العرب. ومع ذلك فإنَّ الأمر لم يجد معهم في البداية، وعلى الرغم من أنَّ الأُدباء قد بدأوا بالكتابة عن الوطنية ولكنها جميعاً كانت تتكلم عن الوطن العثماني والأُمَّة الإسلامية ومفاخر المسلمين دون التعصب للترك أو للعرب، فنجد مثلاً أنَّ الكاتب والشاعر التركي نامق كمال يهدف في مقالاته دائماً وفي أشعاره إلى استثارة الروح الوطنية العثمانية الإسلامية وكذلك الأمر بالنسبة للشاعر عبد الحق حامد الذي عاصره فكان لا يفرق بين التاريخ العثماني والتاريخ الإسلامي وقد استمرَّ ذلك حتى أواخر القرن الثَّالث عشر الهجري.

ثمَّ تطور الأمر شيئاً فشيئاً فبدأت تظهر ادّعاءات ببطلان شرعية السلاطين العثمانيين كخلفاء للمسلمين، وأنَّ الخلافة من حق العرب وحدهم ثمَّ قام المبشرون البروتستانت بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية وسعوا في تنشئة رجال الدين النصارى من العرب فصارت الصلوات والتراتيل تتلى باللغة العربية وحدها. وأمَّا ما يقال من نهضة أدبية على يد النصارى فهو لأغراض معينة غير خافية. ثمَّ اقتفى المبشرون الكاثوليك أثر البروتستانت عندما تبين لهم نجاح الأُسلوب نفسه في المنافسة. ثمَّ ظهر بين النصارى من يقول بأنَّه لا أمل في إصلاح الدولة العثمانية إصلاحاً يضمن الحرية والمساواة لهم في ظلها وأنَّه لا خير في دولة تقوم على شاكلتها أو تحل محلها تكون الأكثرية للمسلمين فيها، ولا سبيل لسعادة النصارى إلَّا تحت حماية دولة أُوروبية مثل فرنسا.

لقد بدأت إثارة النعرات العصبية بالتركيز على التعصب القومي، فبدىء بتأليف الجمعيات خدمة لذلك الغرض فكان من أهم مراكزها مركز بيروت الذي اختير للعمل على المدى الطويل فأعطى ثماره في ضرب الدولة من الخلف إبَّان الحرب العالمية الأُولى ومركز استانبول الذي تمخَّض عن جمعية الاتحاد والترقّي أو تركيا الفتاة التي لعبت الدور الأول في إسقاط حكم السلطان عبد الحميد الثَّاني،

وعرّضت البلاد للمحن والكوارث بعد أن أصلت نار الفرقة بين الشعبين العربي والتركي الشقيقين. فبعد انسحاب إبراهم باشا بدئ العمل في عام ١٢٥٨ هـ الموافق ١٨٤٢ م لإنشاء مركز بيروت، فتشكّلت جمعية الفنون والعلوم تحت رعاية الإرساليات الأميركية بواسطة عميلان هما بطرس البستاني وناصيف اليازجي، وكانت أهدافها نشر العلوم الغربية والتوجيه الغربي ولم ينتسب لهذه الجمعية خلال عامين من تاريخ تأسيسها سوى خمسين عضواً عاملاً من بلاد الشام كافة وكانوا كلهم من النصارى، ثمَّ أسس اليسوعيون في عام ١٢٦٦ هـ الجمعية الشرقية وكان أعضاؤها جميعهم من النصارى أيضاً. ولمَّا تبينَّ لهؤلاء وساداتهم أنَّ الأمور لا تستقيم معهم بهذا الشكل ولا يتحقق الغرض الذي ينشدونه في ضرب الإسلام بأيدي أبنائه، جرى تعديل على الخطط وتشكّلت جمعية في عام ١٢٧٣ هـ تحت اسم الجمعية العلمية العربية قصد أن يكون مؤسسوها جميعاً من العرب فانتسب إليها ١٥٠ عضواً منهم المسلمون ومنهم النصارى ومنهم الدروز باعتبارهم عرباً، ثمَّ أسس خمسة شبان تلقوا العلم في الكلية البروتستانتية في بيروت وهم جميعاً من النصارى الجمعية السرية التي قامت على أساس قومي وهي تعد أول حزب سياسي، فعادت العثمانيين وسمت دولتهم باسم تركيا ومن أهم مبادئها: فصل الدين عن الدولة واعتبار الجنس العربي هو الأساس. والغريب من تلك الجمعية النصرانية اتهامها الدولة العثمانية باغتصاب الخلافة الإسلامية والتفريط في الدين مع العلم أنَّ أعضاءها ليسوا بمسلمين.

أمَّا جمعية تركيا الفتاة فقد تأسّست في باريس على أيدي المتشبعين من الترك بالأفكار الفرنسية بزعامة أحمد رضا بك[1] وكانت سرية وثورية ولها فروع في برلين وسلانيك واستانبول، وأسست جريدة الأنباء التي كانت تهرّب سراً إلى العاصمة وكان فرع برلين معتدلاً بينما ضمَّ فرع سلانيك غالبية من الضباط انضمَّ إليهم فيما بعد موظف البريد طلعت الذي أصبح رئيساً للوزارة فيما بعد. وأصبحت دفّة التوجيه في الدولة العثمانية فيما بعد بيد مركز باريس. وقد رحّب المحفل

---

(١) من زعماء الاتحاد والترقي أحمد رضا بك ومراد بك والأمير صباح الدين. وهو محرر جريدة المشورة حيث دعا لأفكار غربية إصلاحية وللمركزية القوية. اصطدم مع صباح الدين الذي دعم الأرمن ودعا لإدارة لا مركزية.

الماسوني[1] الأكبر في سلانيك بتلك الجمعية حتى إنَّ الجلسات كانت تعقد في غرف المحافل الماسونية هناك. واستعمل الأعضاء الأساليب الماسونية لتأمين اتصالاتهم بالعاصمة واستمروا بذلك حتى تمكّنوا من قلب الحكم في عام ١٣٢٦ هـ الموافق ١٩٠٨ م.

صفات وأعمال السلطان محمود الثَّاني:

امتاز السلطان «محمود الثَّاني» بالشخصية القوية، وتمتع بالشجاعة والصبر والطبيعة المصممة، وكان خطاطاً وشاعراً ومؤلفاً، وكتب قصائده تحت اسم التخلص «عدلي»، أسَّس النظام الجديد المدعو «سكبان جديد». وكان من أعقل سلاطين بني عثمان، وجلّ همّه العمل بما يعود على الدولة بالمنافع والقوة، وكان جسوراً ولا يرجع عن نواياه إلَّا إذا أخرجها من القوة إلى الفعل. تمكن من إخماد فتنة ألبانيا التي أشعل نارها «تيه دلنلي علي باشا» وفتنة القره مانلي في طرابلس الغرب، وغيرهما.

أدخل «محمود الثَّاني» الكثير من الإصلاحات في كافة الولايات العثمانية، رغم أنَّه لم تخل سنة من سني حكمه من الاضطرابات والاختلالات، وكان يتغلب عليها جميعاً لسمو إدراكه وعلوّ همَّته. وأزال امتيازات الأعيان «دره بكلر» حيث تمتع هؤلاء بنوع من الاستقلال وكانوا لا يعترفون للدولة إلَّا بالتابعية الظاهرة.

تعرض للإصابة بعدوى السل عام ١٨٣١ م بعد حوادث باعثة على الأسى وجهت ضده، فحدث انحراف في صحته قبل ظهور أعراض المرض عنده بخمسة شهور، وأشار عليه الأطباء تبديل الهواء، فنقل إلى مصيف «جامليجه» من ضواحي استانبول، ثمَّ عاجلته المنية في ١٩ ربيع الآخر من عام ١٢٥٥ هـ، وعمره لا يتجاوز السادسة والخمسين، ولم تصل أنباء هزيمة «نصيبين» إلى العاصمة العثمانية بعد، ودفن في «ديوان يولو».

كانت حياته سلسلة من الكفاح الشاق لإنجاز شيء لبلاده، وبنى الكثير من

---

(١) الماسونية: جمعية سرية عالمية، تضم أتباعاً من مختلف الديانات إلَّا أنَّ المحرك الأساسي لها، هم اليهود الذي يلقون العنت من بقية الشعوب والأمم والديانات لتصرفاتهم الشاذة وآرائهم المنحرفة ونظرتهم الفاسدة إلى غيرهم من أهل الأرض.

المدارس الجديدة، وفي عهده شيدت العمارات الحديثة، كما جددت كافة مساجد «استانبول» بناءً على أوامره، كما شيد جسر «أونقاباني»[1] أثناء سني حكمه، وأنشئت في عهده أيضاً، المدرسة الشرعية الإسلامية في «مكة المكرمة» وجدد بناء المسجد الأقصى.

السلطان عبد المجيد: «١٢٥٥ - ١٢٧٧ هـ» وهي مدة ولايته. ولد في ١٤ شعبان من عام ١٢٣٧ هـ الموافق ١٨٢٣ م وتوفي عام ١٢٧٧ هـ الموافق ١٨٦١ م.

وتولى الخلافة ولم يبلغ الثامنة عشر من عمره بعد، والدولة العثمانية في غاية الاضطراب بسبب حملة محمَّد علي باشا وانتصاره في نصيبين، وانضمام الأسطول العثماني بقيادة أحمد باشا إلى جانبه لغايات شخصية محضة، ففقدت الدولة معظم قوتها العسكرية وأصبحت عاصمتها مهددة من قبله، فخشيت الدول الأوروبية وقوعها بيد شخص قوي وهي التي كانت تخطط لتمزيق الدولة العثمانية واقتسامها والسيطرة على عاصمتها إذ هالها مظهر القوة في جيش محمَّد علي وإمكانية تجديد القوة الإسلامية بصرف النظر عن الأشخاص، فأرسلت مذكرة مشتركة إلى الباب العالي موقعة من سفراء فرنسا، وإنكلترا وروسيا والنمسا، وبروسيا تطالب بعدم البت في شأن المسألة المصرية دون علمها. وعرض الموقعون استعدادهم للتوسط بين الفريقين فقبلت الدولة مرحلياً لحين استعادة ما فقدته من جيشها وأسطولها، وبعد الاجتماعات التي عقدت كانت الآراء متعارضة فطلب رئيس وزراء النمسا (مترنيخ) عقد مؤتمر في عاصمة بلاده (فيّنا) أو في لندن للبحث في ذلك الموضوع ولكنَّ المفاوضات سرعان ما توقفت ولم يحصل الاتفاق وعارضته كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا التي أعلنت أنَّها مصرة على التمسك بنصوص معاهدة «خنكار اسكله سي» وأعلن سفير روسيا مهدداً قطع علاقاته مع الباب العالي إن دخلت أساطيل بريطانيا وفرنسا البوغاز لحماية الباب العالي. وتوقفت المخابرات في عام ١٨٣٩ م ثمَّ عرضت بريطانيا على الباب العالي الضغط على محمَّد علي لإرجاع الأسطول مقابل إدخال سفنها إلى البوسفور لصد الروس عند الضرورة، ولكن

---

(١) هو ما يسمى اليوم بجسر أتاتورك، على القرن الذهبي إلى الشمال من جسر غلطة.

الفرنسيين علموا بنوايا الإنكليز فأبدوا عدم التعاون معهم ضد محمَّد علي وكانت فرنسا ترغب في احتفاظه بولايتي مصر والشام ولذريته من بعده وبحكمه مدى الحياة لإقليمي (أضنه) و(طرسوس) بينما لم ترغب إنكلترا في إعطائه إلاَّ ولاية مصر ولكنها وافقت أن يعطى بلاد الشام الجنوبية باستثناء عكا مدى الحياة الأمر الذي رفضته فرنسا.

أمَّا روسيا فانتهزت فرصة الخلاف بين الإنكليز والفرنسيين حول هذا الموضوع فاتجهت لتعميق نفوذها في الشرق وبسط حمايتها على أكبر جزء من الدولة العثمانية فأبدت استعدادها ترك حرية العمل لإنكلترا في مصر ضد محمَّد علي مقابل إنزالها جيشاً في (سينوب) على البحر الأسود بحجة نجدة الباب العالي في حال تهديدها بالاحتلال من قبل إبراهيم باشا.

ولكن إنكلترا اقترحت عليها إعلانها التنازل عن حقوقها في معاهدة (خنكار اسكله سي) السابقة الذكر لأنَّ الرأي العام لا يوافق على هذا المشروع فرفض الروس وأُجّلت المفاوضات بشأن المسألة المصرية حتى تموز من عام ١٨٤٠ م الموافق ١٢٥٦ هـ بسبب عدم الاتفاق في الآراء.

حينما علم محمَّد علي باشتراك الدول الأُوروبية في المفاوضات ومن بينها حليفته فرنسا[١] بدأ يستعد لصد العدوان بتدريب الأهلين على استعمال السلاح واستدعى جيوشه من الحجاز ونجد وتخلّى عن بلاد العرب، وأرسل الأوامر لابنه إبراهيم بالضرب بيد من حديد على كل فتنة أو تمرد. وفي عام ١٢٥٦ هـ الموافق ١٨٤٠ م عقد مؤتمر لندن بناءً على طلب النمسا، وحضر مندوب عن الباب العالي ولكنه فشل لاختلاف وجهات النظر، وفي أول آذار من ذلك العام تولى رئيس الوزارة الفرنسية الجديد (تيرس)[٢] الحكم فوضع حداً لذلك بعقد اتفاق مع

---

(١) إنَّ حوادث التاريخ تعطينا أكبر العبر بأنَّ العدو الحاقد على الإسلام والمسلمين لا يمكنه أن يقف معهم في صف واحد وإن تظاهر بذلك فسرعان ما يكشف زيفه ويفضح أمره وتظهر النوايا الغادرة الخبيثة، فهو دائماً يسعى لضربهم بعضهم ببعض بغية إضعافهم، كما أنَّه دائماً يخشى من بروز قوة معتبرة في ديارهم، ومن بينهم قد تكون منطلقاً في المستقبل لإعادة مجد الإسلام ودحر الطاغوت والكفر والضلال.

(٢) سياسي شهير ولد في مرسيليا في ١٦ نيسان عام ١٧٩٧ م عمل بالمحاماة، كتب تاريخ الثورة =

الباب العالي ومحمَّد علي يقضي بأن تلتزم الدولة العثمانية بترك ولايات مصر والشام لمحمَّد علي ولذريته. ولمَّا علمت إنكلترا بما جرى غضبت وسعت بنجاح وبدعم من الروس والنمسا وبروسيا لتوقيع معاهدة تقضي باحتفاظ محمَّد علي بالجزء الجنوبي من بلاد الشام باستثناء عكا إضافة إلى مصر، وإرجاع بقية ما احتله، وقامت بتحريض الأهالي في بلاد الشام ضده كما اشترطوا أن يكون لسفنهم حق دخول البوسفور لحماية استانبول من جيوش إبراهيم باشا ولا يحق دخول تلك المياه لأحد ما دامت العاصمة غير مهددة.

وقبل التوقيع على تلك المعاهدة بدأ تحريض سكان لبنان على العصيان من قبل إنكلترا وأرسل اللورد (يونسوبني) سفيرها لدى الباب العالي ترجمانه المستر (وود) إلى بلاد الشام لتلك الغاية، وأعلم بذلك اللورد (بالمرستون) الوزير الأول برسالة تاريخها ٣٠ ربيع ثاني من عام ١٢٥٦ هـ ونجح في تحريضه فأشهروا العصيان وامتنعوا عن تأدية الخراج ولكن تلك الحركة لم تتَّسع.

بدأ سليمان باشا بتحصين بيروت وأصدرت إنكلترا أوامرها عام ١٢٥٦ هـ بتوجيه سفنها إلى بلاد الشام لتحطيم أسطول محمَّد علي، فأرسلت فرنسا إحدى بوارجها إلى بيروت لإعلام رجال محمَّد علي بذلك فرجعت السفن المصرية إلى الإسكندرية وانزعج الإنكليز. ثمَّ صدرت الأوامر للأسطول الإنكليزي بمحاصرة سواحل بلاد الشام وأسر السفن المصرية، ووصلت بيروت فانسحبت قوات محمَّد علي وعرض عليه باسم الدول أن تكون له ولاية مصر ولذريته وولاية عكا مدى الحياة، وأفهموه أنَّ فرنسا لا يمكنها مساعدته قط، وبتصميم الدول على تنفيذها مهما تكن الظروف ولكنه رفض وانتهت مدة الإنذار، فأبلغوه بأنَّه قد فقد حقه في ولاية عكا وأُعطي مهلة عشرة أيام أُخر ولكنه أصرَّ على الرفض فاجتمع سفراء الدول في استانبول مع الصدر الأعظم وقرروا سلبه مصر والشام في حين كانت فرنسا تتظاهر أمامه باستعدادها لمساعدته بزعامة (تيرس) الذي استقال إثر ضغط شعبي نصراني ساخط عليه بتهمة الإسهام في مساعدة المسلمين. وحينما علم سليمان باشا أعلن الأحكام العرفية ووجه قواته إلى بيروت وأرسل طالباً حضور

= الفرنسية. عين في مناصب وزارة عديدة آخرها وزارة الخارجية حتى عام ١٨٣٦ م، كان من معارضي سياسة نابليون العسكرية.

إبراهيم باشا بجيشه الذي كان يعسكر قرب بعلبك فوصل المذكور إلى بيروت، ثمَّ بدأت السفن البريطانية تطلق نيرانها على الميناء وأنزلت المشاة البرية في شمال بيروت على بعد ستة أميال وطلبت إخلاءها في حين كانت حمم المدافع تنصب عليها طيلة النهار ومسائه واستمرت يوماً آخر. وأحرقت معظم المواقع الساحلية، ولم تفعل الدول النصرانية الحاقدة ذلك حباً في الدولة العثمانية - التي كانت على وشك الاتفاق مع محمَّد علي ولكن بقصد التمهيد لتحقيق أطماعها وتأمين مصالحها. ثمَّ عزل الأمير بشير الشهابي عن إمارة الجبل، وترك بلاد الشام إذ إنَّه كان رجلاً يتبع الأقوى ثمَّ نفاه الإنكليز إلى مالطا في ٦ رمضان عام ١٢٥٦ هـ وهو ابن ٨٥ عاماً، ثمَّ احتلَّ الإنكليز المدن الساحلية جميعها، وخرج المصريون وأذعن محمَّد علي لمطالب الدول الأوروبية وأصدر أوامره بسحب الجنود من بلاد الشام وعاد الجيش في شوال عام ١٢٥٦ هـ ووصل إلى القاهرة بعد أن أضناه التعب والجوع والعطش ومات الكثير من أفراده وضباطه في مناوشات مع العرب. أمَّا إبراهم باشا فوصل إلى غزة بعد أن مات ثلاثة أرباع من كان معه أثناء استبداله الطريق خوفاً من الهلاك والتنكيل ثمَّ قامت السفن من هناك بنقله ومن معه، وامتثل محمَّد علي لرأي الإنكليز وأعاد الأسطول العثماني فأعطيت له مصر ولذريته وجرى الاتفاق في ٢ شوال من عام ١٢٥٦ هـ وقبل الباب العالي ذلك بعد تردد طويل وصدر أمر همايوني بهذا الصدد في ٢١ ذي القعدة من عام ١٢٥٦ هـ.

ثمَّ اتفقت الدول إثرها على إبقاء المضائق مغلقة أمام الجميع وذلك بمقتضى معاهدة المضائق في عام ١٢٥٧ هـ الموافق ١٨٤١ م وفقدت الروسيا كل ما اكتسبته في مساعيها السابقة. ووقع المعاهدة كل من الباب العالي والنمسا وفرنسا وبريطانيا وروسيا وبروسيا، وبمقتضاها اعترفت هذه الدول بحق الدولة العثمانية المطلق على المضيقين وأن لا يسمح لدولة أن تمر بسفنها الحربية منهما أصلاً.

المسألة اللبنانية المارونية الدرزية:

ازداد تدخل الدول النصرانية في شؤون الدولة العثمانية التي كانت تعيش أواخر عهود انحطاطها تحت شعار إنصاف النصارى والدفاع عنهم فثارت المقاطعات البلقانية ذات الأغلبية النصرانية الواحدة تلو الأخرى حتى تمكن بعضها من الانفصال عن الدولة واندمج بعضها الآخر في الدول الأوروبية التي كانت

تدعمه ولم يتمكّن قسم منها من الحصول على الاستقلال فحصلت المذابح في صفوف الأرمن واليونان. كما حدثت في بلاد الشام مذابح بعد جلاء قوات محمَّد علي بقصد إثارة المشكلات والمصاعب أمام الحكومة العثمانية صاحبة السيادة في تلك البلاد.

وقامت إنكلترا في عام ١٢٥٦ هـ بتسليح الدروز ودفعهم ليثوروا ضد بشير الثالث الذي عينته الدولة العثمانية في منصبه فاقتحموا القرى المارونية فتصدى لهم الموارنة ودمرت بعض القرى واستولى الدروز في النهاية على جنوبي لبنان. وسارعت الدولة العثمانية فاعتقلت بشير الثَّالث واقتيد إلى جنوبي العاصمة وعين عمر باشا التركي والياً خلفاً له فقام بالتشديد على الدروز فاستاءت الدول الأوروبية من الحكم العثماني المباشر على لبنان ثمَّ أُجري استفتاء فتبين أنَّ الموارنة يرغبون في حاكم نصراني شهابي بينما صوَّت الدروز إلى جانب الحكم العثماني ولكنهم قاموا بتمرد جديد، فسحقوا مرة أخرى، وما لبثت المشادات أن عادت من جديد في عام ١٢٦٠ هـ بسبب المناطق المختلطة بين الطائفتين فاتخذ اقتراح بحل وسط من قبل القنصل الفرنسي الذي تعمد توسيع الحرب الأهلية فقام الموارنة بتقتيل الدروز وقام الآخرون بالرد مقابل ذلك فغير الباب العالي سياسته وكانت الغلبة للدروز وانتقلت الحركات للشمال ثمَّ أُخمدت[١] واتهم عثمان بك قائمقام حاصبيا و«أحمد باشا» والي دمشق. بمساعدة الدروز. ثمَّ تداخلت دول أوروبا وعرضت فرنسا استعدادها إرسال جيوشها إلى بلاد الشام بحجة حماية النصارى وتسكين الفتنة ولم تقبل الدول في البداية ولم يقبل الباب العالي أيضاً وقررت الدولة تسيير قوة عسكرية لإخماد الثورة بالديار الشامية قوامها سبعة آلاف جندي اتجهت إلى بيروت لإخماد الفتنة، وعقد مجلس حربي من أمراء الجيش وحاكم رؤساء الفتنة وقتل كثيرين منهم وقتل أيضاً والي دمشق المتهم بمساعدة الدروز ضد النصارى ويقال إنَّ سبب مقتله حقد شخصي موجه ضده من قبل فؤاد باشا وزير الخارجية العثماني. ولم تقنع دول أوروبا بذلك بل اتَّفقت على أن ترسل فرنسا إلى الشام قوة عسكرية لمساعدة الجيش العثماني، فتوقف السلطان في بداية الأمر لكنه عندما رأى

---

(١) من دواعي نشوب القتال بين الدروز الذين دعموا من إنكلترا والموارنة الذين وراءهم فرنسا ادعاء إنكلترا بأنَّ الدروز يمثلون الإسلام ممَّا حدا بأن تأخذ صبغة معينة وامتدَّ لهيبها بعد ذلك إلى سوريا حيث وقعت فعلاً بين المسلمين والنصارى.

إجماعهم على ذلك عاد وقبل. وكانت القـوة الفرنسيـة التي أُرسلت تبلغ عشرة آلاف جندي والقصد منها منع التعدي الحاصل على طائفة الموارنة من الدروز. وعندما وجدت الأحوال ساكنة بعد نزولها لم تبد أي حركة. وأرسلت الدولة أيضاً عمارة حربية جعلت قيادتها لأحمد باشا القيصرلي ثمَّ حصل اجتماع ببيروت تحت رئاسة فؤاد باشا الذي أوجد بمهارته الخلاف بين الدول ووضعوا نظاماً لجبل لبنان جعل حاكمه مسيحياً يتصل بالدولة مباشرة.

ومن العوامل التي غذّت هذه الحركات النشاط التبشيري الذي وجد أمامه الأبواب مفتوحة بعد أن كانت موصدة وخاصة قبل عهد التنظيمات هذا، والتي سنذكرها بعد قليل، فقد بدأ التغلغل الصليبي متخذاً من الامتيازات والتسهيلات الجديدة ذريعة ومستنداً. وقوي ذلك النشاط بشكل فعال بعد خفوت ملحوظ في بداية القرن الثَّالث عشر الهجري أي في مستهل القرن التاسع عشر الميلادي، وقد افتـتحت المدارس التبشيرية والمؤسسات في سوريا وفلسطين لنشر النصرانية وبسط نفوذ دولها هناك وكانت أولها الإرساليات الكاثوليكية للعازاريـين، كما بعثت فرنسا والفاتيكان التي كانت تدير التبشير الكاثوليكي نظام بطريركية القدس اللاتينيـة الذي كان قائماً في وقت من الأوقات أيام الصليبيـين وظهرت أول إرسالية أميركية في عام ١٢٣٥ هـ ثمَّ تمَّ افتـتاح أكثر من ثلاثين مدرسة ودار طباعـة قبل عـام ١٢٧٥ هـ وفي عام ١٢٨١ هـ افتـتحوا الكلية البروتستانتية السورية التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأميركية التي لعبت دوراً كبيراً في مجريات الأحداث المعاصرة والتي لا تزال تخرج الأفواج إثر الأفواج ممَّن تنكروا لبعض أهداف أُمتهم ومبادئها وقيمها طبقاً للمخطط الصليبي الرهيب. وفي عام ١٢٦٥ هـ كانت قد ظهرت إرسالية دينية روسية في القدس، كما قامت إنكلترا بمساندة البروتستانت. وخطط الألمـان لفلسطين وأُنشئت في القـدس قبلها عـام ١٢٥٦ هـ أسقفية إنكليـزيـة بروسية، وشجعت إنكلترا خطط الصهيونية هناك. وفي هذه المناسبة فإنَّ عـدد اليهود في فلسطين في منتصف القرن الثَّالث عشر الهجري كان لا يبلغ إحدى عشر ألفاً فقط معظمهم تواجدوا لأغـراض دينية. وقـد قدّم اللورد (شفـتيري) عام ١٢٥٤ هـ الموافق ١٨٣٨ م ثمَّ (غولر) والقنصل البريطاني في القـدس (جيمس مين) جملة من المشروعات لإسكان اليهود هناك وإنشاء دولة يهودية فيها وحظيت تلك المشروعـات بعـطف (بـالمرستـون) والصهيـوني اليهـودي الإنكليـزي

(مونتفينوري) الذي يمت بصلة لأسرة (روتشيلد) وقد قام هذا بزيارة الشرق عدة مرات. وابتاع في عام ١٢٧٢ هـ بستان برتقال قرب يافا ولكنه لم يتمكن من استمالة اليهود وكذلك أخفق مشروع الأسقفية الإنكليزية البروسية.

التنظيمات:

تنبَّه السلاطين العثمانيون ومستشاروهم إلى ازدياد ضعف الدولة نسبة لأوروبا فجرى كما مرَّ معنا تحرك في القرن الثَّاني عشر هدفه السير بالجيش على أنظمة غربية، وكان الأوَّل من نوعه، وقد ذكر كيف قام السلطان سليم الثَّالث بدعم ذلك الاتجاه بعد أن اعتلى العرش عام ١٢١٣ هـ وكيف أنَّه جابه صعوبات كثيرة. ولكن السلطان محمود الثَّاني الذي خلفه استطاع تحويل الاتجاه إلى تلك الوجهة دون معارضة تذكر إذ إنَّ الحاجة إلى الإصلاح لم تكن للوقوف في وجه أوروبا فقط ولكن للقضاء على تمرد الرعايا النصارى المتزايد يوماً بعد يوم. وبعد وفاة السلطان محمود الثَّاني بأربعة أشهر استدعي رشيد باشا السفير فوق العادة في لندن إلى العاصمة ليعيّن وزيراً للخارجية، وما أن تسلّم منصبه حتى حمل الدعوة لنظام حكم برلماني دستوري مدّعياً عزمه على رفع الدولة العثمانية إلى مصاف الدول المتقدمة عن طريق سن دستور ينص على حقوق المواطنين وإلغاء عدم المساواة البارزة، وقد استطاع الحصول على تأييد السلطان الشاب عبد المجيد ومن ثمَّ أُعدّت وثيقة دستور بكتمان كلي. وفي ١٦ شعبان عام ١٢٥٥ هـ دعي الوجهاء والسفراء الأجانب وممثلي التجار إلى قصر الزهور، (الكلخانة) وقرأ عليهم السلطان خط الكلخانة الشريف الذي سميت نصوصه بالتنظيمات الخيرية، ومن جملة ما قال: «. . . لا يخفى على عموم الناس أنَّ دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهي جارية على رعاية الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها. ولذا كانت قوة سلطتنا السنية ورفاهية وعمارية أهاليها وصلت حد الغاية، وقد انعكس الأمر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناءً على طروء الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة فتبدلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر[1]. . . » ثمَّ جاءت بيانات يمكن تلخيص بعضها فيما يلي:

---

(١) من الملاحظ عدم وضوح الرؤية الصحيحة من وجهة النظر الإسلامية لدى السلطان الشاب. كما =

١ ـ صيانة حياة وشرف وممتلكات الرعايا بصورة كليـة بغض النظر عن المعتقدات الدينية.

٢ ـ ضمان طريقة صحيحة لتوزيع وجباية الضرائب.

٣ ـ توخّي العدل والإنصاف في فرض الجندية وتحديد أمدها.

٤ ـ المساواة في الحقوق والواجبات بين المسلم وغير المسلم.

وقد دعا ذلك الخط، للحرية الشخصية والتملك الشخصي بحرية تامة حتى لورثة الجناة وأصبحت ممتلكاتهم لا تصادر، وأدخل التجنيد العام، وقسَّم الجيش لست فيالق اثنان في شبه جزيرة البلقان وفيلقان في آسيا الصغرى وفيلق في سوريا وآخـر في العراق كـما وضعت قوات في اليمن، واستـدعى الخبراء الفـرنسيون والبروسيون لتـدريب الضباط وافتـتحت المـدارس التدريبيـة للأطبـاء وموظفي الدولة المدنيـين، وأرسل الطلبة لأوّل مرة إلى أوروبا لإتمام تحصيلهم، فأنشأت وزارة المعارف، وأعلن مبدأ التعليم المجاني والإجباري، وأعيـد تنظيم الإدارة المحلية والمركزية، ولربما كان الشيء الأكثر خطورة هو ذلـك النوع من النـظام العلماني الجديد الذي أدخل، لإصلاح السلطة القضائيـة، ولم يبق تحت حكم الشريعة الإسلامية سوى قانون الأحوال الشخصية، وأصدر قانون جنائي جديد يعتمد على القانون الفرنسي، ثمَّ نشر قانون تجاري في عام ١٢٦٧ هـ. وازدادت الاتصالات مع الغرب، فمن جهة عُيِّن الشبان العثمانيون الذي تعلموا في ديار الغرب ديبلوماسيون ووجد كثير من السياسيـين الأكفّاء القديرين من أحرار أوروبا ملاذاً لهم بعد الثورات الأوروبية عام ١٢٦٥ هـ الموافق ١٨٤٨ م في العاصمة العثمانية من جهة أخرى، وشقّت الأزياء الأوروبية طريقها إلى العاصمة الإسلامية وأعطى السلطان المثل بارتداء اللباس الأوروبي وبمنحه العطايا وإقامة المناسبات والحفلات على ذلك الطراز.

وأتـت حركة التنظيمات بنظام «الباب العـالي» بديـلاً عن نظام الـديوان كجهاز لإدارة الدولة وهو يشبه مجلس الوزراء اليـوم، وأصبح الصـدر الأعظم

= يظهر اضطراره إصدار تلك التنظيمات التي وضعها رجال تربوا ونشأوا على حب الغرب ومبادئه التي استفحل خطرها شيئاً فشيئاً حتى تحقق لدعاتها وحملتها ما يصبون إليه فيما بعد وبدعم من أسيادهم المحركين لهم في الخفاء.

والوزراء يقاسمون السلطان السلطة، وتراجع نظام مشيخة الإسلام إلى الدرجة الثانية من حيث الاعتبار. وكان هدف رشيد باشا مقتبس هـذه التنظيـمات من الغـرب إرضاء إنكلترا وفـرنسا وكسب ودّهمـا وكان عـلى اتصال دائم بـاللورد «بالمرستون» وزير الخارجية البريطاني.

بقيت تلك الإصلاحات سطحية لأنَّها لم تمس جوهر المرض. بل كـانت تظاهرة أمام أعين الغرب فقط الغرب الذي كان جلَّ اهتمامه ينصب على الاهتمام بأحوال الرعايا من النصارى في البلاد العثمانية وليس تقدم المسلمين أو خروجهم من القرون الوسطى أو إدخال النظم الحديثة إلى بلادهم باستثناء المظاهر الزائفة التي كانوا ولا يزالون يهتمـون بانتشـارها من لبـاس وعادات ليس وراءهـا إلَّا الإخلال بتعاليم الإسلام واستباحة محرّماته، ولذلك طالب أُولئك الصليبيون بأن يكون قصد الإصلاح أمن وسعادة كافة المواطنين دون اعتبار الدين.

وقد أدخل نظرياً قانون مبدأ المساواة التامة الغـربي الحديث والعلماني في الدولة قبل قانون الرعايا، ومع ذلك فعدّوها سطحية وطالبوا بما دعوه إصـلاح الأفئدة والعقول وثورتها في صفوف من يقودون دفّـة الحكم في الدولـة، وازداد تدخلهم في شؤونهم تحت شعار إنصاف النصارى والدفاع عن حقوقهم. وقوبلت التنظيمات بمعارضة شديدة من كل الفئات داخل البلاد وتزعم علماء الدين حركة المعارضة، وقام طلاب المعاهد الشرعية بالتظاهر وطالبوا بعزل رشيد باشا واتهموه بالكفر والإلحاد والتفرنج.

حرب القرم:

تمهيد: لقد حدثت في أُوروبا عام ١٢٦٥ هـ الحركة الدستورية وبدأت في باريس بظهور الجمهورية الثانية بعد إسقاط حكومة (لويس فيليب) ثمَّ تسربت الأفكار إلى (برلين) و (فيـينا) و (براغ) وغيرها فاضطرت حكوماتها إلى استعمال القوة. وأرسل الروس قوة لكبح جماح الحركة في بولونيا قبل استفحال خطرها كما ساعدوا النمسا ضد المجر وألحّوا على الدولة العثمانية تسليم اللاجئين المجريـين فهم كانوا يطمعون في المجر كطريق صوب البلاد العثمانية ولكن البـاب العالي رفض الطلب بناءً على أحكام القوانين الدولية ولجأ قواد المجر ومثقفيها وعددهم ستة آلاف إلى البلاد العثمانية وتسربت الأفكار الغربية إلى (الأفلاق) و (البغدان)

وتمكّنتا من إقامة حكومة مؤقتة، ولكنَّ الدولة أرسلت قوة عسكرية بقيادة عمر باشا لإعادة الأمور إلى نصابها. ولكنَّ الروس تدخلوا وطردوا الحكومة المؤقتة واحتلوا الأفلاق ممَّا أدى إلى اقتراب شبح الحرب بينهم وبين العثمانيين لولا حدوث مفاوضات لمنع الحرب كما طلبوا من الدولة تسليم اللاجئين المجرمين فامتنعت الدولة من تسليمهم إذ اتفقت الدولتان على احتفاظ الباب العالي بحق تعيين الأمراء وأن تبقى البلاد تحت حكم عثماني روسي مشترك لمدة سبع سنين وسمي ذلك الاتفاق باتفاق (بلطه ليمان) وهي موقع تركي على ضفة البوسفور الأوروبية قرب (استانبول).

وهكذا كان من نتائج حركة الأفكار في أوروبا: ثورة أهالي الإمارتين على أميريهما وخوف الروس من ضعف نفوذهم هناك واحتلالهم للولايتين.

الأسباب: حصل القساوسة الكاثوليك بموجب الامتيازات الممنوحة لفرنسا عام ١١١٣ هـ في الدولة العثمانية على حقوق خولتهم امتلاك الكنائس فيها، وكان الروس يسعون جاهدين لسلبهم تلك الامتيازات وإعطائها للأرثوذوكس بسبب حمايتهم لذلك المذهب ولنشر نفوذهم في الدولة عن طريق تحريك رعاياهم وضرب الدولة بهم. كما أنَّهم لا يريدون أن يروا الدولة العثمانية دولة متقدمة فانتحلوا هذه الأعذار وأمثالها كي يتدخلوا في شؤونها.

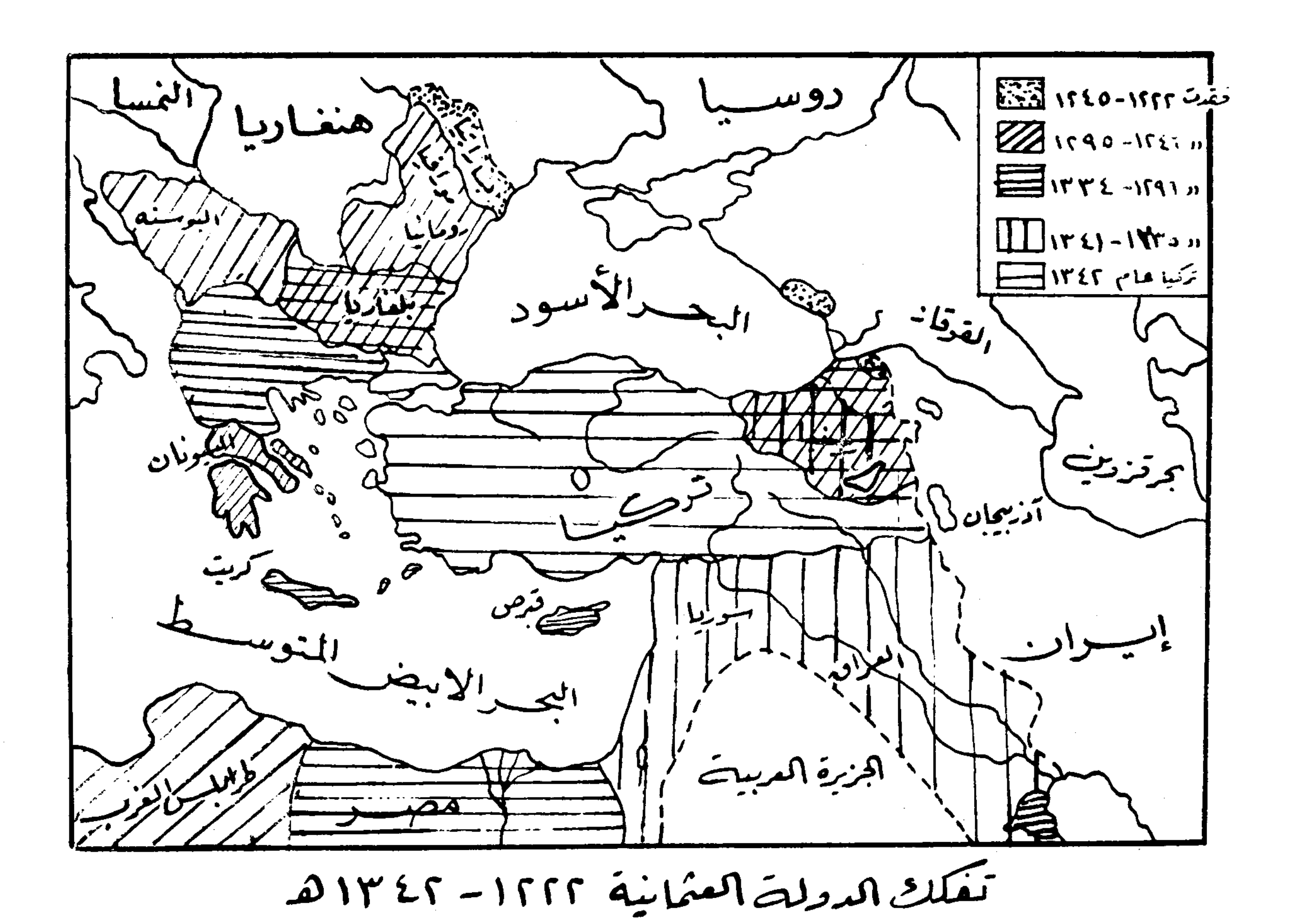
وبما أنَّ فرنسا كانت منشغلة بحروب نابليون والثورة فإنَّها لم تتمكن من المحافظة على مركزها هناك، فسيطر الأرثوذوكس على مركز النفوذ. فقام نابليون الثَّالث بمحاولة لإعادة الوضع في محاولة لإرضاء الرأي العام الفرنسي بالتدخل لدى الباب العالي لفضّ الخلاف فتقرَّر حق أولوية للكاثوليك فعارض الروس وهددوا الباب العالي بالحرب فيما لو نفذت القرارات، ولكنَّ الدولة العثمانية كانت حازمة ولم تتراجع عن موقفها فوجد الروس أنَّ الفرصة قد أصبحت ملائمة لتنفيذ وصية بطرس الأكبر إذ بعد أن تجسسوا على مواقع الجيوش العثمانية قاموا بالتفاوض مع الإنكليز الذين عارضوا الخطة خوفاً من امتداد النفوذ الروسي باتجاه الشرق، ثمَّ قام نابليون من جهة أخرى بالاتصال مع الإنكليز للتحالف مع الباب العالي لحماية الأماكن المقدسة من النفوذ الروسي ولخوفهم من ضياع سيطرتهم على طرق المواصلات.

لجأ الروس إلى فرنسا حين لم يجدوا أذناً صاغية من إنكلترا عارضين

التساهل في أمر احتلالها لتونس وبلاد المغرب، مقابل تساهلها في أمر الأماكن المقدسة، لكنهم لم يجدوا منها أذناً صاغية أيضاً.

وحينما وصل السفير الروسي إلى استانبول قام عمداً بالإخلال في أصول القواعد المتَّبعة أثناء مقابلة السلطان فتبيَّن لرجال الدولة العثمانية مقصد الروس ونواياهم في إعلان الحرب عليهم واقتسام أراضيهم. ثمَّ أرسل الفرنسيون أسطولهم إلى مياه اليونان استعداداً لأي طارئ واستنفر الإنكليز قواتهم البحرية في مالطا. لقد أراد الروس إثارة النعرات الطائفية بين الأرثوذوكس والكاثوليك لا لشيء بل لإرباك الدولة العثمانية وإبعادها عمَّا وصلت إليه أوروبا من تقدم حربي وعلمي، فتقع لقمة سائغة بأيديهم، وإلَّا فالتنظيمات تعطي جميع الطوائف حقوقها. ولم يقبل الروس توسط إنكلترا لأنَّ هدفهم ليس الحصول على حل نتيجة التوسط بل تدمير الدولة العثمانية.

ثمَّ قام السلطان عبد المجيد بإعادة رشيد باشا الذي كان قد أعفاه سابقاً إرضاءً للروس فتبين عزمه على رفض طلباتهم فقطعت العلاقات بين البلدين بعد أيام قليلة وهدد الروس باحتلال (الأفلاق) و (البغدان) فأعلمت الدولة العثمانية إنكلترا بما حصل وانضمَّت فرنسا مع إنكلترا إلى جانبها ضد روسيا وأصدرت أوامرها إلى قواتها البحرية بالاقتراب من الدردنيل، ثمَّ أصدر الروس مذكرة إلى الدولة العثمانية مهددين باحتلال الأفلاق والبغدان في حالة استمرارها التمسك بموقفها، ولكنها رفضت تلك المذكرة فعبر الجنود الروس نهر (البروت) الفاصل بين الدولتين طبقاً لمعاهدة ١٢٦٩ هـ الموافق ١٨٥٣ م واحتلوا الأفلاق والبغدان آملين دعم امبراطور النمسا والمجر (فرانسوا جوزيف) الذي تردد ودعا لعقد مؤتمر يحضره الفريقان في (فيينا) وانعقد المؤتمر في شهر ذي الحجة من عام ١٢٦٩ هـ وكانت العبارات غامضة ولكن الروس قبلوها وفسروها حسب ميولهم بينما رفضها الباب العالي فانفضَّ المؤتمر بدون جدوى وتكشفت مقاصد الروس، فقام العثمانيون بالطلب إليهم إخلاء الولايتين ولكنَّهم رفضوا فقام قائد الجيوش العثمانية – عمر باشا – بعبور النهر في أول صفر من عام ١٢٧٠ هـ وبعد موقعة عظيمة انتصر العثمانيون ودحروا العدو من مواقعهم الموجودة على ضفة النهر اليسرى، فاندهش العالم بذلك ولكنَّ العثمانيين عادوا إلى مواقعهم لحلول الشتاء القارس وتساقط الثلوج.



تفكك الدولة العثمانية ١٢٢٢ - ١٣٤٢هـ

أمَّا من جهة القفقاس في آسيا فاجتاز العثمانيون الحدود بقيادة عبد الكريم نادر باشا واحتلوا بعض المواقع. وحرّض الشيخ شامل الداغستان على الثورة ضد الروس وتحركت قبائل الشركس لجهات قارص ثمَّ توقفت الحرب بسبب الشتاء وكان الروس أثناءها يحاولون استجداء عطف امبراطور النمسا والمجر من دون جدوى. وتصدت العساكر العثمانية في سواحل الطونة ومناطق شمال بلغاريا وجنوب شرقي رومانيا وجنوبها. ثمَّ اقتربت السفن الإفرنسية والإنكليزية من البوسفور لمسافة أقرب.

ودمر الروس في ٢٨ صفر من عام ١٢٧٠ هـ الموافق ١٨٥٣ م الأُسطول العثماني الراسي في ميناء سينوب على البحر الأسود على الرغم من التعهد المسبق، فأمر الإنكليز والإفرنسيون سفنهم بدخوله واقترح نابليون على القيصر عقد مؤتمر للصلح شريطة الانسحاب من الأفلاق والبغدان متعهداً بالعمل على سحب سفنهم منه مقابل ذلك ولكن قيصر روسيا أجاب بعدم الإمكانية. والجدير بالذكر أنَّ التضحيات العثمانية في هذه المعركة كانت جسيمة عندما أمر القادة بإحراق السفن بمن فيها وضحى القائد بنفسه أيضاً حتى لا تقع في يد الأعداء فكانت هذه الخسارة سبباً في إضعاف قوة باقي السفن العثمانية. وعند ذلك صعد عساكر الروس فوق السواري وهللوا فرحاً. وتجلت وحشية الروس بإطلاق النار على الجرحى وعلى السباحين طالبي النجاة والمستغيثين وكان عدد القتلى أكثر من ألفي نفس في أول القتال. وأسر «عثمان باشا» القائد العثماني بعد أن جرح. ثمَّ انسحب الروس إلى «سباستبول» قبل ورود السفن الحربية الإنكليزية والفرنسية من البوغاز إلى «سينوب». ثمَّ عقدت اتفاقية عسكرية بين الدولة العثمانيةوإنكلترا وفرنسا وقال أحد البحارة الإنكليز ممَّن شهد الأحداث: إنَّ الأساطيل العثمانية حاربت الأعداء بكل شجاعة وإقدام مع ما كانت عليه من القلة بالنسبة لأساطيل الروس. وأطلق الروس فرية مفادها أنَّ تلك الأساطيل العثمانية التي أحرقوها كانت متجهة إلى القوقاز وهي تحمل الذخائر والمؤن إلى المسلمين هناك لتحريضهم على الروس وهو وهم اختلقوه لتبرئة أنفسهم أمام دول أُوروبا وأنَّ التعدي كان مقصوداً. وفي ٢٧ جمادى الثانية من عام ١٢٧٠ هـ أعلم نابليون مجلس نواب فرنسا بإعلان الحرب على روسيا، ثمَّ جرى اتفاق في لندن بين إنكلترا وفرنسا على منع روسيا من التمكن من احتلال أي جزء من أراضي الدولة العثمانية، وبعدها

نزلت الجيوش المتحالفة في (غاليبولي) و (الآستانة) في عام ١٢٧٠ هـ بعد أن كان القتال قد بدأ في البحر الأسود وأطلقت المدافع قنابلها على ميناء (أوديسا) في ٢٤ رجب وتمَّ تدمير القلاع وانسحبت الأساطيل بعد ذلك من أمام المدينة إلى ميناء (سباستبول) وضربت المواقع الروسية على البحر الأسود فأعلن القيصر (نيقولا) الحرب على الدول المعادية في ١٣ رجب من عام ١٢٧٠ هـ وأصدر الأوامر بعبور نهر الطونة ومحاصرة مدينة (سلستريا) فقام المارشال بسكيدفتش بتنفيذ الأوامر ولكن سلستريا قاومت ببسالة شديدة على الرغم من قلة الجنود العثمانيين فيها وبقيادة موسى باشا الذي يعد من مشاهير القادة. ثمَّ زحفت القوات المتحالفة باتجاه (فارنا) على البحر الأسود وبقصد فك الحصار عن المدينة فهرب المارشال الروسي بجيشه وفك أسر المدينة بذلك فلحقه عمر باشا وعبر نهر الطونة خلفه وكاد يحتل الأفلاق والبغدان لولا التدخل النمساوي الذي بسط سيطرته عليهما قبل وصول الجيش العثماني فمنعه ذلك من ملاحقة الروس المنهزمين.

ثمَّ تمَّ الاتفاق على احتلال النمسا لأراضي الولايتين حال إخلائهما من قبل الروس وتعهدت (أي النمسا) بانضمامها إلى جانب المتحالفين في محاربة الروس إذا ما حاولوا اجتياز جبال البلقان. وبدأت قوات النمسا بالحلول تدريجياً أولاً بأول مكان القوات الروسية التي لم تعارض بذلك إذ إنَّ ذلك يحول دون احتلالها من قبل العثمانيين أو الفرنسيين.

وفي ٢٥ شوال من عام ١٢٧٠ هـ اجتمع قادة الجيوش في (فارنا) وقرروا نقل ساحة المعركة إلى داخل الأراضي الروسية وبلاد القرم ومحاصرة (سباستبول) الحصينة، وتمَّ ذلك فعلاً ودارت أولى المعارك بين الطرفين وهزم الروس واحتلَّ الفرنسيون المرتفعات المشرفة على نهر (ألما) بينما تقهقر الروس نحو (سباستبول) بدون ملاحقة. ثمَّ هاجم المتحالفون (بلكاو) الميناء الأمين للإنزال والتموين ثمَّ ابتدأ هجوم (سباستبول) بدون جدوى فأوقف القتال بعد عدة معارك لدخول فصل البرد القارس وانتشار الأمراض واستمرت أعمال الحصار والدفاع حول تلك المدينة وداخلها.

وفي السنة نفسها كان الإنكليز والفرنسيون قد قاموا بضرب المواقع الروسية في البلطيق والباسيفيك وغيره من دون الحصول على مكاسب تذكر.

ثمَّ أُجريت المفاوضات في فيينا بقصد الصلح وإنهاء الحرب وصادق امبراطور النمسا والمجر على الاتفاقات. وفي جمادى الأولى من عام ١٢٧١ هـ الموافق في ١٧ شباط من عام ١٨٥٥ م هاجم الروس العثمانيين ولكن عمر باشا تصدى لهم وردهم على أعقابهم بعد أن قتل منهم الأعداد الكبيرة ولم تقم الجيوش المتحالفة بمساعدة الجيوش العثمانية بل كان النصر على أيدي المسلمين فقط فأُصيب القيصر بالهم والحزن الشديد ممَّا أدى إلى موته من شدة ما أصابه من تأثر وخلفه ابنه اسكندر الثَّاني.

ثمَّ أرسل فيكتور عمانوئيل ملك (بيمونت) بإيطاليا جيشاً إلى بلاد القرم لمحاربة الروس والاشتراك في فتح قلعة (سباستبول) وضيق الفرنسيون والإنكليز الحصار عليها حتى سقطت في ٢١ رمضان من السنة نفسها. ثمَّ انتصر المتحالفون في ١٢ ذي الحجة من عام ١٢٧١ هـ في موقعة (تركيتو) وسقط حصن (ملاكوف) وقلعة (جران ريدان) وأخلى الروس (سباستبول) وأحرقوها. ثمَّ احتلَّ المتحالفون مدينة (قلبرون) في ٢ صفر عام ١٢٧٢ هـ ولولا حلول الشتاء الباكر لسقطت كيف بعد فترة وجيزة. وقد عطلت التجارة في البلطيق بسبب ضرب المواقع البروسية هناك واحتلَّ ميناء (بيتروباولوسك) في الباسيفيك.

ثمَّ دخلت الحرب طورها السياسي لتيقن الامبراطور الروسي استحالة الانتصار وقبل الروس الاقتراحات الجديدة وتمَّ الاتفاق على مؤتمر جديد لتقرير السلم في باريس وانعقد في يوم ١٨ جمادى الثَّانية برئاسة الكونت (ولوسكي)(١) وزير خارجية فرنسا وقد رفعت بنود هذه الاتفاقية نابليون إلى قمة المجد والقوة وأعادت لفرنسا سابق سمعتها وحفظت للدولة العثمانية أملاكها من الخطر الروسي.

أمَّا أطراف المعاهدة فهم: بريطانيا - فرنسا - الدولة العثمانية - روسيا - سردينيا - أستريا (النمسا) كما انضمت إليهم بروسيا فيما بعد. وقد قضت بإقرار الصلح بين بريطانيا وفرنسا والدولة العثمانية وسردينيا من جهة وبين روسيا من جهة أخرى، وبين الحلفاء والرعايا ودولهم وبإخلاء البلاد التي فتحت وبإعادة

---

(١) سياسي فرنسي ولد عام ١٢٢٥ هـ دخل الجيش وعمل بالسياسة عام ١٢٥٦ هـ وعين وزيراً للخارجية عام ١٢٧١ هـ ولمدة خمس سنين ثمَّ عين رئيساً لمجلس شورى القوانين. توفي عام ١٢٨٤ هـ.

مدينة قارس وسائر المواقع التي استولى عليها الروس من ملحقات الدولة العثمانية، وفي المقابل يرد المتحالفون سباستبول والمواقع والقلاع الأخرى كما نصَّت على العفو العام عن الرعايا المنحازين إلى الجانب الآخر وبإرجاع الأسرى فوراً وبالتعهد باحترام استقلال الدولة العثمانية وإشراكها في الإفادة من الحقوق الأوروبية العامة كما قضت بتوسط الدول الأخرى حين حصول خلاف بين الباب العالي وإحدى الدول المتعاهدة وباستصدار قرارات من الباب العالي تنص على إجراء إصلاحات جديدة تجاه النصارى بصورة خاصة وبإعادة النظر باتفاق عام ١٢٥٧ هـ بشأن المضائق وبتحييد البحر الأسود ومنع صنع السفن فيه وتحديد عددها من قبل الدولة العثمانية والروس، كما نصَّت على حرية الملاحة النهرية في نهر (الدانوب) (الطونة) بالإضافة إلى اتفاقات أخرى بشأن نهر الطونة والحدود الروسية البسارابية. أمَّا بالنسبة إلى الأفلاق والبغدان فقضت ببقائها تحت السيادة العثمانية على أن تتمتع بامتيازات وإعفاءات واستقلال داخلي مع كفالة ذلك من قبل الدول المتعاقدة. وبأن يحفظ لهما الباب العالي الإدارة الأهلية وحرية التدين والأحكام الخاصة والتجارة والسفر وبأن يكون لهما جيش أهلي للأمن والحماية وقيّد تدخل الباب العالي حين تهديد أمنها الخارجي بالحصول على موافقة الدول كما قيد تدخله في شؤون الصرب بموافقة الدول أيضاً وبأن يبقى الارتباط الصربي العثماني مكفولاً منها أيضاً مع إعطاء الصرب حرية داخلية.

وقد أقرَّت الدولة العثمانية هذه الاتفاقية المجحفة بحقها ووقع عليها الوزير العثماني عالي باشا[1] ثمَّ اجتمع المؤتمر وقرر رفع الحصار البحري عن موانئ روسيا وسحبت فرنسا وإنكلترا وبيمونت جنودها من القرم كما قرروا إخلاء الأفلاق

---

(١) عالي باشا: هو محمَّد أمين عالي باشا ولد عام ١٢٣٠ هـ في استانبول، وهو أول وزير عثماني عرف بالسياسة الإصلاحية ذات الطابع الغربي، وهو أحد ثلاثة اكتسبوا شهرة واسعة في عهد التنظيمات وهم (عالي باشا، مصطفى رشيد باشا، فؤاد باشا). كان أبوه حانوتياً صغيراً ولم يتمكن من تعليم ابنه رسمياً وأدخله سلك الخدمة المدنية في وظائف ديبلوماسية إلى فيينا عام١٢٥١ هـ الموافق ١٨٣٦ م ترقى إثرها وأصبح سفيراً للدولة العثمانية في لندن عام ١٢٥٦ هـ فوزيراً للخارجية بعد عودته وذلك في وزارة السيد مصطفى رشيد باشا، اشترك في مؤتمر فيينا عام ١٢٧١ - ١٢٧٢ هـ ثمَّ أصبح صدراً أعظم خمس مرات، قاوم جهود السلطان في تحديد سلطات الصدر الأعظم وأخمد المشكلات في صربيا ومولدافيا وفالاشيا سلمياً وهدأ ثورة كريت. تعاطف مع فرنسا وبريطانيا خلال حكم السلطانين عبد المجيد وعبد العزيز توفي في استانبول عام ١٢٩٩ هـ.

والبغدان وتسليم قارص وغيرها. . . لقد كان باعث المتحالفين مع العثمانيين في هذه الحرب لا حب الدولة العثمانية بل قصد إضعاف الروس إذ حينما انتهت بدأوا في إيجاد الوسائل لإضعافها لا لشيء سوى كونها تمثّل دولة المسلمين في ذلك العصر فحرضوا الأفلاق والبغدان على الاتحاد والوقوف في وجه العثمانيين فقام أولئك الذين يعدون من الرعايا العثمانيين بإعلان الحركات الاستقلالية وانتخبوا الأمير (كوزا)[1] حاكماً لهم فاعترف به الباب العالي مسايرة وإخماداً للفتن، ثمَّ قاموا بتحريض الصرب والجبل الأسود على الوقوف في وجه العثمانيين والانفصال عنهم ثم بذروا الشر في بلاد البوسنة والهرسك ممّا أدّى إلى حدوث اضطرابات حادة هناك وقاموا بالتدخل في شؤون البلاد العثمانية الداخلية في الوقت الذي شغلوها في مكافحة المتمردين الثائرين عليها، كما أنَّهم هددوا بقطع العلاقات معها، وأرسلوا السفن لدعم الثائرين وفعلوا الفعلة نفسها في البوسنة والهرسك والجبل الأسود وتلفت العثمانيون يمنة ويسرى فلم يجدوا لهم محباً ولا صديقاً مخلصاً من بين الدول النصرانية كافة التي كانت تتألب عليهم في الخفاء وتتظاهر بالود والتأييد. إنَّ الدول الغربية التي كانت بالأمس حليفة للدولة العثمانية في إيقاع الهزيمة بالروس تعود لبث روح الفساد في بعض الولايات العثمانية وتحرض أهالي البوسنة والهرسك على العصيان والاستقلال الداخلي، وتتدخل لمنع الدولة العثمانية من تأديبهم في الحيلولة دون إنزال عساكرها على شاطئ الأدرياتيك لردع المتمردين وخاصة الجبل الأسود. وتلك هي طبيعة هذه الدول إزاء تعاملها مع المسلمين.

ثمَّ حينما تولى الصدارة عالي باشا بعد وفاة مصطفى رشيد باشا تنبَّه إلى نوايا أوروبا تجاه الدولة العثمانية الإسلامية فحاول منع السفراء من التدخل فعادت السكينة إلى أرجاء البلاد ودعمه بذلك وزير الأشغال فؤاد باشا، ولكن أعداء الإسلام لم يرقهم ذلك فألقوا حبالهم على جزيرة كريت، وأغرقوا أهلها بإشعال الحركات ضد حكامهم والانضمام لليونان وحصلت معارك بين المسلمين والنصارى هناك، وفي عام ١٢٧٤ هـ قام بعض المسلمين بقتل بعض النصارى في مدينة جدة الواقعة على البحر الأحمر لأسباب معينة فأصيب قنصل فرنسا إصابة

---

(١) كوزا: سياسي روماني ولد عام ١٢٣٥ هـ الموافق ١٨٢٠ م وصل إلى رتبة عقيد في جيش البغدان ثمَّ انتخب أميراً عليها ثمَّ أكره على الاستقالة عام ١٢٨٢ هـ.

شديدة وقيل قتل أو قتلت زوجته ووكيل قنصل إنكلترا، فطلبت فرنسا وإنكلترا على الفور معاقبة الجناة فاتخذت الإجراءات الرسمية بذلك الخصوص وعوقب المسببون ولكن ذلك لم يشف غليل الفرنسيين والإنكليز وما كان منهم إلاَّ أن أرسلوا سفينة حربية إنكليزية بقيت تضرب المدينة لمدة عشرين ساعة متوالية واستمرت بذلك حتى وصول المندوب العثماني إسماعيل باشا على ظهر سفينة فأمر بشنق المسببين وعند ذلك أوقف الضرب. وهكذا أشعل حلفاء الأمس أيضاً الفتنة بين المسلمين والنصارى وتذرعوا بمعاقبة الجناة لينتقموا من المسلمين ويضربوا جدة بالمدافع إضافة إلى تحريكهم ثورة كريت.

الخط الهمايوني:

قلنا سابقاً إنَّ السلطان عبد المجيد اضطر إلى إصدار بيان سام جديد تحت ضغط الدول الأوروبية المتحالفة وقد عرف ذلك بـ «خط همايون» وذلك في عام ١٢٧٢ هـ وقد أصبح التزاماً دولياً فيما بعد لم يعد بإمكانه إلغائه أو تغييره دون رأيها. وأكَّد ذلك البيان الإصرار على خط (الكلخانة) السابق الذكر بالإضافة إلى تمكينه الدول من التدخل بينما حرمها الخط السابق وركز على المساواة الدينية وفصلت للنصارى حقوق معينة منها أنَّ المسائل المدنية تكون العهدة في إدارتها إلى مجلس مختلط بين المدنيين ورجال الدين النصراني ينتخبه الشعب بنفسه ومنها عدم إكراه المسلم الذي يعتنق النصرانية على الرجوع إلى الإسلام بل يسمح له بالردة عن الإسلام واعتناق النصرانية. كما ركز على المشروعات الاقتصادية وكان كل هذا لصالح الدول التي طالبت بتوسيع حقوق وامتيازات رعاياها النصارى، وقد وسع الخدمة العسكرية لتشمل النصارى فلقي ذلك مقاومة إسلامية عنيفة فأعفوا من الخدمة لقاء ضريبة. وسنّت عام ١٢٨٥ هـ قوانين حول الجنسية العثمانية والطوائف الدينية وحصلت الدول نتيجة التنظيمات المالية على امتيازات في البنوك والسكك الحديدية وابتياع الأراضي، ونتيجة لتلك التنازلات الجديدة قويت شوكة الأوروبيين وقوي ساعدهم في إشعال الفتن والثورات فحدثت المذبحة المارونية الدرزية عام ١٢٧٦ هـ الشهيرة إذ مهَّد لها القنصل الفرنسي بتصرفاته الاستفزازية وأطلق الموارنة النار على الدروز عند بوابة بيروت فقتل وجرح بعضهم فكانت تلك شرارة القتال، ففي غضون ثلاثة أيام دمرت ستون قرية من ضواحي بيروت وانتشرت المعارك للشمال والجنوب وشملت صيدا وحاصبيا وراشيا وزحلة ودير

القمر وانتقلت الأحداث إلى دمشق واستمرت ثلاثة أيام وتدخل عبد القادر الجزائري لحماية النصارى.

وكما ذكرت قبل قليل عندما تكلمت عن المسألة الدرزية والمارونية فقد اتخذ الفرنسيون ذريعة للتدخل حجة الدفاع عن النصارى وتنطح نابليون الثالث امبراطور فرنسا لهذا الغرض.

لم يكن في إمكان الدولة العثمانية وهي دولة الخلافة أن تنفذ الأحكام الدستورية السابقة الذكر إلى أن لمع في الدولة اسم مدحت باشا[1] المستغرب، فصمم على إيجاد دستور وفق الأحكام الغربية الصرفة بغية إرضاء الدول الأوروبية ليلق الدعم والتأييد منها. ولكن السلطان عبد المجيد عاجلته المنون وتوفي في ١٧ ذي الحجة من ١٢٧٧ هـ ودفن في جوار جامع السلطان سليم وعمره أربعون سنة ونيف، وقد حكم ٢٢ سنة ونصف وبويع أخوه عبد العزيز من بعده، وسنحت الفرصة لمدحت تحقيق ما يصبو إليه.

كان السلطان عبد المجيد، ضعيف البنية شديد الذكاء، واقعياً ورحيماً، وهو من أجلّ سلاطين بني عثمان قدراً، أحبَّ الإصلاح، وأدخل التنظيمات

---

(١) ولد مدحت باشا في تشرين أوَّل عام ١٢٣٧ هـ في استانبول وتوفي عام ١٣٠١ هـ في الطائف، شغل منصب الصدر الأعظم مرتين في الدولة العثمانية واشتهر بما سماه الغربيون الإصلاحات وهو ابن قاض من (روسجوك) «في بلغاريا اليوم» درب على الإدارة وانضمَّ إلى مكتب الصدارة العظمى، ثمَّ أصبح الأمين الثاني لمجلس الصدر وأمضى ستة أشهر مقيماً في أوروبا وزار العواصم الكبرى وافتتن بحضارة الغرب. أصبح وزيراً في عام ١٢٧٧ هـ وعهد إليه بإدارة (نيش). وقد عين لمجلس الدولة ثم عين حاكماً لبغداد عام ١٢٨٥ هـ. وقام بإجراءات معينة ضد حكم السلطان وعارض سياسة مناوئيه وبعد حكم قصير لولاية (سلانيك) عين وزيراً للعدل ثمَّ رئيساً لمجلس الدولة. كان متعاطفاً مع أفكار وآراء تركيا الفتاة. لظروف دولية تولى عام ١٢٨٧ هـ وزارة ائتلاف ووزارة الحرب التي خلعت السلطان عبد العزيز ونصبت مراد الخامس بدلاً عنه. أصبح صدراً أعظم في عهد السلطان عبد المجيد حيث عرض الدستور الأوَّل الذي نصَّ على الحريات والديمقراطية ولكنه طرد من البلاد ثمَّ استدعي ثانية في السنة التالية وعين حاكماً لإزمير. وفي عام ١٢٩٩ هـ أمر السلطان باعتقاله لثبوت اتصاله بالأجانب وللاشتباه في اشتراكه في مؤامرة قتل السلطان عبد العزيز فهرب وطلب من الدول الأوروبية التدخل لمصلحته ثمَّ قبض عليه وحوكم ووجد أنَّه مذنب وأنه السبب في موت السلطان عبد العزيز. حكم عليه بالإعدام وتوسطت له بريطانيا. فخفف الحكم إلى السجن مدى الحياة. أمضى بقية حياته في الطائف في المملكة العربية السعودية حيث من المحتمل أن يكون قد اغتيل هناك.

الحديثة، ورغب في تطبيقها في الحال. كما أدخل إصلاحات جمّة في الجيوش العثمانية. وترقّت في أيامه العلوم والمعارف، واتّسعت دائرة التجارة، وشيدت الكثير من المباني الفاخرة، ومدّت في عهده أسلاك الهاتف وقضبان السكك الحديدية.

ويُعَدّ من مآثر عبد المجيد، تجديد بناء المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة وذلك عام ١٢٧٠ هـ، إذ كان كما بناه السلطان «قايتباي» المملوكي. وجعل سقوفه قباباً من الحجر كالمسجد الحرام، وتمّت عمارته في أربع سنوات. كما شيد أيضاً أبنية جديدة ملحقة بالحرمين الشريفين، وجدّد ميزاب الكعبة عام ١٢٧٥ هـ. وقام بإنشاء بعض الأبنية في العاصمة العثمانية مثل قصر «دولما بهجه» وجامع «مجيدية» في «أورطاكوي».

تعرض كوالده للإصابة السلّية، ثم توفي بهذا الداء العضال، يوم الثلاثاء ١٧ ذي القعدة من عام ١٢٧٧ هـ الموافق ٢٧ مارس من عام ١٨٦١ م، عن عمر يناهز الثامنة والثلاثين عاماً بقليل. ودفن جثمانه في تربة جامع السلطان سليم في الفاتح ـ استانبول ـ كان له سبعة عشر ولداً منهم عبد الحميد، محمّد وحيد الدين، محمّد رشاد، وقد أصبح الثلاثة سلاطين، وثمانية عشر بنتاً.

السلطان عبد العزيز:

ولد في ١٤ شعبان من عام ١٢٤٥ هـ الموافق ٩ شباط ١٨٣٠ م وقد توجه إثر توليه الخلافة بموكب رسمي حافل إلى ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه حيث تقلّد السيف السلطاني هناك كما جرت به العادة، وبعدها سار لزيارة قبر السلطان الغازي محمّد الفاتح وقبر والده السلطان محمود الثّاني، ثمَّ افتتح أعماله بتعيين نامق باشا وزيراً للجهاد بدل رضا باشا ثمَّ وجه أمراً إلى الصدر الأعظم عالي باشا حاضاً على الدقة في الأمور الشرعية وداعياً إلى التزام النظام والقانون والاستقامة والإخلاص وحض على إعطاء الرعايا النصارى الدقة في العدالة حسب تقاليد الخط الهمايوني ويفهم أنه كان يود إعطاء الرعايا النصارى أكثر من حقهم حتى لا تتدخل الدول الأوروبية، ثمَّ أقال السيد عالي باشا طبقاً للظروف الناشئة وذلك في عام ١٢٧٨ هـ وعين فؤاد باشا صدراً أعظم فتقلب على ذلك المنصب عدة مرات وأصلح المالية إذ كانت البلاد على حافة

الإفلاس بسبب الديون المتراكمة من عهد السلطانين محمود وعبد المجيد. واقترضت الدولة ثمانية ملايين جنيهاً إنكليزياً وثمانية أخرى بواسطة البنك العثماني فكثرت الديون وتراكمت فأمر السلطان بالاقتصاد حتى في أموره الشخصية، ثمَّ استقرت أحوالها المالية وتحركت الفتن السياسية فثارت كريت والصرب، وتمكّنوا من تحقيق معظم استقلالهم مستغلين انشغال الدولة في شؤون كريت.

ثورة كريت:

وكانت اليونان من ورائها وتسعى لضمّها إليها، ولكنَّ مصلحة الدول البحرية لم تمكنها من ذلك ومنعتها من مساندتها. وقامت الدولة العثمانية بإرسال جيش لقمع التمرد وأرسل خديوي مصر إسماعيل باشا فرقة للمساعدة وفي ٦ شوال من عام ١٢٨٣ هـ استقال رشدي باشا من منصب الصدارة فأعيد عالي باشا كما أعيد فؤاد باشا الصدر الأسبق ناظراً للخارجية واستبقي محمَّد رشدي قائداً للجيش. وقامت الدولة بإرسال عمر باشا بطل القرم السابق الذكر بعد أن عيَّن قائداً عاماً للجيوش المقاتلة فحارب المتمردين، ولكنَّ الدول الأوروبية لم يرضها ذلك كما هي العادة فتدخلت فرفض الباب العالي مطاليبها واقترح اقتراحات محددة. ثمَّ انعقد مؤتمر باريس من قبل الدول الموقعة على اتفاقية عام ١٢٧٢ هـ وأصدر السلطان قراراً بمنح الجزيرة بعض الامتيازات في عام ١٢٨٦ هـ مع إعفاءات من دفع الأموال والخدمة العسكرية وبذلك انتهت الثورة بصورة مؤقتة.

أعمال السلطان عبد العزيز:

قام السلطان عبد العزيز بالسفر خارج البلاد وبتفقد أحوال البلاد الداخلية إذ سافر إلى مصر في ١٤ شوال من عام ١٢٧٤ هـ بصحبة الأمراء مراد وعبد الحميد ورشاد وابنه يوسف عز الدين وبعض الوزراء، ثمَّ سافر إلى باريس في ١٩ صفر من عام ١٢٨٤ هـ بناءً على دعوة من نابليون الثالث.

وقام بإصلاحات داخلية منها القانون القاضي بجواز انتقال الأراضي الميرية (الخراجية) والموقوفة لورثة صاحبها ووضع مجلة الأحكام العدلية الشرعية للمحاكم النظامية وفي عهده حصلت مصر على جميع الامتيازات التي جعلتها خديوية بمقتضى قرار بتاريخ ٥ ربيع الأوَّل من عام ١٢٨٤ هـ ثمَّ حصرت الوراثة

في ذرية إسماعيل باشا. ووثق رباط التابعية بين تونس والدولة العثمانية لما بلغه نوايا وأطماع أعداء الإسلام فيها على الرغم من أنَّ ذلك لم يمنع فرنسا من احتلالها وحمايتها فيما بعدوذلك خلافاً لما يُدّعى من أنَّ تونس لم تكن ترتبط بالدولة العثمانية آنذاك.

لقد قام مدحت باشا بإقناع السلطان عبد العزيز في وضع دستور للدولة مشتق من النظم الديمقراطية الغربية فكتب له يطلب إصلاح الوضع.

فما كان من السلطان إلَّا أن غضب غضباً شديداً وأصدر أوامره بعزل مدحت باشا من الوزارة فوراً وإبعاده وقد تمَّ تعينه والياً لسلانيك وبعد مدة قصيرة عاد إلى استانبول واتفق مع حسين عوني باشا سر عسكر الدولة على خلعه كما سنقوم بشرحه.

عزل السلطان عبد العزيز:

لقد اقتنع عبد العزيز بسوء النوايا لدى الدول الأُوروبية المتحالفة مع العثمانيين في حرب القرم وما بعدها. وتأكد بنفسه من عزمها على إضعاف المسلمين بالتدخل في شؤون الدولة العثمانية وتقوية الأقليات النصرانية وحثّها على التمرد كما فهم مرادها من وراء الشعارات التي كانت تنادي بها من نشر العلم والمعرفة وهي حقاً تقوم ببث روح الفتنة والفساد فرأى أنَّ الابتعاد عنها مع الاقتراب من الروس في الوقت نفسه هو الأنسب وذلك بتعضيد وتحبيذ من بعض المقرَّبين إليه من باب تحسين الظن مع العلم أنَّ كلا الطرفين لا يختلف أحدهما عن الآخر بالنسبة إلى المسلمين، ولكن عندما يذوق الإنسان مرارة جانب يأمل في الجانب الآخر.

وقد شاع آنذاك السعي لوضع مشروع معاهدة هجومية دفاعية معهم، يكون من أهم بنودها اختصاص الدولة العثمانية بجميع البلاد التي يغلب عليها العنصر الإسلامي في الشرق وضم جميع الأقاليم النصرانية أو التي يسود فيها العنصر النصراني لروسيا وعلى الرغم من عدم ثبوت صحة تلك الإشاعة فقد لجأ الغرب وإنكلترا خاصة للدسيسة والتأليب ضد السلطان متهمين إياه بالتبذير والإسراف وأقنعوا بعض الوزراء بوجوب عزله، كما أنَّ الشعب لم يكن ليهتم كثيراً بهذا الأمر إذ انتشرت الشائعات ضده. وكان أركان المؤامرة الصدر الأعظم محمَّد

رشدي باشا وناظر الحربية حسين عوني وناظر البحرية أحمد باشا قيصرلي ومدحت باشا وشيخ الإسلام وباقي الوزراء. وفي يوم الإثنين الواقع في ٦ جمادى الأولى من عام ١٢٩٣ هـ حوصرت السراي السلطانية بحراً فاستغرب السلطان ذلك وأخذ يستفهم عن الأمور فقيل له إنَّ ما يحدث هو من مقتضيات الحالة العامة، ثمَّ كلفوا المدعو رديف باشا بمحاصرة السراي براً بينما حاصرها أحمد باشا قيصرلي بحراً واجتمع المتآمرون في ديوان قيادة الجيش ثمَّ اقتحموا باب السراي مع مائة من تلامذة المدرسة الحربية ودخل حسين عوني إلى مقر السلطان واقتاده إلى قيادة الجيش وأبلغوه بأنَّ الأُمَّة عزلته وسلم صورة الفتوى فلم يصدق الخبر إلاَّ حينما رأى القوة العسكرية تحيط به فنزل واستسلم وأحاط به الجند وابنه يوسف عز الدين ونادى المنادون إيذاناً بذلك وبويع السلطان مراد. وقد تمَّ ذلك بلا مقاومة ولم يصدر احتجاج من الدول على تلك الفعلة إذ كان لدى جميع القناصل علم بالمؤامرة إن لم يكن قد اشترك بعضهم بها فعلياً فقد بعث مدحت باشا بمذكرة مفصلة إلى تلك الدول قبل تنفيذ المؤامرة عدا روسيا وأعلمهم فيها بأن خلع السلطان أمر يحتمه الشرع الإسلامي الذي يقضي بأن يكون رئيس الدولة مالكاً لقواه العقلية وهكذا وباتفاق مع الدول الأجنبية الكبرى أطاح المتآمرون بالسلطان الخليفة لرفضه الانصياع لدعواتهم في سنّ دستور للدولة الإسلامية من النظم الغربية.

ثمَّ توفي السلطان عبد العزيز بعدها بقليل واختلفت الروايات في أسباب الوفاة فقد قالوا: إنّه انتحر لعدم انتظام قواه العقلية بعد أن خلع وقالوا: إنّ المتآمرين قضوا عليه خوفاً من رجوعه إلى الحكم والتنكيل بهم وأطلقت شائعات كبيرة حول موته.

وقد كتب للسلطان مراد قبل وفاته بيوم واحد طالباً منه نقله من طوب قبو ممَّا يثبت أنَّه سليم القوى العقلية وقد قال: «... بعد اتكالي على الله وجهت اتكالي عليك فأهنئك بجلوسك على تخت السلطنة وأبين لك حالي من الأسف على أنِّي لم أقدر على أن أخدم الأُمَّة حسب مرادها فآمل أنَّك أنت تبلغ هذا الأرب وأنَّك لا تنسى أنِّي تشبثت بالوسائل الفعالة لصيانة المملكة وحفظ شرفها وأوصيك أن تتذكر أن من صيرني إلى هذه الحالة هم العساكر الذين سلحتهم أنا بيدي وحيث كان من دأبي دائماً الرفق بالمظلومين وشملهم بالمعروف الذي تقتضيه

الإنسانية أرغب إليك أن تنقذني من هذا المكان الضيق المعني الذي صرت إليه وتعين لي محلاً أكثر ملاءمة وأهنئك بأنَّ الملك انتقل إلى ذرية أخي عبد المجيد خان». وهذا دحض قوي لادّعاءات خصومه الذين كانوا في الحقيقة وراء مقتله وأنَّهم لزيادة إيهام الناس بأنَّه قتل نفسه قاموا باستدعاء الأطباء الأجانب لتوثيق ادّعاءاتهم.

مؤامرة خلع واغتيال السلطان عبد العزيز:

عاد الغرب لديدنه القديم، ولجأ إلى تحريض أبناء الجاليات العثمانية ضد السلطة الحاكمة، وخاصة أبناء البلقان. وفي تلك الأثناء كان «مدحت باشا» والياً على ولاية الطونة، وهو من رجال الدولة العثمانية المتشبع بأفكار الغرب التي شاعت بعد الثورة الفرنسية، تلك الأفكار التي شكلت خطراً على الممالك والامبراطوريات التي سادت آنذاك.. وكان الروس في طليعة الدول التي انزعجت من هذه الأفكار حفاظاً على العرش القيصري، ومن جملة ما أدّى هذا الإزعاج، طلبهم من السلطان العثماني إقالة مدحت باشا، لكن السلطان عبد العزيز رفض طلب الروس، ولم يحقق رغبتهم في إقالته.

ثمَّ جرت تنقلات عسكرية، وندب «مدحت باشا» ليكون قائداً لفرقة بغداد الموكل بها إعادة النفوذ العثماني إلى بلاد نجد وعسير.

وعند موت «عالي باشا» الصدر الأعظم صاحب البراعة والحنكة السياسية، تسلم مقاليد الصدارة «محمود نديم باشا» فساءت الأحوال في عهده، واختلّت الأمور المالية، واستبدَّ العمال في الأمصار، فصدرت الأوامر السلطانية بمحاكمة ثلاثة من المشيرين هم «حسين عوني باشا» و«شرواني زادة» و«رشدي باشا» و«حسني باشا» مشير الضبطية، ونفوا، وبعدها كثر التغيير والتبديل في الولاة.

ثمَّ عزل السلطان «محمود نديم باشا» من منصب الصدارة، وتولاها «مدحت باشا» ثمَّ «رشدي باشا الكبير» و«شرواني رشدي باشا» و«حسين عوني باشا» وغيرهم. ثمَّ عاد السلطان، وعين «محمود نديم باشا» صدراً أعظم مرة أخرى، وعند ذلك، ولربَّما بدافع الحسد والغيرة، شنَّ أنصار المعارضة حملة ضد الروس متهمين إياهم بتبوئ المنزلة المرموقة عند السلطان، وأنَّه يستشيرهم في كل عمل.

وفي ذلك الوقت اضطرت الدولة العثمانية إظهار رضاها عن تواجد أساطيل حربية روسية في البحر الأسود ودار صناعة بحرية عند شواطئه، وكانت تلك فاتحة لإيجاد الأساطيل الروسية القوية.

وراجت الإشاعات عن تواطؤ السلطان عبد العزيز والروس، وثقته القوية بهم، واستغلّ مروجو الإشاعات طلبة العلم الديني «الصوفطا» وحرضوهم على التظاهر، كما اتهموا شيخ الإسلام أيضاً بالتواطؤ وأشركوه في مؤامرة الخيانة.

وخاف السلطان من تفاقم الأُمور، واضطراب الأحوال الداخلية، وبالتالي توقع نتائج غير مرغوبة، وبادر إلى عزل «محمود نديم باشا» من منصب الصدارة، وشيخ الإسلام «حسين فهمي أفندي» من منصب مشيخة الإسلام، وأسند الصدارة إلى «محمَّد رشدي باشا الكبير» والمشيخة إلى «خير الله أفندي» وقيادة الجيش - أي السرعسكر - إلى «حسين عوني باشا» والجميع على خصام مع الصدر السابق «محمود نديم باشا». وعندما اجتمع أُولئك النفر وغيرهم في مركز القيادة، قرروا خلع السلطان «عبد العزيز» واستبقوا الأمر سراً حتى الوقت المناسب.

وطبقاً لهذه القرارات السرية، حوصرت السراي السلطانية بالجند براً وبحراً يوم الاثنين الواقع في ٦ جمادى الأُولى من عام ١٢٩٢ هـ الموافق ٢٨ مارس من عام ١٨٧٦ م، دون أن يعلم الجند شيئاً عمّا يجري، أو عن هدف التحركات التي يؤمرون بتنفيذها. وبعد أن أنجزت عملية الحصار، استدعى السرعسكر «حسين عوني باشا» الأمير «مراد» بإيقاظه من نومه في ساعة متأخرة من الليل، فخرج مذعوراً، وبعد أن هدّأ روعه، أركبه معه في العربة، وسلَّمه بندقية بست طلقات، وأجلسه في الحجرة التي أعدت لمبايعته. وفي الحال، حضر الشريف «عبد المطلب» وغيره من أعيان الدولة وبايعوه في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وأمر «رديف باشا» الموكل بأمر الحصار، رئيس أغوات السراي، «جوهر آغا» وأبلغه نبأ خلع عبد العزيز ومبايعته مراد الخامس، وأمره إرسال السلطان المخلوع إلى سراي «طوب قابي» بعد إبلاغه قرار خلعه، وتسليمه الفتوى الموقعة من شيخ الإسلام القاضية بخلعه.

وبناءً على ذلك أنزل السلطان عبد العزيز، ومعه ابنه الأمير «يوسف عز الدين» وعائلته إلى زورق، ونقلوا جميعاً إلى تلك السراي التي كانت محاطة

بالعساكر المدججة بالسلاح. وفي الصباح أطلقت المدفعية، واستيقظ الناس على صوت المنادين بجلوس السلطان «مراد الخامس» على تخت السلطنة العثمانية.

وفاة السلطان عبد العزيز:

لم يمكث «عبد العزيز» بعد تاريخ خلعه سوى أربعة أيام توفي بعدها، واختلف الناس في أسباب موته.

وكان السبب المعلن عن وفاته، إصابته بمرض في رأسه، أو بكلمة أُخرى تعرضه لنوع من الجنون، اضطربت به أحواله، واستولى عليه القلق وشدة التخيّل، إذ إنَّه لم يستطع الرقاد ليلة وفاته، ثمَّ دخل الحمّام في الصباح كالعادة، وخرج بعدها إلى بستان السراي ثمَّ عاد إلى حجرته، وأمر بفتح النوافذ والأبواب وهو يمشي. وعاد بعدها فخرج إلى الستان وقد ضاقت به الدنيا، وحاول الخروج إلى الشاطىء فمنع، وأُشير عليه بالدخول فدخل، وظهرت عليه علائم الاختلال، ثمَّ طلب مقصاً لقص أطراف لحيته، وعندما أُعطي مقصاً، وكانت والدته تنظر إليه من خلف الباب، أمرها بالانصراف، وجلس على متَّكأ، ثمَّ خاطب أحد الأغوات طالباً منه محاربة العدو الذي كان يتوهمه في كل لحظة، وأخذ المقص، وبدأ بقطع شريان في وسط ذراعه الأيمن، وحاول الخادم نزع المقص منه فمنعه وعندما حضرت والدته كان قد أحكم غلق الباب، وقطع شريان يده الأُخرى، وبدأ الصراخ والبكاء في الوقت الذي كان فيه يفارق الحياة. وجاءت نتيجة التقرير الطبي الموقع من تسعة عشر طبيباً من أكبر الأطباء، ومنهم أطباء بعض السفارات تؤيد هذه الحادثة أو القصة المزعومة. أمَّا السبب الحقيقي:

فقيل إنَّ وراء مقتله حفنة من رجال الدولة على رأسهم «مدحت باشا» و «حسين عوني» وغيرهما، إذ بقتله يأمنون شر انتقامه منهم، لأنَّهم كانوا وراء خلعه. وقيل إنه أوكل إلى اثنين من الفدائيين أمر تنفيذ المؤامرة، واتفق هذان مع أحد البيكوات الذي كان مرافقاً للسلطان عبد العزيز قبل عزله، ممَّن كان يثق به ويعتمد عليه كثيراً، وقد قام هذا المرافق السابق بالإيعاز إلى والدة السلطان بضرورة قيامها بتجريده من خنجر السلطان عثمان الذي كان يتقلده دائماً، وأقنعها بضرورة قيامها بهذا العمل خوفاً من قيام ابنها بقتل نفسه به.

وقامت الوالدة المغرّر بها بالاحتيال على ابنها السلطان المعزول، وأخذت منه

الخنجر المذكور، وعندها أصبح من الميسور تنفيذ مؤامرة اغتياله. وعمد هذا المأمور إلى إقفال الأبواب، ودخل الفدائيان من النوافذ المقابلة للحديقة، ونفذوا عملية قتله، وضللوا الرأي العام بانتحال الرواية المزعومة عن انتحاره.

والرواية الثانية يبدو أنَّها أقرب إلى الصواب، والله أعلم، لعدة أسباب نذكر منها:

١ - المؤامرة وراءها أيد أجنبية، وهذا واضح لا لبس فيه، وجذور المؤامرة ترجع إلى تخطيط مدروس من قبل القناصل وممثلي الدول الأوروبية في العاصمة العثمانية. وكيف لا يرتكبون أمثال هذه الأعمال الإرهابية عن طريق عملائهم ممَّن تشربوا بأفكارهم من رجال الدولة، الدولة التي تمكن هذا السلطان من إصلاح أحوالها إلى درجة كبيرة، وخاصة في المجال العسكري، فقوّى الجيش، واستبدل الأسلحة القديمة بأخرى حديثة، واستورد ما يلزم من السلاح من أفضل مصانع السلاح في أوروبا، ووضع التنسيقات العسكرية على الطراز الحديث، وشكَّل الفرق العسكرية لأبناء العشائر والقبائل من كافة الولايات، وسلّح القلاع والحصون بأضخم وأحدث المدافع، فأصبحت مدفعية الدولة العثمانية يضرب بها المثل في التقدم، وأصلح دار المدفعية «الطوبخانة» وأدخل فيها المعدات والآلات الحديثة، حتى صار بإمكانها صنع كافة الأسلحة على الطراز الجديد. كما قام بإصلاحات في مجال البحرية وأحلَّ الخبراء الوطنيين محل الخبراء الأجانب رغم اعتراض هؤلاء ودولهم. وأصبحت في عهده الدولة العثمانية من الدول البحرية الأولى في العالم، وعمل على إرسال البعثات البحرية إلى الخارج وخاصة إلى إنكلترا، واشترى المدرعات، وشيد عدة معامل لصنعها ولصنع الآلات والمراجل، وعادت دار صناعة «إزميت» إلى ما كان لها من مجد، كما أصلح الكثير من أحواض السفن.

وأراد عبد العزيز أحقاق الحق، فأسس مجلس الأحكام العدلية، وأصدر مرسوماً «فرماناً» سلطانياً بمحاكمة كل من يقاوم التنظيمات الخيرية، ممَّن لم يتعودوا السير على طريقها، وقيدت حركاتهم، وغلّت أيديهم، وكبحت شهواتهم، ولهذا حوكم كبار الحكام، أمثال «خسرو باشا» و «عاكف باشا» و «طاهر باشا» وبذلك ظهر للعموم حبّه للعدل والإصلاح، وهذا لا يرضي

الدول ولا تقبل به لأنَّها تريد أن يسود الظلم حتى تنهار الدولة بسرعة، وهذا هو ما تتمناه. كذلك لا تريد هذه الدول أن تنهض الدولة العثمانية من عجزها المالي، وكيف لا تبيّت الغدر للسلطان الضحية وقد قام بالإصلاحات على المستوى المالي، وأمر بوضع ميزانية منضبطة للمالية وألغيت القوائم المالية، وسوّت بذلك الدولة جميع ديونها، وأصبحت المعاملة بالنقود، وانتظمت الأحوال المالية.

كيف للغرب رؤية الدولة العثمانية وقد حدث فيها ما ذكرت من الإصلاحات، وبالأخص في المجال العسكري، لقد هاله رؤية ما حدث على يد هذا السلطان في وقت قصير، فتتعرقل بذلك مخططاتهم في القضاء على «الرجل المريض» أو على الأقل تؤجّل إلى أمد أبعد بكثير، لذا رأوا تدبير مؤامرة خلعه ثمَّ قتله، وإخفاء آثار جرائمهم، باستخدام أنصارهم.

٢ ـ وجهت إلى المرحوم السلطان «عبد العزيز» تهمة التعاون مع الروس، وأنَّ العدو الروسي يقتص من بعض من وقفوا في وجهه عن طريق السلطان، والحقيقة أنَّه لم يكن متعاوناً حقاً لا مع الروس ولا مع غير الروس، بل كان يبغي المصلحة العثمانية. فها هم الروس، لا يروق لهم تعيينه لـ «مدحت باشا» على ولاية الطونة، ويطلبون إقالة مدحت باشا هذا، لكن السلطان لم يعرهم أذناً صاغية، ولم يقيله عن هذه الولاية، بل نقل، عندما نقل غيره من حكام الولايات أو قادة الجيش، وعُيِّن لقيادة فرقة بغداد، ولم يرق له ذلك، لأنَّه كان يطمع في المناصب الأعلى وخاصة أنه كان قد تولى الصدارة قبل ذلك.

أمَّا «حسين عوني» الذي عين مكان «عمر باشا» في قيادة الجيش العامة، وعهد إليه أيضاً بولاية جزيرة «كريت» فقد استبدّ في منصبه، فصدر أمر بمحاكمته مع من حوكم، وصدرت بحقهم الأحكام ثمَّ نفي مع آخرين ومن بينهم «رشدي باشا» ومع ذلك جرى الصفح عنه، وتولى الصدارة بعد «مدحت باشا». وعندما عاد «محمود نديم باشا» إلى مركز الصدارة، وهو العدو اللدود لـ «مدحت باشا» خطر في فكر هؤلاء أنَّ الجنرال الروسي «أغناتيف» كان وراء إبعادهم وإرجاع «محمود نديم باشا» فخططوا لما تلا من أحداث.

٣ ـ وشبيه بما بيَّته هؤلاء العملاء من أجل الوصول إلى المناصب، كان ما بيَّته شيخ الإسلام أيضاً، وهو الشيخ الذي عزله السلطان عبد العزيز بعد فتنة تظاهر طلبة العلم المستغلين ضد الروس واتهامه بالتواطؤ مع العدو الروسي، وعندما عزله عبد العزيز، انضمَّ إلى الجانب المعادي السابق من رجالات الدولة والجيش، وهو يأمل بالمنصب الأرفع إن نجحت المؤامرة.

٤ ـ من نص الرسالة التي وجهها السلطان المعزول عبد العزيز إلى أخيه السلطان مراد الخامس بغد توليه العرش مباشرة، تلك الرسالة التي سردتُ بعض ما جاء فيها قبل صفحات قليلة، يتبيَّن أنَّ التهمة التي ألصقوها به من حيث الاضطراب العقلي والعصبي غير صحيحة، كما يثبت الدليل والواقع عدم شكايته سابقاً قبل حادث عزله من أي خلل عصبي أو نفسي، وقد نفى ذلك في رسالته، تلك الرسالة التي ضمَّنها مختلف أنواع الحكم.

٥ ـ حادثة حسن الجركسي تثبت التواطؤ المبيَّت، فقد كان هذا ضابطاً، عمل أباه ضابطاً ياوراً عند «يوسف عز الدين» ابن السلطان عبد العزيز، وبعد حادثة القتل تلك، لم يتمالك هذا الضابط الشاب أعصابه من هول المؤامرة، وتمكن من اقتحام مركز القيادة واستطاع قتل «حسين عوني» و«محمد رشدي» وكأنَّ حسين عوني كان يدرك المتاعب المستقبلية مسبقاً والتي قد تؤدي لانكشاف المؤامرة، وأراد إبعاد بعض العناصر القريبة من ساحة الأحداث، تلك العناصر المحسوبة على السلطان المقتول، ومنها هذا الضابط، فأصدر أمراً بإبعاده عن الآستانة وإلحاقه بأوردي بغداد، بعد أن رقاه وأمره بالسفر، وعندما رفض الأخير الالتحاق بالمنصب الجديد، سجنه، ثمَّ لم يلبث أن أفرج عنه عندما أظهر رغبة في السفر، وأمهل يومين استعداداً له. ومنه يتبين لنا محاولة «حسين عوني» طمس آثار الجريمة بإبعاد هذا الضابط سلفاً، حتى قبل وقوعها، ثمَّ إنَّ تنفيذ حكم الإعدام به فوراً بعد قتله المذكورين وبسرعة خاطفة ودون محاكمة، يجعل الشكوك في تآمرهم تصبح حقيقة.

٦ ـ هل من المعقول أن يجمع كافة الأطباء المنتقين لتوقيع صك شهادة طبية مزورة، دون أن يقدم أحد على إبداء رأي مغاير، بما فيهم الأطباء الأجانب، إلَّا إذا كان الأمر مبيّتاً. فهذا الإجماع يستشم منه رائحة تغطية آثار الجريمة، وإلباسها لباساً كما يراد لها في صيغة من الطب الشرعي. وليس أسهل من

شراء الضمائر الميتة بالمال أو الجاه، ولا أهون من إدارة الحق في الجهة التي يريد أسياد العملاء، ممَّن لا عهد لهم ولا ذمة.

٧ - إنَّ ما استشعره السلطان «عبد الحميد الثَّاني» فيما بعد، وما وضع عليه يده من الوثائق التي طبعت عليها بصمات الجناة، لهو أكبر دليل، وما جرى لمدحت باشا فيما بعد، وطلب محاكمته بتهمة اغتيال وقلب نظام حكم «عبد العزيز» هو دليل جديد على ثبوت التآمر.

٨ - وأخيراً فإنَّ اعترافات «مدحت باشا» نفسه أثناء محاكمته باشتراكه في عزل وقتل السلطان عبد العزيز، أمر معروف تاريخياً ومدوّن في وثائق.

صفات السلطان عبد العزيز:

كان السلطان عبد العزيز طويل القامة، مستدير الوجه، ممتلئ الجسم، قوي البنية، مهيب الطلعة، وكان متديّناً وجدّياً ومتحمّساً، توقع الآمال العراض والمستقبل المشرق لأمته وبلاده، وعندما خلعه أولئك المتآمرون من ذوي السمعة السيئة، وأدّى عملهم إلى تلك الكارثة المروعة في الأيام العصيبة، فإنَّهم غطوا على صفاته الحسنة، وأسدلوا عليها ستاراً كثيفاً، وسلبوا صفاته المجيدة وأعماله العظيمة وألصقوها بأنفسهم.

وكان «عبد العزيز» عالي الثقافة، غزير الاطّلاع، وخاصة في الأدب، وكان شاعراً ومؤلفاً ورساماً في الوقت نفسه، أدرك الكثير من الأعمال التي بها يمكن تطوير وتحسين بلاده وهو الذي كان يرسم الخطط لرجال الحرب في أغلب الأحيان.

تابع عبد العزيز الإصلاحات التي بدأ بها سلفه، وطوّرها وزاد عليها، واستمرَّ يعمل على إخراجها إلى حيِّز الواقع، وتحقيق المزيد منها حتى عام ١٨٧١ م. وبعد هذا التاريخ بدأ الغرب يشن حملة سافرة عليه، ووجهت أوروبا إليه اتهامات وافتراءات مختلفة منها أنَّه انقلب مؤيداً للحكم المطلق، وللسياسة التي كان أعلنها، ووصل الأمر بهم اتهامه بالفاشية، وبالتشدد الإسلامي كما يدَّعون.

والحقيقة أنَّ معظم ما وجّه إليه لم يكن سوى محض افتراءات، فعبد العزيز

المثقف الذي نشأ وتربّى حسب التقاليد الإسلامية العثمانية، لم يستطع دوماً تقبل الدساتير الغربية برمّتها، وكذلك العادات الغربية البعيدة عن البيئة الإسلامية، وبالإضافة إلى أنّه كان عضواً في الطريقة المولوية،فإنّه كان يهتم بالرسم والموسيقى.

لقد استمرت الإصلاحات التي نادى بها، وجسّدها على أرض الواقع وزيريه القديرين «فؤاد باشا» رئيس وزرائه ، و«عالي باشا» وأنشئت في عهده ولايات جديدة، وأعلن عن القانون العثماني المدني الأوّل، ومجلة الأحكام العدلية، وتعهد برعاية العلاقات الطيبة مع فرنسا وبريطانيا، إلاّ أنّه اضطر بعد وفاة هذين الوزيرين القديرين إلى التحول ظاهرياً نحو السياسة الروسية، ومنه اتهامه بالميل نحو الروس وخاصة بعد قلاقل البلقان وتعاظم الشعور المعادي لروسيا لتشجيعها المتمردين، لكنه كان من حيث الحقيقة يعمل لمصلحة بلاده. وأكتفي بهذا القدر عن أعماله، حيث كنت قد أشرت إليها سابقاً في أكثر من موضع.

السلطان مراد الخامس: «١٢٩٣ هـ» ومدة ولايته ٩٣ يوماً.

وهو ابن السلطان عبد المجيد ولد في ٢٥ رجب من عام ١٢٥٦ هـ الموافق ١٨٤٠ م وارتقى منصب الخلافة في ٧ جمادى الأولى من عام ١٢٩٣ هـ وتوفي عام ١٩٠٤ م وكان متعلّماً مهذباً ميالاً للإصلاح مستنيراً لكن قيل إنّه ظهرت عليه إمارات الاضطراب العقلي خاصة بعد أن اعترته الدهشة والفزع عند إيقاظه بعد منتصف الليل عند خلع عبد العزيز ولمّا بلغه مقتل حسن الجركسي ظهرت عليه اضطرابات عصبية أثّرت على جهازه الهضمي. وكانت صحته في تدهور مستمر في الوقت الذي كان مدحت باشا يحاول إعلان الدستور الوضعي بدلاً من الشرع أثناء مرضه ويدرس القوانين والنظم الغربية ويتصل بأعوانه حتى استطاع إعداده بشكل جاهز وقد قيل إنّ جنون السلطان ظهر للناس بشكل سافر فكان لا بد من خلعه وأعلن ذلك من قبل شيخ الإسلام عام ١٨٧٦ م وكان نص الفتوى:

«إذا جنّ إمام المسلمين جنوناً مطبقاً ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الإمامة من عهدته؟ الجواب: يصح والله أعلم. كتبه الفقير حسن خير الله عفي عنه.

وهنا رقي الأمير عبد الحميد إلى العرش وصار سلطاناً وخليفة للمسلمين.

ومن أهم الأحداث التي جرت في عهده على المستوى الداخلي، حادثة حسن الجركسي سابقة الذكر، انتقاماً لمؤامرة مقتل السلطان عبد العزيز الذي يرتبط معه بالمصاهرة، ثمَّ شنق هذا الضابط. أمَّا على المستوى الخارجي، فقد استمرت ثورة ولايتي البوسنة والهرسك مشتعلة، وكذلك تحريضات رجال الثورة في بلاد البلغار وتهييجهم الأهلين والفتك بالمسلمين القاطنين بتلك البلاد. وقد أصدر السلطان عفواً عاماً عقب جلوسه عن العصاة. وأصدرت الدولة الأوامر بالاستنفارات العسكرية ودعت عساكر الاحتياط، وطلبت الإمدادات من الخديوي «إسماعيل باشا» فأنجدها بقوة عسكرية وصلت إلى «سلانيك» في شهر رجب من عام ١٢٩٣ هـ ثمَّ التحقت بالجيوش العثمانية المرابطة على حدود الصرب. ثمَّ عمت الثورة ولايات البلقان، وانتصر «عثمان باشا» على الصرب، كذلك انتصرت القوة المصرية بجهات «يكي بازار»، وجرى الانتصار على ثوار الجبل الأسود، إلاَّ أنَّ الجبلين لم يلبثوا أن تغلبوا. وكان الروس لا ينفكون عن إرسال الأسلحة والذخائر إلى الصربيين والجبليين، كذلك مجموعات المتطوعين، بمساعي جمعيات الصقالبة في أوروبا لكن ما تمتع به العثمانيون من الهمة والنشاط أدهش الروس.

كان مراد الخامس قد ذهب إلى أوروبا بصحبة السلطان عبد العزيز، واطّلع جيداً على أحوال فرنسا بشكل جزئي، وكان يتكلم الفرنسية ويحب الموسيقى، ومع ذلك فلم تفد كل هذه الرغبات لأنَّه كان في صحة غير جيدة من الناحية العقلية وعاش مراد في قصر «جراغان» حتى نهاية حياته، وبعد أن خلع ببعض الوقت فإنَّه تعافى من مرضه العقلي، وأمضى باقي حياته في ذلك القصر حتى توفي فيه عن عمر يناهز الرابعة والستين عاماً ودفن في الجامع الجديد «يني جامع» في استانبول على ضفة القرن الذهبي، وكان له ابن وحيد هو «محمَّد صلاح الدين» وبناته هنَّ: فاطمة سلطانة، فهيمة سلطانة، خديجة سلطانة.

أثَّر الشباب من أعضاء جمعية الاتحاد والترقِّي على مراد الخامس، فانتسب إلى المحفل الماسوني، وأدمن على شرب الخمرة وتشبع بالأفكار العلمانية والفلسفية الغربية. وقد قال عنه السلطان عبد الحميد: كان من طبيعته أن ينخدع لمن يبتسمون في وجهه، دون أن يفكر في المعقول وغير المعقول، حتى أنَّه بسبب ذلك لم

يكن يخطر على باله، عدم لياقة اشتراكه، وهو خليفة المستقبل، في المحفل الماسوني، وتقدير المصيبة التي ستنجم عن ذلك، وقد استطاع بعض الأشخاص، ممَّن يدّعون أنَّهم أنصار التجديد، أن يحرِّضوه على إدمان الخمر، وزيَّنوا له جوانب نستخف بها في الحياة الأوروبية[1] .

ظهور الخطر الروسي وضياع القرم

شهد القرن الحادي عشر الهجري، صعود عدو لدود للإسلام عامة، وللدولة العثمانية خاصة، هو العدو الروسي، فبينما كانت أوروبا في أوج حملتها ضد المسلمين، وبالأخص امبراطورية النمسا والمجر، وجمهورية البنادقة في القرن الماضي، بدأت الاستعدادات الروسية بقيادة «بطرس الأكبر» حملتها ضد العثمانيين في هذا القرن، واستمرت في تواصل طيلته وفي القرنين التاليين وحتى وقتنا الحاضر.

ورغم أنَّ «إيفان الثالث» يعدّ أول قيصر روسي أظهر أطماعه العدائية إزاء العاصمة العثمانية، إلاَّ أنَّ التوغل الروسي الفعلي لم يبدأ إلاَّ في عهد باني روسيا الحديثة «بطرس الأكبر». ونقرأ في البند الخامس من وصيته الشهيرة، دعوته إلى تحقيق اتفاق مع النمسا لطرد الأتراك العثمانيين من أوروبا، وإلى أن يكرس لهذا الغرض أقصى ما يلزم من إمكانيات لتجهيز جيش بري دائم، وإقامة دار لصناعات السفن على شواطىء البحر الأسود من أجل تحقيق تلك الغاية المنشودة.

وخطط بطرس الأكبر بعد أن تولى السلطة لإزالة الحواجز بينه وبين الغرب، وبرأيه أنَّها ثلاث حواجز: السويد وبولونيا والدولة العثمانية. وقد تمكن من إزالة الحاجز الأوَّل، وحقق نجاحاً كبيراً في إزالة الحاجز الثَّاني، ولم يبق أمامه سوى الحاجز الثَّالث، حاجز الدولة العثمانية سواء ولاياتها الآسيوية، أو الأهم في تحقيقه لهذا الهدف، أي هدف الاتصال بالغرب، ولايات البلقان العثمانية.

وعمل «بطرس» على احتلال هذه الإمارات، وأشعل الفتن والقلاقل بين سكانها، وحرّضهم ضد العثمانين، كي يتسنّى للروس ليس فقط الاتصال بأوروبا

---

(١) والدي السلطان عبد الحميد ص ١٧٨.

الغربية، بل الوصول إلى هدفهم القديم، المياه الدافئة، وبالتالي الخروج من العزلة، وتأمين الاتصال مع الهند وتحقيق الأطماع الاقتصادية.

وتفرّغ الروس لهدم هذا الجدار السابق، بعد سقوط الحاجزين السابقين، ساعدهم في ذلك جهل الوزراء العثمانيين وتخلف الدولة وانتشار الرشوة والفساد، وسنحاول في هذه اللمحة البسيطة، تسليط بعض الأضواء على هذا الخطر حتى مطلع تاريخنا المعاصر، ذلك الخطر الذي شكل معولاً هداماً في تدمير الدولة، وسهماً قاتلاً في صميم الأمَّة الإسلامية ولم يزل، ولم يتغير الأمر كثيراً بين نوايا الروس قبل كونهم شيوعيين أو أثناء حكم البلاشفة الحمر، وحتى بعد انهيار الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتي في الآونة الأخيرة - فالأمة الإسلامية عانت من شرور هذا الخطر إبّان العهد العثماني في أراضي الدولة وفي إيران وأواسط آسيا، وبعد العهد العثماني، وليس ما جرى في أفغانستان عنا ببعيد.

ولنعد الآن إلى صلب بحثنا، فنبينِّ للقارىء الكريم، شيئاً من المناورات الروسية والتحركات العسكرية والهجمات الوحشية التي شنّت على بلاد المسلمين العثمانيين، في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية تعاني أكثر فأكثر من ظواهر الضعف والانحطاط، فاستغلوا هذه الظاهرة لضرب المسلمين، والتوسع على حساب بلادهم لتحقيق الأهداف الروسية القديمة والحديثة.

كانت بلاد القرم العثمانية، محط أطماع العدو الروسي منذ أمد بعيد يمتد إلى ما قبل بطرس الأكبر. ومنذ عهد السلطان العثماني «سليمان الثّاني» ساق الروس جيشاً عظيماً إلى بلاد القرم، إلاَّ أنَّهم هزموا عند برزخ «أورقبو» Pèrècop.

وعاد الروس الكرة مرة أخرى، واستغلوا القتال الجاري بين الدولة العثمانية والنمسا قرب مدينة «أولاش» عام ١١٠٨ هـ الموافق ١٦٩٦ م حيث هزمت النمسا، وحاصروا مدينة «آزاق» أي «آزوف»، فقاومتهم جيوش خان القرم والحامية العثمانية المتواجدة هناك، وتغلبت عليهم وطردتهم وقتلت منهم عشرات الآلاف. وعاد جيش «بطرس الأكبر» عام ١١٠٨ هـ بجيش تجاوز الستين ألف جندي، وحاصر «آزوف» مرة ثانية، وتمكن من الاستيلاء عليها في ذلك العام، وبعد سنتين من هذا التاريخ، قبل الروس مع الأطراف الأوروبية النمساوية والبندقية والبولونية، شروط معاهدة «كارلوفتش»، وتمَّ الصلح بين الفرقاء المتخاصمين.

إنَّ استيلاء الروس على قلعة «آزاق»، جعل العثمانيين يشعرون بجسامة الخطر الروسي، وخاصة على شواطئهم وقلاعهم البحرية وموانئهم الحيوية، فصدرت الأوامر إلى دار الصناعة العثمانية بالإسراع في بناء السفن الحربية في نهر الطونة والبحرين الأبيض المتوسط والأسود. وتمَّت التجهيزات البحرية، والتفتت الدولة إلى الإصلاحات في الداخل، وتمتين أواصر الجبهة الداخلية، وتقوية العلوم والمعارف، في محاولة للحاق بالغرب علمياً وعسكرياً. لكن الصراع بين شيخ الإسلام والصدر الأعظم، أوقف تيار الإصلاحات الذي تبنّاه الصدر «عموجه زاده حسين» عندما قرر رفع الضرائب الباهظة عن كاهل المواطن، واعتقل المفسدين، وشجع الزراعة والصناعة، واستمرَّ نفوذ الشيخ عندما تسلم صدر جديد، فانتهت الإصلاحات، وتحول ذلك الصدر إلى الحروب، فأخلَّ بخطط الدولة ومعاهداتها، ومنعها من تحقيق تقدم على المستوى الداخلي، في ذلك العهد، عهد السلطان «مصطفى الثّاني».

وأُطفئت الفتنة بعزل الشيخ والصدر، ثمَّ انتهت بعد مقتل الشيخ «فيض الله أفندي» شيخ الإسلام، لكن بعد أن ألقت على مستوى القمة ظلالاً سوداء، وتنازل السلطان لأخيه «أحمد الثّالث» ومات بعد مائة وأربعين يوماً فقط.

ولم تثن الصراعات الداخلية، ولا الفتن والاضطرابات، عزيمة السلطان الجديد عن إصلاح دار الصناعة البحرية، فأكثر من المدارس البحرية وجدد القديم منها، وخرج قائد البحرية العثماني بأساطيله إلى البحر الأسود، عندما علمت الدولة بالتجهيزات التي شرعت فيها روسيا، وكل ظنها نية الروس إجراء حركات حربية أثناء اشتغال دول أُوروبا بحرب الوراثة الإسبانية، إلَّا أنَّ روسيا، لما علمت بانتباه العثمانيين لأعمالها، حولت نظرها عن البحر الأسود. كما قام السلطان الجديد بتشييد قلعة جديدة عند ساحل البحر الأسود وسلَّحت بالمدافع الضخمة. ومنذ أن أبرمت معاهدة «كارلوفتش» تجسدت نوايا الروس في بناء قلاع على شاطىء بحر آزوف، وعند حدود «أوزي» و«بندر»، وتشييد سفن جديدة، لأنَّهم كانوا يبيتون أسوء النوايا إزاء الدولة العثمانية. وفيما هم عازمون على تنفيذ هذه الأُمور، كان العثمانيون غافلون عن هذه النوايا، وإن فطنوا إليها، فأنَّهم قللوا من أهميتها، واستصغروا شأنها. كما أنَّهم، وهم الذين آووا ملك السويد في ديارهم بعد هزيمته أمام الروس، إذ أقام في مدينة «بندر»، وكانوا من

قبل يظنون فيه القدرة على إضعافهم، وبذلك فقد عضدوه وشجعوه ودعموا مواقفه.

فضلاً عن ذلك، فقد عمدوا إلى إساءة علاقاتهم مع الروس، وسجنوا سفيرهم ثمَّ أعلنوا الحرب عليهم. وقاد الصدر الأعظم «بلطجي محمَّد باشا» الجيوش ضد بطرس الأكبر وزوجته عام ١١٢٢ هـ، وتقدم بجيش يزيد عن المائة ألف إلى جهات الطونة في أوائل عام ١١٢٣ هـ، وما أن عبر مضيق «إيساقجي» وخرج إلى صحراء «قارتال» حتى بلغه وصول جيش روسي قوامه أربعين ألف مقاتل من جهات حدود البغدان. وبسرعة أحاط العثمانيون بهم، وألقوا القبض على «بطرس الأكبر» وخليلته «كاترينا»، إلَّا أنَّها تداركت الأمر بسرعة ولجأت إلى رشوة الصدر الأعظم، وقدمت مجوهراتها النفيسة فدية لفك أسرها وأسر زوجها، وتقبلها الصدر الأعظم خسيس النفس، وأفرج عن الجيش وقادته، وعقد صلحاً تنازل بموجبه الروس عن قلعة «آزاق» وتعهدوا بهدم القلاع المشادة حديثاً، وأن لا يتدخلوا في شؤون القازاق، وأن لا يتعرضوا لملك السويد «شارل الثَّاني عشر» المقيم في أراضي الدولة العثمانية عند عودته لوطنه واستولى العثمانيون على قلعة «آزاق».

وهكذا تمكن بطرس الأكبر من التخلص في أحرج الظروف من هزيمة ساحقة له ولجيوشه ولدولته، تلك الهزيمة التي لو تحققت، لتغير مجرى التاريخ، وكانت ربما لن تقوم للروس قيامة كدولة قوية لردحة طويلة من السنين، وتجنبت الدولة شرورهم، ولما حصل ما حصل للعثمانيين وللمسلمين من المآسي المروعة والنكبات المريرة، التي لعب العدو الروسي دوراً بارزاً في نزولها عليهم.

فالصلح الناجم والمعاهدة المبرمة آنذاك، وهي معاهدة «فلكزن» لعام ١٧١١ م لعبت دوراً عظيماً في تخليص الروس من ورطتهم. وبدأت الدولة تستعد من جديد لقتالهم إلَّا أنَّ إنكلترا وهولندا، تدخّلتا لحسم الخلاف بين الدولتين، لا حباً في السلم أو حباً بالفريقين المتصارعين، وبالأخص الدولة العثمانية، بل من أجل تأمين مصالحهم التجارية. وانتهى الأمر بعقد معاهدة «أدرنة» عام ١١٢٥ هـ الموافق ١٧١٣ م، وبمقتضاها تنازل الروس عن أراضيهم على البحر الأسود، وجرى إعفاؤهم من المبالغ المترتب عليهم دفعها لخانات القرم.

وتمكن «بطرس الأكبر» من تعديل معاهدات «فلكزن»، «القسطنطينية»

و «أدرنة» ممَّا يدل على عدم كفاءة الوزراء العثمانيين، ممَّن تولوا الصدارة بعد المرحوم «كوبريللي» عام ١٧٢٠ م، وأراد الروس التدخل لتعديل معاهدة «بساروفتش» لصالحهم، وتوجه القيصر بنفسه قاصداً «باريس» لإقناع فرنسا الإخلال بعهودها إزاء العثمانيين، لكن فرنسا، لجأت لتحريض الدولة على مقاتلة الروس، لمنع تعديها على مملكة السويد، فلم يقبل السفير العثماني وخاف سوء العاقبة للاتفاق الحاصل بين روسيا والنمسا.

وازدادت قوة البحرية الروسية، بعد هذا التاريخ بحوالي الخمسين سنة، وأصبح لها في البحر الأسود عمارة قوية تعادل قوة البحرية العثمانية، فوجه السلطان العثماني «أحمد الثَّالث» عام ١١٣٠ هـ، مزيد اهتمامه إلى تقوية وإصلاح الدونانما العثمانية، وإتقان فن إنشاء السفن، حتى وصلت في وقت قصير إلى درجة عالية من القوة والجودة. وعندما حلَّ الضعف ثمَّ الانهيار في الدولة الصفوية في إيران، استغلَّ العثمانيون ذلك الضعف، وفتحوا كردستان وكرجستان عام ١١٣٥ هـ، لكن بطرس الأكبر طالب بتركة من ميراث هذه الدولة، وبدأت جيوشه اجتياز جبال القوقاز، واحتلَّ داغستان وقلاع «دربند» و «باكو» الغربية، ثمَّ اتفق مع الشاه «طهماسب» بحيث يتنازل له الشاه عن بحر الخزر و «جيلان» و «مازندان» و «آستراباد» مقابل طرد الأفغان من إيران، فتوترت علاقات الروس مع الدولة العثمانية، وكادت تقع الحرب بين الطرفين.

ولمَّا أدرك الروس القوة العثمانية، وأنَّه ليس في إمكانهم تحقيق نصر على العثمانيين، لجأوا إلى وساطة فرنسا، ووقعت معاهدة في عام ١١٣٦ هـ، كان من شروطها امتلاك كل من الروس والعثمانيين، ما احتلته جيوشهما من بلاد إيران، وبذلك زال الخلاف.

وعندما مات «بطرس الأكبر» التزمت الدولة العثمانية تقوية حصونها الشرقية، وأمرت قوادها وجنودها بالتقدم تحت قيادة الوزير الأعظم «إبراهيم باشا» الذي تمكن في غضون ثلاث سنوات من فتح بلاد «همذان» و «روان» و «تبريز» و «أردبيل» و «لورستان» و «قره باغ» و «مراغة» وغيرها. ويقول المؤرخون إنَّ هذه الفتوحات العثمانية الواسعة، أحدثت قلاقل ومنازعات وجلبت عليهم الضرر بدل الفخر وعلو القدر، لأنَّ الإيرانيين لم يقبلوا بتقسيم بلادهم، وقاموا كرجل واحد لاسترداد ما خسروه.

لقد حرضت فرنسا، الدولة العثمانية الاشتراك معها في قتال الروس من أجل بولونيا، والتزم الباب العالي، وأعلن الحرب على الروس. وعندما علمت النمسا بمساعي فرنسا هذه، خافت من ضياع النتيجة الحاصلة في مسألة بولونيا، وأسرعت إلى مصالحة فرنسا، وعقدت معها معاهدة «فيينا» لعام ١١٤٨ هـ الموافق ١٧٣٥ م، وبادرت للاتفاق المشترك مع الروس لقتال الدولة العثمانية، ممّا أدّى إلى قيام الروس بمنع خان القرم «قبلان كراي» من تمرير جيوشه عبر مملكتي داغستان وقبارطاي، عند ذهابه لإمداد «شروان» مدعين أنَّ المملكتين المذكورتين هما من أملاكهم. واحتجّت الدولة العثمانية على ذلك التصرف وأعلنت الحرب، فبادرت النمسا وعملت على تأخير إكمال استعدادات الدولة إلى أن يكمل استعدادها، وأوعزت لسفيرها بالآستانة القيام بالوساطة حقناً للدماء. والحقيقة، فقد كان النمساويون يماطلون حتى يكملوا استعدادتهم إلّا أنَّ العثمانيين هزموهم وأجبروهم على طلب الصلح.

أثناء هذه السنة، هزمت الجيوش العثمانية الجيوش الروسية قرب شواطىء نهر «بروت» وفي جهات «أورقبو»، ودخلت الدونتها العثمانية إلى البحر الأسود، وانتصرت على الأسطول الروسي في بحر آزاق، فعقدت معاهدة «بلغراد» في عام ١١٥٢ هـ الموافق ١٧٣٩ م، وكان من جملة بنود المعاهدة. تعهد الامبراطورية الروسية «آنا» هدم قلعة آزاق، وأن لا يكون لها فيها بعد مراكب حربية ولا تجارية في البحر الأسود وبحر آزاق معاً، وأن تعيد للدولة كل ما فتحته من البلدان، وأن تنقل تجارتها على سفن أجنبية.

وعندما تسلم السلطان العثماني «مصطفى الثالث» تجددت تلك الحروب من أجل بولونيا، فالحزب البولوني المعارض تعيين عشيق قيصرة روسيا ملكاً على تلك البلاد بالقوة، حرّض الدولة العثمانية على إعلان الحرب على الروس، والعجيب في الأمر أنَّ فرنسا التي رفضت أن تدعم ذلك الحزب ضد الروس. تقوم اليوم بتحريض العثمانيين على مقاتلتهم، ورغم وجود بعض العقلاء في الدولة العثمانية على سدة المسؤولية ممَّن رأوا تأجيل الحرب حتى يتم تحصين القلاع والحصون، إلَّا أنَّ رأيهم لم ينل القبول، وبناءً عليه عُزلوا، ليتسلم الحكم أنصار الحرب. وعليه فقد قبض على السفير الروسي وسحب، وطلب من خان القرم فتح باب الخصام مع الروس، فوطأ الأخير أرض روسيا وعاد غانماً بصحبة خمسة وعشرين ألف أسير.

وتقدمت الجيوش العثمانية تحت ظروف داخلية غير ملائمة، فالخزانة فارغة، والجيش خائر القوى، والأساطيل ضعيفة، والرجال الأكفاء قليل. وكما يقول المؤرخون فإنَّ الدولة العثمانية لم تقبل على حرب وحالتها كما هي عليه الآن من الضعف والاختلال. كما كانت الظروف الخارجية سيئة، ولم يكن يعترف للسلطان بالتابعية في جهات آسيا إلَّا بالاسم فقط، والخراج لا يجني إلَّا النذر اليسير وبشق الأنفس، ممَّا أدّى إلى عدم تمكنها من القيام بعمل عسكري حاسم خلال هذه المدة، فضلاً عن أنَّ الرشوة والفساد وخيانة عمال الدولة كانت تفتّ في عضدها، والسلطان يدرك الحقيقة ويحسّ بسيطرة رأي أنصار الحرب ولا يستطيع القيام بعمل، والمدفعية متقهقرة إلى الحد الذي كانت لا تزال تستعمل المقذوفات الحجرية.

وأراد السلطان التحرك، فعزل الصدر الأعظم لجهله، وعين آخر هو «زادة محمَّد أمين باشا» الذي سرعان ما توجه إلى نهر الطونة. وفي أثناء ذلك، عبر الروس نهر دينستر وحاصروا قلعة «شوكزيم» لكنهم طردوا من حولها. وفي حينها عزل الصدر الأعظم ثمَّ قتل، لاتهام الجنود إيّاه بسوء التصرف. وحمل رأسه إلى الآستانة، ووجهت الصدارة إلى «مولدواني علي باشا» الذي تمكّن بالتعاون مع خان القرم من طرد الروس من حول القلعة المذكورة، لكن الصدر الجديد كان سيء الحظ، رغم أنَّه كان شهماً وأكثر استعداداً ولياقة من سلفه، إذ بينما كان متقدماً، وجنوده تعبر نهر الطونة بعد نصب جسرين من السفن فوقه، فاضت مياه النهر فجأة، وخاف الجنود وأسرعوا بغير انتظام أثناء العبور، وتراكموا على الجسرين اللذين سرعان ما انقلبا في مياه النهر، وغرق غالب من كان فوقهما من الجنود، وعند ذلك تعرضت الفرقة العثمانية المقدَّر عدد جنودها بستة آلاف رجل والتي كانت تحمي هذين الجسرين، للإبادة الجماعية من قبل الروس حتى أفنوا عن آخرهم. وبعد هذه الكارثة الأليمة، أخلى العثمانيون قلعة «شوكزيم» بعد أن جرّدوها من الذخيرة، فاستولى عليها الأعداء الروس إضافة إلى بعض بلاد الدولة العثمانية الأخرى في جهات آسيا.

كان الروس يعملون ضد العثمانيين على عدة جبهات عسكرية، فبالإضافة إلى جبهتي القرم وآسيا، كانت هناك جبهة البلقان. ومن المعلوم تحريض الروس لنصارى البلقان ضد الدولة العثمانية، حتى اضطرت الدولة استبقاء حامية ضخمة

هناك. ومن أساليب مدّ الروس لثوار هذه المناطق، أن لجأوا إلى إدخال عمارة من بحر البلطيق، تدور حول الشاطىء الأطلسي الأوروبي وتعبر مضيق جبل طارق إلى المتوسط فبحر الأرخبيل، وفي طريقها إليه تمدّ ثوار مورة بالعتاد والسلاح والرجال. وحين بلغ فرنسا ظهور العمارة الروسية في المتوسط، عرضت على الدولة العثمانية المساعدة، وكان الوزراء يرغبون في الصلح حتى إنّهم طلبوا من النمسا التوسط، وهم يدركون ضعف المدفعية العثمانية، بعد أن كان لها المقام الأول في أوروبا.

ولجأت الدولة، في محاولة منها للوقوف في وجه هذا الخطر، إلى إدخال سفنها ميناء جشمة الصغير، بعد أن تلاقت مع أسطول الروس قبالة الساحل الأناضولي قرب جزيرة ساقز وحققت بعض النصر وأحرقت سفينة الأميرال الروسي. وكان التجاء الدونننا العثمانية إلى ميناء «جشمة»[1] عمل غير صائب لضيقه واستحالة المناورة والتحرك في داخله، ممَّا أدّى إلى ضياعها، وخاصة فقد لجأ الروس إلى استئجار بعض الضباط الإنكليز من أمهر قادة البحرية، فاحترقت السفن العثمانية ورجمت بالمدفعية وقبض الروس على ملّاحيها.

وألحَّ بعض الضباط الإنكليز الذي يعمل مستشاراً في الأُسطول الروسي على الروس دخول مضيق الدردنيل والمرور من «جناق قلعة» وعندما شعرت الدولة العثمانية بذلك أدركت جسامة الخطر، وقامت بإصلاح القلاع، وباعتبار الوقت كان يدركها، لجأت إلى حيلة طلي القلاع القديمة بالكلس فيحسبها العدو قد شيّدت من جديد ويخشى ضربها. وبادرت أيضاً إلى تشييد قلعتين بساحل الأناضول ومثلهما بساحل الروملي على جناح السرعة، ممَّا اضطرَّ الأميرال الروسي «أورلوف» الذهاب إلى جزيرة «ليمنى»[2] ومحاصرة قلعتها والاستيلاء عليها، بعد أن حصل له الضرر الجسيم عند عبور الدردنيل.

وهنا يجدر التوقف عند نقطة تظهر عمق روح الاستبسال لدى الجندي والقائد العثماني، إذ عندما احترقت سفينة الأميرال الروسي أو فجّرت بعد إخلائها أثناء معركة جشمة، أُصيب القائد العثماني القبودان الثَّاني «حسين باشا الجزائري»

---

(١) يقع ميناء جشمة على الساحل الأناضولي الغربي ويجاور «إزمير» من جهات الغرب.
(٢) هي جزيرة واقعة في بحر الأرخبيل.

ببعض الجراح من شظايا الانفجار المذكور، وأُخرج إلى البر لتضميد جراحه، لكنه عاد بعد شفائه وطلب من الصدر الأعظم التصريح له باسترداد «ليمنى» وقال له: إنِّي لا أرغب أخذ مراكب حربية لهذا العمل، بل فقط أرجو التصريح لي بجمع بعض الأهالي، ولمَّا صرَّح له الصدر بذلك، جمع من أهالي الآستانة نحو أربعة آلاف نفر، وسلَّحهم بالبنادق وسار بهم سريعاً، ورغم نصيحة فرنسا للدولة ومحاولة إقناعها بعدم جدوى هذا العمل، إلَّا أنَّ «حسين باشا» توجه للتو إلى الجزيرة المذكورة، وهجم على الروس بغتة وأوقع بهم الخسائر الجسيمة فولوا الأدبار وأخلوها، وخاب أملهم وارتدوا خائبين خاسرين، واستردها العثمانيون[1]. ولو أخذ برأي هذا القائد يوم وقعة «جشمة» لتجنبوا ضياع السفن والهزيمة المرّة. كما يلاحظ. بالإضافة إلى ما سبق، محاولات الفرنسيين بث روح الانهزام بين صفوف حلفائهم العثمانيين، ومحاولة إقناعهم عدم إرسال قوة الكماندوس بقيادة حسين باشا الجزائري لاسترداد «ليمنى» وتلك خطة يلجأ إليها أعداؤنا دوماً، كلما شعروا تيقظ روح الشهادة والاستبسال عندنا، حتى يوهنوا عزيمتنا، وتضطرب آراؤنا، ويوهمونا بخطأ تصرفاتنا مع أنَّها قد تكون الصائبة.

ولجأ الروس بعد فشل مخططاتهم في بحر الأرخبيل إلى العمل على صعيد آخر، فحرّضوا المغامر «علي بك الكبير» في مصر، حتى يشق عصا الطاعة ويعلن الاستقلال عن الدولة، وكذلك الشيخ «ضاهر العمر» شيخ عرب «عكا» الذي أمدوه بأربعمائة مقاتل من رودوس، فقتلتهم الدولة العثمانية عن آخرهم وشتتت جموع المتمردين. وقام الروس أيضاً، بدخول الإمارتين الدانوبيتين[2] عام ١١٨٤ هـ، وتعذّر صدّهم لاقتراب فصل الشتاء، واختلال الأحوال العسكرية. وهُزم العثمانيون، ولم يكن إذ ذاك للدولة في جهات الطونة أكثر من أربعين ألف جندي، ومعظمهم لا يحسن القتال. وطلب الروس التفاوض بعد حصول الهزيمة العثمانية.

وبعد معركة «جشمة» سابقة الذكر، دخل الروس «إسماعيل» و«بندر» و«آق كرمان» ثمَّ دخلوا القرم واستولوا على قلاع «طومان» «كرج» «قوزلوه»

(١) راجع تاريخ الدولة العثمانية ـ سرهنك، ص ٢٢١.

(٢) يقصد بالإمارتين الدانوبيتين، ولايتي الأفلاق والبغدان، حيث هما تشكلان اليوم الجزء الأكبر من جمهورية رومانيا.

وغيرها وعينوا صنيعاً لهم من التتار على القرم، فهاجر الكثير من أهالي البلاد إلى الأناضول. وضاعت القرم بعد الوقائع الدموية التالية:

بعد أن فشل الروس في إرسال جيش إلى تلك البلاد في «أرقبو» لجأوا إلى تحريض الأهالي هناك ضد الدولة العثمانية، وحاولوا بث النعرة العرقية والتفرقة العنصرية بين العثمانيين والتتار، وأغروهم بالاتفاق معهم لنيل استقلالهم حتى يعود لهم سابق مجدهم. وكان لهذا الأسلوب بعض الأثر بعد أن فشل الأسلوب العسكري السابق في احتلال هذه البلاد. وكان الهدف الروسي في غاية الوضوح، فهم تذرعوا بعدم صدق خان القرم المدعو «سليم كراي» في الدفاع عن بلاده، واستولوا على البلاد المذكورة عام ١١٨٥ هـ، وابتدأت المفاوضات وتداخلت الدول الأوروبية وعقد اجتماع الصلح في «بوخارست» عام ١١٨٦ هـ الموافق ١٧٧٣ م، وكان أساس المذكرة التي قدمتها روسيا، استقلال القرم، واستيلائهم - أي الروس، على قلعتي «كرتش» و «يكي قلعة» الواقعتين في مدخل بحر آزوف، وتأمين حرية الملاحة لسفنهم في البحر الأسود، وحقهم في حماية النصارى الأرثوذكس من سكان الدولة العثمانية، لكن القتال استؤنف، وانتصر العثمانيون عند «بازارجق» و «فارنة» و «روسجق» في شمال البلقان، وصدّ الروس أمام روسجق، وقتل منهم تسعة آلاف جندي، وغنم العثمانيون جميع مدافعهم وذخائرهم، وأسروا الجنرال «رينين». وعند تقهقر الروس قتلوا في طريقهم جميع أهالي «قره صو» و «بازارجق» لخلوها من الجنود. وتغيّر موقف تتار القرم، وعادوا لطلب الحماية من العثمانيين أشقاء العقيدة بعد هزيمة الروس، فعيّنت الدولة عليهم «دولت كراي» و «جنكلي حاجي علي باشا» لاسترداد هذه البلاد - أي القرم -. وفرَّ الروس أمام العثمانيين، ويقول «هامر» في تاريخه إنّه لمّا فرَّ الروس من «بازارجق» ودخلها العثمانيون، وجدوا اللحم في القدور على النار، ممّا يدل على جسامة الرعب الذي وقع في قلوبهم من سطوة الجنود العثمانية.

وانتهزت روسيا فرصة موت السلطان «مصطفى الثّالث» وأمرت جيوشها الزحف على العاصمة العثمانية، واجتازت نهر الطونة، واتجهت نحو فارنة، فالتقت مع العثمانيين في «قوزليجه». إلاّ أنَّ الطليعة العثمانية انهزمت، واضطرب الجيش المرسل بقيادة الصدر الأعظم، ولم تلبث أن ظهرت طلائع جيش «رومانزوف» القائد العام الروسي، واستولى الروس على كافة المواقع المهمة في

طريقهم إلى «فارنة»، وتقهقرت الجنود العثمانية، واضطر الصدر الأعظم إلى طلب وقف القتال من «رومانزوف» وتوقيع الصلح، وتقررت شروط الصلح. ووقعت معاهدة في عام ١٨٨ هـ الموافق ١٧٧٤ م، قضت باستقلال القرم، و«قوبان» و«بوجاق» على أن تبقى أمور الدين الإسلامي من اختصاص الخلافة الإسلامية، وحصل الروس على بعض القلاع والأراضي، مقابل أن يتركوا بلاد كرجستان وبعض البلاد القوقازية الواقعة على السفح الجنوبي بين البحر الأسود غرباً، وكرجستان شمالاً، وأن تطلق لروسيا حرية الملاحة والتجارة في البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط، وأن تدفع الدولة العثمانية ١٥٠٠ كيسة كتضمينات حربية، وتخرج روسيا أساطيلها الحربية الموجودة في البحر الأبيض المتوسط، وتعيد للدولة الجزر التي استولت عليها وأن يزاد امتياز الإمارتين.

كان من نتائج هذه المعاهدة المدعوة، معاهدة كينارجي، أن أصبح للروس حق حماية نصارى الدولة العثمانية الأرثوذكس، وضياع القرم عن جسم الدولة العثمانية، وأتيح للروس بث سمومهم بين أهل تلك البلاد، وحصل الروس أيضاً على المكاسب الضخمة، وازداد نفوذهم، وصار لهم حق دخول القرم بحجة تسكين الاضطرابات وعملوا على تنصيب صنيعهم «كراي شاهين» المقيم سابقاً في «بطرسبورغ» والمتأثر بأفكارهم ومبادئهم وعاداتهم، حاكماً على تلك البلاد، تلك الفعلة الشنعاء نفسها التي اتّبعوا مثيلاتها في بلاد المسلمين التي استولوا عليها، وآخرها ما فعلوه في أفغانستان عندما نصبوا من طرف خفي عملاءهم الذين درسوا وأقاموا في بلادهم وتشربوا أفكارهم.

وتذمّر أهالي القرم من جراء تنصيب الروس لذلك الصنيع، وقاموا بخلعه، فتذرع هؤلاء بحجة حمايته ودعمه واحتلوا القرم كما فعلوا في أفغانستان تماماً، فكان خلعه لمصلحتهم، واستولى سبعون ألف جندي روسي على تلك البلاد المسلمة وتمّ للروس ما يبغون.

ولم يكتف الروس باحتلال القرم، بل اتجهوا في عام ١١٩٧ هـ لاحتلال بعض الجهات، فتقاسموا بولونيا مع النمسا وبروسيا، وسعت فرنسا لمنع الدولة من التورط في الحرب معهم، في الوقت الذي كان السفير الإنكليزي يحرضها على إعلان الحرب على الروس وأنَّ دولته تعد بمساعدة العثمانيين. وأنصتت الدولة العثمانية لمغريات ثعالب السياسة الأوروبية وتغريراتهم وقبضت على السفير

الروسي في بلادها وأودعته السجن عام ١٢٠١ هـ الموافق ١٧٨٧ م ثمَّ أعلنت الحرب عليهم. وتمكن القائد الروسي «بوتكين» من حصار قلعة «أوزي» أثناء تقدمه نحو مدينتي (بندر) و «أوزي» ثمَّ أعلنت النمسا الحرب على الدولة، وجابه الصدر الأعظم جيش روسيا والنمسا، واتجهت الأساطيل العثمانية نحو «أوزي» وتكبدت العمارة الروسية أفدح الخسائر، وحملت المراكب العثمانية عليها. وبينما كان العثمانيون يهمُّون بطرد العساكر الروسية من رأس «قيل»، هجم «سواروف» بجيشه عليهم فارتدت القوات العثمانية بعد مقاومة شديدة بعد أن منيت بخسائر جسيمة، وأمطروا من القلعة بوابل من النيران واختلطت عليهم الأهداف والعلامات، وقتل الكثير منهم، وغرق الكثير من مراكبهم، وضاعت جميع مراكب الأسطول الخفيفة.

وقاتل العثمانيون الروس بجوار «بيلان أطه» وفرَّ الروس بعد أن ظهر عليهم العجز. وانتصرت الدولة عليهم وطاردتهم حتى «سباستبول» وعادوا إلى مصب الطونة ـ ميناء سنة، وهناك لقي الجبناء والخونة العقاب الصارم، للهزائم التي حلت. وهاجمت الدونِنما الخفيفة التي حضرت من «نيقولايـيف» قلعة أوزي التي كانت بيد العثمانيين، وتقدم الصدر الأعظم بالجيوش إلى «أدرنة» وأرسل بعض الفرق لمحاصرة قومندانات أوزي[1] وعبر بجيوشه الطونة من جهتي «ودين» و «بلغراد». وفي الوقت الذي كان العثمانيون يحققون الانتصارات على النمسا، تقدم الروس واحتلوا بجيوشهم البغدان وكثير من القلاع والحصون. ولم تقم دول أوروبا التي وعدت العثمانيين بالدعم الوفاء بوعدها.

وهكذا نجد التضامن الأوروبي في وجه الدولة العثمانية، مثلما هو اليوم في وجه الدول الإسلامية رغم الوعود الكاذبة والتظاهر المزيّف، لأنَّها دولة تمثل المسلمين إلى حد كبير. كذلك نجد تعارض الأطماع بين هذه الدول عندما نصح الفرنسيون العثمانيين بعدم قتال الروس بينما حرّضهم الإنكليز على قتالهم[2].

نظر الروس إلى التجديدات والإصلاحات التي قام بها السلطان العثماني

---

(١) تقع على الشاطئ الغربي من البحر الأسود وهي «دينستروفسكي» وتحاذيها إلى الشمال الغربي بلدة بلغراد. وهما اليوم في أوكرانيا.

(٢) راجع تفصيلات الوقائع والمعارك الواردة في هذا الفصل في كتاب تاريخ الدولة العثمانية ـ سرهنك.

«سليم الثَّالث» بعين الحسد والغيظ، وسعوا جهدهم في الإخلال بمعاهدة «ياشي» التي جرت بينهم وبين العثمانيين بتوسط الدول عام ١٧٩٢ م الموافق ١٢٠٦ هـ.

وخلعت الدولة أميري الأفلاق والبغدان لانحيازهما إلى جانب الروس، فاغتاظت روسيا من هذا العمل، وأرسلت جيوشها واحتلت الإمارتين المذكورتين، فأشهرت الدولة الحرب عليها، وحاول الإنكليز منع الحرب بسبب نابليون ومن أجل مقاومته، إلاَّ أنَّهم لم يلبثوا أن انحرفوا عن الدولة واتحدوا مع الروس ضدها. وكان بلاغ السفير الإنكليزي للصدر الأعظم يطلب من جملة ما يطلب تحالف الباب العالي مع الإنكليز والروس، وتنازل الدولة لروسيا عن الأفلاق والبغدان وإعلان الدولة الحرب على فرنسا.. لكنهم تراجعوا بعد تيقنهم من قوة العثمانيين وتحصين المضائق.

وعرض الروس على الأميرال الإنكليزي دخول المضائق معاً وضرب الآستانة، لكن الإنكليز رفضوا بعد أن تعرضوا لضربة من الدفاعات العثمانية والقلاع المصلّحة هناك، إلاَّ أنَّهم اكتفوا بالاستيلاء معاً على جزيرة «بورجه أطه» ومصادرة السفن التجارية العثمانية. ثمَّ اضطرَّ الروس إلى سحب عمارتهم نحو جزيرة «كورفو»، وتداخل نابليون لعقد هدنة بين الدولة العثمانية وروسيا، إلاَّ أنَّه اتفق سراً مع الروس على تقسيم البلاد العثمانية، ولم تلبث الحرب بين الدولة والروس أن استؤنفت في عام ١٢٢٤ هـ، واتجهت الدونانما العثمانية إلى كوستانجه برومانيا اليوم، إلاَّ أنَّ السفن المموهة غدرت بها وحرق بعضها أيضاً لجهل ملاحيها، واستولى الروس على «إسماعيل» و«سلستره»[1] و«روسجق»[2] وجهات «نيكوبلي»[3] و«بازارجق» و«هزار غراد»، لكنَّ العثمانيين استمروا في الحرب رغم هزائمهم، ولم يلبثوا أن أنقذوا عندما أعلنت الحرب بين نابليون والروس، وجرى التوقيع على معاهدة «بوخارست» وكانت لصالح الدولة عام ١٢٢٧ هـ الموافق ١٨١٢ م.

وأسس الغرب جمعية «هيتيري» اليونانية الداعية لانفصال اليونان عن

---

(١) بلدة بلغارية تقع على نهر الدانوب مقابل الحدود البلغارية الرومانية في الشمال الشرقي من بلغاريا.
(٢) تقع على الدانوب إلى الجنوب الغربي من سلسترة وهي اليوم في بلغاريا.
(٣) تقع على نهر الدانوب إلى الجنوب الغربي من بودابست وهي اليوم في بلغاريا.

الدولة، ودعمها الروس بوجه خاص، وكانت جمعية سرية هدفت إلى مقاومة العثمانيين في الظاهر، وكذلك نشر المعارف والعلوم، لكن حقيقتها كانت بث الفساد والفتنة، والنتيجة الأولى لها كانت إحداث فتنة في الأفلاق والبغدان، قتل فيها أمير الأفلاق عام ١٢٣٦ هـ، ثمَّ لجأ اليونانيون إلى الاستيلاء على «طرابلجية» مقر الولاية، وأعملوا التقتيل والذبح في المسلمين لثلاثة أيام متواليات.

ثمَّ لم تلبث أن جرت كارثة «نافارين»[1] وهزم الأُسطول العثماني والمصري، وأصبحت مورة تحت حماية الدول وأعلن استقلالها، فأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية عام ١٨٢٨ م من أجل مورة، وتقدم الروس أيضاً باتجاه «أرضروم» بقيادة القيصر، إذ كان الجو قد خلا للأسطول الروسي، الذي حاصر «فارنا» بحراً، ونقل المساعدات للجيش البري، واقتربت الجيوش الروسية من العاصمة العثمانية، فجرى الصلح وعقدت معاهدة أدرنة لعام ١٢٤٥ هـ الموافق ١٨٢٩ م، وتحقق الهدف، وهو فصل الدولة العثمانية عن بلاد القوقاز المسلمة وبالتالي خضوع هذه البلاد للروس، وقضم أجزاء واسعة من جسم الدولة غربي القرم حتى حدود رومانيا الحالية إضافة إلى تحقيق كسب استراتيجي من حيث احتلال قصبات الدانوب، وحرية الملاحة الروسية في البحار، وإفقار الخزينة العثمانية وخضوع رومانيا للنفوذ الروسي ومنع المسلمين من استيطانها.

وكان من نتيجة حركة الأفكار التي جرت في أُوروبا في النصف الأوَّل من القرن التاسع عشر الميلادي، أن خاف الروس من ضعف نفوذهم في الأفلاق والبغدان، فلجأوا إلى احتلالهما، ولم تلبث أن نشبت حسب القرم. والحقيقة أنَّ روسيا لا ترغب أن ترى الدولة العثمانية متقدمة، فانتحلت الأسباب لمحاربتها، وأثارت النعرات الطائفية بين الأُرثوذكس والكاثوليك بغية إرباك الدولة، وإبعادها عن تقدم أُوروبا، فتقع لقمة سائغة في أيديهم، وإلاَّ فإنَّ التنظيمات العثمانية أعطت جميع الطوائف حقوقها.

وأعلنت الدولة الحرب على الروس بعد عبور جيوشهم نهر البروت، وتمكّنت من هزيمتهم في أُوروبا وانسحبوا في شبه جزيرة القرم إلى سيباستيبول، واتحدت فرنسا وإنكلترا مع الدولة العثمانية، إذ إنَّ إنكلترا ضاقت ذرعاً من الروس

---

(١) تقع نافارين على الساحل الجنوبي الغربي من شبه جزيرة بيلوبونيز (مورة).

وقوة نفوذهم في البحار، وفرنسا كانت في الظاهر تحاول الصلح بين الدولة والروس، وفي الباطن ترسل عسكريين للتجسس على الجيش العثماني والتصرف على ما استحدث به بعد التنظيمات الجديدة. وحرضت الدولتان الدولة العثمانية ضد الروس. إلاَّ أنَّهما رفضتا طلباتها في مؤتمر «فيينا» الذي فشل، وهددتا الروس، وجرى حصار «سباستيبول» وجرى الضغط العسكري الدولي على روسيا، وجلا الروس بعد إحراق جانب من المدينة، إلاَّ أنَّهم تقدموا في جهات «قارص» عام ١٢٧١ هـ التي سلمت لهم في عام ١٨٥٥ م.

وعاد الغرب إلى ديدنه القديم في معاداة العثمانيين، فتداخلت فرنسا وروسيا في مسألة الجبل الأسود، وعملوا على تحقيق نيله استقلالاً داخلياً، كذلك ألحَّت روسيا على الدولة ترك بلاد الصرب، وحرّضت أهل كريت على الثورة ضد العثمانيين وللانضمام لليونان ووعدتهم بالنصر وروّجت لجمعيات الصقالبة، وكانت وراء مذابح المسلمين على يد البلغار.

وفي عهد السلطان «عبد الحميد الثَّاني» خاف الروس من ضياع مصالحهم، لظهور بوادر مصالحة بين العثمانيين والصرب وبعض الأمم البلقانية النصرانية، ولجأوا إلى تحريض الغرب ضد الدولة العثمانية، خاصة بعد صدور القانون الأساسي العثماني، ولم يلبثوا أن أعلنوا الحرب، وخالفت رومانيا القوانين وتواطأت مع الروس ثمَّ أعلنت استقلالها. وانضمَّ أمير رومانيا بجيشه إليهم، وحضر القيصر بنفسه إلى ساحة القتال، وعبرت بعض الفرق نهر الطونة وهزمت القوات العثمانية وأصبح الروس على مشارف العاصمة استانبول. ثمَّ جرى توقيع معاهدة صلح (سان استيفانوس) ثمَّ معاهدة «برلين».

وهكذا تمكن الروس من إلحاق الهزيمة بالدولة العثمانية، لضعف الدولة، وجهل قادتها وتكاتف الغرب ضدها وإن كان يتظاهر أحياناً أو بعض دوله أنَّه يناصرها، لكنَّ العثمانيين لم يجدوا نصيراً لهم في هذه المحنة التي استمرَّت حتى وقتنا الحاضر.

الباب السادس

السلطان عبد الحميد الثاني

ولد السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٢٥٩ هـ وهو ابن السلطان عبد المجيد من زوجته الثانية وتوج عام ١٢٩٣ هـ بعد عزل السلطان مراد وكان عمره آنذاك ٣٤ سنة وتسلم السلطة والدولة العثمانية محفوفة بالمخاطرة الجسام العظيمة والثورات اللاهبة في بلاد الروم، وجابه مصاعب الدولة الكبيرة جداً فقد بلغت الديون أكثر من ٢٥٢ مليون ليرة عثمانية. استقدم الخبراء وأخذ بعض القروض وسدد أكثرها من الواردات. حاول تفادي الحروب مع روسيا عن طريق السياسة ولكن مجلس الوزراء كان يعاكسه وسرعان ما نشبت الحرب الروسية التركية التي سنتكلم عنها مفصلاً.

الحرب الروسية التركية:

لقد رفض الباب العالي طلبات الأهلين في بلاد الهرسك الداعية إلى الانفصال وأمر بقمع ثورتهم وسرعان ما أخمدت على الرغم من دعم الصرب والجبل الأسود عام ١٢٩٢ هـ ثم عادت الدولة العثمانية فمنحتهم في نهاية العام نفسه بعض الحقوق والامتيازات ولكنهم تمادوا في غيهم فسحق تمردهم فقام الكونت اندراسي[1] الوزير النمساوي الأول بالإيعاز إلى الألمان والروس فتقدمت الدول الثلاث بلائحة سياسية إلى الدولة العثمانية أبدت فيها رغبتها بتشكيل

(١) سياسي مجري شهير من أكبر دعاة الثورة. تقلد عدة مناصب حكومية في بلاده عين وزيراً لخارجية النمسا والمجر عام ١٢٨٩ هـ.

ائتلاف من أهالي الهرسك نصفه من النصارى ونصفه الآخر من المسلمين لمراقبة تنفيذ ما جاء بالأمر السلطاني كما طالبوا السلطان التعهد بإجراء الإصلاحات المذكورة معه. فوافقت الدولة العثمانية على تلك المطالب ولكن التمرد لم يتوقف. ثم تقدمت الدول إلى الباب العالي بلائحة برلين بقصد التشديد على تطبيق ما جاء بالأمر السلطاني عن طريق مجلس دولي وإصلاح حال النصارى في الولايات العثمانية ودعته إلى الاتفاق مع الثائرين وإلا فإن الدول ستضطر لاستعمال القوة ولكن الباب العالي عاد ورفض هذه المطالب المجحفة أيضاً.

لقد نجحت الجمعيات التي شكلها الروس لنشر نفوذهم بين الطوائف الصقلبية في إثارة أهالي البوسنة والهرسك. وكان لتلك الجمعيات فروع في بلاد البلغار وفي ڤيينا بقصد التحريض مما يثبت تواطؤ النمسا فهاج البلغاريون ضد الدولة العثمانية التي منحتهم جميع ما طلبوا من حقوق وبدأت الحركات العصيانية ولكنها أخمدت فقام بعض أنصار الشغب بتحريض النصارى ضد المسلمين مغررين بدعم الروس لهم وخططوا لحرق (أدرنة) و(فيليبه) فحصلت المذابح ودمرت القرى ولكن الفتنة أخمدت أيضاً فقام المخربون ببث الإشاعة الكاذبة حول ارتكاب العثمانيين للفظائع في ربوع أوروبا وأخفوا جرائمهم فهاجت بعض الدول واستنكرت واحتج بعض الزعماء من النصارى كزعيم حزب الأحرار الانكليزي (غلادستون) وأرسلت بريطانيا كتاباً أزرق إلى الدولة بهذا الخصوص. وعملت روسيا بالاشتراك مع بقية الدول النصرانية على إيجاد الاضطرابات وزرع القلاقل في البلاد العثمانية وحينما فشلت وسائلها في البوسنة والهرسك والبلغار أوعزت إلى أميري الصرب والجبل الأسود بإعلان الحرب على الدولة العثمانية فاجتازت الجيوش العثمانية نهر (مورافيا) بعد مناوشات مع الصرب وحدثت معركة ولت الصرب الأدبار إثرها واقتربوا من بلغراد ولكن تدخلت الدول ووقف الزحف العثماني ورفض الباب العالي مطالبها وأوعز باستمرار القتال فتقهقر الصربيون وزحف الجيش العثماني إلى بلغراد ولما علم الروس بذلك طلبوا إيقاف الحرب فوراً ومهادنة الصرب والجبل الأسود لمدة معينة، فقبلت الدولة منعاً للعراقيل السياسية وأعطت هدنة معينة وقبلت جميع الدول بما فيها روسيا طلب انكلترا بعقد مؤتمر بهذا الخصوص ووصل المندبون للآستانة وعقدوا اجتماعات في سفارة روسيا ثم افتتح المؤتمر رسمياً عام ١٢٩٣ هـ في سراي البحرية تحت رئاسة ناظر الخارجية

العثماني صفوت باشا وحضر مندوبو فرنسا وألمانيا وإيطاليا والمجر والنمسا وروسيا وانكلترا وفي يوم استبدال القوانين العثمانية. فعرضت الدولة مقرراته على الأعيان ورؤساء الطوائف فرفضوها وطالب الجميع بالحرب. ثم اجتمع المؤتمر في ٢٠ من الشهر المذكور وتليت مقررات الجمعية العمومية العثمانية وانفضّ وسافرت الوفود في جو يلوح باقتراب شبح الحرب وبقطع العلاقات وقامت الدولة أثناء ذلك بإبرام الصلح مع إمارة الصرب بشروط وما أن علم الروس ذلك حتى ذعروا من احتمال إبرام صلح مع الجبل الأسود أيضاً،وسعوا لتقديم لائحة عرفت بلائحة لندن وقع عليها سفراء الدول بشأن السكان النصارى في البوسنة والهرسك والبلغار أبرز ما تضمنته هو جعل الرعايا النصارى في البلاد العثمانية ذوي امتيازات يختلفون فيها عن بقية السكان فرفضتها. فوقع الروس معاهدة سرية مع إمارة رومانيا (الإفلاق والبغدان) عام ١٢٩٤ هـ وضعت بموجبها جميع أسلحتها ومؤنها تحت تصرف الروس ثم أعلنوا الحرب على الدولة العثمانية وقطعوا العلاقات، فأعلم الباب العالي سفراء الدول التي وقعت على معاهدة باريس لعام ١٢٧٢ هـ والتي نص بند منها «إذا حدث بين الباب العالي وإحدى الدول المتعاهدة خلاف خيف منه على اختلال ألفتهم وقطع سلطتهم فمن قبل أن يعتمد الباب العالي وتلك الدولة المنازعة له على أعمال القوة والجبر يقيمان الدول الأخرى الداخلة في المعاهدة وسطاً بينهما لما ينشأ عن ذلك الخلاف من الضرر» ثم قامت بالاستعداد لملاقاة العدو ووقفت الدول النصرانية المتعاهدة معها موقف المتفرج بعد أن أوصلوا الأمور إلى حافة الحرب وحتى إن انكلترا التي كان لها رأيها الخاص فإنها لم تحرك قطعة حربية واحدة ولا جندياً لمؤازرة الدولة العثمانية ويبدو تلك أمراً طبيعياً فالهدف مشترك لدى الجميع، والمسلمون هم المستهدفون بل كان احتجاجها خوفاً على مصالحها ومع ذلك فقد التزمت جانب الحياد.

الأعمال العسكرية:

قبل إعلان الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا قامت القوات المعادية باجتياز الحدود الرومانية باتجاه البلاد العثمانية وعبرت الدانوب الفاصل بينهما. ولما لم يجد العثمانيون أذناً صاغية لدى الدول الغربية قاموا بدفع السفن الحربية عبر الدانوب لضرب شواطىء رومانيا معاقبة لها على تواطئها فقامت رومانيا بإعلان انفصالها وانضمت إلى جانب روسيا في قتال الدولة. ثم عبر الجيش الروسي بأكمله نهر

الدانوب قاصداً مدينة (ترنوه) واحتلها كما احتل (نيكوبلي) ومضائق البلقان وأصبح على وشك تهديد الآستانة فأجرت الدولة العثمانية تبديلات في القيادات العسكرية. وقصد أحد القادة اللامعين ـ عثمان باشا ـ مدينة (بلفنة) ذات الموقع الهام عند ملتقى مضائق البلقان وبلغاريا ونهر الطونة وحصنها فاتجه الروس إليها وهاجموها عدة مرات ولكنهم فشلوا واندحروا بعد أن تكبدوا الخسائر الفادحة بالأرواح والعتاد فتعقبتهم القوات العثمانية ولكن خائن الدولة العثمانية ـ أمير رومانيا ـ حاصر تلك المدينة في الوقت الذي بدأ فيه وصول الإمداد الروسي وكان ذلك في عام ١٢٩٤ هـ. ثم حاول مع الروس الاستيلاء على الحصون، فاضطر العثمانيون هناك بقيادة عثمان باشا إخلاء جميع القلاع المحيطة بالمدينة. وأمام العدو المحيط بهم من جميع الجهات خرجت الجموع الإسلامية المقاتلة منها بالتهليل والتكبير والعدو يقذفهم بحممه لا يعبأون بالموت وتابعوا مسيرهم تحت وابل من النيران الكثيفة نحو خطوط الدفاع الروسية المحيطة بالمدينة كأنهم السيل المنهمر من أعالي الجبال وجرح عثمان باشا في تلك اللحظة فظن الجند استشهاده مما أدى إلى خوار عزيمتهم وأرادوا الرجوع للمدينة التي احتلها الروس فوقعوا بين طرفي السلاح وحمل القائد الجريح عثمان إلى داخل المدينة. ولتبيان الفارق الكبير بين الجيشين المتقاتلين فقد كانت تجهيزات الجيش العثماني مؤلفة من ٧٧ مدفعاً فقط و ٥٠ ألف جندي مقابل ٦٠٠ مدفع روسي و ١٥٠ ألف جندي مما يدل على شجاعة العثمانيين وثباتهم في القتال.

الحرب في آسيا:

قام الروس بمحاصرة مدينة (قارص) واتجهوا لاحتلال (بايزيد) وحاولوا إسقاط (أردهان) و (باطوم). وبعد أن نشروا قواتهم في تلك المناطق قام العثمانيون بسحقهم بقيادة أحمد مختار باشا الذي تمكن من تنظيم الجيوش وإعادة الكرة على الأعداء فتقهقروا إلى داخل بلادهم وتعقبتهم الفرق العثمانية واحتلت بعض المرتفعات داخل حدودهم بقيادة إسماعيل حقي باشا، ثم سجلت القوات العثمانية انتصارات أخرى في ستة وقائع مشهورة وبعث السلطان عبد الحميد إلى أحمد مختار باشا قائلاً: «وقصارى المسؤول من جناب الناصر الحقيقي. . . . حضرة العادل المطلق الشاهد على صدق دعوانا الحقة في هذه الحرب الحاضرة أن يتعاهد بعد الآن أيضاً بعناية وبمدد روحانية سيدنا الرسول الأمين الذي هو العروة الوثقى في

الحاجات عسكرنا بالنصر المبين في حروبهم وغزواتهم...». ثم اتخذ الروس بقيادة الجنرال مليكوف خطة الهجوم الثانية مستغلين قلة الإمداد العثماني واستشهاد الكثير من جند الدولة وبالتالي استحالة المقاومة وتقدم العدو خلف القوات العثمانية التي لم يبق أمامها إلا التراجع إلى أرضروم واحتل قارص، وحينها أعلن الصربيون الحرب على الدولة العثمانية صاحبة السيادة على بلادهم وانضموا إلى جانب الجيوش الروسية فقررت الدولة عزل أميرهم جزاء خيانته وأعلمت الأهلين بقرارها ولكنه لم يعبأ بذلك واستمر في مركزه بمساعدة الدولة النصرانية وأعطي لقب ملك. كما اشترك جيش الجبل الأسود في قتال العثمانيين بانضمامه إلى جانب الروس أيضاً مما أدى إلى انشغال جزء كبير من جند الدولة العلية وحصول اختلال في توازن القوى العسكرية المتقاتلة فضلاً عن الاختلال الحاصل في التوازن السياسي والدولي، إذ أن كافة الدول النصرانية كانت تتآمر عليها. وعلى الرغم من حلول التعب والإنهاك في صفوفها فإن جندها كانوا غالباً هم المنتصرون. لقد طلب الباب العالي من الدول الست العظمى آنذاك التوسط فلم تجب واستمر القتال رغم الشتاء القارس والثلوج الغزيرة. ثم وجه الروس جنودهم إلى ما وراء جبال البلقان للإغارة على بلاد البلغار والروملي الشرقية. ودخلوا صوفيا في ٤ كانون ثاني عام ١٨٧٨ م ثم فيليبه فأدرنة في ٢٠ كانون ثاني وتقدموا باتجاه الآستانة بدون صعوبة ووصلوا إلى مسافة ٥٠ كم فقط منها واحتل أهالي الجبل الأسود والصرب في الوقت نفسه بعض المدن والمواقع وأصبح وضع الدولة العثمانية في غاية التهديد والحرج فطلبت الصلح وبدأت بعدها المفاوضات.

لقد تحمل المسلمون في بلغاريا من النصارى ما تقشعر له الأبدان واضطر أكثرهم بعد ذلك أن يتجهوا إلى استانبول مشياً على الأقدام بمجرد سماعهم اقتراب الروس منهم خوفاً من فظاعة العدو وشراسته فنهبت وسلبت ديارهم حينما غادروها وأثناء سيرهم ثم غصت بهم شوارع العاصمة في ذلك الشتاء وفتك بهم داء (التيفوس) فمات الكثير منهم. ولولا إسراع الدولة في إبرام الصلح وتوزيعهم على ولايات الأناضول لهلكوا عن بكرة أبيهم وتلك هي خطة روسيا وأملها في تهجير المسلمين من تلك البلاد.

وبعد المفاوضات جرى الاتفاق على منح الاستقلال الإداري للبلغار والسياسي لرومانيا والجبل الأسود ودفع الغرامة الحربية للروس وأوقفت الحركات

عام ١٢٩٥ هـ. وحينما علمت إنكلترا وشاع الخبر في أوروبا بأنَّ روسيا توشك على احتلال استانبول بعثت بأسطولها نحوها بحجة حماية الرعايا النصارىٰ من اتباعها والحقيقة هي لمنع احتلال الروس لها إذ أنَّ للإنكليز مصلحة ومخططاً واسعاً على المدى البعيد تود تنفيذه. وأباح الباب العالي للإنكليز المرور في الدردنيل بعد ممانعة في البداية ثمَّ وقعت معاهدة سان ستيفانوس الشهيرة. وقد قبلت الدولة منعاً لاحتلال عاصمتها مبدأ احتلال الجيش الروسي للخط الدفاعي القريب من ضواحي استانبول وانسحبت قواتها إلى ما وراءه ونقلت المفاوضات من أدرنة إلى (سان ستيفانوس) البلدة الصغيرة على بحر مرمرة ونصت بنود هذه المعاهدة على:

انفصال الصرب والجبل الأسود وتعديل حدودها وانفصال رومانيا وشبه انفصال لبلغاريا التي أعيد تخطيط حدودها وسحب الجيش العثماني منها وهدم منشآته بينما يبقى فيها الجيش الروسي إلى أمد معين. هدم القلاع العثمانية على نهر الطونة - وعلق أمر انسحاب روسيا من أرمينيا وتعهد الباب العالي بتأمين النصارى والأرمن - كما تعهد بدفع مبالغ وتعويضات لروسيا مجمل قيمتها (١,٤١٠,٠٠٠,٠٠٠) روبل أي ٢٤٥,٢١٧,٣٩١ ليرة عثمانية ومقابل عدم الدفع نتيجة الإفلاس وافق القيصر على ترك الدولة العثمانية لأراضيها التي حررتها في هذه الحرب. كما فتحت المضائق في السلم والحرب أمام روسيا وغيرها من البنود ويمكن تلخيص النتائج بما يلي: اقتطاع أراضي الدولة العثمانية في أوروبا عدا بعض الأجزاء الصغيرة المتناثرة أمثال (استانبول - سلانيك والبحيث) (جزيرة قريبة منها) - (أبيروس) وجزء من بلاد الأرناؤوط - إقليمي البوسنة والهرسك - خسارة قلاع قارص وباطوم وبايزيد إلى حدود أرضروم تقريباً في آسيا. ولم ينم مسلمو بلغاريا عن ما لحق بهم من حيف واضطهاد فأشعلوا نار الثورة في أرجاء البلاد واتخذوا الجبال معاقل لحركاتهم. ثمَّ تفشَّت الأمراض بحلول فصل الصيف بين الجنود الروسيين الذين أفرغوا خزائن القيصر من جراء تلك الحرب العدوانية فطلب الامبراطور الروسي من خاله غليوم الأوَّل الألماني التوسط بين الروس والإنكليز الذين عارضوا الاتفاق بشدة خوفاً على ضياع مصالحهم وتبدد أطماعهم وكادت تنشب الحرب بين الدولتين ولكن عدِّلت الاتفاقية ووافقت إنكلترا على حدود الإمارة البلغارية الجديدة بعد أن تمَّ تقليص مساحتها وطبقاً للتعديل الجديد أبقيت سواحل بحر الروم تابعة للدولة العثمانية بما فيها مدينة قوله وذلك بدافع من

الإنكليز القلقين من احتمال انتقال التغلغل الروسي إلى البحر الأبيض المتوسط أو الأناضول وخليج البصرة وبالتالي طريق الهند. وقام الإنكليز يلبسون رداء الحمل الوديع أمام العثمانيين وأظهروا لهم الصداقة والإخلاص وعملوا على إقناع الباب العالي للتوقيع على معاهدة دفاعية ضد الروس وأقنعوا الدولة بضرورة احتلالهم جزيرة قبرص لتكون قاعدة أمامية متقدمة يمكن استخدامها حين الحاجة في الدفاع عن البلاد العثمانية والمصالح البريطانية تجاه العدو الروسي. ووقع الاتفاق بشأن الجزيرة القبرصية الصدر الأعظم صفوت باشا في ظروف اضطرارية أملتها المخاطر الروسية الجاثمة على أبواب العاصمة العثمانية وتفادياً من سقوط المزيد من البلاد في قبضة الروس. ثمَّ عقد مؤتمر برلين وحضرته الدول العظمى برئاسة بسمارك الألماني في ١٠ رجب عام ١٢٩٥ هـ ولم تربح الدولة العثمانية منه شيئاً فقد اقتطعت ولاية الروملي الشرقية بأكملها من جسمها وأصبحت حدود إمارة البلغار لا تتجاوز جبال البلقان وردَّت سواحل الأرخبيل إلى الباب العالي أي إنَّ القطع المتناثرة السابقة الذكر التي بقيت للدولة في أوروبا عادت الآن متصلة بعضها مع بعض ولكن المؤتمر أعطى البوسنة والهرسك للنمسا والمجر كما وسعت حدود اليونان شمالاً مع أنَّها لم تشترك في الحرب وكذلك الصرب والجبل الأسود. وقضت المعاهدة أيضاً بإجراءات داخلية ادعي أنَّ القصد منها تحسين أحوال النصارى وخاصة الأرمن القاطنين في البلاد العثمانية. وهكذا جعلت الدول النصرانية من نفسها وصياً على أمور الدولة الداخلية بحجة حماية النصارى. ويبدو أنَّ هذه المعاهدة كسابقتها مجحفة بحق الدولة العثمانية بل إنَّها أشد وطأة وجوراً فقد أرغمت على منح قطع من بلادها إلى دول لم تشترك في الحرب أصلاً أو إنَّها كانت مهزومة أمام الجنود العثمانيين.

الاحتلال الفرنسي لتونس:

بعد انقضاء ثلاث سنوات على مؤتمر برلين أي في عام ١٢٩٩ هـ ادَّعت فرنسا وجود استفزازات على الحدود الجزائرية التونسية ودخلت تونس بحجة حماية الأمن بقوة قوامها ٣٠ ألف جندي ثمَّ عززت قواتها شيئاً فشيئاً واتجهت نحو العاصمة وحاصرت قصر الباي وأجبرته على توقيع معاهدة وافق بموجبها على الاحتلال بدعوى إعادة النظام والأمن. ثمَّ أخذت لنفسها مهمة التصرف خارجياً مع الدول باسم تونس كما سيطرت على الناحية المالية في البلاد وعينت وزيراً مقيماً

وحمت الباي من أي خطر يهدده واعترفت الدول النصرانية بذلك الاحتلال. أمَّا الدولة العثمانية فقد أعلنت احتجاجها وفكَّر الباب العالي بإرسال السفن الحربية إلى هناك وخاصة بعد علمه بإعطاء ألمانيا حرية النشاط والحركة لفرنسا في تونس، وأرادت الدولة العثمانية أن تؤكد سلطتها على تلك البلاد وعزمها على إعطاء المساعدات الفعّالة لشعبها وواليها وكان ذلك رأي السلطان عبد الحميد وإلَّا فإنَّ البلاد التونسية سوف تحتل بأكملها وقد تقرر إرسال عدد من السفن سراً إلى الولاية لكيلا ترسل إيطاليا وإنكلترا سفناً بالمقابل وبالتالي تدول القضية ولكن بعض رجال الدولة لم يروا ذلك. ولكن عبد الحميد اتخذ قراره وقرر مجلس الوزراء في الوقت نفسه قبول التفاوض إذا قبل الفرنسيون ذلك. وأيَّد السلطان إرسال الباخرة الحربية (إعصار التوفيق) والحراقة (مظفر) كما أيَّد إرسال القادة اللامعين مع فرقتين من قسم البحرية وأمر باتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية أمن طرابلس الغرب أيضاً. وأعطيت الأوامر بالاستعداد للإقلاع ولكن الخبر شاع وأفشته الصحافة وقام السلطان بإصدار أمر بعزل الباي وإرسال عدد ضخم من القوات إلى تونس ولكن السفير الألماني لم ينصحه بذلك وعدت فرنسا ذلك عملاً عدائياً ووقف الأسطول الفرنسي في مجابهة الأسطول العثماني وهدد بالحرب فما كان من الباب العالي إلَّا أن أبدى رغبته بحل المسألة عن طريق المفاوضات إذ إنَّ الحرب الروسية التركية لم يمض عليها بعد إلَّا ثلاث سنوات خرجت منها الدولة منهوكة القوى مهدورة الحقوق. لقد طلب عبد الحميد إرسال ١٨ فيلقاً وعشرة آلاف بندقية على الرغم من معارضة فرنسا إلى طرابلس الغرب لتعزيز الحرب الفدائية ضد الفرنسيين ووصلت التعزيزات فعلاً إلى الحدود التونسية.

الاحتلال البريطاني لمصر:

بعد الهزيمة التي لقيها محمَّد علي باشا عام ١٢٥٦ هـ أصبح لإنكلترا النصيب الأوفى في تصدير بضائعها لمصر دون دفع رسوم تذكر كما هيمن القناصل الأجانب وبدأ التنافس البريطاني الفرنسي في زمن إبراهيم باشا. وقد انتقلت السلطة بعد محمَّد علي إلى حفيده عباس باشا الذي تسلَّم مقاليد السلطة في عام ١٢٦٦ هـ حينما كان محمَّد علي لا يزال على قيد الحياة فتراجع عن خطة جده وشدد ارتباطه مع الباب العالي واحتقر الثقافة الغربية وحاربها ومقت الأجانب وأعاد مصر لتكون عقدة المواصلات إلى طريق الهند ومد السكك الحديدية وطرد

النفوذ الفرنسي وعرقل حفر قناة السويس لإدراكه المشكلات الدولية التي ستنجم ولكن المنون سرعان ما عاجلته تحت ظروف غامضة وتولى الحكم أحد أولاد محمَّد علي الصغار (محمَّد سعيد باشا) ذو الميول الغربية فقام بمنح دي ليسبس عام ١٢٧١ هـ امتياز شق القناة واضطرَّ لعقد القروض الهائلة وشقّت القناة على حساب موارد مصر وبأيدي عمالها الذين كانوا يلجأون إلى العمل منذ الشروق وحتى الغروب بالسخرة وبالمناوبة ليلاً نهاراً فقضى حوالي الـ ٢٠ ألف عامل حتفهم. ثمَّ توفي محمَّد سعيد باشا عام ١٢٨٠ هـ وخلفه إسماعيل باشا الشديد الميل للغرب وكان هدفه جعل مصر قطعة من أوروبا وحرَّم العمل الإجباري بدعم من الباب العالي والذي عمل أيضاً على استرجاع الأراضي المصادرة لصالح شركة القناة فحصل نزاع مع دي ليسبس أحيل إلى مجلس تحكيمي وكان الحكم والخصم نابليون الثالث امبراطور فرنسا المتزوج من قريبة دي ليسبس فانحاز في حكمه إليه كثيراً وزادت بالتالي الغرامات المالية على إسماعيل باشا فاتجه إلى البنوك للاقتراض بربا فاحش. وفي عام ١٢٨٦ هـ احتفل بافتتاح القناة على مشهد من عشرات الشخصيات العالمية منها ملوك وملكات أوروبا ورجال السياسة وشيدت قصور فخمة وحدائق عامة للضيوف واستغرقت الأعياد بضعة أسابيع على حساب الخزينة المصرية.

ثمَّ وقَّع الخديوي اتفاقيات للقروض مع البنك الإنكليزي المصري والبنك الامبراطوري العثماني ومع (أوبنهايم) وصاحبي البنوك (بيشفهايم) و (غولدشميدت) وتمكّنت البنوك الإنكليزية خلال أحد عشر عاماً من ربط مصر بدين بلغت قيمته ٦٨ مليون جنيه استرليني أمَّا الدين فبلغت قيمته قبل عام ١٢٩٤ هـ ٩٤ مليون جنيه استرليني وكانت أثناءها تقوم الشركات الأوروبية بنهب المشروعات بلا حياء ولجأت السلطة إلى رهن السكك الحديدية والضياع الخاصة بالخديوي وزيدت الضرائب وأخذت القروض الداخلية بلا جدوى فقرر إسماعيل باشا في نهاية عام ١٢٩٢ هـ بيع أسهم القناة العائدة لمصر إلى إنكلترا وتمَّ بيع مشروع القناة بـ ٤ ملايين جنيه. أمَّا من الناحية السياسية فقد حاول الإنكليز احتلال مصر في بداية القرن الثالث عشر ثمَّ حاولوا ثانية في منتصف القرن ولكنهم كانوا يجابهون بالمقاومات الداخلية والخارجية. ثمَّ في عام ١٢٩٣ هـ أعلنت الحكومة المصرية الإفلاس ففرضت الرقابة المالية عليها كما اتخذت بعض

الإجراءات الأُخرى. ثمَّ حدثت تغيرات سياسية متعاقبة حتى دخل صيف عام ١٢٩٩ هـ وعندها كانت البلاد معرضة إلى خطر تدخل إنكليزي محقق فعقد مؤتمر دولي في استانبول بشأن القضية المصرية اشترك فيه ممثلو فرنسا وروسيا والنمسا وألمانيا وإيطاليا بينما رفضت الدولة العثمانية الحضور واحتجَّت على ذلك العمل الذي فيه خرق لسيادتها. وقام الإنكليز باغتنام اعتداء حدث بين نصراني من أصل مالطي وأحد الحمالين المصريين ذريعة للتدخل فقدَّم الأميرال (سيمور) قائد الأسطول الإنكليزي في مصر إنذاراً في ٦ تموز من ذلك العام يقضي بإيقاف أعمال التحصينات في الإسكندرية ثمَّ أتبعه إنذاراً ثانياً بدأت بعده الأعمال العسكرية.

وقد وصف ريتشاردس ـ أحد نواب البرلمان الإنكليزي ـ أعمال الأميرال سيمور بقوله: «لنفرض أنِّي أشاهد شخصاً ما مريباً ذا نوايا شريرة يحوم حول داري فأسرع وأوصد الباب بالمفتاح والمزلاج وأغلق الشبابيك فيقوم هذا الشخص السيء الذي يرى في عملي هذا إهانة له وتهديداً بتحطيم أبواب داري ويعلن أنَّه يعمل كل هذا لمجرد الدفاع عن النفس».

وقامت السفن الإنكليزية في عام ١٢٩٩ هـ بقصف الإسكندرية فأصدر أحمد عرابي أوامره لقواته بمغادرة المدينة المحترقة وتركها مع الآلاف من الأهلين أيضاً وقام الإنكليز باحتلالها بعد أيام قليلة وانحاز الخديوي توفيق وأتباعه إلى جانب المحتلين وقبعوا في قصورهم وأصدروا الأوامر لعرابي بوقف القتال فرفض. فأعلنوا عصيانه وعزله من منصب وزير الحربية ولكنه رفض وشرع بالعمل على التحصين والتعبئة والتسليح.

استاءت الدول من جراء ذلك وتشعبت الآراء بينها طبقاً لتعدد النوايا الخبيثة والأطماع الشريرة ثمَّ قررت الدولة العثمانية إرسال قواتها إلى مصر وراوغ الإنكليز بشأن ذلك حتى استطاعوا تحقيق نصر بعد موقعة التل الكبير.

سير العمليات العسكرية:

تعهد دي ليسبس لعرابي باشا بأنَّه لن يسمح للإنكليز بالنزول في منطقة القناة واعترض على خطة مصر بتعطيلها حفاظاً منه على مصلحته هناك فوثق به عرابي ـ وهل هذه الثقة كانت تمثيلية أم ماذا؟ وإلاَّ فما معنى الثقة بعدو هو صاحب

مصلحة ـ وألغى التدابير التي اتخذت بهذا الصدد ولكن الخطة الإنكليزية قضت بالهجوم من الشرق فاحتلَّ العدو السويس في ٢ آب بلا مقاومة وضللوا عرابي بمناوشات قرب الإسكندرية وأنزلوا في الوقت نفسه قواتهم في بور سعيد والإسماعيلية على الرغم من وعود وضمانات دي ليسبس المضللة التي كثيراً ما تنطلي علينا وأمثالها وانكشف وادي النيل من جهة الشرق. ثمَّ شنَّ الإنكليز هجوماً مفاجئاً على التل الكبير انتهى بهزيمة مصرية سريعة ولم يفلح عرابي بلمّ الشعث فرجع إلى القاهرة مصرّاً على مواصلة القتال وقدم بعض الاقتراحات ولكنه لم يفلح مرة أخرى واحتلَّ العدو الإسكندرية ومنطقة السويس واقتربت القوات الإنكليزية الهندية من القاهرة في عام ١٢٩٩ هـ وفرضت التعويضات على الشعب المصري ونكّل بالمقاومة وحكم على عرابي وأنصاره بالموت ثمَّ استبدل بالنفي إلى سيلان وأصبح اللورد (كرومر) الإنكليزي حاكماً مطلقاً هناك.

ولم يلحق الإنكليز مصر بممتلكاتهم لأسباب دولية، ثمَّ شرعت مفاوضات حول الجلاء عام ١٣٠٢ هـ في مدينة استانبول بناءً على الضغوط وبعد المماطلة والتسويف وضع مشروع الاتفاقية العثمانية الإنكليزية عام ١٣٠٤ هـ وتعهد المحتل بالجلاء خلال ثلاثة أعوام بتحفظات ولكن السلطان عبد الحميد عارض تلك التحفظات معارضة شديدة فبقيت حبراً على ورق.

أمَّا في السودان:

فقد اتخذ التغلغل الصليبي الأُوروبي طابعاً آخر فبعد وفاة محمَّد علي بقي الحكم هناك بأيدي الدولة العثمانية والمصريين. وكان للأُوروبيين أطماعاً في شرقي السودان حيث المواد الخام والتجارة الرابحة وعقدة المواصلات إلى وسط إفريقيا وإمكانية السيطرة على مصر بسبب مجرى النيل. وبدأ الغزو عن طريق المغامرين الأجانب ففي عام ١٢٩٢ هـ غادر أحد المغامرين السويسريين ميناء مصوع على البحر الأحمر في (أرتريا اليوم) الذي كان في قبضة المصريين متجهاً نحو أعماق إفريقيا وتمكن من ضم بعض الأراضي الأثيوبية إلى الممتلكات المصرية وكان الغزو قد بدأ عن طريق الأجانب الإنكليز الذين أخضعوا نيجيريا، والبلجيك الذين سيطروا على الكونغو وتذرع صموئيل بيكر اليهودي العقيدة الإنكليزي الجنسية بحجة زيادة النفوذ الإنكليزي للموازنة بينه وبين النفوذ الفرنسي. ثمَّ عين الجنرال البريطاني غوردون عام ١٢٩٤ هـ حاكماً عاماً على

السودان جميعها وكانت قد عهدت إليه إدارة الأراضي من قبل الخديوي إسماعيل فتوسع حتى بحيرة فكتوريا واستولى على منابع النيل الأبيض وأمر أتباعه بمهاجمة أنصار الحركة المهدية(١) في الخرطوم وسرعان ما قتل على أيديهم. وفي العام ١٣١٥ هـ دخلت الجيوش البريطانية أم درمان بعد موقعة شهيرة ورفع بعد يومين العلمان المصري والبريطاني على سراي غوردون بالخرطوم وأطلق على البلاد اسم السودان المصري الإنكليزي. وكان أقل عمل قام به الإنكليز إقامة صلاة على روح غوردون ثمّ بدأوا الثأر له وانتقموا من الأهلين المسلمين أشد انتقام وعملوا على إيقاف تقدم الإسلام نحو الجنوب وبذروا بذور الشقاق بين العرب سكان الشمال وبين القاطنين في جنوبي البلاد التي جعلوها منطقة تبشير نصراني ونفوذ أوروبي ونشروا فيها اللغة الإنكليزية دون العربية. ولم يسمح فعلياً للمصريين الانطلاق إلى جهات أعمق في أراضي أوغندا اليوم وما جاورها ليتسنّى للنفوذ الإنكليزي التوسع إلى الجنوب.

---

(١) تنسب الحركة المهدية في السودان إلى محمد بن عبد الله الملقب بالمهدي المولود في دنقلة بالسودان عام ١٢١٨ هـ. وقد هاجر وهو طفل مع والده إلى أم درمان وهناك حفظ القرآن الكريم ودرس الفقه والحديث ثم تصوّف وتقشف وكان محباً للعمل قوي الثقة بنفسه ثم أعلن في عام ١٢٩٨ هـ أنه المهدي المنتظر وبدأ جمع الأنظار لدعوته الهادفة إلى تنقية الإسلام من الشوائب والبدع وانتهج أسلوب إبلاغ الدعوة إلى شعوب وحكام العالم الإسلامي وطلب العون منهم للعمل على إشعال الثورة وفتح باب الهجرة للسودان والاستعداد لإرسال الجيوش الفاتحة للبلاد الإسلامية من أجل طرد الأجنبي.

بعث حاكم السودان يأمره المثول بين يديه ولكنه رفض وأعلمه أنه سيد البلاد الحقيقي وأعلن الجهاد فأرسل إليه حملة عسكرية في مقر إقامته بجزيرة - أبا - فتغلب عليها أنصاره وأبادوها عن بكرة أبيها وانتقل المهدي بعدها إلى الهجوم في كردفان فسير المصريون حملة أخرى لمقاومته قوامها ستة آلاف رجل ولكنها أبيدت أيضاً فعظم شأنه إثر ذلك وكثر أتباعه. وبعد ثورة عرابي واحتلال الإنكليز لمصر أرسلت حملة قوامها عشرة آلاف رجل خضاعه ولكنه هزمهم أيضاً ووقع السودان بأكمله تحت سيطرته الفعلية وهرب الأوروبيون إلى مصر. ثم اعتزمت الحكومة المصرية مصالحته وأرسلت الجنرال غوردون الذي أمر أتباعه بمهاجمة الخرطوم ولكن قوات المهدي تمكنت من الفتك به فغادر الإنكليز البلاد مؤقتاً. وبعد وفاة المهدي في ٩ رمضان عام ١٣٠٢ هـ تولى بعده صديقه القديم عبد الله التعايشي الذي كان قد كنّاه بأبي بكر فاعتزم غزو مصر تحقيقاً لأحلام سلفه فقاد جيشاً باتجاه مصر عام ١٣٠٦ هـ وأثناء اجتيازه وادي حلفا أنزلت به الحامية المصرية هناك خسائر فادحة ثم قضي على حكمه بعد ذلك من قبل اللورد كتشنر البريطاني.

التآمر على عبد الحميد:

وحدث التآمر على عبد الحميد، وتكاتفت اليهودية والماسون وأنصار الغرب ومعتنقي مبادئه، لكن بداية إثارة الفتن كانت حادثة «علي سعاوي» وهو أحد الضباط القدامى من الشبيبة العثمانية بتدبير حادث هجوم على قصر جراعات حيث يقيم مراد في محاولة لإرجاعه إلى الحكم مرة أخرى ثمَّ محاولة الأرمن اغتيال السلطان أثناء خروجه من الجامع.

عبد الحميد واليهود:

إنَّ قصة عبد الحميد مع اليهود تعد من أهم الأحداث التي اعترف التاريخ ببعضها وأنكر بعضها الآخر. وأمر اليهود وعداؤهم التقليدي للإسلام يعود في جذوره إلى ظهور الإسلام فمنذ أن انتصر الإسلام وأجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة المنوَّرة لخياناتهم المتكررة وعداواتهم الدائمة ومن ثمَّ عن سائر الجزيرة العربية في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب وهم يكيدون له وقد تظاهر بعضهم بالإسلام وبث السموم في جسم الأُمَّة الإسلامية عبر تاريخها الطويل وما ابن سبأ والقرامطة والحشاشين والراوندية والدعوات الهدامة التي ظهرت في تاريخ المسلمين عنهم ببعيد. لقد أهدى تتار بلاد القرم للسلطان سليمان القانوني في القرن الخامس عشر الميلادي كما كنت قد ألمحت في حينه، فتاة يهودية روسية كانوا قد سبوها في إحدى غزواتهم فتزوجها السلطان سليمان (وتلك من أخطاء بعض السلاطين العثمانيين التي تكلمنا عنها فيما مضى) وأنجبت له بنتاً وما أن كبرت تلك البنت حتى سعت أمها اليهودية وزوجتها من اللقيط الكرواتي رستم باشا ثمَّ إمعاناً منها في الغدر تمكَّنت من قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا ونصبت صهرها اللقيط بدلاً عنه ثمَّ قامت بتدبير مؤامرة أُخرى فخنقت ولي العهد مصطفى ابن السلطان سليمان من زوجته الأُولى ونصبت ابنها سليم الثَّاني ولياً للعهد والذي ابتدأ في عهده انحطاط الدولة العثمانية ولولا وجود الوزير القدير محمَّد باشا الصقللي لانهارت الدولة نهائياً.

في ذلك الزمن كان اليهود قد تعرضوا للاضطهاد في الأندلس وروسيا وتشرد الكثير منهم هرباً من محاكم التفتيش فتقدمت تلك اليهودية من السلطان وسعت لديه بالحصول على إذن لهم بالهجرة إلى البلاد، وبالفعل فقد استقرَّ قسم منهم في

إزمير وكان من بينهم شخص دعي سباتاي سيفي وهو الذي ينتسب إليه يهود الدونمة (وكلمة دونمة تعني الرجوع) وقد ولد ذلك اليهودي في عام ١٠٣٥ هـ في إزمير من أبوين يهوديين ومن أصل إسباني وكان أبوه قد قدم من المورة في بلاد اليونان اليوم. ومنذ صغره طالع الكتب الدينية وكان ذكياً فادّعى أنّه المسيح[1] المنتظر وحينما اشتدَّ الضغط على اليهود جالوا بأبصارهم يبحثون عن إمكانية ظهوره كما هو وارد في كتبهم. وقد بز (سباتاي) أقرانه بالمناقشات ثم سعى لتحريف النصوص الدينية لمصلحته ثمَّ قام بعدها بادّعاء النبوة عام ١٠٥٧ هـ فحكم عليه الحاخامون بالإعدام ولكنَّ الدولة العثمانية في حينها لم تنفذ حكم الإعدام عليه، ومن ثمَّ رحل ذلك الرجل في عام ١٠٥٩ هـ إلى استانبول فلم يوفق فانتقل إلى أثينا عاصمة بلاد اليونان اليوم ثمَّ عاد إلى إزمير ومنها رجع إلى استانبول. وفي عام ١٠٦٨ هـ انتقل مرة أخرى إلى إزمير وتزوج من فتاة يهودية بولونية اسمها سارا.

وأعلن سباتاي عن دعوته بين اليهود منتهزاً فرصة أحد أعيادهم فاستقطب من سكن إزمير منهم ثمَّ طارت شهرته حتى وصلت رودوس وأدرنة وصوفيا وصارت له مراسيم خاصة.

لم تتدخل الدولة العثمانية في بداية تحركاته لأنَّها كانت منشغلة بحرب كريت في عهد السلطان محمَّد الرابع ولكنَّه اعتقل بعد مدة وسيق إلى العاصمة، وهناك أنكر أمام المحقّقين ما نسب إليه من اتهامات فنقل إلى سجن جناق قلعة ليقضي الحكم هناك.

«في تلك الأثناء ظهر حاخام يهودي بولوني ذكي اطَّلع على كتب استحضار الأرواح وعلم بقصة (سباتاي) فقام بزيارته في سجنه وأعلمه بأنَّه (أي ذلك الحاخام) هو المسيح المنتظر فحدث بينهما شجار أدّى إلى تدخل الدولة فقامت بنقل سباتاي إلى أدرنة وهناك أعلن إسلامه أمام مصطفى باشا القائم بأعمال القصر هناك وأمام شيخ الإسلام وإمام القصر وعلى مسمع من السلطان الذي جلس في غرفة مجاورة «وبواسطة الترجمان قيل لسباتاي تدعي أنَّك المسيح فأرنا معجزتك.

---

(١) يعتقد اليهود أنَّ عيسىٰ عليه السلام ليس هو المسيح المنتظر وأنهم ينتظرون ظهور المسيح في كل وقت ولا يزالون كذلك ولهذا ادَّعى عدد منهم خلال التاريخ بأنَّه المسيح المنتظر.

سنجردك من ثيابك ونجعلك هدفاً لسهام المهرة من رجالنا فإن لم تغرز السهام في جسمك فسيقبل السلطان ادعاءك. فهم سباتاي ما قيل له فأنكر ما أسند إليه وقال إنَّهم تقوَّلوا عليه. . . »[1] فعرض عليه الإسلام فدخل فيه تحت اسم محمَّد عزيز أفندي وبعدها عين رئيساً للأذنة وقد أعلم أتباعه بأنَّه سيستمر في مهمته بالتكيف مع الوضع الجديد، وادّعى بأنَّه سيدعو اليهود للإسلام ولكنه كذب وأسَّس مذهبه. وتظاهر أتباعه باعتناق الإسلام، وارتدوا ملابس علماء المسلمين وأطلق عليهم لقب (الدونما).

بعد وفاة سباتاي انقسم أتباعه إلى عدة فرق كاليعقوبيين الذين تقيدوا ظاهراً بالعادات والعبادات الإسلامية، و (القرة قاشيون) الذين لا يرون ضرورة لذلك التقيد، وحزب (أصحاب المصدة) وهم جماعة إبراهيم آغا الذين لا يطبقون مبادىء (سباتاي) ومعتقداته بصورة كاملة.

ومن أبرز أعياد الدونما عيد الخروف الذي يحتفل به في ٢٢ آذار من كل عام وهو عيد ليلي يؤكل فيه لحم الخروف لأوَّل مرة من عام جديد ويشترط حضور رجلين وامرأتين في الاحتفال على أقل تقدير وأثناءها يلبس النساء أفخر الثياب ويظهرن أبهى الزينة ثم يهيِّئن الطعام ويبدأ اللهو والطرب والشراب وتطفأ الأنوار وكل مولود يولد بعد هذه الليلة يكون مباركاً.

إنَّ إطالة اللحية هي من الصفات البارزة عند طائفة الدونما ولكل شخص منهم اسم يهودي إضافة إلى اسمه المتعارف عليه كما أنَّ الزواج مقتصر فيما بينهم.

لقد أسهمت هذه الطائفة في هدم القيم الإسلامية في المجتمع العثماني وعملت على نشر الإلحاد والأفكار الغربية وانتشار الماسونية والدعوة لهتك حجاب المرأة المسلمة واختلاطها مع الرجال وخاصة في المدارس وكان الكثير من رجال الاتحاد والترقي يساهم في بعض نشاطاتها وأفراحها.

قام يهود الدونما بدور فعال في نصرة القوى العاتية التي تحركت من سلانيك لعزل خليفة المسلمين عبد الحميد. وهم الذين سمموا أفكار الضباط الشباب ولا يزالون حتى وقتنا الحاضر يسعون لذلك ولهم صحف ودور نشر وإن كانوا قد

---

(١) من كتاب يهود الدونمة: كتبه بالتركية مصطفى طوران - ترجمة كمال خوجة.

راجعوا مخططاتهم كي تتلاءم مع الظروف الحاضرة. وانتشر اليهود في البلاد العثمانية وتجنسوا بجنسيات مختلفة وساعدوا الجمعيات السرية وأسسوا المدارس الخاصة وكانوا هم الأغنياء والسماسرة وكان عبد الحميد أكبر أعدائهم. وحينما ضعفت الدولة العثمانية في أواخر أيامها فكر الصليبيون في قطف الثمار باستغلال وضعها الخاص والامتيازات الأجنبية الممنوحة لبعض رعاياها وللدول، وكان لقاء (ريفالد) بين ملك روسيا وملك بريطانيا وامبراطور ألمانيا وامبراطور النمسا والمجر وملك إيطاليا واستهدفوا تمزيق الدولة العثمانية. ولم يمض وقت طويل على ذلك اللقاء حتى عقد مؤتمر بازل بسويسرا عام ١٣١٤ هـ وتوصل المؤتمرون إلى قرار بشأن تأمين وطن لليهود وأصرَّ (هرتزل) على أن تكون فلسطين هي الوطن وأعطي الصلاحيات للسعي من أجل غاياتهم وكان سبيله إلى ذلك عقد المؤتمرات وكتابة المقالات وتأليف الكتب.

واستجاب له اليهود ونشأت الفكرة الصهيونية وتبعتها الحركة الصهيونية والمهم هنا أنَّ هرتزل كان يبعث دائماً على لسان كل مؤتمر برقية للسلطان عبد الحميد يحيِّيه فيها ويؤكد له ولاء اليهود باعتبارهم من رعاياه وكان يعلم حق العلم أنَّه لا وزن له ولا وزن لليهود عند عبد الحميد فرأى دعم مركزه عن طريق تبني دولة أوروبية كبرى تقبل الضغط على السلطان من أجل الإذن لليهود بإقامة وطن لهم في فلسطين وقد كتب لأحد المسؤولين الإنكليز قائلاً: «هناك طريقة لتصحيح المالية التركية وبالتالي المحافظة على التعاون الدولي لمدة أطول ولإيجاد طريق إلى الهند في الوقت ذاته ـ وهو الطريق الأقصر بالنسبة لإنكلترا. أقصد بهذه الطريقة إنشاء دولة يهودية في فلسطين لها استقلالها الذاتي مثل مصر وتحت سيادة السلطان وكما تعلم مهدت الجو لهذا المشروع في زيارتي للقسطنطينية في الصيف الماضي... وما دام السلطان هو السيد وما من قوة تمنعه من دعوة اليهود إلى الهجرة إلى فلسطين وسوف نحصل له مقابل عمله هذا على قرض كبير زيادة على الضريبة التي ستؤدِّيها اليهودية والتي سوف تكون مؤمّنة مسبقاً. وسيكون من مصلحة إنكلترا بناء خط حديدي رأساً عبر فلسطين من البحر الأبيض إلى الخليج الفارسي...».

واستجابت لهرتزل روسيا أيضاً وقد جاء في رسالة وزير الداخلية الروسي آنذاك له «إنَّ خلق دولة يهودية مستقلة تستوعب عدة ملايين من اليهود يوافقنا جداً ولكن هذا لا يعني أنَّنا مستعدون أن نتخلى عن جميع اليهود عندنا. نريد أن

نبقي ذوي الذكاء المتفوق منهم أمثالك فالنبوغ لا يعرف تفريقاً لا في المذهب ولا في القومية. نريد أن نتخلص من الفقراء وذوي العقول الضعيفة ونبقي كل من يستطيع أن يندمج . . » ولكن هرتزل لم يفلح في مساعيه لدى خليفة المسلمين عبد الحميد وكانت خطته تتلخص بالاستعانة بالمسؤولين من الأتراك بغية التمهيد لدى السلطان وقد استعمل الرشوة من أجل إغرائهم، والاستعانة بأصدقائه من الأجانب الذين يعملون لدى السلطان أو الذين يستطيعون التأثير عليه. وقابل بالفعل جاويد بك وأبيه ووزير الحربية وبعض السفراء الأتراك في كل من النمسا وألمانيا. وكان يدور الحوار بينه وبينهم حول مقدار الأرض التي تقتطع من فلسطين لتكون لهم، كما يدور الحوار حول نظام الدولة الجديدة وعلاقتها بالدولة العثمانية ودارت معظم المحادثات مع جاويد، وقد قال هرتزل: « . . . ترغب جماعتنا في عرض قرض متدرج من عشرين مليون جنيه استرليني يقوم على الضريبة التي يدفعها اليهود المستعمرين لفلسطين لجلالته وتبلغ هذه الضريبة التي تدفعها جماعتنا مائة ألف جنيه استرليني في السنة الأولى، وتزاد إلى مليون جنيه استرليني سنوياً ويتوقف هذا النمو التدريجي في الضريبة على هجرة اليهود التدريجية. . . » ورفض عبد الحميد ولم يفقد هرتزل الأمل بل حاول إغراء السلطان لا بالمال فقط ولكن بعرض خدماته والوقوف إلى جانبه ضد حركات الانفصال والتمرد المحلية عند الأرمن واليونان وغيرهم كي يرضيه، ولكن السلطان لم يتزحزح عن موقفه. وأوصى أحد أغنياء اليهود بعد وفاته بـ ٢٥٠ مليون فرنك تصرف لتأمين وطن لهم، إذ إنَّه كان قد ربح تلك الأموال من الخطوط الحديدية العثمانية. وفي عام ١٣١٥ هـ زار الامبراطور الألماني (ويلهلم) استانبول فلحقه (هرتزل) وتمكن من مقابلته في القدس بعد توسط رئيس وزرائه وطلب مساعدته بشأن الهجرة إلى فلسطين وبعد توسط السفارة الألمانية في استانبول تقدم هرتزل وبصحبته الحاخام اليهودي (موشيه ليفي) من عبد الحميد قائلاً: «مولانا صاحب الشوكة جلالة السلطان». ولقد وكلنا عبيدكم اليهود بتقديم أسمى آيات التبجيل والرجاء، عبيدكم المخلصون اليهود يقبّلون التراب الذي تدوسونه ويستعطفونكم للهجرة إلى فلسطين المقدسة، ولقاء أوامركم العالية الجليلة نرجو التفضل بقبول هديتكم خمس ملايين ليرة ذهبية[١]. . . » فما كان موقف الخليفة منهم؟

---

(١) أسرار الانقلاب العثماني: كتبه بالتركية مصطفى طوران - ترجمة كمال خوجة.

لقـد طردهم عبد الحميد وقال كما جاء في مذكرات هرتزل التي طبعت بالألمانية: «بلغوا هرتزل ألَّا يبذل بعد اليوم شيئاً من المحاولة في هذا الأمر (أمر دخول فلسطين والتوطّن فيها) فإنِّي لست مستعداً لأن أتخلّى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى الغير فالبلاد ليست ملكي بل هي ملك لشعبي روى تـرابها بدمائه فلتحتفظ اليهود بملايـينهم من الذهب».

وأصدر أمراً بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين فاتخذوا قراراً بخلعه وحاولوا استخدام المنظمات السرية الأرمنية.

لقد عرف عبد الحميد بتعاون اليهود مع الماسونية واشتبه بأمر الأرمن.

انتقل هرتزل إلى البلقان وعقد مع اليهود سلسلة مؤامرات قرروا على إثرها تفويض اليهودي (عمانويل قرا صو) الذي يتمتع بجنسية عثمانية وإيطالية والذي أصبح نائباً عن ولاية سلانيك بتلك المهمة. فكان هذا اليهودي ممّن اشترك مع الوفد الذي دخل على الخليفة ليبلغه قرار عزله كما سنرى فيما بعد. وبذلك فإن السلطان عبد الحميد كان يرى عدم توطين مهاجرين يهود في فلسطين ويرى أن توطنهم هناك سوف يجعلهم أصحاب القوة والنفوذ في وقت سريع ولم يسمح لهم بمقابلته إلَّا لمعرفة حقيقة نوايا اليهود ومـدى قوتهم ونفـوذهم وكيف يمكن إنقاذ الدولة منهم ومن مخاطرهم وكان يرى أنَّ هدف الحركة الصهيونية ليس تشيـيد المستعمرات الزراعية بل إقامة وطن ولم يكن ولن يكون هرتزل صديقاً لعبد الحميد وإن كان قد تفضّل عليه ببعض المنح التافهة حتى يستدرجه ويعرف نواياه الخبيثة، ويعطيه نوعاً من الشعور بالثقة فيكشف عن خفايا ما يريد، كما أنَّ المستوطنات اليهودية الزراعية كانت في فلسطين على نطاق ضئيل جداً قبل عهد عبد الحميد وفي إبّان حكمه، وعندها استغلَّ اليهود ومنهم «ميتر سالم» السـالونيكي تـردي الأوضاع المالية في الدولة العثمانية وديونها الضخمة، وعرضوا أموالهم مقابل شراء بعض الأراضي المحدودة، وفي ذلك الوقت لم يكن ما قـاموا بـه يشكّل خـطراً واكتشفه عبد الحميد وطرد هرتزل ورفض عـروضه، وبـذلك ينتفي مـا يشيعه الأعداء عن الثالوث العثماني البريطاني الصهيوني الذي لم يكن إلَّا توهماً وتعصباً وتحاملاً على الخليفة المسلم عبد الحميد.

لقد موَّل اليهود الأقليات غير المسلمة وقطاع الطرق من الأرناؤوط الذين

كان أكثرهم ماسونيين. فما قصة الماسونية وما هو دورها في هدم الخلافة وخلع عبد الحميد؟.

ولنقم بتسليط بعض الأضواء على خفاياها وأسرارها الغامضة وقراراتها الهدامة.

إنَّ الماسونية (البناء الحر) هي من أعظم وأقدم الجمعيات السرية التي ما زال منشؤها غامضاً وقد قيلت فيها نظريات مختلفة بيد أنَّ المصدر الذي لا شك فيه هو اليهودية التي اتخذت تعاليمها أساساً لإنشاء المحفل الأكبر في عام ١١٢٩ هـ ولا تزال هي القوة المحركة الفعالة لها وقد جاء في بروتوكولات حكماء صهيون «. . .إلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن ننشيء ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم. . .» وسوف نركز هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا؟ وستتألف هذه القيادة من علمائنا. . . وكل من في الشرطة الدولية السرية تقريباً سيكونون أعضاء في خلايانا. . .». وكان الاتحاد اليهودي العام المؤسس من قبل اليهودي الباريسي Cremteux الذي انتشرت فروعه في جميع أنحاء العالم ومنها البلاد العثمانية. وهو الذي بنى مدارس (الأليانس) في العراق وفي كثير من المدن العربية. إنَّ الماسونية هي الاسم الجديد للشريعة اليهودية المقنعة[1] وكانت الثورة الفرنسية من مواليدها.

كما أنَّ حفظ الأسرار من عادتها. وهي تزعم حب الخير والحقيقة والتعاون والرقي والتسامح والاحترام وحرية الضمير، وهي لا تقبل المتدينين أعضاء فيها وتدعو إلى التفاهم مع غير دعاة الدين كما تشجع على الحياة البهيمية والتمرد ودخول الأندية والجمعيات الرياضية والموسيقية وغيرها. ومن أهدافها البعيدة تأسيس جمهورية ديمقراطية عالمية لا دينية خفية وصيانة الدول العلمانية.

لقد ساعدت المذاهب الحرة على انتشارها. وكانت الماركسية من أبرز مواليدها أيضاً وكان ماركس وآنجلز من ماسونيي الدرجة الحادية والثلاثين ومن منتسبي المحفل الإنكليزي. وهي ترى أنَّ النضال ضد الأديان لا يبلغ مداه إلا بعد فصل الدين عن الدولة. أمَّا من يخدم الدولة بإخلاص فهو من ألد أعدائها.

---

(١) أسرار الماسونية تأليف الجنرال جواد رفعت اللخان - ترجمه عن التركية وعلق عليه نور الدين رضا الواعظ وسليمان محمد أمين القابلي.

كما ترى أنَّ السيطرة على الشبيبة من أُولى غاياتها وأنَّ الفرق والأندية الرياضية والجمعيات الموسيقية هي التي تحافظ على استمرار نفوذها في أوساط رواد هذه المؤسسات. وكان نابليون الأول لعبة بأيديها.

إنَّ الدعايات التي انتشرت في عهد عبد الحميد والتي تقول بأنَّ البلاد ترزح تحت الحكم المطلق، وأنَّ الحرية قد فقدت والاستبداد قد خيم وأنَّ السلطان يفتك بالعناصر المثقفة ويرميها من نوافذ القصر إلى البحر وغيرها من أقاويل كان من نسج الماسونية، كما أنَّ الكتب التي نشرتها تؤيد أكاذيب اليهود وهي التي صورت السلطان سكيراً فاسقاً. كل هذا من أجل تغطية الحقائق التاريخية الناصعة وتشويه سمعته كيف لا وهو العدو الأوَّل لهم. وقد قال هرتزل إثر زيارته للسلطان: «أقرر على ضوء حديثي مع السلطان أنَّه لا يمكن الاستفادة من تركيا إلَّا إذا تغيرت حالتها السياسية بدخولها في حرب أو وقوعها في مشاكل دولية وأعتقد أنَّه لا بد من كسب عطف الحكومة الإنكليزية على المسألة الصهيونية...» وفعلاً تحقق له ما أراد ولكن بعد عبد الحميد.

أوقعت الماسونية في شباكها الكثير من الوطنيين المتحمسين أمثال طلعت باشا[1] الذي انتخب رئيساً لمحفل المشرق الأعظم العثماني ولم يكف طيب السريرة أو الإخلاص عنده. ثمَّ وقعت إدارة الدولة تحت نفوذها في الوقت الذي لم يكن

---

(١) طلعت باشا: واسمه الكامل محمد طلعت باشا. ولد عام ١٨٧٤ م في أدرنة بتركيا. وهو من زعماء تركيا الفتاة ورجل الدولة العثماني البارز. تولى الصدارة العظمى من عام ١٩١٧ - ١٩١٨ م فكان المسيطر الأول بين الثالوث الحاكم آنذاك. وهو ابن موظف عثماني صغير. انضم إلى شركة الهاتف بعد أن لازم دراسة القانون مدة من الزمن في سلانيك. وسرعان ما اعتقل نظراً لنشاطه السياسي المخرب ثم أطلق سراحه بعد سنتين وعين رئيساً لأمناء البريد والهاتف في سلانيك فقام بتأدية خدمات كبيرة لتركيا الفتاة. ثم أصبح نائباً عن أدرنة بعد عام ١٩٠٨ م وعين في العام التالي وزيراً للداخلية، تقلد منصب وزارة البريد ثم الأمانة العامة للاتحاد والترقي عام ١٣٣٠ هـ. انحاز إلى جانب الألمان إبان الحرب العالمية الأولى بتأثير من أنور وزير الحربية. ثم أخذ على عاتقه مسؤولية تهجير الأرمن من المقاطعات الشرقية (بصفته وزيراً للداخلية) المفتوحة أمام التأثير الروسي إلى الروسي إلى سوريا وما بين النهرين. استقال في تشرين أول عام ١٣٣٧ هـ قبل توقيع معاهدة الصلح ثم غادر في الشهر التالي البلاد إلى ألمانيا بصحبة أنور وجمال حيث قتل هناك بعد ثلاث سنوات.

فيه طلعت على علم بخفاياها فصدق مزاعم شياطينها ولكنه لفظ أنفاسه الأخيرة برصاصها.

لقد دبر الماسوني اليهودي (متر سالم) الحائز على الدرجة الثالثة والثلاثين في الماسونية مؤامرته الخبيثة التي مكّنت الطليان من احتلال طرابلس الغرب ودفعت له الحكومة الإيطالية الملايين من الليرات الذهبية لقاء إقناعه الدولة العثمانية بضرورة سحب الأسلحة والعتاد منها إلى استانبول بحجة التعمير والإصلاح[1].

وبمساعي الماسونية سيقت قطعات الجيش إلى اليمن وسلمت بعدها طرابلس لقمة سائغة للمحتلين وقد أدرك طلعت أخيراً تلك المؤامرة ولكن بعد فوات الأوان.

لم يكن في عهد عبد الحميد إلَّا محفل واحد للأجانب، أمَّا في عهد الحريات فازداد النشاط الماسوني وقام اليهودي (جاك سهامي) بإقتباس مبادىء المشرق الأعظم الفرنسي ومبادىء المحفل الأكبر الإنكليزي وكتب أسسها باللغة التركية.

لقد احتضن اليهودي (عمانويل قراصو) السابق الذكر موظف البريد (طلعت) منذ كان في بداية الترقي في دوائر الدولة. ومن ثمَّ رفعوه تدريجياً بعد أن شعروا بأنَّ له مستقبلاً جيداً واتصلوا به وسجلوه وكان يتقاضى راتباً مقداره عشر ليرات إنكليزية وكان قراصو الشخص الذي قام بإنقاذ نفسه وطلعت حينما اعتقلا من قبل السلطان عبد الحميد الذي أمر بملاحقتهما سراً.

أمَّا جمال باشا من قادة الاتحاديين فقد دخل في الماسونية بعد طلعت بزمن.

إنَّ الحقوق التي أعطيت للأجانب طبقاً للامتيازات القديمة في الدولة كانت طعنة كبيرة في جسمها تسلل هؤلاء عن طريقها ليزرعوا الدمار والخراب. وإفتتح الماسونيون منذ وقت مبكر محفل (برات) في ألبانيا بعد التسهيلات الممنوحة لأولئك الأجانب. ثمَّ كان الماسونيون من أبرز الذين خططوا لواقعة ٣١ آذار القادمة

---

(١) كانت الدولة العثمانية مدينة لإيطاليا بمبلغ ٦٠ مليون فرنك، فعقد أرباب البنوك في باريس اجتماعاً في فندق «غراند أوتيل» وحضر اليهودي السالونيكي «ميتر سالم» الاجتماع، ورئيس جمعية (آليانسي إسرائيليت) وصاحب البنوك وغيرهم ودارت المناقشات حول ثمن ولاية طرابلس الغرب وكأن الدولة تريد بيع إحدى ولاياتها لتسد ديونها، وهكذا كان يعمل ميتر سالم اليهودي الذي كان وراء بيع بعض القطع من الأرض ووراء المذابح أيضاً.

الذكر. وهم الذين اتخذوا سلانيك مركز انطلاق في الدولـة العثمانيـة وبرئـاسة (قراصو) وبالتعاون مع (جاويد اليهودي) إذ قبض الأول من البنك الإيطالي مبلغ ٤٠٠ ألف لـيرة ذهبية وسلمهـا للاتحـاديـين لتنفيذ مؤامـرتهم على الخليفـة عبد الحميد.

لقد اتصل الماسونيون عن طريق حزب تركيا الفتاة بالفئات المنحرفة من موظفين كبار وضباط وبعض مشايخ الطرق وعلماء وسفراء ووزراء وكتاب ومحامين وكذلك اتصلوا بالثوار الأرناؤوط وعصابات البلغار. وفكروا بتفجير (جسر غلطة) أثناء مرور عبد الحميد عليه في أيام شهر رمضان وهو في طريقه إلى زيارة الآثار النبوية الشريفة في جناح البردة في قصر (طوب قبـو). كما فكـروا بنسف قصر (يلدز)، وقاموا بتوزيع المناشير التي حرّضت على تبنّي دستور مدحت باشا بقصد زرع الاضطرابات، فقبض عليهم وسجنوا ونفوا إلى طرابلس الغرب. وقد قال السيد رشيد رضا في مجلة «المنار» في عددها الأول: «وكان السلطان عبد الحميد عدواً للجمعية الماسونية لاعتقاده أنَّها جمعية سرية تسعى لإزالة السلطة الدينية من حكومات الأرض، وهو يفتخر بالخلافـة الإسلاميـة ويحرص عليهـا وقد تنفس الزمان للماسون بعد الانقلاب الذي كان لهم فيه أصابع معروفة فأسسوا مشرقاً عثمانياً أستاذه الأعظم طلعت بك ناظر الداخلية وكان زعماء جمعية الاتحاد والترقي وأنصارها من اليهود وغيرهم أعضاء فيه».

عبد الحميد والدستور:

ذكرنا سابقاً نبذة عن محاولات مدحت باشا إعلان ما سمي بالدستور أثناء خلافة السلطان عبد العزيز وفشله ثمَّ كيف حاول إعادة الكرة في عهد السلطان مراد وعدم تمكنه أيضاً. أمَّا وقد تولى الصدارة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني تحت ضغط الدول الأوروبية ليفسح لهم المجال في نشر الأفكار الغربيـة. فقد تمهدت السبل أمامه حسبما ظن، فعقد مؤتمر لسفراء الدول الكبرى في العاصمة بناءً على اقتراح من إنكلترا ثمَّ جرى إثره ضغط دولي بغية القيام بالإصلاحات، فشكل مدحت لجنة مؤلفة من ستة عشر موظفاً متديناً وعشرة من العلماء وقائدين كبيرين من الجيش لوضع مشروع الدستور الذي استوحي من الدستور البلجيكي تحت اسم قانون أساسي وذلك في عام ١٢٩٤ هـ فأصبـح الدستـور البلجيكي

المعدل دستوراً للدولة الإسلامية العثمانية بعد أن كان الإسلام هو دستور الدولة.
وقد نصَّ على إطلاق لفظ العثمانيين على جميع الرعايا وعلى الاعتراف بالحرية الشخصية واعتبار الإسلام دين الدولة بعد أن كان الإسلام هو دستور الدولة فأصبح يراعى في الأعياد والمناسبات وما شابهها. كما نصَّ على إقامة مجلسين هما المبعوثان (النواب) والشيوخ (الأعيان) يتمتع أعضاؤهما بالحصانة فلا يخضعون لقوانين الدولة. والسلطة التشريعية تتألف من المجلسين، ونصَّ على تشكيل محكمة عليا وأنَّ مبدأ اللامركزية هو الطريقة التي تتبع في الحكم. لم ينفذ السلطان عبد الحميد ذلك الدستور ولربَّما يكون من جملة رفضه له معارضته للإسلام أو دعم الدول الكبرى الأوروبية وتبنيها له ومحاولاتها وضعه موضع التنفيذ كذلك إدراكه تعاظم نفوذ العناصر المسيحية وتغلغلها في وقت كان فيه المسلمون على درجة ضعيفة[1] من الوعي كذلك تعاظم نفوذ «تركيا الفتاة» وهي التي اتخذت أوروبا مثلها الأعلى ومنها استمدت القوة، وقامت بخلعه ثمَّ اغتيال عمه «عبد العزيز» ونصبت «مراد» ثمَّ خلعته. وقد لمس ألاعيب الإنكليز وحقدهم ومحاولاتهم الاتصال برجال الدولة، فأقال مدحت باشا عام ١٢٩٤ هـ باعتباره مرتكباً للخيانة العظمى ونفاه. وقد ثبتت اتصالاته بالإنكليز في وقت كان فيه (دزرائيللي) اليهودي رئيساً لوزراء بريطانيا ولم يصدف في تاريخ تركيا الطويل أن ضحى شخص باستقلال بلاده ونادى بالوصاية والانتداب الاستعماري الغريب سوى مدحت باشا وقد عمل على إنجاح ٤٨ نائباً نصرانياً من مجموع ١١٧ نائباً.
ثمَّ طلبت الدول التي وقعت على معاهدة مؤتمر برلين السابقة الذكر إدخال الإصلاحات العصرية في الدولة العثمانية ولكن عبد الحميد لم يكترث بمقرراتهم وصرف همته لتدريب الجيش وأخذ يبطش بمن يدعو للاعتماد على دول الغرب أو يطالب بترك الإسلام، ولعلَّ حادثة اغتيال عمه السلطان عبد العزيز كان لها بعض الدور كذلك ما جرى لأخيه مراد الخامس؛ وكيف خدعه الشبان الملتفون حوله، كذلك حادثة علي سعاوي. وهذا ما أشارت إليه ابنته عندما تقول نقلاً عنه: يقول أبي: بعد حادثة علي سعاوي، وجدت نفسي مرغماً لأن أكون يقظاً كل اليقظة،

---

(١) يرسم (نجيب فاضل قيصة تورك) صورة هزلية لما دار في أولى جلسات مجلس المبعوثان حيث تناوب النواب المسيحيون الخطابة في مظاهرة من النفاق والرياء تدل على تغلغلهم ونفوذهم داخل المجلس وعدم وعي المسلمين - راجع كتاب الأدب التركي الإسلامي ص ١٨٠.

وفتحت هذه الحادثة عيني[١]. . . كما يقول لزوجته عن أخيه مراد الذي كان يحبه كثيراً: كان من طبيعته أن ينخدع لمن يبتسمون في وجهه، دون أن يفكر في المعقول وغير المعقول. . . ولم يحسن عمي السلطان عبد العزيز، التصرف بتبصر، إذ أطلق له العنان أكثر من اللازم[٢]. كما أخذ بتدعيم مركز الخلافة وتقوية الجامعة الإسلامية. في تلك الأثناء كان الاتحاديون (جماعة الاتحاد والترقي)[٣] يقيمون أول خلية لهم في سلانيك بقيادة طلعت وسبعة من أصدقائه وما أن سمع أحمد رضا بك النبأ حتى أرسل للاتصال بالتنظيم الجديد وتأييده.

ثمَّ تقرر أن يكون للجمعية فرع في باريس أطلق عليه اسم التنظيم الخارجي ورقي طلعت إلى رتبة كاتب أول في البريد ورعاه المحفل الماسوني الذي أحسَّ بأنَّه سيكون له مستقبل كبير وبعد ذلك ألقي القبض عليه متلبساً بالجريمة مع قرا صو كما ذكرت قبل قليل. واستطاع ذلك اليهودي (قرا صو) أن ينقذ نفسه وطلعت بالدهاء والحيلة، ثمَّ عاد لسلانيك ووجد أنَّ شخصيات عديدة قد دخلت في التنظيم من ضباط الجيش كالمقدم جمال باشا والرائد فتحي بك وقائد الجناح مصطفى كمال الذي كان قادماً من الشام.

ثمَّ حدث اضطراب شعبي بعد اغتيال الفريق أول شمسي باشا الأرناؤوط قائد الجيش الثالث فقام قائد الجناح نيازي بالسيطرة على مركز البريد في (رسنة) وأرسل برقية للسلطان عبد الحميد يعلمه فيها بأنَّه سيعلن ما أطلق عليه اسم الدستور والحريات مطالباً إياه بالقبول دون قيد أو شرط فأرسل السلطان برقية إلى المفتش العام حسين حلمي باشا يستفسر عن الوضع هناك وعن قوة الاتحاديين وقام بإسناد مهمة القضاء عليهم إلى المشير خيري باشا الذي كان في سلانيك

---

(١) والدي السلطان عبد الحميد، ص ١٧٨.

(٢) المصدر السَّابق.

(٣) منظمة سرية عثمانية كان لها الدور الفعال في ترتيب أحداث ١٩٠٨ م الموافق ١٣٢٤ هـ وأصبحت بعد ذلك التاريخ تعد الحزب السياسي المهم في الدولة العثمانية. تبنت سياسة المركزية والاقتصاد القومي الموجه. وقد تأسست في باريس عام ١٨٩٩ م ثم اندمجت مع جمعية الحرية العثمانية التي أوجدت في سلانيك عام ١٩٠٦ م من قبل جماعة من الضباط والموظفين. استبدلت تدريجياً سياستها العثمانية بالسياسة التركية القومية وأدخلت النظام العلماني في المدارس الابتدائية والثانوية.

ولكنه رفض فتكفل إبراهيم باشا قائد منطقة (سرز) بالمهمة.

لقد هزت حادثة الاغتيال تلك، السلطان عبد الحميد وفي الصباح الباكر من أحد أيام عام ١٣٢٤ هـ اجتمع مجلس الوزراء وجرت مناقشات حامية وتأخرت الصحف عن الصدور في الوقت الذي أعلنت فيه الحرية في (مناستر) و (سلانيك) وكانت أصوات المدافع تسمع في كل مكان. ثمَّ صدرت الصحف تعلن أنَّ الحكم سيكون مقيداً وأنَّ إرادة سنية ستصدر بهذا الصدد. وبعد قليل سمعت أصوات المدافع حول استانبول وبعدها أعلنت الحرية بشعاراتها الثلاثة (العدالة والمساواة والأخوّة)[١] وفي اليوم التالي صدرت إعدامات عاجلة على بعض الضباط الكبار من الشرطة السرية واستقبل الاتحاديون استقبال الفاتحين، ثمَّ أعلن نبأ استقالة وزارة فريد باشا وتعيين سعيد باشا رئيساً للوزارة الجديدة.

كما عين جمال الدين شيخاً للإسلام وأعلن الدستور والحريات ثمَّ أعلن العفو العام وفتحت أبواب السجون وذلك من أكبر الأخطاء التي ارتكبها الاتحاديون إذ انتشر آلاف المجرمين من مختلف الأجناس، وقد سأل عبد الحميد وزراءه حينما اطَّلع على وثيقة العفو العام «أليس في هذا الشمول خطر على الدولة؟ ولمَّا أجابوا بأنَّه ليس هنالك من خطر، قام بالتوقيع على القرار.

كانت تظهر آثار التنعيم والبذخ على بعض السجناء ولكن أغلبهم من التعساء الذين تردت أحوالهم. وفي ساعات قليلة كان مئات القتلة واللصوص وهتّاك الأعراض منهم قد انخرطوا في صفوف المظاهرات والاستعراضات إذ أتاحت لهم الفرص إشباع غرائزهم والتنفيس عن أحقادهم، وقد شهد أحدهم حادثة سجين كان محكوماً عليه بالإعدام لقتله عدداً من الأشخاص وخفض الحكم بعدها للمؤبد. شوهد ذلك السجين حين إطلاق سراحه مع بقية زملائه ينزل إلى الشارع ويخرج مدية كان قد أخفاها في ثيابه ويبدأ بطعن من يصادفه في طريقه فقتل تسعة أشخاص وتوارى عن الأنظار إلى بلاد اليونان[٢]. لم يتمكن الاتحاديون من تحقيق أغراضهم على الرغم من إعلان الدستور إذ إنَّ الهدف الرئيسي لم

---

(١) هذه الشعارات الثلاثة لا تزال هي نفسها شعارات الماسونية.

(٢) يراجع للاستزادة عن الموضوع كتاب أسرار الانقلاب العثماني تأليف مصطفى طوران باللغة التركية ترجمة كمال خوجة.

يتوصلوا إليه بعد. لقد تستروا وراء شعارات الحرية وإسقاط الاستبداد واجتمع وفد منهم ضم (طلعت) الماسوني و (جاويد) اليهودي من الدونما. و (أنور) و (رحمي) برؤساء الدوائر والولاة والمتصرفين وطلبوا منهم التنسيق حسب الخطة المرسومة التي ستظهر. كما مهدت الصحافة التي أصبحت رهن إشارتهم والسجناء الذين أطلق سراحهم ولا يخفي الماسون علاقتهم بالانقلاب العثماني بل إنَّهم يفخرون بالأدوار الإجرامية التي قاموا بها وقد قال الفيلسوف الماسوني شاربيا في حفل أُقيم للماسون: «انظروا إلى إخوانكم الماسونيين السالونيكيين الذين قاموا بالحركة الدستورية التي قلبت الحكم العثماني في آخر عهد السلطان عبد الحميد دون أن تسيل نقطة دم واحدة. أجل فبمثل هذا الشعب الماسوني تفخر الماسونية ويعظم من شأن وسائلها السلمية السليمة».

وكان من وراء الجميع وكالة المخابرات المركزية البريطانية التي كانت تمسك الخيوط جميعها(١).

خلع السلطان عبد الحميد:

لقد استُغلَّ جماعة الاتحاد والترقي أبشع استغلال حينما اندلعت الأحداث التي أدَّت في النهاية إلى خلع السلطان عبد الحميد. إذ كان من جملة العناصر التي لعبت دوراً فعالاً فئة المسرحين من الخدمة الذين كانوا قد اتهموا بالظلم والطغيان، كما أنَّ بعض طلبة المدارس الشرعية الذين صدرت بحقهم تعليمات التزامهم بتأدية الخدمة العسكرية، وكانوا في السابق متفرغين لطلب العلم معفون منها. كما لجأت الدونما إلى بعض أعضاء الاتحاديين الذين لم يظفروا بمناصب كبيرة وحرّضتهم، فبدأ نتيجة لذلك صراع بين الاتحاديين المعتدلين والمتطرفين وهدد المتطرفون الذين يملكون الصحف، بشن الحملات ضد خصومهم، فجرت الاغتيالات بين الفئتين وكان بعضهم يعمل في الشرطة السرية قبل إعلان الحرية وسرعان ما تحولوا إلى الجانب الآخر ليصبحوا أعضاء في الجهاز السري الاتحادي كما هي الحال مع كل انتهازي لا مبدأ له ولا أخلاق، وقد عمل أُولئك الجواسيس لمصلحة الإنكليز حينما احتلوا العاصمة وهم الذين كانوا سابقاً يدّعون غاية الوطنية والإخلاص.

---

(١) لا أدري كيف التواطؤ الصهيوني البريطاني العثماني، وتشكيلهم ثالوثاً لضرب القضية العربية بعد أن رأينا ما أثبته التاريخ حقيقة عن هذه المسألة.

وهيأت الصهيونية ومنظماتها السرية لتلك الحوادث، كما كان للصليبية اليد الطولى في إذكاء نارها، فإنكلترا كانت العقل المخطط للأحداث، وتضمر إلغاء الخلافة الإسلامية. ولإيطاليا مطامع في طرابلس الغرب. كما لا يخفى أنَّ اليهود وضعوا نصب أعينهم استيطان فلسطين. أمَّا رجال الاتحاد والترقي الذين شنّفوا آذان الناس بالشعارات البرّاقة فكان هدفهم قصر يلدز. وخزينته بالذات.

ثمَّ ضغط أركان الفتنة لإحداث عصيان مسلح والاستيلاء على ثروة القصر والضغط على السلطان للحصول على موافقته لسحب الأموال المودعة في بنوك فيينا ومن ثمَّ خلعه وتنصيب الرجل المطاوع لهم أخيه محمَّد رشاد. فاستغلوا المشايخ لإيقاد نار التعصب وحرّضوا طلبة العلم (الصوفطا) بالعمل على استصدار قانون ألزمهم بالخدمة العسكرية، وكانت كتائب الرماة هي التي استخدمت لإشعال الفتنة وكانت الكتيبة الثانية تتمركز في سراي بورني (حي من أحياء استانبول يشرف على البحر ومعناه بالعربية رأس القصر) وكانت الكتيبتان الثالثة والرابعة تعسكران في ثكنة طاش قشلة وسط العاصمة (وهي الآن كلية الهندسة)، وكان الضابط البكباشي رمزي هناك وأصبح لجنود الكتائب الذين تحركوا لإعلان الدستور وضعاً خاصاً ودخل الغرور إلى نفوسهم وكان عدد القوات الخاصة يزيد عشرة أمثال عن عدد قوات كتائب الرماة إذ كانوا يشكلون الفرقة الثانية لهذه القوات بكتيبتها السابعة والثامنة وفرق أخرى.

بدء المأساة:

طلبت قيادة القوات الخاصة من بعض المشايخ إلقاء دروس الوعظ في ثكنتي طاش قشلة وبيك أوغلي فدخل هؤلاء إلى صفوف الجند بلا ممانعة أو إعاقة. ودعيت الفرقة المؤلفة من القوات الخاصة إلى اجتماع وجاء شخص ينتحل صفة جنرال ومعه بعض الضباط ثمَّ خطب وبعد إنهاء خطابه قال إنَّه سيتلو إرادة سلطانية جاء فيها أنَّ السلطان وبإفتاء من شيخ الإسلام يطلب من الجنود لبس القبعة ثمَّ نزع طربوشه عن رأسه ولبس قبعته وعزفت الموسيقى ثمَّ جرى استعراض للكتائب وغادر المكان بعد ذلك، لم يدر بخلد أحد أنَّ ذلك الباشا كان مزيفاً ومن معه. وكان من بين من رافقه مدحت شكري وبهاء الدين شاكر من قادة الاتحاديين ولا يخفى ماذا كان يعني لبس قبعة بالنسبة لشخص مسلم في ذلك

الزمن. ثمَّ ذهبت تلك الهيئة المزيفة إلى ثكنة المدفعية في بيك أوغلي وقامت هناك بفعلتها ذاتها.

وبعد ذلك بُثَّ ضباط مزيفون بين الجنود بغية إثارة المشاعر وبدأ الهياج في الثكنات وقام المزيفون بإلقاء الخطب الحماسية وادّعوا غيرتهم على الدين وعلى شريعة الله وتظاهروا باستنكار تلك الفعلة الشنيعة وكأنَّهم وهم يقومون بهدم الشريعة يصورون أنفسهم حماتها[1].

ثمَّ اتجه الركب الثائر نحو مجلس النواب والتقوا في طريقهم بجنود ثائرين مثلهم قد خرجوا من ثكنة المدفعية وقادهم إلى عملهم الشيطان نفسه الذي أخرج رفاقهم. والتقى بهم في الطريق أيضاً طلاب المعاهد الشرعية الساخطين واتجه ذلك الحشد غير المتجانس وسط طلقات الرصاص من الأبالسة المبثوثين بينهم نحو آيا صوفيا حيث نهاية المطاف، وتسلقت الجماهير الغوغائية أشجار الكستنا العالية كي تستكشف الرؤى وحاصرت مجلس المبعوثان وهي تطالب بتطبيق الشريعة ولا يدري أحد سوى هؤلاء الأعداء المبثوثين وأسيادهم أية شريعة يريدون. ثمَّ بدأ إطلاق النار وسرعان ما سقط القتلى ومن بينهم أحد نواب سوريا ظناً بأنَّه أحد محرري صحيفة الطنين من يهود سلانيك ثمَّ سقط وزير العدل صريعاً واتجه الجمع الغفير الحاشد نحو الباب العالي لإكمال المهمة المرسومة له.

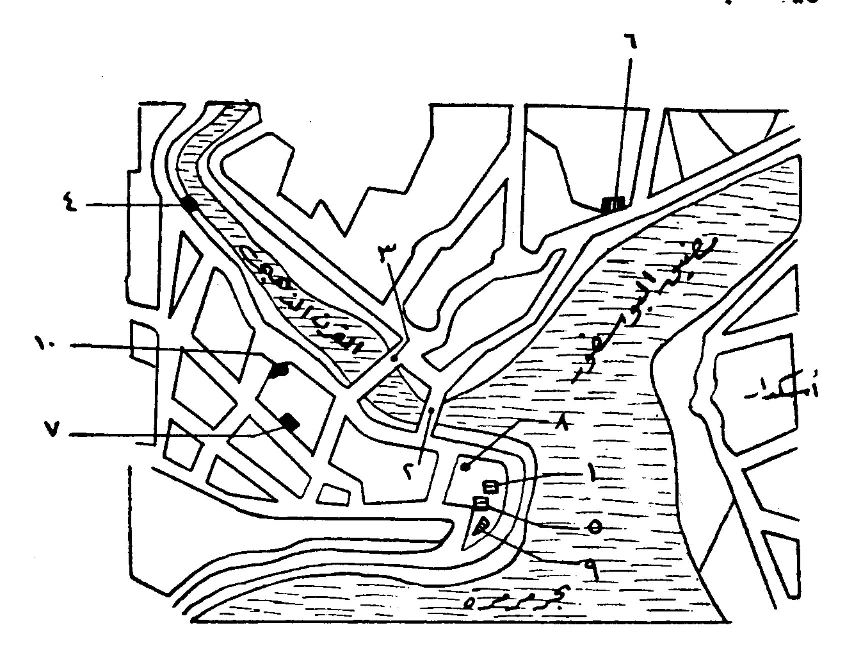
وكانت في الوقت نفسه فتنة أُخرى تمثل أدوارها في سلاح البحرية وبأُسلوب مغاير إذ اعتقلوا قائد البارجة (أعصار التوفيق) المقدم علي قبولي وساقوه نحو قصر يلدز مدَّعين محاولاته ضرب القصر بمدفعيته وهم يصرخون ويهتفون بحياة السلطان حتى ظهر لهم عبد الحميد من نافذة دائرة الارتباط وسألهم عن مطالبهم، فقالوا:

إنَّهم يطالبون بتنفيذ الشريعة وإنَّ ذلك الشخص كان يود قتل السلطان وتدمير القصر ويطالبون بإعدامه. وعندما اقترب ذلك المسكين الخائر القوى من السلطان أمر باستجوابه في سلاح البحرية وأغلقت النافذة. ولكن المخطط لم يبلغ

---

(١) الجدير بالذكر أن تلك الخطة الماكرة كثيراً ما تكررت وغير خاف أن أعداء هذا الدين قاموا بتزييفات في أماكن شتى وفي أوقات عدة وأظهروا أنفسهم بمظهر المدافع عن حياضه وصوروا الدعاة المجاهدين بالعملاء واتهموهم بالخيانة والتآمر والرجعية وغيرها.

خريطة مبسطة لاستانبول:



(١) سراي طوب قبو
(٢) جسر غلطه
(٣) جسر أتاتورك
(٤) جامع أبي أيوب الأنصاري
(٥) جامع آيا صوفيا
(٦) سراي دولما باجه
(٧) جامع الفاتح
(٨) محطة السركجي
(٩) جامع السلطان أحمد
(١٠) جامع السلطان سليم

غايته والذي جرى لم يكن مقصداً ولا غاية لهم فلم ينصاعوا لأمر الخليفة[١] واتجهوا نحو الضابط وأشبعوه ضرباً ولكماً على الرغم من دفاع رجال القصر والذين لم يتمكنوا من حمايته وسرعان ما اندفع نحوه أحدهم وطعنه بحربة بندقية فأرداه قتيلاً وعاد كل شيء إلى مكانه.

إنَّ من وقف على الحقائق وحلّ الأحداث بتعقل وحكمة يعرف أنَّ شياطين

---

(١) طلب منهم عبد الحميد تركه، لكنهم رفضوا ولم يلبثوا أن طعنوه بالحربة فأردوه قتيلاً، ولم يسمحوا بإسعافه عندما هرع إليه شمس الدين آغا يحاول ذلك.

الجن والإنس لا يمكنها الظهور على السطح مباشرة ولكنها تستطيع العمل في اندساسها بين صفوف الناس الغوغائية واستغلال قيمها وعواطفها ومن ثمَّ تسوقها إلى حتفها.

ولم يكن للسلطان دخل في هذه الحادثة. فهو يقول: يجب أن يظهر أولاً أنَّه لا دخل لي في هذا الأمر، وخاصة عندما جاؤوا بعلي قبولي بك، وهتفوا قائلين: نريد السلطان[1].

وبعد ذلك جرى الاستعراض المعتاد حين خروج السلطان لتأدية فريضة الجمعة ومما يلفت النظر عدم حضور الضباط الكبار إذ سرت شائعات في حينها عمّا يسمى (بجيش الحركة) وبأنّه سيقوم بمناورات واسعة النطاق في منطقة استانبول على الرغم من انتهاء المشكلات ظاهرياً.

وفي يوم الجمعة التالية لم يجر العرض المعتاد قبل تأدية الصلاة وقد تكلم السلطان عبد الحميد وبحضور بعض الضباط والذين كان من بينهم قائد القوات الخاصة ووزير الجيش قائلاً: «بلغوا سلامي إلى أبنائي الجنود المتواجدين هنا والباقين في الثكنات وقالوا لهم بأنَّ عساكر من الجيش الثالث التي تسمى الحركة قد وصلت إلى الستيفانوس (ضاحية من ضواحي استانبول فيها حالياً المطار المدني وهي تقع على بحر مرمرة) وأنَّهم مثلكم أتراك مسلمون. إنَّ ما قرىء في ثكنة طاش قشلة لم يصدر عني مطلقاً، لقد دبره بعض الأعداء وتبين من التحقيق أنَّه تدبير سياسي مقصود.

لم أصدر مثل هذا الأمر تجاه أُمَّتي ولن أُصدره أبداً. لقد حرص الأعداء بهذه الأعمال تحقيق أهدافهم الخبيثة فأطلب منهم أن لا يصدقوا مثل هذا وليبقوا في ثكناتهم ولا يلجأوا إلى السلاح كما لجأوا إليه في ٣١ آذار. وقد أمرت القيادة بإجراء ما يلزم»، وأشار برأسه إلى القادة الموجودين بجانبه[2].

وبذلك فإنَّ السلطان عبد الحميد أمر بعدم مقاومة جيش الحركة حقناً للدماء ثمَّ مضى أسبوع في هدوء كامل. وكان المتآمرون قد أبعدوا قادة الكتائب ولم يبق سوى الأميرالاي إسماعيل حقي الذي أمر بتهدئة الجنود والضباط حينما اجتمعوا في الساحة طالباً منهم تنفيذ الأوامر.

---

(١) والدي السلطان عبد الحميد ص ٢٣٠. (٢) يراجع كتاب أسرار الانقلاب العثماني السابق.

وتقدم الجيش العثماني المرابط في سلانيك والذي يضم عدداً من ضباط الاتحاديين إضافة إلى عناصر مشبوهة أخرى ارتدت زي الضباط وسار بإمرة (محمود شوكت) حتى وصل العاصمة ثمَّ لاحت عناصر غريبة تجاه الثكنات ولكن القائد أمر بالتريث للصباح وبعد ساعة سمعت فجأة أصوات المدافع الرشاشة وأغار جيش الحركة على الثكنة وجرت اشتباكات استمرَّت من قبل الفجر حتى الظهر من اليوم نفسه فدمرت قنابل المدفعية الباب الرئيسي وجزءاً من الطابق الثاني. ثمَّ تهدمت المهاجع فوق رؤوس الجند واستمرَّ الاشتباك حتى عصر ذلك اليوم وكان التراشق المدفعي شديداً. ثمَّ أمر إسماعيل حقي جنده برفع الأعلام البيضاء وتوقفت الاشتباكات.

ثمَّ ظهر أنور باشا[1] وبيده مسدس وبرفقته قائد الثورة المكدونية

(١) أنور باشا: ولد عام ١٢٩٩ هـ في استانبول وهو جنرال عثماني وقائد ركن ثورة تركيا الفتاة عام ١٣٢٦ وأحد الرجال الثلاثة الذين حكموا الدولة العثمانية من عام ١٣٣٢ - ١٣٣٧ هـ. لعب دوراً أساسياً في دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب الألمان ثم بعد انهزام الدولة عام ١٣٣٧ هـ حاول تنظيم الشعوب التركية في آسيا الوسطى ضد السوفييت. وهو ابن أحمد بك من حاشية السلطان عبد الحميد وزوج ابنة أخي السلطان. رقي أنور تدريجياً من الأكاديمية العسكرية في استانبول حيث تخرج برتبة رئيس وعين في الجيش الثالث بسلانيك التي كانت مركز النشاط الرئيسي المضاد لحكم عبد الحميد. قاد في عام ١٣٢١ هـ العمليات العسكرية العثمانية ضد العصابات المقدونية. وفي عام ١٣٢٤ هـ عين في أركان الجيش الثالث (بمناستر) إذ انضم هناك إلى جمعية الاتحاد والترقي وجذب إليها لجنرال محمود شوكت الذي تقدم جيش الحركة تحت إمرته إلى العاصمة. عين في عام ١٣٢٧ هـ ملحقاً عسكرياً في برلين فتحققت معرفته باللغة الألمانية العسكرية. ترك برلين أثناء الحرب الإيطالية التركية وانضم إلى المقاومة العثمانية في ليبيا ثم عين حاكماً لبنغازي عام ١٣٣١ هـ. وبعد رجوعه إلى استانبول اشترك في نشاطات الاتحاد والترقي السياسية. ثم قاد انقلاباً في عام ١٣٣٢ هـ وأطاح بالحكومة وأرجع حزبه إلى السلطة. استعاد أدرنة من البلغار في حرب البلقان الثانية وحُكمت الدولة بدءاً من ذلك الحين وحتى عام ١٣٣٧ هـ من قبله إلى جانب طلعت وجمال. احتل باكو إثر الثورة الروسية لعام ١٣٣٦ هـ فر إلى ألمانيا بعد هزيمة الدولة في الحرب العالمية الأولى ثم ذهب إلى موسكو عام ١٣٣٩ هـ حيث شجعه السوفييت على تشكيل اتحاد تركي في روسيا. ثم رجع إلى برلين للتحضير لاستلام زمام القيادة في الأناضول ولكن الروس نقضوا عهودهم فانضم إلى الثورة المضادة للشيوعية في بخارى وطلب إخلاءها من الروس فقتلوه في السنة التالية.

(ساندانيسكي) ذو اللحية الصفراء وبعض زعماء عصابات البلغار وقتلوا من وجدوه على الباب ثمَّ قتلوا القائد إسماعيل حقي وجردوا من بقي من الضباط من سلاحهم وقتلوهم جميعاً ودفنوهم في مقبرة الأرمن ثمَّ بدأت الإغارة على قصر (يلدز) فقبضوا على مرافق السلطان الأوَّل وهددوه ليرشدهم على مكان الخزينة ولكنه رفض فقتلوه وخارت قوى المرافق الثَّاني أمامهم فأرشدهم إليها وقاموا بنهب الأموال على مرأى ومسمع من عصابات الروم والبلغار وأمام عيني عبد الحميد ولكن الأموال لم ترض أطماعهم فقام أنور وهو صهر العائلة المالكة بارتكاب مذبحة داخل القصر وأهان كبار الضباط الأكفاء وقتل الجند وذبحها ذبح الخراف. . .

ثمَّ أعلنت الأحكام العرفية في العاصمة ومنع التجول بدءاً من بعد المغرب.

لقد ضبطت النسخ الأصلية لكافة مخططات الفتنة وتبيَّن أنَّ وكالة الاستخبارات الإنكليزية كانت وراءها.

ثمَّ اجتمع أعضاء مجلس الحركة بأعضاء المجلس الملكي الذي شكَّله مجلس المبعوثان وقرروا خلع السلطان عبد الحميد باستصدار فتوى من شيخ الإسلام واجتمع مجلس المبعوثان في جلسة مشتركة مع مجلس النواب وأعلن القرار بعد الفتوى الشرعية العجيبة التي كانت ذات وجهين وتحت ضغط الاتحاديين. ثمَّ استدعي رئيس الوزارة توفيق باشا إلى المجلس لإبلاغ القرار للخليفة ولكنه اعتذر فانتخب الاتحاديون وفداً عجيباً يندى له الجبين سيظل يذكره التاريخ أبداً وكان مؤلفاً من الفريق البحري عارف حكمت الكرجي وآرام أفندي الأرمني وعمانوئيل قراصو اليهودي السابق الذكر نائب سلانيك وأسعد طوبطاني الأرناؤوطي الخائن ودخل الوفد على السلطان عبد الحميد فوجدوه واقفاً وكأنَّه بانتظارهم هادىء الأعصاب متزناً فقرأ الفتوى الفريق عارف حكمت أمامه فأجابه السلطان الخليفة: «ذلك تقدير العزيز العليم». فتقدم أسعد طوبطاني وقال له: لقد عزلتكم الأمة، ولكن عبد الحميد غضب وقال: تقصد أنَّ الأمة خلعتني لا بأس ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودي (ويقصد قراصو) إلى مقام الخلافة؟ كما قال عندما جاءه سفير روسيا الذي قدم للاستفسار عن صحته وتحقيق رغباته بناءً على أوامر القيصر: إنِّي راض بكل مصيبة تأتيني على رأسي، ولسوف يكون قبري حيثما

وجد قبر أجدادي، إنَّني أُفضل الموت على هذه الإهانة. ثمَّ قال لأحد موظفيه بلغ السفير شكري على تحيات جلالة القيصر وأنَّني لست مريضاً كما سمع هو. . .[1].

وفي عام ١٣٢٨ هـ أرسل إلى سلانيك مع نسائه وأولاده وبعض المرافقين والخدم وبقي هناك تحت حراسة الاتحاديـين وفي مقر[2] يملكه أحد اليهود حتى حرب البلقان إذ جرى نقله إلى قصر (بكلربكي) في استانبول، بعد أن توسط له الامبراطور الألماني (ولهلم الثّاني) إلى أن توفي رحمه الله في ذلك القصر. حكم عبد الحميد الدولة العثمانية بشجاعة وبلا ملل، وتنبأ بحدوث حرب عالمية، ورأى أنَّ الطريقة الوحيدة للمحافظة على حياة الدولة الاشتراك في تحالف مع دولة بحرية قوية عندما تنشب الحرب، لكن الذي جرى بعد عزله كان العكس ودمرت الدولة العثمانية، وشعر كل مناوئيه بالندم[3] تقريباً على أعمالهم الماضية تجاهه. وقال بسمارك يوماً: إنَّه العقل المفكر والمخطط للدولة ولا يحظى سياسيوها بأكثر من ٥٪ فقط.

لقد خدم السلطان عبد الحميد الأُمَّة الإسلامية مدة ثلاثة وثلاثين عاماً وعلى الرغم من ضعف الدولة العثمانية في عهودها الأخيرة وتكالب الأعداء عليها من جميع الجهات استطاع أن يقوم بخدمات جلّى للبلاد فاقت ما قام به أقرانه من السلاطين المتأخرين وقد حفظ الدولة بعد الحرب الروسية التركية من أن تفقد المزيد من أراضيها في أُوروبا طيلة حكمه وأخمد تمرد كريت وهزم اليونان حينما تدخلت لدعمها في عرقلة المساعي الأُوروبية لإعطائها الحكم الذاتي وفي فرض سيطرتها على مكدونيا. وفي مجال التعليم والثقافة قام بإنشاء دار العلوم السياسية والجامعة بكافة فروعها ودور المعلمين والمعلمات ومدارس اللغات ومدرسة الفنون النسوية والمدارس الإعدادية والثانوية في كافة الولايات وفي استانبول فقط افتتح ست مدارس ثانوية وجعل تعليم اللغة الأجنبية إلزامياً في المرحلة الإعدادية وافتتح متحف الآثار الشرقية والمتحف العسكري ومكتبة بايزيد ومكتبة يلدز

(١) والدي السلطان عبد الحميد ص ٢٣٤. (٢) هو قصر علاتيني.

(٣) قال الفيلسوف التركي «رضا توفيق» وهو من كبار الاتحاديين والمعارضين لحكمه في قصيدة له كتبها بعد وفاة عبد الحميد: عندما يذكر التاريخ اسمك، يكون الحق في جانبك ومعك يا أيها السلطان العظيم.

كنا نحن الذين افترينا - دون حياء - على أعظم سياسيي العصر. . . لم نكن مجانين فحسب، بل كنا قد عدمنا الأخلاق.

ومدرسة الطب وثانوية حيدر باشا وافتتح المدارس الملكية والسلطانية في الولايات، فكان عدد الخريجين عام ١٣٠٣ هـ الموافق ١٨٢٥ م ٣٩٥ من بينهم ٢٩٥ خريجاً من سكان الولايات. كما افتتح الرشديات العسكرية في الولايات. وفي مجال الخدمات الصحية أسَّس مستشفى الأطفال ودار العجزة من ماله الخاص وأنشأ مركز البريد ومدَّ أنابيب مياه الشرب للعاصمة وأنشأ دار النفوس العامة والغرف الزراعية والتجارية والصناعية ومعمل الخزف ومدَّ خطوط السكك الحديدية من دمشق للمدينة المنورة بطول ١٣٢٧ كم وقد استغرق إنجازها سبع سنين من ١٣٢٠ ـ ١٣٢٧ هـ وبتكلفة ٣ ملايين جنيه. وفي مجال الزراعة أوجد المزارع الكبيرة وحظائر تربية المواشي ومدارس الطب البيطري والغابات والتعدين.

وفي مجال الإصلاحات العسكرية استقدم الخبراء الألمان لتدريب الجيش وفق الأساليب الحديثة وأرسل البعثات العسكرية للخارج وجهّز الجيش بالأسلحة الحديثة.

وفي مجال الصحافة والنشر، فإنَّه رغم الرقابة، فقد زاد عدد الصحف بشكل ملحوظ ونذكر من الصحف التالية: حقائق، وقت إقدام، ترجمان حقيقة، صباح. وازداد عدد المطابع والكتب.

لقد كان من ميزاته الجرأة وقوة الأعصاب والذكاء وقوة التأثير والعصامية والتدين. وكان ذا حيلة ودهاء واسع استعمل قدراته تلك في تدبير المكائد للقوى الصليبية العالمية بضرب إحداها بالأخرى.

وحمى عبد الحميد المناضلين الذين قارعوا الاحتلال، ومنحهم حق اللجوء أمثال «عبد الله النديم» والشيخ عبد العزيز جاويش. كما حمى الأُمَّة من أفكار أذناب الغرب العلمانية والقومية، لذا فرض الرقابة الصارمة على النشاط الثقافي والفني، حتى أنَّه اضطر لهدم المسرح العثماني ومنع الكتابات والروايات المنافية للدين والأخلاق كما منع كل ما يثير نشره الفتن والخلاف بين المواطنين وأغلق بعض المجلات لنشرها مقالات مترجمة عن الفرنسية تخل بالأدب وتدعو إلى الإلحاد وفساد الأخلاق.

وكانت سياسته مع الرعايا العرب في غاية الود والمحبة وكان يرسل الهدايا كل سنة لشيوخ العشائر كما أنَّه افتتح مدرسة العشائر في استانبول وألَّف كتائب

الزحوف العربية واتخذها حرساً خاصاً له وهي التي حازت إعجاب الأجانب وقد أخلصت له في أشد المحن وكان يدفع الرواتب السنوية للأشراف من آل البيت بانتظام كما أنَّه استقدم الشريف حسين بن علي وقرَّبه منه في استانبول وكان يحتفل بإرسال سترة الكعبة في كل سنة وكان يعامل قادة العرب باحترام عظيم حينما كانوا يزورون العاصمة وكان يعين بعضهم في المراكز العليا مثل عزت باشا العابد الذي كان السكرتير الثَّاني له لمدة ثلاثة عشرة سنة. وقد نظر إلى العرب من خلال عقيدته الدينية القوية.

ولنضرب مثلاً بعض إصلاحاته في ولاية سوريا وبعض البلاد العربية ففي مجال المواصلات أنشأ طريق حمص طرابلس وطريق دمشق حوران عام ١٣٠٦ هـ وطريق حماه اللاذقية عام ١٣٠٩ هـ وبوشر في عهده بمنح امتيازات لخطوط سكك حديدية على النحو التالي:

طريق يافا - القدس عام ١٣٠٦ هـ، الشام - مزيريب عام ١٣٠٨ هـ، بيروت - دمشق عام ١٣٠٩ هـ، إضافة إلى الخط الحديدي الحجازي. كما تمَّ الاتفاق في ١٩ جمادى الآخرة عام ١٣٠٧ هـ بين وزير الأشغال العامة في الدولة العثمانية وبين يوسف مطران على إنشاء خطوط حديدية كهربائية في مدينة دمشق كما نال امتيازاً آخر في عام ١٣١١ هـ لمد خط دمشق حلب. أمَّا خطوط البرق فقد توسعت بشكل كبير في عهده وبلغت مراكز البريد والهاتف في الولاية في عام ١٣١٨ هـ ٢٥ مركزاً للبريد و ١٨ مركزاً للهاتف. وجرى في عهده بناء دار الحكومة في دمشق وجر مياه عين الفيجة إليها وأنشأ الثكنة الحميدية (جامعة دمشق اليوم) وأنشأ حي المهاجرين بسفح جبل قاسيون وأسست الكثير من المدارس مثل مكتب الصنائع والظاهرية والأسواق التجارية ودوائر العدلية والشرطة والدرك وبعض الجمعيات الحرة كجمعية المقاصد في بيروت ونظمت الضرائب الزراعية وحلت مشكلة الدروز... وفي مجال إصلاح الكعبة المشرفة قام بفرش باطنها بالرخام ووجد في تقرير رسمي لإصلاحها يحمل وثائق وخرائط عن ترميم الجدران وتجديد الرخام وتغيير أحجار البازلت المستطيلة السوداء في منطقة ما تحت القباب بأُخرى من أحجار تريستا وضرورة بناء باب السلام العتيق وبناء المقام الحنبلي بعد أن هدم، ويطلب تزيين اللوحات الخطية بالذهب المذاب وإحضار أعمدة رخامية.

وفي مصر، قام عبد الحميد بعزل الخديوي إسماعيل المبذر، وإصدار أمر بإعادة إحدى الجزر المهداة له في البوسفور إلى الدولة، وأيّد حركة عرابي باشا ومنحه رتبة أمير لواء والوسام الحميدي، وأنشأ مدينة «بئر السبع» ليرصد تحركات الإنكليز، واحتلّ قصبة «طابا» لمنع الإنكليز من السيطرة على المدخل الشمالي الشرقي للبحر الأحمر، ورفض ضغط بريطانيا واستقرَّ الأمر على أنَّ طابا مصرية عثمانية.

لقد عامل السلطان عبد الحميد أقليات الدولة العثمانية معاملة لائقة فدرس الأكراد في مدرسة العشائر ورقي بعضهم إلى مناصب عليا. أمَّا الأرمن فقد قام بعضهم بخدمة الأجنبي الروسي. ونشرت عصابات الطاشناق والهشناق الرعب في الأناضول لإفساح المجال للتدخل الأجنبي كما أنَّ بعضهم أصبح مطية لليهود وأداة لتنفيذ اغتياله عند خروجه لتأدية الصلاة. كما حاولوا نهب البنك العثماني وقد عثر لديهم على كميات هائلة من الأسلحة لذلك كان تهجيرهم هو الطريقة المثلى وكانت عصاباتهم هي السبب...

كان عبد الحميد مسلماً متديناً شديد التمسك بالإسلام غيوراً عليه ومن المعروف أنَّه لم يوقع أية إرادة سلطانية أبداً إلَّا وهو متوضىء، وعندما عزلوه لم يقل إلَّا كلمة واحدة: «إنَّها إرادة الله وقدره» وتخلى عن العرش دون أن يبدي مقاومة رغم تملكه القوة. أحاط نفسه بالعلماء وقدم لهم المبالغ السخية كما غذّى الدعوة الإسلامية في آسيا وإفريقيا وفي عهده كانت العربية لا تزال هي لغة الدين والعلم في الدولة العثمانية. وقد قوى الجامعة الإسلامية وبنى الخط الحجازي من أجل خدمة المسلمين.

لقد قرَّب إليه بعضاً من رجالات التصوف أمثال أبو الهدى الصيادي والشيخ محمود أبو الشامات[1]...

---

(١) تقول المتصوفة العارفة «فاطمة اليشرطية الحسنية» في كتابها «مواهب الحق» ما مفاده أن والدها الشيخ العارف علي نور الدين اليشرطي، قطب الطريقة الشاذلية اليشرطية، أمر مريده الشيخ محمود أبا الشامات السفر إلى استانبول لعمل يختص بزاوية الطريقة هناك، فانتسب السيد علي رضا باشا وزير المابين إلى الطريقة آنذاك وجمع غفير من الأتراك، وعلى إثر حادثة معينة فيها نوع من الكرامات قال له السلطان عبد الحميد: أجزني بما أجازك به الشيخ - يقصد الشيخ محمود أبي الشامات- من أوراد الطريقة الشاذلية.

وبعد خلع السلطان عبد الحميد أرسل رسالة إلى الشيخ محمود أبو الشامات ومما جاء فيها:

«ثمَّ أعرض لرشادتكم على سبيل التاريخ وليعلم عند ذوي العقول السليمة أمثال سماحتكم أنني ما تركت الخلافة الإسلامية إلَّا للضغط علي من قبل الجمعية العليا لجماعة الاتحاد (جون تورك) وقد عرضوا عليَّ مبلغاً قيمته مائة وخمسون مليون ليرة إنكليزية ذهبية لأبيعهم أرضاً في فلسطين يسكنها اليهود فلم أقبل وإني خدمت الملة الإسلامية مدة تفوق الثلاثين سنة لم أسود خلالها صحيفة للمسلمين ولا صحيفة آبائي وأجدادي من الخلفاء العثمانيين لذلك لا أقبل مطلقاً فاتفقوا حالاً على خلعي ونفيي إلى سلانيك فقبلت بذلك وحمدت الله على أني ما خططت قلماً ولا حرفاً يسوء الدولة الإسلامية العثمانية وحصل ما حصل والحمد لله على ذلك وفهمكم كفاية».

وقد قال بعد خلعه مباشرة: لقد عملت ثلاثة وثلاثين عاماً من أجل الأُمَّة والدولة، ومن أجل سلامة البلاد، وخدمت قدر طاقتي، إنَّني حاكم يحاكمني الله ورسوله، إنَّني أسلِّمكم البلاد بمثل ما وجدتها عليه، ولم أفرِّط أبداً بشبر من أرضها لأحد...[1].

وبعد فهذا هو السلطان عبد الحميد الذي كان له تلك الميزات الحسنة التي لا يرضى عنها أعداء الإسلام ولذلك فقد افتروا عليه الافتراءات الكثيرة والتي لا تزال تلقن إلى الأطفال ويتعلمها الكبار وإذا كنا نريد أن ننصف الرجل فنقول: إنَّ عبد الحميد كان شخصية فذّة وقعت في بعض الأخطاء جسّمها أعداؤه وأغفلوا حسناته. ومع أنَّ الحقائق التاريخية كشف عنها الغطاء لا يزال بعض المفترين يتطاولون على مقامه.

وبموافقة منه، شكّلت محكمة لتقرير ما إذا كان عمه «عبد العزيز» قد اقترف جريمة الانتحار، لكن تبين بجلاء وبالأدلة الدامغة ولوغ «حسين عوني» و «مدحت باشا» ورفاقهما في دمائه، وتلطخ أيديهم جميعاً في مؤامرة مقتله، وعلى الرغم من إقرار القادة الشرفاء الكبار أمثال الغازي عثمان وأحمد جودت باشا، وموافقتهما على ذلك، إلَّا أنَّه نزّل عقوبة الإعدام الصارمة بحقهم إلى النفي.

---

(١) والدي السلطان عبد الحميد ص ٢٣٤ وما بعدها.

أمَّا فتيل القنبلة التي أُلقيت على عبد الحميد خليفة المسلمين وقت صلاة الجمعة في أحد المساجد. فبعد إخراجها تبين أنَّ من أشعلوها كانوا حفنة من الحاقدين وراءهم جبهة ضخمة من الصليبيين. ومع الأسف كان بعض المثقفين اللاّمبالين أمثال الشاعر (توفيق فكرت) يكتبون القصائد ويكيلون المدائح لهذه الجبهة الصليبية باسم المهاجمين.

ويمكن تلخيص فكر «عبد الحميد» بما يلي:

١ - حشد الأُمَّة العثمانية للوقوف في وجه الغرب الصليبي.

٢ - حشد المسلمين في آسيا وإفريقيا وكل أرجاء العالم والعمل على توحيدهم.

٣ - الدعم القوي لمركز الخلافة الإسلامية.

٤ - التصدي للفكر القومي والعلمانية.

٥ - الأخذ من الغرب ما ينفع الأُمَّة من العلوم المادية وبالتدريج وحسب الحاجة.

٦ - الفهم الحقيقي لنوايا اليهود، وعدم التفريط بشبر واحد من أرض المسلمين.

٧ - التميز الحقيقي بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأُخرى وخاصة حضارة الغرب وعلى ذلك، وبناءً على هذه المبادئ كان تحركه، ومنه كانت نظرته إلى الدول الأوروبية ومحاولته الإيقاع بينها بدهاء بالغ وحنكة سياسية فائقة، وكانت نظرته بالأخص إلى الإنكليز وكيف تمكنوا من إفساد عقول المصريين، إذ اعتقد بعض المصريين أنَّ سلامة مصر ستأتي من الإنكليز[1] فقدموا القومية على الدين وأنَّ بعض المثقفين المصريين أصبحوا من حيث لا يشعرون أُلعوبة بيد الإنكليز وقال: إنَّ إنكلترا تعمل لهدفين: إضعاف تأثير الإسلام، وتقوية نفوذها، لذلك أراد الإنكليز أن يكون خديوي مصر خليفة للمسلمين، ولكن ليس هناك مسلم صادق واحد يقبل أن يكون الخديوي أميراً للمؤمنين، لأنَّه بدأ دراسته في جنيف وأكملها في فيينا وتطبَّع بطابع الكفار. ويقول إنَّ الدول الكبرى كانت ترتعد من سلاح الخلافة، وخوفهم من الخلافة جعلهم يتَّفقون على إنهاء الدولة

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ٥٢.

العثمانية. كما يعبِّر عن ثقته بوحدة العالم الإسلامي بقوله: يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر، فلا أمل في المستقبل إلّا بهذه الوحدة، ووقتها لم يحن بعد، لكنه سيأتي[1]. وأسف عبد الحميد لعدم وجود تفاهم مع إيران، فتقدم إليه جمال الدين الأفغاني وأعطاه الأمل في إيجاد هذا التفاهم المنشود، واقتنع بإمكانية التقارب الحقيقي بين الشيعة والسنّة في مواجهة قوى الغرب غير الإسلامية وروسيا. وصدر وعد من قنصل إيران باستانبول ببذل كل ما في وسعه لإنجاح هذه المحاولة الكبيرة[2].

لقد نفى الاتحاديون السلطان عبد الحميد إلى «سالونيك» وأنزلوه هناك في قصر لأحد اليهود وأجروا عليه التعذيب الوحشي، وعندما اقترب الأعداء من احتلال هذه المدينة أثناء الحرب. نقلوه إلى قصر (بيليربك) في استانبول، ليمضي هناك بقية حياته. وعندما توفي ذلك البادشاه العظيم. في ١٠ شباط من عام ١٩١٨ م، دفن جثمانه الطاهر إلى جانب جثمان عمه عبد العزيز وجدّه محمود الثاني في تربة السلطان محمود في «ديوان يولو» وقد بلغ من العمر أربع وسبعون عاماً وأربعة أشهر، وبكى أثناء تشييع جنازته حتى ألدّ أعدائه كان له تسعة أولاد وسبع بنات. عليه رحمة الله ورضوانه.

وختاماً فهذه بعض الأبيات التي نظمها والمدعوة: قصيدة الهجرة النبوية الشريفة استخرجت من كتاب تركي قديم:

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي ... مالي سواك ولا ألوي على أحد
فأنت نور الهدى في كل كائنة ... وأنت سر الندى يا خير معتمد
يا من تفجرت الأنهار نابعة ... من أصبعيه فروّى الجيش بالمدد
إني إذا سامني ضيم يروعني ... أقول يا سيد السادات يا سندي
كن لي شفيعاً إلى الرحمن من زللي ... وامنن عليّ بما لا كان في خلدي
واعطف عليّ بعفو منك يشملني ... فإنني عنك يا مولاي لم أحد

---

(١) انظر مذكرات السلطان عبد الحميد.

(٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ٥٤.

البَابُ السَّابِعُ

السلطان محمد رشاد[1]

بعد تسلم السلطان محمد رشاد زمام الخلافة الإسلامية إثر انقلاب تركيا الفتاة عام ١٣٢٧ هـ وإقصاء السلطان عبد الحميد[2] عام ١٣٢٨ هـ قام الانقلابيون بتعديل الدستور الذي أصبح ألعوبة بيد الحكام ككل القوانين الوضعية يغيرون فيها حسبما تشاء أهواء السلطة. ومارس المجلس النيابي صلاحياته في ظل الجيش وقادته الذين أصبحوا هم الحكم في كافة سياسات الدولة العثمانية. ثم ظهرت جمعية الاتحاد والترقي على المسرح السياسي وسمح لها

---

(١) ولد السلطان محمد رشاد في عام ١٢٦٠ هـ في استانبول وتولى السلطة العثمانية من عام ١٣٢٨ هـ حتى ١٣٣٧ هـ وامتاز حكمه بسيطرة جماعة الاتحاد والترقي وانهزام تركيا في الحرب العالمية الأولى. بعد أن أمضى حياته في معزل.

أصبح سلطاناً بعد أخيه السلطان عبد الحميد الثاني وكان رجلاً لطيفاً مهذباً تثقف بالثقافة الإسلامية وألمّ بالأدب الفارسي وانصبت اهتماماته على دراسة التاريخ الإسلامي عامة والعثماني خاصة. ومع ذلك فقد كانت تنقصه الإمكانيات للنهوض بأعباء الحكم وفي محاولة لإقامة الحكم الدستوري فإن كافة الصلاحيات سلمت لجماعة الاتحاد والترقي (المنظمة القومية الحركية لحركة تركيا الفتاة ومركز التآمر فيها) ـ قام ببعض الجولات خارج العاصمة نزولاً عند نصيحة الجمعية في نية صادقة وأمل عريض وفي عام ١٣٣٠ هـ عارض دخول الدولة الحرب إلى جانب الألمان في الحرب العالمية الأولى ثم أعلن الجهاد الإسلامي بصفته الخليفة ودعا كافة المسلمين وخاصة من كان تحت حكم الحلفاء منهم لدعم الدولة العثمانية دولة الخلافة وحينما توفي في عام ١٣٣٧ هـ كانت معظم البلاد العثمانية قد سقطت في أيدي الحلفاء وبعد ستة أشهر رزحت عاصمة الخلافة الإسلامية تحت الاحتلال العسكري الأوروبي.

(٢) بعد خلع السلطان عبد الحميد وسيطرة دعاة القومية الطورانية على الحكم يمكن اعتبار اسم الدولة العثمانية التي كانت تحمل فكرة الجامعة الإسلامية ومنذ الآن فقط بالدولة التركية التي حملت فكرة القومية وبعد هذا التاريخ سوف يطلق هذا اللفظ غالباً عليها مع بقاء اسم الخلافة.

بالتحرك والعمل وعلى الرغم من إفساح المجال أمامها بعد إزاحة كافة المناوئين والمعادين فإنها كانت لا تزال ضعيفة، فقد كانت خليطاً غير متجانس من الرجال المصممين وحشد كثير من شخصيات أخفت الأطماع، وعصابات تسترت بقناع من المبادئ الزائفة فكانت تبدو بسهولة ويسر وكأنها أحزاب متنافرة.

وعلى الرغم من فوز الاتحاديين وتفوقهم الساحق في الانتخابات النيابية التي جرت في عام ١٣٣٠ هـ فإن الدعم الذي حظوا به سرعان ما تلاشى إثر الخسائر التي تكبدوها على أيدي الطليان وما لبث التهديد العسكري من داخل الجيش أن أجبرهم على التخلي عن السلطة عام ١٣٣٠ هـ وقاد العداء السياسي الذي انصبَّ فوقهم إلى تشكيل ائتلاف دعي باسم الاتحاد الحر. ثم بعد هزيمة البلقان فقد هذا الاتحاد ما كان قد كسبه قبل قليل من شعبية وتأييد مما أتاح الفرصة لمجموعة صغيرة من الضباط والجنود برزت من بين صفوف الاتحاد والترقي وقامت بانقلاب في عام ١٣٣١ هـ وأجبرت رئيس الوزارة محمد كامل باشا على الاستقالة وتشكل مجلس وزاري جديد برئاسة محمود شوكت[1] غير المنتسب إلى جماعة الاتحاد والترقي رسمياً بطبيعة الحال وإن كان قد استماله إليها أنور باشا فيما قبل، ولم تنجح تلك الفئة في أحكام قبضتها إلا بعد اغتياله. ألقت نتائج السياسة الخارجية لجماعة الاتحاد والترقي بظلالها السوداء على التطورات الداخلية الهامة التي جرت في الدولة بين السنين ١٣٢٧ - ١٣٣٧ م وعلى الرغم من أخذهم بالطراز الأوروبي في إدارة الولايات عام ١٣٣١ هـ وبنظام المركزية الشديدة فإن الدولة العثمانية بقيت في مستوى العاجز عن اللحاق ببلاد الغرب كما أن الحكومة المركزية في العاصمة بقيت ضعيفة نسبياً عن أن تبسط سلطتها على الولايات البعيدة كما أن السياسة الخارجية الهوجاء المتبعة أدت بالبلاد إلى السير نحو الهاوية شيئاً فشيئاً.

النزعة القومية عند الأتراك والعرب:

لقد نمت الفكرة القومية بين أبناء الشعوب الأوروبية طبقاً لأوضاعهم

---

(١) ولد عام ١٨٥٨ م في بغداد بالعراق وهو الذي قاد عناصر حركة آذار عام ١٩٠٩ تولى منصب رئاسة الوزراء في عام ١٩١٣ م. ترقى في المدرسة العسكرية في استانبول وأصبح ضابطاً برتبة نقيب عام ١٨٨٢ م. انضم إلى البعثة المرسلة إلى ألمانيا عام ١٨٨٦ م ثم أصبح بعد رجوعه برتبة جنرال. تولى شوكت قيادة الجيش الثالث في سلانيك بعد ثورة تركيا الفتاة عام ١٨٨١ م ثم أصبح وزيراً للحربية فرئيساً للوزارة بعد انقلاب أنور باشا على حزب الاتحاد الحر عام ١٩١٣ م ولكنه اغتيل بعد ستة أشهر في ١١ حزيران من عام ١٩١٣ م الموافق ١٣٣١ هـ.

الخاصة قبل أن تنتقل عدواها إلى أبناء المسلمين ولقيت الفكرة قبولاً عند أبناء الأمم النصرانية لأنها غير مخالفة لعقيدتهم التي لا تبحث في مثل هذه الموضوعات كما أنها لا تتنافى مع طبيعة مجتمعهم على حين أنه لا يمكن التوفيق بينها وبين مبدأ الأمة الإسلامية وعقيدتها.

لقد كان الإسلام هو تاريخ الأتراك وكان يلذ لهم قراءة الكتب الدينية والسيرة المطهرة أكثر من أخبار انتشار الفتوحات العثمانية في القارات الثلاث وكانت مجرد كلمة ترك لا تدل إلا على مترادفات مثل الفظاظة والشكاسة والهمجية كما أخبر آرمينوس ڤيمباري المجري الذي زار القسطنطينية لأول مرة عام ١٢٧٢ هـ.

قام هذا الصليبي المجري بالنفخ في بوق الطورانية واتفقت دعواته التدميرية، في هذه المجال مع دعوات اليهودي الفرنسي ليون كوهين وانتشرت كتبهما بسرعة فائقة في كل بقعة من بقاع الترك. ثم قام بعض الأوروبيين من شياطين الإنس بالعزف على وتر جديد، وانتخبوا معزوفة جديدة ساقوها إلى أسماع المغرورين من أبناء المسلمين الأتراك، ورصد اليهود كل ما يملكون من إمكانيات لبثّها، في حين لقيت مؤلفات (فون لوفوك) و (لاءون ماهون) أذناً صاغية تلفت الأنظار إلى ادِّعاء مفاده أن تاريخ الترك كان متقدماً قبل الإسلام. وقام بعض الكتاب الترك في إحياء الذكريات القومية القديمة ومحاولة تجديد اللغة حسب تطورات العصر ثم أخرجوا لغة سهلة اتخذها الأدباء والكتاب والشعراء وهيأ التعدي الأوروبي والاقتطاع من أراضي الدولة العثمانية على ترويج عاطفة التشبث بالأرض وحبها. وبعد ثورة تركيا الفتاة في عام ١٣٢٧ هـ اصطدمت تلك الدعوة بالقومية العربية التي انطلقت بعد أن فسح لها الطريق رجال الاتحاديين وكان ذلك من أكبر الأخطاء التي ارتكبوها لتفتح الأنظار بين أبناء الأجناس العثمانية المسلمة للاقتداء بهم، فقد ألمحت الحركة الوهابية إلى شكل خاص من التجمع العربي على الرغم من أنها لم تكن قومية المبدأ، كما أدى الأمر بمحمد علي باشا لفت الأنظار إليها وإن لم يكن حكمه قومياً أيضاً، ولا توجّه ابنه إبراهيم باشا إلى هذا المسلك إلا لغاية سياسية طموحة[1].

---

(١) لم يكن محمد علي يشعر شعوراً قومياً، بل كان طامعاً بالزعامة، فاستخدم العرب لتحقيق طموحاته الخاصة. ولم يكن هدفه الحقيقي تأسيس مملكة عربية تضم جميع البلدان الناطقة باللغة العربية، =

ثم توالت الحركات غير المنظمة وتشكلت الجمعيات على أيدي النصارى وسرعان ما اصطدمت الفكرة القومية بالرابطة الإسلامية. ومنذ عهد السلطان عبد الحميد تركزت جهود بعض العرب في مصر وبعضهم الآخر في غربي أوروبا وشكلوا الجمعيات السرية كما سيأتي تفصيله وقد نشر (نجيب عازوري) وهو نصراني في عام ١٣٢٤ هـ كتابه يقظة الأمة العربية وظهر كتاب الكواكبي (أم القرى) في السنة نفسها ودعا الكواكبي إلى إقامة خلافة عربية مقرها مكة المكرمة وإلى انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية. قال النصارى العرب: إن التاريخ الإسلامي لا يخصهم لا من قريب ولا حتى من بعيد.

مع العلم أن النصارى لا يمكنهم دخول مكة ولعل هذه الكلمة غير محببة إليهم وما قاله هذا كان استغلالاً وتمهيداً لأحداث مقبلة.

وقد قال الشاعر السوري إبراهيم اليازجي:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
أقداركم في عيون الترك نازلة ... وحقكم بين أيدي الترك مغتصب
فشمروا وانهضوا للأمر وابتدروا ... من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

بدأت الفكرة القومية عند العثمانيين حركة لغوية أدبية ومرّ استتراك اللغة بثلاثة أدوار: أولها: من عهد التنظيمات حتى عام ١٣٢٧ هـ والثاني: من عام ١٣٢٨ هـ وحتى ظهور الجمهورية التركية أما الثالث: فبدأ منذ بداية العهد الجمهوري. وكان الدور الأول ضعيفاً وفي الدور الثاني بدأ تشكيل الجمعيات وتأسيس النوادي وإصدار المجلات والمقالات وإلقاء الدروس والخطب والأشعار والأغاني التي تتكلم عن القومية. وقد لقي أصحاب هذا المبدأ في البداية معارضة شديدة لاستمرار الإحساس بقوة الرابطة الإسلامية، ولكن تغلبت القومية شيئاً فشيئاً باستغلال أنصارها للأحداث التي جرت كالحرب الطرابلسية الإيطالية عام ١٣٣٠ هـ التي فصلت عنها ولايات طرابلس وجزر البحر الأبيض المتوسط فقوي التيار المعادي للرابطة الإسلامية، ثم الحرب البلقانية عام ١٣٣١ هـ التي أدت

= بقدر ما كان محاولة إسقاط نظام الحكم العثماني، عندما توجهت جيوشه في طريقها إلى استانبول العاصمة العثمانية.

بأعداء الرابطة العثمانية رفع أصواتهم ضد انهزام الدولة وانفصال الولايات العثمانية الأوروبية عنها. أما الحرب العالمية الأولى. التي قضت معاهدتها بفصل البلاد العربية فقد هيأت لأعداء العرب والإسلام من دعاة الطورانية إشهار سلاح آخر في أيديهم.

لقد ظهر الاعتراض على نسبة الدولة إلى العثمانية ثم ارتفعت الدعوة إلى عدم الاقتباس من العربية والفارسية وكانت أشعار القومي التركي المغالي ضيا باشا تشجعه على اتباع ذلك المنحى. ثم برزت المطالبة بتبسيط اللغة إذ كانت اللغتان العربية والفارسية تدرسان في المدارس الابتدائية والثانوية، وعندما بدأت حركة التبسيط حذفت كلتاهما من المدارس الابتدائية. وكانت بعض الجماعات تود تتريك اللغة تماماً بينما اكتفى بعضهم بالاعتدال، وهم الذين ساد رأيهم حتى بداية حكم (أتاتورك) الذي صفّاها. واستمر ذلك حتى اختراع نظرية شمس اللغات (أي أن اللغة التركية هي كالشمس بالنسبة لمجموع اللغات الأخرى التي شبهت بالكواكب التي تولدت من الشمس) وبذلك توقف تتريكها تماماٍ. أما الشعر فقد تحرر من القوافي التي كانت على الأوزان العروضية العربية بعد عام ١٣٢١ بترويج من بعض الشعراء أمثال محمد أمين الذي يقول «أنا تركي . . . ديني سام جنسي عظيم ـ قلبي مملوء بالنار». ثم عدّ الشعر الموزون بأنه رجعي ويجب التخلص منه لكونه شعر القصور والسلاطين، واتجه التتريك نحو التاريخ فأعيد النظر في التاريخ المدون وعدّ منبوذاً لأنه كتب بوحي من المعتقدات الدينية التي حالت دون تدوين الواقع الصحيح وأنه يجب تمجيد (جنكيز خان) لأنه خدم الأتراك وجمعهم تحت راية واحدة. وعمت الحركة الطورانية التاريخية حتى عدّت الحضارة الحثية والسومرية من مآثر الأتراك القومية وبدأ الدخول في طور الجامعة الطورانية منذ عام ١٣٣١ ـ ١٣٣٢ هـ أي في إبان الحرب البلقانية. وقد أدرك دعاتها أنهم أبناء عرق تفرع وامتد وشمل شرقي أوروبا من البلطيق حتى الباسيفيك ومن المتوسط حتى القطب الشمالي وأن أبناءه هم من الترك العثمانيين والتركمان في آسيا الوسطى وإيران وتتار جنوبي روسيا والقوقاز والمجر وفنلندا ودول البلطيق وقبائل سيبيريا والمغول، وأنهم ذو لغات متشابهة وطباع مشتركة كالصبر والجلد وشدة البأس إلى حد الغلظة، وخوض غمار الحروب والقدرة على السيادة على بقية الشعوب. وقالوا بأن إتلا وإرباد واستبريتش وألب آرسلان والسلاجقة وأرطغرل والعثمانيين وجنكيز

خان وتيمورلنك وجيوش المغول وبابر وقبلاي خان جميعاً على صعيد واحد. وظهرت الدعوة أولاً في بلاد التتار على ضفاف الفولغا وبدأت تباشيرها عام ١٣٠٢ هـ. وبعد الثورة الروسية في عام ١٣١٢ هـ كثر نشر الكتب عنها ثم انتقلت العدوى إلى تركمان أواسط آسيا ووصلت إلى استانبول ولكنها بقيت ضعيفة حتى غذتها حركة تركيا الفتاة وقد تزعم الفكرة الكاتب التتاري (أحمد آغايف) من الفولغا.

كانت جهود الكتاب تنصب في البدء على أساس توثيق العرى بين هذه العناصر وساعد وسهل العمل كون الإسلام دين معظم الدعاة للفكرة ثم بدأ تعظيم صفات هذه الشعوب وتوصل بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن ذلك الجنس سيسود العالم بلا شك. وهبّ أقطاب الفكر والعلماء منهم يفلسفون النظريات متهمين شعوب جنوبي آسيا (العرب والفرس والهنود) بالانحطاط وشعوب أوروبا بالإنهاك بسبب الحضارة الحديثة، وأنهم هم الجديرون بحمل مشعل التقدم والمدنية في المستقبل وظنوا أن انهيار الامبراطورية الروسية سيمكنهم من تحقيق أهدافهم فلجؤوا للتحالف مع أعداء الروس من ألمان ونمساويين ومجر وهم يدركون اقتراب شبح حرب بين الفريقين وذلك من العوامل التي جلبت العثمانيين إلى جانب الطرف الآخر المعادي لروسيا إذ كان للاتحاديين هدفان في آنٍ واحد هما: إقحام الجامعة الإسلامية والجامعة الطورانية في طريق واحد، فاستنفروا لمسلمين للجهاد وضاعفوا الدعوة للطورانية في الوقت نفسه بين الشعوب التركية التتارية.

ثم قويت المطامح الطورانية بعد الثورة البلشفية عام ١٣٣٥ هـ وكشف رجال الحكم الأتراك للألمان عن هدفهم واجتاحت قواتهم القوفاز وشمالي إيران نحو آسيا الوسطى في صيف عام ١٣٣٦ هـ ولكن هزيمة الألمان وانتهاء الحرب حطمت آمالهم.

أما دعوة استتراك السياسة فقد بدأت بعد ظهور قضية المركزية واللامركزية في عام ١٣٢٧ هـ وكان الاتحاديون يلتزمون جانب المركزية أما حزب الحرية والائتلاف المناوئ لهم فقد اتخذ من اللامركزية شعاراً له فانتسب إليه معظم العناصر غير التركية. ثم قام جماعة من المفكرين بطرح الاختيار بين الرابطة العثمانية والرابطة الإسلامية والقومية التركية الطورانية فاختيرت السياسة التركية

التي شاركهم فيها زملاؤهم في الدراسة الذين كانوا يلتقون معهم في باريس ومن أتراك روسيا قبل عام ١٣٢٧ هـ.

لم ير الاتحاديون لزوماً لاتخاذ موقف معين إزاء تلك المسألة وانتهجوا سياسات متباينة فالتزم أنور باشا بالسياسة الإسلامية وتحمس طلعت للرابطة العثمانية وتعاطف جمال فيما بعد مع الطورانيين.

لقد كان ضياء كوك ألب[١]: وهو من قادة الشبيبة العثمانية[٢] والذي يعدونه أبو القومية التركية يقول: «وطن الأتراك ليس تركيا ولا تركستان بل هو قطر كبير لا يموت: «طوران» وكانت آذربيجان أول المحطات الشرقية في سبيل تحقيق الآمال. وقد قيل أن من أهم عوامل تهجير الأرمن هو إزاحتهم من طريق الاتصال مع تلك الشعوب. أما الدعوة القومية التي قامت في بلاد العرب فكانت شبيهة في منشئها بدعوة القومية التركية وحملها النصارى في بلاد الشام بادىء ذي بدء وألفوا الجمعيات بوحي من الدول الأوروبية. وتحت حماية الامتيازات تمكنوا

---

(١) ضياء كوك ألب: وهو من أصل كردي ولد في ديار بكر عام ١٢٩٣ هـ وقد عمل في حقل التعليم في بداية شبابه فتأثر بمدير معهده اليهودي ذو الميول المتطرفة كما تأثر ببعض الأشخاص الملحدين وبأحد الأساتذة اليونان سافر إلى استانبول عام ١٣١٥ هـ ثم انتسب إلى كلية الطب البيطري وكان عمله بالسياسة أكثر من التعلم لذا انتخب عضواً في جمعية الاتحاد والترقي السرية ثم أقصي عن التعليم وفرضت عليه الإقامة الجبرية في ديار بكر بعد إطلاق سراحه من السجن. أصدر جريدتين بعد خلع السلطان عبد الحميد ثم أقام في سلانيك. وفي عام ١٣٣٤ هـ عين أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة استانبول ثم هرب من البلاد إثر هزيمة تركيا وعاد بعد انتصار مصطفى كمال وانتخب نائباً عن ديار بكر عام ١٣٤١ هـ وتوفي عام ١٣٤٣ هـ.

(٢) الشبيبة العثمانية: منظمة سرية قامت على نمط الجمعيات الإيطالية السرية والتي أطلق عليها اسم جمعيات الفحامين. تشكلت في استانبول عام ١٨٦٥ م الموافق ١٢٨٢ هـ وكان من أهدافها السعي للوصول بالبلاد العثمانية إلى نمط من أشكال الحكم الأوروبية والعلمانية. ازداد عدد أفرادها بعد عام ١٨٦٧ م من ستة أعضاء إلى ٢٤٥ عضواً. من بينهم الشاعر الشهير نامق كمال والمفكر التركي ضيا كوك ألب باشا، حازت على الدعم المادي من قبل الأمير المصري مصطفى فاضل واسترعت انتباه بعض الأمراء العثمانيين وبعد فرض الحظر على نشاطاتها التخريبية من قبل الوزير العثماني عالي باشا أرست دعائمها في باريس حيث بدأ الاحتكاك المباشر بين أفرادها والمجتمع الغربي، وفي كثير من الأحيان كانت تهرب جريدتها «الحرية» الداعية إلى حكم دستوري إلى داخل البلاد التركية، وحينما عاد بعض قادتها البارزين أمثال مصطفى فاضل ونامق كمال إلى العاصمة ضعف نشاطها وفقدت حيوتها خاصة بعد إعلان العفو العام إثر وفاة عالي باشا ورجوع المبعدين من أعضائها إلى البلاد العثمانية، ولم يبق إلاّ بعض الأعمال الفردية لبعض الشخصيات أمثال نامق كمال وغيره.

من التحرك وبث الدعوة ونشر الكتب وكان العرب المسلمون ينضوون تحت لواء الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية التي كانوا يعدونها امتداداً طبيعياً للخلافة الإسلامية الراشدة فالأموية فالعباسية. ثم ادعى أناس الشك في خلافة آل عثمان ودعوا إلى إنصاف العرب ومعاملتهم والترك معاملة الند للند، ولم تخرج تلك الدعوات كافة حتى أواخر القرن الثالث عشر عن نطاق الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية مطلقاً ولكن النصارى كانوا يرون التاريخ الإسلامي لا يمت إليهم بأية صلة ولا يهمهم لا من قريب ولا من بعيد، وكانوا في تطلع دائم نحو الغرب. وكما ظهر في بلاد الترك من يقول بعظمتهم وحضارتهم قبل الإسلام كذلك ظهر في بلاد العرب من يكرر القولة نفسها بالنسبة للعرب من النصارى فادّعوا مشاركة اتباع النصرانية من العرب إبان الجاهلية في البناء الحضاري الذي يدّعون وجوده قبل الإسلام.

لقد أثار إطلاق العنان لحرية الرأي والصحافة بعدما سمي دستور ١٣٢٧ هـ كثيراً من المهاترات بين العرب والترك بدافع من وحي التعصب القومي ونتيجة للجور وعدم الإنصاف في ترتيب الأنظمة التي طبقت أثناء الانتخابات النيابية. وجرى تبادل الاتهامات بين الفريقين نظراً للالتفات إلى الدعوة الجديدة.

الحركات العسكرية المسلّحة ما بين ١٣٢٧ - ١٣٣٧ هـ

قامت في هذه المدة عدة حركات عسكرية كان أكثرها من أجل المنافع والأطماع ولكنها تتفق في كل ما من شأنه أن يهدم الكيان الإسلامي ويجزىء دولته ويقضي على الفكر وأهم هذه الحركات في بلاد المسلمين كانت بين الدول النصرانية التي يبدو الخلاف بينها وبين الدولة العثمانية لكنه كان خلافاً ظاهرياً.

١ - الحرب الطرابلسية الإيطالية:

قامت إيطاليا في عام ١٣٠٤ هـ بعقد اتفاقية مع انكلترا والنمسا والمجر بشأن الوضع الراهن في البحر المتوسط، رفض الموقعون بموجبها أطماع الفرنسيين في طرابلس الغرب ومراكش، كما وعدت إيطاليا بمساندة بريطانيا في مصر مقابل دعمها فيما ستتخذه من تدابير إزاء سواحل الشمال الإفريقي وخاصة ليبيا. كما عقدت عدة اتفاقيات أخرى بهذا الصدد مع إسبانيا

وفرنسا حول تحديد طرق الاتفاقيات التي كانت معظمها سرية ضمنت إيطاليا لنفسها بموجبها احتلال طرابلس الغرب وقامت باستعدادت وافية في داخل البلاد الطرابلسية نفسها، إذ زارها وفد برلماني إيطالي في عام ١٣١٨ هـ وقام ضباط الأسطول الإيطالي الذين ارتدوا لباس الصيادين بالتظاهر بصيد الإسفنج ومسحوا سواحلها، وفي الوقت نفسه أخرج إلى الوجود اصطلاح ليبيا من التاريخ القديم. ثم بدأوا بابتياع الأراضي بواسطة أشخاص صوريين وأنشأوا المشروعات الزراعية بينما قامت شركة البواخر الإيطالية باحتكار المواصلات بين طرابلس الغرب وأوروبا وأرسلت البعثات الكاثوليكية إليها، وفتحت المدارس الإيطالية فيها.

وفي عام ١٣٢٨ هـ قررت إيطاليا استغلال الأزمة الدولية وقدمت إنذاراً إلى الدولة العثمانية اتهمتها فيه بعرقلة مساعي التقدم الذي يجري من قبل الطليان لتحضير تلك البلاد كما يزعمون، وأعلمتها أنها لا تريد إضاعة الوقت بالمفاوضات وقررت احتلال طرابلس الغرب وبرقة عسكرياً وأمهلتها مدة ٢٤ ساعة. فقام الباب العالي بإعلام الدول الأوروبية بما جرى وهي التي حصل لديها علم مسبق بذلك. وردّت الدولة العثمانية بالممانعة والرفض القاطع مما أدى بإيطاليا إلى إعلان الحرب في اليوم نفسه وكان ذلك مفاجأة كبيرة إذ كانت ليبيا تخلو من قوة بحرية كبيرة آنذاك لعدم الحاجة إلى ذلك، ومع خطأ هذا العمل إلا أنه يدل ويرد بحق على من يطلقون على هذه الدولة اسم الاستعمار. وسرعان ما عرّض الأسطول الإيطالي البلاد الطرابلسية إلى حصار بحري قامت انكلترا في الوقت نفسه بإحكامه من جهات مصر فانقطع الإمداد. وقد بلغ تعداد فيلق الحملة الإيطالية ٢٤ ألف جندي وارتفع العدد إلى ٥٥ ألفاً بعد أقل من عام واحد وهم مجهزون بالمدافع المختلفة والطيران والأجهزة اللاسلكية.

وقام الأسطول الإيطالي بقصف السواحل وأنزلت القوات، ثم احتلت ولاية طرابلس وبنغازي والخمس. ثم أعلنت حكومة روما ضم ولاية طرابلس الغرب إليها وعرفت البلاد باسم ليبيا منذ ذلك الحين وأخذت القضية بعد عملية الغزو مجرى آخر إذ بدأت المقاومة تأخذ شكلاً عنيفاً ضد الغزاة المحتلين. وقد أباد المقاومون قسماً كبيراً من جنود الإنزال الإيطاليين حتى اضطروهم اللجوء طيلة فصل الشتاء للاحتماء بالمدن الأربع المارة الذكر وبعض المراكز الساحلية الأخرى.

خرجت السلطات الحكومية العثمانية من مدينة طرابلس نحو جهات

(غريان) للاحتماء وانتظار الأوامر من الباب العالي ثم كثر عدد المتطوعين فرجعوا ومعهم القوات العثمانية إلى مدينة طرابلس وقاتلوا الطليان قتالاً شديداً ولحق بهم الأهالي من المناطق المجاورة ودخل السنوسيون الحرب وكأنهم مقبلون على أفراح، وقاومت المدافع العثمانية القليلة العدد جميع مدافع الطليان وأقامت معسكراً آخر في (مصراطة) بقيادة (خليل بك) عم (أنور باشا) وأخيه (نوري) ثم دارت رحى الحرب بين الطرفين وانهزم الطليان في جهات «بنغازي» وأبيد عدد كبير منهم. أما معركة (جوليانة) التي جرت إبان نزولهم فقد قتل منهم فيها ثلاثمائة ومن العثمانيين سبعون. وكان الطليان يضربون بنغازي من البحر ويقتلون الرجال والنساء والأطفال. وعندما احتلوا الثكنة قاتلهم الأهلون والعثمانيون وسقط منهم الجمع الغفير. وحينما حضر الضابط (عزيز المصري) كقائد للقوة العثمانية في بنغازي جرت وقائع كبيرة هامة منها هجوم ٤٠٠ مسلم على تحصينات العدو وذبحهم فيها ومنها دخول ٣٥٠ رجلاً من المسلمين ليلاً في خطوط العدو وقتل أفراده جميعاً واستمرت تلك الهجمات المتتابعة بدون انقطاع حتى الحرب العالمية الأولى حيث جرى اتفاق مع السيد إدريس السنوسي[1] وبدعم من الانكليز، وتمت الخديعة واعترف به أميراً وتوقف القتال لعدة سنوات. ولكن الأعداء عادوا فنقضوا عهودهم واستأنفوا الحرب واضطرت تركيا إلى الانسحاب من ليبيا بعد أن هددت إيطاليا باحتلال استانبول إذ أرسلت بارجتين إلى هناك واحتلت بعض الجزر وضربت ميناء (بيروت) ولم تكن تركيا بالتي تستطيع رد الفعل الأمر الذي أجبرها على قبول ترك مجاهدي ليبيا وحدهم في الميدان.

وبعد توقيع معاهدة الصلح بين تركيا وإيطاليا اضطر (عزيز المصري) - الذي ولي القيادة بعد رجوع (أنور باشا) إلى استانبول مكرهاً من طرابلس أثناء حرب البلقان - إلى سحب الأسلحة وسار قاصداً الحدود المصرية فنقم عليه المجاهدون

---

(١) هو محمد إدريس المهدي السنوسي ولد عام ١٣٠٩ هـ في برقة بليبيا. وقد خلف أباه في رئاسة جماعة السنوسيين ونظراً لصغر سنه تسلم الأمور الفعلية عن عمه الشريف أحمد السنوسي. تولى الحكم بعد عام ١٣٣٥ هـ فجابه مشكلة الاحتلال الإيطالي للبلاد. التجأ إلى مصر حينما اقتنع بعدم جدوى المقاومة واستمر من هناك في توجيه أتباعه حتى عاد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بسنوات قليلة، نصب ملكاً على البلاد الليبية بعد اتحاد طرابلس وبرقة وفزان. إذ مارس صلاحيات دستورية بعد الاستقلال.

السنوسيون واتهموه بتعطيل المدافع التي كانت في حوزتهم. ووقعت بعض الحوادث المؤسفة.

أرسل السنوسي الشهيد عمر المختار لتلافي الشر ومنع الأعراب من الاقتتال مع الإخوة واستطاع تحقيق ذلك وبعث (أنور باشا) أخاه (نوري) إلى الحكومة السنوسية التي أسسها السيد السنوسي في برقة وحذره أن تدور عليه الدائرة ولكنه زحف أخيراً على الرغم من محاولة الانكليز خداعه بتقديم الهدايا وتبجيله بالرسائل المفعمة بالتفخيم ولكنه فشل إذ صدّ الانكليز هجومه، وفي عام ١٣٢٩ هـ عقدت اتفاقية السلم النهائية ولم تعترف تركيا بالاحتلال الإيطالي ولم تتعهد إلا بسحب قواتها واستدعاء موظفيها من ليبيا وتعهدت باستصدار قرار سلطاني يمنح السلطان بموجبه البلاد حكماً ذاتياً، وتعهدت إيطاليا بإعلان العفو العام ومنح الحرية الدينية والاحتفاظ بالأوقاف وقبول الممثل التركي وتعيين لجنة محلية لإعداد جهاز مدني وإداري وتعهد العثمانيون بعدم إرسال قواتهم إلى طرابلس الغرب وبرقة وتقرر أن تقبل إيطاليا ممثلين عن السلطان في البلاد وأن تكون الأمور الدينية خاضعة له. ولكنها أي (إيطاليا) عدّت ليبيا مستعمرة ولم تنفذ بنود الاتفاقية واعترفت الدول الأوروبية بالسيادة الإيطالية عليها بعد انتهاء الحرب الإيطالية التركية.

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى وقفت إيطاليا بجانب الحلفاء وتركيا في جانب الألمان. الأمر الذي جعل إيطاليا وتركيا مرة أخرى في مواجهة مباشرة. ثم قام الأتراك مرة ثانية بإرسال المؤن للمجاهدين حتى انتهاء الحرب العالمية والتي خرجت تركيا منها منهزمة وفي الوقت نفسه انفصلت الولايات العربية عنها فبقي المجاهدون الليبيون يقارعون الاستعمار وحدهم واستطاعوا الوقوف في وجهه مدة خمس عشرة سنة ووقع عمر المختار أسيراً بأيدي الطليان فقتلوه في أثناء ذلك بالإضافة إلى الدمار الذي ألحقوه بالبلاد والتنكيل بالعباد.

إن الأعمال والفظائع الوحشية التي قام بها الطليان في طرابلس الغرب يندى لها الجبين، فقد حاولوا إجلاء سكان الجبل الأخضر وإحلال الأوروبيين مكانهم فجمعوا ثمانين ألفاً من المسلمين من سكانه وساقوهم إلى صحراء (سرت) في الأراضي الواقعة بين برقة وطرابلس على مسافة عشرة أيام وأنزلوهم في أماكن لا ماء فيها ولا مطر ولا طعام ولا زرع فمات القسم الأكبر منهم جوعاً وعطشاً،

وأخذوا الأولاد منهم وساقوهم إلى إيطاليا رغم أنف آبائهم من أجل تربيتهم وتنشئتهم في النصرانية. ومثلت إيطاليا دور ما جرى في الأندلس من انتزاع أراضي المسلمين عنوة وطرد أهلها الأصليين.

لقد تناقص سكان طرابلس الغرب إلى النصف بسبب الغارات الإيطالية الوحشية وما نجم عنها من قتل وتشريد ومن جملة فظائعهم أنهم حين احتلوا واحة (الكفرة) في عام ١٣٥٠ هـ استباحوا قراها ثلاثة أيام فقتلوا من صادفوه من الأهالي على مرأى ومسمع من الأشهاد جميعاً مما أدى إلى اشمئزاز كثير من الأوروبيين أنفسهم من شدة بشاعة الجرائم وهولها وقد قال (فرانز ماكولا) البريطاني: (أبيت البقاء مع جيش لا همّ له إلا ارتكاب جرائم القتل وإن ما رأيته من المذابح وترك النساء المريضات العربيات وأولادهن يعالجون سكرات الموت على قارعة الطريق جعلتني أكتب للجنرال (كانيفا) كتاباً شديد اللهجة قلت له: إني أرفض البقاء مع جيش لا أعده جيشاً بل عصابة من قطاع الطريق والقتلة)[1] ويقول الكاتب الألماني «فون غوتنبرغ»: (إنه لم يفعل جيش بعدوه من أنواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان في طرابلس فقد كان الجنرال (كانيفا) يستهين بكل قانون حربي ويأمر بقتل الأسرى سواء أقبض عليهم في الحرب أم في بيوتهم)، وقال المراسل النمساوي الحربي الذي وجد في الباخرة التي نقلت جانباً من أولئك الأسرى: (في الساعة السادسة من مساء كل يوم يكبل هؤلاء المرضى بالحديد من اليد اليمنى والرجل اليسرى. حقاً إن موسيقى هذه السلاسل تتفق مع المدنية التي نقلتها إيطاليا إلى إفريقيا) ويقول في مكان آخر: (رأيت طائفة من الجنود تطوف الشوارع مفرغة رصاص مسدساتها إلى قلب كل عربي[2] تجده في طريقها. قد نزع أكثرهم معاطفهم ورفعوا أكمام قمصانهم كأنهم جزارون) وقال المسيو (كوسيرا) مراسل جريدة اكسيلور الباريسية: (لا يخطر ببال أحد ما رأيناه بأعيننا من مشاهد القتل العام ومن أكوام جثث الشيوخ والنساء والأطفال يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفية كالبخور يجري أمام مذابح النصر الباهر ومررت بمائة جثة بجانب حائط قضي عليهم بأشكال مختلفة وما فررت من هذا المنظر حتى تمثلت أمام عيني عائلة عربية قتلت عن آخرها وهي تستعد للطعام ورأيت طفلة صغيرة

---

(١) من كتاب حاضر العالم الإسلامي تعليقات شكيب أرسلان.

(٢) المقصود بالعرب المسلمين طبعاً، إذ لا يوجد في ليبيا غير مسلمين. . .

أدخلت رأسها في صندوق حتى لا ترى ما يحل بها وبأهلها. إن الإيطاليين قد فقدوا عقولهم وإنسانيتهم من كل وجه. . .).

هذه هي المبادئ التي أرادت إيطاليا أن تدخلها إلى طرابلس الغرب لتحضيرها فأعلنت الحرب على تركيا لرفضها السماح لها بالقيام بهذا التحضير. إن الأوروبيين لا يقبلون شعارات الحرية والمساواة والعدالة إلا بمقدار ما تخدم مصالحهم، ومع هذا فهي بالفعل حرية وعدالة ومساواة ماسونية يرفعونها حينما تكون بين الأوروبي والمسلم ويرون أن الحقوق التي يدعيها الأوروبي لا يجب أن يدعيها المسلم: لقد ارتكبت جيوشهم ما يندى له الجبين في بلاد المسلمين سواء في طرابلس وفي الجزائر أو في غيرها تحت شعارات يخدعون فيها القطعان البله من البشر رفعوها وثاروا من أجلها في بلادهم. وقد جاء في كتاب فظائع الطليان في طرابلس الغرب الذي طبع باستانبول عام ١٣٣٥ هـ (أصدرت حكومة الفاشست في لواء بنغازي أمراً بإغلاق جميع الكتاتيب التي تعلم الأطفال أمور دينهم وتحفظهم القرآن الكريم. . . فاجأ الفاشست رجلاً يدعى الشيخ يونس بن مصطفى البرعفي وهو معتكف في غار بزاوية في الجبل الأخضر فسدّوه عليه وأحرقوه مع عائلته المؤلفة من تسعة أشخاص. . .) وقد جاء في مكان آخر من الكتاب (في فظائع الإبادة والإفناء التي قام بها الجنرال (غراسياني) أنه حشر كافة سكان الجبل الأخضر في بقعة ضيقة من الأرض على الساحل بين (طلمثية) و (بنينة) وبعد أن زجّ زعماءهم في السجون وألحق بهم من الإهانات ما لا يوصف وقتل من المشاهير رجلاً يدعى الشيخ (سعيد الرفادي) مع خمسة عشر شخصاً شر قتلة بأن أمر بحملهم في الطائرات وإلقائهم من علو ٤٠٠ متر على مشهد من أهلهم وكلما هوى منهم شخص صاح الضابط والجنود ساخرين منادين «فليأت نبيكم محمد البدوي الذي أغراكم بالجهاد وينقذكم من أيدينا» لقد جمع الجنرال (غراسياني) جميع مشايخ السنوسية ومتولي أوقافها وأئمة المساجد والمؤذنين والفقهاء وسجنهم كلهم في مركز (بنينة) وهو بناء قديم لا سقف له ذاقوا فيه مر العذاب جوعاً وعطشاً وعذاباً ثم نقلوا إلى سجون إيطاليا، وبعد أن مكثوا فيها مدة أعيدوا إلى (بنينة) حيث أفنوا بالجوع وغيره. . .).

لقد كان محور سياسة أولئك الأعداء الحاقدين استئصال شأفة الإسلام من تلك البلاد وقتل رجاله ودعاته وتدمير مراكزه.

وهكذا فقد استمرت تلك الحرب بين إيطاليا والمسلمين قرابة العشرين سنة ولم تنقطع إلا بعد أسر الشهيد عمر المختار.

٢ - حروب البلقان:

بعد أن تسلمت تركيا الفتاة السلطة في عام ١٣٢٦ هـ دعت البرلمان لعقد جلسة في استانبول وباعتبار أن سكان البوسنة والهرسك كانوا لا يزالون يعدون رسمياً من الرعايا العثمانيين فقد اقتضى الأمر مثول مندوبيهم إلى العاصمة وحضور جلسات المجلس أو أن يرفضوا الدعوة وينحازوا إلى جانب نظرائهم في بلاد الصرب المعادية للنمسا، الأمر الذي أدى إلى إثارة النمسا والمجر التي رأت ضرورة ضم البوسنة والهرسك فوراً إلى بلادها، وللحصول على موافقة الروس على تلك الخطوة قام وزير خارجيتها بإجراء محادثات مع (إيزافولسكي) وزير الخارجية الروسية في أيلول من عام ١٣٢٧ هـ مسبقاً وقدم للروس دعماً باقتراح فتح المضائق أمامهم لمدة طويلة مقابل تأييد تلك الخطوة، ثم أعلنت النمسا والمجر عام ١٣٢٧ هـ ضمّ البوسنّة والهرسك إليها وقبل أن تتمكن روسيا من كسب موافقة القوى الكبرى الأخرى إلى جانبها في فتح المضائق التي لم تكن في الحقيقة قريبة المنال ومضت أسابيع من التوتر والروس في غم وكدر مما أدى بهم إلى دعم الصرب الناقمين. وفي عام ١٣٢٧ هـ انحنى الروس أمام الإصرار الألماني على مضض واعترفوا بالأمر الواقع أمام ازدياد مشاعر الغضب والعداء الصربي للنمسا والمجر ومن جانب آخر أغاظت مشكلات البوسنة إيطاليا وقادتها نظراً لتوقيع اتفاق سرِّي مع الروس ضد أي تدخل نمساوي أبعد مدى في بلاد البلقان.

وابتدأت حرب البلقان الأولى بعد تصريح الجبل الأسود حول الحرب ضد الأتراك عام ١٣٣٠ هـ ودخل أعضاء التحالف البلقاني وهم صربيا - بلغاريا التي كانت قد أعلنت انفصالها واليونان والجبل الأسود الحرب ضد تركيا بعد عشرة أيام فكان لهم النصر وخاصة بعد استعمالهم الطائرات لأول مرة وقد قصفت أدرنة بالطائرات فعلاً ففقدت الدولة معظم أراضيها الأوروبية وجرت الموافقة على استقلال البانيا من حيث المبدأ وقسمت الأراضي الباقية بين قوى البلقان.

أما حرب البلقان الثانية فابتدأت في عام ١٣٣٢ هـ إذ تنازعت صربيا واليونان ورومانيا مع بلغاريا حول السيادة في مكدونيا واقتسام أراضيها وهذا ما

مكن العثمانيين من التدخل ضد البلغار واستعادوا جزءاً من تراقيا الشرقيـة من ضمنها أدرنة. والجدير بالذكر أن تركيا قد فقدت في حرب البلقان الأولى أراضيها في أوروبا بموجب معاهدة لندن عام ١٣٣٢ هـ ثم عادت فاستعادت جزءاً بسيطاً في الحرب الثانية وبذلك يكون الأتراك قد فقدوا ٨٣٪ من الأراضي و ٦٩٪ من السكان في ولايتهم الأوروبية.

تركيا والحرب العالمية الأولى:

لقد جرَّ أنصار الحرب من رجال الاتحاد والترقي الدولة العثمانية إلى الهاوية على الرغم من وجود معارضة كبيرة داخل مجلس الوزارة واستمر الأمر بين الأخذ والرد حتى استطاع أنور باشـا أكبر منـاصري الحرب إقحـامها فـانهزمت ألمانيـا وحليفاتها وبالتالي كانت نهاية الخلافة واقتطاع بلاد العـرب عنها وتقسيمهـا إلى دويلات وإلغاء السلطنة العثمانية في نهاية المطاف. ولنقم بشرح بعض الأدوار التي مرت والملابسات والأسرار التي أدت إلى إلقاء السفينة التركية في ذلك الخضم. كان الاتحاديون في غفلة عن اهتمامات الدول الكبرى حينما تسلموا زمام الحكم في عام ١٣٣٧ هـ إذ بلغت السذاجة السياسية عند بعضهم حداً جعلهم عاجزين عن الوقوف على النوايا الخبيثة لأعداء الدولة فنجد مثلاً أن طلعت يقول في إحدى المرات: «لماذا كانت تتدخـل الدول في شؤون تـركيا إذ حكمت بـالعدل عـلى مسيحيـي بلادها ثم نراها في الوقت نفسه تسكت عن الفظائع التي كان يرتكبها الروس بالمسلمين والروس من رعاياهم على السواء» وهـو يرى أن السبب هـو ضعف الدولة العثمانية ويغيب عن خاطره قـوة أعداء الإسـلام والكيد لـه وأن ضعف الدولة التي كانت قوية بالإسلام يرجع إلى تسلط الأعداء وبذرهم بذور الشقاق بين أبناء العقيدة الواحدة. وقد تبدو أحيـاناً تلك الحقيقـة أمام أذهـان الاتحاديين أنفسهم. فهو ـ أي طلعت ـ يعترف في مجال آخر ويقول: «.... وإذا دافعت دولة من الدول الأوروبية عن تركيا في زمن من الأزمنة فليس ذلك حباً في تركيا».

لقد اختلفت الدول الأوروبية فيما بينها طبقاً لتضارب المصالح والأهداف وكثيراً ما يصل العداء بينها إلى درجة الحروب والاشتباكـات المسلحة. ولكنهـا وقفت دائماً ضد الدولة العثمانية وتوحدت آراء الفرقاء المختلفين إذا ما تعرضت

مصالحهم في بلاد المسلمين للخطر. وإن تظاهروا بالاختلاف كما مر معنا في سرد وقائع المؤتمرات والمعاهدات. فقد كان هناك صراع بين انكلترا وإيطاليا ولكن كلتا الدولتين كانتا لا تؤيدان الدولة العثمانية. ويقول «ونستون تشرشل» وزير الحربية البريطانيا في الحرب العالمية الأولى وهو يؤرخ: «إن قادة الاتحاديين طلبوا مساعدة انكلترا في حرب طرابلس الغرب ضد إيطاليا ولكن انكلترا اعتذرت عن ذلك وهي التي كانت تراوغ بالتظاهر بإعلان حيادها في هذه الحرب وأنها لا مطامع استعمارية لها في الدولة العثمانية».

لقد اختلف قادة الاتحاد والترقي حول موقف الدولة في الحرب العالمية فلم يؤيد طلعت فكرة الحرب في البداية ولكنه تراجع بعد مدة عن رأيه. أما (جاويد) فعارض الحرب منذ أول وهلة واستمر متمسكاً برأيه فأجبر على الاستقالة ونادى جمال[1] باشا في البداية بحياد الدولة ولكنه سرعان ما انضم إلى جانب أنصار الحرب بقيادة أنور باشا أما المعارضة فكانت بقيادة السلطان محمد رشاد وولي العهد والصدر الأعظم وجاويد وبقية الوزراء وزاد من تعقيد الأمور استيلاء الانكليز في بداية الحرب على دارعتين تركيتين وضمهما إلى أسطولهم ثم التجأ الطرادان (غوبن) و (برسلو) الألمانيان إلى مياه الدردنيل بعد سماح الحكومة التركية لهما بدخوله وبقاء بحارتهما فيهما على الرغم من احتجاج الحلفاء. فقررت الحكومة البريطانية سحب بعثتها البحرية من استانبول بسبب رفض الحكومة التركية إرسال بحارتها إلى بلادهم. وقد تبين أن دخول هذين الطرادين إلى الدردنيل كان قد جرى باتفاق مسبق مع (أنور وطلعت) بهدف تقوية الأسطول العثماني وتعزيزه وعرضت الدولة شراءهما تفاديا للمشكلة الناجمة. وبالإضافة إلى ما ذكر فقد تكشف للاتحاديين جانب من النوايا الفرنسية التي كانت مكشوفة، فحينما زار

---

(١) جمال باشا: هو أحمد جمال باشا ولد عام ١٢٩٠ هـ في استانبول وهو ضابط في الجيش العثماني وواحد من الثالوث الذي حكم الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى. انضم إلى اللجنة السرية للاتحاد والترقي وهو ضابط ركن أصبح عضواً في الإدارة العسكرية بعد حركة ١٣٢٧ هـ ثم حاكماً إدارياً قوياً لإحدى الولايات ثم تقلد منصب قائد قوى الأمن في استانبول ثم وزارة الأشغال العامة. وحينما نشبت الحرب العالمية كان جمال أحد المشاهير من الرجال ذوي النفوذ إضافة إلى طلعت وأنور وبعد المحاولة الفاشلة لمهاجمة مصر خلال الحرب عين حاكماً لسورية فسحق الأقلية الأرمنية. ثم خدم الدولة بعد الحرب حتى اغتيل من قبل المتعصبين الأرمن، وهو راجع من باريس ممثلاً للأفغان وقد اغتاله الأرمن أثناء مروره بمدينة تفليس بجمهورية (جورجيا).

(جمال باشا) فرنسا مندوباً عن الباب العالي لحضور المناورات الفرنسية وللتباحث بشأن عقد معاهدة لتقوية العلاقات بين البلدين اقترحت فرنسا شروطاً لإعطاء استقلال داخلي لسورية وإطلاق يدها فيها مما أدى إلى تقوية جانب (أنور باشا) وأنصاره كما أن عوامل أخرى كان لها دور تمهيدي في ترجيح كفة الانحياز إلى جانب الألمان منها الإحساس التركي بالخطر الروسي المحدق، ومحاولة رد الجميل للألمان الذين ساعدوا الدولة في حروب البلقان على الرغم من الهزيمة المنكرة. كما أن الصلات الوثيقة مع الألمان ومع الامبراطور الألماني تمتد جذورها إلى أيام السلطان عبد الحميد الثاني وكانت الأطماع الألمانية في بلاد الشرق معروفة وإن كانت غير ظاهرة أو مكشوفة على العكس من أطماع الحلفاء التي كانت واضحة إذ أخذت طابعاً عملياً باحتلال فرنسا لبلاد المغرب وأكثر إفريقيا الوسطى والقرن الإفريقي وباحتلال انكلترا لمصر وإيطاليا لطرابلس الغرب وأرتيريا وجزء من الصومال بالإضافة إلى جنوبي الجزيرة العربية وشرقها وبلاد الهند.

وحاول الحلفاء استبقاء تركيا على الحياد بإغرائها ببعض العروض مثل إلغاء الامتيازات الأجنبية وتقديم القروض لها وهي في أمس الحاجة للمال وطلبوا منها تسريح البعثة الألمانية وإعادة بحارتها إلى بلادهم بالمقابل ولكن الاتحاديين رفضوا العروض وألغوا الامتيازات الأجنبية من تلقاء أنفسهم وقدموا مذكرة إلى الدول الحليفة طلبوا فيها:

١ ـ إلغاء الامتيازات الأجنبية جميعاً.
٢ ـ إعادة جزر الأرخبيل.
٣ ـ حل القضية المصرية.
٤ ـ منع روسيا من التدخل في شؤون السلطنة.

وردّ الحلفاء بالتسويف والمماطلة فانقطعت الاتصالات معهم.

بعد فشل الألمان في معركة المارن[1] التي جرت منذ بداية الحرب رأى قادتهم استخدام نفوذهم لدى أنصارهم في تركيا كي يضغطوا للدخول في الحرب وفتح جبهة روسية جديدة في البحر الأسود ولما كانت الأمور لا تزال بين أخذ ورد

---

(١) نهر من روافد السين المار في باريس ويقع إلى الشمال الشرقي منها وقد دخلت ألمانيا الأراضي الفرنسية حتى ذلك النهر وجرت على ضفافه أكبر المعارك وأعنفها.

عند رجال الحكم الأتراك لذلك ومن أجل كسر الجمود الوزاري والتغلب على معارضة السلطان والصدر الأعظم جرى اتفاق على خروج الأسطول العثماني إلى البحر الأسود وضرب المرافىء الروسية وتحريك البدو في جهات سيناء للاستيلاء على آبار المياه. وقام (أنور باشا) وزير الحربية بإصدار أوامر التحرك للأسطول نحو الشواطىء الروسية على البحر الأسود ولكن (جمال باشا) وزير البحرية آنذاك مانع بشدة وثارت عاصفة بينهما سرعان ما تبددت وقبل جمال باشا أمام إلحاح الضائقة المالية التركية وأمام عروض القرض الألماني والبالغ خمسة ملايين ليرة والمشروط بالتعهد في دخول الحرب. ثم وقعت المعركة البحرية إذ دخلت قطعتان بحريتان تركيتان مرفأ (أوديسا) الروسي وأغرقتا الطراد الروسي (دوبتر) ثم انسحبتا وقدمت الدارعة (غوبن) - المارة الذكر - نحو سباستبول وأطلقت قنابلها على المدينة وانسحبت وقامت وهي منسحبة بإغراق باخرة النقليات «باروت» وفي الوقت نفسه كانت تجري معارك بحرية بين القطعة البحرية (برسلو) الألمانية وكيفا تودوسيا الروسية وبين (حميدية) العثمانية و (توفوروسله) الروسية.

إثر هذه المعارك التي لم يكن الصدر الأعظم حتى ولا السلطان على علم بها دخلت الدولة الحرب إلى جانب الألمان.

أما آراء الحلفاء فكانت متباينة بشأن دخول الأتراك الحرب ففرنسا رغبت في عدم دخولهم إلى جانب الحلفاء حتى تحصل على أطماعها في البلاد العثمانية وأما روسيا فكانت تخشى انضمامهم إلى صفوف الحلفاء لأن انكلترا وفرنسا ستمنعانها من التدخل في شؤون السلطنة وبالتالي ستفقد الأمل بالاستيلاء على استانبول ورغبت انكلترا في دخول الأتراك الحرب إلى جانبهم وهذا ما اقتضته مصلحتها أيضاً أما العالم الإسلامي فإنه لم يقم بمناصرة تركيا في بداية الحرب وأثناءها رسمياً ولم يجب دعوة الخليفة لإعلان الجهاد إلا على المستوى الشعبي ولعل من أسباب الإحجام الإسلامي عن التأييد ما يلي:

١ - عدم موافقة قسم كبير من قادة المسلمين على دخول الأتراك الحرب التي لا ناقة لهم فيها ولا جمل وخاصة أن الأمة الإسلامية لم تكن مستعدة لخوض غمارها.

٢ - إدراك قادة المسلمين مدى سيطرة ألمانيا النصرانية على مقدرات الأمور في جهاز الحكم الاتحادي.

٣ ـ إدراك قادة المسلمين أيضاً مدى الجحود والتنكر للإسلام الذي كان سائداً في أدمغة بعض رجال الاتحاد والترقي وعدم الاكتراث عند بعضهم الآخر.

٤ ـ عدم الوعي حيث كان المسلمون يعيشون في معزل عن الحياة السياسية العالمية.

٥ ـ خضوع القسم الكبير من العالم الإسلامي لدول أوروبا النصرانية سياسياً وفكرياً.

١ - الحرب في القوقاز:

كان عدد القوات التركية[١] بعد البدء في التعبئة العامة في الصيف من عام ١٣٣٢ هـ قرابة النصف مليون جندي يحملون السلاح بالإضافة إلى ربع مليون آخرين تحت التدريب العسكري وقد بلغ تعداد القوة العسكرية حول الدردنيل والآستانة حوالي ٢٠٠ ألف وتمركز في تراقيا ٥٠ ألف جندي و ٤٠ ألف في فلسطين وقوات أخرى من العشائر وقطعات متناثرة في القوقاز وسوريا وغيرها وكان الرأي السائد لدى الحلفاء أن تلك الجبهة لن تحرك ساكناً ضد روسيا طيلة فصل الشتاء المعروف بقساوته وشدته هناك بالإضافة إلى غموض موقف اليونان والبلغار. ولكن الأتراك وبقصد مناصرة حليفتهم ألمانيا وتخفيف الضغط عنها استجابوا لمناشدتها وفتحوا الجبهة بتضيحات جبارة على الرغم من وعورة المسالك الجبلية ورداءة الأحوال الجوية وأصدروا أوامرهم بالهجوم وقد اتخذوا مدينة أرضروم قاعدة لهم وتقدموا نحو الشمال وتولى (أنور باشا) بنفسه قيادة الجيش الذي بلغ تعداده حوالي المائة ألف جندي وحاول أنور تطبيق الأساليب الحربية الألمانية ولكنها فشلت لاختلاف طبيعة الأرض وحلول فصل الشتاء فقضي على بعض الفرق التركية قضاءً تاماً وكان لا بدّ من التراجع إلى (أرضروم) في فصل الشتاء.

٢ - معارك قناة السويس:

إن اختراق صحراء سيناء لم يكن بالأمر الهين في ذلك الزمن وقد درس

---

(١) بعد سيطرة جمعية تركيا الفتاة غدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها قومية في عصبيتها بينما كانت من قبل عثمانية في مضمونها إسلامية في رابطتها.

موضوع القتال هناك عقب إعلان الحرب مباشرة وجرى بحث كيفية نقل المدافع الثقيلة حتى ضفاف القناة كي تتمكن من إغراق سفن الحلفاء فاستلزم الأمر وجود خطوط حديدية ليمكن بواسطتها إنجاز التحرك ولكن ذلك كان من المستحيل إقامته في وقت قصير كهذا. ثم إن ندرة الحياة في شبه جزيرة سيناء شيء هام جداً بالنسبة للإنسان وكان نجاح الحملات العسكرية التي اخترقت الصحراء في الماضي تدخل في حسابها تعادل القوة عند الطرفين على أقل تقدير أما الآن فالتفاوت واضح بين القوتين الانكليزية والتركية، كما أن عاملا آخر توقع الأتراك أن يكون لصالحهم وهو احتمال ثورة الشعب المصري ملبياً دعوة الجهاد ضد الكفرة المحتلين ولذلك فلم يعززوا حملتهم كما يجب وفي بداية الحرب سقطت أمطار غزيرة في المنطقة جعلت الأرض بعد جفافها صلبة مما مكن الجيش التركي من التقدم فوقها من جهة والاطمئنان على توفر المياه بغزارة من جهة أخرى وسلكت الحملة العسكرية طريقين:

١ ـ طريق رفح ـ القنطرة البالغ طوله ١٢٥ كم وفيه عدد من الآبار وغير خطر نظراً لوجود أسلاك الهاتف ممتدة على الأعمدة بجانبه وبسبب وجود التلال الرملية حتى منطقة العريش وبالتالي فإن العدو لا يتمكن من ضربهم بمدفعيته البعيدة المدى.

٢ ـ محور معان ـ السويس: وهو طريق قوافل البدو.

إن فساد النظام العسكري وقلة الذخائر والمدافع لم يمكن الأتراك من الزحف على مصر حالاً بعد بدء الحرب ولكنهم تمكنوا من تجهيز قوة لا بأس بها في دمشق ومؤلفة من الجيش الثامن الذي كان أكثر جنوده من العرب (سكان سوريا) ولكنه نقل إلى الأناضول بعد أن هرب الكثير من جنوده واستبدل به جنود من الأتراك والكرد. ثم بدأ إرسال الفرق من الأناضول لسوريا في خريف عام ١٣٣٥ هـ لتشكيل نواة الجيش الرابع حيث وصل أحمد جمال باشا المعين قائداً لذلك الجيش وألحق به (فون ترومر) الألماني كقائد للفيلق العاشر.

لقد كان جمال باشا برفقة أنور أيام اقتحامهما الباب العالي العثماني مع العديد من أنصارهما يوم أن قتل وزير الحربية ناظم باشا فعين بعده أنور وزيراً للحربية وجمال قائداً عاماً للجيش في استانبول وقام حينها بخدمات جليلة للدولة

في أيامها العصبية ثم عين وزيراً للبحرية وقد آمن جمال باشا بأمجاد تركيا السابقة وكان في الوقت نفسه يحلم بعودة السلطنة العثمانية إلى سالف مجدها ومركزها السياسي المنيع، وقد نقل المحرر السياسي الحربي لمجموعة التايمس البريطانية عن الحرب العظمى قوله وهو ينقل عن لسانه: «.... أنتم الأوروبيون تظنون أن قضايا تونس وطرابلس الغرب ومصر قد انتهت ولكننا نحن الترك لا نرى رأيكم وحين يأتي وقت نطرح فيه كل هذه القضايا على بساط البحث مرة ثانية، سنعمل ذلك ووراءنا ثلاثمائة مليون مسلم[1]....» فهكذا يتبين ثقته المطلقة في إمكانية الانتصار في الحرب ومدى إيمانه بوحدة الدولة العثمانية وإصراره على الالتزام بالجامعة الإسلامية ودور المسلمين. لقد سيطرت على أفكاره الروح العسكرية التي نشأ عليها على الرغم من أنه كان غير سياسي وكان لا يتفق مع أنور وينازعه في كثير من الآراء ويحتمل أن يكون إبعاده إلى سوريا وتكليفه قيادة الهجوم على مصر للتخفيف من خطره وقد رضي هو بذلك وعنده آمال كبيرة[2] أما الدور الأكبر في قيادة العمليات الحربية فقد لعبه الكولونيل البافاري (كرسي فون كرستين) وقام الضابط الألماني (روش) باتخاذ إجراءات قطع الصحراء.

ويمكن أن يعزى عدم إرسال كافة القوات اللازمة إلى مصر لسببين:

١ ـ الخوف من إنزال الحلفاء لقواتهم على شواطىء بلاد الشام.

٢ ـ عدم الاطمئنان إلى الأهالي في بلاد الشام وخاصة الدروز والبدو المتعاطفين مع الانكليز والنصارى الذين يعدون رعايا لفرنسا.

أما المسلمون العرب فقد تعاطفوا مع الترك تماماً ولكن دعوة الجهاد لم تلق أذناً صاغية في أوساط مثقفي سوريا الذين تشبعوا بالروح الغربية القومية فوقفوا موقف المتفرج وقد قال جمال باشا في أثناء الاعتقالات والنفي في فلسطين: «... إن أحداً من أفراد المؤسسات الدينية لن يعود إلى الأراضي المقدسة بعد

---

(١) كان يقدر عدد المسلمين بهذا الرقم آنذاك.

(٢) يبدو أن رجالات ذلك العهد من الاتحاديين وغيرهم كانت تتضارب عندهم الأفكار فجمال باشا مثلاً مع اعتقاده بالجامعة الإسلامية ويبدو من خلال حديثه هذا إنه كان أميل إلى الفكرة الطورانية. وأنور باشا مع أنه صاحب سياسة إسلامية إلا أنه كان يتأثر بالأفكار المطروحة في عصره أما من جانب العرب فيبدو هذا واضحاً أيضاً عند الكواكبي إذ كان صاحب فكرة قومية إسلامية وكذلك شكيب أرسلان وغيرهما ويكفي هذا تضارباً.

الحرب. . .» وقد خير يهود روسيا من الصهاينة الذين قدموا إلى فلسطين بين أحد أمرين أما مغادرة البلاد أو التجنس بالجنسية العثمانية ففضل أكثرهم مغادرة فلسطين وذهبوا إلى مصر حيث الحماية البريطانية.

وفي مطلع شتاء ١٣٣٣ هـ زحفت ثماني فرق عثمانية عبر شبه جزيرة سيناء باتجاه قناة السويس سالكة المحورين الرئيسيين اللذين ذكرناهما وتمكنت بعد ستة عشر يوماً من احتلال موقع على الساحل الشرقي للقناة. أما جيش الانكليز فقد بلغ تعداده خمسين ألفاً من رجال الأسطول الانكليزي والفرنسي وعهد الانكليز إلى الجيش الهندي حراسة القناة وحصنوها بقوة وجرت مراقبة سواحل صحراء سيناء لمنع الأتراك من الاستيلاء على سفن الإمداد والتموين ولعدم تمكينهم من وضع الألغام في البحر ولكنهم أهملوا طريق اسكندرونة ولم ينتبهوا إليه إلا بعد فوات الفرصة. وفي ليلة من ليالي الشتاء في شباط بدأ الأتراك الهجوم على القناة قبل الموعد المضروب بينهم وبين زعماء المسلمين في مصر للانقضاض على الانكليز الأمر الذي جعل الهجوم مصيره الفشل، ونضبت الذخيرة فعاودوا الرجوع بعد أسبوعين إلى غزة ومعان. ثم نظمت غزوات بدوية من الجبهتين الشرقية والغربية في طرابلس الغرب وجرت محاولتان أخريتان للهجوم في شهري نيسان وآب وقاد الضباط الألمان العمليات ففشلت وفشل الهجوم البحري وصدت القوات التركية اليمنية التي حاولت الاستيلاء على عدن وساعد الأدريسي الإنكليز الذين استطاعوا أيضاً إبقاء آل رشيد في حائل على الحياد. ثم هجم الانكليز على شبه جزيرة سيناء وجرت اتصالات بينهم وبين الهاشميين وبعدها انهارت مؤخرة الجيوش التركية التي أصبح وضعها حرجاً قبل حلول عام ١٣٣٦ هـ إذ عزل جمال باشا ونقلت جميع السلطات العسكرية والسياسية إلى أيدي الألمان.

ثم هوجمت القوات التركية في جبل الدروز وفي بعلبك وهرب الجنود العرب من الجيش وحصلت المجاعات ثم احتل جيش فيصل ـ لورانس معان.

كان لدى الأتراك في فلسطين ثلاثة جيوش بالإضافة إلى وحدات الفيلق الألماني الآسيوي وهي:

١ ـ الجيش الثامن لحماية القطاع الغربي من الجبهة.

٢ ـ الجيش السابع (وكان قائده مصطفى كمال) في الوسط.

٣ ـ الجيش الرابع في شرقي الأردن.

وكان الجنرال (ساندرس) هو القائد العام.

وهجم الانكليز في عام ١٣٣٦ هـ في منطقة جنوبي نابلس ثم تقدمت قواتهم نحو مقر القيادة في الناصرة وكاد يأسر (ساندرس) وتراجع الأتراك شمالاً بقيادة مصطفى كمال وقامت قوات فيصل بقطع الطريق على الجيش الرابع ودخلت دمشق واحتل الانكليز بيروت ثم جرى أخيراً توقيع عقد شروط الهدنة على ظهر الدارعة البريطانية (أغاممنون) واستسلمت الدولة التركية وصفيت الإدارة في البلاد العربية.

٣ - الهجوم على الدردنيل:

كان (ونستون تشرشل) أول من فكر بالهجوم على مضيق (الدردنيل) لحفظ مواصلات بريطانيا والاطمئنان على طريق الهند وكان (كتشنر) وزير الحربية آنذاك من المعارضين لهذا الرأي. كما لا يخفي وجود أسباب أخرى منها قطع السلطنة العثمانية واحتلال عاصمتها وإمداد روسيا عن ذلك الطريق إذا تعرضت لحالة انهيار وتلخصت الخطة في:

١ ـ إسكات حصون الدردنيل الخارجية ثم الداخلية.

٢ ـ تنظيف المدخل من الألغام.

٣ ـ إسكات حصون (چناق قلعة).

٤ ـ الوصول إلى بحر مرمرة بعد إتمام عمليات التنظيف..

وكان قد استقر الرأي على هذه الخطة عام ١٣٣٤ هـ.

وحصل هجوم فاشل من قبل الأتراك بعد أن دعموا حصونهم وعززوها وجلبوا إليها المدافع الضخمة ثم أصدر الجنرال الانكليزي (هاملتون) الأوامر بالنزول إلى البر في الجهة الغربية من (غاليبولي) وإلى القوة الإفرنسية بالنزول في الضفة الآسيوية وتمكن الحلفاء حتى صباح اليوم التالي من إنزال ٨٠٠٠ جندي وبلغ العدد (٢٠٠٠٠) جندي بعد ساعات قليلة. وفي هذه الأثناء صدرت الأوامر لمصطفى كمال الذي كان يقود إحدى الفرق في مكان آخر من قبل (ساندرس) الألماني و (سامي باشا) قائد القوة التركية بإرسال قوة صغيرة إلى ساحة المعركة

ولكنه ذهب بكامل فرقته واستمر القتال مع الاستراليين ليلة كاملة ولكنهم لم يستطيعوا أن يربحوا إلا أشباراً قليلة من الأرض في مدة ثلاثة أيام متوالية إذ أن البسالة التركية كانت منقطعة النظير. ولكن الهجوم التركي الذي جرى فيما بعد فشل في صد الحلفاء فتبعه هجوم انكليزي كان نصيبه الفشل أيضاً ثم جرى أمر غريب غاية الغرابة إذ تراجعت فجأة قوات الحلفاء التي كانت متفوقة على القوة التي يقودها مصطفى كمال بدون أن يستعمل أسلحته وأخلت له المواقع ولعلها كانت بداية الطعم في إلغاء السلطنة العثمانية وهدم الخلافة الإسلامية بإظهار شخصية مصطفى كمال وبجعلها تطفو تدريجياً.

العَرَبُ وَالتّركُ وَالعَصَبيَّةُ القَوميَّة

لم تدخل فكرة المساواة[1] التي نادى بها الاتحاديون حيز التنفيذ بين الرعايا العثمانيين وبقيت نظرية على الرغم من إبداء بعض النوايا المخلصة، إذ قال طلعت أحد قادتهم البارزين في خطاب له في سلانيك عام ١٣٢٨ هـ: «... لقد رفضت غالبية النصارى تلك المبادئ ولكن المسلمين العرب رضوا بالانضواء تحت شعارات الرابطة العثمانية على الرغم من شعورهم بوجود نوع من التفرقة بينهم وبين الترك إثر رفع شعار الرابطة التركية ووحدة الشعوب الناطقة بها في آسية...» كما شعر العرب بضعف مركزهم عما كان عليه سابقاً في عهد السلطان عبد الحميد الثاني إذ كان من أولى الاستفزازات الموجهة ضدهم بعد ثورة تركيا الفتاة. طرد المستشارين العرب المقربين من السلطان عبد الحميد نفسه وعلى رأسهم عزت باشا العابد. وسرعان ما سيطرت القوة القومية التركية طبقاً للظروف والضغوط الطارئة بين صفوف رجال الحكم الجدد في استانبول وسادت على بقية عناصر السكان في البلاد.

كانت القوى النصرانية الأوروبية تهدد الدولة من جميع جهاتها وقد أضاعت

---

(١) نادى الاتحاديون بتلك الفكرة خشية انفصال الولايات غير التركية عن جسم الدولة إذ لو حدث ذلك لعد خيانة لمن قبلهم. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن تضارب الأفكار والآراء في رؤوس زعمائهم جعل قاسماً مشتركاً أعظماً بينهم إذ أنهم كما ألمحنا دعوا إلى الفكرة الطورانية ومنهم من دعا للفكرة العثمانية إلى جانبها وبعضهم تبنى الرابطة الإسلامية وكانت الدولة بذلك تجمع في اتجاهاتها الأفكار الثلاثة معاً طبقاً لذلك.

تركيا الفتاة كافة ولاياتها الأوروبية كما ذكر سابقاً - عدا تراقيا الشرقية - في خلال السنوات الأربع الأولى من تسلمها الحكم. فضمت أمبراطورية النمسا والمجر ولاية البوسنة والهرسك عام ١٣٢٦ هـ ونجحت بلغاريا بالانفصال. واحتلت إيطاليا (ليبيا) وجزر البحر المتوسط وأخذت اليونان جزيرة كريت. وكان الاتحاديون أثناءها يتأثرون بقوة بالأفكار الطورانية[١] التي تدعو إلى تحرير كافة الأتراك مدّعين أن الشعوب الإسلامية في الأناضول وآسية الوسطى تشكل أمة واحدة وهي الأفكار التي تطورت أخيراً بمجهودات الكاتب التركي الشهير «ضيا كوك ألب» كما ذكرت سابقاً ومن ثم نبتت من التربة نفسها بذور القومية عند العرب عام ١٣٢٧ هـ.

لهذه الأسباب ولأسباب أخرى يضيق المجال عن ذكرها هنا، تزعزع الوفاق العربي التركي الذي استمر طيلة أربعة قرون تحت راية الأخوة الإسلامية. وبدأ الاتحاديون بالعمل لمنع أعمال الجمعيات التي حملت بذور العصبية القومية بين العرب فحرّموا نشاط جمعية الإخاء العربي العثماني ثم عدّوا اللغة التركية اللغة الرسمية الوحيدة بعد أن كانت تقف اللغة العربية إلى جانبها. ففي غضون الحرب البلقانية الأولى ألف دعاة العصبية القومية من العرب حزب اللامركزية وكان قد تأسس المنتدى الأدبي الذي بقي جمعية غير سياسية قبل نظيره العثماني الذي تألف في القاهرة عام ١٣٣٠ هـ وكان على اتصال بحزب الحرية والائتلاف التركي ويرأسه رفيق العظم، وكان الشيخ عبد الحميد الزهراوي نائباً للرئيس وهما من تلامذة عبد الرحمن الكواكبي وأعطى البريطانيون ذلك الحزب الحماية وحرية العمل النسبي في مصر. ثم شرع يحاول التأثير على حكام الدولة التركية وعلى الرأي العام العربي بإظهار الحاجة إلى الإدارة اللامركزية[٢]. وقد عقد قبل الحرب العالمية الأولى اتفاقية مع فرنسا تقضي بأن يتسلم عشرين ألف بندقية مع بعض المدربين وغير ذلك. كما تشكلت بعض الجمعيات السرية العربية كان من أهمها

---

(١) كان المعارضون للسلطان عبد الحميد الذين أطلقوا على أنفسهم اسم تركيا الفتاة يعملون من أجل إحياء ودعم القومية الطورانية بينهم وقد أطلق اسم الاتحاد والترقي على الوجه السياسي والعسكري وقلب التحرك لحزب تركيا الفتاة حتى لا ينفر غير الأتراك وحتى يتمكنوا من ضم العناصر غير التركية إليه.

(٢) اللامركزية هنا تعني أن تأخذ الولايات غير التركية استقلالاً ذاتياً وتبقى خاضعة خارجياً لاستانبول.

الجمعية القحطانية برئاسة عبد الكريم الخليل والضابط عزيز المصري. والجمعية العربية الفتاة التي تشكلت في باريس عام ١٣٢٩ هـ على منهج جمعية تركيا الفتاة ومن قبل طلاب يدرسون هناك استطاعوا من ثم الدعوة إلى مؤتمر باريس على الرغم من ضعف إمكاناتهم المادية(١). أما الجمعية القطحانية فكانت تسعى إلى توحيد الولايات العربية في مملكة واحدة داخل الدولة التركية بحيث تصبح امبراطورية عربية تركية على شاكلة امبراطورية النمسا والمجر التي كانت قائمة آنذاك، وتشبع أعضاء الجمعية العربية الفتاة وهم الذين ألفوا المنتدى الأدبي فيما سبق بالأفكار الغربية وخاصة المبادىء العصبية القومية كما استعمل بعضهم المصطلحات الماسونية وكان قصدهم استقلال العرب التام، وقد نقلوا مقرهم من باريس إلى بيروت ثم إلى دمشق حيث ازداد هنا عدد الأعضاء بسرعة.

وفي مطلع عام ١٣٣١ هـ أعلن جماعة من العرب البارزين في بيروت سموا أنفسهم بلجنة الإصلاح عن اقتراحات بغية الإصلاح وعملوا جهدهم لتجنب الضغوط التي يمكن أن توجه لهم وتبنوا التحول إلى الإدارة المحلية وتقرير اللغة العربية كلغة مناظرة للتركية في البرلمان التركي واتخاذ خدمة الجنود العرب في داخل بلادهم، وحينما ذاع صيت هذه الحركة في سورية والعراق قام الاتحاديون بحلها وأغلقوا مراكزها. وتعاونت الجمعية الإصلاحية بالإضافة إلى جمعية النهضة اللبنانية في المهجر مع القنصليات الفرنسية حتى أنهما قدمتا رسالة مشتركة إلى حكومة فرنسا في عام ١٣٣١ هـ التمستا فيها منها احتلال سورية ولبنان. بينما اتجه المصلحون العراقيون نحو الانكليز وأيد بعضهم إقامة إشراف بريطاني على برامج الإصلاح بل وحتى إلى بسط الحماية البريطانية على البلاد.

وبعدما بطش الاتحاديون بأعضاء تلك الجمعيات قامت الجمعية العربية الفتاة في الحال بإعادة مقرها إلى باريس حيث عقد مؤتمر قومي عربي هناك في عام ١٣٣٢ هـ ونظم اللقاء بسرعة وحضر معظم المندوبين عن سورية والولايات العربية الأخرى ومن المهجر وهيأ الفرنسيون المكان المناسب لعقد الاجتماع وقرر المؤتمرون:

---

(١) على الرغم من إمكاناتهم المادية الضعيفة فإنهم استطاعوا الدعوة إلى مؤتمر باريس وتغطية نفقاته مما يدل على الدعم الذي كانوا يتلقونه من صاحبة السيادة حكومة فرنسا.

١ ـ ضرورة تنفيذ الإصلاح بسرعة.
٢ ـ إشراك العرب بالإدارة المركزية.
٣ ـ جعل اللغة العربية لغة رسمية في كافة الولايات العربية.
٤ ـ جعل الخدمة العسكرية محلية بالنسبة للعرب إلا حين الضرورة.
٥ ـ التعاطف مع مطالب الأمن.

وأكد الأعضاء بأن حركتهم لا دينية وتعادل عدد النصارى مع عدد المسلمين في المؤتمر وقال عبد الحميد الزهراوي[1] آنئذٍ في إحدى خطبه أمام المؤتمر: «إن الرابطة الدينية عجزت دائماً على إيجاد الوحدة السياسية...» وقال في مكان آخر: «نحن لا نتمسك بالوحدة السياسية لأجل الرابطة الدينية بل رغبة منا في إيجاد مجموع عثماني قوي...». وعلقت فرنسا آمالاً كبيرة على المؤتمر وكان لها العديد من الأنصار في داخله ثم قامت بنشر مقرراته.

ما أن شعر الاتحاديون بذلك حتى انبروا للرد، وحاولوا الضغط على فرنسا لإنهاء المؤتمر فأرسلوا أمين سر حزبهم (مدحت شكري) إلى باريس ليدخل في مفاوضات مع القادة المؤتمر ين من العرب، وقامت فرنسا بلعبة مزدوجة ففي الوقت الذي كانت تمد إحدى يديها لدعم المؤتمرين ورعايتهم كانت تمد يدها الأخرى للاتحاديين وتعقد معهم الاتفاقيات العديدة في مجالات التعاون المختلفة بين البلدين، وعدّ العرب أن الاتفاق الذي حصل بينهم وبين القيادة الاتحادية نصراً كبيراً إذ تقرر أن تكون اللغة العربية رسمية في الولايات العربية وفي المدارس الابتدائية والثانوية العربية بالذات كما منح حق الخدمة العسكرية المحلية، واتفق على أن يكون ثلاثة وزراء وخمسة ولاة وعشرة متصرفين من العرب في الحكومة التركية بالإضافة إلى بنود أخرى مثل تعيين نائبين من العرب في مجلس الأعيان عن كل ولاية وغيرها. ووقع الاتفاق نيابة عن المؤتمرين العرب «عبد الكريم الخليل» وعن الجانب التركي العثماني «طلعت» وزير الداخلية آنذاك. ولكن سرعان ما تبددت آمال المؤتمرين إذ أصبح من الواضح أنه ليس في نية الاتحاديين إنجاز ما وعدوا به وتحقيق ما اتفق الجميع عليه عدا القليل من

---

(١) يعد عبد الحميد الزهراوي من المسلمين المغرر بهم الذين اتخذوا مطية من قبل خصومهم، وكان عدد من المسلمين أمثاله من هؤلاء الرجال الذين عقدوا المؤتمرات وساروا مع الأعداء.

المقررات بسبب اختلاف قادتهم حول هذا الموضوع. وباقتراب شبح الحرب العالمية الأولى برزت أوضاع جديدة نتيجة لاشتراك الأتراك فيها. وبقيت الاتفاقية مكتومة لمدة من الزمن ثم جرى الإعلان عنها فيما بعد، وفقد رجال معظم الجمعيات العربية آمالهم عام ١٣٣٢ هـ في الوصول إلى تسوية مع الاتحاد والترقي وترسخ الشعور المضاد للترك بين بعض العرب في العام نفسه وخاصة بعد إلقاء القبض على الضابط عزيز المصري الذي أودع السجن بتهمة الخيانة العظمى وحكم عليه بالإعدام مع العلم أن الحكم لم ينفذ لتدخل السفارة البريطانية لصالحه.

أما جمعية العهد التي تألفت من ضباط أغلبهم من العراقيين فقد حلت محل الجمعية العربية الفتاة وكان (نوري السعيد) و(جميل المدفعي) من بين الشخصيات التي كانت على اتصال بها، والجدير بالذكر أن الضباط العراقيين كانوا يشكلون معظم العناصر العربية في الجيش التركي آنذاك.

حتى ذلك العهد لم يكن عدم الولاء العربي للدولة التركية العثمانية طافياً على السطح على الرغم من محاولات الإضراب وإثارة القلاقل والاضطرابات في المناطق العديدة فكانت هيمنة الدولة لا تزال قوية نسبياً على الولايات العربية القريبة التي ترتبط بالخط الحديدي الحجازي. وحصل اتفاق في اليمن بين الإمام يحيى والدولة العثمانية التي اعترفت له بأحقية حكم وراثي في المرتفعات الوسطى مقابل احتفاظها بالسيطرة على سهول تهامة والبحر الأحمر. ولكن عبد العزيز آل سعود لوّح بالعصيان فاختل التوازن. ثم تعادل نظراً للصلة مع أسرة آل رشيد التي بقيت تحكم منطقة شمر في شمال الجزيرة العربية وحاضرتها حائل.

لقد طالبت معظم الجمعيات العربية المارة الذكر باستقلال العرب عن الترك ووصل الأمر ببعضهم كما ذكرت إلى الاستنجاد بالعون الأجنبي الأوروبي طلباً للخلاص تحت اسم تحضير المنطقة ورفع مستواها، ولم يدر بخلدهم مكائد الأعداء الماكرين المستعمرين ونظرة الاحتقار والازدراء التي يعاملون من خلالها أبناء هذه الأمة، ففي حينه قال أحد الزعماء العرب بعد السيطرة الغربية على البلاد العربية: «بينما لا يطالب الترك بأية أفضلية حضارية على العرب فإن الأوروبيين فعلوا ذلك بعجرفة مكشوفة وبطرقهم المختلفة ونفذها الانكليز والفرنسيون، وحتى الطليان مفترضين أنفسهم أصحاب نظر بعيد وتبصر في

احتياجات رعاياهم، وعليه فقد رفضوا محاولات العرب الحثيثة في تحسين مصائرهم بأنفسهم[1]. . . . ». وللحق والتاريخ فإن معظم، العرب لم يطالبوا بالخروج من حيز السلطة التركية والخلافة الإسلامية على الرغم من محاولات بعضهم من ادعياء التحرر والثقافة والتنوّر ممن حركتهم الأطماع والوصول إلى مناصب ظنوا أنفسهم يرتفعون بها.

إن معظم دعاة الإصلاح أرادوا التغيير في جهاز الدولة لتصبح قوية مرهوبة الجانب واستمرت الأغلبية الساحقة من أبناء العرب في موالاة الخلافة والسلطنة حتى إن الضباط العراقيين أنفسهم، والذين كان قسم كبير منهم في جمعية العهد السرية الانفصالية حاربوا ببسالة وحماسة تحت راية الخلافة الإسلامية والدولة التركية في الحرب العالمية الأولى.

لقد ندم رجال تركيا الفتاة بعد إرسالهم الحسين بن علي من استانبول إلى مكة المكرمة لممارسة دوره كشريف وتذكروا نصيحة السلطان عبد الحميد باستبقائه في العاصمة، ولكنهم أمام اختيار صعب، إذ أن المساس بتلك الناحية الحساسة سيكون كافياً لإشعال نار عنف جدي جديد في الحجاز قد تنسف الرابطة الإسلامية التي كانوا لا يزالون يحافظون عليها نسبياً ويدعمون حكمهم في بلاد العرب عن طريقها.

إن القوة المعنوية كانت هي السلاح الماضي الذي يملكه شريف مكة بالإضافة إلى بضعة مئات من البدو مهمتهم الدفاع عنه. فالتفت إلى بريطانيا متوقعاً التحالف معها وأرسل ابنه الثاني الأمير عبد الله عام ١٣٣٢ هـ البالغ من العمر الثلاثين عاماً آنذاك إلى القاهرة للقاء اللورد كتشنر البريطاني حاكم السودان الشهير والقنصل العام في مصر والمشرف على السياسة البريطانية في الشرق الأدنى، وتم الاجتماع بينهما وكان غير نهائي ولم يرض عبد الله أن يلزم نفسه في هذه المرحلة تجاه بريطانيا ولم يرد (كتشنر) أيضاً أن يكون ملتزماً بسياسة معينة ضد الدولة التركية لأن بريطانيا كانت لا تزال ملتزمة بالمحافظة على الدولة التركية للأسباب نفسها التي كانت قائمة في القرن الماضي، وكانت الحرب مع ألمانيا تبدو أمراً محتماً. وعلى الرغم من استمرار رجالات تركيا الفتاة في سلوك بعض سياسات

---

(١) The Arabs .

عبد الحميد بالنسبة لألمانيا فإنه لا توجد ضمانة تدل على إمكانية دخولهم الحرب إلى جانبها. إذ كان اهتمام بريطانيا ينصب على مراقبة التوسع الاستعماري الألماني، وكانت رؤية العلاقات التركية الألمانية تسير نحو التحسن في غاية الأهمية بالنسبة لها، وقد وضعت نصب أعينها التهديد المحتمل لطريق الهند في المستقبل فأرادت تجنب الحرب معها وخاصة أنها وضعت في اعتبارها إضافة إلى ذلك وجود سبعين مليون مسلم في الهند في ذلك الحين كانوا لا يزالون يعدون السلطان العثماني الخليفة الذي يعلن الجهاد ويجب طاعته، وليس هنالك من ضمانة أو تأكيد بأنهم سيحجمون عن تلبية ندائه إذا ما بدأت الاشتباكات مع دولة الخلافة في استانبول.

لم يسفر لقاء كتشنر ـ عبد الله عن نتائج عملية ولكن أرسيت دعائم وفاق بين الرجلين. وفي صيف عام ١٣٣٢ هـ تغير الوضع العام ففشلت الديبلوماسية البريطانية ووقع الأتراك معاهدة تحالف سرية مع ألمانيا وأصبحت الدولة تحكم فعلياً من قبل ثالوث تركيا الفتاة أنور وطلعت وجمال.

ثم أعلنت الحرب على بريطانيا وفرنسا وروسيا فتبدلت طبيعة العلاقات البريطانية مع العرب وهذ ما عنى انتهاء السيادة التركية المطلقة على مصر بعد ثلاثين عاماً من الحكم البريطاني غير المباشر والخفي أحياناً. وأعلنت مصر محمية بريطانية رسمياً وخلع الخديوي عباس الثاني واستبدل بعمه المسالم الطاعن في السن حسين كامل وأعطي لقب سلطان مصر[١].

وكان لبريطانيا اهتمامين رئيسين في مصر أولاهما: أمن قناة السويس من جهة والحذر من استجابة المصريين ذات الأهمية الكبيرة لنداء الجهاد المتوقع ضد الكفرة المحتمل صدوره من العاصمة مركز الخلافة الإسلامية من جهة أخرى ولذلك فقد صيغت عبارات الحماية بأسلوب لبق تبين منه عدم المعاداة للخلافة[٢] وقد بيَّن التاريخ أن ولاء المسلمين في مصر للخلافة كان مستقلاً عن أية ارتباطات سياسية بينها وبين استانبول وهذا الاتجاه نفسه الذي قام البريطانيون في إيضاحه

(١) كان إطلاق لقب سلطان عليه من قبل الانكليز نكاية بالسلطان العثماني.

(٢) لم يستمر الذئب البريطاني في لبس رداء الحمل لمدة طويلة فقد قام أولئك بهدم الخلافة الإسلامية وتمزيق الدولة العثمانية بعد عشر سنوات فقط من ذلك التاريخ.

وتقويته وخاصة بعد غياب أنصار التعاطف الإسلامي الأقوياء أمثال (مصطفى كامل) وغيره، والقضاء على بعضهم لدرجة كبيرة على أيدي رجال الاتحاد والترقي حتى لم يبق بالفعل من أشكال التعاطف سوى الشعارات والأقوال.

على الرغم من ضآلة أثر الرابطة الإسلامية في صفوف القوات المسلحة المصرية فإن وقعها كان كبيراً جداً عند البريطانيين خاصة نظراً لتواجد بعض القوات الإسلامية في كتيبتين هنديتين من بين الفرق البريطانية الهندية المعهود إليها الدفاع عن قناة السويس، إذ التحق الكثير من هؤلاء المسلمين في صفوف الأتراك إبان المعارك، فازدادت البلبلة وأطلق البريطانيون النار عليهم ولم يتمكنوا من إيقاف تحولهم إلى الجانب التركي إلا باستجلاب صنائعهم من الأمراء الهنود المسلمين إلى أرض مصر كي يوقفوا تأجج الشعور الإسلامي بينهم. وهكذا فإننا نجد بعض حكام المسلمين وممن ينتمي إسماً إلى الإسلام وفي كل زمان، أداة طيعة في أيدي الأعداء يستغلونهم لقهر الشعوب التي اختارت فطرة الإسلام فيسحقون تحركها بأيدي أبنائها ويجعلون من أنفسهم بذلك جلاديها في الوقت نفسه. وإذا ما قبل المصريون الانتقال بهدوء من الانضواء تحت السيادة العثمانية إلى العيش في ظل الحماية البريطانية فإنه ليس هناك ما يضمن عدم استجابة باقي العرب في السلطنة وغيرهم إلى داعي الجهاد إذ أن تأثر المسلمين في الهند وفي الشمال الإفريقي وحتى بين شعوب المسلمين في الامبراطورية الروسية يفوق الحصر.

وطبقاً، لهذه الاعتبارات فإن مفتاح الحل كان هو الشريف حسين، إذ أن الدعوة إلى الجهاد إذا ما أريد لها التأثير الفعال القوي فيجب أن تصدر من مكة المكرمة ومن هنا جاء حث الحكومة العثمانية له كي يوافق على إعلان الجهاد والدعوة له. فجابه الحسين اختياراً صعباً فإما الانحياز إلى جانب الدولة التركية على أمل تحقيق طموحات العرب وإما إلقاء نفسه في أحضان الحلفاء الأوروبيين على أمل مساعدة العرب في الحصول على استقلالهم وكلا الاتجاهين يعتمد تحقيقه على عوامل متعددة غير منظورة. وكان أولاد الشريف حسين منقسمين على أنفسهم حول هذا الموضوع فعبد الله يفضل التحالف مع الانكليز بينما كان فيصل يفضل الانحياز إلى جانب الأتراك.

أما ابن سعود فكان مضطراً لقبول سيادة السلطان في عام ١٣٣٢ هـ. أما فيما بعد فإنه رفضها ووقع معاهدة مع الحكومة البريطانية خولتها حق السيادة على

سياسته الخارجية مقابل اعترافها بأحقية استقلاله في بلاد نجد. أما الباقون فكانوا غير قادرين على القيام بأي عمل من شأنه دعم الحسين إيجابياً في ثورته.

وكان التخطيط البريطاني الفرنسي يقوم على فرض السيطرة المباشرة في المناطق العربية الأكثر سكاناً وتحضراً، أي في المنطقة التي تضم العراق وسورية وفلسطين وشرقي الأردن كما جعلوا من الأرض الوعرة أو القاحلة في صحراء بلاد الشام منطقة ذات حكم ذاتي نظراً لكونها ضعيفة القوة والسكان والموارد وبالتالي ستكون تحت رحمتهم، أما المناطق الأكثر جدباً في شبه الجزيرة العربية فقد منحوها كما ادعوا استقلالاً حقيقياً.

أما في استانبول، فتم تعيين أحمد جمال باشا أحد القادة الاتحاديين الثلاثة المتحكمين في مصير الدولة كما ذكر سابقاً قائداً عاماً للقوات العثمانية في سورية بعد نشوب الحرب العالمية الأولى وقد نقل عنه أنه أخبر أصدقاءه حينما صعد القطار الذي أقله من استانبول إلى هناك فقال: «... إنني لن أرجع حتى أدخل القاهرة...» وهكذا فإن ثقته كانت مفرطة في تحقيق نصر حاسم في جبهة القناة والأمل الكبير في الدعم العربي المحقق للدولة ولأن نداء الخليفة كان يراوده.

لقد بدأ سياسته في سورية باستحواذ كامل الدعم المعنوي والمادي لغالبية السكان المسلمين في بلاد لشام بغية تأييد المجهود الحربي التركي. ولكنه بعد إخفاق المحاولات الأولى في مهاجمة مصر عبر قناة السويس ولعدم استجابة القوات المصرية لداعي الثورة على المحتلين الانكليز على عكس ما كان يتوقعه ولإطلاعه على التقارير الواردة إليه من رجال مخابراته والمتعلقة بكشف النشاطات العربية المعادية للدولة العثمانية في الخفاء وبدرجة خطيرة[1]، لجأ إلى سياسة القمع التي أكسبته اسم السفاح فاتخذ التدابير لإبعاد الوحدات العربية في الجيش إلى خارج سورية واستبدلها بوحدات تركية ثم قدّم للمحاكم العسكرية العرفية عدداً من المدنيين العرب البارزين الذين ضبطت في حوزتهم وثائق تدل على اشتراكهم في نشاطات معادية للدولة عن طريق القنصلية الفرنسية[2]. فأعدم أحد عشر منهم في عام ١٣٣٣ هـ وواحداً وعشرين بعد خمسة أشهر. وحصل على إفتاء شرعي من

---

(١) انظر مذكرات أحمد جمال باشا.

(٢) انظر مذكرات جمال باشا ـ نسخة مكتبة الأسد بدمشق.

الشيخ بدر الدين الحسيني في دمشق في إدانتهم[1] ونشر جمال باشا كتاباً باللغتين العربية والتركية ضمنه الوثائق التي استند إليها في إدانتهم ومنها صور المخابرات التي جرت مع السفارة الفرنسية والحديث الذي جرى بين شفيق المؤيد والسفير الفرنسي وبه ما يدين المؤيد إدانة خطيرة.

إن هيمنة جمال باشا على سورية عنت إعطاء الضوء الأخضر من جهة ثانية لشريف مكة للبدء في تحركه وخاصة إن القوة التركية الألمانية كانت على وشك الوصول إلى الحجاز في طريقها إلى اليمن.

وبعد أن تلقى فيصل دعوة مستعجلة من جمال باشا حضر بسرعة إلى دمشق وهنا ثبت لديه رجحان كفة الرأي المعادي للأتراك وعندما قابل جمال باشا بدت عليه بوادر الارتباك وأقسم له يمين الولاء والإخلاص وعدم علمه بخياناتهم[2]. ثم استدعاه والده إلى الحجاز وما لبثت أن رفعت راية الحركة ضد دولة الخلافة في صيف عام ١٣٣٤ هـ فوق الأبنية الحكومية في مكة وفي جدة ولكن الحامية التركية استمرت في المقاومة ضد قوات الشريف السيئة التدريب والتجهيز، ومع أن أنصار الشريف من العرب حاربوا بإقدام إلا أنهم سرعان ما تراجعوا بعيداً أمام طلقات المدافع الرشاشة مبررين عملهم هذا بأنه استراحة فقط لتناول شيء من القهوة.

ثم وصل من القاهرة إلى جدة في عام ١٣٣٤ هـ (رونالد ستورس) البريطاني ليدرس إمكانية التعاون مع الحسين وبالتالي جذبه إلى جانب الحلفاء، وكان برفقته نقيب حديث السن نحيف الجسم أشقر اللون قليل الترتيب والهندام، رجل المخابرات البريطاني الذي اشتهر اسمه فيما بعد ونسجت حوله الأساطير المدعو «لورانس» والذي أطلقوا عليه اسم لورانس العرب وهو الابن غير الشرعي لبارون انكليزي إيرلندي كان يُعَّد ويهيأ لهذه المهمة منذ نعومة أظفاره أيام كان طالباً في المدرسة، وبعدها انتقل إلى أكسفورد ليوضع تحت تأثير المؤلف والزعيم والعضو الفعال في المؤسسة التجارية البريطانية وعالم الآثار (هوغارث) ذو اللحية الطويلة السوداء. وكان هوغارث مستعمراً مندفعاً رأى بعد تأمل وتبصر في

---

(١) انظر مذكرات أحمد جمال باشا.

(٢) المصدر السابق، وعندما فتشت القنصلية الفرنسية وجد فيها الوثائق التي تثبت الاتصالات بين فرنسا وأولئك الرجال كما جاء في مذكرات جمال باشا.

لورانس الشاب ذي القدرة الفائقة الذي يمكن بواسطته نثر أفكاره في مناطق بعيدة ومغايرة.

وأمضى (لورانس) وبتشجيع من (هوغارث) السنين الطويلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى في رحلات متتابعة إلى الشرق الأوسط وكان يقوم بدراسة لغة وعادات وتقاليد العرب، ويتجسس على العثمانيين والألمان في بعض الأحيان، وقد اكتسب خلال تلك السنين الخبرة الواسعة عن العرب وعاداتهم وميولهم السياسية والعاطفية. وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى بذل (هوغارث) جهداً حتى تمكن من إرسال (لورانس) إلى القاهرة في مهمة جاسوسية عسكرية. ثم قام الكولونيل الشاب (كايتون) بافتتاح مكتب الاستخبارات والضباط الديبلوماسيين والذين كان بينهم (هوغارث) لتنظيم القيادة البريطانية في الثورة العربية ورتب دور «لورانس» ليكون واسطة ارتباط المكتب عام ١٣٣٤ هـ. وسرعان ما كونّ لورانس فكرته عن عائلة الشريف حسين وقد جاء في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة»: «أولاً: لقد علمنا أن الشريف كان طاعناً في السن ووجدت أن ابنه الثاني عبد الله رجلًا ماهراً جداً أما الابن الأول علي فكان نظيفاً جداً، وكان زيد بارداً جداً ومن ثم فإني جلت ببصري بحثاً عن فيصل الابن الثالث فوجدته القائد الكفء لإشعال النار الضرورية».

لقد كان فيصل الابن الثالث، في نظر الغرب أكثر انخداعاً من عبد الله الذي بقي بدوياً قلباً وقالباً على الرغم من كونه أكثر سذاجة وأقل ذكاءً من عبد الله وشعر لورانس إزاءه بعدم الارتياح والثقة. وبالمقابل وثق فيصل بلورانس إلى أبعد مدى واعتقد جازماً بإمكانية لورانس مساعدة العرب في تحقيق استقلالهم التام تحت حكم العائلة الهاشمية. ثم أصبحت الاتصالات بين لورانس وفيصل مكشوفة. ولكن سرعان ما علم لورانس بتقسيم سوريا والعراق بين الفرنسيين والانكليز إثر الدخول في الحرب، ورفض ومعه (هوغارث) ذلك، لا لحرصهما على استقلال البلاد العربية، ولكن لممانعتهما إشراك فرنسا في اقتسام بلاد العرب في آسيا، وشرعاً في تقويض المعاهدة وعلى الرغم من أنهما قد فشلا، إلا أن «لورانس» عمل على حفظ بنود المعاهدة بعيدة عن أنظار فيصل حتى يزداد التورط العربي التدريجي إلى جانب البريطانيين، وبالتالي سيصبح اعتماد العرب الكلي آنذاك عليهم، وعندئذٍ فلن يتمكنوا من التراجع بعد اجتيازهم تلك النقطة، وأصبح

فيصل بعد تلك المرحلة القائد العربي الشهير. وقام لورانس بانتحال صفات البدوي البسيط في الوقت الذي كان يشرف فيه على تخطيط أعمال المقاومة غير النظامية وارتدى اللباس العربي البدوي وتعلم ركوب الإبل وكشف جانباً ليس بالقليل من شخصيته في أحد الكتب التي ألفها عام ١٣٣٥ هـ وفيه يقول بأنه ارتدى اللباس العربي لا حباً بالعرب وطريقة حياتهم ولكن لاعتقاده أن ذلك هو الأفضل لإحكام القبضة عليهم «وإذا ما تمكنت من ارتداء الألبسة العربية مع القبائل فإنك تكسب ثقتهم ومودتهم لدرجة لا يمكن للباس الرسمي أن يفعلها ومع ذلك فإن هذا خطراً وصعباً. . .».

لقد كانت ثورة العرب ذات أهمية استراتيجية كبرى لبريطانيا إذ أنها حركت ثلاثين ألفاً من القوات التركية عن طريق الخط الحديدي الحجازي من عمّان إلى المدينة المنورة، كما حالت دون التقاء القوات التركية الألمانية مع الحامية التركية في اليمن، وذلك ما جعل الظروف أكثر أهمية للحلفاء الذين كانوا يخشون اتصال القوات المعادية لهم في جنوبي الجزيرة العربية بالقوات الألمانية في إفريقيا وإغلاق البحر الأحمر أمام سفنهم.

بعد أن تغلب الانكليز بقيادة الجنرال (اللنبي) على الدفاعات التركية بين غزة وبئر السبع شرعوا بالزحف إلى الشمال فاحتلوا يافا ثم دخلوا القدس عام ١٣٣٥ هـ، وكانوا مرتبطين بنوعين من المعاهدات: الأولى اتفاقية مكماهون ـ الحسين حيث وعدوا بجعل فلسطين جزءاً من الدولة العربية والثانية مع روسيا بإقامة إدارة دولية في فلسطين إلا أنهم الآن بعد احتلالها لم يعد في وسعهم تنفيذ ما ارتبطوا به وقررت انكلترا إجراء اتصال مع اليهود ثم نشرت بياناً عن سياستها بشكل رسالة من بلفور وزير خارجيتها إلى روتشيلد الصيرفي الانكليزي اليهودي ثم ساندت أميركا ذلك التصريح.

وحينما افتضحت الأمور لدى العرب المغرر بهم، بدأت الاتصالات العربية التركية عام ١٣٣٥ هـ وأرسل جمال باشا مبعوثيه إلى العقبة ودعا فيصل إلى زيارة دمشق لإجراء مفاوضات الصلح ولكنها لم تصل إلى نتيجة. وبقي العرب حتى نهاية الحرب الأولى إلى جانب الحلفاء ثم أصبح وضع الأتراك حرجاً قبيل عام ١٣٣٦ هـ، وانهارت جيوشهم وهاجمتهم القبائل وساد الجوع في كل مكان، ثم احتل جيش فيصل ـ لورانس معان وشرع الانكليز بالهجوم في الخريف واقتحموا

جبهة نابلس، وتراجع الأتراك ونفذت قوات فيصل إلى درعا وقطعت طريق الرجوع على الأتراك وقضى سلاح الطيران الانكليزي والفصائل العربية على الجماعات التركية المتناثرة المتجهة إلى الشمال وأسر الانكليز ٧٢ ألف جندي تركي وحوالي ٤ آلاف ألماني ودخلت قوات فيصل إلى دمشق برضى الإنكليز الذين رغبوا في إشباع غروره بتقدمه، وفتحت أبواب دمشق لقادم عربي مسلم واحتل الانكليز بيروت ثم طرابلس وحمص ثم حلب. أما نهاية اللعبة فسنشرحه مفصلاً في الفصل التالي من الكتاب. وقبل أن أختم هذا الفصل لا بدّ لي من تبيان دور العرب في المساعدة على إحراز الجيش البريطاني النصر على الأتراك وبالتالي استعمار البلاد العربية، في مقولتين لاثنين من كبار القادة العسكريين آنذاك، فقد اعترف القائد العام للجيوش التركية في البلاد العربية الماريشال «ليمان فون ساندرس» في مذكراته بأهمية الدور الذي قامت به الثورة العربية فقال: «لقد أدت القوة العربية خدمات عظيمة للجيش البريطاني خلال تقدمه في شبه جزيرة سيناء، فكان الانكليز آمنين مطمئنين يفعلون ما يشاؤون كأنهم في داخل بلادهم وقال قائد تركي: «ولولا جنود جيش عربي وقف موقف العداء من الترك في جزيرة العرب في ساحة حربية طولها ١٠٠٠ كم، لما تم للجيش البريطاني إحراز ما أحرزه من النصر بهذه السرعة العظيمة، ويعود الفضل إلى الجيش العربي في بلوغ[1] الانكليز قلب البلاد العربية واحتلال القدس».

هَدمُ الخِلافَة الإِسْلامِيَّة

لم يكن في وسع المرء تصور إزالة الخلافة الإسلامية بتلك السرعة التي جرت فيها الأحداث، فقد انصرف هم أعداء الإسلام إلى تمزيق وحدة الدولة العثمانية بغية طعنها الطعنة الأخيرة بضرب الخلافة في الصميم وقد قال لورانس في إحدى المرات: «علينا أن ندفع بالغرب لانتزاع حقوقه من تركيا بطريق العنف. لأننا بهذا نقضي على خطر الإسلام وندفع به (أي بالإسلام) لإعلان الحرب على نفسه وبذلك نمزقه من القلب. إذ ينهض في مثل هذا الصراع خليفة في تركيا وخليفة في العالم العربي ويخوض الخليفتان حرباً دينية وبذلك يقضى على خطر الخلافة الإسلامية بصورة نهائية...».

---

(١) الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية. تأليف جهاد صالح. ص ٦٣ - ٦٤.

لقد أشارت المفاوضات التي كانت جارية بين روسيا وانكلترا وفرنسا أثناء الحرب في عام ١٣٣٤ هـ إلى ذلك. ولم يستطع أحد تصور إزالة الخلافة بذلك الشكل حتى العرب الذين ساروا في المخطط نفسه وإن كان بعضهم لا يدري نهاية المطاف ولا حتى حزب تركيا الفتاة الذي أثار النعرات العصبية ولكنه تمسك بالخلافة وببقية أجزاء الدولة.

وكتمت مخططات الحلفاء وأحيطت بالسرية التامة نظراً للصعوبة البالغة وجال الأعداء بأبصارهم بحثاً عن بطل ودرسوا شخصيات الساسة والقادة اللامعين فاستقر رأيهم على أن الوسيلة الوحيدة لإلغاء الخلافة تكمن في استخدام الجيش وتركزت أنظارهم حول ضابطين طموحين كارهين للألمان معارضين في دخول الحرب وهما جمال باشا ومصطفى كمال الذي كان ضابطاً صغير السن فلذلك تمّ التركيز على جمال باشا الرجل القوي وأحد ثلاثة كان زمام الحكم بأيديهم آنذاك. وحاول الحلفاء الاتصال به بعد فشل حملة الدردنيل ليثور على الدولة وعرضوا عليه حكم سورية وفلسطين والعراق وعربستان وكيليكية وأرمينية وكردستان وأن يتولى السلطنة من بعده أولاده، كما عرضوا عليه تقديم السلاح والعتاد والمساعدات المالية مقابل ترك المضائق واستانبول لهم. ثم إنهم اختلفوا فيما بينهم حول الشروط إذ أنها كانت لا تتفق مع مطامع الانكليز والفرنسيين الذين كان في نيتهم تمزيق الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة الإسلامية الأمر الذي رفضه جمال باشا رفضاً باتاً.

ثم قام الأعداء ببذل محاولات أخرى كانت هذه المرة مع شريف مكة الحسين بن علي ولكنها لم تحقق رغباتهم في انسحاب الدولة من الحرب. كما حاولوا مع ضباط أتراك آخرين واستقر رأيهم أخيراً على مصطفى كمال وهذه نبذة عن سيرته:

(ولد مصطفى كمال عام ١٢٩٦ هـ الموافق ١٨٨٠ م في سلانيك ببلاد اليونان وهو من عائلة تركية ذات أصل متواضع وابن الموظف الحكومي علي رضا الذي[1] كان - كما يصفه مصطفى كمال - رجلاً ضائع الفكر يقاوم رجال الدين

---

(١) مات علي رضا عندما كان مصطفى كمال ابن ٦ - ٧ سنوات، ومحتمل كما ذكر البعض أن يكون والده الحقيقي حياً آنذاك ويقيم في مكان مجهول. وكان علي رضا لا يحب مصطفى كمال. ويذكر =

ويؤيد الأفكار التي تتسرب من الغرب ويتشبث بها فكانت أمنيته أن يجد ابنه مصطفى في عداد مدرسة عالية دنيوية ـ لا دينية ـ أما أمه فهي زبيدة هانم، وقد فقد أباه وهو لا يزال طالباً في المدرسة الابتدائية فأخذته أمه ورحلت به مع أخيها من سلانيك إلى داخل البلاد التركية ثم رجعت به مرة ثانية إلى مسقط رأسه بعد أن أتم دراسته الابتدائية وصار يتلقى الدروس الفرنسية سراً إبان العطلات المدرسية من رئيس دير فرنسي يدير مدرسة، وكان يشدد على تلميذه مصطفى ويعتني به عناية خاصة.

ثم دخل المدرسة العسكرية الثانوية وأصبح ضابطاً في الجيش العثماني وكان يدرِّس في تلك المدرسة أحد أساتذة الرياضيات الذي أعجب بمصطفى غاية الإعجاب لمهارته الفائقة في تلك المادة وكان ذلك الأستاذ يدعى مصطفى فاقترح تسمية تلميذه النجيب باسم مصطفى كمال. ثم التحق بالمدرسة الحربية العليا في (مناستر) ولاحظ وبكره شديد استمرار الهجمات المكدونية على السكان الأتراك فتحمس لقومه تحمساً شديداً. تحمسه لمعاقرة الخمرة التي لازمها طيلة حياته وبعد ذلك دخل الأكاديمية الحربية في استانبول حيث ظهرت بعض اهتماماته السياسية وأخذ يقرأ الكتب التي تهاجم حكم السلطان عبد الحميد وتأثر بأفكار الشاعر (نامق كمال) ذي الآراء غير الملتزمة وطالع الكتب العديدة عن الثورة الفرنسية وازداد إعجابه بنابليون. وبعد تخرجه من الأكاديمية الحربية دخل كلية الأركان وتخرج برتبة نقيب وقضى أوقاته في أماكن اللهو والمجون وعين في فوج سلاح الفرسان المرابط في دمشق[1] حيث أوجد هناك مع بعض أصدقائه مجموعة سرية دعيت (الحرية وأرض الآباء) سرعان ما فشلت، وأثناء رجوعه إلى سلانيك انضم إلى جماعة الاتحاد والترقي السرية التي انتشر نشاطها الثوري بين أفراد وضباط القوات المسلحة وعاش في كازينوهات سلانيك أكثر من بيته وكرّس معظم وقته وجهده في السنوات التي تلت لممارسة عمله. وحينما هاجم الطليان طرابلس

= الدكتور رضا نور أنه كان ابناً بالتبني لأحد الحراس العاملين في الجمرك، وتذكر دائرة المعارف الفرنسية «لاروس» أن أباه من البوماق. ولا يوجد دليل على أن علي رضا كان أباً له بل زوجاً لأمه.

(١) لم يجد مصطفى كمال أماكن اللهو والمجون في دمشق، فأمضى أوقاته في البيت أو في المعسكر، وكان يسهر حتى ساعة متأخرة من الليل على ضوء مصباح نفطي بين الكتابة وتناول الخمر.

الغرب في عام ١٣٣٠ هـ أسرع إلى هناك مع بعض أصدقائه الضباط وشكلوا قواتٍ وطنية للمقاومة. ثم رقي إلى رتبة رائد في السنة نفسها وعهد إليه بالدفاع عن شبه جزيرة غاليبولي أثناء حرب البلقان عام ١٣٣١ هـ وأرسلته الدولة في السنة التالية إلى صوفيا كملحق عسكري وهناك اكتسب الكثير من طبائع الغرب التي بهرت أنظاره وافتتن بحضارته ومعاييره الفنية والاجتماعية واهتم بحرية الجنس والعلاقات بين المرأة والرجل ورقي وهو لا يزال هناك إلى رتبة مقدم. وبعد نشوب الحرب الأولى عين قائداً للفرقة التاسعة عشرة في (چناق قلعة) حيث انهزم البريطانيون أمامه مرتين في غاليبولي كما سنرى التفاصيل وذاع صيته ورقي إلى رتبة عقيد في عام ١٣٣٥ هـ ثم رقي إلى رتبة عميد أثناء خدمته في الجبهة الشرقية. وفي عام ١٣٣٦ هـ رافق ولي العهد الأمير وحيد الدين في زيارة رسمية إلى ألمانيا رداً على زيارة الامبراطور الألماني ولم يتردد أثناء جولته في الجبهة الألمانية الغربية عن الإفصاح عن آرائه علناً في إمكانية سقوطها بيد الأعداء وعن وضع ألمانيا أثناء الحرب.

بعد أن رجع مصطفى كمال إلى العاصمة ادّعى المرض[١] فنقل إلى ڤيينا للمعالجة ثم إلى (كارلسباد) (الآن اسمها كارلو بي فاري في تشيكوسلوڤاكيا) حيث أعطيت له الفرصة مرة ثانية للتعمق في دراسة حضارة الغرب. وفي عام ١٣٣٧ هـ عين قائداً لأحد الجيوش في فلسطين حيث قام بإنهاء القتال مع الانكليز فوراً وبصورة تامة وسمح للعدو بالتقدم شمالاً دون مقاومة وسحب قواته شمالاً لما بعد حلب حسب مخطط متفق عليه[٢]. وبعد رجوع الضباط إلى بلادهم وإثر هدنة مودرس اغتصب مصطفى كمال قيادة كافة القوا ت في الجبهة الجنوبية الشرقية. ولما كان الحلفاء قد احتلوا الأجزاء الغربية والجنوبية الغربية من بلاد تركيا فقد حصلت هناك نقمة من الأهالي استغلها أحسن استغلال وقام بحركة تمثيلية كما سنذكر تفاصيلها وملابساتها ـ ضد اليونان ـ وانتصر عليهم في معركة سقاريا المشهورة مما رفع اسمه وبدأ يظهر كبطل وطني لدى الأتراك وساعد على ذلك

---

(١) وقد تكون هذه بداية الإصابة بتشمع الكبد نتيجة تناول الخمر المفرط.

(٢) يقول أحد الضباط المتقاعدين المرافق لمصطفى كمال في جبهة فلسطين: اخترق الانكليز جبهة الجيش الذي كان تحت أمرة وقيادة مصطفى كمال بواسطة وحداتهم. . وكان جمال باشا يرى على الدوام أن مصطفى كمال هو المسؤول عن هذه الهزيمة ـ الرجل الصنم ص ٤٧٤.

انسحاب متفق عليه من الحلفاء في المناطق الغربية فبرز على أنه الشخص الوحيد في البلاد.

تزوج مصطفى كمال من لطيفة هانم ابنة أحد أغنياء إزمير الذين كانوا على صلة كبيرة مع اليهود من سكان إزمير بعد أن خطب ابنة السلطان وحيد الدين ورفضته، وقد تكون هذه الحادثة ما أثار نقمته ضد السلطان وحقده الشديد عليه. وجرت مراسم الزواج على الطريقة الغربية كي يشجع على نبذ الطريقة الإسلامية التي لا تزال تجري بها المراسيم. ثم قام باصطحاب زوجته وطاف بها أرجاء البلاد وهي بادية المفاتن تختلط مع الرجال وترتدي أحدث الأزياء العصرية الغربية. ولكن زواجه لم يعمر طويلاً ولعله لم يألف طريقة الزواج واعتاد على نوع من النزعة الفردية. وكانت تشكو من انغماسه في النساء والخمر.

ثم ظهر انحطاط تدريجي في صحته خلال السنوات الأخيرة من حياته وكانت السنة الأخيرة أخطرها فاشتد عليه المرض وتوفي عام ١٣٥٧ هـ في استانبول في قصر (دولمابهجي) حيث كانت إقامته الاخيرة هناك).

كان مصطفى كمال قائداً لإحدى الفرق العثمانية قرب (أنافورطة) على الدردنيل كما ذكرنا سابقاً إذ استمرت المعركة هناك بين القوات التركية والحلفاء عدة أيام بدون إحراز نصر حاسم لأحد الفريقين واحتفظ الفريقان بمواقعهما لعدة أشهر وفجأة وفي ليلة من ليالي الشتاء وبكتمان شديد قام الانكليز بإخلاء ما احتلوه من ساحل غاليبولي وعادت السفن الحربية بسرعة مذهلة وانتهت المعركة التي بها تهشمت ساعة مصطفى كمال الموضوعة في جيبه إذ أصابتها شظية فتكسرت ولم يصب بأدنى ضرر وقدم تقريره إلى القائد الألماني (ساندرس) مرفقاً إياها به حيث أهداه القائد ساعة ذهبية مقابلها[١].

على الرغم من هذا النصر الذي حققه مصطفى كمال فإنه ظل مصمماً على فكرته الأساسية القائلة بالانسحاب من الحرب وحاول إقناع غيره بهذا الرأي ولكنه كان موضع ريبة. وعاد من الدردنيل إلى العاصمة منتصراً وقد اكتسب شهرة واسعة في الدولة فجهر بضرورة السير مع الانكليز وقابل العديد من الشخصيات كان من بينها وزير الخارجية في محاولة لإقناعه بآرائه ملمحاً بالتهديد

---

(١) يقال أن هذا الحادث كان غير صحيح وهو دعاية حاكها شخصياً.

ولكنه صرف وأبعد إلى القفقاس وقد جرت أحداث جسام أثناء وبعد ذلك كان منها:

١ ـ إيواؤه أحد الفارين المشتركين في مؤامرة للاستيلاء على الحكم التي حاول فيها أحد الضباط وهو (يعقوب جميل بك) الذي احتمى بمصطفى كمال بالقفقاس مما دعا إلى الظن بتواطئه وبالتالي ظهور أسلوبه الجديد بالتسلط على الحكم.

٢ ـ اصطدامه مع القادة الألمان أثناء الحرب إذ بعد أن عين في إحدى قيادات الجيش الرابع تحت إمرة (فولكنهاين) الألماني قدم استقالته لأنور باشا الذي رفضها ونقله إلى القفقاس فرفض تنفيذ الأوامر وتراجع أنور عن قراره، وعندها أظهر مصطفى كمال موقفه بجلاء ضد الدولة التركية في حربها للانكليز.

٣ ـ محاولاته العملية تسلم الحكم وإقناع السلطان وحيد الدين[1] الذي

---

(١) وهو السلطان محمد السادس ابن السلطان عبد المجيد ولد عام ١٢٧٧ هـ الموافق ١٨٦١ م وهو آخر سلاطين بني عثمان. وقد أجبر على التنازل والنفي في عام ١٣٤٠ هـ حيث ظهرت الجمهورية التركية بعد حوالي السنة بقيادة مصطفى كمال الذي خلع الخليفة عبد المجيد الذي تولى الخلافة بعد محمد السادس بعد أن كان قد ألغى السلطنة فيها قبل. أصبح محمد السادس الذكي المتبصر سلطاناً عام ١٣٣٦ هـ وحاول اقتفاء خطوات أخيه الأكبر السلطان عبد الحميد الثاني بالقبض شخصياً على زمام الحكومة. وبعد أن انهارت جمعية الاتحاد والترقي وهرب قادتها إثر هدنة مودرس وإقامة الإدارة العسكرية الحليفة في استانبول رضخ محمد وحيد إلى مطالب الحلفاء وقاوم كافة الأفكار ذات الطبيعة العصبية وهو قلق على مستقبل الخلافة العثمانية وسرعان ما حل البرلمان.

أما الذين كانوا منضمين تحت قيادة مصطفى كمال في الأناضول فقد جدّوا بطلب دعمه لهم في الاستقلال وقد وافق على إجراء انتخابات بعد مفاوضات وقد جرت فيها بعد عام ١٣٣٧ هـ.

وحصل القوميون على أكثرية في البرلمان الجديد فاحتل الحلفاء مساحة أوسع في العاصمة استانبول وقاموا بالاعتقال والنفي. قام السلطان في ١١ نيسان عام ١٣٣٨ هـ بحل البرلمان ثم شكل القوميون حكومة في أنقرة. وبتوقيعه على معاهدة (سيفر) قلص مساحة الدولة إلى الأصغر وأصبح وضع القوميين أقوى بعد اصطناع هزيمة اليونان وسيطروا على المجلس الوطني الكبير والبلاد التركية. وفي ١ تشرين الثاني عام ١٣٤٠ هـ ألغيت السلطنة وبعد ستة عشر يوماً نقل محمد السادس على ظهر سفينة حربية بريطانية إلى مالطة. فشلت محاولاته في إقامة خلافة إسلامية في الحجاز برئاسته وتوفي في سان ريمو بإيطاليا في ١٦ مايس من عام ١٣٤٤ هـ الموافق ١٩٢٦ م وكان قد بقي هناك حتى عاجلته المنية. ولم تسمح حكومة أتاتورك بنقل جثمانه إلى تركيا وباعتبار أنه كان مديناً مالياً فقد احتجز الجثمان. ثم طالب رئيس الجمهورية السورية آنذاك بملكية الجثمان فنقل إلى سورية ودفن هناك. وقبره اليوم في باحة جامع السلطان سليم «التكية» في دمشق، وقد جعل ذلك المكان =

عرفه سابقاً بتسليمه الوزارة وتجريد أنور والألمان كل سلطة ولكن السلطان صرفه وعينه قائداً لجبهة سورية.

٤ ـ تسليمه البلاد للانكليز في الجبهة السورية وانسحابه حتى الأناضول.
فبعد تسلمه قيادة الجيش السابع لزم الفراش في مركز القيادة في نابلس مدعياً أنه مريض وفي نهاية الصيف بدأ الهجوم الانكليزي على الجبهة فانسحب مصطفى كمال بجيشه وعبر الأردن نحو الصحراء ثم سار بمحاذاة الخط الحديدي بسرعة وبدون توقف إلى دمشق وأصدر الأوامر بـالكف عن مصادمـات العدو ورفض الإنصياع للأوامر القاضية بتشكيل خط دفاعي جديد في رياق. ووصل حلب بعد انسحابه بشهـر واحد حيث طلب من الـزعماء العـرب بتحريض من لـورانس استخدام نفوذهم لإقناع الحكومة بعقد صلح منفرد مع الحلفاء، ثم أعد خطاً دفاعياً شمالي حلب.

ثم سقط أنور وطلعت وعين عزت باشا رئيساً للوزارة طبقاً لرأي مصطفى كمال وقد أرسل له عزت برقية خاصة قال فيهـا: «إذا شاء الله آمـل أن نلتقي كرفيقين بعد عقد شروط الهدنة». وتبين من ذلك أنه حاول تنفيذ خطته واحتج بالمرض في نابلس ولم يحارب البريطانيين وانسحب في جو من الريبة والشكـوك ويحتمل أن يكون باتفاق معهم بدليل الاتصال مع لورانس عن طريق الـزعماء العرب المؤيدين للسياسة الانكليزية والمناوئين للخلافة دون تعقل ولجواب عزت باشا له.

لقد سار الحلفاء بمعاملتهم للدولة العثمانية المغلوبة في الحرب بأسلوب مغاير تماماً لشريكتها ألمانيا المهزومة أيضاً نقيض ما تقرُّ به المواثيق والأعراف الدولية فبعد أن أرغم أنور على الاستسلام جرى تمزيق الدولة إلى قطع بإثارة النعرات العصبية والنزاعات المحلية كما ذكرنا سابقاً. إذ آن الأوان لقطف الثمار بعد الحرب. ومع أن الانكليز احتلوا معظم البلاد الناطقة بالضاد فإنهم لم يجعلوها قطعة واحدة بل مزقوها أيضاً طبقاً للمخطط المتفق عليه من قبل. كل ذلك جـرى قبل تـوقيع معاهدة الصلح التي يفترض أن تقرر هي ذلك فقط لأن البلاد كانت تحكم مباشرة من قبل الباب العالي وكانت ولايات ليس لها سيادة داخلية ولا خارجية مستقلة ولم

= حديقة فيما بعد، كان له ولد واحد هو «محمد أرطغرل» وثلاث بنات هن رقية سلطانة، صبيحة سلطانة، وفاطمة أولبا سلطانة.

يكن من حق رعاياها التفاوض مع الانكليز إذ كان ذلك من حق الدولة ذات السيادة عليها فقط والتي جعل الانكليز دورها ثانوياً وشكلياً للاستكمال فقط.

ثم لجأ البريطانيون إلى أسلوب المناورة والمداورة مع حلفائهم كي يتمكنوا من إزالة الخلافة وقد استطاعوا نيل حصة الأسد واستولوا على العاصمة والمضائق وانصب اهتمامهم على مركز الخلافة.

وقام الفرنسيون باحتلال (غلطة) كما احتل الطليان (بيرا) وهما من ضواحي استانبول وبالتالي سيطروا على خطوط السكك الحديدية وتمكن الانكليز من لعب دورهم منفردين بدعم من القائد البريطاني العام وبدأت المناورة السياسية بأشكال متعددة.

١ - تفجير الأزمات الداخلية:

بدأ ذلك منذ اللحظة الأولى لإعلان الهدنة إذ صرح الحلفاء أنهم غير مستعدين للتفاوض مع أنور وطلعت نظراً لمسؤوليتهما عن دخول الحرب وأنهم يقبلون التفاوض مع عزت باشا إذا ما عين رئيساً للوزارة وهو نفسه الذي ألح مصطفى كمال على ترشيحه لذلك المنصب الأمر الذي لم يكن قط من قبيل المصادفة وعين عزت باشا وبدأ التفاوض وانفرد الانكليز بعقد الهدنة نيابة عن الحلفاء مع الدولة العثمانية. ثم طلبوا من السلطان إقصاء عزت باشا من رئاسة الوزارة.

وتمّ تعيين توفيق باشا المعروف بميله نحو الانكليز ثم طلبوا من الخليفة حل مجلس النواب بحجة أنه مجلس عثماني وليس تركي وأنه أي المجلس يصر على الخلافة والاحتفاظ بأجزاء الدولة وأن أغلب أعضائه اتحاديين مسؤولين عن الحرب. وقد استخدموا مصطفى كمال لهذا الغرض فلم يفلح ولكن السلطان قام فجأة بحله إذ أن الأمر مهيأ من قبل وليس بناءً على رغبات مصطفى ويحتمل أن يكون الانكليز قد مارسوا ضغطاً لأجل حله فكانت ضربة للاتحاديين.

وحل الداماد[1] (فريد باشا) محل توفيق باشا ولزم مصطفى كمال جانب الصمت مدة من الزمن. وفي أثناء ذلك كان الخليفة كالسجين في قصره والانكليز

---

(١) كلمة الداماد: تعني صهر السلطان.

هم أصحاب الأمر والنهي وأصبح المندوب السامي والجنرال (هارنجتون)[1] هما أصحاب السيادة الفعلية.

ثم قام الانكليز بلعبة أخرى من أجل إيجاد الفراغ السياسي فدفعوا عملاءهم للقيام بالأعمال السياسية وراء الستار يديرون عمليات المسرح.

فأثاروا القلاقل وأظهروا القصر بأنه عاجز عن القيام بأي عمل وبذلك جعلوا الدولة تظهر بالمظهر غير اللائق إذ أن حل المجلس أظهر عجزها عن الحكم فعقدت عدة ندوات سياسية ومؤتمرات لرجال الفكر والدولة فلم تفلح في التوصل إلى قرارات حاسمة وتوضحت صورة الفراغ السياسي فلا وزارة ولا مجلس والدولة مشلولة تماماً والخليفة سجين. وبرزت من جانب آخر عدم قدرة الدولة على العمل والثبات والاستمرار وأحس الناس بغياب رجال الدولة وحتى الدولة نفسها واستمرت تلك الحالة قرابة الستة أشهر من عام ١٣٣٧ هـ حتى ١٣٣٨ هـ كان الانكليز خلالها يثيرون فكرة الاستقلال وأن تركيا للأتراك كما أن أميركا للأمريكيين والحاجة للدولة العصرية. وبثوا هذه الأفكار في العاصمة بوجه خاص وبين الناس بوجه عام[2].

في هذا الوقت بالذات بدأ التحرك السري لمصطفى كمال الذي توهم الناس أنه صديق وفيّ للسلطان وصار يبث بين أصدقائه أفكاراً حول تخليص السلطان ونقل القيادة للأناضول وقلب حكومة فريد باشا. وعلى الرغم من إخفاقه فإنه ظل يتظاهر بالولاء للخليفة واكتفى بجمع الأنصار.

٢ - أسلوب العمل الجديد:

بعد فشل الشكل السابق من العمل التآمري لجأت بريطانيا إلى أسلوب جديد اعتمد على القيام ببعض الأعمال نذكر منها:

---

(١) تشارلز هارنجتون: وهو القائد العام لقوات الحلفاء في استانبول والمسؤول الانكليزي الأول عن تركيا خلال الحرب وهو الذي قام بالدور الفعال في هدم الخلافة الإسلامية إذ أعطي صلاحيات واسعة للتعاون مع مصطفى كمال بعد الحرب من أجل ذلك. توفي في عام ١٣٥٩ م.

(٢) لقد اتبع الانكليز هذا الأسلوب سابقاً حين فصل ولايات البلقان وأثناء بث النعرة القومية الاستقلالية عند العرب والترك.

أ ـ لجأت بريطانيا إلى تمكين اليونان من احتلال إزمير من إيطاليا خلافاً لنصوص المعاهدة المعقودة بين الحلفاء.

ب ـ أوعزت بريطانيا وباهتمام بالغ لحكومة استانبول بإيفاد مصطفى كمال إلى قلب الأناضول بحجة إخماد الثورات والقلاقل وقبل هو بذلك وبدأ تحركه بعد صمت مريب وسافر في ١٥ أيار عام ١٣٣٨ هـ إلى هناك. وأثناء ذلك أبلغت الحكومة التركية والي إزمير الالتزام بالهدوء وعدم المقاومة لأن الحلفاء سيحتلون إزمير. ثم ظهر الأسطول الانكليزي في مياه المدينة في ١٤ أيار وأبلغ القائد الانكليزي (كالثورب) والي إزمير بأن الاحتلال سيكون من قبل اليونان وليس من قبل الحلفاء فصعق الوالي لذلك الخبر وبدأ الإنزال اليوناني في ١٥ أيار وطاف الجنود اليونانيون الشوارع في تحد سافر مثير للمشاعر وأطلقوا النار على الأتراك وأجبروهم على خلع طرابيشهم وداسوها بأقدامهم واستفزوا الضباط بالبصاق في وجوههم وأخذوا بانتزاع الحجاب عن وجوه النساء المسلمات.

وفي زحمة هذه الأحداث رست الباخرة (أينبولي) في مياه إزمير بين الأسطول الانكليزي والبواخر اليونانية ونزل منها مصطفى كمال بصورة مفاجئة (وهو الذي من المفروض أن يكون قد سافر إلى الأناضول وبالذات إلى مدينة (سامسون) عن طريق البحر الأسود إذ أنه في اليوم التالي لسفره طلبته الحكومة لتأكدها من إثارته للاضطرابات والمشكلات وأبلغت الانكليز بطلبها ولكنهم لم يفعلوا شيئاً لإعادته بل واصل رحلته إلى إزمير. . .) وما أن نزل حتى أخذ بحشد الجموع وتعبئة المظاهرات السلمية ضد اليونان ثم أرسل البرقيات المتواصلة إلى العاصمة مظهراً فيها فداحة الخطر ولكن السلطان أصر على استدعائه فأرسل برقية (أي مصطفى كمال) قال فيها: «سأبقى في الأناضول إلى أن يتحقق استقلال البلاد» وبدأ بإشعال لهيب الثورة.

يتبين مما سبق أن الانكليز هم الذين أرسلوه للأناضول بدعوى إخماد الفتن ثم هم الذين استدعوه إلى إزمير بعد أن مكنوا اليونانيين من احتلالها ففسحوا المجال له كي يجمع الناس حوله وينمي شعبيته.

لقد رأى الأعداء أن إلغاء الخلافة الإسلامية ليس بالأمر الهين وأن ذلك لا يمكن أن يتم دون اصطناع بطل وإعطائه صورة عظيمة وإظهار هالة حوله وتصويره وكأن المعجزات تجري على يديه وعندها يمكن توجيه الطعنة على يديه بلا

ألم عميق إذ الشعور قد تخدّر من نشوة الانتصارات الزائفة[1] وكانت فرنسا تعلم بافتعال بريطانيا لدعاية القلاقل بالأناضول فلم تعر ذلك اهتماماً وحاولت استمالة حكومة الداماد فريد باشا ثم عقد مؤتمر الصلح بباريس وقرر شروطاً قاسية تبنتها إنكلترا ولم ترض عنها فرنسا ولا إيطاليا. ويبدو أن حماس بريطانيا كان لاتخاذ تلك الشروط ذريعة لإثارة الأتراك ضد السلطان ولحثهم على الوقوف إلى جانب مصطفى كمال. إذ أنها كانت أول من دعا إلى عقد مؤتمر لندن فيما بعد وذلك عام ١٣٣٩ هـ.

وسارت ثورة مصطفى كمال بين مد وجزر والانكليز يحمونه من السقوط. فنجح في البداية وانضم إليه القادة الشبان وبعض رجال الفكر مشترطين عدم المساس بالخلافة.

وأراد تأليف حكومة وما أن لمسوا منه القيام بخطوات من شأنها إغضاب الخليفة حتى نفروا منه جميعاً وعارضوه فرضخ لإجماعهم وأعطاهم التأكيدات بعدم مس مركز الخلافة بسوء وأخفى نواياه.

إن تجسيم البطل بعد اصطناعه أمر لا بدّ منه كما ذكرنا وأكبر مجال للعمل هو المعركة العسكرية التي تظهره منقذاً. ورأى الأعداء أنه لا بدّ من حصول الاشتباكات العسكرية فحصل ما يلي:

١ ـ تظاهر الانكليز بالخوف من القوة التي أرسلها مصطفى كمال إلى (سامسون) للدفاع عنها ضد إنزالهم ورجعوا من حيث أتوا. وأعلن أن تلك المدينة قد نجت من الاحتلال وأن (سيواس) قد بقيت بأيدي أبناء البلاد. والحقيقة أنه لم يحدث أي صدام بين القوتين هناك وعادت السفينة الانكليزية القادمة من حيث أتت.

٢ ـ بعد احتلال إزمير من قبل اليونان. تقدم اليونانيون إلى المناطق المجاورة فاتجهوا نحو إقليم (آيدين) وحصلت اشتباكات هزموا بنتيجتها وتراجعوا إلى إزمير

---

(١) إن ذلك الأسلوب لا يزال يستعمل لتوجيه الطعنات إلى الإسلام وأهله وكلما لاح للأعداء حاجة اصطنعوا بطلاً وأعطوه إشارة الضوء الأخضر كي ينزل الضربة المطلوبة في كيان الأمة الإسلامية وسط تصفيق جموع القطعان الهائجة التي لا تدري إلى أين المسير.

فأحرقوا الحي التركي وذبحوا الناس المسلمين بوحشية ليصبحوا هم الأكثرية فيها. وبنتيجة ذلك انضم الناس بكثرة إلى جانب مصطفى كمال الذي لا يزال السلطان يستدعيه وأصدر أمراً بعزله ولكنه استمر في تشجيع الأهالي على العصيان ضد السلطان.

وفي عام ١٣٣٧ هـ اجتمع زعماء ونواب الأقاليم الشرقية في مدينة (أرضروم) وقرروا الدفاع عن البلاد وانتخب مصطفى كمال رئيساً للمؤتمر وكان من بين القرارات الاعتراف صراحة بالولاء المستمر للخليفة السلطان وحيد الدين وأن بيعته ما زالت في أعناقهم. ثم قرروا عقد مؤتمر في (سيواس) وانتخبوا أيضاً مصطفى كمال رئيساً للهيئة التنفيذية المنبثقة عن المؤتمر.

علمت حكومة استانبول بهذه التحركات والقرارات فطلبت من السلطات الحربية قمعها وتم تأليف جيش موالٍ ليرسل إلى هناك ولكن الانكليز منعوه مدعين اشتراط نصوص الهدنة تسريح الجيش لا إنشائه من جديد فألح عليهم السلطان إخماد الفتنة فتظاهروا بأنهم على الحياد، وحاول أي السلطان القبض على مصطفى كمال ولكن دون جدوى وعندها أمر بغزو مدينة (سيواس) والقبض على أعضاء المؤتمر فلم يتمكن. وجاء أوان عقد المؤتمر وتم ذلك في صيف عام ١٣٣٧ هـ تحت رئاسة مصطفى كمال الذي مثل أمام المؤتمر وبأسلوب عاطفي مثير كي يتفادى انتقادات المعترضين فاختير رئيساً للمؤتمر وخطب أمامهم وأظهر الولاء للسلطان وبرزت أثناءها آراء تميل إلى طلب اللجوء للولايات المتحدة الأميركية وانفض الأعضاء وهم غير راضين وكلهم نقمة على مصطفى كمال. وقطعت كل علاقة بين القصر والنواب فاغتنم مصطفى كمال تلك القطيعة واتجه نحو الجيش بحثاً عن المؤيدين وقرر التفاهم مع الخليفة لا مع فريد باشا لأن الجيش كان مع الخليفة. ووصلت أخبار المؤتمر إلى القصر مشوهة وبأن الجولة كانت لصالح مصطفى نفسه وأيد ذلك مقاطعة المؤتمر للحكومة وأوعز الحلفاء للعاصمة بالتفاهم معه وتقدم أحد أصدقائه القدامى للتوسط بينه وبين السلطان وقبل وحيد الدين الوساطة طالباً إنهاء الثورة فوافق مصطفى وألّف وزير الحرب السابق علي رضا باشا الوزارة الجديدة التي أيدها مصطفى كمال وأخذ يماطل في حل اللجنة منتحلاً الأعذار المختلفة وملتجئاً إلى التسويف والتأجيل مدعياً إقامة الدليل على جدارة الحكومة وإخلاصها.

والآن لا بد من وقفة متسائلين:

من الذي أخبر مصطفى كمال بأن الانكليز مصمّمون على احتلال (سامسون) حتى يذهب ليمنعهم من ذلك؟ وهل كان المائة رجل الذين أرسلهم إلى هناك يكفون لمنع الانكليز من احتلالها؟ وهل نجت (سامسون) فعلاً من ذلك الاحتلال بفضل تلك القوة؟.

إن القصد كان إظهار مصطفى كمال أمام أعين الناس بأنه ضد الانكليز الذين كانوا وراء تلك المسرحية. ثم لماذا حصلت الاشتباكات مع اليونان؟ ولماذا حاول القائد اليوناني احتلال ما حول إزمير؟ وهل قام بذلك من تلقاء نفسه أم بتعليمات من قيادة الحلفاء؟ ولماذا حصل ذلك؟...[1].

إن ذلك كان من أجل إيجاد عصابة مسلحة في الجبال. وجعل مصطفى كمال قائداً ينضم الناس إليه. ثم لماذا قامت انكلترا بمنع الخليفة من مقاتلة العصاة بصورة سافرة؟.

والجواب هو لحماية مصطفى كمال وحركته من أي سوء. إن قولهم بأن تأليف قوة للقضاء على الثورة، يخالف شروط الهدنة ومخالف للنصوص، إذ أنه لم يكن هناك أي نص حول تجريد الجيوش من السلاح أو تسريحها ولكن نصت على أن الجيش التركي ينبغي أن يحل بأسرع ما يمكن باستثناء الفرق الضرورية لحماية الحدود والاحتفاظ بقوى الأمن داخل البلاد.

والحلفاء أنفسهم هم الذين اصطنعوا القلاقل وطلبوا من السلطان إخمادها، واقترحوا اسم مصطفى كمال لتلك المهمة ليصبح محط آمال الناس وموضع تقدير ضباط الجيش فتتصاعد مكانته وهيبته وتتدهور سمعة الخليفة وينحط مركز الخلافة في أعين الناس فالألاعيب الانكليزية لا تدرك بسهولة.

تآمر من نوع جيد:

بدأت الاستعدادات لإجراء انتخابات جديدة ولكن على أساس عثماني واستطاع صالح باشا التوفيق بين الحكومة والنواب في الأناضول عن طريق مؤتمر

---

(١) راجع كتاب كيف هدمت الخلافة ـ عبد القديم زلوم، وراجع أيضاً كتاب الرجل الصنم.

(أماسية)[1] عام ١٣٣٧ هـ وحاز تقديم اقتراح نص على عدم المساس بالسلطنة أو الخلافة على الموافقة. ثم انتقل مصطفى كمال إلى أنقرة واتخذها مقراً له واستقبل هنا استقبال الفاتحين وكان الدراويش البسطاء على رأس مستقبليه وهم يحملون الأعلام الخضراء المرصعة بآيات من القرآن الكريم وتعالت أصوات الهتاف وزغاريد النساء بالتكبير والتهليل. ثم جرت الانتخابات وانتخب مصطفى كمال غيابياً عن مدينة أنقرة وعقد الاجتماع النيابي في استانبول ولم يحضره مصطفى كمال بل قام بعقد مؤتمر لنواب أنقرة وطلب منهم انتخابه رئيساً للمجلس. أما اجتماع استانبول فافتتح بخطاب عرش عام ١٣٣٧ هـ وفاز رؤوف بك برئاسة المجلس وأقر الميثاق الوطني في عام ١٣٣٨ هـ وتأكدت فيه مقررات (أرضروم) و (سيواس) وطالب بالاستقلال والحرية التامتين لجميع الأقاليم الآهلة بأغلبية تركية ومنها استانبول ومنطقتها أما سائر أجزاء الدولة فقد ترك تقرير مصيرها للاستفتاء.

أخذ مصطفى كمال أثناء ذلك يعمل على إسقاط حكومة علي رضا باشا ولكن النواب خذلوه فجن جنونه وشعر باحتمال فشل مخططه فعاد لإشعال الثورة من جديد مع العلم أنه هو الذي طالب بما حدث. وتدفق المال والسلاح إليه من (استانبول) وشبه جزيرة (غاليبولي) تحت سمع وبصر الانكليز وقامت حرب العصابات ضد الحلفاء فانسحبوا إلى (بيريا) وانسحبت الحامية الفرنسية من الجزء الشرقي من (سيليسيا) نتيجة للغارات الموجهة ضدها.

ثم أجبر (علي رضا) على الاستقالة بضغط من الحلفاء وحل محله (صالح باشا) الذي عقد الاتفاق السابق في (أماسيا) مع مصطفى كمال وانسحب الموظفون الانكليز من الأناضول كما انسحبت الحامية العسكرية وتركوا أنقرة.

وفي بداية ربيع ١٣٣٨ هـ أرسلت انكلترا دون فرنسا وإيطاليا قواتها البحرية لاحتلال استانبول وألقت القبض على عدد من النواب من أعضاء حزب مصطفى كمال ورئيس الوزراء الأسبق سعيد حليم وسيقوا إلى السجون لمدة يوم واحد ثم نقلوا إلى مالطة وسيطر الانكليز على العاصمة وفرضت الرقابة على الصحف والبريد والبرق والوزارة ووقف السلطان إلى جانب الإجراءات البريطانية وطلب الحلفاء من الأهلين إطاعة أوامره مما أدى إلى ازدياد النقمة عليه.

---

(١) أماسية: بلدة في هضبة أرمينيا.

وفي ١٥ نيسان حل البرلمان واستقال صالح باشا وألف الداماد فريد باشا الوزارة الجديدة بناءً على طلب الانكليز فحكم بشكل تعسفي وأصدر حينها شيخ الإسلام الفتوى ضد مصطفى كمال وجماعته ثم تم الجلاء البريطاني عن (أسكي شهر) المحاصرة من قبل مصطفى كمال وعن (قونية) بدون حصول أدنى اشتباكات وتنظف الأناضول من القوات الحليفة وظهر أن هناك فريقين متصارعين:

١ ـ السلطان ومعه الانكليز حسبما يتراءى للناس.

٢ ـ مصطفى كمال وجماعته الذين بدوا للناس أنهم ضد الانكليز وأيدهم الرأي العام وأغلبية ضباط الجيش.

كانت تلك فرصة ذهبية أخرى لمصطفى كمال وقد اغتنمها وأعلن عن إجراء انتخابات جديدة بحيث تكون أنقرة مقراً للمجلس الجديد فنجح أنصاره في المراكز كافة وذلك في ٢٣ نيسان وانعقد المؤتمر القومي في يوم الجمعة. ثم قام بنقل الموظفين والضباط وأجهزة الدولة إلى أنقرة وبدأ بإنشاء الجيش والدولة وأخذ يضع أسس الجمهورية التركية الجديدة سراً متظاهراً بكفاح المحتل الأجنبي وكان يقول: «إن كل التدابير التي ستتخذ لا يقصد منها غير الاحتفاظ بالخلافة والسلطنة وتحرير السلطان والبلاد من الرق الأجنبي» ثم انتخبت لجنة تنفيذية برئاسته لإدارة شؤون البلاد بعد أن انتخب لرئاسة المجلس القومي وانضم الكولونيل (عصمت إينونو) للوزارة واتخذت قرارات خطيرة فكان لا بدّ من وقوع الصدام المسلح مع حكومة استانبول.

سيّر الخليفة حملة إلى أنقرة وأخرى إلى كردستان لإثارة القبائل هناك وانضمت المقاطعات بسرعة إلى جانب نصرة الخلافة ونجح جيش الخليفة واستمرت المعارك طيلة شهر أيار وانحاز الناس إلى جانبه عدا أنقرة التي أصبحت على وشك السقوط. وفي هذه اللحظات بالذات والتي أصبح فيها مصير مصطفى كمال وجماعته على كف عفريت أذيعت شروط الصلح المعروفة بمعاهدة (سيفر) والتي وافق عليها السلطان ووقعها الداماد فريد باشا بعد انقضاء سنة ونصف على الهدنة وبأسلوب إعلامي واسع فهاج الرأي العام ضد الخليفة ورئيس وزرائه وصبت النقمة على الانكليز. وتبدل الموقف فهزم جيشه وسيطرت أنقرة إذ أن تلك الشروط كانت تعني تقسيم البلاد بين الأوروبيين، وأن تصبح استانبول دولة، وتسلخ بلاد العرب. وتلحق تركيا الأوروبية والجزر الإيجية وغيرها بإدارة اليونان،

وتصبح أرمينيا مستقلة، وتعطى كردستان حكماً ذاتياً، وتوضع المضائق تحت الإشراف الدولي، ويحدد عدد الجيش بعد إخضاعه لتوجيهات الحلفاء الذين أعطوا السيطرة المالية أيضاً واحتفظوا بالامتيازات القديمة وأعطيت الأقليات النصرانية حقوقاً خاصة إضافية.

لقد ربح مصطفى كمال الجولة التي هيأ لها الانكليز. وناور من أجل أن ينفرد باحتلال العاصمة، وسكتوا عن تدفق السلاح والمال لقوات مصطفى كمال، وكان يجب أن تصب الغضبة عليه لا على استانبول نفسها. ولماذا كان الصدام مع الفرنسيين والطليان لا مع الانكليز؟ ولماذا هوجمت استانبول وهي حليفة الانكليز ولم تهاجم أنقرة؟ ولماذا نشرت نصوص معاهدة سيفر في الظروف الحاسمة التي كادت أن تودي بمصطفى كمال؟ ولماذا بقيت مكتومة طيلة مدة تزيد على السنة؟.

دعت انكلترا بعد تلك الأحداث لعقد مؤتمر لندن من أجل بحث حل المسألة الشرقية وإعادة النظر في معاهدة (سيفر) ويبدو هذا في منتهى الغرابة لأن المعاهدة كانت في صالحها والأغرب هو دعوة وفد يمثل حكومة أنقرة وآخر يمثل الحكومة العثمانية الشرعية والتي يفترض أن تكون هي الممثل الوحيد إذ هي التي هزمت في الحرب ولأنها ظاهراً كانت مع مصلحة الانكليز ومرضي عنها بينما أنقرة تعادي ذلك، ومن الغرابة أن يدعى العدو ليجلس مع خصمه دون وساطة. إن حكومة أنقرة كانت من صنع الانكليز فدعيت لتشارك في مفاوضات الصلح، وتنفرد بالشروط النهائية وقبلت حكومة الخلافة الضعيفة بذلك وهي التي يجب أن تعترض وقد اعترض مصطفى كمال بدلاً منها ورفض دعوة رئيس الوزراء حول تأليف وفد واحد يتكلم بصوت واحد وانقطعت المفاوضات. ولكن انكلترا أرسلت دعوة مباشرة إليه باسم الحلفاء وذلك بمثابة اعتراف صريح بحكومة أنقرة، فذهب الوفدان منفصلين وفد الخليفة برئاسة (توفيق باشا) رئيس الوزراء ووفد أنقرة برئاسة (بكير سامي بك) وعقد المؤتمر في شباط عام ١٣٣٩ هـ وتنازل وفد الخليفة عن حقه بالكلام لوفد أنقرة وحضر (لويد جورج) عن انكلترا (وبريان) عن فرنسا والكونت (سفورزا) عن إيطاليا واقترح مندوب أنقرة نيابة عن الوفدين جعل ولاية إزمير مستقلة ذاتياً في ظل حكم نصراني، فرفض الحلفاء وفشل المؤتمر باستثناء بعض اتفاقيات وقعت مع الفرنسيين، ورفض مصطفى كمال القرارات واستقال (بكير سامي) من وزارة الخارجية وألغيت القرارات وأجرى

مصطفى كمال مفاوضات مع فرنسا تنازلت بموجبها تركيا عن سورية للفرنسيين واتفقا على تعيين خط الحدود الفاصل بين تركيا وسورية، وأجلت فرنسا قواتها عن كيليكيا، ثم أصبحت تعقد معاهدات باسم مصطفى كمال مع الدول وقامت الدول الأوروبية باسترضائه واتصل بروسيا وتنازل لها عن باطوم، وعقد معاهدة مع الحكومة الشيوعية في ١٦ آذار عام ١٣٣٩ هـ وتنازلت إيطاليا عن أضاليا، وبذلك اشتد ساعده بعد أن كسب دعم فرنسا وإيطاليا وروسيا.

أحداث سقارية:

انتهت مشكلات الحرب التي سويت بين مصطفى كمال والحلفاء وبقيت مشكلة اليونان بدون حل إذ ترك تصفية الحساب معها فقام بتقوية الجيش ووردت إليه الأسلحة كالسيل المنهمر من روسيا عبر خطوط الانكليز في البوسفور والبحر الأسود، إذ كانت كل دولة تحاول أن تكسبه إلى صفها لذا فقد استفاد منها كلها وإن كانت انكلترا هي صاحبة الحظ الأوفى، وهو يستثير أطماع الدول الأخرى، كما كانت روسيا تفهم ذلك، وتحتفظ عندها بأنور باشا لتضربه به في الساعة المطلوبة، وتحولت القوات التركية الموجودة في كيليكيا بعد جلاء الفرنسيين عنها إلى الجبهة الغربية. وبدأ اليونان القتال مع الأتراك بعد تيقنهم من دعم الحلفاء لهم، واستمر ذلك مدة سنة ونصف تقريباً وكان الحلفاء في أثنائها يعلنون حيادهم الغريب. إذ أن دولة استانبول التركية لا تزال تحت الاحتلال الفعلي من قبل الانكليز وأن أي قتال يحصل يؤثر على مركز المحتلين فكيف يحصل الحياد؟ ثم تحولت الحرب إلى معارك نظامية وزحف اليونانيون في ٢٣ آذار عام ١٣٤٠ هـ إلى (أسكي شهر) و(أفيون قره حصار) حيث التقاء السكك الحديدية وفي نيسان هزموا وارتدوا إلى (بروسه) ولكنهم اعتزموا الهجوم على استانبول فاعترضهم الانكليز فاتجهوا إلى الشرق واصطدموا مع الأتراك الذين كانوا بقيادة (عصمت اينونو) ثم توغلوا إلى (كوتاهية) واستطاعت فرقهم الاستيلاء على (أفيون-قره حصار) في الجنوب ثم سارت نحو الشمال. ووصل مصطفى كمال إلى جبهة القتال وأصدر أوامره بوقفه فوراً والتراجع إلى الشرق على الرغم من الخسائر الفادحة. ومن ثم التوقف قرب (سقارية)[1] وعاد مصطفى كمال من (أسكي شهر) إلى

---

(١) سقارية: ينبع من وسط الأناضول شمال (أفيون) ثم يتجه شرقاً ويلتف شمالاً ويصب أخيراً في البحر الأسود بالقرب من (قره صو).

(أنقرة) في القطار حيث صب أعضاء المجلس الوطني جام غضبهم عليه فرجع لمركز القيادة محاولاً إثارة الحماس بين القواد، وبأن الجيش لا يزال قوياً، فاندهش هؤلاء، وتقدم اليونانيون، وتجمعوا غربي (سقارية) وازداد الموقف التركي حرجاً وانهزاماً ولكن ماذا حدث؟ لقد توقف الهجوم اليوناني فجأة في الساعة الثانية صباحاً ثم بدأ الانسحاب في ٧ أيلول فتحول الأتراك للهجوم وتقهقر اليونانيون وهم يحرقون القرى وينسفون آبار الشرب وساقوا المواشي أمامهم، وقتلوا الأهالي، وفي ٩ أيلول انسحبوا من (إزمير) فدخلها الأتراك دون إطلاق رصاصة واحدة، وعقدت الهدنة بناءً على طلب الحلفاء في ١١ تشرين الأول، وتخلت اليونان بموجبها عن تراقيا، وضخمت الدعاية الغربية هذه الحرب وانتشرت أنباء الانتصارات المزعومة بسرعة في العالم الإسلامي وانخدع المسلمون بمصطفى كمال واستيقظ الأمل في قلوبهم وتعلقت أفئدتهم به حتى قال شوقي وهو يشبهه بسيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه:

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

ثم يجعله في مصاف القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ويقول:

حذوت حرب الصلاحيين في زمن فيه القتال بلا شرع ولا أدب

ويجعل انتصاره على اليونان كانتصار المسلمين في بدر فيقول:

يوم كبدر فخيل الله راقصة على الصعيد وخيل الله في السحب
تحية أيها الغازي وتهنئة بآية الفتح تبقى آية الحقب

ثم خاب أمل هؤلاء المخدوعين بعد انقضاء زمن قليل.

لقد انسحب اليونانيون في الوقت الذي كانوا فيه هم المنتصرون مما يدل على حصول ضغط دولي من أجل ذلك أكده طلب الهدنة من قبل الحلفاء ثم التراجع والانسحاب التام وكان ذلك تمكيناً لمصطفى كمال من إلغاء الخلافة، وطار صيته في كل مكان ولقب بالغازي.

مسألة تراقيا:

بعد انسحاب اليونانيين من آسيا الصغرى اتجه مصطفى كمال بجيشه نحو تراقيا، وكانت فرنسا وبريطانيا وإيطاليا قد أعلنت عن تشكيل منطقة حيادية في

حينها تمتد على شواطئ البوسفور والدردنيل ومنعوا اليونان من اجتيازها لاحتلال استانبول. وقاموا أيضاً بمنع ظاهري لاحتلالها من قبل مصطفى كمال ولكنه لم يعبأ بذلك، واستمر في توغله وتظاهرت انكلترا بالوقوف ضده، واستنفرت قواتها، وصارت في مقابلة القوات التركية وجهاً لوجه ولكنه أصر على اختراق إجراءات المنع في الدردنيل للوصول إلى اليونانيين، ولم تحصل اشتباكات لأنه كان لدى الانكليز أوامر بعدم إطلاق النار. وبعد مفاوضات جرت رد الانكليز بالموافقة على انسحاب اليونان، ولكنهم احتفظوا بقواتهم في المنطقة، فوافق مصطفى كمال على ذلك، وتوقفت قواته وانسحبت اليونان، وانتشرت أخبار انتصاراته الجديدة، لتدعيم مركزه من جديد.

لقد شعر رجال البلاد بنوايا مصطفى كمال تجاه الخلافة الإسلامية فحذروه من القيام بإجراء لإلغائها وهدده الجنرال (كاظم قره باكير) المتحمس القوي للسلطان وصاحب المركز المرموق في الجيش والدولة بمنعه من الإقدام على ذلك. ولكن مصطفى كمال قام بتهدئته، وطمأنه وأعلمه بأنه ليس في نيته التعدي على مركز الخلافة والسلطنة وعندها أيقن بضرورة اكتساح معارضيه بالقوة، وأن ذلك هو الحل الوحيد لتنفيذ مخططاته ومن يعمل لحسابهم إذ أن سمعته ودعايته القوية ستساعده في تحقيق ذلك. وعلى الرغم من تنفيذ الانكليز حتى الآن لكافة مخططاتهم فإنهم أدركوا أن أمر إلغاء الخلافة ليس بالأمر الهين وقد لعب ضباطهم أمثال (هارنجتون) و (ولسن) وغيرهم من الضباط الصغار أمثال الكابتن (آرمترسرونغ) دوراً مهماً في هذا الصدد وكانت العلاقة الرئيسية لمصطفى كمال في الواقع مع (هارنجتون). وقد كتبت جريدة التايمس اللندنية مقالاً بعد موت (هارنجتون) ذكرت فيه: «... إنه بعد أن انهزم اليونانيون أمام الأتراك سنة ١٣٣٩ هـ أعطي السيد (هارنجتون) قائد القوات الحليفة صلاحيات واسعة للتعاون مع مصطفى كمال...».

وبعد عقد معاهدة الهدنة في تموز من عام ١٣٤٠ هـ وانسحاب اليونان لم يبق سوى الانكليز في البلاد فانفرد حينها (هارنجتون) بالعمل ودعيت حكومتا (استانبول) و (أنقرة) لمؤتمر (لوزان) بغية عقد معاهدة الصلح في ١٧ تشرين الأول فسخط المجلس الوطني الكمالي واستطلع رأي مصطفى كمال الذي كان آنئذٍ في إزمير فلم يجب بشيء فاجتمع ذلك المجلس في جو مكفهر وبعد أن حضر مصطفى

كمال وصعد المنبر وطلب من الحضور الإصغاء إليه اقترح فصل السلطنة عن الخلافة وأن تلغى السلطنة ويخلع وحيد الدين فبرز الخطر وظهر الهياج فطلب التصويت فوراً.

وفي اليوم التالي اجتمعت لجان مختصة للبحث في تلك الاقتراحات التي رفضت بالإجماع فغضب وصاح: «أيها السادة لقد اغتصب السلطان العثماني السيادة من الشعب بالقوة واعتزم الشعب أن يستردها منه. إن السلطنة يجب أن تفصل عن الخلافة وتلغى. وسواء وافقتم أم لم توافقوا فسوف يحدث ذلك. كل ما في الأمر أن بعض رؤوسكم سوف تسقط في غضون ذلك...» فدخل الرعب القلوب وأحيل الأمر للمجلس القومي الذي رفضه بأكثرية ساحقة فجمع مصطفى كمال أنصاره حوله وطلب أخذ الرأي مرة واحدة في الوقت الذي كانت أيدي أنصاره فوق مسدساتهم فلم ترتفع سوى أيد قليلة وقال الرئيس مع ذلك بأن المجلس أقر الاقتراح بالإجماع فساد الهياج وعلت الضوضاء ورفعت الجلسة وغادر مصطفى كمال القاعة.

بعد خمسة أيام جرى انقلاب في استانبول تحت بصر الجنرال (هارنتجون) وعزلت حكومة السلطان بالقوة. وتحت حماية القائد الانكليزي أجلي السلطان (وحيد الدين) وابنه وسمح لهما باصطحاب حقيبة صغيرة للملابس وحمال لحمل بعض الأمتعة وانطلقت بهم سيارة إسعاف إلى زورق بخاري حملهم بدوره إلى بارجة حربية انكليزية كانت راسية بالميناء تنتظر ذلك وأقلعت بهم إلى مالطة وذلك في ١٧ تشرين الثاني عام ١٣٤٠ هـ ونودي بالأمير عبد المجيد بن عبد العزيز[١] ابن عم وحيد الدين خليفة للمسلمين بعد موافقة المجلس الوطني الكبير على ذلك

---

(١) الخليفة عبد المجيد الثاني: ولد في استانبول في ٢٠ مايس من عام ١٢٨٣ هـ وهو آخر خليفة عثماني وآخر ولي عهد أيضاً. التزم داخل القصر حتى أصبح عمره أربعين سنة حكم أثناءها أبوه عبد العزيز وثلاثة من أبناء عمه. وحينما تسلم العرش ابن عمه الرابع محمد السادس في عام ١٣٣٦ هـ أصبح عبد المجيد ولياً للعهد. وقد اختير خليفة من قبل المجلس الوطني الكبير بعد إلغاء السلطنة وفقد لقبه كولي للعهد بعد مغادرة محمد وحيد الدين (السادس) العاصمة بضغط من مصطفى كمال وعلى الرغم من تجريد الخليفة من كافة السلطات السياسية فإن عبد المجيد الديبلوماسي والمثقف كان الرمز الحي لارتباط تركيا بالماضي الإسلامي العثماني إذ التفت حوله القوى الإسلامية والمناوئة لمصطفى كمال الذي لجأ إلى بتر الصلة التركية بالماضي وأعلن الجمهورية العلمانية ونفي عبد المجيد في اليوم التالي لإعلانها. توفي في ٢٣ آب من عام ١٣٦٠ هـ في باريس.

وأيده الكثيرون. وفي ٢٠ تشرين الثاني افتتح مؤتمر (لوزان) وحضره وفد أنقرة فقط ووضع (كرزون) رئيس الوفد الانكليزي أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا وهي:

١ - إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً.
٢ - طرد الخليفة خارج الحدود.
٣ - مصادرة أمواله.
٤ - إعلان علمانية الدولة.

وعلق نجاح المؤتمر على تحقيق هذه الشروط. ولكن المؤتمر أخفق وعاد (عصمت أينونو) رئيس الوفد الأنقري إلى تركيا ولقيه مصطفى كمال في (أسكي شهر) وعرف منه جميع ما جرى. والجدير بالذكر أن عمله هذا كان غير دستوري مما أثار الاحتجاج واستقال رئيس الوزارة الذي وقفت الأكثرية إلى جانبه ضد مصطفى كمال وعصمت إينونو ولكن مصطفى أصر على عصمت وأخذ يدبر المكائد ضد الجمعية الوطنية إذ لم يبق في صفه سوى (عصمت) و (فوزي) والقلة القليلة.

عند ذلك قرر مصطفى كمال تنفيذ الشروط البريطانية ففكر في حل الجمعية وتم ذلك فعلاً وجاء المجلس الجديد ضده أيضاً. فلجأ إلى الكيد ووضع المآزق والعراقيل أمامها وحرض الوزراء على الاستقالة وفشلت الجمعية في تشكيل حكومة جديدة وكثر الجدل وحلت الفوضى.

وفي اليوم التالي قرر مصطفى كمال إعلان الجمهورية فاجتمعت الجمعية في جو صاخب وكان النواب يتعاركون وإنقاذاً للموقف وحسماً له استدعي مصطفى لتشكيل الوزارة ولكنه اشترط قبول رأيه بلا مناقشة فوافقوا على ذلك. وفي ٢٩ تشرين الأول عام ١٣٤١ هـ صعد المنبر وأعلن مولد الجمهورية التركية فذهل الجميع وعلى الرغم من عدم اشتراك أربعين في المائة من النواب بالتصويت فقد أقر الأمر وانتخب مصطفى كمال رئيساً لها وأخذ يعمل لإلغاء الخلافة وإعلان العلمانية وشاع أن حكام أنقرة الجدد من الكفرة وهاجمه الخطباء وغادر الكثيرون من رجالات البلاد أنقرة إلى استانبول والتفوا حول عبد المجيد. ولجأ الانكليز إلى إمداده بسلاح آخر إبّان اشتداد الحملة عليه فقد أرسل الزعيمان الهنديان (أمير علي) و (أغا خان) خطاب احتجاج في حينها يطالبان باحترام مقام الخليفة العثماني،

وباعتبار وجود صداقة بين آغا خان والانكليز وتزعم آغان خان للطائفة الإسماعيلية الباطنية فقد هب مصطفى كمال ليستعمل هذا السلاح الجديد ونبش تاريخ (آغا خان). ثم أراد أن يعرف مدى تأييد الجيش له في خطوته الأخيرة فحضر المناورات العسكرية قرب إزمير وجس نبض قوة المعارضة بين الضباط وقرر سلوك طريق الإرهاب وعمد لتدبير اغتيالات لبعض النواب المعارضين وهدد بعضهم الآخر بالإعدام، ثم أمر بإلغاء مظاهر الخلافة في استانبول. وفي أول آذار من عام ١٣٤١ هـ دعا المجلس الوطني لعقد جلسة وقدم مرسوماً بطرد الخليفة وإلغاء الخلافة وفصل الدين عن الدولة واستمر الجدل والنقاش لعدة أيام. وفي صباح اليوم الثالث من آذار أذيع نبأ إلغاء الخلافة والسلطنة وفصل الدين عن الدولة وأمر في الوقت نفسه عبد المجيد بمغادرة البلاد إلى سويسرا ثم رحل أمراء العهد وألغيت الوظائف الدينية وأصبحت الأوقاف ملكاً للدولة وتحولت المدارس الدينية إلى مدنية وكل هذا برأي فردي وإذاعة مفاجئة، وبذلك فقد نفذ مصطفى كمال الشروط الأربعة السالفة الذكر التي اشترطها الانكليز. ثم أرسل عصمت وزير خارجيته إلى مؤتمر الصلح وأعيد افتتاح المؤتمر في ٢٣ نيسان ١٣٤١ هـ ووقعت المعاهدة (معاهدة لوزان) في ٢٤ تموز من العام نفسه. واعترفت انكلترا باستقلال تركيا تقديراً لنصيرها الأول مصطفى كمال، وانسحبت من استانبول والمضائق، وغادر (هارنجتون) البلاد ظافراً وقد قام أحد النواب الانكليز إثر ذلك واحتج على (كرزون) في مجلس العموم لاعترافه باستقلال تركيا فأجابه هذا: «إن القضية هي أن تركيا قد قضي عليها، ولن تقوم لها قائمة، لأننا قد قضينا على القوة المعنوية فيها وهي الخلافة الإسلامية».

وقد قال الأستاذ مصطفى صبري شيخ الإسلام في تركيا آنذاك وهو الذي كان معاصراً لمصطفى كمال بعد أن أُخرج من البلاد والتجأ إلى مصر: «تساهل الانكليز مع مصطفى كمال ليجعلوا منه بطلاً في حين تشددوا في معاملة الخليفة وحيد الدين حتى أعجزوه وذلك لتعظيم الفتنة بكمال أتاتورك في أبصار المسلمين وبصائرهم»، ثم قال: «والرجل من لا تجد انكلترا مثله ولو جدّت في طلبه من حيث أنه يهدم ماديات الإسلام وأدبياته ولا سيما أدبياته في اليوم ما لا تهدم انكلترا نفسها في عام فلما ثبتت كفايته وقدرته من هذه الجهات فوق كفايته وقدرته في طرد اليونان من الأناضول استخلفته لنفسها وانسحبت من بلادنا. . .».

وهكذا تمكن أعداء الإسلام وبخاصة بريطانيا من توجيه الضربة القاضية

نحو الخلافة الإسلامية وبذلك أتموا تنفيذ مخططهم بنداً بنداً فمنذ البداية اختلقوا العراقيل واصطنعوا المشكلات المحلية والطائفية لدولة الخلافة وأربكوها وأضعفوها ثم احتضنوا اليهود وأيدوهم وبتعاون مع الماسونية دفعت جماعة الاتحاد والترقي لإزاحة حكم السلطان عبد الحميد الثاني العدو اللدود لهم والذي وقف حجر عثرة في طريق توطين اليهود في فلسطين وإعطائهم الوطن القومي هناك وقد ذكرت سابقاً كيف أن المخابرات البريطانية كانت وراء أحداث ٣١ آذار السالفة الذكر وكيف أنهم هم الذين غذوا الحركات الانفصالية والنعرات العصبية بين الرعايا العثمانيين وحرضوا الثورات ذات الصبغة العصبية ضد الخليفة والسلطان وهم الذين مزقوا دولة الخلافة ومن ثم مزقوا بلاد العرب وأثاروا بينها النعرات والخلافات ثم توجوا انتصاراتهم بإلغاء الخلافة الإسلامية[١] وتمكنوا من غرز السهم القاتل في قلب بلاد المسلمين في فلسطين واصطنعوا لكل منطقة من بلاد المسلمين مشكلات مزمنة مستعصية الحل وصدق الله العزيز ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ . . . صدق الله العظيم.

* * *

(١) قال رئيس إرساليات التبشير الألمانية في تقرير وضعه عام ١٩٠٠ م:
«إن نار الكفاح بين الصليب والهلال لا تتأجج في البلاد النائية ولا في مستعمراتنا في آسيا وإفريقيا بل ستكون في المراكز التي يستمد الإسلام منها قوته وينتشر سواء أكان في إفريقيا أم في آسيا. وبما أن الشعوب الإسلامية تولي وجهها نحو الآستانة عاصمة الخلافة فإن كل المجهودات التي نبذلها لا تأتي بفائدة إذا لم نتوصل إلى قضاء لبانتنا فيها. ويجب أن يكون جل ما تتوخاه جمعية إرساليات التبشير الألمانية هو بذل مجهوداتها نحو هذه العاصمة وهي قلب العالم الإسلامي . . .».

الباب الثامن

تركيا العلمانية

إثر هدم الخلافة الإسلامية وإلغاء السلطنة العثمانية انفرد مصطفى كمال بحكم البلاد التركية. فبعد أن جرى تخطيط الحدود في تراقيا، حيث جعلت على محاذاة نهر (ماريتزا) أرجعت إلى اليونان بعض جزر بحر إيجة ثم جرى تبادل السكان فغادر ١,٣٠٠٠,٠٠٠ نصراني يوناني الأراضي التركية إلى اليونان وعاد في المقابل ٤٠٠,٠٠٠ مسلم من اليونان إلى بر الأناضول. وفي عام ١٣٤٣ هـ أوصت الأمم المتحدة بضم ولاية الموصل إلى العراق، ثم شكلت دولة تركيا نتيجة الحرب والتسوية السلمية أغلبية سكانها العظمى ينطقون بالتركية تحقيقاً لأحلام دعاة التعصب القومي والذين ظن الكثير منهم أن العصبية لا تتنافى مع المبادئ الإسلامية مما يدل على ضحالة الوعي الإسلامي عندهم وقد مشوا في ركاب مصطفى كمال على الرغم من اعتبارهم أنفسهم مسلمين من حيث المبدأ إذ ظهر جانب من العواطف الإسلامية عند بعضهم أثناء افتتاح المجلس الوطني الكبير بالاحتفالات الدينية التي رافقت ذلك. وحينها لم تظهر أية تلميحات عن الأتراك أو تركيا بل أكد الجميع على الحاجة إلى إنقاذ البلاد التي كانت مسلمة سابقاً. فبدأ ببناء النظام السياسي الجديد الذي رافق إلغاء السلطنة وإعلان الجمهورية في وسط معادٍ له ولأفكاره ومُوالٍ كل الولاء لآل عثمان حتى بين الكماليين أنفسهم مما أدى به إلى استغلال بعض الحوادث لمصلحته من بينها اضطرار وحيد الدين اللجوء إلى الحلفاء، ومع ذلك فإنه استبقى الفقرة من الدستور التي تنص على أن دين الدولة الإسلام حتى نيسان من عام ١٣٤٦ هـ حيث أزالها وأعلن العلمانية بصورة كاملة، وعندها أصبحت الجمعية الوطنية طوعاً في يديه وملكاً لإرادته على الرغم من

وجود بعض الجماعات المعادية له ولسياسته ضمت جانباً من أصحاب العاطفة الدينية والأعضاء السابقين لجمعية الاتحاد والترقي ولم يناصره من المجلس الوطني سوى ١٩٧ عضواً عرفوا باسم المجموعة الأولى مقابل أعضاء المعارضة الذين بلغ عددهم ١١٨ عضواً فقام بحل الجمعية الأولى في ١٦ نيسان من عام ١٣٤١ هـ ليجعل خصومه خارج الجمعية الثانية وعندها حكم حزبه الخاص والذي سمي فيما بعد بحزب الشعب الجمهوري واستمر في الحكم حتى عام ١٣٦٩ هـ كان خلالها يتفوق أبناء المدن ورجال المهن والوظائف في الانتخابات كافة بينما بقي الفلاحون الذين يشكلون الأغلبية الساحقة من أبناء الشعب في الصف المعارض لسلطته والمناصر للإسلام. والجدير بالذكر أن الانتخابات كانت لا تأتي إلا بالأفراد الذين يحصلون على دعم حكومي فكانت بظروفها تلك لا تمثل الشعب مطلقاً إذ تتساوى أصوات أهل العلم وأهل الجهل الذين ينقادون أو يتأثرون بالمصالح أو التوجيه أو بعض الأعطيات.

السياسة الكمالية في هدم الحياة الإسلامية:

بعد أن قام مصطفى كمال بإلغاء الخلافة الإسلامية كما مر معنا في عام ١٣٤٢ هـ وأقر الدستور الجمهوري المعارض للإسلام قام في العام نفسه بإلغاء المحاكم والمدارس الشرعية واستبدلها بأنظمة علمانية في الوقت الذي يقوم فيه أسياده الأوروبيون بتدريس التعليم الديني في مدارسهم ويهتمون بالمدارس الأهلية المخصصة له. كما ألغى القانون الإسلامي وتبنى قانون الأحوال الشخصية العلماني الخالص ثم ألغى الحروف العربية التي كانت تكتب بها اللغة التركية[(١)] واستبدلها بأحرف لاتينية فقطع كل صلة للشعب المسلم بماضيه الإسلامي إذ أن قرآنه

---

(١) من المعلوم أن العالم الإسلامي على الرغم من تأسيس دوله وإماراته المستقلة وذات السيادة والصبغة القومية وعلى الرغم من تأسيه بالمستعمرين بالبعد عن الإسلام فقد بقيت اللغات في تلك الدول تكتب بأحرف عربية ولم تجرؤ الدول الاستعمارية حتى المسيطرة منها على مساحات واسعة من ديار المسلمين أن تستبدل الأحرف بل أبقتها خوفاً من نقمة الشعب المسلم ولكن عندما تجرأ مصطفى كمال على إلغاء الحروف في بلده تجرأت الدول الأخرى وأولها هولندا في أندونيسيا وإنكلترا في ماليزيا وروسيا في بلاد التركستان والقفقاس على تغيير الحروف في مدة خمسة عشرة سنة ولم يبق اليوم في العالم الإسلامي من يكتب العربي سوى أهلها عدا الفارسية في إيران والبشتو في الأفغان والأردو في باكستان وفطاني وجنوب الفيليبين وفي حين تجرأت بعض دول الجامعة العربية وألغت الحروف العربية وارتكبت مجازر شنيعة لفرض ذلك كالصومال.

وحديثه وفقهه وجميع تراثه مكتوب بالأحرف العربية ونشأ بذلك جيل مبتور الصلة بالماضي الإسلامي العريق وتقهقرت الحياة الأدبية والثقافية والاقتصادية وتعذرت الكتابة إلا على القلة وقلّت الكتب والمجلات واندثرت الملايين من الكتب. ثم ألغى وزارة الأوقاف الإسلامية وتبنى التقويم الغريغوري الغربي (النصراني) إلى جانب التقويم الهجري في البداية ثم ألغى التقويم الهجري وترجم القرآن الكريم للتركية ففقد كل معانيه ومدلولاته وفرض السفور على المرأة المسلمة وألغى الحجاب ومنع لبس الطربوش وفرض ارتداء القبعة الأمر الذي كان له أثر ملفت للنظر ثم جعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد تشبهاً بالنصارى بدلاً من الجمعة ومنع ارتداء ملابس علماء المسلمين خارج المساجد وتخلص من الجماعات الإسلامية والمتصوفة الأمر الذي أدى إلى انفجار مروع وخاصة بعد الثورة الكردية لعام ١٣٤٤ هـ في الوضع الإسلامي داخل المجتمع. ثم إنه أغلق التكايا ولاحق الدراويش وحدد عدد المساجد وفرض على الخطباء الذين عينهم التكلم عن الزراعة والصناعة وسياسة الدولة وكيل المديح له في خطبة الجمعة ثم أخلى جامع أيا صوفيا ومسجد الفاتح ومنع التعبد فيهما وجعلهما متحفين ومن ضمن الآثار القديمة ثم خطط المدارس العلمانية على النمط الحديث وتبنى القانون الجزائي والمدني الأوروبي(١) فقال في أحد جلسات مجلس النواب: «إن التشريع والقضاء في أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لأحوال الزمان لا للمبادىء ولا للتقاليد». وشجع الحفلات الراقصة والمسارح المختلطة والرقص وتبنى طريقة الحياة الغربية ونبذ الأشكال الشرقية من الملابس وأدخل تلاوة القرآن بالتركية في المساجد وحول الأذان إليها وألغى قوامة الرجل على المرأة وأطلق لها العنان باسم الحرية والمساواة وقوّى روابط العصبية القومية بدلاً من الروابط الدينية ورفع القسم الديني من جامعة استانبول وسن قانوناً جعل اللقب إلزامياً وأعطته الجمعية الوطنية اسم كمال أتاتورك (أبو الأتراك) بدلاً من مصطفى كمال.

---

(١) يقول الكاتب الفرنسي موريس برنو المتحمس للقوانين التركية الأخيرة في كتابه (في آسيا الإسلامية): «... إذا نظرنا إلى القانون المدني الذي استعارته تركيا من سويسرا فهل يجهل مصطفى كمال أن هذا القانون ناشئ عن منبعين أحدهما روماني والآخر مسيحي. وهل يجهل الدور الذي تلعبه في هذا القوانين والعادات القديمة والعرف الجاري. لعمري إن كنا نريد أن نأخذ بمبدأ الغازي هذا لزم أن نقول أن على أهل كل عصر أن يلغوا الأحكام القضائية التي كان يعمل بها أهل العصر الذي سبقه وأن لا يعملوا إلا بأحكام جديدة بحجة أنها أوفق للزمان الذي يعيشون فيه!!.

تجلت سياسة أتاتورك في برنامج حزبه (حزب الشعب الجمهوري) لعام ١٣٤٩ هـ مرة ثانية في شباط عام ١٣٥٥ هـ والتي نص عليها الدستور التركي وهي المبادىء الستة التي رسمت بشكل ستة أسهم على علم الحزب وهي: (القومية ـ الجمهورية ـ الشعبية ـ العلمانية ـ الثورية ـ سلطة الدولة) وطبقاً لمبادىء الحزب تم تغيير المناهج المدرسية وأعيدت كتابة التاريخ من أجل إبراز الماضي التركي القومي كما جرى تنقية اللغة من الكلمات العربية والفارسية واستبدل الكثير من الكلمات بأخرى أوروبية أو أرجعت إلى أصول حثية واستمر ذلك التبديل حتى طرح مفهوم (شمس اللغات). كما جرى التخلي عن أهداف الجامعة الإسلامية والجامعة الطورانية والعثمانية في السياسة الدولية، وضم لواء اسكندرون إلى تركيا في عام ١٣٥٦ هـ واحتلته القوات التركية في عام ١٣٥٧ هـ وبحثت الحكومات التركية عن الحلفاء من الدول الصغرى ووقعت معاهدة البلقان ثم ميثاق سعد أباد مع إيران والعراق وأفغانستان.

وجعلت هذه النقاط زاوية الخلاف مع العرب إخوة الأمس تزداد انفراجاً ووجدت مشكلة الخلاف المستحكم بين هاتين الفئتين وهكذا خطط لها الغرب أو أراد.

تركيا بين ١٣٥٦ هـ - ١٣٦٨ هـ:

بعد موت أتاتورك عام ١٣٥٦ هـ جرى انتخاب ساعده الأيمن أينونو[1]

---

(١) عصمت أينونو: ولد في أيلول من عام ١٣٠٢ هـ في مدينة إزمير وهو ابن أحد المحامين وقد عمل كضابط في الجيش العثماني فكان يخدم بالأركان العامة للجيش التركي في اليمن وقاد الجيش الرابع أثناء الحرب العالمية الأولى في سورية عام ١٣٣٤ هـ وانضم إلى حركة مصطفى كمال بعد الحرب ثم انتخب عام ١٣٣٩ هـ كنائب ثم عين رئيساً للأركان لجيش مصطفى كمال بعد احتلال اليونان لغربي الأناضول وذاع صيته بعد معركتين جرتا قرب أنقرة (في أينونو) في كانون الثاني ونيسان من عام ١٣٣٩ هـ ثم عين وزيراً للخارجية في حكومة المجلس الوطني الكبير عام ١٣٤٠ هـ فمثل تركيا في مؤتمر لوزان وقد دعمه مصطفى كمال فحصل على بعض المكاسب أثناء المفاوضات. أصبح رئيساً للوزراء بعد إعلان الجمهورية التركية ثم انتخب رئيساً بعد وفاة أتاتورك فأصبح زعيماً لحزب الشعب الجمهوري أيضاً. أخذ مسؤوليته إزاء المشكلات الداخلية والخارجية بعد الحرب العالمية الثانية لإقامة حكم ديمقراطي وشجع تأسيس الحزب الديمقراطي عام ١٣٦٦ هـ حيث فاز هذا الحزب وحلّ بذلك (جلال بايار) محله كرئيس للجمهورية. قاد المعارضة من عام ١٣٧٠ ـ ١٣٨٠ هـ. شكل ثلاث حكومات ائتلافية بين ١٣٨١ ـ ١٣٨٥ هـ ثم هزم حزبه وانتقد بعدها من =

لرئاسة الجمهورية ومع اقتراب شبح الحرب العالمية الثانية طغت الشؤون الخارجية على سياسة الدولة. وحينما ابتدأت الحرب وبدت الانتصارات الألمانية المبكرة ثم الهجوم الألماني على روسيا، فأعاد ذلك للأذهان فكرة الرابطة التركية القديمة ولقي التحالف مع الألمان بعض الأنصار المؤيدين ولكن الحكم تمسك بالحياد. وعندما ظهر انهزام المحور بشكل حتمي دخلت تركيا الحرب في نهايتها إلى جانب الحلفاء لتكون شريكاً في المطالبة بالسيطرة على المضائق من جانب قوى البحر الأسود ولكن على الرغم من وقوفها إلى جانب الحلفاء فإن الروس اقترحوا عليها التخلي عن أراضي شرقي آسيا الصغرى كما طالبوا بضم مساحة كبيرة من شمالي شرق الأناضول إلى جورجيا السوفييتية وأن تقام فيها حكومة أكثر ديموقراطية مما أدى بها إلى البحث عن مساعدة الولايات المتحدة ونتيجة لذلك تسلمت المساعدات الأميركية اعتباراً من عام ١٣٦٧ هـ وجهزت بالقواعد من أجل تلقي المعونات العسكرية الضخمة المستمرة. وقد جرى تقوية الجيش الذي كان ذا حجم صغير في عهد أتاتورك. وارتفعت نسبة الإنفاق العسكري في مدة الحرب وقد ظهرت الأزمات الاقتصادية العنيفة والتي كان يتزايد خطرها يوماً بعد يوم وازداد التضخم المالي. ثم ظهر نوع من الإنفراج السياسي بعد الحرب وأعطي الناس بعض الحرية وازدادت نسبة المتعلمين وطالب أصحاب المهن ورجال التجارة بحرية أكبر وارتفعت أصوات المطالبة بالحرية أكثر فأكثر بعد انتصارات الحلفاء في الحرب فعمدت الحكومة للسماح بتشكيل أحزاب جديدة ونادت بحق الاقتراع للمرأة ونشأ الحزب الديموقراطي في عام ١٣٦٦ هـ من انشقاق حصل داخل صفوف حزب الشعب الجمهوري، وحاز الدعم الكبير فوراً وفاز في الانتخابات النيابية على الرغم من تدخل الحكومة فلجأ الحكام إلى اضطهاده وعلى رأسهم رئيس الوزارة (رجب بكر) فتدخل رئيس الجمهورية (عصمت إينونو) فاستقال (رجب بكر) وتسلم رئاسة الوزارة (حسن السقا) وهو الأكثر حرية من سابقه ثم تسلم بعده الوزارة (شمس الدين غونالتاي) ١٣٦٩ - ١٣٧٠ هـ ثم خففت القيود على الحرية السياسية وكذلك الرقابة على الصحف المستقلة نتيجة الاضطرابات الشعبية

= قبل الكماليين والاشتراكيين إذ أعلن إثرها عن اتجاه يسار الوسط فشكل المعارضون حزب الثقة عام ١٣٨٧ هـ. استبدل أينونو عام ١٣٩٢ هـ كزعيم لحزب الشعب الجمهوري بالسيد بولاند أجاويد زعيم اتجاه اليسار الراديكالي في الحزب. توفي عام ١٣٩٣ هـ في أنقرة.

وظهرت الصحف المستقلة واتخذت إجراءات بإعادة توزيع الأراضي ولكن ذلك بقي حبراً على ورق. ثم تشكلت أحزاب سياسية أخرى منها الحزب القومي المحافظ (١٣٦٨ هـ) وأخمدت بشدة الحركات الشيوعية والاشتراكية.

استطاع الحزب الديموقراطي إعادة تنظيم نفسه في جو الانفتاح هذا إذ وجد مجالاً فسيحاً في الأرياف خاصة حيث لا يملك حزب الشعب الجمهوري إلا القليل النادر من الشعبية نظراً لنزعته الإلحادية والمعادية للإسلام على الرغم من كونه دائماً حزب الدولة. واستجاب الديموقراطيون لمصالح السكان المحلية فحققوا نصراً انتخابياً ساحقاً وراح ذلك الحزب يتبنى السياسة الأميركية وحصل على الدعم الأميركي المتعدد الأشكال واكتسب بعض الشعبية بسبب عداء حزب الشعب الجمهوري للدين وبسبب الحرية الاقتصادية والتغيير الاجتماعي.

ثم أصبح جلال بايار[1] الديموقراطي رئيساً للجمهورية وشكل الوزارة (عدنان مندريس) حيث أصبح لأول مرة منصب رئيس الوزارة يفوق في الأهمية منصب رئاسة الجمهورية في ظل الديموقراطيين الذين رأوا تدعيم تدخل الدولة الاقتصادي ولكن بقيت الأزمات والكوارث الاقتصادية في ترد مستمر.

---

(١) جلال بايار: هو محمود جلال ولد عام ١٣٠٤ هـ قرب (بورصة) وهو ثالث رئيس جمهورية تركي (١٣٧٠ - ١٣٨٠ هـ) وقد أصبح قائد الحزب الديمقراطي بعد عام ١٣٦٦ هـ، بنى سياسة المشروعات الخاصة. دخل بايار وهو ابن المفتي مدرسة إفرنسية يهودية في بورصة حيث درس الاقتصاد والمالية ثم عمل في فرع بنك الشرق الألماني في بورصة وكرس وقت فراغه لجمعية الاتحاد والترقي المحلية الموجهة ضد عبد الحميد. وبعد عام (١٣٢٦ هـ) أصبح أمين فرع إزمير. ثم انضم لحركة مصطفى كمال بعيد انهيار الدولة العثمانية ونظم القوى القومية في (إزمير وبورصة) في غربي الأناضول وفي عام ١٣٣٩ هـ انتخب عضواً في آخر برلمان عثماني كنائب عن إزمير ثم هرب إلى أنقرة ومكنته خبرته من تولي وزارة الاقتصاد عام ١٣٤٠ هـ وحينما أعلنت الجمهورية أصبح وزيراً للإعمار والاستيطان ثم استقال عام ١٣٤٣ هـ وبعدها أصبح وزيراً للاقتصاد ثم أصبح رئيساً للوزراء عام ١٣٥٦ هـ ولكنه استقال في كانون الثاني من عام ١٣٥٨ هـ بعد موت أتاتورك لعدم موافقته على إجراءات أينونو الاقتصادية واستقال من حزب الشعب الجمهوري ونظم حزب المعارضة الديمقراطي. انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٣٧٤ هـ واعتقل أثناء الانقلاب العسكري عام ١٣٨٠ هـ وحكم عليه بالإعدام عام ١٣٨١ هـ ولكن خفف الحكم لتقدمه بالسن ثم أطلق سراحه عام ١٣٨٤ هـ.

الحكم الديموقراطي من عام ١٣٧٠ - ١٣٨٠ هـ:

أدى التدهور الاقتصادي إلى الانتقادات المريرة داخل الحزب وخارجه فبدأت الحكومة في سلوك سياسة القمع وصادرت معظم ممتلكات الحزب الجمهوري عام ١٣٧٣ هـ وأغلقت مؤسساته وصحفه في أنقرة واستانبول وحلت الحزب القومي أيضاً لأنه عارض المبادئ الكمالية ولكنه عاد لتوه وتشكل تحت اسم آخر هو (الحزب القومي الجمهوري) بعد اتحاده مع حزب الفلاحين الجمهوري عام ١٣٧٨ هـ. ثم فرضت عام ١٣٧٤ هـ غرامات فادحة على الصحفيين الذين يحطون من قدر الدولة أو يقومون بانتهاك القانون وفرضت قوانين جديدة في عام١٣٧٦ هـ وضيق في العام نفسه على أساتذة الجامعات والقضاة والموظفين المدنيين بصورة عامة. وطرد من قام بالنقد من أعضاء الحزب الذين شكلوا في عام ١٣٧٥ هـ ما يعرف باسم حزب الحرية الذي اندمج عام ١٣٧٨ هـ مع حزب الشعب الجمهوري. ثم فرضت القيود على الاجتماعات الجماهيرية عام ١٣٧٦ هـ. أدت هذه السياسة القمعية إلى خسارة الديموقراطيين لشعبيتهم وقد برز ذلك واضحاً في نتائج انتخابات عام ١٣٧٧ هـ إذ حاولت أحزاب المعارضة الرئيسية تشكيل ائتلاف انتخابي ولكن القانون الذي صدر في أيلول عدّه غير شرعي وبذلك حرموا من تحقيق نصر ممكن لهم، ثم اشتدت هجمات المعارضة على الحزب الديموقراطي واتهم بانتهاكه للدستور مما أدى به إلى تشديد قبضته ومضاعفة سيطرته خوفاً من اندلاع لهيب الثورة ضده ووجه التهمة في عام ١٣٧٩ هـ إلى كثير من الأبرياء بالاشتراك بما دعي بمؤامرة الضباط التسعة واتهمهم بالارتداد عن مبادئ العلمانية والميل إلى جانب المنظمات الدينية الإسلامية. وبالفعل فقد تساهل الديموقراطيون بعض الشيء في سياستهم الكمالية أسوة بما فعل حزب الشعب الجمهوري بدءاً من عام ١٣٦٩ - ١٣٧٤ هـ تحت إلحاح شعبي أرغم كلا الحزبين على التراجع عن بعض العداء ضد الإسلام. وقد أعيد الأذان إلى الأداء باللغة العربية وسمح بتلاوة القرآن الكريم بالإذاعة وامتد التدريس الديني إلى المدارس وسمح بافتتاح المدارس الشرعية وافتتحت كلية الدين الإسلامي في أنقرة وجرى تراجع عن بعض المبادئ العلمانية ولكنهم أظهروا بوضوح عدم رغبتهم بالتسامح في إشراك الدين بالسياسة واستمروا في إخماد الجماعات الإسلامية الهادفة إلى استئصال حكم الجاهلية. وفي نيسان من عام

١٣٨٠ هـ أمرت الحكومة الجيش بمنع (عصمت أينونو) من شن حملته الانتخابية في قيصرية وشكلت لجنة للتحقيق مع حزب الشعب الجمهوري واعتقد الناس أن الخطوة التالية ستكون إيجابية ولكن فوجىء الجميع بإعلان الأحكام العرفية في ٢٨ نيسان وتدخل الجيش مباشرة ومنعت المظاهرات.

الجيش في الحكم:

لقد خشي بعض الحاقدين على الإسلام من رفاق أتاتورك العودة إلى الصف الإسلامي وضرب العلمانية فرأوا أن الجيش هو الحل الأنسب لحفظ مكتسباتهم وبدافع من القوى الأجنبية المعادية، طالب قائد القوى البرية الجنرال جمال جورسيل في ٣ أيار من عام ١٣٨٠ هـ بإصلاحات سياسية.

وعد نفسه مستقيلاً في حال عدم التنفيذ. وتحرك الجيش في ٢٧ أيار وقلب السلطة سلمياً باشتراك بعض الضباط وطلاب الكلية الحربية في استانبول وأنقرة وأسس زعماء الانقلاب ما يدعى بلجنة الوحدة الوطنية المؤلفة من ٣٨ رجلاً برئاسة جورسيل نفسه. واقتيد قادة الديموقراطيين إلى السجون[١]. ومنذ بداية الحركة تجلى الإنقسام الواضح في صفوف عناصرها وبرزت مجموعتان: الأولى وغالبيتها من صغار الضباط وكان رأيهم يتلخص في الاحتفاظ بالقوة العسكرية المسيطرة لعدة سنين وهي مجموعة ذات اتجاهات متباينة أيضاً إذ شملت الإسلاميين والقوميين العلمانيين. أما المجموعة الثانية فتألفت من الضباط الأعلى رتبة وقد رغبوا في سحب الجيش من الخضم السياسي حالما تسمح الظروف بذلك. ولكن النزاع حسم لصالح المجموعة الثانية دون الأولى وطرد الكثير من أعضاء الفئة الأولى وأرسلوا كديبلوماسيين إلى المنفى. وانصبَّ معظم جهد لجنة الوحدة الوطنية على تدمير الحزب الديموقراطي والتحضير لدستور جديد وجرت بالفعل تصفية لـ ٥٠٠٠ ضابط بينهم ٢٦٠ برتبة جنرالات طرد منهم أو أحيل إلى التقاعد ٢٣٥، ثم استقال ١٤٧ أستاذاً جامعياً ونفي ٥٥ رجلاً من كبار ملاك الأراضي في شرقي الأناضول وصودرت أراضيهم ومنع الحزب الديموقراطي في

---

(١) لقد أصبح من المعروف أن الذين يعملون خلف الانقلابات العسكرية إنما يمدون أصابعهم ويحركون دُماهم العسكرية عندما يخشون أن تقوم هزة في البلاد أو انتفاضة دون علمهم وعندها يخسرون بذلك الوقت حتى يستطيعون اصطناع أنصار جدد لهم.

خريف عام ١٣٨٠ هـ وسيق الكثير من أعضائه إلى المحاكم بتهمة الفساد والرشوة والحكم غير الدستوري والخيانة العظمى وأعدم ثلاثة وزراء سابقين من بينهم (مندريس) واستبدل حكم الإعدام الصادر بحق (جلال بايار) بالسجن مدى الحياة. ثم ابتدأ العمل لسن الدستور الجديد فشكلت لجنة مؤلفة من خمسة أشخاص بعد الانقلاب مباشرة لإعادة وضع مسودة دستور جديد وتقدمت إلى الجمعية التأسيسية المجتمعة في شتاء عام ١٣٨١ هـ وأنهيت الأعمال في أيار وصودق على المسودة في استفتاء جرى في تموز، وقد نص على تشكيل مجلسين برلمانيين وإجراء الانتخابات بالتمثيل النسبي وانتخاب الرئيس من قبل مجلسي الشيوخ والنواب ونهض بأعباء المحكمة الدستورية وهيئة تخطيط الدولة. ثم عقدت الانتخابات الأولى في خريف عام ١٣٨١ هـ وانسحب الجيش من الحلبة السياسية بصورة مباشرة على الرغم من استمرار تأثير أعضاء لجنة الوحدة الوطنية في مجلس الشيوخ.

الحياة الانتقالية ١٣٨١ - ١٣٨٥ هـ:

حصل حزب العدالة الذي تشكل حديثاً بقيادة (راغب جوموسبالا) الجنرال المتقاعد على نسبة ٣٥٪ من الأصوات بينما لم تحرز بقية الأحزاب على الأغلبية وضاعت أصوات الحزب الديموقراطي بين الأحزاب الصغيرة وانصب قسم كبير منها إلى صالح حزب العدالة الذي ظهر أنه الحزب الأكبر في مجلس الشيوخ. ثم انتخبت الجمعية الوطنية الجنرال (جمال جورسيل) رئيساً للجمهورية وشكل (عصمت أينونو) الجمهوري حكومة ائتلاف مع حزب العدالة بينما شكل حزب الشعب الجمهوري ائتلافاً مع حزبين صغيرين. ثم جرت في عام ١٣٨٣ هـ انتخابات محلية ربح فيها حزب العدالة كثيراً مما أدى إلى ارفضاض الائتلاف، وشكل (أينونو) حكومة أقلية من حزبه الخاص، فقط، بسبب عدم قدرة حزب العدالة على تشكيل حكومة، ولكنها استقالت في عام ١٣٨٥ هـ فاستبدلت بحكومة ائتلافية من كافة الأحزاب الأخرى برئاسة الشخصية المستقلة (سعاد خيري أورغو بللو) واستمر في الحكم مدة قصيرة. ثم جرت انتخابات في كانون الأول ربح فيها حزب العدالة وبأغلبية ساحقة وتمكن زعيم الحزب الجديد المهندس (سليمان ديميريل) من تشكيل الحكومة.

وتميزت المدة بين عام ١٣٨١ - ١٣٨٥ هـ بالاعتدال بالسياسي فوقف

الجيش بمعزل عن السياسة وحقق حزب العدالة نصراً ساحقاً واستمر التأييد الجماهيري له خاصة في مناطق نفوذ الديموقراطيين وقد رفض تدخل الضباط القدامى وأحبطت محاولتين انقلابيتين في شتاء ١٣٨٢ هـ وصيف ١٣٨٣ هـ وقبض في ربيع عام ١٣٨٣ هـ على مجموعة سرية أخرى في الجيش عرفت باسم (الكماليون الفتاة) من ذوي الميول اليسارية. ثم سار الاتجاه نحو الحرية وأطلق سراح الديموقراطيين وسمح لملاك الأراضي وأساتذة الجامعات بالعودة لممارسة حياتهم اليومية، وامتصت نقمة بعض اليساريين العسكريين بإدخالهم في أجهزة الحكم والسياسة، وتحول العلمانيون إلى حزب الفلاحين الجمهوري (أحد شقي حزب فلاحي الأمة الجمهوري القديم المنشق عام ١٣٨٢ هـ) وظهر على مسرح السياسة لأول مرة الأثر الماركسي إذ تشكل حزب العمال التركي عام ١٣٨١ هـ وسيطر عليه الماركسيون وتبنى سياسة اشتراكية ومحايدة وربح من الأصوات ٣٪ و ١٥ مقعداً في عام ١٣٨٥ هـ. ثم عاد الرصيد السياسي إلى جانب عصمت أينونو الذي استغل نفوذه لدى الجيش ليتفادى تدخله في السياسة ولكي يمنع حزبه الخاص من تأييد سياسات قد تكون خطرة على الحياة البرلمانية.

التطور السياسي من عام ١٣٨٥ - ١٣٩٠ هـ:

لقد عمل حزب العدالة على تصنيع البلاد وسن قوانين الرفاهية ليسد الطريق على حزب العمال التركي ونشاطات الاتحادات التجارية والاضطرابات الطلابية ولكن المصادمات أصبحت هي الصورة المألوفة يومياً للحياة التركية العادية. وابتداء من عام ١٣٨٠ هـ جرت اشتباكات بين الجناح اليساري ومعارضيه من قوميين ومسلمين أدت إلى اختلالات أمنية وعدم استقرار البلاد. وكانت العلاقات بين حزب العدالة وحزب الشعب الجمهوري سيئة إذ اتهمت المعارضة حزب العدالة بتقريب المنظمات الإسلامية غير القانونية لمصلحته. واعتمد ذلك الحزب فعلاً على بعض الدعم الإسلامي وخاصة بين الفلاحين كما أيده ذوو المهن ورجال الأعمال ومع ذلك فقد بذل مهارة فائقة ليكون في طريق الاعتدال من أجل منع تدخل عسكري جديد. وبينما كان (ديميريل) يسلك سياسة الاعتدال السياسي فإن حزب الشعب الجمهوري تحرك إلى موقع جديد سمي بيسار الوسط ورجع بذلك إلى عهد أتاتورك إذ كان يوجد آنئذٍ إتحاد لمثقفي المدن ومالكي الأراضي الأغنياء من شرقي الأناضول الأمر الذي جعل من الصعب

عليه دعم الإصلاح الجذري للأراضي، وقد تبنى ذلك الحزب في عام ١٣٨٦ هـ سياسة الديموقراطية الاشتراكية مما أدى إلى انسحاب العديد من المحافظين وتشكيلهم حزب الثقة صيف ١٣٨٧ هـ. وفي الانتخابات التالية ربح الحزبان الرئيسيان مقاعد أكثر مما كان لهما في المجلس السابق وفشلت الأحزاب اليسارية وتخلف حزب العدالة وازداد التطاحن داخله وسقطت الحكومة في شتاء عام ١٣٩٠ هـ وتشكلت حكومة جديدة برائسة (ديميريل) كانت تنقصها الأغلبية وهي ضعيفة.

لقد حدثت بعض التطورات الاقتصادية والاجتماعية في هذه المدة فازداد معدل النمو الاقتصادي زيادة بسيطة وفشلت الزراعة وزادت الوسائل الصناعية بمعدل بسيط وبرزت مشكلات بسبب التوظيف المالي الضخم وأصبحت العملة الصعبة التي يجنيها العمال الأتراك من أوروبا ذات أهمية وخفضت العملة عدة مرات وقويت الرغبة في دخول السوق الأوروبية المشتركة. أما معدل التعليم فارتفع قليلاً باستثناء الثانوي وظهر بعض التحول نحو الأمية وتطور نظام النقابات وأخذ الإضراب مكانه بعد عام ١٣٨٢ هـ وجرى توسيع جهاز الدولة واستقدم الكثير من العناصر من شرقي ووسط الأناضول.

أما في مجال السياسة الخارجية فقد قوّى التحدي الروسي انحياز تركيا إلى جانب حلف شمالي الأطلسي وقام الديموقراطيون بتحقيق ذلك في أيلول من عام ١٣٧١ هـ على الرغم من عدم حصولهم على العضوية الكاملة إلا فيما بعد وتظاهر مندريس بتأييد الغرب حينما أرسل الجنود إلى كوريا لمساعدة قوات الأمم المتحدة عام ١٣٧٠ هـ وانضمت تركيا إلى منظمة التعاون الاقتصادي والمجلس الأوروبيان وعقدت اتفاق صداقة مع اليونان ويوغسلافيا في شباط ١٣٧٣ هـ تحول فيما بعد في عام ١٣٧٤ هـ إلى حلف البلقان ثم تحول الحلف المشترك للمساعدة مع الباكستان عام ١٣٧٤ هـ إلى حلف بغداد بتوقيع الميثاق العراقي التركي في شباط من عام ١٣٧٥ هـ وانضمت إليه باكستان وبريطانيا ووقع اتفاق منفصل مع الولايات المتحدة.

أما مع العرب فكانت العلاقات فاترة (عدا العراق قبل ١٣٧٨ هـ) وحدثت خلافات مع مصر وبقيت إسكندرونة مصدر خلاف مع سوريا إذ أخذت القوات التركية وضعية التهديد على الحدود السورية (١٣٧٦ ـ ١٣٧٧ هـ) وقد

نصحتها أمريكا بالعدول عن التدخل المسلح أثناء الثورة العراقية (١٣٧٨ هـ) ثم حدث خلاف مع العراق بسبب الأكراد.

تركيا حتى يومنا الحاضر:

منذ الانتخابات العامة التي جرت في عام ١٣٩٣ هـ تعرضت البلاد التركية لأزمات سياسية لم تنته إلا عندما تشكلت حكومة دائمة. وبالتعاون مع زعيم حزب الخلاص الوطني الإسلامي نجم الدين أربكان شكل بولاند أجاويد حكومة ائتلاف.

وعدت الحكومة الجديدة بإصدار عفو عام شمل المتهمين السياسيين والدينيين. كما تعهدت بضمان حرية الفكر والتعبير والكتابة والنشر. وحينما عرضت قائمة المشمولين بالعفو العام على الجمعية الوطنية في ربيع العام ذاته، قام بعض الأعضاء من حزب الخلاص بالاعتراض على بعض البنود الخاصة بالسجناء السياسيين. فلوح أجاويد بالاستقالة. ولكن المحكمة الدستورية نقضت قرار الجمعية الوطنية.

وفي الوقت ذاته فقد استمر التوتر مع اليونان حول الجرف القاري في بحر إيجه وحول التنقيب عن البترول هناك. ثم حصل انقلاب في قبرص ضد مكاريوس. فتدخلت تركيا. وسنفصل في أحداث المشكلة القبرصية بعد قليل. عاقب الأميركيون تركيا على تدخلها في قبرص لمصلحة المسلمين القبارصة وقرر الكونغرس وقف المساعدات لها.

ثم قدمت حكومة أجاويد استقالتها ولم يفلح في تشكيل وزارة ائتلاف أخرى وكذلك فقد فشل سليمان ديميريل زعيم حزب العدالة في المهمة ذاتها. وعندها دعي السيد سعدي إرماق (المستقيل) لتشكيل حكومة انتقالية ريثما تجري انتخابات جديدة. ولكنه عاد فاستقال لحجب الثقة عنه عند التصويت، على الرغم من استمراره بأداء مهمته إلى أن تشكلت حكومة جديدة.

ثم أقام حزب العدالة بقيادة سليمان ديميريل جبهة وطنية ضمت ثلاثة أحزاب أخرى هي الخلاص الوطني - الثقة الجمهوري - العمل القومي.

وفي الوقت نفسه ازدادت التوترات السياسية والمصادمات، فطلب

كوروتورك رئيس الجمهورية في ١٨ صفر عام ١٣٩٥ هـ تأييد رئيس الوزراء المستقيل سعدي إرماق الذي أعاد تكليفه بيد أنه أخفق في ذلك من جديد فكلف ديميريل بتشكيل الوزارة الجديدة. ثم استأنفت الجبهة الوطنية أعمالها ومارس ديميريل مهماته كرئيس للوزراء. وأقرت الجمعية الوطنية برنامج الحكومة الجديدة، وفاز حزب العدالة في الانتخابات الجديدة.

ثم ازدادت التوترات وأعمال التخريب والقتل. وتوقفت الدراسة في الجامعات بسبب المصادمات بين المسلمين وأعدائهم من الشيوعيين والملحدين. وتورطت قوات الأمن وازداد سفك الدماء وخاصة في شرقي البلاد وفي ملاطية وغازي عينتاب. وحدث تمرد في شرقي البلاد أيضاً. وحاول اليساريون تنظيم اضرابات ضد الحكومة باستغلالهم اثنين من الاتحادات العمالية بحجة تشكيل المحاكم الأمنية. فتصدت لهم الحكومة وقبضت على بعض قادة الاتحاد وأغلقت بعض المعاهد والمؤسسات الشيوعية وعزلت محافظ أنقرة.

وازدادت العلاقات مع اليونان سوءً بسبب النزاع القائم حول بحر إيجة وللسيطرة الجوية على البحر. وقدمت في ذي القعدة عام ١٣٩٦ هـ اقتراحات من قبل وزير الخارجية التركي (إحسان صبري شكلايانكل) تقضي بتشكيل حكومة مؤقتة في قبرص فرفضت، وتجمدت المسألة القبرصية.

وكان قد وقّع الأتراك والأميركان في ربيع العام نفسه اتفاق تعاون دفاعي يقضي بدفع بليون دولار كمساعدة عسكرية أميركية لمدة أربع سنين مقابل إعادة فتح ٢٥ قاعدة عسكرية أميركية في تركيا، ولكن تحت السيادة التركية هذه المرة.

واستمرت العلاقات بالتحسن مع الروس. ووقعت اتفاقيات لبناء السدود وتشغيل الطاقة الكهربائية. وسمح الأتراك لحاملة الطائرات الروسية «كييف» بعبور مضيق الدردنيل في طريقها من البحر الأسود إلى بحر إيجة.

أما مع العالم الإسلامي فقد استضاف الأتراك مؤتمر وزراء الخارجية المسلمين السنوي في استانبول في شهر أيار عام ١٩٧٦ م. ودعم المؤتمر سياسة تركيا إزاء المشكلة القبرصية وأعلن الأتراك عزمهم السماح بافتتاح مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية في أنقرة.

وفشل الأوروبيون بإقناع الأتراك فيما يتصل بأمور التجارة والاقتصاد

والعلاقة مع السوق الأوروبية المشتركة التي ترتبط بها تركيا باتفاق. وجرت مفاوضات صعبة دون جدوى. والجدير بالذكر أن القادة العلمانيين الذين يتسلطون على مقدرات الشعب المسلم في هذه البلاد أو يتناوبون في توجيه دفته كانوا ولا يزالون يبذلون المستحيل وحتى إنهم كثيراً ما أراقوا ماء وجوههم إزاء دول أوروبا كي تقبل بهم في قافلتها أو تعترف على الأقل بانسلاخهم عن العالم الإسلامي واتجاههم إليها ولكن الأحداث ثبتت عكس ما يريدون. وأن أوروبا لا تقبلهم لأنها تعلم أن في تلك البلاد شعباً مسلماً ولا بدّ أن ينهض يوماً ما ويعيد الحق إلى نصابه ويرجع الإسلام إلى مجده التليد. أدى الصراع بين أعداء الإسلام ودعاته ذلك الذي يأخذ شكل نزاع بين يمين ويسار كما يدعون إضافة إلى المصاعب الاقتصادية الراهنة بالعديد من الأرواح البريئة أن تزهق وإلى شلل الحياة الجامعية بشكل تام. كما أدى الخلاف بين ديميريل وشركائه في الائتلاف إلى تقديم موعد الانتخابات العامة حتى رجب عام ١٣٩٧ هـ.

ورافق الحملة الانتخابية منتهى العنف. وقتل ماينوف عن ثلاثين مواطناً في استانبول عندما تحرش الشيوعيون في عيد أول أيار بأعدائهم. وشملت الثورة العديد من المقاطعات وهرع أجاويد زعيم المعارضة لزيارتها. ثم جرت الانتخابات وتقدم حزب الشعب الجمهوري على حزب العدالة وشركائه. واستغل أعداء الإسلام المعركة الانتخابية أبشع استغلال في سبيل عدم تقدم حزب الخلاص الوطني ولا غرابة فالإسلام يرهبهم.

وطلب فخري كوروتورك رئيس الجمهورية من أجاويد تشكيل الحكومة الجديدة ولكنه هزم فاستقال. ونجحت الجبهة الوطنية المتكونة من حزب العدالة - الخلاص الوطني الإسلامي - حزب العمل القومي - بقيادة سليمان ديميريل. وحازت الثقة في ١ آب. ثم استمرت أعمال القتل السياسي. واضطربت الدراسة في الجامعات عندما افتتحت وظهرت المشكلات الاقتصادية وجابه الائتلاف المصاعب الجمة العاجلة واستقال ثلاثة وزراء من حزب العدالة. ففاز حزب الشعب الجمهوري في انتخابات محلية. ثم استقال بعد وقت قصير عدد من أعضاء الجمعية الوطنية من حزب العدالة فاستقالت حكومة ديميريل وتمهد السبيل أمام أجاويد ليقوم بمحاولة أخرى.

واشتركت كل من تركيا واليونان في مناورات حلف شمالي الأطلسي للمرة

الأولى منذ بضع سنوات. وتشكلت حكومة أجاويد الجديدة في ٢٦ محرم عام ١٣٩٨ هـ بعدما هزم ديميريل في ٢١ محرم. وشغل حزب الشعب الجمهوري معظم الحقائب الوزارية وأهمها. وسرعان ما انسحب حزب الثقة الجمهوري ثم حدثت أخطر الاضطرابات الشعبية وتركزت حول مدينة مرعش مخلفة وراءها أكثر من ٩٧ قتيلاً وألف جريح، ودمر قسم من المدينة وأعلنت الأحكام العرفية إثرها في استانبول وأنقرة وإحدى عشرة ولاية شرقية.

ثم زار أجاويد موسكو في ١٦ رجب من العام نفسه ووقع اتفاقاً للصداقة والتعاون والتجارة مع السوفيات.

وللأسلوب الخاص الذي عالج به رئيس الوزارة أحداث مرعش ولتفاقم المشكلات الاقتصادية والاجتماعية تعرض لهجوم عنيف من قبل سليمان ديميريل فسقطت وزارته في ذي القعدة. ولكنه عاد فنال الثقة ولكنه لم يكن قادراً على وقف الاضطرابات الطائفية والسياسية التي تفاقمت. وفي ٢٨ جمادى الأولى شملت الأحكام العرفية ١٩ ولاية بما فيها المناطق الكردية. وأثناء حكم أجاويد الذي امتد اثنين وعشرين شهراً كرئيس للوزراء تعرضت البلاد لألفي حادثة اغتيال سياسي. ونفر منه مؤيدوه اليساريون لمنعه التظاهر في يوم أول أيـــار. واستقال عدد من الوزراء وتبعهم أجاويد نفسه وطلب من ديميريل تشكيل الوزارة.

وفي ١٨ شعبان من عام ١٣٩٩ هـ احتل الفدائيون الفلسطينيون مكتب السفارة المصرية في أنقرة وقتل اثنان من رجال الشرطة فضلاً عن وفاة أحد الديبلوماسيين المصريين. ولكن الحكومة التركية نفذت قرارها السابق بالسماح لمنظمة التحرير الفلسطينية افتتاح مكتب لها في أنقرة.

وفي خريف عام ١٤٠٠ هـ حدث انقلاب عسكري بقيادة الجنرال كنعان أفرين وتشكل مجلس الأمن القومي التركي الذي يضمه وأربعة من الضباط الآخرين واتخذت بعض الإجراءات الاقتصادية فانخفض التضخم وأوقف العمل ببعض المشاريع العامة كما أعيد النظر في قيمة الليرة التركية. وقام الجيش بحملة تطهير واسعة لوقف نشاط المنظمات الإرهابية وألقي القبض على حوالي ١٨ ألف مواطن وقضي على ٤٤ منظمة يسارية إرهابية وعشر منظمات يمينية. وقدم للمحاكمة ٤٤٧ كردياً بتهمة محاولة إقامة دولة شيوعية منفصلة. وزاد الغرب

وخاصة ألمانيا الغربية من دعم نظام الحكم الجديد بغية إعادة الاستقرار للبلاد والمحافظة على النظام الموالي له.

وأخيراً فإن قادة الانقلاب الجدد باستلهامهم مبادئ أتاتورك العلمانية والمعادية للإسلام يشدون بذلك وثاق ربط تركيا بالغرب من جهة ويقومون باضطهاد قادة الفكر الإسلامي أمثال نجم الدين أربكان من جهة أخرى[1].

أما (طورغوت أوزال) الذي خلف أفرين، فقد انتهج سياسة التماسك والالتزام مع الغرب وفي الوقت ذاته المحافظة على علاقات اقتصادية وتجارية مع الدول الإسلامية لذا انهالت عليه المساعدات من الغرب ودول النفط العربية.

أما المشكلة الرئيسية التي بقيت ولا تزال فهي مشكلة قبرص:

قلنا سابقاً أن انكلترا قد احتلت قبرص والتي كان أكثر سكانها من المسلمين فعملت على إضعافهم بتشجيع هجرة النصارى إلى الجزيرة وضيقت في الوقت نفسه على المسلمين مما أدى إلى انخفاض عددهم تدريجياً واستمر ذلك حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى حيث كانت لا تزال تتبع الدولة العثمانية إسمياً. وبعد انهزام ألمانيا وحلفائها في الحرب وتوقيع معاهدة لوزان عام ١٣٤٤ هـ تنازلت تركيا عنها فعينت إنكلترا معتمداً عنها هناك وشكلت لها مجالس خاصة. ثم وقعت أحداث دامية عام ١٣٤٩ هـ أنشأت بريطانيا إثرها مجلساً تشريعياً ضم الذين يتعاونون معها فعم الرخاء وأصبحت قاعدة تجارية مارس اليهود فيها دوراً كبيراً، ثم تشكلت فيها عدة أحزاب إثر الحرب وذهب وفد قبرصي للمطالبة بحق تقرير المصير عام ١٣٦٦ هـ وبرز المطران مكاريوس على المسرح السياسي وانتخب رئيساً، للأساقفة وحاولت اليونان بالتعاون معه عرض القضية على الأمم المتحدة دون جدوى فبدأت أعمال التخريب ولجأ اليونانيون إلى ممارسة أعمال العنف ضد المسلمين والانكليز وتدفقت الأسلحة من اليونان إليها لتسليح النصارى والتقى المتطرفون وشكلوا منظمة أيوكا (الجبهة الوطنية لتحرير قبرص) وبدأ العنف وقامت

---

(١) قبل خمسة أيام من وقوع انقلاب كنعان أفرين، شهدت مدينة قونية التركية اجتماعاً من خمسين ألف متظاهــر، وخلال عـزف النشيد الوطني لم يقم أحد احتراماً له، بينما كانت الأعلام الخضراء مرفوعة وعليها عبارات عربية، وانطلقت شعارات معادية لأتاتورك، فلم يتحمل العسكريون هذه الإهانة.

مظاهرات في تركيا ضد اليونان واهتم الأميركيون بالأمر فاعتذرت تركيا رسمياً لليونان عن أعمال العنف ولكن الإرهاب استمر، فقامت انكلترا بنفي مكاريوس وثلاثة من أعوانه بغية تسليط الأضواء على هذه الشخصيات وإعطائهم حكم الجزيرة في المستقبل. واتخذ الانكليز من الجزيرة قاعدة للقوات البريطانية والفرنسية التي نزلت في قناة السويس عام ١٣٧٦ هـ ورأت تركيا أن الأكثرية التي تقطن الجزيرة ليست من أصل قبرصي وإنما هاجرت إليها في المدة الأخيرة، وبالتالي فليس لهذه العناصر حق تقريرالمصير وإنما الحق يجب أن يكون للسكان الذين هم من أصل قبرصي. ورأت بقاء الجزيرة مستقلة وذات حكم ذاتي يضمن حقوق القبارصة الأتراك بشكل يمكن به التعايش بين الأتراك واليونان، ثم عادت واقترحت التقسيم بينما أصرت اليونان على الاستفتاء. ولكن الفتنة لم تهدأ واستمرت حتى عام ١٣٧٩ هـ حيث تم الاتفاق في مؤتمر (زوريخ) الذي حضرته كل من تركيا واليونان وانكلترا على أن تكون قبرص جمهورية مستقلة رئيسها من النصارى اليونانيين ونائبه من المسلمين الأتراك ولهما حق الرفض لأي قانون. واحتفظت انكلترا بقاعدتين عسكريتين في الجنوب ودخل مكاريوس الجزيرة وجمعت أسلحة (أيوكا) ونجح رئيس الأساقفة في انتخابات الرئاسة كما فاز كوتشوك بمنصب نائب الرئيس عن الجالية التركية كما فاز مكاريوس ضد زعيم حزب اتحاد قبرص الديموقراطي (جون كلاريديس) الذي أيده الشيوعيون وقامت الدولة على أساس ديني فعلاً وديموقراطي شكلاً وساندتها اليونان وإسرائيل وكانت نسبة الأديان ٧٩٪ نصارى و ١, ١٩٪ مسلمون و ٩, ١٪ يهود ولكن الأزمة لم تنته فقامت المعارك الدموية بين الجاليتين عام ١٣٨٣ هـ وتفرد اليونانيون بالحكم فأرسلت الأمم المتحدة قواتٍ لحفظ السلم عام ١٣٨٤ هـ. وبعد عام واحد قامت القوات القبرصية بمهاجمة الأحياء الإسلامية وقتلت من قتلت وفتكت بالمسلمين بأبشع الوسائل وقصفت المساجد والمنازل بالطائرات. وفي عام ١٣٨٧ هـ عادت الأحداث الدامية من جديد وازداد عدد القوات اليونانية حتى بلغ ١٦ ألف جندي ولم تجد المفاوضات وحدث انشقاق في الصف اليوناني القبرصي بين مؤيد للاستقلال بزعامة مكاريوس يدعمه المعسكر الشيوعي ظاهراً والمعسكر الغربي سراً وبين مطالب بالانضمام لليونان بزعامة الجنرال (غريفاس) المدعوم من اليونانيين. ثم غادر (غريفاس) الجزيرة وأخذ يعمل على تنظيم جماعات للثورة ضد المطران لضمها وحركت اليونان عناصره في قبرص.

أما المسلمون في العالم فكانوا لا يعرفون عن حقيقة الوضع إلا القليل ومصير أكثر من ١٠٠ ألف مسلم مجهول فيما إذا وقعت الجزيرة تحت حكم اليونان.

وفي ٢٥ جمادى الآخرة عام ١٣٩٤ هـ وقع انقلاب على مكاريوس وتسلم (كلاريديس) الحكم فاستنفرت تركيا واليونان قواتها وأنزل الأتراك قوة في قبرص في شهر رجب من العام نفسه بضغط من حزب السلام الإسلامي التركي الذي كان مشتركاً في الحكم وأعلن وقف إطلاق النار ولكن القتال تجدد واحتلت تركيا ميناء (فاماغوستا) وتابعت سيرها غرباً حتى مدينة (مورفو) ثم توقف إطلاق النار ثانية عام ١٣٩٦ هـ. ويقدر ما احتله الأتراك بثلث الجزيرة تقريباً واستقبل الجيش التركي بالحفاوة البالغة. ثم عاد (مكاريوس) إلى مركزه مرة أخرى واستمر في الحكم حتى وفاته عام ١٣٩٨ هـ.

الحركة الإسلاميّة أمام التحدّيات

كانت الحركة النقشبندية رأس الحربة المعارضة في حياة كمال أتاتورك وقاد عدد غير قليل من أفرادها الثورات المسلحة ضد الحكم العلماني المعادي للإسلام وظهرت أهم الثورات في المنطقة الجنوبية الشرقية في عام ١٣٤٤ هـ ثم في (مينمين) عام ١٣٤٩ هـ ثم ظهرت الحركة التيجانية والحركة النورية ولكنهما لم تحملا السلاح واقتصر جهادهما على اللسان.

حركة النور:

وهي من أهم الحركات الإسلامية في تركيا وأغزرها فكراً وأعمقها تأثيراً قام بها العلامة الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي وتلامذته من بعده فأعاد للأجيال الجديدة تجديد ثقتها بالإسلام وقد بلور تعاليمه وشريعته السمحة الخالدة للشباب المتعطش هناك وكتب العديد من الرسائل الإسلامية تحت عنوان (رسائل النور) فاستقطب حوله الكثير من الشباب حتى عدّوا بالملايين وكان ذلك و(أتاتورك) يلفظ أنفاسه الأخيرة.

بادر بديع الزمان منذ عهد الدولة العثمانية وانحرافات الرجال الحاكمين بعد

عبد الحميد فألف جمعية إسلامية عرفت باسم (الاتحاد المحمدي) ودخل فيها الناس أفواجاً لكنه اختلف مع السلطان عبد الحميد الثاني إذ لم يؤمن بطريقته في الحكم واعتبره مستبداً وضد الفكرة الديموقراطية، وفي هذا كان يشبه السيد أبو الأعلى المودودي في أول حياته الفكرية، إلا أنه كالمودودي ترحم عليه كثيراً بعد موته وراجع فكره ونحوه. وأيد حزب الاتحاد والترقي عندما لم يكن في السلطة، لكنه اختلف معه بعد توليه السلطة. وبعد أن تولى (أتاتورك) رئاسة المجلس الوطني أرسل بديع الزمان خطاباً مسهباً إليه. وفيه نصائح إلى الأعضاء وكانت بعنوان «اعلموا أيها المبعوثون إنكم مبعوثون ليوم عظيم» فاستقام إثر ذلك الخطاب المؤثر ستون نائباً على التدين وأثار ذلك حفيظة أتاتورك فاستدعاه وحاول استمالته وناقشه واستنكر عليه دعوته الناس إلى الصلاة مدعياً أنها تثير الفرقة بين أعضاء المجلس فأجابه بديع الزمان: «إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام إنما هي الصلاة وإن الذي لا يصلي خائن وحكم الخائن مردود».

ثم عكف بديع الزمان على كتابة الرسائل في سبيل التوعية الإسلامية ومقاومة مبادئ العلمانية الكمالية بالمبادئ الإسلامية. والرسائل بمثابة تفسير حقيقي للقرآن الكريم وإن لم يكن ترتيب الآيات القرآنية كل على حدة. ويبلغ عددها ١٣٠ رسالة ويعكف طلاب النور على قراءتها في حلقات داخل ما يسمى بـ «درس خانة» وكنهها رد تشكيكات شياطين الجن والإنس وتقوية عقائد المسلمين في طريق الحق والصواب.

وانتشرت رسائله في طول البلاد وعرضها بسرعة. وحينما ألغى (أتاتورك) الكتابة بالأحرف العربية نشأت مشكلة فقامت جماعة النور بنشر الرسائل بعد نسخها باليد وتوزيعها وبالتالي نسخها وهكذا كانت تتكاثر بسرعة بين مختلف المجتمعات وفي القرى والمدن وكثيراً ما كان الطلبة والطالبات يسهرون الليالي الطويلة في نسخها وتوزيعها وتعرضت الفتيات للتعذيب والسجن من أجل ذلك.

أمر أتاتورك بنفي بديع الزمان ثم حكم عليه بتهمة مؤامرة لقلب نظام الحكم وسجن ثم نفي وكان في منفاه يكتب البحوث الإسلامية ويطلب من المسلمين التمسك بدينهم وظلت الدعوة تنتشر سراً بين صفوف الجامعيين ومعسكرات الجيش ودوائر الدولة، ثم دعا مصطفى كمال إلى اجتماع للبحث في الأمر فأحالوا بديع الزمان مرة أخرى إلى المحاكمة لاتهامه أتاتورك بالدجال ووقف

أمام المحكمة ومما قال: «إنني لأعجب كيف يتهم أناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزاته باتباعهم للسياسة والجمعيات السرية على حين يحق للمارقين الإفتراء على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار ثم يعد ذلك أمراً مقدساً لأنه حرية ، واستطرد بديع الزمان قائلاً :

أما نور القرآن الذي يأبى إلا أن يشع في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره فهي خطورة ينهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة . . اسمعوا يا من بعتم دينكم بدنياكم وتنكستم في الكفر المطلق، إنني أقول بمنتهى ما أعطاني الله من قوة إفعلوا ما يمكنكم فعله فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداءً لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام . . . » فآمن بأفكاره من آمن وبرّأته المحكمة ولكنه أعيد إلى المنفى وبقي حتى عام ١٣٦٧ هـ حين بدأت الحكومة بالتراخي بخصوص الثقافة والنشاط الديني كما ذكرت، ثم أجازت الدولة طباعة رسائل النور فانتشرت بسرعة، فروّع السلطان ذلك ورأوا أن التيار سيجرفهم وأن جموع الشعب تنضوي تحت لواء الحركة فألقي القبض على بديع الزمان وأحيل للمحكمة الجزائية عام ١٣٦٨ هـ وحكم عليه بالسجن لمدة عشرين شهراً وفرضت عليه الإقامة الجبرية حتى وفاته في ٢٧ رمضان ١٣٧٩ هـ في «أورفة» حيث دفن في تكية «خليل الرحمن» هناك، ثم أمر بفتح قبره وإخراج جثته وإعادة دفنها في «إسبارطة» في مكان غير معلوم وعلى الرغم من تكاتف الأعداء الداخليين والخارجيين فإن رجال الحركة أصبحوا من القوة حيث قدر المراقبون عدد أعضائها بين ٦٠٠,٠٠٠ رجل ومليون قبل عام ١٣٧٨ هـ. ويتلخص فكره السياسي بالدعوة للالتصاق بالحقيقة الإسلامية والمناداة بالأخوة الإسلامية وتحبيذ أميركا للوقوف ضد الشيوعية والإلحاد ومنه ميله للحزب الديموقراطي والأهم رأيه بحلول مجلس الأمة محل مركز الخلافة. والنورسيون اليوم يؤيديون حزب العدالة ويدعون للتجديد ورفض التنظيم الحركي وضرورة الحوار مع أهل الكتاب والإيمان بالحرية الديموقراطية وبالحكم الجمهوري واللاعنف. وله من المؤلفات عدا الرسائل: المثنوي العربي. إشارات الإعجاز في مكان الإيجاز، الصيقل الإسلامي، وصفة للعوام. وتتلخص أفكاره الأخرى بالأمل بأن المستقبل للإسلام وضرورة الصدق والمحبة والغيرة على المصلحة العامة والشعور بمسؤولياتها وقيام الروابط بين المؤمن والمؤمن وأخيراً قيام الشورى الشرعية.

حزب السلام الوطني:

وقد تشكل ذلك الحزب الذي يتزعمه السيد نجم الدين أربكان[1] عام ١٣٩٢ هـ وهو ذو اتجاه إسلامي، برنامجه المجاهدة عن طريق المجلس النيابي للوصول إلى حكم إسلامي. وبعد عام من تأسيسه جرت انتخابات عامة فحصل على ٢٩ مقعداً في المجلس النيابي على حساب حزب العدالة الذي أيده بعض المسلمين سابقاً وآنئذٍ حصل حزب الشعب الجمهوري على الأكثرية ولكن لم يتمكن من تشكيل حكومة فنشأت أزمة وزارية فحدث ائتلاف مع حزب السلام حقق للمسلمين بعض المكاسب بسبب مجهود الحزب الضخم في هذا السبيل إذ عني بالثقافة الإسلامية في المدارس وسمح للجمعيات الإسلامية بممارسة النشاط وتحسنت علاقات تركيا مع البلاد العربية وقد تسلم نجم الدين منصب نائب رئيس الوزراءووزارات أخرى لحزبه بينها الداخلية فشجع وسهّل أداء فريضة الحج. وقد أنزل الأتراك قواتهم في قبرص بضغط من حزب السلامة لنصرة المسلمين هناك.

تضايق أعداء الإسلام من وجود (أربكان) في الوزارة وحزبه ومن دوره البارز في خدمة الإسلام فاستغلوا فترة غياب رئيس الوزراء في البلاد الإسكندنافية وقرروا إبعاده عن الحكم وعينوا بدلاً منه أحد وزراء الدولة ليشغل المنصب وقد عرف أن المقصود طعن ذلك الحزب الإسلامي وزعيمه بصورة خاصة. ثم أكرهوه على تقديم استقالته فسقطت الحكومة ولكن زعماء الحزب تعاطفوا مع قائدهم عكس ما كان يتوقعه (أجاويد) زعيم حزب الشعب الجمهوري.

ولا تزال الحركة الإسلامية في نمو متصاعد على الرغم من ضخامة الأعداء المحيطين بها وجسامة الأخطار التي تواجهها من اليمين واليسار على السواء. ففي ١٣ أيار من عام ١٩٧٦ م وبمناسبة الذكرى السنوية لفتح أيا صوفيا أدى الشباب المسلم من أعضاء الاتحاد الوطني لطلبة تركيا صلاة تحية المسجد في جامع

---

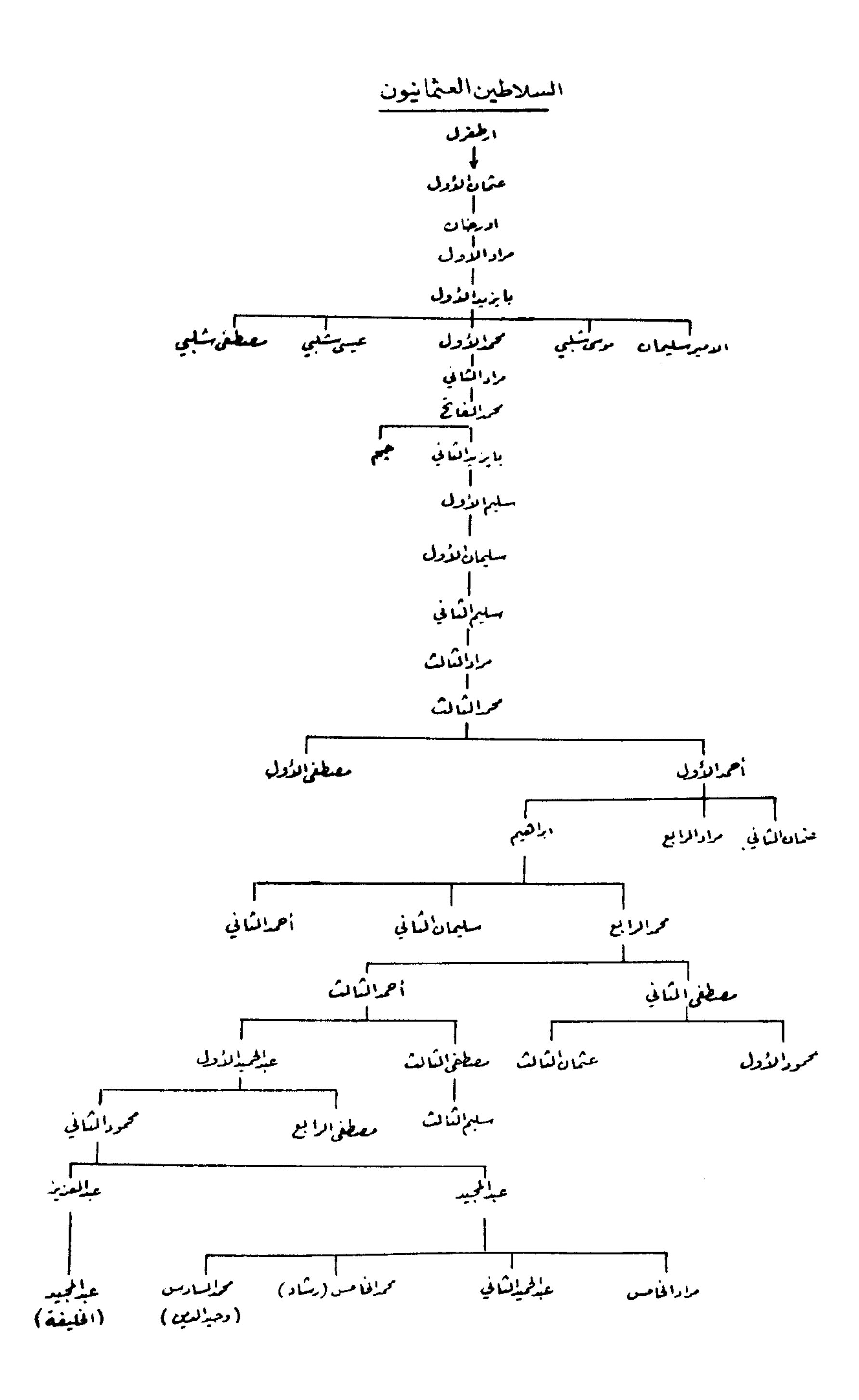
(١) نجم الدين أربكان: وهو مهندس ميكانيكي تخرج من جامعة استانبول ثم حصل على شهادة الدكتوراه من جامعات ألمانيا. وعاد بعدها ليدرّس في جامعة استانبول أيضاً ثم نال درجة أستاذ فيها. انتخب في عام ١٣٨٨ هـ رئيساً للغرف التجارية والصناعة في تركيا وبعد توليه هذا المنصب بأسبوعين منع الاستيراد والتصدير إلى اليهود في فلسطين فأقالته الحكومة من منصبه ظلماً. فعمل على تشكيل حزب السلام.

أيا صوفيا باستانبول ورفعوا أيديهم بالدعاء والتهليل وغادروا المكان بهدوء ووقار وانتظموا بشكل مسيرة هادئة بطول خمسة كيلومترات وقد رفعوا شعاراً يقول «إن أيا صوفيا يجب أن تفتح من جديد وهو روح يسري في جسد الأمة الإسلامية وأن القيود والسلاسل التي وضعت على أبواب ومآذن أيا صوفيا سوف تحطم . . » .

وبعد الانقلاب العسكري الأخير تعرضت الحركة الإسلامية لامتحان صعب. وقام قادة الإنقلاب الجدد من أتباع أتاتورك باعتقال الزعيم المناضل نجم الدين أربكان وقدم للمحاكمة مع العشرات من حزبه ووجهت إليه أربع عشرة تهمة من بينها: العمل على قيام دولة إسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، وافتتاح مدارس لتعليم القرآن الكريم والعمل لإعادة فتح مسجد أيا صوفيا ومهاجمة تغيير الحروف العربية إلى لاتينية والمطالبة بجعل العطلة الأسبوعية يوم الجمعة. ودافع أربكان عن نفسه وقال أنه يعمل طبق الحدود الشرعية. وقد نشرت مجلة الشرق الأوسط التي تصدر في لندن تقول: « . . . أليس ممكناً أن يهتم العالم العربي والإسلامي بهذا الموضوع، وإن يعبر عن استنكاره لمثل هذه المحاكمة العلنية، التي لا يتصور قيامها بهذه الصراحة ولا في الصين وأن يحاول إنقاذ أربكان من مصيره؟ إن ذلك ممكن، على الأقل انطلاقاً من مبدأ بسيط، مضى عليه ميثاق الأمم المتحدة، وهو حرية العقيدة وحرية إقامة الشعائر الدينية . . . » .

ونتيجة لضغط جماهيري داخلي وتأثير الرأي العام الخارجي أفرج عن أربكان في المدة الأخيرة. وتراجع العسكر عن بعض قراراتهم حتى إنهم اضطروا أخيراً لإدخال مادة التربية الدينية إجبارياً لتدرس في المدارس والمعاهد والجامعات التركية.

ولم يؤيد النورسيون حزب السلامة، وخذلوه، كذلك خذله بعض الإسلاميين في حزب العدالة، ويقول النورسيون إن هذا الحزب قام ولم تبلغ نسبة الإسلاميين في تركيا نسبة تصل إلى ٦٠ أو ٧٠٪ وهي النسبة التي وضعها النورسي شرطاً لقيام حزب إسلامي، وإن حزب السلامة لا يفرق بين الأعداء سواء كانوا شيوعيين أم رأسماليين، فهو يكن العداء لأميركا وللبابا» كما أنهم يرون ضرورة الانغلاق والاكتفاء برسائل النور في حين يرى حزب السلامة ضرورة الانفتاح السياسي والفكري على الحركات الإسلامية والأفكار الإسلامية في العالم الإسلامي


السلاطين العثمانيون
ارطغرل
عثمان الأول
اورخان
مراد الأول
بايزيد الأول
الأمير سليمان
موسى شلبي
محمد الأول
عيسى شلبي
مصطفى شلبي
مراد الثاني
محمد الفاتح
بايزيد الثاني
جم
سليم الأول
سليمان الأول
سليم الثاني
مراد الثالث
محمد الثالث
أحمد الأول
مصطفى الأول
عثمان الثاني
مراد الرابع
ابراهيم
محمد الرابع
سليمان الثاني
أحمد الثاني
مصطفى الثاني
أحمد الثالث
محمود الأول
عثمان الثالث
مصطفى الثالث
عبد الحميد الأول
سليم الثالث
مصطفى الرابع
محمود الثاني
عبد المجيد
عبد العزيز
مراد الخامس
عبد الحميد الثاني
محمد الخامس (رشاد)
محمد السادس (وحيد الدين)
عبد المجيد (الخليفة)

وهي التي ترجم الكثير منها إلى اللغة التركية وعلى رأسها كتاب «في ظلال القرآن» لسيد قطب.

ولم يرَ حزب السلامة أن توكل أعمال الخليفة أو الشخصية المعنوية للخلافة إلى هيئة أو مجلس، وإنما ذلك موكول إلى مقررات الفقهاء في هذا الأمر ورغم الخلافات بينهما إلا أن رئيس حزب السلامة «نجم الدين أربكان» لم تصدر عنه أدنى كلمة تمس بديع الزمان سعيد النورسي ولا رسائله.

ودعا الحزب أيضاً لإقامة سوق إسلامية مشتركة ورفض دخول تركيا السوق الأوروبية المشتركة، فكانت دعوة إلى قيام أمم متحدة إسلامية ومجلس إسلامي مشترك.

وأخيراً يعدّ هذا الحزب من ضمن التيار الديني الإسلامي الأصولي الذي يرى في تركيا جزءاً من العالم الإسلامي وهو يطالب باستعمال اللغة العربية وتأييد القضايا العربية والإسلامية ضد الصهيونية ومن يقف وراءها.

الفكر الإسلامي يتحدّى الآلام

أمام تآمر الغرب ضد الإسلام، لم تخفت شمعة المفكرين الإسلاميين رغم كل التحديات، وصحيح أنَّ هذه الشمعة قد دقَّ فتيلها، ونحف جسمها، إلَّا أنَّها كانت تتّقد، ويزداد وهجها مع ازدياد التحديات.

عزل أدعياء التجدد السلطان عبد العزيز، ثمَّ قتلوه بوحي من الغرب وأخفوا معالم جريمتهم لفترة قصيرة لم تلبث أن انكشفت، ثمَّ حاولوا إشهار معول الهدم في وجه السلطان عبد الحميد الثَّاني، فوقف في وجههم فاتهموه بالاستبداد وخنق الحريات، ولجأوا إلى أسيادهم خارج الحدود، ونشطت حركاتهم القومية المعادية للإسلامية بوحي وتخطيط من الغرب مرة أخرى، فكانت الماسونية واليهود والصليبية العالمية وأعداء الجامعة الإسلامية والجمعيات السرية والأرمن وأعداء الدولة العثمانية بصورة عامة، وأدّى التكاتف بينهم جميعاً إلى إنهاء حكم عبد الحميد ففرغت الساحة إلَّا من عملائهم، وكانت النتيجة، تناثر أجزاء الدولة العثمانية ولاية بعد ولاية، لتلتهمها أيدي الغدر القابعة لها بالمرصاد، ثمَّ تحدث الهزيمة في الحرب العالمية الأولى وتنتهي السلطنة العثمانية على أيدي أتاتورك ثمَّ

الخلافة الإسلامية بعدها مباشرة على يـديه أيضـاً، وينظر المسلم إلى السحب السـوداء التي ظللت سماء أرضـه، فيسجّل اليـأس وتقنط الأرواح ـ لكن روح الإسلام تبقى حية في النفوس، وينبثق الأمل من تحت ركام المصائب الجسام، متجسداً في شكل أفراد أو حركات، وسنلقي نظرة إلى بعض أولئـك الأفراد، ونؤجل البحث في الحركات إلى فصل مقبل إن شاء الله.

١ - محمد عاكف، داعية وشاعر الإسلام:

ولد محمَّد عاكف في استانبـول عام ١٨٧٣ م. وأصله ألبـاني. درس في العاصمة العثمانية، وتلقّى دراسة خاصة في اللغة العربية والفرنسية والفارسية، ولعب والده دوراً كبيراً في إتقانه اللغة العربية.

بدأ نظم الشعـر وهو طـالب في المدرسـة البيطريـة، ثمَّ تخرج من هـذه المدرسة. وأدّى به نشاطه الأدبي أن يعمل أستاذاً في جامعة استانبول. ثمَّ نشر أشعاره في إحدى المجلات. وتأثر بالشيخ محمَّد عبده مفتي الديار المصرية، والتزم بفكرة الجامعة الإسلامية وتصدّى لفكرة القومية التركية.

زار البلاد الغربية وأوروبا حيث وجَّه له الامبراطور الألماني الدعوة لزيارة برلين لمشاهدة معسكرات اللاجئين المسلمين فيها، فأثَّرت مشاهداته على شعره، ثمَّ أرسلته إدارة المخابـرات العثمانيـة إلى نجد والحجـاز لحل بعض المشكـلات السياسية لدى ابن الرشيد أمير نجد الموالي للعثـمانيـين، في حين كـان الشريـف حسين يقوم ضدهم بمساعدة الإنكليز. وأثناءها قام بزيارة قبر النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وأثرت زيارته تلك على قصيدته «من صحراء نجد إلى المدينة» ثمَّ زار سوريا ولبنان.

تحمس عاكف للإسلام كثيراً وتأثَّر غاية التأثّر عندما نشبت الحرب التركية اليونانية المسماة بحرب الاستقلال، كذلك أثَّـر عليه احتـلال الحلفاء للعـاصمة العثمانية فترك استانبول واتجه إلى الأنـاضول ليلتحق بـالحركـة الشعبية المقـاومة للاحتلال الأوروبي، ثمَّ أصبح نائباً في المجلس الوطني التركي.

ولمَّا أعلنت وزارة المعارف التركية عن مسـابقة لتـأليف نشيد الاستقـلال التركي، دعي إليها كل الشعراء الأتراك ولم يشترك هو في المسابقة، لكنه بعد إقناع ظهر النشيد الذي ألَّفه أي نشيد الاستقلال هو النشيد الفائز.

خاب أمل شاعر الإسلام محمَّد عاكف بأتاتورك وهاجر إلى مصر في شتاء عام ١٩٢٥ م ثمَّ استقرَّ هناك، وأخذ يدرّس اللغتين الفارسية والتركية في الجامعة المصرية.

عاد نشاطه الأدبي إلى الاتّقاد بعد فترة ركود وجمع أشعاره في ديوان بعنوان «الظلال» الذي ترجم من التركية إلى العربية.

مرض محمَّد عاكف عام ١٩٣٥ بالرئتين وسافر إلى لبنان للراحة ثمَّ إلى أنطاكية ثمَّ رجع إلى مصر ثمَّ طلب العودة إلى استانبول فأُعيد. وتوفي عام ١٩٣٦ م ودفن في مقبرة باب أدرنة. ولم تشيّع الحكومة الكمالية جنازته بالمكانة اللائقة ولم تنشر أجهزة الإعلام الحكومية نبأ وفاته.

أعمال عاكف الإسلامية: قام بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة التركية، واختفت هذه الترجمة. كذلك ترجم تفسير الشيخ محمَّد عبده لبعض آيات من القرآن الكريم إلى اللغة التركية، كذلك ترجم بعض الأعمال الأُخرى.

وبما أنَّ عاكف قد تأثر بمحمَّد عبده، والأفغاني، وعبد الرشيد إبراهيم من مسلمي آسيا الوسطى، فإنَّه نادى بفكرة الجامعة الإسلامية. ومن حيث الفكر فإنَّه دعا إلى اتخاذ القرآن الكريم المصدر الأصيل للتحرك الإسلامي، والنظر إلى الإسلام كمنهج للحياة، ودعا إلى وجوب أخذ المسلمين بالتقنية الغربية فقط دون الفكر أو الفلسفة أو مناهج الأخلاق. كذلك دعا إلى معاداة الفكرة القومية وإلى التحذير من الغرب ودعا لمعاداته، وإلى الحذر من الروس أعداء الإسلام ومعاداتهم وإلى احتقار المثقفين والكتاب المعادين للإسلام أو الذين لا يلتزمون به.

ودعا عاكف أيضاً إلى زرع الأمل في قلوب الأُمَّة المسلمة والتأكيد على ضرورة تنبهها والثورة على الأوضاع البالية والعودة إلى بساطة الإسلام الأُولى والدعوة إلى العودة لماضي الأمة الأصيل.

ولمس محمَّد عاكف أمراض المجتمع ومنها إضاعة الوقت والمال والجلوس في المقاهي والخانات فكتب شعراً يقول:

يعرف العثمانيون جيداً ما معنى «مقهى الحي»
حذار أن تتصور ثمَّة قائل «لا أعرفها، لم أرها»

وفي رأيه فهذا المقهى كأنَّه لص يقطع الطريق ليسلب الناس في وضح النهار:

لماذا لا يغلق مقهى الحي
كفى فليسدل هذا الستار الدامي
ستار؟ كلا فليقفل جرح هذا الشرق
إنَّها وصمة في جبين الوطن(١).

وينتقد عاكف المتفرنجين من أبناء الإسلام، فيقول:

انظر إلى هذا الوضيع الذي يتحمل مسؤولية الأُمَّة والدين
سيهدر الدين ويروِّس الأُمَّة «يجعلها روسية»

ويناقش مقلّدي الغرب فيقول إنَّ الدين ليس عائقاً للتطور والتقدم، فالتمسك بالدين وتعاليمه الأولى هو السبيل إلى التقدم:

لم يفهم المفكرون عندنا كنه الدين
بل لم يدركوا روح الإسلام
فيظنون أنَّها لا تحمل التطور
ولا تتكامل مع كمال الآثار العصرية
لا يعرفون أنَّ الإسلام هو خميرة العلوم
وأنَّها المرتبة التي سيبقى إليها البشر يوماً(٢)

ووجَّه عاكف سهام نقده للفكرة القومية، فقال:

كيف تسربت إلى أذهانكم «فكرة» التفرقة
أي شيطان شحذ أذهانكم بفكرة القومية . . .
لن تسير هذه الأُمَّة بدعاوي العربية والأرناؤوطية
حتى لو كانت هذه آخر سياسة فلن تسير
لقد خلقكم الخالق أفراداً في عائلة واحدة
فانفضوا عنكم أسباب الفرقة.

---

(١) الأدب التركي الإسلامي ـ هريدي. ص ٢١٣.
(٢) المصدر السَّابق، ص ٢١٨.

ويستنفر عاكف الهمم ويحذّر من اليأس، فيقول:

لا تيأسي وتقولي لقد انتهى الأمر. . . ووهن العزم
أيَّتها الأمَّة المرحومة، حذار أن تستسلمي لليأس نفسه

ويخاطب أُمَّة الإسلام بعد هزيمة البلقان، فيقول:

يا جماعة المسلمين، كفى بالله عليكم أفيقول
سيكون صوت الناقوس مروّعاً في الآذان
لقد اهتزَّت الأرض بسقوط إيران
وأنتم بلا حراك «لم تهتز منكم شعرة» أي إحساس هذا. . .
لم يوقظكم صوت القطارات والبواخر
ولم يجد هدير المدافع فتيلاً في هذا النوم العميق
أنتم آخر ومضة أمل للإسلام
ها عليكم بتحمل قهر الأقوام المتحضرة[1]

ويقول في النشيد الوطني التركي:

لا تخف
فلن ينطفىء أوار هذا العلم
هذا العلم الأحمر السابح في الشفق
حتى يخمد آخر موقد في بلادي. . .
يـا أيُّها الهلال
لا تقطب جبينك هكذا
فأرواحنا فداء لك
دع هذا الوجوم وابتسم. . .
دماؤنا هذه مبذولة في سبيلك
أمَّا الاستقلال فإنَّه حق لشعبي
شعبي هذا المؤمن الذي يعبد الله. . .[2]

---

(١) المصدر السَّابق، ص ٢٢٤.
(٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة. ص ٢٧٣.

وهكذا فإنَّ الدواء الذي شخصه محمَّد عاكف لهذه الأُمَّة هو الإسلام، لأنَّه به الحياة، وبه تتحدى الآلام، متخذاً وسيلة الشرح والمقالة والوعظ والترجمة والعودة لماضي الأُمَّة الأصيل وإلى عصر النَّبيّ ﷺ وقد تبنّى الشباب التركي المسلم فكر عاكف ولا يزال رغم التعتيم الرسمي.

٢ - شيخ الإسلام «مصطفى صبري»:

ظهر هذا العالم الجليل في أواخر عهد الدولة العثمانية، وهو من بلدة «توقات». واستقرَّ في طفولته مدة قصيرة في «قيصرية» ثمَّ رحل إلى «استانبول». وساعده ذكاءه الفارط أن يصبح مدرساً في جامع السلطان محمَّد الفاتح، ثمَّ أميناً لمكتبة السلطان عبد الحميد الثَّاني وهو لا يزال في ريعان الصبا.

وفي عهد السلطان العثماني «عبد الحميد»، مثَّل منطقة توقات في مجلس المبعوثان، وكان في الوقت ذاته رئيساً لتحرير مجلة «بيان الحق» تلك المجلة الإسلامية التي تصدرها الجمعية العلمية.

لم يلبث مصطفى صبري أن أصبح شيخاً للإسلام عندما تسلَّم الحكم حزب الحرية والائتلاف برئاسة الداماد «فريد باشا»، وتولى رئاسة الوزارة العثمانية بالنيابة عنه عندما سافر الأخير إلى مؤتمر باريس. ثمَّ ترك مشيخة الإسلام عندما اختلف مع الوزراء في الرأي وبدأ كفاحاً طويلاً للتصدي لأعداء الإسلام والدعوة لتطبيق الشريعة.

ومع أنَّه لم يتوفر لديه كادراً جماهيرياً كافياً يتحمل الدفاع عن المفهوم الإسلامي للحكم، إلَّا أنَّه تصدّى للتيارات المعادية للإسلام التي راجت في عصره، ومثلها آنذاك الطورانيون وأنصار حركة التغريب والتفرنج وحزب الاتحاد والترقّي، لكنه أُجبر على مغادرة البلاد في عام ١٩٢٢ م فهاجر إلى اليونان، وتمكن هناك من حشد المسلمين الأتراك حوله وأصدر جريدة تركية بالأحرف العربية سمَّاها «يارين» أي الغد، ومن خلالها تصدّى بالقلم لحركة التغريب التي بدأت في العالم الإسلامي، ونقد المجتمع التركي والنظام الكمالي.

ثمَّ انتقل الشيخ إلى مصر ثمَّ الحجاز ثمَّ مصر حيث استقرَّ فيها، وأصبح ينادي بأفكاره هناك وهي العودة إلى تطبيق حكم الشريعة الإسلامية والتصدي

للعلمانية وتفنيد سيئاتها ومخاطرها إزاء إعجاب شديد من قبل العلمانيين بأتاتورك وانتصاراته المزيفة. وأخيراً توفي عام ١٩٥٤ م.

الفكر الإسلامي عند مصطفى صبري: وهو يتلخص في ثلاث نقاط أساسية هي:

العمل على إعادة الخلافة الإسلامية، والتمسك بالشريعة، والتصدي للعلمانية، ومن هذا المنطلق كان تحركه وعمله، مما أدّى إلى اعتبار الكماليين إياه مجرماً ووضعوه في قائمة ١٥٠ شخصاً غير المرغوب فيهم واعتبار الإسلاميين الأتراك إياه بطلاً. كما أنّه دفاعاً عن مبادئه تلك، تصدى لبعض المؤرخين والأدباء ورجال الفكر ممّن تلوثت أفكارهم بلوثة الغرب وابتعدوا عن الإسلام ولم يفهموا التاريخ الإسلامي على حقيقته ولا التاريخ العثماني، بل اندفعوا وراء تزييفات مصطفى كمال، ومنه كان رده على المؤرخ عبد الله عنان في عداوته للأتراك والفتح العثماني لمصر وأوروبا ويقول مثلاً: «إنّ محمَّد عبد الله عنان، في قلبه مرض عدم التفريق بين المسلمين والعرب واليهود، وعلى بصره غشاوة من معاداة آل عثمان. . . فلم يكن مقصود سليم من الفتح، إلاَّ توحيد مصر الإسلامية بتركيا الإسلامية». كما يقول أيضاً في كتابه «موقف العقل. .»: وإنِّي أقرأ على المسلمين المنهومين في أكل لحوم الدولة العثمانية الزائلة كالأستاذ عبد الله عنان وغيره، قول الحطيئة:

أقلّوا عليهم لا أباً لأبيكم ... من اللوم أو سدّوا الفراغ الذي سدّوا

ثمَّ يقول: أنا لا أقول إنَّ آل عثمان، حتى الأعاظم المشهورين منهم في تاريخ العالم براء من كل ما ينتقدونهم به، وإنَّما أرد على كل من أنكر اعتزاز الإسلام بهم»[1]. وتصدّى مصطفى صبري للعلمانيين المنادين بفصل الدين عن الدولة وأتباع العقل ممّن أسقطوا المعجزات النبوية. وفي هذا المجال يردّ على محمَّد حسين هيكل عندما كتب «حياة محمَّد» ويتّهمه بتبنيه فصلاً أوضح للدين عن الدولة في مصر، حتى يصبح كما هو الأمر في تركيا. ويجرّد لفظه من كل معنى حقيقي كما فعلت الدول الأوروبية بدينها المسيحي. ويعقب قائلاً: وهنا أقول سلفاً وباختصار إنَّ هذا معناه خروج حكومة المسلمين من ربقة الإسلام ورقابته

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة. ص ٢٩٩.

عليها، وخروج الأُمَّة أيضاً من ربقته اختيارها الحكومة الخارجة عن الإسلام حكومة لها. . .»[1].

وانبرى للرد أيضاً على أعداء الخلافة الإسلامية. ويعرِّف الخلافة بمعنى الخلافة عن رسول الله ﷺ وهي عبارة عن التزام أحكام الشرع الإسلامي ممن يتولى الحكم على المسلمين، لأنه إنَّما يكون بهذا الطريق خليفة عن الرسول، وإلغاء الخلافة الذي هو إلغاء هذا الالتزام، لا بد ويترتب عليه فصل الدين عن الحكومة وعزله «أي الدين» عن أن يكون ذا سلطة عليها، وقد حصل هذا الحال فعلاً في تركيا بعد إلغاء الخلافة، فخلفها حكومة لادينية»[2].

ويفنِّد الشيخ صبري مفهوم الجنسية عند المسلم في كتابه «موقف العقل. .» ويفرق بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الوطني لها،ويفرّق بين القانون الإلٰهي والقانون البشري، ويقول: «والقانون البشري نفسه، فضلاً عن تفسيره، لا يخلو على كل حال من أن يكون خديعة يخدع بها الناس بعضهم بعضاً، ويتخذها أداة العدالة فيما بينهم، عدالة تقسم إلى طبقتين حاكمة، وضعت القانون. . . فهي عدالة مخلّة بالمساواة، أمَّا القانون الإلٰهي فالحاكم فيه هو الله، والناس حتى السلطان سواء أمامه. . .».

ويقول في «موقف العقل» أيضاً: «إنَّ الضغط على الدولة الإسلامية. لكفّها عن العمل بقوانين الشرع الإسلامي، كان يأتي في الزمن القديم من الدول الصليبية، وكان يقتصر على مسألة التسوية بين المسلم والذمِّي، وكان لهم عذر في ذلك، أو على الأقل عذر في الظاهر، والآن، ينوب عن الدول الأجنبية الضاغطة، فريق من المسلمين المتعلمين في مدارس تلك الدول نيابة تعدَّت حدود الأصالة، غير معذورين ولا مقتصرين على مسألة دون مسألة، فهؤلاء النواب عن الأعداء «أي المثقفين من المسلمين بثقافة أجنبية خاضعين لها أشد من الأعداء»[3]. ويفاجأ الشيخ مصطفى صبري، وهو المسلم التركي المدافع عن الإسلام، والمتصدي للعلمانية التركية الكمالية، بوجود أقلام في مصر تحبّذ هذا النظام، ولكنه يتصدى

---

(١) المصدر السَّابق.

(٢) المصدر السَّابق عن «موقف العقل ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣».

(٣) المصدر السَّابق ص ٣٠٣.

لها ولا يستغرب كثيراً هذا الأمر، لأنّهم تربوا في أحضان الغرب وتخرجوا من مؤسساته، لكن استغرابه الكبير كان اكتشاف مؤسسات إسلامية مشهورة مثل الأزهر، تضم بين جنبيها دعاة للعلمانية وللكمالية التركية، وهو الذي كان يأمل العون من هذه المؤسسة. ويردّ على أحدث مشايخه قائلاً: «لا دين في الأزهر باعتراف فضيلة شيخ الأزهر وإمامه، بمعنى لا علم يدرّس فيه، وفي كلّياته، يصح أن يسمّى علم الدين. . .، ويتهم بعض شيوخه بمحاولة فصل الدين عن الدولة بفصل الدين عن الفقه وقطع صلته به، فكأنّه يقول إنَّ الفقه ينطوي على قوانين سنّها الأئمَّة والمجتهدون، وهي قوانين زمنية لا دينية. . . ويفنِّد أيضاً أقوال بعض الشيوخ ممَّن تسلموا مشيخة الأزهر أمثال علي عبد الرزاق، فيقول: . . . فالأستاذ علي عبد الرزاق إذن كاتب دعاية وبطل رواية، لا يمثل أمثالها إلاَّ المبشرون أعداء الإسلام وأعداء مفاخرة. . .».

وأخيراً يتعجب من المثقفين العرب إعجابهم بمصطفى كمال ومحاولاتهم اعتبار حركته ضمن المحيط الإسلامي ويقول: «. . . إنَّ من الناس من يخول حكومات المسلمين حرية تامة في وضع القوانين، ويدَّعي أنَّه لا يوجد قانون يسنونه أو عمل يعملونه إلاَّ ويسعه الإسلام، لأنَّه دين عام خالد، وهو مذهب الأستاذ فريد وجدي بك الذي لا يرى حتى في أعمال مصطفى كمال «أتاتورك» منافاة لدين الإسلام، وهذا الرأي أسوأ من فصل الدين عن السياسة لكونه فصلاً وإنكاراً للفصل معاً[1]. ففيه فصل ومكر، وفيه القضاء على الإسلام باسم الإسلام. . .».

٣ - الشيخ عاطف الأسكليبي:

ولد هذا العالم الشهيد في قرية طوبخانه التابعة لأسكليب بالأناضول عام ١٨٧٦ م، وتلقى فيها بداية علومه الدينية، ثمَّ أنهى دراسته الدينية في استانبول وقد بلغ من العمر ٢٦ عاماً وتخرَّج من كلية الألـهيات عام ١٩٠٥ م وعيّن معلماً في جامع الفاتح.

بدأت آلام الشيخ مع بداية عهد الاتحاد والترقّي بعد زوال حكم عبد الحميد، فأبعدوه عن العاصمة إلى «سينوب» وغيرها من بلدان الأناضول، ثمَّ

(١) المصدر السَّابق.

أطلق سراحه بعد نفي أربع سنوات. لكنه لم يلبث أن أصبح نائباً ومديراً لمدرسة ابتدائية داخلية في العاصمة. فركّز على التوعية الفكرية الإسلامية.

كان هذا الشيخ مركز إفتاء للكثير من المسلمين الوافدين من أرجاء مختلفة من العالم، وعندما احتلَّ اليونانيون «إزمير» في الحرب، كانت جمعية «تعالي إسلامي» أي «رفعة الإسلام» التي أسَّسها أول من احتجَّ لدفع المعتدي.

وقام بالتدريس لمادة التفسير وحكمة التشريع في استانبول واستمرَّ في إدارة المدرسة الابتدائية حتى عام ١٩٢٤ م حيث ألغى أتاتورك التدريس الديني ووحَّد التعليم وألغى الخلافة وقام بأعماله الأخرى المعادية للإسلام.

كان من جملة قرارات أتاتورك قانون الملابس حيث منع لبس الطربوش واستبدله بالقبعة، وكان الشيخ قد كتب رسالة حتى قبل صدور هذا القرار سماها: «رسالة في تقليد الفرنجة والقبعة» إلاَّ أنَّ الصحافة التركية صدرت بعد ذلك القانون تقول: تنفيذ حكم الإعدام في الشيخ عاطف الأسكيليبي مؤلف الكتب الرجعية، وفعلاً كان قد تمَّ إعدامه.

تتلخص أفكار الشيخ الشهيد بالبنود التالية:

١ ـ اتباع منهج السنّة والجماعة.

٢ ـ الحرص على الخلافة الإسلامية وضرورة صيانتها ووجوب البيعة للخليفة.

٣ ـ أهمية فرض الجهاد، ووجوب الدعوة له والانخراط في صفوف المجاهدين والتبرع لهم.

٤ ـ ضرورة الحجاب.

ونذكر نبذاً من فكره فيما يلي:

يقول في وجوب البيعة للخليفة: «إنَّ بيعة المسلمين للخليفة أمر واجب، وهو ثابت بالعقل والشرع، والدليل الشرعي في هذا إجماع الصحابة والتابعين واتفاقهم عليه». ويرى ضرورة وجود الخلافة القوية ويقول: وحيث إنَّ الغاية الأساسية في الخلافة هي تنفيذ أحكام الشريعة، وتنظيم شؤون الأُمَّة، ولأنَّ هذا يستلزم الاعتماد على القوة والسلطة، فإنَّ الأصل في شروط الخلافة، والذي يتقدم

على كل الشروط، هو القدرة والقوة[1].

وفي حضّه على مجاهدة العدو الغاصب يقول في مقالة له بعنوان «الجهاد»: إنَّ الأمَّة المسلمة. . إذا أظهرت التكاسل في الحرب ضد العدو الغاصب، سواء كان هذا التكاسل بدنياً أو مالياً، وإذا ما تسببت هذه الأمَّة «في أي مكان هي فيه» في هزيمة الحكومة الإسلامية أو تسببت في انهيارها، فإنَّ أفراد هذه الأمَّة المسلمة جميعاً آثمون. . .» ويقول أيضاً في إحدى مقالاته: «لو أنَّ شخصاً دفع عشر عملات من النقود مساعدة للأسطول ونتج عن هذه المساعدة مسمار في مدمرة اشترتها الدولة الإسلامية أو صنعتها لحسابها، وتمَّ دفع هذه المدمرة إلى الحرب، وكان المسمار (موضوع الحديث) فيها فإنَّ للشخص المتبرع بالمبلغ المذكور أجره وثوابه دائماً، سواءً في حياته أو بعد موته وكما لو كان اشترك بالفعل في الحرب».

ويحض الشيخ عاطف المرأة المسلمة على الفقه والتستر وارتداء الحجاب، أمَّا من يبدون تسامحاً أو إهمالاً فإنَّهم كما يقول يكونون مسؤولون أمام الله لأنَّهم لم يوفوا بواجباتهم الشرعية، وهم بذلك يستحقون العذاب الإلـهي والجزاء السيء.

مأساة الشيخ واستشهاده: قبض الاتحاديون على الشيخ ونفوه إلى سينوب وغيرها كما ذكرت لمدة ٤ سنوات، وعندما عاد للتصدي لأعداء الإسلام، وكتب رسالته الشهيرة «تقليد الفرنجة والقبعة» ودعا فيها إلى الأخذ من المدنية الغربية ما ينفعهم دون هذه السطحيات التي لا تفيد، وإلى عدم لبس القبعة، فإنَّه بعد صدور قانون القبعة بعد ذلك بعام وأربعة أشهر حرّم ارتداء الطربوش. وقبض على كل من يرتديه، وأودع علماء المسلمين السجون ونفذ ببعضهم حكم الإعدام وكان من بين من قبض عليهم الشيخ عاطف، وقدم للمحاكمة أمام محاكم الاستقلال. وعندما وقعت حادثة «كيراسون» حيث قام شخص في وسط الشارع وأعلن أنَّه لن يمتثل لقانون القبعة ولن يلبسها، وعندما قبض عليه سئل:

لماذا لا تلبس القبعة؟ فأجاب بقوله:

لأنَّني أرسلت إلى عاطف أفندي خطاباً بشأن ارتداء القبعة فأجابني بأنَّ الشريعة لا تسمح بارتدائها وإنَّ في ارتدائها الكفر، لذلك قررت أن لا أرتديها.

عندها قبض على الشيخ وحوكم ونفى ما نسب إليه من قبل ذلك

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٣١٣ ـ ٣١٤.

الشخص، إلَّا أنَّ المدَّعي العام طلب السجن ثلاث سنوات له على الأقل، ثمَّ يطلب القاضي من الشيخ إعداد دفاعه حتى الغد، إلَّا أنَّه أثناء كتابته دفاعه يغفو قليلاً ثمَّ يستيقظ وعلى وجهه حضور وفي أساريره سكون، ويمزّق الورقة التي كان يكتب عليها دفاعه، ويقول من ثمَّ للقاضي: لا حاجة لي يا سيدي إلى الدفاع فمن الواضح تماماً أنَّني لم أرتكب ذنباً يوجب الدفاع، وصدر القرار بالإعدام بعد ساعة واحدة فقط. وكان الشيخ خلال هذه الغفوة القصيرة قد رأى النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام يقول له: «يا عاطف، أتشغل نفسك بالدفاع عن نفسك ولا تريد الالتحاق بنا؟» وتيقّن بذلك تماماً أنَّهم سيعدمونه، وصدقت الرؤيا الصادقة، ولذلك مزق الورقة وحصل له المراد من النوم والتحق بقافلة الشهداء الخالدين، شهداء الدفاع عن الإسلام ومن أجل الإسلام على مرّ العصور.

الباب التاسع

الحضارة العثمانية

فن العمارة:

ترجع التقاليد المعمارية العثمانية من حيث المبدأ إلى مصدرين رئيسيين، أحدهما ناجم عن تطور الأشكال المعمارية الحديثة التي ظهرت في معظم أرجاء الأناضول خلال القرن الثامن الهجري وأوائل القرن التاسع. فهناك إلى جانب المساجد العادية والمدارس والأضرحة التي شيدت في ذلك الوقت، عدد من المنشآت التي أقيمت للدراويش من رجال الصوفية، أي التكايا التي كانت تلحق في أغلب الأحيان بالمساجد أو المزارات. واستمرت هذه المجموعات المعمارية في التطور الذي شمل شكل القباب والبناء المركزي الذي أشاده السلاجقة في الأناضول من قبل.

أما المصدر الآخر فكان الفن البيزنطي المتمثل في جامع آيا صوفيا بصورة رئيسية وخاصة في كثير من سماته العامة كالحجر والقرميد المستعمل أو القباب البارزة والمعلقة.

أما التأثيرات الفنية الأخرى فترجع إلى اتصال العثمانيين القديم مع إيطاليا، فمثلاً يمكن للمرء ملاحظة أوجه التشابه بين طراز البناء الطلياني وكثير من مساجد مدينة بورصة من حيث النوافذ والسقوف والواجهات.

ولكن النقطة المميزة والتي تعد أكثر وضوحاً وأهمية مما سبق هي سيادة الملامح العربية والإسلامية التي تتجلى بشكل واضح في الأعمال الفنية

الرائعة التي يشهدها المرء في مساجد استانبول الرئيسية (الفاتح ـ بايزيد ـ السليمانية. . . .). وبعض المساجد الأخرى التي أبدع في تصميمها المهندس المعماري الشهير (سنان باشا)(١).

وفي أواخر القرن التاسع الهجري وأوائل القرن العاشر كانت البساطة هي الصفة المميزة لفن العمارة عند العثمانيين. وخضعت كافة الأبنية لنظام شبه موحد مؤلف من قبة مركزية ضخمة وسلسلة من أنصاف القباب والقناطر والدعامات التي تسحر الناظر بجمالها خارج البناء في أعلاه وأسفله. أما المآذن الرفيعة المتعددة وإطار البناء الخارجي والفسحة السماوية لفنائه الخارجي التي تحول دون إبتلاع البناء من قبل منازل المدينة وأبنيتها الضخمة المحاصرة له، فهي آية في الإبداع الفني التي تأثرت إلى حد كبير بالفن المعماري الإسلامي الذي ساد إبان القرن الرابع الهجري.

توقف التجدد عند حدود معينة منذ القرن العاشر الهجري وبعد أن بلغ الفن عصره الزاهي. واختلفت الأبنية المتأخرة مثل جامع السلطان أحمد في استانبول بعض الشيء عن ما صممه سنان باشا سابقاً. ووجدت محاولات لإحياء الأشكال القديمة في الولايات بصورة خاصة وأحياناً في العاصمة نفسها كجامع (النور عثمانية) فيما بعد إذ يبدو واضحاً أسلوب الزخرفة التركي الشديد. وتبدو الزخرفة بتفاصيل أكبر في الأبنية الأصغر حجماً وخاصة الأضرحة العديدة المشادة في القرن الثاني عشر الهجري في استانبول خاصة، إضافة إلى الحمامات والخانات والقصور الفخمة مثل (طوب قبو) في العاصمة. وخضعت الزخرفة المعمارية بصورة عامة للأشكال الإنشائية والملامح المعمارية التي يأخذها البناء. ومما يلفت النظر ذلك الرسم المزخرف والقرميد الملون الذي كثيراً ما حوّل بعض الأبنية الصغيرة نسبياً

---

(١) سنان باشا: ألحق بالإنكشارية في عهد السلطان سليم الأول. شارك في حملات بلغراد ورودوس وموهاكس. وترأس فرقة المهندسين إبان حصار فيينا. ثم التحق بخدمة السراية وأصبح رئيساً للمعماريين (سر معمار)، قام بتصميم ٨١ جامعاً كبيراً و٥٢ مسجداً صغيراً و ٥٥ مدرسة و٧ معاهد لتدريس القرآن و١٧ مطعماً و٣ مستشفيات و٧ كتاتيب لحفظ القرآن و٧ جسور و٣٣ قصراً و١٨ خاناً و ٥ متاحف و٣٣ حماماً و ١٩ ضريحاً وأشرف على تشييدها.

مثل جامع رستم باشا في استانبول إلى مشاهد رائعة تستحق الذكر.

وفي عديد من المدارس العثمانية في الولايات، يشاهد المرء نماذج عديدة تمثل الصناعة الفخارية الإسلامية التي كانت سائدة فيما قبل في البلاد الإسلامية.

وأهم الآثار العمرانية التي خلفها العثمانيون ما يلي:

١ ـ **جامع آيا صوفيا**: وهي الكنيسة السابقة التي حولها السلطان محمد الثاني إلى مسجد يمثل الجامع الرئيسي في العاصمة عقب فتح القسطنطينية مباشرة. وقد عدِّلت لتلائم التقاليد والأنظمة الإسلامية بإجراء بعض التحولات. فغطيت الرسوم الفسيفسائية الذهبية التي تمثل الفن البيزنطي بطبقة من الكلس كي تتفق مع التعاليم الإسلامية الخاصة بالصور وشكِّل محراب وسط الجناح الجنوبي من الكنيسة السابقة، كما نصب المنبر على عمود الكنيسة الجنوبي الشرقي الكبير.

وفي عهد السلطان مراد الرابع كتبت بعض الكلمات ذات الأحرف الكبيرة التي تحمل اسم الجلالة واسم الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين وذلك على لوحات مستديرة شيدت على جدران المسجد. وهي بخط الخطاط (بيشكجي زاده مصطفى شلبي). حرف الألف على سبيل المثال طوله عشرة أذرع. وكلها بخط متشابك وبديع، وشاد السلطان أحمد الثالث مقصورة لصلاته مرتفعة ومشتبكة من جهة المسجد. أما محمود الأول فقد أقام سبيلاً للماء ومدرسة بجانب المسجد وإلى جنوبه فضلاً عن خزانة للكتب.

وعهد السلطان عبد المجيد إلى الأخوان (فوسطي) من المعماريين الطليان ترميم المسجد ورفع مآذنه الأربعة.

وبقي مسجد آيا صوفيا شامخاً وصلباً أمام عوامل الزمن المختلفة وتعرض صامداً للزلازل العديدة والهزات الأرضية العنيفة في تلك المنطقة الشهيرة بكثرة زلازلها. وأنشئت أربع مآذن شيدت أولاها في عهد السلطان محمد الفاتح وتلاها الباقي منذ عهد السلطان سليم الثاني. وركّب فوق القبة الرئيسية هلال من البرونز قطره ثلاثون متراً وعدِّلت بعض القباب، وأقيمت المدارس والمقابر وغيرها ملحقة بالمسجد.

ودعَّم المسلمون جدران آيا صوفيا بأخرى جديدة. فشيدت دعائم لتقوية الجدار الجنوبي الشرقي. وفي عهد السلطان مراد الثالث بنيت المئذنة الثالثة والرابعة. وهو الذي أمر بأن يشاد عند الباب حوضين يتسع كل منهما لـ (١١٥٠) ليتراً من الماء من أجل الوضوء. كما جعل في الداخل مصطبتين عاليتين يتلى فوق إحداهما القرآن الكريم طوال النهار ويؤذن للصلاة فوق المصطبة الأخرى. كما أنه تمّ وضع هلال مطلي بالذهب قطره خمسون شبراً مكان الصليب الذي بأعلى القبة وهو يرى من مسافات بعيدة، أما بخصوص المقبرة الملحقة، فقد شيدت قباب يدفن السلاطين تحتها، كان أقدمها قبة سليم الثاني، ومدفن ابنه مراد الثالث يقع إلى جانبها وكذلك فهنالك مدفن حفيده محمد الثالث والسلطانين مصطفى الأول وإبراهيم تقع هناك أيضاً.

جامع السلطان محمد: وقد أشاده المهندس اليوناني «خريستو دولوس» بناءً على إشارة من السلطان محمد. ويقع وسط العاصمة استانبول. وهو من أروع الأعمال المعمارية الهندسية وأجملها. أشيد على أنقاض كنيسة كانت فيما مضى مدفناً للأباطرة. ولمرات عدة تهدم هذا المسجد إثر الزلازل القوية التي كان آخرها عام ١١٨١ هـ وعندها عدِّل التصميم.

يتألف الجزء الداخلي من المسجد، من قبة ضخمة تقع في الوسط تستند على أربعة أعمدة وأربعة قباب أخرى أصغر حجماً وستة من النوافذ بعضها فوق بعض تتيح للنور الساطع الدخول إلى داخله. أما الجزء الخارجي منه فيحمل مئذنتين نحيلتين وعدد من المدارس والحمامات والمطابخ وخان لنزول التجار الغرباء ودار للعجزة ومستشفى. وإلى يمين الباب الرئيسي يجد المشاهد لوحة رخامية كتب عليها بأحرف من ذهب الحديث النبوي الشريف «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

جامع (سلطان أيوب): ويعد من أقدس الأمكنة عند الأتراك كان السلاطين العثمانيون يقلدون فيه في احتفال رسمي. أشاده السلطان محمد الثاني قرب ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه. وفي حينه رأى الشيـخ آق شمس الدين مكان القبر في منامه. واكتشف ذلك بالفعل قرب السور. وهو مشاد بالرخام الأبيض وبشكل مربع تعلوه قبة.

مسجد بايزيد: وهو الذي شيد في عهد السلطان بايزيد ولذا حمل اسمه وهو يعد بحق من أبرز الآثار العمرانية التي تمتاز بنفاسة المواد البنائية وبالزخرفة التي جرت على الطريقة الفارسية. وحول إحدى جهاته يلاحظ الامتداد الجميل لأشجار الدلب والسرو الوارفة الظلال. أما من جهاته الأربع فتحيط به أحجار جميلة من الرخام الأبيض والأسود والمرمر الأخضر بشكل هندسي يتألف من عقود تعلوها أسقف مقببة مزخرفة. ويرتفع الحوض المثمن وسط صحن الجامع وفوقه عدد من الأعمدة ويتألف شكله الخارجي من أربعة أبواب عالية مشيدة على الطراز الفارسي ومآذن تنتصب على الزوايا وأجنحة مستقلة أخرى.

جامع السليمانية: ويعد من أجمل آثار الفن المعماري العثماني أشاده السلطان سليمان وصممه المهندس المعماري سنان باشا في مكان يقع شمالي السراي القديمة بأعلى قمة جبلية في الآستانة. بني صحنه الخارجي بمنتهى الفخامة. أما الباب السلطاني مقابل المحراب فقد بني على الطراز الفارسي. وفوق زواياه الأربع تتربع أربع مآذن بينها قبة ضخمة يزيد ارتفاعها خمسة أمتار عن قبة آيا صوفيا. أما جدرانه وأعمدته فمغطاة جميعها بالرخام المتعدد الألوان في حين زخرف الجدار الخلفي والمحراب بالقاشاني الفارسي. وفي ذلك العصر قام أشهر الرسامين على الزجاج والمدعو «سرخوس إبراهيم» بزخرفة نوافذ الجدار الخلفي التسع. ويشاهد حول الجامع أربع مدارس وأبنية أخرى ومدفن السلاطين سليمان القانوني وسليمان الثاني وأحمد الثاني. وفنه الهندسي يختلف كثيراً عن آيا صوفيا.

أما **جامع السلطان أحمد** وهو البناء الأزرق الجميل الذي أشاده أحمد الأول مقابل آيا صوفيا فله ست مآذن وفيه مدفن ذلك السلطان وولديه عثمان الثاني ومراد الرابع.

ومن الجوامع الفخمة في العاصمة **جامع** (**يني جامع**) قرب جسر غلطة. **وجامع النور العثماني** الذي بناه محمود الأول وأكمله عثمان الثالث. **وجامع لا له لي** وفيه مدفن سليم الثالث، وقرب النور العثماني يشاهد **جامع محمود باشا وجامع مراد باشا**...

وفي استانبول القديمة حوالي ٥٠٠ جامع عدا جوامع غلطة، وبك أوغلي، وبشكطاش، ونشان طاش والقرى الواقعة على البوسفور إذ تعد الجوامع هناك بالمئات منها ما هو في أجل آيات الفن والإتقان والإبداع.

إضافة إلى الجوامع والمدافن تشاهد التكايا (الزوايا) التي أشهرها **تكية المولوية** في يني كوي وغيرها... وقد بلغ عددها في العاصمة وقرى البوسفور فقط حوالي ٢٦٠ تكية.

أما القصور **فأهمها سراي طوب قبو** التي تمتاز بامتدادها الواسع ومبانيها وحدائقها وساحاتها وقصورها. وكل ذلك بغاية الأبهة والجمال. وفي كل غرفة أو بهو تقريباً يرى الزائر آيات القرآن الكريم كتبت على الجدران بماء الذهب. أما القصيدة المعروفة بالبردة الشريفة فمكتوبة على أحد الجدران بماء الذهب.

إضافة إلى هذه السراي هنالك **سراي دولما بهجي** على البوسفور وتمتاز ببهوها الكبير. وكانت مسكناً للسلطان محمد رشاد. **وسراي جراغان، وسراي يلدز** التي سكنها السلطان عبد الحميد فهي على رابية من أبدع روابي الآستانة ولها حديقة تصل حتى البحر. وعلى الشاطىء الآسيوي من البوسفور نجد سراي بكلريك التي توفي فيها السلطان عبد الحميد الثاني بعد خلعه.

اللغة العربية في الدولة العثمانية:

أثَّرت اللغة العربية، لغة القرآن الكريم في كثير من اللغات، حتى جعلت البعض يرى أنَّها أصل اللغات، وأنَّ الحرف العربي يتردد في كل لغات العالم. وكانت لغات الشعوب الإسلامية تكتب ولا يزال معظمها بالحرف العربي، كالفارسية والتركية حتى عصر تركيا العلمانية، وكذلك لغة البشتو والأوردو وغيرها.

وفي بلاد الأناضول، كانت اللغة الفارسية، هي اللغة الرسمية للدولة السلجوقية، إلَّا أنَّ العثمانيين استخدموا اللغة التركية لغة رسمية بدل الفارسية، إلَّا أنَّهم لم يدرّسوها للشعب، بل كانت العربية هي السائدة آنذاك.

وكان السلاطين والأمراء، يجيدون اللغة العربية، واتخذوها وسيلة لتعلم الدراسات الإسلامية المنصوص عليها في نظام تربية الأمراء في القصر العثماني.

كذلك تأثر الأدب التركي بالأدب العربي، نتيجة لتعلم الأدباء الترك العربية واحتكاكهم بالبيئات العربية، أو بصورة غير مباشرة من جراء تقليدهم للأدب الفارسي، وهو بدوره مقلد للأدب العربي، ويبدو أثر الموشحات العربية واضحاً، وخاصة في الأدب الحديث. واستطاع الأتراك أن ينتقوا من العروض العربي أوزاناً تناسب طبيعة التركية، ولذلك عرف ما يسمى بالعروض التركي، ومنذ عهود السلاطين العثمانيين الأوائل، كانت تدرس العلوم والآداب باللغة العربية ويعتمد على الكتب العربية.

ففي عهد السلطان «أورخان» وجدت مدرسة «إزنيق»، ودرّس فيها «داوود القيصري»، تفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير القاضي للبيضاوي. كذلك درَّس الحديث باللغة العربية، حيث درست كتب الصحاح الستة. وفي الفقه درّس كتاب الهداية للمرغناني، وكتاب الوقاية لعلاء الدين الأسود. وأعطى السلطان «أورخان» لعلاء الدين الأسود مدرسة إزنيق، وصنَّف وقت تدريسه فيها كتاب شرح الوقاية الآنف الذكر.

وفي العقائد درَّس كتاب النسفي، وكتاب القاضي الإيجي، وفي علم الكلام تجريد الكلام للطوسي، وطوالع الأنوارللبيضاوي، وفي البلاغة مفتاح العلوم للسكاكي وفي المنطق كتاب الإيساغوجي للجرجاني، وكتاب مطالع الأنوار للقاضي سراج الدين الأورموي. وفي الفلك كتاب الملخص لمحمود بن محمَّد الجغميني.

وكان عهد الفاتح غنياً بالتآليف العربية، كذلك «سليم الأوَّل» و «سليمان القانوني» ويذكر أنَّ السلطان «مراد الثَّاني» كان يحمي حركة الترجمة من اللغة العربية إلى التركية، أمَّا الفاتح فكان يجيد اللغة العربية إجادة تفوق سائر اللغات الأخرى، ويداوم على المطالعة في كتبها حتى قيل إنَّ جمهرة الكتب في مكتبته الخاصة كانت عربية. وأجاد السلطان «سليم الأوَّل» اللغة العربية إجادة تامة واشتغل بآدابها، حتى قيل إنَّه كان ينوي جعلها اللغة الرسمية للدولة الغثمانية.

ويبرز في مجال اللغة العربية، اسم «الفيروزآبادي» صاحب القاموس المحيط

الشهير، وقد عاصر السلطان بايزيد يلديرم، وبرع في العلوم كلها، وكان يقول: لا أنام إلاَّ وأحفظ مائتي سطر، وله تفسير للقرآن العظيم، وشرح البخاري والمشارق.

ودرّست اللغة العربية كمادة مستقلة، ففي الصرف، جرى تدريس كتاب التصنيف للفناري، وفي النحو درّست ألفية ابن مالك، وكتاب العوامل للشيخ الجرجاني، والكافية في النحو لابن حاجب، وشذور الذهب لابن هشام، وقطر الندى لابن هشام أيضاً. وفي مجال الثقافة العربية، كتب العديد من مفكّري الدولة العثمانية في اللغة العربية، ونذكر منهم «كاتب جلبي» و«طاش كبري زاده» و«ابن كمال باشا»:

فالموسوعي الشهيرك كاتب جلبي الذي غلب عليه لقب «حاجي خليفة» صاحب كتاب «كشف الظنون البيلوغرافي الهام، له المكانة المرموقة في الدراسات العربية والإسلامية، وقد حوى أسماء ٥٠٠ ١٤ كتاباً و ٩٥٠٠ مؤلفاً وتناول نحو ثلاثمائة فن أو علم. وحوى هذا الكتاب عيون المصادر في الفكر الإسلامي المصنّف باللغة العربية وغيرها من اللغات الإسلامية.

أمًّا «طاش كبري زاده» صاحب كتاب «الشقائق النعمانية، في علماء الدولة العثمانية» فهو عصام الدين أبي الخير أحمد بن مصطفى، الذي التفت إلى جمع أخبار علماء البلاد العثمانية ومناقب علماء الروم وأردف كما يقول ذكر علماء الشريعة ببيان أحوال مشايخ الطريقة. وقسم كتابه الذي ألفه باللغة العربية إلى طبقات تتسلسل حسب التدرج التاريخي من عهد السلطان عثمان الغازي، مؤسس الدولة وهي الطبقة الأُولى حتى السلطان «سليمان خان حيث الطبقة العاشرة. ويسرد نبذة عن حياة وسيرة وأعمال علماء وفقهاء وأدباء وأطباء ومتصوفة وزهاد كل طبقة. ويلي هذا الكتاب، كتاب آخر أيضاً اسمه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم، وهو باللغة العربية أيضاً، ويذكر أفاضل الروم حتى عام ٩٨٩ هـ. ويقول طاش كبري زاده إنَّه فرغ من كتابه «الشقائق النعمانية» وأملاه على البعض بعد أن أُصيب بكفّ البصر عام ٩٦٥ هـ. وله بعض التصانيف من التفسير كما يقول، كذلك تصانيف في أصول الدين وأُصول الفقه واللغة العربية، إلَّا أنَّها لم يتيسر له تبييضها.

ويتناول كتاب الشقائق النعمانية سيرة أكثر من خمسمائة عالم وشيخ، وترجم الكتاب إلى اللغة التركية في عهد مؤلفه التركي، وطبع باللغة العربية عدة طبعات. والكتاب يظهر قوة ونموّ العلوم الإسلامية باللغة العربية من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجري. وامتاز «ابن كمال باشا» برسائله اللغوية، وهو شمس الدين أحمد بن سليمان المعاصر للسلطان سليم الأوَّل، بكثرة التصانيف والرسائل، فكان أشبه بالسيوطي وابن حزم وابن الجوزي وغيرهم، وزادت رسائله عن ٣٠٠ باللغة العربية عدا الفارسية والتركية.

واتخذت بعض المدارس في العهد العثماني اللغة العربية، ومنها مدرسة إعداد الأمراء ومدرسة «أندرون» وهي مدرسة في القصر السلطاني لإعداد موظفين من الدرجة الأولى العالية، استخدامهم في القصر والجيش والحكومة والمدارس العسكرية، ومدارس الموسيقى، وأخيراً مدارس الفنون العسكرية[1].

الآدابُ وَالفنُون المَسْرَحِيَّة

تطور نوع من اللغات التركية التي كتب بها قسم كبير من الأدب الإسلامي الذي ازدهر في آسيا الوسطى إلى ما يعرف باللغة التركية العثمانية ابتداء من القرن الثامن الهجري، وبلغ أوجه في القرن الحادي عشر. وقد تأثر الأدب التركي كما هو الحال بالأدب الأردي بالفارسية وخاصة من حيث الأوزان العروضية كما ازدهر نوع من الشعر الشعبي الموزون في أوساط سكان الأناضول والروميللي. وساهمت الترنيمات الصوفية لشاعرهم «يونس إمره» المتوفى عام ٧٢١ هـ بشكل فعال في تجسيد هذا الأدب الذي حافظ على وجوده واستمراريته في المراكز الصوفية الإسلامية. ومن هذا الشكل الشعبي فضلاً عن الأدب الغربي اشتق الأدب التركي الحديث واستوحى الكثير من مواده.

ويمثل عهد السلطان مراد انتهاء مرحلة الثقافة العثمانية القديمة، وظهور نوع جديد آخر بعد الفتوحات الجديدة وما حملته من الأفواج الغفيرة

---

(١) انظر كتاب العثمانيون في التاريخ والحضارة. ص ٤٣١ - ٤٣٢، كذلك كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية تأليف طاش كبري زادة، وأخيراً كتاب الأدب التركي الإسلامي تأليف د. محمَّد عبد اللطيف هريدي.

التي دخلت في دين الله. واستمرت الحياة الأدبية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالصوفية، وقد عرف المسلمون في الأناضول منذ القديم قصائد الشاعر الصوفي الشهير «أحمد يسّوري» وتأثروا بشكل فعال بأسلوب «يونس إمره» الذي نسجت حول حياته الأساطير المختلفة، فجاءت أشعاره مقلدة ليسوري من الناحية الأدبية، وأفرغ فنه في لغة شعبية وأوزان تركية.

وازدهر في قصور السلاطين والأمراء شعر من نوع آخر صيغ بأوزان فارسية. وعندما تحللت دولة السلاجقة تقاسمت إرثها الإمارات. وسرعان ما حلت اللغة التركية محل العربية والفارسية. ونشأ النثر الشعبي الصوفي والديني في خدمة القرآن الكريم وخاصة في مجال التفسير. وشمل السلطان مراد في رعايته العلماء والشعراء والموسيقيين، وظهرت آنذاك أولى المؤلفات باللغة التركية.

يونس إمره: ولد هذا الشاعر الصوفي في منتصف القرن السابع الهجري، فكان له أقوى الأثر على الأدب التركي آنذاك على الرغم من كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب. وقد نظم الشعر الفلسفي والصوفي الجيد الذي كرست معظم موضوعاته عن الحب الإلهي وتحدث عن القضاء والقدر، وتميز بالشعور العميق. وظلت أشعاره لمدة طويلة تنشد في حلقات التصوف في الأناضول. نظم أوزانه من البحر التقليدي المقطع السائد في الأناضول. ويدعي الأتراك أنه الذي أوجد الأدب التركي حقاً وبصورة خاصة، فكان شعره الدعامة الرئيسية لأشعار الطريقة البكتاشية. وأسلوبه بسيط وواضح وغني بمضمونه الفلسفي. وفيما بعد قام العديد من الشعراء الأتراك بتقليد شعره دون الوصول إلى المستوى ذاته من العاطفة والإنسانية. ويقول البعض أنه أدرك «جلال الدين الرومي» وأنه تصرف بمضامين شعره، واستخدم تعابيره وكلماته الفارسية، وتبدو قصص مثنوي جلال الدين رائجة في أشعاره. ويصفه طاش كبري زاده بأنه من علماء الدولة العثمانية ـ الطبقة الرابعة المعاصرين للسلطان بايزيد.

محمَّد الثاني والأدب:

كان السلطان محمد الفاتح يجمع في شخصه جميع مظاهر العلم

والأدب في زمانه. وكان للشعر نصيب أوفى من بين العلوم والآداب الإسلامية التي تمتع بها. وقد أغدق الهبات والعطايا السخية على رواده، ولا غرابة في ذلك فهو يعد من بين من مارس الفن في هذا المضمار، ونظم بعض الأشعار التي جمعت فيما بعد.

وقام الشعر آنذاك على أسلوب فارسي، وإن كان لا يحيد في مضمونه كثيراً عن مجال الغزل الصوفي الجميل. وكان محمد الثاني من عشاق القصيدة الفارسية. فعهد للشاعر الأناضولي «شهدي» نظم قصيدة تصور التاريخ العثماني باللغة الفارسية على غرار «الشاهنامه» التي نظمها الفردوسي. كما كان أحد شعراء بلاطه المدعو «حميدي» ينظم باللغتين التركية والفارسية، فطغى الأسلوب النثري على الشعر في عهده، وطعم بالألفاظ الأجنبية الكثيرة. وإضافة إلى الفاتح، فهناك ثلاث شعراء تعاقبوا على العرش العثماني هم سليمان القانوني ووالده السلطان سليم الأول ووالده السلطان بايزيد الثاني. وكان السلطان مراد الثاني أول سلطان من آل عثمان ينظم الشعر ويؤدي دوراً هاماً في تطوير الأدب التركي العثماني[1] وكان مراد الثاني يحمي حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة التركية ويشجعها.

وقبل فتح القسطنطينية كان الشاعر «سليمان شلبي» من أكثر شعراء التصوف شعبية ولا يزال وخاصة في المناسبات التي تتلى فيها قصة مولد النبي ﷺ، فكانت أناشيده تسحر الحاضرين. وعلى الرغم من وجود الكثير من الشعراء الذين نظموا عن المولد باللغة التركية فإن شعره كان يستولي على أفئدة الجميع، لمقطوعاته البسيطة ذات المدلول الديني الكبير والمفعمة بالوجد والحب العميق لمحمد صلّى الله عليه وسلّم.

كان محمد الثاني في الواقع يتمتع بحاسة أدبية رفيعة تميزت بذوقها الراقي التي قلّ إن يجاريه فيها سلطان آخر. وقاده تعطشه للعلوم والمعارف الإنسانية أن طلب مرة إلى جمهورية راجوزا (التي كانت تدفع الجزية له) دفع الجزية على شكل مجموعة من المخطوطات تجمع من إيطاليا في ذلك

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة ـ د. محمد حرب ص ٢٤٦ .

العصر الذي كانت بذور النهضة الأوروبية تتفتح عن أكمامها في إيطاليا وخاصة في مجال الأدب والفن.

وفي القرن الثامن الهجري نظم الشاعر الصوفي «نسيمي» أشعاره التي أثرت على لهجة الأناضول الشرقي وآذربيجان، وقد نظم فيما بعد بهذه اللهجة الشاعر «فضولي» في القرن الحادي عشر الهجري، وقد تأثر بالبيئة العربية، وكان ملتزماً قواعد الدين الحنيف ونجد أيضاً الشاعر (ذاتي) المتميز باللغة السهلة والأسلوب البسيط، وله مولد أسوة بمولد «سليمان شلبي».

أما القصص الشعبية الدينية فقد انتشرت بشكل خاص في أواسط العامة وتناولت بشكل أساسي حياة الأولياء والسلاطين القدامى بأسلوب نثري بسيط. وكانت «المحمدية» التي نظمها «يازجي أوغلو» من غاليبولي عام ٨٥٢ هـ ذات شهرة رفيعة عند الأتراك وهي تختلف عن قصة المولد في المعنى والمحتوى. أما المثقفون منهم فتطلعوا إلى الأدباء الإيرانيين والعلماء العرب. فكان «طاش كبري زاده» من الذين ألفوا المصنفات العديدة باللغة العربية، ونذكر كتابه «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية» الذي كتبه باللغة العربية.

وكان تقليد الشعر الفارسي هو الطريقة المثلى للمثقف، الأمر الذي أدى بالعثمانيين إلى دراسة الشعر الفارسي بتعمق، وشرحوا موازينه أمثال «سروري» الذي وضع تفسيره الشهير لآثار الشاعر «سعدي» وكان مؤدباً للأمير مصطفى في عهد سليمان الأول. ثم «سودي البشناقي».

ونظم السلطان سليم ديواناً باللغة الفارسية، واعتبر الغزل سيد الشعر قاطبة. ومثَّل الشاعر «باقي» الذي توفي في استانبول في أوائل القرن الحادي عشر الهجري هذا الاتجاه.

أما تقليد «مثنوي» جلال الدين الرومي ومثنوي «جامي» و «نظامي» ذي الوجهة الصوفية فقد وجد من ينظم على شاكلته.

وعندما اضطرت الدولة العثمانية التي تسير في مرحلة الضعف والانحطاط إلى الانتقال من موقع الهجوم إلى موقع الدفاع تجاه القوى الأوروبية الغربية، انسحب الأمر على الحياة الفكرية أيضاً. وفي هذه الحقبة

من الزمن لم يعنَ السلاطين بالأدب إلاّ لماماً. ورغم العداء السياسي بين العثمانيين والإيرانيين فإن الأدب ظلّ يتأثر بالروائع الفارسية على الرغم من المحاولات التركية لإدخال الأسلوب التركي الشعبي.

وانعكست الآلام والهزائم السياسية والنكبات المرافقة لها على ضمائر الشعراء والنقادين الاجتماعيين وظهرت المناحات الناقدة المريرة. وأصبح النثر متكلفاً لفظياً باستثناء كتاب «سياحة نامه» الذي روى مؤلفه «أولياجلبي» بعضاً من أسفاره وسياحاته. وهو الذي شارك في الحروب في بلاد روسيا وترانسلفانيا والمجر، وأثناء السلم طاف في أرجاء الدولة ووضع القصص على لسان الحيوان. وركز على الخوارق والمعجزات. وكان كتابه ذا مادة غزيرة ليس في مجال الأدب العثماني فحسب وإنما في مجال الثقافة الإسلامية عامة. وتميز الأدب في هذا الدور في اتجاهين، اتجاه يميل لوصف مباهج الحياة وزخارفها، ونذكر منه الشاعر «نديم» ١٠٩١ ـ ١١٤١ هـ، الذي أجاد في فن الوصف، معبراً عن رفض الواقع الأليم المدى في عهد السلطان أحمد الثالث واتجاه يميل إلى الشكوى من الدهر، ثم تطورت الشكوى إلى الهجاء عند الشاعر «نفي» ٩٨٠ ـ ١٠٤٥ هـ.

الأدب التركي الحديث:

احتلت الأفكار الغربية التي حملها بعض المثقفين الأتراك ممن بهروا وفتنوا بمظاهر الحضارة الأوروبية الحديثة، دوراً بارزاً في الأدب بعد عام ١٢٥٥ هـ. وكان «ضيا باشا» الذي توفي عام ١٢٩٧ هـ قد ترجم بعض كتابات روسو وقدمها للمثقفين الأتراك وامتاز أسلوبه المغاير للأسلوب التقليدي القديم بالشفقة والشكوى من الظروف التي يعيشها المسلمون في زمن انتصر فيه الغرب النصراني. وهاجم أدب الديوان في مقال له بعنوان «شعر وإنشا» أثناء وجوده في لندن وبعض الاعتراف بأصالته بدعوى أنه تقليد لأدب الفرس والعرب ليس إلا، لكنه حين أصدر كتاب المنتخبات الشعرية «خرابات» انتقى نماذجه من الآداب الثلاثة[1].

---

(١) الأدب التركي الإسلامي. تأليف محمد عبد اللطيف هريدي ص ١٤٧.

دارت المقالات الرئيسية في مجلة «تصوير أفكار» الواسعة الانتشار والتي أسسها كل من ضيا باشا وشناسي ونامق كمال، كما تناولت أشعار وروايات وقصص هؤلاء جميعاً محوراً واحداً هو الوطن أو أرض الأجداد في عصر سادت فيه روح التعصب القومي في أرجاء القارة الأوروبية وخاصة بعد الثورة الفرنسية التي قلبت كثيراً من المفاهيم في ديار الغرب.

وتصدى هؤلاء للدفاع عن هذه الأفكار التي رضعوا لبانها دون التمييز بين الواقع المرير الذي آلت إليه حالة بلادهم وأسلوب علاجه وعما هو عليه في بلاد الغرب، وبين الظروف التي تسود في كلا المجتمعين مجتمع الإسلام ومجتمع الغرب الحديث الذي تمرد على الكنيسة ورجالها لأسبابه الخاصة به. وشرع هؤلاء يدعون للمجاهرة بالدعوة إلى حرية الفكر والديموقراطية والدستورية و... كما هو في أوروبا ولتطبيقها في بلادهم. وطالب كل من إبراهيم شناسي ونامق كمال، بأن تكون لغة الشعر والأدب: أقرب إلى لغة الحديث، حتى يفهمها سواد الناس. أما تجارب إبراهيم شناسي في هذا المجال والتي أطلق عليها «صاف تركجه» أي التركية الصافية فلم تجد رواجاً لجفاف أسلوبها.

واهتم العثمانيون حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري بالموضوعات والأساليب الأدبية الفارسية. وبعد أن أوفد بعض الشباب إلى باريس لاستكمال دراستهم، عكف بعضهم هناك على دراسة الأدب الإفرنسي، وقضى من بين هؤلاء (إبراهيم شناسي) خمس سنوات هناك ثم استدعي إلى العاصمة العثمانية ليرأس مديرية التربية والتعليم. وسرعان ما استقال ليعمل في جريدة «ترجمان أحوال» ثم أنشأ جريدة «تصوير أفكار» التي سبق ذكرها. اتجه إبراهيم شناسي نحو تحرير اللغة التركية من التكلف ثم نشر أول ترجمة تركية لمجموعات نثرية وشعرية فرنسية. ففتح المجال أمام حركة الترجمة عند الأتراك.

ثم تحول جمهور الكتاب من الناشئين بعد شناسي إلى الاتجاه الجديد. وكان نامق كمال أنجب تلاميذه ومؤيديه. وعهد إليه شناسي بالعمل في صحيفته عندما سافر إلى باريس. ولكن نشاطه السياسي حال دون إنتاجه

الأدبي، إذ أنه كان قد التحق بجمعية تركيا الفتاة وفر إلى لندن لبضع سنوات. ثم نشر بعد ذلك مسرحية «وطن يا خود سلستره» أيْ الوطن أو سلسترا ذلك المعقل الحصين الذي هاجمه الروس. وفي قصيدة حماسية أطلق عليها «الحرية» نجده يتغنى في غزلياته بالحرية وحب الوطن والدعوة للجهاد وإنقاذ الوطن، وهي تمتاز بصدق العاطفة بصبغة عامة، رغم اقتباسه بعض الصور من الشعر الغربي، قبل تصويره للوطن في صورة امرأة تتشح بالسواد، وتمد ذراعاً لتصل إلى الروضة النبوية وأخرى إلى مشهد كربلاء.

رأت الدولة بهذه الأفكار المعادية للرابطة العثمانية الإسلامية وما يشكل طرحها خطراً هداماً فأصدرت أمراً بمنعها ونفت نامق كمال إلى قبرص.

وجاء «عبد الحق حامد» تلميذ نامق كمال ليقدم سيلاً جديداً من الأدب التركي المطعّم بالأفكار الغربية. والمستمد من الأفكار الكلاسيكية الفرنسية وأشعار شكسبير. وقد نشر عام ١٢٩٦ هـ كتاباً تناول فيه أشعار عشرة من الشعراء الأتراك الذين ألفوا وكتبوا بأسلوب غربي سماه «ساهر» أي البلاد ولكن الخطر الذي يتهدد المجتمع الإسلامي من هذه الأفكار الدخيلة أدى بالسلطان عبد الحميد إلى منع أشعاره. وخلال حياته الطويلة وما شهده من أحداث جسام وتنقله فيما بين مختلف بلدان العالم. تكوّن لديه رصيد أدبي رائع، حتى لقبه معاصروه بالشاعر الأعظم أو أمير الشعر التركي الحديث. ودعا عبد الحق حامد إلى جعل المسرح التركي مسرحاً قومياً، وله مسرحية طارق بن زياد حيث اعتمد في كتابة مسرحياته الأندلسية على كتاب «تاريخ الأندلس لضيا باشا وكان الشعب في الدولة العثمانية يسير في وادٍ مغاير للوجهة التي أرادها هؤلاء المستغربون وكانت لا تزال له اتجاهاته الخاصة ولا يزال قصاصوه الشعبيون «مداخله» يغذون هذه الاتجاهات حتى أتى «أحمد مدحت» الذي رعاه وشجعه «مدحت باشا» ليدخل فنهم هذا في صلب الأدب التركي وقد ترجم من الفرنسية للتركية كتاباً لأحد المستشرقين ودافع عن الإسلام فكان متأثراً بالمذهب العقلي. ثم تلاه «محمد توفيق» فكتب في الموضوعات الوطنية. وفي كتابه «استانبول دربير سنه» أي سنة في استانبول،

يصور الحياة الاجتماعية لدى سكان العاصمة وكيف أن الناس هناك لم يتطرق إليهم الفساد بعد.

ونحا «حسين رحمي» منحىً آخر بمدحه للفلاحين من أبناء الأناضول والذين هم بنظره أمل البلاد ومعقد رجائها.

وجاء رجال تركيا الفتاة وحرروا الأدب من قيود الرقابة، فبرز أدب قومي فتي تمثل في أشعار «أحمد هاشم». ثم تأسست بعض الجمعيات مثل جمعية «تورك أوجاغي» ـ «تورك يوردي» وغيرها... فدافعت عن القومية التركية أدبياً وتاريخياً.

ثم تأثر بعض الكتاب فيما بعد أمثال «ضيا كوك ألب» المتوفى عام ١٣٤١ هـ والذي وضع فلسفة القومية التركية. وكان أحد قادة حركة الكتّاب التتار الهاربين من روسيا والذي أقام المحاضرات المتعددة في الجامعة، ونفح الروح القومية التي عبرت عنها الشاعرة خالدة أديب هانم في روايتها «طوران». ونبذ «محمد أمين» القوافي العربية والفارسية والتفت بدلاً عنها إلى الكلمات التركية الصرفة.

ويمكننا أن نتبين بروح النقد الاجتماعي بعد الانقلاب العثماني ما يلي: ففي أشعار «محمد عاكف» المتوفى عام ١٣٩٥ هـ نجد صورة نقدية حية للحالة العامة في تركيا قبل الحرب العالمية الأولى. وكان شعره وأسلوبه التمثيلي يعبر عن الأنماط التقليدية. وهو الذي ألف النشيد القومي التركي بعد هدم الخلافة الإسلامية وتربع أتاتورك فوق سدة الحكم. ولكنه سرعان ما غادر البلاد عندما خاب أمله وأمل الكثيرين من أمثاله الذين خدعوا بالشعارات البراقة وهزته تصرفاته الهدامة تجاه الإسلام والمسلمين.

كانت القصص والمقالات والأشعار العثمانية طافحة بالدموع إبان القرن الثالث عشر الهجري. أما بعد الحرب العالمية الأولى فنجد رواية «آتشتين غوملك» أي القميص والنار التي كتبتها خالدة أديب تعكس وضعاً جديداً بعد قطع الصلة بالماضي الإسلامي التليد. تلك القصة العاطفية الشهوانية لفتاة اسمها «عائشة» عملت لتحرير بلدها ومن أجل الرجلين اللذين أحباها. والجدير بالملاحظة أن هذه النزعة القومية التحررية التي رفع لواءها

أمثال هؤلاء، لا يمكن أن تتم بنظرهم إلا بتحرير المرأة من جميع الروابط والالتزامات التي فرضها رب العباد الذي هو أدرى بمصلحة الإنسان، وإطلاق عنان الجنس أمام أولئك المخدوعات المسكينات، وعندئذٍ يحصل التقدم والتحرر الذي يودون ولا غرابة فهم عبيد الشهوة والمأجورون للمستعمر الحاقد الذي ينفذون له مآربه. قالت هذه الأديبة المستغربة، بالمساواة السياسية والاقتصادية بين المرأة والرجل وهي التي تلقت تعليمها على يدي المعلمين الخصوصيين. وفي الكلية الأميركية في استانبول. وفي عام ١٣٣١ هـ كتبت «يني طوران» أي الطوران الجديد وتطرقت إلى الحركات القومية التركية. ولعبت دوراً بارزاً بتشجيعها الاختلاط بين الرجال والنساء، ونشرت قصتها الشهيرة «خانذان» أي العائلة، وتناولت فيها مشكلات المرأة المتعلمة. وبعد أن عملت في ولاية سورية أثناء الحرب العالمية الأولى، انضمت هي وزوجها إلى القوميين الأتراك، ولعبت دوراً فعالاً في حركات الأناضول، التي أدت إلى هدم الخلافة الإسلامية. ولكنها مع كل روح التحرر التي دعت إليها اختلفت مع أتاتورك، وغادرت البلاد إلى باريس ولندن والولايات المتحدة الأميركية والهند لتعود بعد موته وتصبح أستاذة الأدب الانكليزي وعضواً في البرلمان التركي.

ومن بين قصصها «أزينو أوغلو» أي ابن أزينو و «سينكلي بقال» التي كتبت بالانكليزية ومعناها: الفلاح وابنته. ولها في اللغة الانكليزية «صراع الغرب والشرق في تركيا» و «تركيا تواجه الغرب» و «المحنة التركية».

أما في مجال القصص الريفية التركية فنجد الكاتب «عمر سيف الدين». وتميزت موضوعات «صباح الدين علي» الذي اغتيل أثناء طيرانه لبلغاريا عام ١٩٤٨ م، بالنقد العنيف للأسس الاجتماعية التركية. وتطرق إلى مأساة الطبقات الدنيا. وتعامل معها بعنف وقسوة ومن غير رحمة. شأنه شأن الكتاب اليساريين الذين لا بدّ لهم من التطرق لاتهام الدين، كما فعل «يعقوب قادري قارا عثمان أوغلو» الذي نشر يصف الحياة في مركز البكتاشية وفي البيئة الإسلامية الأناضولية التي يتهمها بالدعارة.

وبعد أن أساد أتاتورك اللغة التركية، باستبداله الحروف العربية بأخرى

لاتينية أملاً أن ينسى الشعب التركي المسلم تاريخه الإسلامي، أصبح الأدب التركي في التبعية التامة للأدب الغربي، وتحررت القوافي من الأوزان العربية والفارسية. ولكن هذا لم يخل من بعض المزج الذي قام به بعض الأدباء بين الفضيلة العثمانية الموروثة والشعر الفرنسي كما فعل «أحمد هاشم» و «يحيى كمال بياطلي». أما «ناظم حكمت» فقد استعمل الشعر الحر الذي عبر عن طبقته الاجتماعية التقدمية.

الصحافة والتعليم:

كانت صحيفة «تقويم وقائع» اليومية أول إصدار ظهر عام ١٢٤٧ هـ ثم تلتها «جريدة حوادث» التي صدرت عام ١٢٥٦ هـ وكانتا تنقلان بعض الأخبار المترجة عن الصحف الأجنبية وبعد أقل من ثلاثين سنة ظهرت صحف أخرى ميولها أدبية مثل «ترجمان أحوال» وبعدها بسنتين جريدة «تصوير أفكار» السالفة الذكر.

قامت بعد عصر التنظيمات محاولات لتأسيس المدارس العصرية بعد أن كانت الثقافة العثمانية تقتصر سابقاً على الكتاتيب ومدارس تعليم القرآن... وفي عام ١٢٦٩ هـ تأسس مكتب لوضع الكتب المدرسية الابتدائية اللازمة. ثم افتتحت أول مدرسة عالية لتعليم البنات ثم أول جامعة. ولم تكتب الحياة إلا لمدرسة الطب ومدرسة الحقوق فقط.

الفن المسرحي:

ساد في بلاد الأناضول وبعض الولايات العثمانية شكل من المسرح البدائي إذ قام المهرجون بأداء الأدوار فيه لمدة طويلة من الزمن. وهو ما كان يدعى (مداح) أو (مقالت) باللغة التركية... واستعمل راوي القصة التنكر وسادت فيه روح الهزل الموجهة بصورة خاصة إلى أوساط العامة من الناس. ومنحه تقليد الحيوان واللغة العامية الدارجة شعبية كبيرة في أوساط الناطقين باللغتين العربية والتركية. ولا يزال حتى اليوم يقوم نوع من المسرح الفردي يمارسه بعض الممثلين العاملين معاً. ثم كان للفرق المسرحية الأجنبية دور فعال، وكانت في حركة دائمة بين استانبول وإيطاليا، وأقامت دوراً للعرض المسرحي، ثم جاءت فرقة مسرحية عام

١٢٥٦ هـ الموافق ١٨٤٠ م وكان حاجي ناعوم الأرمني أول من أقام مسرحاً عثمانياً في استانبول، وألقت أمثالها ضوءاً على الحياة الأوروبية الحديثة والعادات والتقاليد الأجنبية، وما رافقها من أثر موسيقي.

(الأورطا أويونو): وهوالشكل الأول من المسرح الحقيقي عند الأتراك وربما مارسته بعض الشعوب الإسلامية الأخرى. وقد قدم السلاطين العثمانيون العون الكبير لمؤسساته وممثليه الذين اعترف بهم بصورة عامة، حتى إنهم استخدموا من قبل بعض الأمراء في الولايات الرومانية العثمانية.

وتعزى حقيقة استمرار شعبيتهم حتى الحرب العالمية الأولى إلى إضفائهم السرور والإعجاب الشديد ببساطة تمثيلهم المترافق مع هجاء للطبقات الغنية والحاكمة.

أما في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري، فقد أقيمت حفلات هذا الفن في الهواء الطلق أو في فناء المقاهي الواسعة وبمعدات بسيطة تتألف من طاولة وشاشة متحركة ورسومات على الورق. أما الأوركسترا فتألفت من أربعة رجال موسيقيين من ذوي الحيوية والنشاط ورجل خامس بمثابة عريف لهم.

يتم تمثيل الأدوار على شكل أشخاص رمزيين يمثلون الأناقة أو من الأطباء ونماذج أخرى لأشخاص من الولايات كالعرب والأكراد والأرمن والألبان.. تتنازع وتتصارع بأسلوب كوميدي طريف.

(روايات خيال الظل) - (كاراكوز) أو العين السوداء. وهذه الكلمة مقتبسة من اسم بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين الأيوبي بعد تحوير كما يقال أن هذا الفن سلك طريقه من الصين إلى القبائل التركية في آسيا الوسطى وإيران والعالم الإسلامي وكان لها شعبية عارمة في تركيا والبلاد العربية وهي تمثل الروايات الساخرة التي تهدف إلى إضفاء روح المتعة والتسلية دون الاهتمام بالناحية الفكرية. وكان بعضها يعرض بعد القيام بتمارين إعدادية. أما الكوميديا فمحورها الأساسي والسخرية مادتها وغرضها إضفاء البهجة على الفقراء وغير المتعلمين.

كان مسرح (كاراكوز) هو الشكل السائد للرواية الخيالية. وهو فن مستورد

من الصين[1] كما ذكرت، أو جنوبي شرقي آسيا. وربما تكون أساليبه المضحكة متوارثة من بيزنطة. ولكن البلاد الإسلامية عرفته قبل ذلك. ففي القرن الثالث عشر الميلادي كان موجوداً في مصر. وقد كتب الطبيب محمد بن دانيال ثلاث روايات مثلت في ذلك الزمن.

عرف كاراكوز بشكل جيد خلال القرن العاشر الهجري في تركيا. ثم تطور وانتقل بسرعة إلى سوريا ومنها إلى شمالي إفريقيا والجزر اليونانية. وأصبح الطلب شديداً على ممثليه في القصور السلطانية وغيرها. وسرعان ما انتظمت نقاباته الخاصة.

كانت رواياته تمثل الذكاء الفطري المرتجل وكان الهجاء شائعاً فيها واستمرت بعصرها الذهبي حتى ظهور السينما حيث فقدت أهميتها عدا بعض المناسبات مثل شهر رمضان.

يتألف المسرح من مكان يفصل المشاهدين فيه عن الممثلين إطار يحمل لوحاً. أما الدمى فهي مصنوعة من الجلد ومسطحة وتتوضع خلف الشاشة وتحرك بقضيب. ويوضع مصباح زيتي أو نفطي خلفها، بحيث ينشر خيال الدمية على الشاشة.

وللرواية المثالية ثلاثة عناصر رئيسية: المقدمة والحوار والفصول. والمقدمة عبارة عن مجادلات ومنازعات تجري بين كاراكوز والممثلين الرئيسيين الأخرين الذين ينتحل أولهم شخصية الساذج الفطري البسيط بينما يكون الآخر أكثر حصافة واحتراماً. ويجري الحوار بينهما بشكل يختلف حسب الحالة ولكنه دائماً لا يخرج عن إطار البداهة المرتجلة. ولكل يوم من رمضان مثلاً فصل خاص به وبعضها تاريخي وربما كان بعضها بذيئاً ولكنها بصورة عامة شعبية. وقد تتدخل شخصيات أخرى وحيوانات أحياناً مما يدل على ما يتطلبه ذلك من مهارة فائقة من المحرك ومساعديه في أداء الألفاظ والأصوات والمقدرة على تغييرها. أما الموسيقى فيقوم بها عازف أو موسيقي أحياناً. تطورت أساليب السخرية والكاريكاتير في هذا الفن أكثر من سابقتها. فهي إنتاج كامل تحول إلى شكل كوميدي خاص ومحترم.

---

(١) أعادت الصين قبل سنوات مجد هذا الفن في بلادها بعد اختفائه الكبير على النطاق العالمي.

الإدارة ونظام الحكم:

كان سلطان قونية يقطع الأمراء أرضاً، مكافأة على ما يقومون به من أعمال. وهؤلاء بدورهم يقطعون أبناء قبائلهم ممن أبلوا بلاءً حسناً في ساحة الجهاد. لقاء تقديمهم الفرسان للخدمة العسكرية. وقد دعيت هذه الإقطاعات العسكرية باسم «سناجق» أي رايات. وكانت (بروسا) عاصمة لسنجق أقطع لولي العهد «مراد». وفيما بعد تشكل سنجقان آخران يقع أولهما في الجنوب الشرقي من مراكز العثمانيين (سلطان أوكي). وشمل الآخر المناطق الساحلية في الشمال الغربي وهو (قوجه إيلي).

استندت الدولة العثمانية حتى عهد السلطان سليمان القانوني على أسس النظام الإقطاعي، فكان الجنود يكافؤون إقطاعاً صغيراً، يستمر فيه مالكوه السابقون من الفلاحين في تأدية الرعاية والخدمة ودرَّت هذه الإقطاعات على أصحابها دخلاً يتراوح بين ٣٠٠٠ ـ ٢٠٠٠٠ أقجه[1] في السنة الواحدة للقطع الواحد منهم، ولقاء ذلك يقدم هذا للجيش عدداً من الفرسان أو البحّارة. وقد دعي مثل هذا الإقطاع تيمار.

ويلي هذا النوع نوع آخر دعوه زعامت. وعلى صاحبه (الزعيم) ـ إذ يبلغ الدخل ١٠٠,٠٠٠ أقجة فما فوق ـ أن يقدم للدولة رجلاً واحداً مقابل كل ٥٠٠٠ أقجة، أما ما يدعى بالإقطاع (الخاص) فهو يلي إقطاع الزعامات، فيمنح للوُلاة المحليين ولا يخضع للتفتيش.

وفي عهد سليمان الأول، كانت الأراضي المقطعة في أوروبا تقدم للدولة حوالي ٨٠٠٠ فرس، في حين كانت نظيرتها في آسيا تقدم حوالي ٥٠,٠٠٠ فرس.

ومنذ أن شكلت نواة الجيش العثماني، وانتظمت الإقطاعات العسكرية في ألوية أو سناجق، برزت أهمية قوى الفرسان الإقطاعية. وكان عدد هذه الألوية في البدء اثنين فقط. ازداد فيما بعد حتى بلغ ٢٩٠ سنجق.

---

(١) جرت العادة أن تعادل الأقجة الفضية ما وزنه ١/٤ درهم. وحتى عهد محمد الثاني كانت كل ٤٠ أقجة تساوي دوكة. ثم تدهور النقد فيما بعد فأصبحت كل ٦٠ أقجة تعادل دوكة.

وحكم السناجق (بيكوات) يعدّون قادة لها، وتعقد لهم ألـويتها. ورأس بيكوات السناجق حاكمان يدعى كل منهما (بيكلربك) ولقبه (باشا) أيضاً. فباشا الأناضول كان مقر قيادته في (أنقرة) ثم (كوتاهية). بينما اتخذ باشا الروم إيلي مدينة (صوفيا) مقراً له أما شارة بيكلربك الروم إيلي فكانت عبارة عن ثلاثة من أذيال الفرس. واقتصرت شارة بيكلربك الأناضول على ذيلين فقط. وكان السلطان هو القائد الأعلى وعلى الأفراد أن يخضعوا له، وبعد اتساع رقعة الدولة العثمانية اتساعاً كبيراً، وامتداد أطرافها امتداداً شاسعاً في آسيا، لجأ السلطان إلى تعيين باشوات جدد دون باشا الأناضول درجة، على الرغم من أن جيوشهم كانت أكبر عدداً وعدة.

ثم أخذت الدولة بضم بعض السناجق إلى بعض. وتألف نتيجة لذلك ما يدعى (**البشالق**) أو الولايات. وحتى مـطلع القرن الـرابع عشر الهجـري كان عددها لا يقل عن السبعين.

وفي دولة مضطردة النمـو والاتساع مـا لبث هذا النـظام من الإقطاع أن أصيب بـالفسـاد ولجـأ السلطان إلى تـرك أمـر إقـطاع الإقـطاعـات الصغـيرة للبيكلربكوات وأقطع العدد الكبير من هؤلاء مـا عندهم من إمـارات لأتباعهم ومقربيهم بدلاً من أن يقطعوها للمحاربين الأشداء. كما إنهم صاروا يسرحونهم لأدنى شك أو ريبة. وحاول السلطان سليمان وضع حد لهذه المساوئ، بواسطة قانونه الشهير (قانون نامة). وجرد البلكربكوات من ذلك الحق الإقطاعي. وتعين عليهم منذ ذلك الحين تقديم شهادة خاصـة بالـرجل الـذي يرغبـون في منحه الإقطاع. وعندما تصدر من الباب العالي براءة يمكن منحه. ثم نظمت الحقوق الوراثية الخاصة بأولاد أصحاب الإقطاعات. وأصبح من المتعذر نقـل الإقطاع مباشرة من الأب لابنه بغير ما دليل مقنع أو كفاءة معتبرة.

ولم يفلح القانون الذي أصدره سليمان في القضاء عـلى كافـة المساوئ. وأهمل الكثير من الإقطاعيين أمر الحصول على موافقة الباب العالي على مذكراتهم تهرباً من دفع الضرائب. وفي كثير من الأحيان كان (السباهي) يموت عن إقطاع له فينقطع إرثه. أما مالكو الإقطاعات الكبرى فـإنهم شرعوا أيضـاً بالتهـرب من التزاماتهـم العسكرية شيئاً فشيئاً. ولم يوفق الكثـير من الحكام في إعـادة تنظيم التجنيد.

الجيش:

اشتهر الأتراك العثمانيون منذ القِدَم بأنهم من الفرسان البارعين الذين امتازوا بالجرأة النادرة. على الرغم من أنهم كانوا لا يعرفون إلا القليل عن شؤون التنظيم الفني.

وبما أن حرب الحصون والمراكز المنيعة تتطلب مقدرات عسكرية من نوع آخر، فإن الدولة ومنذ عهد السلطان أورخان أضحت في أمس الحاجة إلى تشكيل جيش من المشاة. وفي بداية الأمر عمل أورخان على تشكيله من الأتراك أنفسهم. وقد دفعت الدولة لأصحاب الإقطاعات العسكرية المنتخبين بهدف المشاة طيلة الحملة ما مقداره أقجه واحدة في اليوم. وقسمت هذه الفرق إلى وحدات تألفت من عشرة أنفار ومئة نفر وألف نفر. ولكن هذه التشكيل لم يلبث أن فشل بعد وقت قصير. واقترح (جندرلي) على أورخان إحياء النظام الإسلامي القاضي بتأمين مورد للدولة من خمس الغنائم في بيت المال كي تنفق على جيش نظامي.

ثم قام أورخان بتشكيل الجيش الجديد «يكي جاري» فاستعاض عن فرقة المشاة الأتراك بأخرى جُلها من النصارى اختيرت لتأليفه. واعتنقت الإسلام، وقد استهلت هذه الفرقة بعدد مقداره ألف غلام نصراني تطلعوا إلى مستقبل باهر، وتعلقوا بشخص السلطان وأخلصوا له. ونظمت تنظيماً إسلامياً وانضوى أفرادها تحت لواء الطريقة البكتاشية التي بارك مؤسسها هذا الجيش الجديد منذ إنشائه.

أما الخيالة فقد خضعوا لتنظيم أشد أحكاماً في عهد أورخان. وتألف جيشهم من فرسان انتقوا بإحكام ودقة. وشكلت فرقهم الأربع جيش الخيالة كله والذي انتظم فيه ألفان وأربعمائة رجل من الأشداء. وانتهى فيما بعد ليشمل ستة عشر ألف رجل عهد إليهم حماية الراية العثمانية التي تحولت منذ عهد السلطان سليم الأول إلى الراية النبوية.

وإلى جانب هذه الفرق الأربع كان هنالك كتائب الفرسان الإقطاعية المعفوة من الضرائب والخاضعة لإمرة بيكوات السناجق.

تألفت من قوى الفرسان الإقطاعية نواة الجيش العثماني. أما سلاحها فهو عبارة عن القوس والنشاب والرمح الخفيف والسيف القصير والمجن الصغير المستدير والمخصرة الحديدية. ولم تدخل الخوذة الشائكة والدرع إلا فيما بعد

وبصورة تدريجية. وكانت العمامة هي لباس الرأس.

وتشكلت المرتزقة لتصبح تدريجياً بديلاً عن القوى الإقطاعية. وأقدمها فرق السباهي وهم فرسان الباب العالي. وامتازت أفراسهم بالجمال. ورصعت بالذهب المتلألىء والمجوهرات والفضة. ولبس الفرسان أنفسهم ثياباً هي عبارة عن قماش مقصب أو من حرير مختلف ألوانه... وسلاحهم عبارة عن القوس والنشاب والمجن الصغير والرمح الخفيف والسيف القصير المرصع بالأحجار الكريمة والصولجان. ولم تدخل الأسلحة النارية اليدوية إلا بعد الحملة العثمانية على بلاد فارس، في حين كانت المدفعية معروفة قبل ذلك. وظل السباهيون يعتمدون على القوس والنشاب، أساساً حتى نهاية القرن الحادي عشر الهجري.

ثم ارتفع عدد الفرق في مستهل عام ٩٤٠ هـ حتى بلغ (١١٥٠٠) رجل بعد أن عزز تعزيزاً كبيراً وخاصة أثناء الحملات الكبرى التي قام بها سليم وسليمان. وعُززت الفرق الثلاث الأولى بعناصر جديدة من الغلمان النصارى (إيج أوغلان) بينما غذيت الفرقة الرابعة من الرجال الداخلين حديثاً في الإسلام.

وفي عام ٩٩٤ هـ شق فرسان السباهية عصا الطاعة وأنزلوا السلطان عند رغبتهم القاضية بأن يقودهم بنفسه إلى بلاد الفرس. وثار السباهية غير مرة في أواخر القرن الحادي عشر الهجري وأوائل القرن الثاني عشر.

أما قوات الخيالة (أقنجي) فلم يكن لها تعويضات قانونية. واعتمدوا في تأمين معيشتهم على الإعفاء من دفع الضرائب. وتألفت فرقتهم في الدرجة الأولى من فلاحي الإقطاعات.

وأما الأفلاق والبغدان وتتار القرم والمجر والأكراد فشكلوا قوات إضافية، وكانوا يؤدون الجزية. واحتفظت القرم بخمسين ألف مقاتل لحين اللزوم.

الانكشارية: وهم قوام الجيش وعماده. واختير غلمان النصارى لتزويده بالعناصر الجديدة وأنشئوا في أدرنة ثم استانبول وبيرا. والتزم تدريبهم المبادئ الإنسانية إلى أبعد الحدود، إضافة إلى الصرامة والشدة. وكان يتخرج من الصف الأعلى الذي يتراوح عدد أفراده ما بين ٢٥ ـ ٣٠ شاباً، حجّاب السلطان الشخصيين. فكان هذا الصف مدرسة لتأهيل مَن سيتولون أعلى مناصب الدولة والبلاط ورؤساء الوزارات.

وكانت ضريبة الغلمان تجمع كل خمس سنوات، ثم مرة كل سنة في كافة بلدان البلقان ثم المجر فيما بعد، عدا بعض المناطق المتمتعة بالمعاهدات مثل استانبول وغلطة ورودوس. وكان المستقبل اللامع الذي ينتظر هؤلاء يخفف عنهم الكثير من صرامة نظامهم، حتى أنهم تعرضوا للحسد من قبل الأتراك أنفسهم، والذين كثيراً ما دسوا أبناءهم في صفوف هؤلاء ثم أهملت هذه الضريبة بحلول القرن الحادي عشر الهجري شيئاً فشيئاً وانتهت فيما بعد.

كان سن الالتحاق بالخدمة الانكشارية الخامسة والعشرين من العمر في البدء. ولكنها خفضت فيما بعد، أما عددهم فقارب الخمسة عشر ألفاً من الرجال. ثم أصبحت زيادتهم غير مرغوب فيها بسبب التمرد الذي حل بين صفوفهم ولطلباتهم وإلحاحاتهم كلما ارتقى العرش سلطان جديد. وحاولت الدولة بعد ذلك تفريقهم على حاميات الحدود. ومثلاً لم يستبق منهم في استانبول ذاتها سوى ٤٠٠٠ رجل عام ٩٨٩ هـ.

ومن نتائج سماح الدولة لهم التزوج كان أن حل التفسخ شيئاً فشيئاً. إذ جعل الانتماء إلى صفهم وراثياً على الرغم من محاولة السلطة تقوية جيشهم أثناء الحروب الفارسية في عهد السلطان مراد الثالث. وبلغ عددهم عام ١٠٧١ هـ أكثر من ٥٠,٠٠٠ رجل. . . . واضطروا فيما بعد إلى الاعتماد على بعض الصناعات اليدوية وحاول ضباطهم الالتحاق بخدمة السفراء الأجانب.

المدفعية:

خصّ العثمانيون فائق عنايتهم بهذا السلاح منذ أيامهم الأولى. وقد مرَّ معنا سابقاً كيف جلب محمد الثاني الأخصائيين بهذا الفن من ألمانيا وبلاد المجر، وعرف الجيش العثماني حتى زمن السلطان بايزيد الثاني فرقة خاصة بالمدفعية (طوبجي) بلغ عدد أفرادها ألف رجل. وفي عهد السلطان سليمان الكبير تشكلت فرقة مدفعية جبلية مع احتياجاتها التموينية.

الإمداد والتموين والشؤون الفنية:

نتيجة للفتوحات الكبيرة في بلاد المجر وفارس اضطرت الدولة العثمانية وأثناء اختراق جيوشها لمناطق نهبت بشكل كامل أو خربت ودمرت بشكل مقصود

ومنظم إلى اصطحاب القوافل الضخمة من الذخائر والتموين. فرافق الجيش الذي حاصر ڤيينا مثلاً ما لا يقل عن ٢٢ ألف بعير محمل بالدقيق، وعدد مثله من البغال. كما أنيط بفرقة (وينوق) المؤلفة من الفلاحين البلغار العناية بهذه الشؤون. وكان أفرادها يخدمون لقاء إعفائهم من الجزية وبعض الامتيازات. وكانت فرقة المدفعية الجبلية وفرقة مصلحي الأسلحة (جبه جي) تتقدم الجيش عند الهجوم. كما رافق الانكشارية طليعة الجيش هذه يتبعهم آغاواتهم وإثنان من قضاة العسكر والمحاسبون. ويتبعهم موكب السلطان بحرسه الخاص وحجابه، كما يبدو خلفه بيرق الحرب خفاقاً، وهو العلم الذي استبدلت به راية الرسول ﷺ منذ عهد السلطان سليم الأول. ويليهم الألوية الستة الخاصة بفرق الجيش إضافة إلى أعلام ستة صغيرة تمثل فرسان السباهية المرتزقة. وكان الصدر الأعظم والوزراء وحاشيتهم يحتلون القلب في هذه التشكيلات، ويليهم باشا الروم إيلي، وباشا الأناضول وكان باشا الروم إيلي يتقدم زميله الآخر في الحملات الأوروبية في حين يتقدم باشا الأناضول الحملات الآسيوية ثم تبرز قوافل التموين والعتاد في المؤخرة.

وعند ابتداء المعركة يتقدم باشا الروم إيلي وباشا الأناضول إلى الصف الأول، وتقوم فرقة من المدفعية وأخرى من الخيالة (آقنجي) بدعم جناحي الجيش. ويتلوهما فرسان السباهية، بينما يقف الانكشارية في القلب. ويتخذ السلطان مكانه خلفهم.

لم يكن للخمر أو الميسر أو البغاء مكان في هذا الجيش الذي كانت روح الجهاد عامرة في نفوس أبنائه وبالتالي ضمان الغلبة على الجيوش المعادية. والجدير بالذكر أن تفشي هذه الأوبئة الاجتماعية في جيش من الجيوش يكون له أوخم العواقب على سير معاركه أثناء الحرب وفي أزمنة السلم، وليس الأمر كما تصوره بعض المخربين الذين لا يبغون إلا هدم روح القيم الأخلاقية المتمثلة في التعاليم الإسلامية التي تحرم الخمر والميسر والبغاء صوناً لجسم الفرد وروحه من التلف والتهتك وما ينبع عن ذلك من مضاعفات لا مجال لسردها الآن. وما كارثة الجيش الفرنسي أثناء الأيام الأولى من الحرب العالمية الثانية عنا ببعيدة إذ حلل المراقبون أبعادها وعزوا جانباً كبيراً إلى تنخر الفساد والإنحلال الخلقي وتفشي الخمر والبغاء بين صفوف أفراده.

الأسطول:

كان انتصار البنادقة على العثمانيين عام ٨١٨ هـ في غاليبولي حافزاً قوياً حمل الدولة العثمانية على التفكير الجدي بإنشاء أسطول بحري، وبعد تحقق هذا الهدف قام السلطان محمد الفاتح بتعزيز هذا الأسطول وأعطاه السمعة المستحقة.

وفي عام ٨٦٠ هـ انطلقت مائة سفينة شراعية من غاليبولي إلى سواحل بحر إيجه. ثم واصل السلطان سليم الأول تعزيز هذا الأسطول الذي زاد عدد سفنه عن (٣٠٠) سفينة في عهد السلطان سليمان القانوني الذي برز في عهده اسم (خير الدين بربروس).

وكان العثمانيون في ذلك الوقت في مركز متفوق من الناحية المادية للغابات الممتدة على شواطىء البحر الأسود والتي كانت تمدهم بمعين لا ينضب من الأخشاب والمناجم الموجودة في الأفلاق والبغدان، وتزودهم بالمعادن الضرورية لصناعة الملاحة، في حين كانوا يستوردون الأقمشة اللازمة للأشرعة من فرنسا.

وامتاز البنادقة بإشرافهم على صناعة السفن، في حين كان العمال من اليونان، وترك صنع السفن الحربية وتسليحها حتى في عهد السلطان سليم الأول للربابنة الذين تناول منهم أربعمائة وستون رباناً المعاشات لأنفسهم وبحارتهم عام ١٠٠١ هـ.

وكان الملاحون من النصارى الطليان غالباً أو اليونان والبحارة العبيد الذين بلغ عددهم في عهد السلطان سليم ما يكفي لتعبئة أربعين سفينة. وقد وقفت أوروبا مدهوشة للمرونة والرقة اللتين تمثلتا في أعمال دور الصناعة العثمانية.

وبعد مطلع القرن الحادي عشر الهجري قسمت الدولة إلى مناطق عليها الإسهام في خدمة الأسطول بنصيب محدد. ثم اعتمد الأسطول على العناصر الآسيوية. وتطور نظام البدل إلى أن أصبح ضريبة خاصة بالأسطول تعود على الدولة بدخل عظيم. وسخرت كافة أقسام الجيش البري تقريباً لخدمته. وأظهر الانكشارية البسالة في اقتحام السفن وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم من النصارى.

أما تسليح الأسطول فكان كما يلي:

دوارع ثقيلة (ماعون) تحمل كبراها (٥٧٦) مجذف ـ طرادات خفيفة

(جكتري) متوسط عدد مجذفيها (١٥٠) ـ مدفعية كانت قبل معركة (ليبانتي) ضعيفة ثم عززت فيما بعد.

والتحقت السفن العاملة في الشواطىء الإفريقية بأسطول الدولة منذ عهد بربروس. وجهزت سفنها الشراعية بالرجال تجهيزاً دقيقاً.

وعهد بقيادة الأسطول إلى والي سنجق غاليبولي أولاً ثم إلى خير الدين بربروس فيما بعد فشمل سلطانه ١٤ سنجقاً.

ثم اقتصر نشاط الأسطول فيما بعد شيئاً فشيئاً على خفر السواحل، إلى أن بقي من أصل الثلاثمائة سفينة قرابة الأربعين فقط بشكل كامل التسليح.

نظام الحكم:

كان السلطان هو القوة المؤثرة الأولى سياسياً وعسكرياً. ففي البداية تبع الأمراء العثمانيون لسلاطين قونية من السلاجقة. وما لبث أورخان أن ضرب السكة باسمه وأمر بأن يخطب له على المنابر. ثم أطلق بايزيد على نفسه لقب السلطان فيما بعد، بعد موافقة الخليفة العباسي في القاهرة بصفة رسمية، في حين كان هذا اللقب يطلق من قبل بصفة غير رسمية على أسلافه.

وعندما فتح محمد الثاني مدينة القسطنطينية، اتخذ لنفسه لقب سلطان البرين والبحرين على الرغم من شيوع لقب (خنكار) أو (بادشاه).

وكان قد تلقب مراد الأول بعد فتح أدرنة بلقب خليفة الله. وبعد ضم مصر والشام تنازل الخليفة العباسي في القاهرة عن لقب الخليفة للسلطان سليم الأول.

كان للسلطان سلطة مطلقة على جميع موارد الدولة. وكان محصول الضرائب يصب في بيت مال المسلمين الذي بلغت إيراداته خلال السنوات العشر الأخيرة من حكم محمد الثاني ٤ ملايين دوكه. ثم ارتفع هذا المبلغ حوالي منتصف القرن العاشر الهجري من ١٠ إلى ٢٠ مليون دوكه. ويحتفظ بحصة السلطان منها لحين الأزمات العامة ولإنشاء المباني على نطاق واسع وإقامة المشاريع الخيرية العديدة.

أما السلطة التنفيذية فيرأسها السلطان أيضاً. ولم يكن الوزير أولاً سوى

مستشار له. ثم قوي مركزه مع مرور الزمن. ودعم الفاتح هذا المنصب كثيراً حتى أصبح معتمد البادشاه المطلق الصلاحية. وكان الصدر الأعظم يحمل الخاتم السلطاني رمزاً لقوته ويتقبل ولاء موظفي البلاط والدولة في أيام محددة في الأسبوع. ولا يظهر للجماهير إلا وسط حاشية ممتازة. أما قصره «الباب العالي» فهو مقر قصر الحكومة الحقيقي.

وفي السنوات الأخيرة من حكم سليمان عصف الصراع العائلي بمنزلة الصدر الأعظم المرموقة. وتدهورت قيمة منصبه حتى ظهور محمد صقللي صاحب الدهاء والحنكة وبعد النظر. وعلى الرغم مما امتاز به هذا الأخير فقد قتل وانهارت قيمة هذا المنصب من جديد إلى أن تمكن محمد كوبريللي بعد قرن من الزمان من إنقاذه بإنقاذ الدولة من الملابسات التي مرت بها في حينه.

على الرغم من عدم تحقيق هدف السلطان محمد الثاني في محاولة الحد من سلطة وزراء القبة[١]. وعلى الرغم من أن أعلامهم الحاملة شارة[٢] مراتبهم كانت تسويهم بالصدر الأعظم، فإن نفوذهم لم يكن كبيراً ولم يزد عددهم عن أربعة فقط ثم ارتفع فيما بعد إلى ستة.

الديوان:

عرف الديوان عند العثمانيين الأوائل. وكان يجتمع فيه مجلس عام يضم كافة رؤساء الدوائر لبحث القضايا الهامة على ظهور الجياد. ثم تطور الأمر شيئاً فشيئاً وتحول الديوان إلى مجلس وزاري أسندت رئاسته في أواخر عهد محمد الثاني إلى الصدر الأعظم بعد أن كان سابقاً مجلساً للزعماء فقط.

ويشترك في هذا المجلس أركان الدولة وهم:

١ ـ قاضيا العسكر: وكان أحدهما من الأناضول والآخر من الروم إيلي. ثم أضيف إليهما ثالث من إفريقيا في عهد السلطان سليم الأول.

٢ ـ باشا آسيا وباشا أوروبا.

---

(١) وزراء القبة هم الذين كانوا يجلسون مع الصدر الأعظم تحت قبة واحدة، غير أنهم لا يشاركون في السلطة. (وزراء دولة في مفهومنا المعاصر).

(٢) تتمثل بثلاثة من أذناب الخيل.

٣ ـ الدفتردارين المختصين بالأمور المالية.
٤ ـ آغا الإنكشارية.
٥ ـ أمير البحر (قبودان).
٦ ـ النيشانجي. وهو صاحب التوقيع والقيم على خاتم السلطان.

وتعقد اجتماعات الديوان أربع مرات في الأسبوع في قاعة بفناء السرايا الثاني. وتبدأ المناقشات من الصباح وتنتهي في ساعة متأخرة من الليل. وفي استطاعة أي فرد من الرعية أن يعرض مطالبه ويشكو مظالمه.

وكان السلطان في البداية يرأس جلسات الديوان. ثم اكتفى فيما بعد باستقبال المجلس عند نهاية الاجتماعات الأسبوعية ويستمع إلى تقرير عن أعماله ومقرراته. وكان لكل من حاكمي آسيا وأوروبا قوة معتبرة وتأثير فعال في إدارة الولايات.

التاريخ والجغرافيا:

وضعت أقدم المؤلفات التاريخية عند المؤرخين الأتراك باللغة الفارسية. ثم جرى تلقيح لغتهم الوطنية بالمصطلحات العربية والفارسية على الرغم من نزوعهم إلى تقليد أسلوب الكتابة الفارسي من حيث التكلف والزخرفة اللفظية، ذلك الأسلوب الذي كان ساد في تلك الآونة وما قبلها على كتب التاريخ الفارسية وبعض الكتب العربية فيما قبل.

قام العثمانيون بدور جيد في مجال التاريخ على الرغم من ضحالة المصادر التركية وطغى التاريخ البيزنطي في بداية تشكل الدولة، الأمر الذي أدى إلى تشوش في عملية التنقيب عن المعلومات الصحيحة نظراً للنوايا والمقاصد الكامنة عند مؤرخي بيزنطة إزاء الإسلام والمسلمين. وخاصة إبان فتح القسطنطينية وما سبقه من أحداث وما تلاه من نتائج.

أما فيما بعد فقد وصلت إلينا روايات مفصلة وأوصاف مسهبة عن الأحداث التي مر بها تاريخ الدولة العثمانية رواها شهود عيان من موظفين كبار ساهموا في صنع هذه الأحداث.

كانت المحاولات الأولى لتدوين التاريخ الوطني تدويناً منظماً قد بدأت في

عصر مبكر. ونجد في عهد السلطان بايزيد الأول الكتاب التاريخي الذي وضعه المتصوف أحمد عاشق باشا والمتميز بأسلوبه الشعبي الخالص ومنذ القرن العاشر الهجري اهتم الباب العالي بكتابة التاريخ، فعين المؤرخين الرسميين أمثال سعد الدين الذي قام بتأديب الأمراء والقضاة والمفتيين وقد توفي عام ١٠٠٧ هـ.

وتعد الجغرافيا أحد العلوم التي أجاد فيها العثمانيون نسبياً. فنجد مثلاً أمير البحر التركي (بيري رئيس) يصف لنا شواطىء البحر الأبيض المتوسط. وقد حصلت له المعرفة اللازمة بها نظراً للرحلات العديدة التي قام بها تحت قيادة عمه (كمال رئيس) وقيادة (خير الدين بربروس) فيما بعد. كما أنه قام بجمع معلومات عن الاكتشافات التي قام بها الإسبان والبرتغاليون في إفريقيا وذلك أثناء استطلاعه المعلومات اللازمة استعداداً للحرب ضدهما. وعلى الرغم من كون هذه المعلومات محاطة بستار من السرية والكتمان فإنه عمل جاهداً على استخلاصها عن طريق العملاء الأجانب وخاصة من الطليان. وقام في عام ٩١٩ هـ برسم خارطة في غاليبولي للمحيط الأطلسي وإفريقية والشواطىء الغربية من أوروبا وإفريقيا، ووضع عليها الأسماء التي تلقاها من عملائه، ورفع خريطته عام ٩٢٣ هـ إلى السلطان سليم في القاهرة ولكنها حفظت ولم تنشر.

ألف (بيري رئيس) كتاباً عن الملاحة سماه (بحريت) ولم يعثر عليه إلا أخيراً. وبعد ثلاث سنوات من إنجاز كتابه عن الملاحة، قدم إلى السلطان سليمان القانوني خريطة ثانية تمثل اكتشافات البرتغاليين في أمريكا الجنوبية والوسطى ونيوزيلاندة، إذ أنه كان قد علم بها في حينه. ثم برز (حاجي خليفة) بعد قرن من الزمان. ويعد من أعظم العلماء العثمانيين. ولد في استانبول عام ١٠١٨ هـ من أسرة عسكرية تنتمي للطبقة الوسطى ثم عمل في الجيش وشارك في العديد من الحملات في الشرق كموظف إداري. وجمع المعلومات لأعماله التاريخية عن طريق الملاحظة الشخصية. تعلم في صغره القرآن الكريم واللغة العربية والخط العربي. ثم لازم فيما بعد المحاضرات أثناء توقف الحملات العسكرية. واستقر في استانبول، وجمع الكتب في أوقات فراغه وقام بدراستها وبالتالي صنف المؤلفات العديدة. كان مدرساً جاداً وباحثاً تواقاً للمعرفة وكاتباً منتجاً. ويعد كتابه «كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون» موسوعة في معلوماته المدونة باللغة العربية لما يقارب ١٥ ألف كتاب نشرت حتى عصره بالتركية والفارسية والعربية. أما كتاب

(جهان نامه) أي منظر العالم. ذلك الإنجاز الجغرافي الضخم الذي تناول كيفية الاستعمال الأول للأطلس الأوروبي في تركيا. الذي رفعه إلى السلطان محمد الرابع فهو يبحث في تاريخ الكون والموجودات. ثم عاد ليعدله على أساس الأطلس المشار إليه طبقاً للمصادر الأوروبية الحديثة. وكان قد نشر قبل ذلك بسنة كتاباً في تاريخ البحرية العثمانية سماه «تحفة الكبار في أسرار البحار» وله أيضاً كتاب «دستور الآمال في إصلاح الخلال» و «ميزان الحق في اختيار الأحق».

ثم تدنى هذا العلم شأنه شأن العلوم العقلية في الدولة العثمانية باستثناء بعض الأعمال التي اضطلع بها بعض الباحثين مثل (أولياجلبي) المتوفى بعد عام ١٠٩٠ هـ بقليل. وهو صاحب كتاب سياحة نامه. وقد روى فيه قصة رحلاته وأسفاره. وشارك في الحروب التي دارت رحاها في روسيا وترانسلفانيا والمجر. كما أنه طاف في أرجاء الدولة العثمانية ووصل سوريا ومصر. وعلى الرغم من عدم تقدير معاصريه له فإن مؤلفاته التي امتازت بالقصص الموضوعة على لسان الحيوان والتي ترمز إلى أشياء أخرى. كانت ذات أهمية ومما لا شك فيه أن عمله هذا كان فريداً من نوعه في عصره.

إلى جانب هذا الإنتاج حفل القرن الثاني عشر الهجري بمجموعة من كتب الرحلات مثل كتاب (رسمي) الذي يسجل انطباعاته كسفير لدى بلاد الامبراطور فريدريك الكبير. وإن كان دون كتاب (جلبي) من حيث الوصف والحيوية النابضة.

الطب والعلوم:

خلت الحركة العلمية عند العثمانيين من الإبداع واقتصرت على التقليد واقتفاء آثار ما أنتجته عقول الأجيال السابقة. وعني الأتراك باللغة العربية التي كتبت بها معظم المؤلفات العلمية في ذلك الحين ومنها الطب إضافة إلى كونها لغة القرآن الكريم، الأمر الذي يتطلب من المسلم الحصول على نصيب منها لكي يتفهم أمور دينه. ولم يكتب باللغة التركية سوى بعض الكتب التي تتركز حول الوعظ الذي يقصد به التأثير على عقول عامة الناس. ولكن العثمانيين الذين لم يتعمقوا في مجال الفكر والمغامرة العلمية رغم أنهم امتازوا بقوة الذاكرة والمقدرة على الجمع وصرامة التطبيق وتحمل المشاق في هذا المجال.

وأما في مجال الطب فكانت أسس نظام التعليم الطبي هي التي سادت من قبل عند السلاجقة في القرون الخامس والسادس والسابع الهجرية. وكانت تلقى المحاضرات العلمية الطبية نظرياً، ويجري تطبيقها عملياً في ما كان يدعى «مدرسة».

ويزاول الطلبة تدريباتهم ويمارسون خبراتهم في مستشفيات عدة. واكتسبت المعرفة النظرية في الدرجة الأولى من كتاب ابن سينا الشهير (القانون) ومن أعمال ابن عباس المقوسي. وأثناء حكم السلطان محمد الفاتح والسلطانين بايزيد الثاني وسليمان الكبير تعادلت أسس التعليم الطبي في المدارس العثمانية كيفياً مع نظيرتها في المراكز الأوروبية الطبية الشهيرة في ذلك الوقت.

وإبان ازدهار الدولة العثمانية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً قام العديد من العلماء والأطباء الذين تلقوا تعليمهم وممارساتهم في البلاد العربية وإيران وتركستان بالتدريس في المدارس الطبية العثمانية. وتلقى بعض المحاضرين الزائرين في المدرسة السليمانية رواتب مرتفعة إذا ما قورنت مع الراتب الذي تلقاه المهندس المعماري الشهير سنان باشا آنذاك ونذكر من الأطباء في عهد الفاتح الحكيم قطب الدين العجمي، الذي كان وزيراً لبعض ملوك العجم، ارتحل إلى بلاد الروم، والطبيب شكر الله الشرواني، والطبيب الشهير يعقوب الحكيم الذي كان يعالج السلطان الفاتح، والحكيم عرب زاده الذي حصّل علم الطب في بلاد العرب ثم ارتحل إلى بلاد الروم والحكيم شاه محمد القزويني، وقد تقرب إليه السلطان سليم الأول، وله عدة تصانيف غير طبية وشرح للموجز في الطب وترجم (حياة الحيوان) إلى الفارسية والحكيم حاجي الذي عالج السلطان بايزيد، ويمكننا أن نذكر أيضاً الشيخ محيي الدين المشتهر بحكيم جلبي الذي حصل من علم الطب الطرف العظيم وتوفي في عهد السلطان سليم الثاني إلا أننا نجد في عهد السلطان مراد الثالث بعض الأطباء ومنهم الطبيب الياس القراماني الذي حصل الطب عند أحد الحكماء ثم اشتغل ببيع المعاجين والأشربة واشتغل ببعض العلوم الأخرى مثل التفسير واتصل بالوزير الكبير «محمد باشا».

وعندما دخلت الدولة مرحلة الضعف والانحطاط وهن النظام التعليمي الطبي وأضحى عاجزاً عن تطوير برامجه حسب واقع العالم الحديث. ولم تعد المدارس العثمانية قادرة على اللحاق بحركة النهضة الأوروبية الحديثة. وساء

الوضع بعد انتهاء حكم السلطان سليمان الثانوني. ولم يعد تدفق العلوم والمعارف إلى المدارس كافياً واستمرت الأمور بتدهور حتى غدت الأستاذية تأتي بالوراثة والألقاب تمنح لعلماء ليسوا على مستوى المسؤولية والكفاءة. وأدى الانحطاط والتفسخ في الميادين الأكاديمية إلى تدني مستوى الطب العثماني.

وأثناء حكم السلطان مراد الرابع كتب (ميشيل بودير) الذي زار الدولة آنذاك يقول: بأن طلبة المدارس كانوا كسالى. وقال (أنطوان غالاند) سكرتير السفارة الفرنسية الذي أمضى مدة من حياته في استانبول في مذكراته المؤرخة في بداية صيف عام ١٠٨٤ هـ مثبتاً مكالمات السفير الفرنسي في أثناء لجوئه إلى المقر الصيفي على البوسفور أثناء هجمة طاعون تفشى في بك أولي: إن الأوامر صدرت بعدم الرجوع إلى المدينة إلا بعد انتهاء أجل الجائحة المرضية.

وتظهر ملاحظات غالاند هذا والمؤرخة في صيف ذلك العام سلوك ممثل البندقية الذي جرى على الطريقة نفسها. ومن جهة أخرى نجد رئيس الشرطة يغادر في زيارة تفقدية إلى سواحل البحر الأسود ويعطي أوامره للناس الفارين من الوباء كي يعودوا إلى المدينة.

ويعالج أحد العاملين في السفارة السويدية في العاصمة استانبول لبضع سنين المشكلة ذاتها فيقول: (إذا ما أصيب أحد من الناس بمرض الطاعون في بيت ما، فإن معظم الناس يتجنبون ذلك المريض بالتأكيد ولكن من غير الممكن في كل الأحوال عزل البعض منهم أي الذين هم على تماس مباشر معه والذين ربما ينامون معه في غرفة وحدة. إن بعض الناس يغيرون بيوتهم ولكنهم ينقلون المرض معهم عن طريق الملابس ولا أحد يفكر في إتلاف سرير المريض أو حاجياته أو في تنظيف بيته...).

كان عدد الأطباء قليلاً. وفي الوقت نفسه كانوا جراحين وصيادلة كما أنهم يحضرون الأدوية والاستشارات بينهم غير معروفة. ويصفون الدواء حسب الطرق القديمة دون الالتفات لحالة المريض العامة. وبعضهم كانوا يمضون فترة قليلة من التمرن تمتد لبضعة أشهر فقط. وعلى الرغم من أن هؤلاء الأطباء كانوا مجرد حرفيين مهرة فإنهم كانوا ذوي شعبية كبيرة.

وكتب (كوجي بك) تقريراً قدمه إلى السلطان محمد الرابع يصف فيه

بوضوح عدم القناعة والشك في مقدرة التعليم الطبي ويشكو من ازدياد عدد الأطباء الجهلة.

أما (غاراس زاده مؤيد الدين) الطبيب فإنه في تقرير له قدمه للسلطان سليم الثاني يقترح عليه فحص الأطباء. وكتب (خطيب شلبي) أن علماء العصر كانوا جهلة بأبسط مبادىء الرياضيات والطب.

كان لتدني مهنة الطب نتيجتان هامتان: **أولاهما** ازدياد عدد الأطباء الأجانب وغير المسلمين في المدن العثمانية، **وثانيهما** الاعتماد على الطب الشعبي في مجال التشخيص والمعالجة.

ومن الأطباء الأجانب الذين اكتسبوا الشهرة الواسعة نجد اليوناني (ألكسندر ماوروكور داتوس) والألماني (غوبيز) في عهد السلطان مصطفى الثالث.

والجدير بالملاحظة أن الأطباء كان لهم دور كبير في الروايات التي كانت المسارح تعرضها آنذاك ويبدو أكثرهم غير مسلمين. كما كانت الصفوة الاجتماعية المختارة غالباً ما تستشير (داتوس) المار الذكر وكتب عباس وسيم الذي عاش في القرن الثاني عشر الهجري إن الرعايا غير المسلمين والذين لا يشملهم القانون الإسلامي كانوا يتلقون تعليماً أفضل.

وبذلك يبدو أن الطب في الدولة العثمانية كان يتحول تدريجياً إلى صراع بين الأطباء المحليين والأجانب. أما عن مياه الينابيع المعدنية فكانت لها فائدة علاجية عرفها أبناء البلاد العثمانية. وكان الناس الذين يودون المعالجة يقومون بالتزحلق فوق الطين المحيط بها واعترف العلماء في ذلك بالقيمة العلاجية لها، بعد أن لمسوا الفائدة التي سيحصل عليها المرضى بعد أن يمضوا أياماً عديدة في زيارتها. وربما قام البعض بتغطية أجسادهم بالوحل هناك.

إن نقص العناية الصحية زاد من فرص انتشار الشعوذة والدجل الشعبي. ولا ينكر الدور الذي قام بها بعض الممارسين في خدمة الطب. وقد كتبت إحدى السيدات من أدرنة لصديقتها تقول في عام ١٧١٧ م: (إننا نجد نوعاً من التمنيع البسيط ضد مرض الجدري) وأضافت تصف الكميات المصلية المحلولة الدقيقة المطبقة بالحقن.

أدى النقد الشديد لهذا الوضع المرير الحصول على بعض الثمار المرجوة مثل

تدشين المدرسة الطبية (طبانه) ومدرسة الجراحين (جراحانـا) في عهد السلطان محمود الثاني. وأضحت هذه المعاهد مراكز للتدريس ولها أقسام مختلفة في استانبول وتحولت أخيراً إلى (حيدر باشا) ثم نقلت عام ١٩١١ م إلى دار الفنون القديمة التي تحولت إلى كلية الطب. وبعد جولة قام بها أحد المؤرخين في استانبول إبان حكم محمود الثاني إلى هذه المعاهد: (كان المستشفى العسكري الكبير أكثر المنشآت التي زرتها رقياً ورفاهية من أي مكان آخر وفي أي بلد آخر).

وكانت العلوم غير متقدمة باستثناء بعض العلماء أمثـال «عبد الـواحد بن محمد بن محمد» القادم من إيران والمدرّس بمدرسة «كوتاهية» حيث ألف كتاباً في علم الاصطرلاب والمولى القوشجي وأصله من بلاد ما وراء النهر، وهو فلكي، وقد أهدى للسلطان محمد الفاتح رسالة في علم الحساب. كذلك نذكر العـالم الحكيم قطب الدين العجمي العالم الطبيب. كما برع المولى محمود القاضي بمدينة بروسا المعروف بقاضي زاده المعاصر للسلطان أورخان بالعلوم الرياضية وشرح أشكال التأسيس في الهندسة.

نظام القضاء:

كان القاضي عسكر هو رئيس الهيئة القضائية، إذ أن نشأة القانون العثماني ذات تنظيم وأساس عسكري.

وعلى غرار النظام المملوكي في مصر، قام السلطان مراد الأول بإحداث هذا المنصب. ثم أضاف كل من السلطانين محمد الثاني وسليم الأول قاضيان آخران واحد لأوروبا وآخر لإفريقيا. ولم تكن سلطة هؤلاء القضاة تقتصر على الشؤون العسكرية بل تعدتها إلى الشؤون المدنية فهم الذين يعينون القضاة ونوابهم وكافة الموظفين القضائيين الآخرين. ويشكلون محكمة الاستئناف العليا.

يأتي دور العلماء الكبار بعد قضاة الجيش من حيث الترتيب. وهم يؤلفون قضاة العاصمة وعواصم الولايات. ثم يليهم العلماء الصغار الذين يزاولون مهنة القضاء في المدن الثانوية، ويليهم قضاة الدرجة الثانية وما دونها. ثم ينقسمون إلى مفتشين وقضاة ونواب قضاة.

كانت سلطة محكمة الاستئناف العليا قوية. ولا يحدّ من صلاحيتها سوى سلطة الصدر الأعظم والسلطان نفسه. أما القاضي فهو صاحب السلطة القضائية

العليا في منطقته وفقاً لمبادئ الشرع الإسلامي الحنيف. وهو ينهض بأعمال كاتب العدل ويعد الوصايا.

العلماء المسلمون:

كان مفتي استانبول (شيخ الإسلام) هو الشخصية الثانية التي تخضع لها الهيئات القضائية والدينية وذلك ابتداء من عهد السلطان سليم الأول. وعليه أن يقضي فيما يرفع إليه من القضايا. وعلى الرغم من أن أحكامه كانت نافذة فإنها كثيراً ما تكون نظرية. ودعم السلطانان محمد الفاتح وسليمان الأول مركز المفتي. وحرص عامة السلاطين على تأييد سلطته، وخاصة إبان الاضطرابات السياسية وما شابه، وفي عام ٩٧٨ هـ مثلاً استصدر السلطان سليم الثاني من المفتي الشهير الشيخ أبي سعود فتوى بشأن البنادقة وفيما بعد ضعفت هذه السلطة.

خضع الموظفون الدينيون في العاصمة لسلطة المفتي مباشرة. وكان ينوب عنه في الولايات الكبرى قضاة العسكر. أما في الولايات الصغرى فكان الإمام يقوم بكافة المهام الدينية وخاصة في الأرياف.

وكان ترتيب الموظفين الدينيين في الجوامع الكبرى كما يلي: الخطيب - الإمام - القيم - المؤذن. ويجري الإعداد لهذه المناصب وفقاً لتقاليد سابقة نظمها السلطان محمد الثاني بمرسوم خاص. ويقوم المرشحون لها بطلب العلم في المدارس الدينية الكثيرة التي كثيراً ما كان السلاطين والوزراء يتنافسون على تشييدها تنافساً نبيلاً.

وفي هذه المدارس يوجد ثلاث فئات من طلبة العلم: فا (الصوفتا)[1] وهي أدناها تليها فئة المعيدين الذي يحمل الطالب عند التخرج منها لقب (دانشمند) أو عالم. أما الفئة الأعلى فهي منصب المدرس.

وبلغ عدد الصوفتا في عهد السلطان مراد الثاني ٩٠ ألفاً. وكانوا كثيراً ما يتدخلون في شؤون الدولة فيما بعد.

وعلى العالم الذي يحمل لقب (دانشمند) إذا ما نجح أن يختار بين التدريس والقضاء والعمل الديني. أو أن يلتحق بأحد الصفوف العليا. ويحصِّل العلم لمدة

---

(١) ربما هذه الكلمة منحوتة من كلمة صوفي بالعربية.

سبع سنوات أخرى في إحدى المدارس ليجتاز امتحاناً نهائياً أمام المفتي فيرشح إذا ما نجح لمنصب المدرس.

أما المدرسين فلهم عشر مراتب طبقاً لأهمية المدن العاملين فيها. وأصحاب الدرجات العليا هم كبار العلماء. وكثيراً ما كانوا يستقدمون من مصر كي يعملوا في خدمة الدولة عدداً من السنين.

أما مشايخ الطرق الصوفية فكانت قلوب عامة الناس تتعلق بهم. وسادت هذه الطرق معظم أرجاء آسيا الصغرى كالنقشبندية والمولوية والبكداشية. وكان لها نظاماً خاصاً. أما تأثيرهم في تهذيب العامة وحضهم على التمسك بالفضيلة والأخلاق الإسلامية الحميدة فكان كبيراً جداً.

ونذكر من **الفقهاء**: الشيخ «أحمد بن إسماعيل الكوراني» الفقيه الحنفي العارف بعلم الأصول. عاش في عهد السلطان مراد خان. درس في القاهرة، ثمَّ أصبح معلماً للسلطان محمَّد الفاتح، ولي قضاء «بروسا» مرتين، كانت الثانية عام ٨٦٢ هـ. وتقلَّد منصب الفتوى، له مصنفات منها شرح البخاري، وله تفسير للقرآن العظيم سمّاه «غاية الأماني في تفسير السبع المثاني». كانت أوقاته مصروفة إلى الدرس والفتوى والتصنيف والعبادة. توفي عام ٨٩٣ هـ في العاصمة استانبول.

ومن علماء الدولة العثمانية وفقهائها نذكر أيضاً «المولى خسرو» وقد دعي بأبي حنيفة زمانه من قبل السلطان محمَّد الثَّاني، وهو «محمَّد بن قرامز» وكان والده من أمراء التراكمة، وهو رومي الأصل ثمَّ أسلم. أخذ العلوم عن مولانا «برهان الدين حيدر الهروي» المفتي في البلاد الرومية. جعله السلطان محمَّد الفاتح قاضياً للقسطنطينية وغلطة وأسكدار إضافة إلى التدريس في مدرسة آيا صوفيا. ومن مصنّفاته «حواشي شرح المطول»، وبعض الحواشي. وله متن في الأصول يسمّى «بمرقاة الوصول»، ومتن في الفقه سمَّاه «بالغرر»، ورسالة متعلقة «بتفسير سورة الأنعام». توفي عام ٨٨٥ هـ ودفن في «بروسه».

ومن **العارفين والمتصوفة**: الشيخ محمَّد بن حمزة الشهير بـ «آق شمس الدين المولود في دمشق، وحصّل طريقة الصوفية، وكان طبيباً للأرواح والأبدان، وقد عرف بموعد فتح القسطنطينية، واكتشف قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه بعد أن توجه ساعة إلى الله سبحانه وتعالىٰ. وكان له دوراً بارزاً في

تربية السلطان محمَّد الفاتح تربية روحية وعمل على نزع الغرور من قلبه. توفي في موطنه قصبة «كونيك». له في التصوف رسالة سماها «رسالة النور» ورسالة أخرى في دفع مطاعن الصوفية، إضافة إلى مؤلفات في الطب.

ونذكر من المتصوفة أيضاً الشيخ العارف بالله عبد الرَّحمٰن جامي المولود في «جام» من قصبة خراسان. اشتهر بالعلم والفضل، وبلغ صيت فضله إلى الآفاق، وقد دعاه السلطان بايزيد خان وأرسل إليه جوائز سنية، وكان موضع ثقة الفاتح. كان شاعراً ممتازاً باللغة الفارسية. وله كتاب «شواهد النبوة» بالفارسية وكتاب «نفحات الأنس» بالفارسية أيضاً. وبعض التصانيف. توفي عام ٨٩٨ هـ. ونذكر أنَّ السلطان محمَّد الفاتح حينما أراد المحاكمة بين المتكلمة والصوفية والفقهاء عينه محكماً بينهم. وله «شرح لفصوص الحكم» لابن عربي.

وفي **العلوم العقلية والنقلية**، نذكر اسم «شمس الدين الفناري» وقد ولد عام ٧٥١ هـ وعاصر السلطان بايزيد خان. ولي قضاء بروسا، وارتفع قدره كثيراً، كان والده من تلامذة صدر الدين القونوي. وكان ينظم الشعر. ومن آثاره رسالة في «نموذج العلم» و «تفسير الفاتحة»، وله في أصول الفقه «فصول البدائع في أصول الشرائع» إضافة إلى شروح أخرى. وقد خلّف مكتبة فيها ١٠ آلاف مجلد.

كما نذكر من العلماء الموسوعيين «حاجي خليفة» المولود في استانبول عام ١٠١٧ هـ الموافق ١٦٠٨ م وله مؤلفات كثيرة منها: «رسالة في تفسير القرآن للبيضاوي» و «شرح للمحمدية» و «تقويم التواريخ» و «جها ننما» وهي في خلق العالم و «سلم الوصول إلى طبقات الفحول» و «تحفة الأخيار في الحكم والأمثال» و «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون». . توفي في استانبول عام ١٠٦٧ هـ الموافق ١٦٥٧ م.

شؤون الأقليات:

اختلط الأتراك بسكان آسيا الوسطى منذ القدم. ثم اجتاحوا المدن هناك لعوامل عدة وخاصة بعد معركة ملاذكرد. وشرعوا بدعوة الناس إلى دين الله. ورحَّبوا بكل من يشرح الله صدره للإسلام ومنحوه حقوق المواطنة الكاملة وتوصل بعض هؤلاء المهتدين إلى أعلى المناصب وتسلم الكثير منهم مرتبة الصدر الأعظم إبان مجد الدولة وقوتها. واعتنقت الكثرة الساحقة من الألبان والبشناق الإسلام

على الرغم من عدم انصهارهم في البوتقة التركية. واحتفظوا شأنهم شأن المسلمين البلغار وأهل كريت بلغاتهم القومية. وبقيت نعرة العصبية القومية تحرك بعضهم بين الحين والآخر بدوافع أجنبية صليبية.

كان أهل الأرياف من الرعايا النصارى يؤدون الجزية ديناراً بندقياً واحداً لكل فرد عام ٩٩٧ هـ مقابل تمتعهم بحماية الدولة عسكرياً.

وتمتع النصارى في العاصمة استانبول وضواحيها بالحرية الدينية والمدنية الكاملة. وكانوا يقسمون إلى ملل طبقاً لانتماءاتهم الجنسية والطائفية. أما بطريرك القسطنطينية فتمتع من النفوذ والسلطة في ظل العثمانيين أكثر بكثير مما كان له في عهد بيزنطة.

وفي فخامة وأبهة كان يسمح بإقامة مراسم الزواج والدفن بصورة علنية. ووصلت الأمور فضلاً عن ذلك إلى حد كان السلطان العثماني نفسه وفي الأعياد الكبرى يضمن للمصلين جواً من الهدوء والطمأنينة وتوفير الحماية لكنائسهم.

فن الرسم العثماني:

لم يظهر هذا الفن إلَّا في عهد السلطان «محمَّد الفاتح» رغم إشارة المصادر إلى وجود بعض الفنانين الكفؤ. وبعد فتح القسطنطينية، استهلَّ السلطان العثماني مرحلة وافرة من الإنتاج. ودعا فنانين إيطاليين مشهورين إلى القصر السلطاني، وخلال فترة إقامتهم، أوكل إليهم إنجاز بعض اللوحات للسلطان من جهة، وليقيموا بتدريب بعض العثمانيين على هذا الفن، وكان من أشهرهم «ماستوري بافلي» و «كونستانزي دافيرّاري» و «جنتيل بيليني».

وتفتقت المواهب الوطنية عن بعض العبقريات، وأشهر الفنانين الذين تخرجوا كان «سنان» من «بورصة»، وهو تلميذ «ماستوري بافلي» وكذلك «حسام زاده» من بورصة أيضاً.

ولم يبق إلَّا القليل من الأعمال الفنية التي أُجريت في ذلك العهد، كما لا يبدو وجود رسومات حسب العرف الغربي، خلال عهود «بايزيد الثَّاني» و «سليم الأوَّل» لكن تشير الوثائق إلى أثر المدارس الشرقية الإسلامية المعاصرة، وخاصة أعمال بعض الفنانين من «تبريز» بعد عام ١٥١٤ م، بعد فتحها من قبل السلطان

«سليم الأوَّل». ولا يزال يوجد حتى وقتنا الحاضر، بعض المنمنمات تتصل بمدرسة «هرات» ومخطوطين من عهد السلطان «بايزيد الثَّاني» ابن الفاتح، أحدهما هو «خسرو وشيرين» وضعه الشاعر «شيخي».

ومن فناني ذلك العهد نذكر اثنين هما: «أحمد شبلي زاده» من «بورصة» و«بابا مصطفى»، وكان الأول تلميذاً لـ «سنان»، وبعد فتح «تبريز» من قبل «سليم الأوَّل»، جلب إلى الدولة العثمانية ستة عشر فناناً من بلاد فارس ومن «حلب»، وكان من بينهم «تاج الدين» وابنه «حسين بالي» و«حسن شلبي» المعروف جيداً لقيامه بعمليات الديكور لقصر طوب قابي[1].

وتعكس الأساليب العدّة الممارسة في استوديوهات القصر السلطاني، أثر المدارس الإيرانية، ويظهر هذا الطراز الجديد في أعمال مكرسة للتاريخ العثماني، ويبرز اسم «نصوح المطرقي» الذي رسم لوحات تمثل حملات الجيش العثماني، ومناظر القلاع والموانىء والمدن، بشكل وثائقي مستند إلى الملاحظة الدقيقة، ممَّا كان له أكبر الأثر في تطوير فن الرسم الزيتي العثماني.

وفي عهد «سليمان الأول» وصل فن المنمنمات العثماني إلى الأوج، وتشير إحدى الوثائق إلى وجود ٢٩ معلماً رساماً و١٢ غلاماً مدرباً ارتبطوا بالقصر السلطاني ومن بين الـ ٢٩ كان ١٤ أتراكاً والباقي إيرانيين وألبان وشراكسة ومولداف. وكان رئيس هذه المجموعة الفنان «شاه قولو» من «تبريز».

كان الفنان «نصوح المطرقي» أكثر كفاءة وتعدداً في البراعات، وقد قام البروفسور «حسين يارد آيدين» من جامعة أنقرة بإجراء بحث طويل عنه، ويعلم من خلال هذا الجهد أنَّ المطرقي قام على الأقل برسم ثلاثة لوحات توضيحية بخط يده، بذل منتهى السخاء في سبيل إظهارها.

كان «نصوح المطرقي» مؤرخاً ورساماً ومبارزاً رياضياً ومصمماً لبعض الألعاب، وبطل «المطرق» التي هي شكل من المبارزة بالسيوف الخشبية.

أمَّا الفنان الآخر في ذلك العهد، فهو «نيقاري» الشهير بلوحاته التي يوجد معظمها في «طوب قابي» وهي توضيحات للعمل الضخم «سليمان نامه» التي غيرت

---

(١) Turkish Miniature Painting, Metin And, p.30.

مجرى فن الرسم الزيتي التركي العثماني. ويحوي هذا العمل صوراً لحوادث أخذت دورها خلال حكم السلطان «سليمان الأوَّل»، وتبين المواهب المتآلفة معاً لأعظم الرسامين البارزين الذين وفدوا من كافة أصقاع الدولة العثمانية، وعملوا معاً في البلاط السلطاني، وأنتجوا نماذج أصبحت قدوة للفنانين المتأخرين.

ويقدم «كاتب الشيرازي» الذي اتخذ اسماً مستعاراً هو «عارفي» وثائق الحوادث السياسية والاجتماعية التي جرت خلال حياة «سليمان الأوَّل».

وكتب ورسم «عارفي» عملاً عن مآثر السلاطين العثمانيين حتى عهده، هو «شاهنامه آل عثمان» في خمس مجلدات. أمَّا عمله الآخر فهو «أنبياءنامه» الذي كتب للسلطان سليمان الأوَّل، ومنمنماته العشرة هي من نفس طراز «سليمان نامه»[١].

ومن فناني المنمنمات لذلك العصر «علي شلبي»، «مولى قاسم»، «محمَّد البورصي»، «مولى تفليس»، والإيراني «ولي جان»، وكان «أوستان عثمان» فناناً قدَّم إنتاجاً وافراً، ومن بين أعماله «هونزنامه» كذلك الفنان «لطفي عبد الله» الذي قدّم ست مجلدات عن سيرة النَّبيّ ﷺ وهي تحوي على أكثر من ٨٠٠ منمنم.

وكان القرن السادس عشر الميلادي، المدة الأكثر إثماراً في تاريخ المنمنمات العثمانية التي رسمت على الطراز التركي، ورغم أنَّ عهد «سليم الثَّاني» لم يذكر منه إلَّا فنان واحد فقط هو «رئيس حيدر» إلَّا أنَّ المنمنمات العثمانية وصلت إلى نقطة الأوج مرة أُخرى في عهد السلطان «مراد الثَّالث». ومن بين فناني ذلك العصر «علي شلبي»، و«مولى قاسم» وغيرهما، وقد ذكروا قبل قليل، وامتازت أعمالهم بالنضج، ومن بين أبرز الأعمال آنذاك «خورنامه» و«شاهنشاه نامه» المؤلفة من أشعار مكتوبة بالتركية والفارسية معاً، وتحكي توضيحاتها قصة فتوحات الجيوش العثمانية الظافرة، والنشاطات الاجتماعية المتعددة لذلك العصر، واستقبال السفراء الأجانب، وروايات للحوادث الأكثر أهمية في ذلك الزمان، وقدّمت المخطوطات التي كتبت عن الشاهنامات، وما كتبه المؤرخون وأعمال المواهب الفنية الأُخرى، للسلاطين، وكتب المؤرخون الشهيرون أيضاً، روايات عن الحملات العسكرية

---

(١) Islamic Miniature Painting - Filiz Cagman - zeren Tanind. p.58 - 59.

الموثقــة من قبل هذه الرسوم، وكان الرسم المخطوط الأكثر رفعة في هذه الفترة هو «سـورنامـه» الذي يـروي صوره مـظاهر الحيـاة اليومية والأحوال الاقتصـادية والاجتماعية العثمانية، وقد قدمه مئات الرسامين العثمانيـين. وفي هـذا العمل، تروى التدابير الاحتفالية المقامة على شرف السلطان «مراد الثَّالث» بمناسبة ختان ابنـه، وإلى جانب هـذه المخطوطـات، العديـد من الأعمال التي تجسـد صـور السلاطين. والكثير من ألبومات الرسم الزيتي عن الأعمال المهمة في تلك المدة المترفة.

وكان «عثمان» الفنان الأكثر شهـرة، ويختلف فنه عن فنـون بقية الأقـطار الإسلامية ممَّن اعتمدوا النماذج المقولبة المتكررة من غير تغيـير.

أمر السلطان «مراد الثَّالث» الفنانين رسم لوحـات عن سيرة النَّبيّ ﷺ، فأنجز عمل يتألف من ست مجلدات، وفيه مئات الصور واللوحات الـزيتية»، وتـضمنت لوحات تلك الفـترة «الشاهنـامات»، وصفـاً لحياة السـلاطين تقـدم بالوثائق، وانتصارات السلطان محمَّد الثالث، إضافة إلى النصـوص المخطوطـة والأخبار وموضوعات أدبية أُخرى.

وتظهر اللوحات تطوراً في فن الرسم العثماني، وهي توظف ألواناً مفعمة بالحيوية ويختلف اختيار اللون عن النماذج التقليدية، وعدد الألوان أقل. وأشهر فناني هذه الفترة «حسن باشا».

ووجدت في تلك الفترة ـ أي نهاية القرن السادس عشر، مدرسة فن الرسم الـزيتي في بغداد. وكـان لبغداد مـاض تقليدي طـويل في فن الـرسم الزيتي، وتطورت هذه المدرسة تحت رعاية حكام الولايات الذين يعيّنون من قبل الدولة العثـمانية هنـاك. وتمثل لـوحات الشـاعر الشهـير «فضولي البغـدادي» (المتـوفى عـام ١٥٦٢ ـ ١٥٦٣ م) ما هـو أكثر شيـوعاً من نصـوص مطوّرة إلى قصص، وموضوعات أُخرى كالتاريخ العام والتصوف وعلوم الأنساب، وأشعار لشعراء ملحميون، وقد زينت جميعها باللوحات الزيتية، وبعضها أنجز لحسن باشا حاكم الولاية.

وتدل بعض النماذج على نشاط فناني هذه المـدة أي في السنوات مـا بين ١٥٩٤ – ١٦٠٦ م وأنَّهم كانوا أعضاء في فرقة الدراويش المولوية، وتعكـس

التفصيلات المحددة آثار المدارس الإيرانية لفن الرسم الزيتي، وتبدو الألوان الفنية المستخدمة طبيعية، ورسمت بعض الكاريكاتيرات.

فن الرسم الزيتي العثماني في القرنين السَّابع عشر والثَّامن عشر:

رغم بعض الرسومات المخطوطة التي أنجزت خلال القرن السَّابع عشر، ومنها ما هو غاية اللطافة إلَّا أنَّه يمكن القول إنَّ هذا الفن كان في انحطاط إذا ما قورن بسابقه، فليس فيه عظمة المنمنمات التي وضعت في القرن السَّابق، وتدل الخطوط التوضيحية التي أُنجزت في البلاط السلطاني في ذلك القرن، أنَّها قد أرّخت على وجه العموم في عهد كل من السلطانين «أحمد الأوَّل» و «عثمان الثَّاني». ويوجد ألبوم يحتوي المناظر التي تصوّر مشاهد الحياة اليومية وتتزامن واحدة من مدارس البلاط السلطاني لتلك الفترة. مع حكم السلطان «عثمان الثَّاني» قصير الأجل. وتظهر الرسومات، وصفاً لانتصار السلطان، ومقتطفات أدبية مختارة مزخرفة بمناظر تاريخية.

نذكر من أفضل رسامي ذلك العصر «نقاش حسن» و «أحمد نقشي» و «قالندرباشا» و «مير سيد محمَّد» ويذكر «أولياء شلبي» أسماء الرسامين «بهلوان علي»، «عثمان»، «أحمد عثمان»، و «إبراهيم محمود» وذلك أثناء حكم السلطان «مراد الرابع» ويضيف إليها أسماء أخرى مثل «ترياقي عثمان» و «سولاق زاده» كأشهر رسامي مناظر المعارك الحربية. وكان السلطان «محمَّد الرابع» نصيراً للفنون، وقد ظهر في عهده وتحت رعايته انتعاش حضاري في هذا المجال. وكان من بين فناني عصره «درويش علي» الذي عمل في أدرنة، ورسام آخر يدعى «حسين جيلاني» رسم كتاباً خاصاً بسلسلة النسب «سلسلة نامة» مؤرخاً بتاريخ ١٦٩٢، وهو الآن في حوزة إحدى المديريات الرسمية في «أنقرة»، كما رسم مخطوطاً آخر في عهد السلطان «أحمد الثَّاني» وهو الآن في «فيينا». أمَّا الرسام «مصطفى نقشي» فكان مسؤولاً عن توضيح المخطوط المعروف باسم «خوتين نامة» حيث يظهر فتح «خوتين».

وفضَّل معظم فناني هذه المدة، أن يرسموا منمنمات شخصية، وكانت حواف الصور، إمَّا أن تطعم بالذهب وترتب في شكل جميل وتوضع في ألبومات، أو تكون حوافها من الورق.

وساهم نتاج القرن السابع عشر الميلادي، في بروز مشاهير الفنانين في القرن التالي وكان ذلك العصر نسبة لفن الرسم العثماني. هو عصر «التوليب». وبرعاية السلطان أحمد الثَّالث ١٧٠٣ هـ ١٧٧٠ م. أنتجت الستوديوهات السلطانية عدداً من المخطوطات التوضيحية والرسومات الزيتية، ومثلتها أعمال «عبد الجليل شلبي» المعروف باسم «لوني» المتوفى عام ١٧٣٢ م، فعكست رسوماتها الرائعة شخصيته الفنية القوية. وفي تلك المدة المعروفة بعصر «التوليب» ازداد الاهتمام والمحبة لزهرة التوليب وأصبحت تمثل الرفاهية والتبذير والرشاقة والجمال. وينسب لـ «لوني» الفنان الأدرني، مجلدين من «سورنامه» أي كتاب العيد، وقد حضّره خصيصاً للسلطان «أحمد الثَّالث». وقام لوني بتحضير ألبومين، يحتوي الأوَّل دراسة لرجال ونساء من خلفيات اجتماعية مختلفة ومتعددة، وقد كسيت بأزياء العصر، ويحتوي الثَّاني أي «سلسلة نامه» سابق الذكر على لوحات أو صور شخصية للسلاطين العثمانيين. وتميز عمل «لوني» بالبراعة والأستاذية وأناقة الخط، وحواف الصور المتعرجة المرنة والغنى في التفصيلات التي بها يمنح الثياب، والتصميمات المعقدة، وكذلك امتازت الصور بأنَّها على شكل مقولب ومنسوخ ومتكرر وأنَّها خالية من كل تعبير، وهي ملاحظة سلبية بطبيعة الحال، إضافة إلى التكلف المميز.

والرسام الآخر في ذلك القرن هو «عبد الله بخاري» وقد أتى بعد «لوني» ورسم موضوعات مشابهة لأعماله، لكنه أبدى بعض التغييرات المحددة، بكونه أكثر ميلاً إلى الطراز الفني الأوروبي، ورغم أنَّ أعمال كل من «لوني» و «بخاري» وباقي رسامي هذه الفترة، كانت ملتزمة بمبادئ الرسم الزيتي التقليدية العثمانية، إلَّا أنَّ عدداً من التفصيلات، تبدو كمحاولة لتحقيق الأبعاد الثلاثة.

وقدم بعض الفنانين المسيحيين في المجتمع العثماني عدداً من اللوحات تبين تابعيتهم لأوروبا وتزايد هذا الاهتمام تدريجياً نحو النصف الثَّاني من القرن الثَّامن عشر، واستبدل التقليد العثماني بأعمال تتطابق وتتكيّف مع مبادئ الفن الغربي. ومن هذه الأسماء «رفائيل»، «قسطنطين» و «استراتي».

وازداد الأثر الأوروبي حوالي نهاية القرن دون أن يسيطر، وكانت هذه بداية النهاية لعصر فن رسم المنمنمات. ونذكر هنا كتاب الجمال «حبانامه» لأحد الرسامين، وفيه ٣٩ منمنماً ينم عن خاصة أوروبية، وكتاب آخر لأربعين منمنماً

يقدم ملامح صور رجال ونساء من قوميات مختلفة وقد صوروا معاً في منظر واحد أخذ من الحياة اليومية، سواء في الحمام، أو منظر ولادة في الحريم أو غارة على دار جار فاسق أو نزهة جرت من قبل نساء. ويحتوي أحد الألبومات على ٩٨ صورة بالتلوين المائي لأناس مختلفين ومن أصناف عدة وهم في أزيائهم المفضّلة.

ويبدو أنَّ اهتمام فناني هذه المدة، قد انصبَّ على تصوير المناظر الطبيعية، كما في «سفارت نامه إيران» أي كتاب السفارة الإيرانية بمناظره الطبيعية الصافية لمدن مثل استانبول وطهران وغيرها، كما أنَّ الأفراد غير ظاهرين في الرسومات. والمناظر الطبيعية التي رسمت إمَّا كانت تستخدم كأرضية للصورة أو لتزيين حوافها الخارجية، أو حواف الصور الشخصية للسلاطين العثمانيين أو السفراء، مثل صورة «سليم الثالث» مع وزيره «قوجه يوسف باشا» حيث يبدو الحضور الأوروبي المتزايد، كما يبدو الأثر الغربي جزئياً في فن صورة للأميرة «فطمة» ابنة السلطان «عبد المجيد» المنفذة عام ١٨٥٠ م من قبل «روبين ماناس» افتقد الفنانون العثمانيون رقة ورهافة وصفاء الرسامين الإيرانيين، إلَّا أنَّهم امتازوا بالبساطة والنشاط والفعالية، وبينما تعتمد روح الرسم الإيراني على الاحتمالية والرومانسية والغنائية في الشعر والتكلف، فإنَّ طريقة الفن العثماني تعكس حقيقة إيجابية وواقعية محددة في عمل فنانيه. ويبدو الاستغراق في الأشكال الزخرفية المركبة والتقاليد الديكورية وخصوصاً في القصور السلطانية.

ورغم أنَّ المنمنمات العثمانية شاطرت الأساليب الفنية السابقة كالفارسية أو تركية أواسط آسيا والأساليب الفنية الغربية، إلَّا أنَّ هذه التأثيرات لم تطمس العناصر المحلية التي بقيت تمتلكها المنمنمات العثمانية من حيث الصراحة والحيوية والنشاط ممَّا لا يشاهد في فنون الرسم الإسلامية الأخرى. ومع ذلك فقد بقي الفن العثماني مشتقاً من الفن الإسلامي. إلَّا أنَّ التظليل ورسم الخطوط بغية إبراز الصورة في أبعادها الثلاثة، لم تسترع انتباه الفنان العثماني حتى ولا بقية الفنانين في الأقطار الإسلامية الأخرى[1].

Turkish Miniature Painting The ottoman Peried. Metin. And. p. 100 - 101. (١)

ويلمح المرء ملاحظة أخرى هي الغياب الكلي لانطباعات الوجه، فالوجوه تبدو غير منفعلة لا في السرور ولا في الألم أو الغضب أو الخوف، كذلك الإحساس بالحركة نادر جداً، فالصور تبدو كأنّها متجمدة إلّا أنّ جمال الرسم يبدو في انسجامه، وفي ألوانه النابضة بالحياة كألوان الأحمر والأخضر والأزرق، ومجموعاتها التي وضعت في تدرج لوني يخترق العين، وأنّ لكل موضوع لونه الخاص، كذلك الأصبغة المستعملة هي خلاصات نباتية على الغالب عوملت بصفار البيض ومقومات خاصة إضافة إلى الاستعمال الحر للأسود والأبيض وطلاء الذهب ولا يستعمل الذهب إلا لزخرفة نوافذ الصورة وحوافها وللمخطوطات.

المصـــادر

المَـرَاجِعُ العَرَبِيَّـة

- **المسلمون تحت السيطرة الرأسمالية**: تأليف محمود شاكر.
- **الكشوف الجغرافية**: تأليف محمود شاكر.
- **أسرار الماسونية**: تأليف الجنرال جواد رفعت اللخان. ترجمه عن التركية نور الدين رضا الواعظ، وسليمان محمد أمين القابلي.
- **أسرار الانقلاب العثماني**: تأليف مصطفى طوران. ترجمه عن التركية كمال خوجه.
- **الدول الإسلامية**: تأليف ستانلي بول مع تصحيحات: ترجمة محمد صبحي.
- **الغرب والشرق الأوسط**: تأليف برناردو لويس. تعريب نبيل صبحي.
- **العالم الإسلامي**: تأليف محمد رضا كحالة.
- **الطريق إلى حكم إسلامي**: تأليف محمد علي ضناوي.
- **الدعوة إلى الإسلام**: تأليف توماس آرنولد. ترجمة حسن إبراهيم حسن وشركاه.
- **المهدي والمهدية**: تأليف أحمد أمين بك.
- **الإدارة العثمانية في ولاية سورية**: تأليف عبد العزيز محمد عوض.
- **الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام**: تأليف عبد الله التل.
- **المسألة التونسية والإدارة العثمانية**: نقله عن الفرنسية عبد الجليل التميمي.
- **تاريخ الدولة العلية العثمانية**: تأليف محمد فريد وجدي.
- **التاريخ العثماني**: حكمت قفلجملي ـ تعريب فاضل لقمان.
- **العثمانيون في التاريخ والحضارة**: د. محمد حرب.
- **فلسفة التاريخ العثماني**: محمد جميل بيهم.
- **مذكرات أحمد جمال باشا**: نسخة مكتبة الأسد بدمشق.
- **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي**.
- **تاريخ الأقطار العربية الحديث**، تأليف لوتسكي.
- **تركيا** ـ من سلسلة مواطن الشعوب الإسلامية، تأليف محمود شاكر.

- **حاضر العالم الإسلامي**: تأليف لوثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض، تعليقات شكيب أرسلان.
- **الرجل الصنم ـ كمال أتاتورك**: تأليف ضابط تركي سابق ـ ترجمة عبد الله عبد الرحمن.
- **تاريخ الشعوب الإسلامية**: تأليف كارل بروكلمان ـ ترجمة نبيه أمين فارس ـ منير البعلبكي.
- **مذكرات السلطان عبد الحميد**.
- **شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي**: تأليف أنور الجندي.
- **فتح القسطنطينية**: تأليف عبد السلام عبد العزيز فهمي.
- **كيف هدمت الخلافة**: تأليف عبد القديم زلوم.
- **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**: تأليف أبي الحسن الندوي.
- **محمد الفاتح**: تأليف سالم الرشيدي.
- **مجلة العربي الكويتية العدد ٢٢٣ جمادى الثانية ١٣٩٧ هـ**.
- **مجلة حضارة الإسلام السورية**.
- **نشوء الفكرة القومية**: تأليف ساطع الحصري.
- **يهود الدونمة**: تأليف مصطفى طوران، ترجمه عن التركية كمال خوجة.
- **الحركة العربية**: **تأليف سليمان موسى**.
- **مجلة القدس العدد (٢٠) رجب ١٤٠١ هـ**.
- **مجلة النهضة الكويتية**.
- **الأدب التركي الإسلامي** ـ د. محمد عبد اللطيف هريري.
- **تاريخ الدولة العثمانية** ـ الأميرلاي إسماعيل سرهنك.
- **الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية** ـ تأليف طاش كبري زاده دائرة المعارف الإسلامية.
- **قصة الحضارة** ـ ول ديورانت إصدار جامعة الدول العربية.
- **مواهب الحق** ـ فاطمة البشرطية الحسية.
- **مختصر دراسة للتاريخ** ـ آرنولد توينبي.
- **تاريخ ابن خلدون** ـ عبد الرحمن بن خلدون.
- **الطورانية التركية، بين الأصولية والفاشية** ـ جهاد صالح.
- والدي السلطان عبد الحميد

المَرَاجِعُ الأجْنَبِيَّة

1 - Islam in modern history: W.C.

2 - Islam: A. Guillaum.

3 - The Arabs: P. Mansfield.

4 - Britannica Encyclo peadia.
Micropaedia 13: History of Ottoman Empire and Turky Micropaedia I, II, III, X.
Book of the yar 1975 - 1980.

5 - The Turkey of Atatürk: D.E. Webster.

6 - Die Welt des Islams: H. Duda.

7 - Hexagon Roche: S. Erez.

8 - Album of the Ottomans - Abdülkadir Dedeoğlu - Transtated in to English by: Ismil Ercan.

9 - Islamic miniature painting by Filiz Çagman - Zeren Taninadi.

10 - Turkish Miniature painting - the ottoman period - Metin And.

11 - Treasures of Istambul. by Ilhan aksir.

12 - Encyclopedia International.

13 - History of the Arabs: philip khitti.

14 - Islam: from the prophet Muhammad to the capture of constantinople Bernard lewis.

15 - Istanbul - Nacif keskin - Nazif Yarman.

فهرس الموضوعات

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

الباب الثامن

الباب التاسع